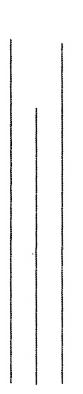


رَفْعُ مجب (لرَّحَى كُلُّ لِلْخَرِّي كِي (سِلْنَمُ (لِنَمْرُ (لِفِرُوفِ مِسِ (سِلْنَمُ (لِنَمْرُ (لِفِرُوفِ مِسِ (www.moswarat.com

رَفْعُ بعب (لرَّحِي الْمُجَنِّ يُّ رُسِلَنَمُ الْمِرْدُ وَكُسِسَ رُسِلِنَمُ الْمِرْدُ وَكُسِسَ رُسِلِنَمُ الْمِرْدُوكِ سُلِنَمُ الْمِرْدُوكِ سُلِنَمُ الْمِرْدُوكِ سُلِنَمُ الْمِرْدُوكِ سُلِنِمُ الْمِرْدُوكِ



إِنْهُ الْمُنْكِكُمُ الْمُ فِلْنُكُنْكُ الْمُعْ مِنَ المَشْرِقِ الْعَبِكِي

مِعَوُّنَ لَالْكَ بِعَ وَالْمِصَوِّرَ مَحَفَظَتَ مَا الْطَلَعِينَ الْأُولِينَ الْطَلِعِينَ الْأُولِينَ الْطُلِعِينَ الْأُولِينَ الْطَلِعِينَ الْطُلِعِينَ الْأُولِينَ الْطَلِعِينَ الْطُلِعِينَ الْمُؤْلِينَ الْطُلِعِينَ الْمُؤْلِينَ الْمُؤْلِينَ الْمُؤْلِينِ الْمُؤْلِينِينِ الْمُؤْلِينِ الْمُؤْلِينِينِ الْمُؤْلِينِ الْمُؤْلِينِي الْمُؤْلِينِ الْمُؤْلِينِينِ الْمُؤْلِينِي الْمُؤْلِيِيِي الْمُؤْلِيِلِي الْمُؤْلِينِ الْل

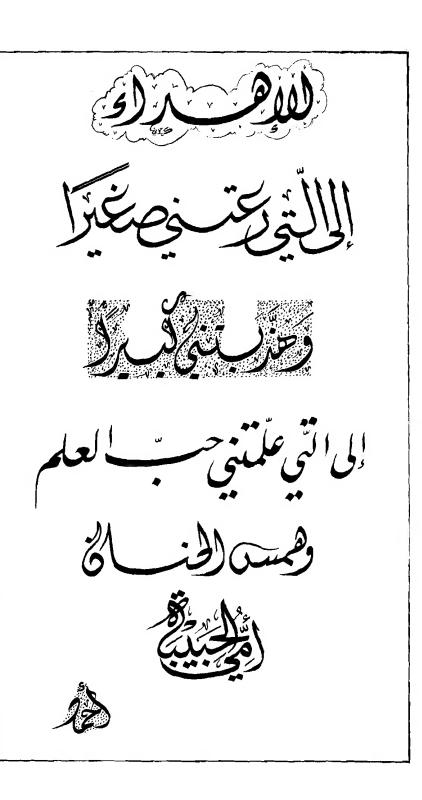


مشور برامكة بعانبالهج والحبرانات عص ب ۳۷۷ ـ تلفاكس ۲۱۲۲.۵۹ ـ ۲۱۲۲۵۵ . بيروت ـ ص ب ۵۵۸۸ / ۱۱۳ ـ تلفاكس ٤٧٥٨٥٧ ١. ـ جوال ۸۵۳۵۸ ۳. البريد الالكترونني: alyamama@scs-net.org رَفَحُ معب ((رَّجِي (الْجَرَّي (السِّكَةِ) (الِمَرْ) (الِمَرْوَ) www.moswarat.com

من المشرق العربي

تأليف *أحب خليل حميعت*ر

اليستمامة للطباعة وَالشَّدُرِ وَالتَّوذِبِعِ رمن - بردت

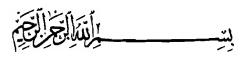


العربين عيرك

بجهود ألهلالعأمروالعفان تاريخُنايزهومدىالأزمان نشَرلًا فاصلُ في الدُّناأعلامه وسعى لدجمعُ من النّسوان لِذواتِ أهل الفضل والإحسان والسِّفرُهذامُنصفُّومؤرِّخُ وبقول ِفَصلٍ أُوبليغٍ بِسِـان ومُبيِّنُ مَنْ قدعُ فِنْ بَحِكَمةٍ مَنْأُصلحتْعَبْسًاإلىذُبيان منهنَّ صائبةُ المقالِ «بُهَيْسَةٌ " رمزُالإباءِو إن وجدُّالنَّعمان » و «عُفَيْرةً » أو عِنْبَةٌ ، كلتاها عُرْفُ السَّخاء وشاعر الفرسان وكذاكم ماويَّةٌ ، مَنْ زوجُها وتميزت بِفَصاحةٍ ولسان وفتاتُه «سقّانةٌ ،قدأسلهث بِعُذوبةِ الأشعار والإيمان وكذلك «الخنساءُ» يجلوذكها لهمامكانٌ في ذُراالتّبيان «هندُّ» و فارعةُ هامِنْنسوةٍ أو" مَنْ تُجِيبُ النَّاسَ بِالْقِرْآنِ " والعالماتُ مِن النّساءِ « تَقيّةُ » و الفاطماتُ عُرْفِنَ فِي الأعيان أو شهدة ، أو فِضَّة ، و كرية ، و الزّينباتُ ، ذواتُ فَضْلٍ ثان وكذاك «سِتُّ زمانها ، مشهورةٌ

وهناك « آمنةُ ،النّدى الهتّان و سعادُ ، ثمّ " ودادبنت عجدٍ ، جَلَّيْنَ عن علْمِورِفِعةِ شان في كلِّوادٍ قدحلَلْنَ رِياضَهُ تُتلىٰلهنّعلىٰمدىٰالأزمان سِفْرٌ أبانَ لهنّ كلّ فضيلةٍ تعبيره أندىمنالألحان وأجادفي أوصافهن محقَّتُ متألَّقًا في النَّثروالأوزا ن هو أحدُّ عَجْلُ الْخليلِ عَفْتُهُ عمّا يشينُ أمانةَ الإنسان قدكان في أخبارِهنّ مُباعدًا ومُعاديًالِرغائبِالشّيطان ومُخالفاً لِرِغابِ أربابِ الهوى وأبان زيفَ الزُّوروالبهتان فلقدأعاداكحقَّأبلجَ زاهيًا وإذا بتاريخ النساء موثق ومُنضِّرُ بالصِّدقِ والبرهان قدّمتَ مِنعلٍ بكلّ تَفنان يا « أُحُدُّ ، جُوزيتَ حيرًا بِالَّذِي أهديت للفُضراره علمًا نافعًا ونفائِسًا تعيّاعلى الحُسبان فالمخلِصون لدى أكحساب خراؤهم حُسْنُ المقام بواحةِ الرّحان عندالمليكِ بجنّةِ الرّضوان فاهْنأْ بأجْرِزائدٍيا ﴿ أَحَمدُ ﴾ هسك شعرت من محرب معداله وإلى للكييب وللبير ولمس فيسيل جعت

رَفْخُ عِبِ (لرَّحِيُّ (الْخِتَّرِيُّ (السِّكْتِي (الْفِرُوكِ فِي (سِّكْتِي (الْفِرُوكِ فِي www.moswarat.com



وبهِ أَعْشَرُ المُقَدَّمَةُ وَعَرِضُ الكِتَابِ

* الحمدُ للهِ الذي شرحَ صَدْرَ منْ تأدَّب ، ورفعَ قَدْرَ منْ تأهَّل للعِلْمِ وتَاهَّل العِلْمِ وتَاهَّل العَلْمِ وتَاكَرَب ، وعرف سِيَرَ نساءِ المشرقِ العربيّ المُحبَّب.

* أَخْمَدُهُ على نعمهِ التي جعلتِ العُلومَ بالآدابِ روضاً مُثمِراً ، وأَعْلَتْ هُمّةَ منْ كتَبَ بالقلمِ واتَّخذَ الأناملَ منْبَراً ، وأَغْلَتْ قيمةَ جواهرِه فكانت ثمناً تُباعُ به القُلوبُ وتُشْتَرىٰ. . .

* أَحْمدُهُ سبحانَهُ فهوَ القويُّ القَادر ، الوليُّ النَّاصر ، الكريمُ الغَافِر ، الباطنُ الظَّاهر ، الأوَّلُ الآخر ، الذي جعلَ العَقْلَ أرجحَ الكنوزِ والذَّخَائر ، والعلْمَ أربحَ المكاسبِ والمتَاجرِ ، وأشرفَ المَعالي والمفَاخِر ، وأكْرَمَ المَحامِدِ والمآثِر ، وأحْمَدَ المواردِ والمصَادر ، فتزيَّنَتْ بسماعهِ المحاريبُ

والمَنابر، وتقدَّم بشرفهِ طُلَّابِ العلْمِ فصَاروا من الأكَابر، واستضَاءَتْ ببهائِهِ الأسرارُ والضَّمائر، وتنوَّرَتْ بأنوارِه القُلوبُ والبصَائر...

* والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمّدِ رسوله ذي العنْصرِ الطَّاهر ، والمجدِ المُتظَاهِر ، والسَّرفِ المُتناصِر ، والكَرَم المُتقاطِر ، المؤيّدِ بالقرآنِ المجيدِ الذي لا يملُّهُ سامعٌ ولا آثر ، ولا يدركُ شأوه ناظمٌ ولا ناثر ، ولا يحيطُ بعجائبه وصْفُ واصِف ولا ذِكْرُ ذاكِر . . .

* فهو ﷺ أفصحُ ناطِق ، وأبلغُ صادِق؛ إذ كلماتُه روحُ الحياة وحياةُ الرّوح ، وبلاغتُه وأنفاسُه تندّي الرّوح ، وقد:

أَهَانَتِ اللَّذَّ حتَّى ما لَهُ ثَمَنٌ وأَرْخَصَتْ قِيْمَةَ الأَمْثَالِ والخُطَّبَا

تَ زِيْنَ مَعَ انِيْ وِ أَلْفَ اظهُ وَأَلْفَ اظُه زَائِنَاتُ المَعانِي

* يا رَبّ ، أَسْبِلْ علينا سَتْرُكَ الجميل ، وأسبغْ علينا عطاءَك الجزيل ، وامْنَحنا رضاكَ الذي هو غايةُ التّأميل ، واحْرُسْنا بعينِكَ ، وأيّدْنَا بعونكَ ، واكْنُفْنَا بعزّكَ ، وصُنّا بحِرْزِكَ ، ووفقْنا لِذِكْرِك ، وأعِنّا على حَمْدِك وشُكرِك ، فإنّه لا توفيقَ إلّا منْكَ ، ولا عونَ إلا بكَ ، ولا حراسةَ إلا لمن شملَتْه عِنايتُكَ ، ولا سعادةَ إلّا لمن وسعَتْه رحمتُك . . .

* اللهم شَفِّعْ فينا خاتم أنبيائِك محمّداً الذي شرَّفْتَ قَدْره ، وشرحْتَ بالنُّور صَدْره ، ورفَعْتَ ذِكْره ، وأَذْهَبْتَ عُسْرَه ، وأَثْبَتَّ يُسْرَه ، وملأْتَ بالنُّور سِرّه وجَهْره . . .

* اللهم صَلِّ عليه صلاةً تزيدهُ نوراً على نُور ، واجعلْها ـ يا ربّ ـ لنا تجارةً لن تَبُور ، إنّك أنتَ العزيزُ الغفور.

وبَعْد:

وَمَا زَالَ أَهْلُ الغَرْبِ يَدْرُونَ قَدْرَنَا مَتَىٰ يَذْكُرِ الأَفْضَالَ فَيْهِمْ خَطَيْبُهُمْ

وَ :

للشَّرْقِ فَضْلٌ في البَريّةِ إِنَّهُ والغَرْبُ أَظْلَمُ مَا يَكُونُ لأَنَّنَا

; ´9

الشَّـــرْقُ شَـــيءٌ مَلِيْـــجٌ فَقُـــلْ لِمَـــنْ يَـــزْ دَرِيْـــهِ الشَّـمْـــسُ تَطْلُـــعُ مِنْـــهُ وَالبَــــدُرُ يَكُمُـــلُ فِيْــــهِ (٢)

مَدَىٰ الدَّهْرِ مَا أَبْدَوا مِنَ الفَضْلِ معْجمَا

عَلَىٰ منْبَرٍ صلَّى عَلَيْنَا وسَلَّمَا (١)

يأتي الوجُودَ بِكُلِّ حُسْنِ معْجِبِ

نَشْقَىٰ بِفُرقَةِ شَمْسِنَا في المَغْرِبِ

* نَعمْ أحبّائي ، إِنَّهُ في الذَّاهبينَ الأوّلينَ منَ القُرون لنَا بَصَائر ، وفي آثارِ التّفكُّرِ في أعمالِهم وأحوالِهم ما يصلحُ الظَّواهرَ والضَّمائر؛ وإنَّ الوقوفَ على أخبارِ المَشرقيّاتِ منَ النِّساءِ ، ومَا وصَل إلينا عنهنَّ منْ أنباءِ وأسماء ، ممّا تتشوّقُ النُّقوسُ إلى الوقوفِ عليه ، وتتشوّقُ بجملتِها إليه؛ فالتَّاريخُ النَّسوي المشرقيّ ـ بخاصة ـ لا يملّه مَنْ يطالعُه ، ولا يَسْأَمُه مَنْ يُراجعه ، ولا يخلو مَنْ يقِفُ على التَّواريخِ من فائِدة ، ولا يطوي صحفَها إلاّ حصَلَ منها على صِلَةٍ وعَائِدة ، فإذا راجع التَّواريخ كان كمَنْ شَاهدَ مَنْ مضىٰ ، وعايَنَ ما جرىٰ بهِ القَدرُ عليه وقضَىٰ ، و:

كُنْ عَارِفاً بِأَحَادِيثِ الْأَلَىٰ سَلَفُوا يَرِيْدُكَ العرفُ آدَاباً عَلَىٰ أَدَبِ

⁽١) منادمة الأطلال؛ لعبد القادر بدران.

⁽٢) ولكي نُرضي أهْلَ المغربِ ، كما أرضَيْنا أهلَ المشرقِ نقولُ لهم :

الغـــربُ أَحْسَــنُ منـــهُ وَلـــيْ بهـــــذا أدلّـــه

الشمـــسُ تسعـــي إليـــه ومنْـــهُ تبـــدو الأهلّـــه

أو:

للغـــربِ فَضْـــلٌ شَهيــر وليسه ومنـــه بـــــــذاك أدلّـــه

الشمـــسُ تغـــربُ فيـــه ومنـــه تبـــدو الأهلّـــه

الشمـــسُ تغـــربُ فيـــه ومنـــه تبـــدو الأهلّـــه

فَرُبَّ نَفْعٍ غَزيرٍ لَسْتَ تُدْرِكُهُ مضَىٰ بِمَا أَغْفَلَتْه سَالِفُ الحقبِ

ارقُ مَ إِ رأْسِ القَلَ مِ مَا تَلْتَقِ ي مَ نَ حِكُ مِ فَالْعَلْمُ مَا تَلْتَقِ ي مَنْ حِكُم مِ فَالْحُلْمُ فَيُ مَا فُنُ مَ وَالْخَطُّ قَيْدٌ فَارْقُ مِ

* وفي رحْلَتي مع نساءِ المشرقِ العربي (١) ، جمعتُ في كتابي أخبارَ نساءٍ منَ الزَّمنِ الغابر ، ثمَّ عَرَّجْتُ على جملةٍ من أخبارِ نساءٍ في العَصْرِ الحاضِر ، وأودعتُ فيه فوائد جمّة ، ومعلوماتٍ مهمّة ، تشرحُ صَدْرَ العالِمِ والأديْب ، وتُونِسُ قَلْبَ المُفارقِ والحبيب ، وتُرضي البعيدَ والقريب . . .

* قالَ عبدُ اللهِ بنُ قُتيبةَ: «مَنْ أرادَ أَنْ يكونَ عالِماً فَلْيطْلُبْ فنّاً واحداً ، ومَنْ أرادَ أَنْ يكونَ أديباً فلْيتَّسِعْ في العُلوم».

* فالكتابُ خيرُ جَليسٍ ، وأفضلُ أنيسٍ ، لا يملُّ من محادثتهِ الأنيْس ، وهو أسمحُ كريمٍ بما عنْدَهُ منَ الدُّرِّ النَّفيس ، وفي هذا الكتابِ للجليْس: مَعْنَـــيُّ بَـــديْـــعُ وَأَلْفَــاظٌ مُنَقَّحَــةٌ فَـــرَيْبَــةٌ وقَـــوَافٍ كُلُّهــا نُخَــبُ

* وقَدْ ذَهَبتِ المكارمُ إلا منَ الكتابِ؛ لأنَّ فيهِ لبَّ اللَّباب ، وهو نزهةُ الأَلْبَاب ، وهو نزهةُ الأَلْبَاب ، يحتوي لطائف منْ نُزْهَةِ الآداب ، ويحمي صاحِبَه من شرِّ الأعداءِ والأصْحَاب ، وقديماً قيل: «لمْ أَرَ أَسْلَمَ منَ الوحْدَةِ ، ولا آنسَ منْ كتَاب» والكتابُ هو:

سَمِيْ رَي لا يَنَامُ ولا ينمُ حفيظٌ للَّذي يَلْقَلَىٰ كَتُومُ * بل إنَّ:

⁽١) لكي لا يأخذ أهلُ المغربِ على خاطِرهم منّا ، فإنّا سنقوم بإعدادِ موسوعة جميلةٍ طريفةٍ بعنوان: «نساء من مصر والمغرب العربي» ، وسيكونُ بإذن الله مُوازياً لهذا الكتاب.

كِتَ ابِسِي فَيْهِ بُسْتَ انِسِي وَرَاحِي وَمَنْهُ سَمِيْسِ نَفْسِسِي وَالنَّديْسِ مُ لَيُنِسِي وَالنَّديْسِ فَيُسُومُ لَيُسَالِمُنِسِي وَكُلُّ النَّاسِ حَرْبٌ لَيُسَلِّيْنِسِي إِذَا عَسرَتِ الهُمُسومُ وَيُحْيِسِي لِنِي قَصَفُّحُ صَفْحَتَيْسِهِ كِسرَامَ النَّاسِ إِن فُقِدَ الكَرِيْسِمُ وَيُحْيِسِي لِي قَصَفُ حَمَيْسِهِ فَلِسِيْ فَيْسِهِ طَسريْسِقٌ مُسْتَقَيْسِمُ إِذَا اعْوَجَّتْ عَلَيَّ طَرِيقُ أَمْرِي فَلِسِيْ فَيْسِهِ طَسريْسِقٌ مُسْتَقَيْسِمُ

* لَقَدْ نَهَجْتُ في هذا الكتاب نهجاً متميّزاً لإبرازِ دورِ المرأةِ في المشرِق ، ولإظهارِ ألوانِ آثارِها وعمِلها المونق ، ونهلْتُ منْهُ منْ ينابيعِ البراعةِ ما جرىٰ ، وأوْدَعْتُ فيهِ من سِحْرِ البلاغَةِ ما تَرىٰ:

فَجَاءَ الكِتَابُ كَسِحْرِ العُيون بِمَا رَاحَ يَسْبِي عُقُولَ الورَىٰ

* وسَلَكْتُ في طريقةِ عَرضِهِ ما تلذُّ لهُ العيونُ والأَسْمَاع ، وما يملأُ القلوبَ بالسُّرورِ والإمتَاع ، وفيه:

مَعَانٍ كَالعُيونِ مُلِئْنَ سِحْراً وأَلْفَاظٌ مُصورَّدةُ الخُدودِ

* ولكَي يكونَ كِتابُنا جميلاً كالبدرِ ليلةَ التَّمام ، قَسَمْتُهُ أَربعةَ أَقْسَام ، لِيَحْلُوَ الحديثُ ويكونَ أَجْمَل ، وَلِتَتَوضَّحَ صُورةُ المرأةِ المشرقيّةِ بشكْلٍ أَفْضَل.

* وكانَ كُلُّ قسْمٍ منَ الأَقْسَامِ الأربعةِ يمثِّلُ عَصْراً منْ عصورِ البشَرِ ، عاشَتْهُ المرأةُ وسجَّلَتْ فيهِ دوراً يُذْكَرُ ، ومَجْداً يُروىٰ ويُؤْثَرُ. ورحتُ منْ خلالِهِ أصحِّحُ كثيراً من المفاهيمِ المغلوطةِ التي وصلَتْ إليْنَا عنْ طريقِ المصادرِ ، وأَثْبَتُ الحقَّ والحقيقة لِذَوي العُقولِ والبَصَائر ، ليكونَ المطَّلعُ عليه رضيَّ النَّفْس ، مَسْرورَ الخَاطِر...

* ففي حديثنا عنِ النّساء في العَصْرِ الجاهليّ والعَصْرِ القديم ، وقَفْنا مع
 خمسِ نسوةٍ لكلّ واحدةٍ منهنّ سِمَةٌ بارزةٌ ودورٌ كريمٌ ، يدلّ عليها ، ويشيرُ
 بأناملِ الفَضْلِ إليها . . .

* فقد كانتْ «بُهَيْسَةُ بنْتُ أوس» مثالَ المرأةِ العَاقِلَةِ والزَّوجِ الحَصَان ، التي تنظرُ إلى الأمورِ بحكْمَةٍ وبيَان ، لذلكَ كانتِ السَّبَبَ في إصْلاحِ ذاتِ البين بينَ عَبْس وذُبْيَان ، بعد حربِ ضَروس دمَّرتِ الشِّيْبَ والشُّبَّان...

 « وفي سيرة «عُفيرة بنتِ عبّاد» تظهرُ المرأةُ التي ترفضُ الضّيمَ والذُّل والجُور ، وتدعو قومَها إلى التَّخلُص من الظُّلم والحيفِ والزُّور . . .

* وكانت «عنبةُ بنتُ عَفيْف» ـ أمُّ حاتم الطَّائي ـ نموذجاً للجودِ والبذْلِ والسَّخاء ، والعَطْف على ذوي الحاجاتِ وأهْلِ الشَّقاء ، فطبَّقَتْ إذْ ذَاك شُهْرتُها الجوزَاء ، وَوَرِثَ ابنُها حاتمٌ عنها صفة الجُود والعَطَاء ، فبلغ بذلكَ عنانَ السَّمَاء ، وكان أشْهَر عَصْرِه منَ الكُرماء.

* وتظهرُ «ماوِيّةُ بنْتُ عَفْزَر» _ امرأةُ حاتم _ بأنّها امرأةٌ ذاتُ رأي وحزْمٍ ، وذاتُ ذكاءٍ وحصَافَةٍ وفَهْم ، وذاتُ تدبيرٍ وقَرارٍ وعَزْمٍ .

* وَأَمَّا «المتجرِّدَةُ امرأَةُ النُّعْمان» فكانت مثالَ المرأةِ العفيفةِ الحَصَان ، وقد تحدَّثنا بالتَّفصيل والتَّحليل عمّا رانَ على سيرتها منَ الأقاويْل ، ونَبَذْنا تلكَ الأشياءَ التي لا تليقُ بامرأةِ مَلِكِ العَرب ، وتلك الأمورَ الخارجةَ عن موضوع الغيْرةِ والأدَب. . .

* وفي مُتابَعةِ رحْلتِنا النّسويةِ الجميلةِ مع نساءِ المشرقِ العربيّ ، وقَفْنا في عَصْر المُخضْرمين وقفةً لطيفةً مع أربع نسْوةٍ ، كان لهنّ كبيرَ الأثرِ في مجالاتِ الفضائلِ والمكارمِ والمحامدِ ، كالجهادِ ، والجودِ ، والأدب ، والشّعْر ، وروايةِ الأخبارِ ، ومقابلةِ سيّد الأخيارِ ، النّبيّ المُختارِ محمّدِ عَلَيْ ، وهؤلاء النّسوةُ الأربعُ اللّواتي اخترتُ سِيَرهُنّ هنّ : «الخنساءُ» شاعرةُ بني سُليم وأميرةُ شاعراتِ قومها ، و«الفارعةُ بنتُ أبي الطّائي» التي أختُ الشّاعر الشّهير أميّة بن أبي الصّلت؛ و«سَفّانَةُ بنتُ حاتم الطّائي» التي

كانت سبباً في إسلام أخيْهَا عديّ بنِ حاتم ونَظْمِه في سِلْكِ دُررِ صحابةِ رسولِ اللهِ ﷺ؛ و «هندُ بنْتُ أثاثَة» التي قارعَتْ بِشِعْرِها مشاهير النّساء في عَصْرها ، وكانت من الأصواتِ النّسويّةِ التي نافَحَتْ عنِ الإسلام وأهْلِهِ.

* ولما وضعتُ سيرةَ الخنساءِ تحتَ مجْهر البحثِ ، تحدّثْتُ عن نشأتِها وحياتِها ، ومن ثمَّ رحْتُ أشيرُ إلى بعضِ الرِّواياتِ المضطربةِ التي أُلْصِقَتْ بسيرتها ، وأفردْتُ أكثرَ من فقْرةٍ لتَصْحيحِ مفاهيمَ مُلْتوية ومشوشة ورَدَتْ في ترجمتِها ، وقد أصبحتْ عند كثيرٍ منَ النَّاس ومنَ القرّاء حقائقَ لا جَدَلَ فيها ، ولا تجوزُ المناقشةُ فيها أيضاً ، بل ولا السُّؤال عن حقيقتِها أو عن كُنْهِهَا.

* ومَنْ ذَلكَ قصّةُ حُضُور الحَنْساءِ معركة القادسيّة الشَّهيرة في تاريخِ المعاركِ الإسلاميّةِ في المشرقِ العربيّ ، وزعمَ الزَّاعِمُون أَنَّها شَهِدتْها مع بنيها الأربعةِ الأبْطَال ، وفوقَ ساحةِ القادسيّة كان كلُّ واحدٍ منْهُم ينشِدُ شِعْراً بل رجَزاً متكَلَّفاً لا رُوحَ فيهِ ولا معنى ، بل هو ضعيفُ الأسلوبِ والمبنى ، وأشرتُ إلى أنَّ الحنساء لم يكنْ لها أربعةُ بنين منْ أبِ واحدٍ ، وأنَّ هذه القصَّةَ هي روايةٌ بلْهَاءُ شَوهَاءُ عرجَاء ، تتناقلَها بعضُ الكُتب والألْسِنة دونَ تحقيقِ أو تمحيصٍ أو مناقشة ، وأظهرتُ بالدَّلائلِ والحقائقِ والقرائنِ أنَّ الخنساء الشُلميّة لم تكنْ أُمّ البنين الأربعة الذين حَضروا القادسيّة ، وخاضُوا الخنساء الشُلميّة لم تكنْ أُمّ البنين الأربعة الذين حَضروا القادسيّة ، وفازُوا غمارَها وشروا وباعُوا ، وقاتلُوا وقُتِلُوا ، وحظُوا بالشَّهادة ، وفازُوا بالسَّعادة ، ومن ثمّ تَحْمَدُ الخنساءَ الله عزَّ وجلَّ على استشهادِهم ، وتقولُ بالسَّعادة ، ومن ثمّ تَحْمَدُ المخنساءَ الله عزَّ وجلَّ على استشهادِهم ، وتقولُ بَولتُهَا المَشْهورة المزعُومة لما أنَّ بلغَها خبرهم : «الحمدُ للهِ الذي شرَّفني بقتَلْهِم ، وأرجو من ربّي أنْ يجمعني معهم في مُستَقَرِّ رحمَتهِ»!! . .!!

* ولم تكُنْ تلك المرأةُ التي شَهِدَتِ القادسيّة هي الخنْساءُ ، وإنما التي شَهدتْها امرأةٌ خَثْعَمِيَّةٌ ، قد حضَرتْها مع أولادِها الأربعةِ ، وقد ظَهَرتْ

هِمَّتُها يومذَاكَ ، إذْ راحتْ تخطبُ في بَنيْهَا وتُحمِّسُهم ، وتُضْرِي بخطابِها الجنودَ أيضاً فقالَتْ لأوْلادِها: «أيّ بنيّ! إنّكم أسْلَمْتُمْ فَلَمْ تبدّلُوا ، وهاجرتُم فلمْ تَثُوبُوا ، ولم تَنْبُ بكمُ البلادُ ، ولم تقْحَمكمُ السّنَةُ ، ثمّ جئتُم بأمِّكم ؛ عجوزٍ كبيرةٍ ، فوضعتمُوها بين أيدي أهْل فارس ؛ والله إنّكم لَبَنُو رجُلٍ واحِدٍ ، كما إنّكم بنو امرأةٍ واحدةٍ ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضَحْتُ خالكم ، فانطلقُوا ، فاشْهَدوا أوَّلَ القِتَالِ وآخِرَهُ ، ومُوتُوا كِراماً».

* وانطلقَ بنُوها الأربعةُ كَأُسْدِ الغَابةِ يخوضُون وطيْسَ المَعْرِكةِ ، فلمّا غابُوا عنها رفَعَتْ كفَيْها إلى السَّماء ، وراحتْ تدعو الله عزَّ وجلَّ وتقولُ في دعائِها: «اللهمّ ادفعْ عن بنيّ ، ولا تَجْعَلْ يومَهم قَبْلَ يَومِي». فرجعُوا إليها وهَمْ سَالمون وقدْ جاهَدُوا في اللهِ حقَّ جهادِه ، وأحسنُوا القتالَ ، ولم يُجْرَحْ واحدٌ منهم.

* ومنْ هَاهُنا اختلطَ الأمْرُ على الرُّواةِ ، فنسَبُوا هذه القصّةَ إلى الخنْساءِ ، ومنْ ثمَّ جعلُوا منها ومنْ أولادِها أبطالًا وشُهداء في القادسيّة ، وخرَّبُوا بذلك تاريخَها ، وخَلَطُوا الأُمُورَ ، وقلَّبُوا للنَّاسِ الأحداثَ وفْقَ أهوائِهم ، وما تشتهيهِ أَنْفُسُهم التي تَشْتهي التّموية والإثارة.

* ولمْ يَكْتَفِ هؤلاءِ المتخصّصُون بروايةِ الأباطيْلِ لقضاءِ الأوقاتِ بالأَسْمَار ومنعرجِ الأَخْبَارِ ، بل خَلَعُوا ـ أيضاً ـ على الخنساءِ صفة النَّاقدِ الخبيرِ البصير بالشَّعْر ، وذلك في قصّةٍ منفُوخَةٍ محشوَّةٍ بالتَّهويلِ والأَوْهَامِ ، وزعمُوا في حبْكةٍ غيرِ محبوكةٍ قصّة اجتماعِها بالشَّاعِرَيْن البليغَيْن؛ حسَّانَ بنِ ثابت ، والنَّابغة الذّبياني في بعضِ المواسِمِ بسُوقِ عُكَاظ ، ومن ثمَّ حكمَتْ على قصيدةِ حسَّانَ التي أنْشَدها أمامَ النَّابغةِ بأنَّها ضعيفةُ النَّسْجِ ، وأنَّ حسَّانَ قد أساءَ استخدامَ الكلامِ ، ولمْ يضَعْهُ في مواضِعِه الصَّحيحةِ ، وتبدو الخنساء ـ كما أرادَ الرّواةُ في هذه القصّة ـ

متغلَّبةً على حسَّانَ الذي أفْحمتْهُ ، وأسكتَتْهُ فَلَمْ يحرْ جَواباً.

وقد بيَّنَا بالأدَّلةِ العقليّةِ القاطعةِ بأنَّ هذه الأُقْصوصَةَ المنفوخةَ مكذوبةٌ مصنوعةٌ في مصانعِ بعضِ الرُّواة ، والتي لم تُحسِنْ إخراجاً سليماً ، وأشرنا إلى أنَّ بعضَ الأدباءِ وبعضَ المصنّفين قد توارثُوها عنِ الرُّواة والأخباريّين دون تحقُّق أو ثبُّتٍ؛ إنَّها أَمْسَتْ عند كثيرٍ منَ أَهْلِ الأدبِ والأَسْمار حقيقة مُسَلَّمة لاشِيةَ فيها ، بل لا تقبلُ الرَّدَّ ، أو الطَّعْنَ ، أو حتى الشَّكَ !!...

* وكانتْ شخصيّاتُ النِّساء المشرقيّات من العصرِ الإسلاميّ هي القِسْمُ النَّالثُ من هذا الكتاب ، وهي تُقارِبُ نصْفَ الكتاب ، فقد دار الحديثُ ليرسم شخصيّة بضْع عشرة امرأة استغرقتْ بضْعَة قُرون ، وكان لكلِّ واحدة منهنّ نصيبٌ في تاريخِ الإسلامِ ، ولكلّ واحدةٍ منهنّ فضيلةٌ وسِمَةٌ تُعْرَفُ بها.

* فقد تحدّثْتُ ـ مثَلاً ـ عن فضّة النُوبيّةِ ـ وهي منْ عضرِ الصّحابة ، وكانت جارية سيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها ـ وأزحتُ السّتار عمّا اكتنفَ سيرتها منْ أوهام وخُرافَات ، ومنها قصَّةٌ مزعومةٌ تشيرُ إلى أنّها صامّتْ ثلاثة أيّام كوامِل ، مع سيّدتها الزَّهْراء ، وسيّدها عليّ ، وطفليه الحسنِ والحُسينِ ، وأشَرْتُ إلى أنَّ تلكَ القصّة قد صُنِعَتْ في غفلةٍ عن أعينِ النُقّاد وذوي البصائر ، كما أنني أشَرْتُ إلى أنَّ مثل هذا القصصِ الموضُوع لا يزيدُ من رصيدِ فضّة ولا رصيدِ سيّدتها الزَّهراء شيئاً ، بل لا تُوجد فائدةٌ من تلكم وهاتيكم الأَشْعَارُ المشْعُورة المبتورة المبتورة الممهورة بختْمِ الوضّاعين ، وتلكم الأرجازُ المكسورةُ والسّقيمةُ التي حشُوا فيها تلكم الأقصوصة السّاذجة المُهلْهلة ، بل زعم بعضُهم أنَّ فضَّة النُوبية رضي الله المتعوصة السّاذجة المُهلْهلة ، بل زعم بعضُهم أنَّ فضَّة النُوبية رضي الله عنها كانت لا تكلّمُ النّاس إلّا رمْزاً ، وإلّا بآياتِ منَ القُرآن الكريم والذّكرِ

الحكْيمِ ، ونسجُوا حولَ ذلك قصّةً سُدَاهَا الوهْمُ ولحمتُها الخَيالُ لتدلَّ على سَذَاجتِهم ، ولا ترفَعُ من مقْدارِ فِضَّة شيئاً ، فهيَ رفيعةُ القَدْرِ أَصْلًا ، حظيَتْ بخدمةِ البَيْت الفاطميّ العَلويّ الحَسني الحُسينيّ ، مِنْ أكرمِ بيوتِ الدّنيا وأجلّها مقاماً ومكانةً عند رسولِ اللهِ ﷺ . .

* وفي مضْمَارِ الحديثِ عنِ التَّمويهِ في سِيرِ نساءِ العَصْرِ الإسلاميّ ، ترجمتُ للْمرأةِ الممتكلِّمةِ بَأَلْفَاظِ القُرآنِ الكريمِ ، تلك المرأةُ الغامضةُ الهابطةُ منْ فَضَاءِ الخَيالِ ، والتي لا نعرفُ لها اسْماً ولا رسْماً ولا وطَناً ولا أرضاً ، وإنّما وُجِدَتْ هكذا في حياةِ بعضِ المشاهيرِ من العُبَّاد والزُّهَّاد ، وذَكَرتُ بأنَّ قصَّتَها أطروفةٌ منسوجةٌ ، قد نَحتَها صانعُو القَصَصِ والنُّهَاد ، وذَكَرتُ بأنَّ قصَّتَها أطروفةٌ منسوجةٌ ، قد نَحتَها صانعُو القَصَصِ ونسبُوهَا إلى بعضِ المشاهيرِ ، ولكنَّه قد ثبتَ بأنَّ هؤلاء النَّسَّاجينَ والنَّحاتين لا يُجيدون صَنْعَتَهم، ولا يحسنون روايةَ الأخبار ، ولا تنسيقِها.

* ويجدُ القارىءُ الكريمُ أنَّ أمثالَ هذا القَصَصِ يخالفُ الدِّيْنَ ، ويخالفُ الدِّيْنَ ، ويخالفُ الممتقولَ ، وإلا فما معنىٰ أنْ تجيبَ امرأةٌ عن أيِّ سُؤالِ بَآيةٍ منَ القُرآنِ قد لا تتوافَقُ مع مضمونِ السُّؤالِ وصيغتِهِ؟! فهلْ هذا يُعَدُّ منَ البلاغةِ والحكْمةِ وفَصْلِ الخِطَاب؟! أو يُعَدُّ منَ المفاخرِ والكراماتِ الجَليّة أو المقامَاتِ العَليّةِ؟!.

* وممّا يدعو إلى العجبِ والاستغرابِ أنّ كثيراً من النّاس ، ممّنْ تهوي أفئدتُهم إلى مثلِ هذا القَصصِ الأجوفِ الطَّنَان ، وتهوى أمثالَ هذه الحكاياتِ المُسليةِ ، وممّن يدَّعُون الثَّقافةَ والاطّلاعَ ، قد انطلَتْ عليهم حكاية المرأةِ المتكلّمةِ بالقُرآن ، واستحوذَتْ عليهم ، وحظيَتْ باسْتِحْسَانِهم ، فاسْتَظْهَروها ، وتَفَاصَحُوا بِهَا في بعضِ الجلسَاتِ والمُناسَبَات ؛ لا بلْ إنَّ بعضَهم قد صنَعَ منها مادَّةً دسمةً ، ورواها على المنبرِ في خُطبةٍ منْ خُطبِ الجمُعةِ ، وكانتْ _ بزعمه _ خطبةً قَعْسَاء ، هزَّ المنبرِ في خُطبةٍ منْ خُطبِ الجمُعةِ ، وكانتْ _ بزعمه _ خطبةً قَعْسَاء ، هزَّ

فيها قُحوفَ المصلّين هزّاً ، وشدَّ أنفاسَهم وحركاتِهم فلا تكادُ تَسْمَعُ لهم رِكْزاً ، وجعَلَهم يُعْجَبُون ويَعْجَبُون من هذهِ المرأةِ الأعجوبةِ التي سجَّلَتْ ـ كما أرادَ الرُّواة ـ هذا الأثرَ المؤثِّرَ والأثيرَ في التَّاريخ النَّسوي المشرقيّ ، بل سجَّلَتْ أثراً في نفوسِ المشَارقةِ والمغَاربة . !!

* ومثْلُ هذا كثيرٌ في دُنيا النَّاس وحياتِهم ، وأستطيعُ أَنْ أَضربَ أَمثلةً كثيرةً على ذلك ، من مثلِ قصّة أبي يزيد البسطامي مع الرَّاهب ، وهي قصَّةٌ منسوجةٌ متكلَّفةٌ لا طائلَ من ورائِها ، وتشبه _ إلى حدِّ ما _ ما نراهُ في أيّامنا هذه منْ مسابقاتٍ ومفاجآتٍ في التّلفزيون والمحطّاتِ الفضائيّةِ العديدةِ ، أو وسَائلِ الإعلامِ الأخرى المتنوّعة . . .

* ومنَ الغريبِ والأغْربِ في هذا الأَمْرِ أنّني سمعْتُ أحدَ الخُطَباءِ الذين مَلوُوا الدُّنيا بأصواتِهم ، وشغَلُوا النَّاسَ بنبراتِهم ، يشدو بِقصّةِ أبي يزيد البسطامي على المنبر ، ويُبيِّنُ ما فيها من إعجازٍ وإنْجازٍ حقَّقَهُ أبو يزيد!!! ولعلَّ جمهورَ المُصَلّين كان يعضُّ شفتَيْهِ إعجاباً بهذهِ الأقْصُوصةِ والأكذوبةِ المصنوعةِ ، والموشّاةِ بالطَّرافةِ والمُفاجآت ، وكذلك نجدهم معجبين بأكذوبةِ المتكلّمةِ بالقُرآن ، أو صائِمةِ الدَّهْر ، أو شَافيةِ المرضىٰ ، أو مَنْ سَعَتْ إليها الكعبةُ فطَافَتْ حولَها ، أو ما شابَه أمثالَ هذه الأشياء من تَهْويلِ متحبيلِ ، واستخفافِ بالعُقول ، وللهِ درُّ محمد منير الحَمويّ الشَّاعر المِفَنَّ حيثُ يقول:

لَكَ ن الحُسَّادَ بَغْياً زَعَمُ وا زَوَّرُوا الدُّنْيا سِجِلًّا بَاهِتاً هذه الدُّنْيَا سَلُوهَا شَاهِداً قَدْ تَوَرَّيَ نَ بِجِلْبَابِ التُّقَدىٰ

صَادِقَ الطُّهْرِ تَرَدَّىٰ في الضَّلَال فَشَكَا التَّاريخُ مِنْ ذاكَ الماَل عَنْ نِسَاءٍ كُنَّ رَمْزاً لِلْكَمَال وَامْتَلَكْنَ الفَضْلَ في طيْبِ الخِلاَل

* وفي مَعْرِضِ الحديثِ عنِ النِّساءِ المشرقيّاتِ من العَصْرِ الإسلاميّ ،

أوردتُ ترجماتٍ لِطَائفةٍ منَ النّسُوةِ اللواتي حلَّقْنَ في فَضَاءِ العِلْم ، وحفلْنَ في روايةِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف ، وروايةِ صحيح البُخاري ، وكان لهنَّ أكبرَ الأثرِ في عَصْرهنَّ وغيرهِ ، وتخرّجَ آلافٌ منَ العُلماءِ في مَدارسهِنّ التي تُعَدُّ جامعات للْعِلْمِ والمعرفة؛ كما أنّني نوَّهْتُ إلىٰ أدبِ بعضِهنَ ، وإلى ما جادَتْ به قرائحهنَّ في مَيْدانِ الشِّعْرِ وروايةِ الأَخْبارِ والآثارِ ، وإملاءِ الكُتُب والمصنَّفَاتِ النَّافعة ، من مثل: «شُهْدةُ بنت الإبْريّ» ، و«فاطمةُ بنتُ الأَقْرع» التي اشتهرتْ بجودة الخطّ وجمالِهِ ، حتى ضربَ النَّاسُ المثلَ بخطِّها ، ونسجُوا على منوالِهِ.

* ومنَ الجديرِ بالذُّكْرِ أنَّني قد لفتُّ النَّظرَ إلى الخطَّاطَاتِ منَ النِّساء عبْرَ تاريخهنَّ المشرقيّ ، وأشرتُ إلى اللائي اقتفينَ أثَرَ «فاطمةَ بنتِ الأقرع» ومثيلاتها في مجالِ الخطُّ ، وروايةِ الحديثِ النَّبويِّ الشَّريف ، وذكرتُ جماعةً ممن برعْنَ في التَّحديثِ والرِّواية ، كالفَواطِم من مثل: «فاطمةُ بنتُ أحمد الحرازيّة» ، و «فاطمةُ بنتُ إبراهيم البطائحيّة» ، و «فاطمةُ بنتُ سَعْد الخير» ، و «فاطمةُ بنتُ سُليمان الأنصاريّة»؛ ومن الزَّيانب: «زينبُ بنتُ أحمد المقدسيّة» ، و «زينبُ بنتُ محمّد الغزيّة» ، وكذلك نساء أخريات عالمات من مثل: «تقيّةُ بنتُ غيث الصُّوريّة»، و«ستُّ الوزراء بنت عمر التّنوخيّة» ، و«كريمةُ بنتُ أحمد المِروزيّة» ، وغيرهنّ ممن ستجلَو هذه الصَّفحاتُ سِيرهنَّ في مختلفِ الفَضَائلِ ، وممن جمعْنَ عُليا الشَّمائل ، ك «شُهدةَ بنتِ أحمد الإبريّ» الملقّبة بفخرِ النّساء ، والتي برعَتْ في ميادينَ شتّى من المعارفِ والمكارم ومحاسنِ الخصَائِل والحصَائِل ، فقد كانت شُهدةُ هذه ورعةً ، عالمةً ، محدّثةً ، كاتبةً ، خطّاطةً ، أديبةً ؛ وكانت أستاذةً لأكابرِ علماءِ الدُّنيا في عَصْرِها من مثل: «الحافظ ابن عسَاكر ، وابن الجَوزي ، والسَّمعاني ، وغيرهم ممن نَبَهَ صِيْتُهم ونبغَ شأنُهم في شتّى ميادين العُلوم. ويُضَاف إلى ذلك كلّه أنّ لِشُهدةَ مروياتِ حديثيّة تَصِلُ بِسَندِها إلى رسولِ اللهِ ﷺ، وكانت كذلك شاعرةً محسنةُ تجيدُ النَّظمَ وفنونَه ، ولها في هذا المجال آثارٌ حِسَانٌ تدلُّ على بلاغتِها ونباهتِها.

* وممًا يُسْتَحسنُ ذِكْرُه في هذه المقدّمة ، أنني قد ضمّنْتُ كِتابي جُملةً صالحةً لا بأس بها مِنْ أَشْعارِ النِّساءِ ونَفَثَاتِهنَّ ونفحاتِهنَّ وهَمَساتِهنَّ وأقوالِهنَّ ، من مثل: «الخنساء» الشَّاعرة الصَّحابية المشهورة بفنَ الرّثاءِ والفخرِ والحمّاسِ. و"هند بنت أثاثة» الصَّحابية المُؤمنة المُجاهدة ، والتي نافَحتْ عن الإسلام بلسانِها ، ونَقَضَتْ شِعْر غيرِها منَ النساء لتكونَ رايةُ الإسلام عالية خفاقة مشرفة مشرقة. و"عفيرة بنت عبّاد» الشَّاعرة الثَّائرة البليغة ، والتي كان لشعرها أثرٌ في إشهارِ الشيوفِ والرِّماح. و«فاطمة بنت اللهيغة ، والتي كان لشعرها أثرٌ في إشهارِ الشيوفِ والرِّماح. و«فاطمة بنت الأقرع» الأديبة الحصيفة صاحبة البيان المونق. و"تقية بنت غيث الصورية» فات المشاعر الرقيقة ، والشِّعر العذبِ الأنيقِ الرقيق الذي يشبهُ أنسامَ الربيع في روضٍ مُزْهر. و «زينب بنت محمّد الغزيّة» العالمة الكاتبة القارئة في روضٍ مُزْهر. واختتمتُ عقد الشَّاعرات بترجمة «زينب بنت يوسُف فواز» الشاعرة ، والمؤلّفة ، حيث أوردتُ كثيراً من أشعارِها في مختلفِ الفُنون ، وسائرِ المُناسباتِ.

* وبهذا يضم كِتَابنا هذا أشعاراً نسويّةً يمكنُ أَنْ يُسْتخلصَ منها كتابٌ وحْدَهُ ، يجمعُ الأنفاسَ الشّعريّةَ النّسائيةَ ذات الأغراض المختلفة ، والألوان المتعدّدة.

* ويُضافُ إلى هذا أيضاً أنَّ كتَابنا احتَوى بعضَ الآثارِ النَّسويَّة في مجالِ النَّقْد ، وفَنِّ النَّثر (١) ، والمقالة ، والحكمَّةِ الصَّادرةِ عن ربَّاتِ الخُدورِ ،

⁽١) من الناثرات في هذا الكتاب: فاطمة بئت الأقرع، وشهدة بنت الإبري ، وزيئب بنت=

وقد وشَّيْتُ بها أَكْنَافَ الكتابِ ، بحيثُ يصبحُ تحفةً نادرةً ، وسِفْراً عسيرَ المنَال ، نادرَ المِثَال. لذلك أَذَكِّرُ أحبابي القُرّاء ، وأَذْكُرُ لهم قولَ القائِل ، إذا ما أعارُوا هذا الكتاب ، أَنْ يقولُوا لِلْمُستَعير:

إِذَا اسْتَعَرْتَ كِتَابِي وانْتَفَعْتَ بِهِ فَاحْذَرْ وقَيْتَ الرَّدَىٰ مِنْ أَنْ تُغَيِّرَهُ وَارْدُدْهُ لِي سَالِماً إِنِّي شُغِفْتُ بِهِ لَوْلا مَخَافَةُ كَتْمِ العِلْمِ لَمْ تَرَهُ

* وفي القسْمِ الرَّابِعِ والأخيرِ من كتابِنا كان الحديثُ عن اثنتين من نساء العَصْرِ الحاضِر ، حيثُ تحدَّثُتُ عنهما ، وعن دور كلّ واحدةٍ منهما في الحياةِ ، وفي المجتمع الذي تعيشُه وعن الآثارِ المباركةِ الطَّيِّبة التي خلَّفتُها.

* وفي الرّ علق النّسوية مع نساء المشرق العربي المُعاصِرات ، جَذَبَتْني ثنايا الآدابِ الزّينبيّةِ الفَوَّازيّةِ ، فأبْحرَتُ مع الأديبةِ الفاضلةِ في الأدبِ والمعرفةِ السّيدة «زينت بنت يوسف فوّاز» ، التي أَبْحَرتْ في النّشر والشّعْر ، فكانَتْ من الأوانِسِ الكاتباتِ الشّاعرات الرّاويات المؤلّفات الأديبات المترسّلات الواعيات؛ وكانت من ذواتِ الأثر الطّيّب في أديباتِ عَصْرِها ممن كُنّ في الشّام ولُبُنان ومصْر وغيرِها. وقد جمعتُ من أخبارِها وآدابِها شيئاً يبلُّ الصّدى ويروي الغلّة ، ومن ثمّ يُعطي صورة واضحة والمالمح والمَعالم عن هذهِ المرأةِ التي ملأتْ دُنيا الأدبِ ، وشغَلَتْ الملامحِ والمَعالم عن هذهِ المرأةِ التي ملأتْ دُنيا الأدبِ ، وشغَلَتْ المالامِ ورواياتِ المجلّات ، كما شغَلَتْ أقلامَ الأدباءِ ، والنّاء ، وتقريظِ ما تُؤلّفُ من كتُبٍ ورواياتٍ ومقالاتٍ متنوّعة. وسيجدُ القارىءُ في سيرتها أشياءَ أخرى تسرّهُ ، وتضيفُ الى رصيدِه المعرفيّ ما تلذّ له عينه.

* وقد كانَ الحديثُ شائقاً جميلًا عن سيِّدةِ النَّاثراتِ النَّاقداتِ

يوسف فواز، ووداد بنت محمد سكاكيني، وقد أوردت للأخيرتين نماذج تبلّ الصدى.

"وداد بنت محمّد سكاكيني" أميرة قاصَّاتِ العَصْر ، وسيّدة النّساء في النَّقْدِ والنَّشْر ، فقد كانتِ الرِّحْلةُ في رياضِ أدبِها رحلةً مفيدةً مزْهرةً ، اجتَنَيْنا من آدابِها ما نعطِّر به المجالس الأدبيّة ، وما نزيّن به الآداب النَّسويّة ، وتعرَّضْنا إلى ذِكْر مناهِلِ ثقافتِها ، وإلى أساتذتِها الأعلام ، وأفضْنا الحديث عن آثارِها التي تشهدُ لها بعلوِّ المكانةِ الأدبيّةِ والثَّقافيّةِ ، وبالتّمكّنِ من ناصيةِ العربيّةِ وخصوصاً التراث القديم ، وهذا كلُّه جعلها من رائداتِ الأدبِ النّسوي في المَشْرقِ العربيّ ، ومن مشاهيرِ النِّساء في عالم المعرفةِ ، بل كان لها أوليّاتٌ مشرقةٌ لم تبلغها امرأةٌ مشرقيّةٌ معاصرةٌ. ويكفيها منَ الفَخْرِ أنّها انتقدتْ نقداً علميّاً صحيحاً كِبارَ الأدباءِ والنُّقاد في مصْرَ والشَّام ، ولن أذهبَ ببهاءِ سيرتها الآن ، فسيجدُ القارىءُ عنها ما يزيدُه إكباراً لها بإذن الله.

* والآن ، فإنني أرجو الله عزَّ وجلَّ أَنْ أَكُونَ قَدَ وُفَقْتُ في نَظْمِ هذه الباقَةِ الجميلةِ المُزهرة ، من رياضِ نساءِ المشرقِ العربيّ في مختلَف العُصُور والأزمان ، فلقد حرصتُ كلَّ الحرصِ أَنْ تكونَ هذه الأزاهرُ مُنْتَقَاةً انتقاءً مَدروساً وهَادفاً ومُفيداً ، وأَنْ تكونَ هؤلاء النِّسوةُ وخصوصاً اللواتي عشْنَ في ظِلالِ الإسلام _ قدوةً طيّبةً لِنِسائِنا وبناتِنا وأخواتِنا وكافّةِ نساءِ عَصْرِنا وما يتْلُوهُ من عُصور ، وأَنْ يقتفيْنَ آثارهنَّ الحِسان ، فيكُنَّ منْ ذَوَاتِ الشَّأن ، على مرّ الأَزْمَان .

* كما أنَّني أرجو الله عزَّ وجلَّ أنْ ينفعَ بهذا الكتابِ ، وأنْ يجعلَه في صحيفةِ أعْمَالي ، وأعمالِ أحبّائي القُرّاء الذين يحبّون الحقّ وأهْلَه ، والحقيقة وأهلَها؛ ويسْعَون وراءَ الحقّائقِ يَسْتجلونَها ، ويبثُّونَ مشَاعِرَهُم

 ⁽١) هناك معلومات مهمة عن هذه الأديبة الكبيرة ، وافتني بها ابنتها الأديبة الحصيفة السيدة سماء زكي المحاسني ، فلها مني الشكر الجزيل.

الصَّادقة الرَّقيقة عبْرَ رسائِلهم ، أو عبرَ الهاتِفِ ، وآمُلُ أَنْ يجدُوا في هذا الكتابِ النَّفعَ والفائِدة ، والخيرَ والبركة ، وأَنْ يتابعُوا معي طريقَ الحقّ ، فيبعثُوا بِنَقْدِهم عمّا عَزبَ عني أو فاتني ، أو فيما وقعْتُ فيهِ من خَطأ ، لأنَّ الإنسانَ مهما حرصَ على العِلْمِ ، فسيجدُ مَنْ يفوقُهُ ، ﴿ وَفَرَقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسُف: ٧٦].

* وأودُّ في هذا العرضِ أَنْ أُذَكَرَ أَهْلَ العِلْمِ والمعرفةِ (١) ممّن يُنْزِلُونَ النَّاسَ منازِلَهم _ بالعَناءِ الذي تَجشَّمْتُهُ في تأليفِ هذا الكتابِ وجَمْعِ أَشتاتِهِ ، وبالزَّمَنِ الذي قضيتُه بينَ المصادرِ والمراجِع _ ولا أنيسَ سواها _ في الليَالي الطَّويلةِ التي يسْتَسلِمُ فيها النَّاسُ إلى النَّوم ، وفي الأوقاتِ التي يخلُدون فيها إلى الرَّاحةِ والهدوء.

* فقد عُدْتُ إلى مئاتِ المصادرِ والمراجع ومظانّ المعرفةِ ، ليخرجَ

⁽۱) كما أنّني أذكّرُ أولئكَ الذين يَسْطُونَ على فِحْرِ أَهْلِ العِلْمِ ، وتمتدُّ نفوسُهُم قَبْلَ أيديهم إلى أعمالِ غيرِهم ، وهم يَحْسَبُون أنّهم يحسِنُون صُنعاً ، وأنّهم سيكونون من ذُوي المكانةِ العِلْميّةِ في مجتمعِهم وبين معارفهم ، وربّما يتأبّطُ أحدهُم محصول ما سَطَا عليهِ في كتابٍ عليهِ اسْمُه ، ومن ثمَّ يعرضُهُ على بُسَطاءِ النَّاس ليوهمهم بعلمِه وسعة اطّلاعه. ولكنّا نقولُ لهؤلاء الذين عجزوا عن التّأليف: ماذا لو عرف أهلوكم ومعارفكم حقيقة أمركم؟ فهلُ تكونُ المكانة هي هي ، أو قريبةٌ منْ هي؟! ونذكّرُ هؤلاء أيضاً بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَ ٱلّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوا وَيُجِبُّونَ أَن ونذكَرُ هؤلاء أيضاً بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَحْسَبَنَ ٱلّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوا وَيُجِبُّونَ أَن يَعْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَهُم بِمَفَاذَةٍ مِّنَ ٱلْمَذَابُ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيدٌ ﴾ [آل عمران: يُحْسَمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَهُم بِمَفَاذَةٍ مِّنَ ٱلْمَذَابُ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيدٌ ﴾ [آل عمران: يُحْسَدَابُ أَلِيدُ أَلِيدًا فَلَا مَعْسَبَنَهُم بِمَفَاذَةٍ مِّنَ ٱلْمَذَابُ وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيدُ أَلَا اللهُ عَلَى اللهُ عَلَاهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَولُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَرَابُ أَلِيدُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَالَهُ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَيْ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَيْ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهِ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَلَى اللهُ ال

ـ صحيحٌ بأنَّ العلْمَ مشَاعٌ لمن يطلبُه ، ولكنْ ليسَ على حسابِ من يَسْهرُ الليالي ، ويتعبُ ويجتهدُ ، ليخرجَ مصنَّفاته للنَّاس على صورةٍ تُرضي الله أولاً ، ثمّ لما ينفعُ النَّاس وينتفعُ به طلاب العِلْم .

ـ إِنَّ بعضَ المُتَعالَمين الآن ممّن يغيرونَ على أعمالِ غيرهم ، سيكونون عالةً على النّاس ، فضلاً عن أهل العلْمِ ، فليتقِ اللهَ هؤلاء ، فإنَّ حبْلَ الكذب قصير ، والنّاقدَ بصير ، وإلى الله المصير . . .

رقغ حب لاتريم لاهجتري لاسكت لانين لانيزودك www.moswarat.com

هذا الكتابُ في ثوبٍ قشيبٍ ، ومضمونٍ مُفيد.

* وكانَ في أوَّلِ المصَادر وفي مقدمتها: كتابُ الله عزَّ وجلَّ القرآنُ الله عزَّ وجلَّ القرآنُ الكريمُ ، حيثُ كتابُ اللهِ هو الموردُ الأهْنَىٰ ، والمنهلُ الأسمىٰ ، والمعينُ الأَسْنَى ، ﴿ وَإِنَّهُ لَكِنَبُ عَزِيزُ ۚ إِنَّ لَا يَأْلِيهِ ٱلْبَطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِةٍ ـ تَنزِيلُ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصّلَت: ٤١ ـ ٤٢].

* ثمَّ قفَّيتُ بِكُتُبِ التَّفسيرِ ، إذ هي معينٌ وموردٌ ثُرٌ تروي الظَّمآن إلى المعرفة والعِلْم ، وفيها كثيرٌ من الفوائدِ المُهمّةِ ، والقَبَساتِ القيّمةِ التي تجلُو الحقائق ، وتزيدُ من قيمةِ الكتابِ ، وتوضّحُ ما اسْتَغْلقَ علينا فَهْمُه ، وتدلُّ على منابعِ الخيراتِ ، ومطالعِ المَسَرَّات ، وكان في مقدّمتِها: تفسير الطَّبري ، الماورديّ ، القرطبيّ ، الخازن ، البغويّ ، الكَشَّاف ، ابن كثير ، البحر المحيط ، التفسير الكبير للرّازي ، وفتح القدير للشّوكاني ، وغير ذلك من التّفاسيرِ العديدةِ التي ذكرتُها في حواشي الكتاب ، بالإضافةِ إلى المصادرِ المتنوّعة التي تُعنى بعلوم القرآن الكريم وأحكامِهِ.

* وكان ثالث المصادر المهمة في عَملي: كتب الحديثِ النّبويّ الشّريف وعلومه ، فهي الموردُ العذْبُ الفُراتُ ، والينْبُوعُ السَّلسبيل ، بعد التّنزيل ، وهي تحفلُ بكثير من الفوائدِ والمعارفِ التي تجلو الحقائق ، وتُلقي عليها الأضواء ، وبالتَّالي فإنَّها ترفعُ من قَدْرِ الكتابِ ومكانتِهِ ، وكان في مقدّمتها: الصَّحيحان ، كُتب السُّنن الأربعة ، المسانيد ، المصنّف ، مجمع الزَّوائد ، وغيرها من دواوين الحديث النّبوي وعلومه.

* وتأتي كتبُ السِّيرة النَّبويّة مورداً غنيّاً في هذهِ الموسوعةِ ، حيثُ وقفْنا وقفْنا وقفْنا وقفْنا وردَتْ في وقفاتٍ كاشفاتٍ عند بعضِ الأحداث ، وعند بعضِ القَصصِ التي وردَتْ في ثناياها ، والتي أوضَحَت معالمَ وصورَ شخصياتٍ نسويّة أردْنا إبرازَها.

وذلك ليكونَ كتابنا أوثق وأقربَ إلى الدّقّة والصّحّة. ومن أهم كتُب السّيرة التي وشّينا بها كتابنا: السّيرةُ النّبويةُ لابن هشام ، وعيونُ الأَثَر لابن سيّد النّاس ، والسّيرةُ الحلبيّةُ ، بالإضافةِ إلى كتُبِ المغازي ، وما يتصل بالسّيرة النّبويّة من شروحاتِ لها ، ودراسات حولَها ، وما يتعلّقُ فيها من فقْه وأحْكَام.

* ورجَعْنا إلى كتُبِ الطُّبقَات والسِّيَرِ والتَّراجِم ، وسَبَرْنَا أغوارَها ، وامتطَيْنا مثنَّها ، وتنقَّلْنَا فيما بينها ، وعشْنَا زمَناً في فنائِها ، فهي مصادرُ في غايةِ الأهمّية لبناءِ شخصيّات النِّساء في هذه الصَّفحات ، وفيها معلوماتٌ أساسيّةٌ لا غنى للباحثِ عنها ، لأنّها ترسمُ المعالمَ العامَّةَ للشّخصيّةِ المترجمة ، وتوضّحُ كثيراً من الأحداثِ في حياتها ، وتبرزُ أهمَّ السِّمات فيها من علْم ، وفقْهِ ، وروايةٍ ، وأدبٍ ، ورحلةٍ في طَلَبِ العلْم ، وما شابهَ ذلك ، وكانت هذه المصادر المهمّةُ هي هيكلَ الكتابِ وبناءه ، وروضَهُ ورياضَهُ ، وهي كثيرةٌ جدّاً لا تُحْصَرُ في هذا التَّقديم وهذا العَرض ، إلا أنَّنا نذكرُ منها: طبقات ابن سَعْد ، والاستيعاب لابن عبد البرّ ، وأسُّد الغابة لابن الأثير ، والإصابة لابن حَجر ، وسِيَر أعلام النُّبلاء للذَّهبيّ ، ووفيَات الأعيان لابن خَلِّكَان ، ومعجم الأدباء لياقوت الحمويّ ، والوافي بالوفيَات للصّفديّ ، وتهذيب الأسماءِ واللغات للنَّوويّ ، وفوات الوفيَات لابن شاكر الكُتبيّ ، وتاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، وتاريخ بغداد للخطيب البغداديّ ، والمُنتظم لابن الجوزي ، وشذرات الذّهب لابن العماد الحنبليّ ، وتهذيب التَّهذيب لابن حجر ، وأعيان العَصْر وأعوان النَّصر لصلاح الدّين الصَّفدي ، وأنساب الأشراف للبلاذريّ ، والرّوضة الفيحاء لياسين العمريّ ، والدُّرّ المنثور لزينب فواز ، وأعلام النّساء لكحّالة ، ثمّ طبقات الحنابلةِ وذيله ، والعبر وذيله ، ومرآة الزّمان وذيله ، وغير ذلك كثيرٌ جدّاً ممّا يجدُه القارىءُ الكريمُ مبثوثاً في حنَايَا الكتابِ وثناياهُ ، وبينَ أضَالعِه وزوايَاه.

* وأمّا كتُبِ الأدبِ فهي بستانُ هذا الكتابِ وأيكُه ، وزهرُ أقاحيهِ وثمرُ مُشْتَهيه ، وينبوعُه النَّرُ العذْبُ ، وغديرُه السَّلسبيل ، فقد حفلتِ المصادرُ الأدبيةُ بِزَهْر الآدابِ وثمرِ الألباب ، وروضةِ المحبّين ونزهةِ المشتاقين ، كما أنّها اهتمّتْ بكثيرِ منَ الأخبارِ والأحداثِ المهمّة التي تُغني كتابَنا ، وتجعلُه غزيرَ المادّة ، كثيرَ الفائدة ، وكم من فائدة وشاردة قبَسْتُها من كتُبِ الأدب لَم أجِدْهَا في المصادرِ الأخرى! ومنَ المصادرِ الأدبيّة التي رجَعْنا إليها: الأمالي للقالي ، وسمْطُ اللّالي للبكريّ ، والكاملُ للمبرّد ، وعيون الأخبار لابن قتيبة ، والبيانُ والتبيين للجاحظ ، والعِقْدُ الفريد لابن عبد ربّه ، وزهرُ الآداب للحصريّ ، والعمدةُ لابن رشيق ، والأغاني للأصفهاني ، ومعاهد التَّنصيص لعبد الرحيم العبّاسي ، ونهايةُ الأرب للنّويري ، وغيرها ومعاهد التَّنصيص لعبد الرحيم العبّاسي ، ونهايةُ الأرب للنّويري ، وغيرها كثير جدّاً ، ولا يمكنُ أنْ يُحْصَرَ هنا أو حتّى في قائمةِ المصادرِ والمراجع ؛ ولكنّا ذكرنا أشْهَرها لِيَتَفَكّهَ القارىءُ بها ، ويشمّ شذاها ، ويستمتع بعبيرِها وأندائها .

* ولمّا كان التّاريخُ هو المعْيَارُ والمقياسُ لِرسْمِ شخصيّات وتراجمَ الكِتَابِ ، فإنّا قد حفلنا بِمصَادرِ التّاريخِ ، وجعلناهَا الميزانَ لِعَملنا ، فَكُتُبُ التّاريخِ مادّةٌ دسِمةٌ ، وجانبٌ مهمٌ ؛ إذْ لا يستَغْني أيّ باحثٍ عنها ، بل لا يستطيعُ أنْ يغْفلَها أو يتجاوزَها ، لأنّها تضيءُ أمامَه معَالمَ الطّريق في إبرازِ الشّخصيّات ، وتُعطي صورةً جلية للْعَصْر الذي عاشَتْ فيه الشّخصيّةُ التي يُترجَمُ لها ، وكذلك تُعيْنُه في ربْطِ الأحداثِ وتوثيقِها وتقريبِها إلى الأذهانِ ، بل تُعينُه أيضاً في رسْمِ الملامح العامّةِ للشّخصيّة ورسْمِ أبرزِ قسماتِها ، وما أحاطَ بها من شخصيّات أخرىٰ ، وآراء وأحداث وأمور تفتحُ قسماتِها ، وما أحاطَ بها من شخصيّات أخرىٰ ، وآراء وأحداث وأمور تفتحُ

كثيراً من منهمات التَّرجمة. ومن المصادر التي رافَقْناهَا واعتَمْدنَا علَيْها: تاريخ الطَّبريّ ، والكامل لابنِ الأثير ، والبداية والنِّهاية ، وتاريخ الإسلام للذّهبيّ ، ومروج الذَّهْب للمَسْعُوديّ ، وتاريخ اليعقوبيّ ، وجمهرة أنسابِ العربِ لابن حَزْم ، والمفصّل في تاريخِ العرب قبلَ الإسلام لجواد علي ، وغيرها كثيرٌ كثيرٌ.

* وتمثّلُ كتُبُ اللّغةِ والمعاجمِ جانباً مُهمّاً في هذه الرِّحلة في عالم النِّساء المشرقيّات؛ إذْ فيها توضيحٌ لبعضِ المفرداتِ ، وإيضاحٌ لبعض المعاني ، وشرحٌ لبعضِ الأعلام والأسماءِ واللّغاتِ والأماكنِ ، كما أنَّ في بعضِها مفاتيح لرسمِ الشَّخصيّات المترجمةِ ونُبذة عنها ، ومن هذه المصادر: القاموسُ المُحيط ، وتاجُ العروس ، والصّحاحُ للجوهريّ ، ولسانُ العرب ، ومُجمَل اللّغة ، والمقاييسُ في اللغة ، وأساسُ البلاغة ، والمصباحُ المنيرُ وغيرُها.

* وفي واحَاتِ دواوين الشُّعراءِ والشَّاعراتِ ، وكُتُبِ الحَماسةِ ، كانتْ لنا محطَّاتُ أنيقةٌ ، ووقفاتُ كثيرةٌ ، حيثُ اقتطفْنَا من أزَاهرِهَا ما زَيَّنَا به الكتابَ ، وقد وتَّقْنا ما قبسنَاه منْهَا ، فدواوينُ الشُّعراءِ والشَّاعراتِ تُمثِّلُ شطْراً مُهمّاً من مصَادرِنا في بناءِ هذهِ الموسوعةِ ، ولا يمكنُ للباحثِ في هذا المحبَال إلا أنْ يبحرَ معَها ، ويغوصَ في أعماقِها ، ويستخرجَ منْ لُؤلؤِها ومرجانِها ودُررِهَا ما ينظمُ به حليةً جميلةً يتزيَّنُ بها مَنْ أحبَّ أنْ يزيدَ في رصيدِه الأدبيّ والمعرفيّ ، وكانتِ الدَّواوينُ كثيرةً جدّاً ، أثبَتنا بعضَها في رصيدِه الأدبيّ والمعرفيّ ، وكانتِ الدَّواوينُ كثيرةً جدّاً ، أثبَتنا بعضَها في ألمصادر بنهايةِ الكتابِ، وأشرنَا إلى بعضِها في الحواشي والتَّعليقات.

* وهناك مصَادرُ كثيرةٌ جدّاً ، وفيها معارفُ متنوّعةٌ ، وكانت من الأساسيّاتِ في عملنا ، ولا نستطيعُ أنْ نغفلَها ، لأنَّ أثرهَا كبيرٌ في ثنايا الكتابِ ومنها: كتبُ الأمثالِ ، وكتبُ المعارفِ ، وخزانةُ الأدبِ ، وشرحُ

مَقَامَاتِ الحريري ، والآدابُ الشَّرعيةِ ، وسرحُ العيون ، والجليسُ الصَّالح الكافي ، والغيثُ المُسْجَم ، ومعجمُ البُلدان ، ومعجمُ ما استعجم ، والأمكنةُ والأزمنةُ ، وغيرُ ذلك ممَّا لا يُسْتَقْصىٰ في هذا المقام ، ولكن يجدُ القارىءُ الكريمُ بغْيَتَه في الكتاب.

* ولا بدَّ منَ الإشارةِ إلى مصادرَ وينابيعَ ثقافيةٍ مهمّةٍ في عصْرِنا الحاضِر، وهي: المجلّاتُ ، والجرائدُ ، والإصداراتُ ، ووسائلُ الإعلامِ المتنوعة الكثيرة التي غدتْ جزءاً منْ حياةِ النَّاسِ في هذه الأيّامِ ، بل غدتْ روح حياةِ كثيرين ، فهي حديثُ مجالِسهم ومجالسُ أحاديثهم. وقد أصبحَتْ هذه الأشياءُ من مكملاتِ الأبحاثِ والكُتُبِ والمصنّقات ، وقد عُدْنَا إلى كثيرٍ منها ، وكُنَّا نَجدُ صعوبةً كبيرةً ومشقّةً بالغة في العُثُور على عُدْنَا إلى كثيرٍ منها ، وكُنَّا نَجدُ صعوبةً كبيرةً ومشقّةً بالغة في العُثُور على بعضها ، وخصوصاً عندما رسمنا شخصيّة زينب فوّاز ، ووداد سَكاكيني ، ولكنًا قد حصَلْنا على بعضِ الوثائقِ المُفيدة منها في توضيحِ ورسْم شخصيّة هاتين الأديبتين المعاصرتين. وسيجدُ القارىءُ الكريمُ مصداقَ ذلك عندما يقرأُ ترجمتهما في هذا السِّفْرِ المُسْفر عمّا تحمّلناه من عناءٍ وجهدٍ في تنسيقِهِ بهذهِ الصُّورة التي يراها أمامَه ، وذلك لكي يأخذَ كتابُنا ـ كأسْلافه ـ مكانه ومكانتَة في قلُوب أهلِ الحقّ ونفوسِ أهلِ الحبّ ، وفي المكتبةِ النَّسويّةِ التي لا تزالُ تشكو من الهُزَالِ إلى عَصْرِنا الحاضر ، عصْر المعلوماتِ وغزارةِ العُلُوم والمعارف.

* ويُضَافُ إلى ذلك كُلّه ، أنّني عندما بدأتُ أجمعُ معلومات هذا السِّفر ، أخذتُ أطوفُ على المكتباتِ العامّة هنا وهناك ، وأذهبُ من مدينةٍ لأخرى ، وكنتُ ألاقي الألاقي ومراراتِ العذاب _ أحياناً _ وأنا أسعىٰ وراءَ جَمْعِ المعارف والمعلومات ، بيد أنَّ حلاوة البحثِ كانت تسهِّلُ الطَّريقَ وتيسَّرُ الأمْر ، وتجعلُ مرارة العذاب تتلاشىٰ عندما أظفرُ بما أبتغيه.

* ولم يتوقف عملي هذا عند ذلك الحدّ ، بل كنتُ أستقي المعرفة من مكتباتِ العُلَماء والأدبَاءِ ، وأستفيدُ من تجاربِهم ، وأقبسُ من معارِفهم ، فكم من عَالِم باحثٍ قدّمَ إليَّ بعض المعلوماتِ بِنَفْسِ راضيةٍ ، وهو يرجو مرضاة اللهِ عزَّ وجلَّ ، وكمْ من أديبٍ نفحني بمعارف كانت خافيةً عليَّ وغائبةً عني ، فأزالَ عنها السِّتار ، وقرَّبَها وقدَّمَها مجلوةً في أبهى صُورة (١٠). . فجزاهمُ اللهُ خيرَ الجزَاء . .

* وأودُّ أيضاً أنْ أشيرَ إلى ناحيةِ مهمّةِ وجميلةٍ في هذا الكتابِ ، فأَلْفِتَ نظرَ القارىء إلى التّعليقاتِ والحواشي التي تزخرُ بالمعرفةِ ، بل إنَّ هناكَ بعض المعلوماتِ والمعارفِ الجديدة والمُفيدةِ التي سيلحظُها القارىءُ الكريم ، بالإضافةِ إلى بعضِ تراجمِ الأعلام التي تزيدُ من رصيدِ الكِتَاب المعرفي ، وتزيدُ من قيمتِهِ الأدبيةِ والعلميّةِ ، وخصوصاً بعض الشَّخصيّاتِ المعاصرة منَ الرِّجال والنِّساء ، ممن وجدتُ صعوبةً بالغةً في الحُصولِ على معلوماتٍ وافيةٍ وصحيحةٍ عنهم ، وقد جُبْتُ كثيراً من الأماكن التَّقافية ، وزرتُ عدداً من المتخصّصين في المعرفةِ رجالًا ونساءً من أجل ذلك ، ومَنْ شَاءَ أَنْ يَجِرِّبَ مَا لَقَيْتُهُ مِن عَنَاءِ وَجَهِدٍ وَمَالٍ ، فَلْيَنْتَضِ قَلَمه ، وليُرهَفْ تفكيرَهُ ، ولْيَسْعَ وراءَ الكتُبِ والمصَادرِ والمعارفِ المتنوّعةِ والمتباعدةِ ليجدَ مصْدَاق ما قُلتُه ، وسيصادفُ ما صادفْتُه ، وسيلقى المتاعبَ والمصاعبَ ، وشُحَّ المراجع ، وصعوبةَ البحث فيها ، واستخراج المعلوماتِ المناسبة في هذا المجالِ الذي يبدو سهلاً قريبَ المتَناول بادىء الأمرْ ، ولكنَّه عسيرُ المنال ، صعبُ المُرتقى ، متشعّبُ السُّبل ، وعندها

⁽۱) من هؤلاء الأدباءِ والباحثين الأساتذة: يوسُف علي بديوي؛ وراضي صدّوق، وهزاع عيد الشّمّري؛ وغيرهم كثيرون. وإن كنتُ أنسىٰ فلا أنسى الأديبة الحصيفة السّيّدة سماء زكي المحاسني ابنة وداد سكاكيني التي قدّمت شيئاً كثيراً ومفيداً.

يدركُ تماماً مدى ما أجدُ في نظمِ هذه الكتُب التي يجدُهَا سهلةً هينةً لينةً ، قريبةَ المتناوَلِ بين يديه ، تُعطيه من رحيقِ شَهْدِها ما يغذّي الألْبَاب ، ويتحفُ بها ذوي الأحْسَاب والأنساب.

* وختَاماً أودُّ من القارىءِ الكريم أنْ يخصَّني بدعوةٍ صالحةٍ منه في ظَهْرِ الغيب إنْ وجَدَ فائدةً في هذا الكتاب ، كما أرجو منه أنْ يتجاوزَ عن الزَّلل ، فالإنسانُ خطَّاءٌ ، والكمالُ للهِ وحْدَه ، وقد حرصتُ على اتّباعِ الصَّواب وتحرّيه قَدْرَ المُستطاع ، طالباً من اللهِ العونَ والتَّوفيقَ والسَّداد.

* اللهمَّ علِّمنا ما ينفعنا ، وانفَعْنا بما علَّمْتَنا ، وزِدْنا عِلماً يا ربَّ العَالمين .

* اللهمَّ وفَّقْنا لِما فيهِ مرضاتك ، ولما فيهِ الخير والفَلاح ، في حياتِنا ومعادنا ، واغفرُ لنا وارحمنا.

* اللهمَّ اجعلنا ممّن يستمعون القولَ فيتّبعون أحْسَنه.

* اللهمَّ اهْدِنا إلى الطُّيِّبِ من القَول ، واهْدِنا إلى الصِّراطِ الحميد. .

﴿ رَبُّنَا لَا تُؤَاخِذُنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأُنَّا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب أحمد بن خليل جُمعة الحرستاني الدمشقي دمشق ـ حرستا ـ حي الشيخ موسى ٢ ذي الحجة ١٤٢١ هـ





الباب الأوّل نساءً من العصر الجاهلي

> بُصيبة بنت أوس عُفيرة بنت عباد عِنبته بنت عفيف عِنبته بنت عفيف ماويّت بنت عف زر المتجرّدة امرأة النّعمان









بمحيسته بنت أوسس

- * عاقلة ، حصيفة ، مُنجبة ، ذات شأن ومكانة مرموقة.
- * زوجها الحارث بن عوف ، سيد العرب ، والمحب للسلام ، والداعي إلى الصفاء والإخاء.





المَرْأَةُ والرَّوجُ الكُفء:

* كان العربُ في عَصْرِ الجاهليّة يَجْرُونَ على نظامِ الزَّواجِ منَ العشيرةِ ، ومن غيرِ العشيرةِ ، ومن غيرِ العشيرةِ ، بَيْدَ أَنَّهم كانُوا في بعضِ الأحايين والأوقات يُؤثرونَ الاغتِراب ، لأنَّ الغرائبَ أَنْجَبُ.

* وممّا رغّبَ العربَ الأقحاحَ في التّسرّي ، أنّ أولادَ القريباتِ عندهم ضَاويُّون ـ أي نِحاف مَهْزُولُون ـ ، وفي الحديث: «اغتربُوا لا تَضُووا»؛ أي تزوّجُوا الغَرائبَ لئلا تَضُوىٰ أولادُكم وتضعُف وتَهْزُل ، وقيل: معنى الحديث: انكِحُوا في الغَرائب دونَ القرائب، فإنّ ولدَ الغريبة أنجبُ وأقوىٰ ، وولدَ القرائبِ أضعفُ وأضوى "ومنه قولُ الشّاعر:

فَتَى لَـمْ تَلِـدْهُ بِنْتُ عَـمٌ قريبةٌ فَيضُوىٰ وقَدْ يَضُوىٰ سليلُ الأقَارِبِ

* وقيل: معناه تزوّجوا في الأجنبيّات ، ولا تتزوّجوا في العمومة ، وذلك أنَّ العربَ تزعُم أنَّ ولدَ الرَّجُلِ من قرابتهِ يجيءُ ضَاويّاً نحيفاً ، غير أنَّه يجيء كريماً على طبعِ قومهِ ، قال الشَّاعر يدعو على شخصٍ اسمه عُبيد تزوَّجَ قريبتَه «ميّة»:

ذاكَ عُبيــدٌ قَــدْ أصَــاب ميّــا يـــا ليتَــه أَلْفَحَهــا صَبيّــا فحملـــث فـــولَـــدَت ضَـــاويّـــا

% وقال الشاعر:

تَنحيتُهـا للنَّسْـلِ وهـيَ غـريبـةٌ فَجَاءَتْ به كالبَدرِ خِرقاً مُعَمَّما(١)

* ومعنى: «لا تضووا»: أي لا تأتُوا بأولاد ضاوين ، أي ضُعفاء ، الواحدُ ضَاوِ، ومنه: «لا تنكِحُوا القرابةَ القريبةَ فإنَّ الولدَ يُخْلَقُ ضاويّاً»(١).

⁽۱) لسان العرب (٤٨٩/١٤)؛ ومحاضرات الأدباء (١/ ٣٢٩) ، مع الجمع والتصرف. ومعنى «خرق» كريم الخليقة. و «معمم»: سيد.

* وفي أمثالِهم: (النَّزائعُ لا القَرائب). قالَ ابنُ السَّكِيت: (النَّزيعةُ: الغريبةُ ، لأنَّ الغريبةَ أنْجَب).

* ونظرَ عمرُ بنُ الخطّاب _ رضي الله عنه _ إلى قومٍ من قريش صغارِ الأجْسَام ، فقال: (ما لكم صغرتُم)؟

قالوا: قُرْبُ أُمّهاتِنا من آبائنا.

قال: (صدقْتُم ، اغتربُوا). فتزوّجُوا في البُعداء فأَنْجبوا(١).

* وممّا جادت به قرائِحُهم في الزَّواج من النَّجيبات الغريباتِ قولُ شاعرِهم:

فتى لم تلده بنت عم قريبة فيضوى وقَدْ يضوى رديدُ القرائبِ تعلَّمَ مِنْ أَعْمَامِهِ البَّاسَ والنّدى وورَّثَه الأخوالُ حُسْنَ التّجارِبِ هو السَّأْن أَبناءُ النّساءِ الغَرائبِ (٢) هو السَّأْن أَبناءُ النّساءِ الغَرائبِ (٢)

* وقال آخر:

أندرَ مَنْ كانَ بعيدَ الهم ترويم أولادِ بناتِ العمم فَلَيسَ نَاجٍ منْ ضَوى وسُقمِ وأنْتَ إِنْ أطعَمْتَه لا ينْمي (٣)

* وقال غيره:

ألا فَتَى نَالَ العُلا بهمّه له ليس أبوهُ بابن عمم أمّه الله فَتَى نَالَ العُلا بهمّه الله المحمّلة المحمّلة ال

محاضرات الأدباء (١/ ٣٣٠).

⁽٢) انظر: جمهرة الأمثال (١/ ٥٣) بتصرف يسير.

 ⁽٣) انظر: محاضرات الأدباء (١/ ٣٣٠)، والمعاني الكبير لابن قتيبة (١/ ٥٠٢) مع
 الجمع والتصرّف.

 ⁽٤) تاج العروس (١٠/ ٢٢١) ، ومعنى «أُمّه» هنا: قَصَده من: أمَّ.

* وافتخرَ شاعرٌ بأنّ أُمَّه غريبةٌ ولكنَّها نجيبةٌ:

مَكّنني بيتُ رفيع وجُرْأَةٌ وَخَالٌ كعُرْبَانِ النّجومِ نَزيْعُ (') * ولعلَّ السَّببَ الرّئيسَ الذي زيّنَ للعربِ الأقحاحِ أَنْ يغتربُوا ، هو عقيدتُهم أَنَّ الاغترابَ يقوي النَّسل جسميًا وعقليًا ، وأَنَّ الاقترابَ يضعفُه ؛ يقول الدّكتور علي عبد الواحدِ وافي ما مفادُه: (وهذا النِظامُ الذي سارَ عليه العربُ في الاغترابِ في الزَّواج ، يشبهُ ما كانَ سَائداً في بعضِ الدُّولِ المسيحيّةِ الأوربيّةِ ، إذ كانت تحرّم التزاوُجَ بينَ أولادِ الأعْمامِ والعمّاتِ ، والأخوالِ والخالاتِ ، وما زالَ العرفُ الأوربيُّ ـ بعد إباحةِ الزَّواج بِهِنَّ ـ يفضل غيرهن عليهنَ (').

* وقد دلّلَ على صَوابِ الاغترابِ أبو حيّان التَّوحيدي ، وذكر (بأنَّ ترابَ الأرضِ إذا حُوِّل وقُلِّب زكَتِ الزُّروع ، فإذا كان الاغترابُ يُؤثّر منَ التُّراب إلى التُّراب ، فالأوْلىٰ أنْ يؤثّرَ الإنسانُ بالاغترابِ ، لأنَّ الإنسانَ أيضاً من تُراب) (٣).

⁽۱) المعاني الكبيرة لابن قتيبة (١/ ٥٠٢)، ومعنى: «خال كعربان النجوم»: أي: واضح النسب شهير كالنجم السافر.

⁻ ومن المفيدِ ذكْرهُ هنا أنَّ العربَ كانوا يُؤثرون الغريبة المنجبة ، وليستِ الأمة الجارية ، فقد حكىٰ أبو عبيد أنَّ سليمانَ بنَ عبد الملك قد نَدِمَ عند موتِهِ ، وكان أرادَ أنْ يجعلَ الخلافة في ولده ، فلم يكن له يومئذِ منهم مَنْ يصلُحُ لذلك ، إلا مَنْ كان من أولادِ الإماء ، وكانوا لا يعقدُون إلا لأبناء المهاثِر الحراثر . قال الجاحظُ : «كان بنو أميّة يرون أنَّ ذَهَاب ملكهم يكونُ على يدِ ابن أمّ ولَد ، ولذلك قال شاعرهم :

ألم تَسرُ للخلافة كيفَ ضَاعَت بسأن جُعِلَت لأبناء الإماء». (مجمع الأمثال ١/ ٢٢) بتصرف يسير.

⁽٢) الأسرة والمجتمع (ص ٤٧) ، مطبعة البابي الحلبي بالقاهرة ، ١٩٤٥ م.

⁽٣) الإمتاع والمؤانسة (١/ ٩٥).

* ثمَّ جاءَ العلمُ الحديثُ ، فعزَّزَ ما عرفَهُ العربُ بالتّجرِبةِ ، ذلك بأنَّ الوراثةَ في رأي كثيرٍ منَ العُلماء أعظمُ مؤثّرٍ في الحياة ، بل هي مجرى الحياة نفسه ، لأنَّ كلّ كائنٍ حيّ نتاجُ أبوَيْن؛ وما أصدقَ قول (مئتاني): (يا لَها من قوةٍ خطيرةٍ تلك القطرةُ المنوّيةُ الدَّقيقةُ التي تتكوّن منها ، فتنقلُ إلينا صفات آبائنا الجسميّة وأفكارهم وميولهم)(١).

* وإذاً ، فقد كان العربُ على صوابٍ في إيثارِهم الاغتراب في الزَّواج ، يقولُ العالم النّفسي (إلْدِنْ مُور) Elden Moore (يجبُ علىٰ الرّجُل أَنْ يحذرَ حين يتزوّج ابنةَ عمّهِ أو عمّته أو خالِهِ أو خالتِهِ ، لأنَّ هذا الزَّواجَ الدَّاخلي قد يسبّبُ ضعفاً في الجسمِ أو العَقْلِ ، أو يجرُّ بعض الأمراضِ كالسِّل وغيرِه؛ والسَّببُ الذي يوجبُ الحذر في الزَّواج أنَّه إذا كان الزَّوجان جيدي الصّحة والعقل كان النَّسلُ مثلَهما ، وإذا كانا ضعيفي الجسم ، أو غبين ، أو بهما نَقْصٌ ما نَسَلا أولاداً ضِعافاً أو مُخْدَجين) (٢).

* ومن خلالِ درسنا ودراستنا للزَّواج عند العربِ ، اتَّضح لدينا أنَّ لاغترابِ العربِ في الزَّواجِ دوافع ذات أهمّية كبرى في حياتِهم ، إذْ إنَّ المصاهرة بين قبيلتَيْن تَصِلُهما برباطٍ من المودّة والتّحالف ، أو ربما تزيدُ ـ في بعض الأحايين ـ ما بينهما من محبّةٍ وتآلف.

* وقد يكونُ الزَّواجُ ـ أحياناً ـ من قبيلةٍ أخرى دليلٌ على الفتوةِ ، وعلى الرّجولةِ ، وحسنِ الأُحْدوثة ، كما سنقرأُ ذلك في سيرة الحارثِ بنِ عوف المرّي الذي تزوَّج بُهَيْسةَ بنتَ أوس بن حارثةَ الطّائية (٣) ، ضيفتَنا اليوم ،

⁽١) في التربية لعلي عبد الواحد (ص ١٥٥).

⁽٢) نقلاً عن المرأة في الشعر الجاهلي (ص ١٦٣).

 ⁽۳) الأغاني (۱۰/۳٤۳_۳٤۳)؛ والمستطرف (۲/۲۲۲ و۲۲۳)، وأعـلام النّساء
 (۱/ ۱۵۵_۷۵)، ومصادر أخرى كثيرة.

تلك المرأة التي أسفرتْ عن عَقْلِ وذكَاءٍ ، وحكمةٍ وهُدوء.

* ومن المُطربِ والمثيرِ في أخبارِ العرب في العصور السَّالفة قُبيل الإسلام ، أنّهم قد بالغُوا في تخيّر الأزواج لبناتِهم ، وقد دقّقَتِ الفتياتُ أيضاً في اختيارِ واصطفاءِ أزواجهنّ ، كما تحرّىٰ الرّجال أيضاً زوجاتٍ متسماتٍ بصفاتِ النَّجابة والأصالة ، والذّكاء والفضائل ، وحذّروا من وجودِ صفاتٍ مذمومةٍ في الزَّوجة (١).

* وكانت الفتاةُ العربيّةُ الحصيفةُ ، وآلُها الحكماءُ يهشّونَ للخاطبِ الكُفء ، وينزلونَه في بيوتهم منزلاً كريماً لطيفاً ، ويلبّون خطبتَه ، ولا يردّونه خائباً إذ هو ذخر لفتاتِهم ، وحصنٌ حصينٌ لها ، وعزٌّ لهم.

⁽۱) من الصَّفاتِ المذمومةِ في الزَّوجةِ: السَّفَاهة والحُمق ، فقد تحامىٰ العربُ المرأة الحمقاء ، لأنّها تلدُ الحمقیٰ؛ جاء في وصيّةِ أكثم بن صيفي إلى طبيء قوله: «... وإياكم ونكاحُ الحمقاء ، فإنَّ نكاحَها غَرَر ، وولدها إلى ضياع». وكذلك قال الحارثُ بنُ كعب لبنيه: «إياكم والورهاء وتجنّبوا الخَرقاء». وفي الحديث الشّريف: «لا تتزوّجوا الحمقاء ، فإنَّ صحبتَها بلاءٌ ، وفي ولدها ضياع» و «لا تسترضعوا الحمقاء فإنَّ لبنها يغيرُ». وقال عمرُ بنُ الخطاب _ رضي الله عنه _: «لم يقمْ جنينٌ في بطنِ حمقاء تسعة أشهرٍ إلا خرجَ مائقاً». (السُّنن الكبرى للبيهقي ٧ ٤٦٤)؛ و(المبسوط للسَّرخسي ١٩/١٥).

⁻ وتحامىٰ العربُ كذلك نوعاً من النِّساءِ يخدعُ مظهرهُ ، ويسوءُ مخبره ، وهذا النَّوع هو النّسوةُ اللاثي مُنِحْنَ وسامةً وقسَامةً ، لكنهنَّ نشأْنَ في بيئةٍ لا تُغَذَّىٰ بأخلاقِ فاضلة. يقول أكثمُ بنُ صيفي: «لا يغلبنكم جمالُ النّساء على صراحةِ النَّسب ، فإنَّ المناكحَ الكريمةَ مدرجةُ الشّرف». ويحسّ الشّاعر أنَّ الخسَّة قد تأتي منَ الأمّ والخالة ، لأنَّ وراثة الشّرة قوية ، فيقول:

فأدركُنَهُ خالاتُه فخذ لُنَهُ الآواج بالمرأة الآية التاشئة في لؤم وخسة فقال: وحذّر أكثمُ بنُ صيفي ابنَه منَ الزّواج بالمرأة القرية النّاشئة في لؤم وخسّة فقال: «يا بني إيّاك واختيار اللثيمة بما عندها منَ المالِ ، فإنَّ المالَ يذهبُ به ، ويبقى في حالك اللؤم الذي لا يغنيه شيء».

بذلك نصح حصنُ بنُ حذيفة بن بدر أولادَه عندما قال لهم: (أنكحوا الكفءَ الغريبَ ، فإنَّه عزُّ حادث).

* وأوصى قيسُ بنُ زهير النّمرَ بنَ قاسط بعد أن تزوَّج منهم وجاورهم بقوله: (لا تردُّوا الأَكْفَاء عن النِّساء فتخرجوهنّ إلى البلاءِ ، فإنْ لم تجدوا الأَكْفَاء فخيرُ أزواجهنّ القبور).

* وكانتِ المرأةُ العربيّةُ الحصيفةُ تراعي أنْ يكونَ الزَّوجِ عربياً عزيزَ الحانب؛ لأنَّ العربَ كانوا ذوي حميّةٍ وأنفةٍ واعتدادٍ بالنفس والجنسِ إلى حدِّ كبير ، فقد كانوا _ وما زال بعضهم _ يرون أنّهم أرقىٰ الأممِ وأصْفاها ، فليس هناك شعبٌ بكفءٍ لأنْ يصهرَ إليهم ويناسبَهم.

* وكان كثيرٌ من الأمم يجري في ذلك مجرى العربِ الأقحاح في ذلك ، فالعبريون ـ مثلاً ـ كانوا يحرمون تزويج الكنعانيين وغيرهم؛ لأنهم اعتقدوا أنهم شعبُ اللهِ المختار. واليونانيون كانوا أيضاً لا يزوجون شعباً آخر ، لأنهم أطلقوا على غيرهم من الشُّعوب كلمة (بربر) ، ونظروا إليهم على أنَّهم دونَهم؛ وأيّد فلاسفتُهم هذه النَّظرية ، فأرسطو يرى أنَّ اليونانَ وحدهم مزوّدون بالعقلِ والشَّجاعة ، ومَنْ عَداهم من الشُّعوبِ (بربر) مزوّدون بالعقلِ والشَّجاعة ، ومَنْ عَداهم من الشُّعوبِ (بربر) مزوّدون بالشَّجاعة وحدها. وكذلك كان الرُّومان ، فقد أصدر الإمبراطور (فالنتيان) قانوناً بعقوبةِ الإعدام على كلّ رومانيّةٍ تتزوج بغيرِ روماني (۱۰).

* وتشدَّدَ العربُ في حظرِ تزويج غير العربي الصَّريح وإن كان مَلِكاً مُطاعاً ذا تاجِ وصولجان ، ومن أمثلةِ ذلك أنَّ النُّعمانَ ملك العرب رفضَ بإباءِ وكبرياء أنْ يزوّج ابنته حرقة بنت النّعمان لملكِ الفُرسِ كسرى بن هرمز ، وكان من نتائجِ هذا الإباء النُّعمانيّ العربيّ الأبيّ أن قتلَ كسرى

⁽١) انظر كتاب: الأسرة والمجتمع (ص ٣٣ ـ ٣٥) بتصرف يسير.

النُّعمانَ ملك العرب، ثم قامتْ حربُ ذي قار التي انتصرَ فيها العرب وأظهروا مكانتهم (١).

* وكان العربُ إذا أقدمَ عربيٌّ على تزويج عِلْج سخرَ منه العرب واحتقروه ، ولاموه لوماً عنيفاً ، وازدروا فعلتَه ، قال الأسعرُ الجُعْفي في هجاءِ أبي حُمْران:

باعُوا جَوَادهم لِتَسْمَنَ أُمُّهم ولكي يعودَ على فراشِهم فتَى على على فراشِهم فتَى على على فراشِهم فتَى على على قرائد على على فراشِهم فتَى على على فراشهم فتَى على قبا فرائد على فراشها تَرى على على فرائد في الله على فرائد في الله في الله

* وظلَّتْ هذه النُّزعَةُ ساريةً عند بعضِ النَّاس حتى في الإسلام (٢) ، علماً بأنَّ الإسلامَ قد قضى على نزعةِ العصبيّة الجنسيّة ، وأحلَّ محلَّها الدِّيْنَ في الكفاءَةِ والتَّقُوى...

* وكانت ذكيّاتُ النِّساء منَ العربِ في عَصْر الجاهليّة يعرفْنَ من أين تُؤكّلُ الكتِفُ في الزَّواجِ ، فقد كانتِ المرأةُ وأهلُها يتوخّون فيمن يخطبُ إليهم مميزات خاصّة أيضاً ، لأنَّ الزَّواجَ رباطٌ وثيقٌ مأمولُ الدَّوام ، ولأنَّه

⁽١) للمزيد من خبر هذه المعركة راجع تاريخ الطبري (٢/ ١٥٠).

⁽٢) منْ أمثلةِ ذلك أنَّ عقيلَ بن عُلَّفة كَانَ شديدَ العجرفةِ والبذْخِ بنَسَبهِ في بني مُرّة، لا يرىٰ أنَّ له كفئاً ، وقد صاهرتْه قريشٌ وحلفاؤُها وأشرافُها ، منهم: يزيدُ بنُ عبدِ الملك ، وسلمةُ بنُ عبد الله بن المغيرة، ويحيىٰ وخالدُ والحارثُ أبناء الحكم بن أبي العاص. ولما خطبَ إليهِ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لأحدِ بنيه ، وكانت لعقيل إليه حاجةٌ ، قال: أما إذ كنتَ فاعِلاً فجنبْنى هجناءَكَ.

فهو لا يرفضُ غيرَ العربي فحسب ، وإنّما يرفضُ مَنْ أمُّهُ غير عربيّة. وكذلك يرفضُ أحدَ الأغنياء لأنّه هجين ، وإنْ كانَ ذا مالِ كثيرٍ ؛ وفي هذا يقول :

لعمري لئنْ زوّجْتُ منْ أَجلِ مالِهِ أَانكُ عَبِدُ اللهِ اللهِ عَلَيْهِ عَلِيهِ اللهِ عَلَيْهِ اللهِ اللهِ اللهِ أَنْسَى اللهُ اللهِ أَنْسَى اللهُ اللهِ أَنْسَى اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهِ اللهُ ا

هُجِينَاً لقد حُبَّتْ إليَّ الدِّراهِمُ أولئنك أكفائي الرِّجال الأكارمُ أمـدَّ عناناً لـم تخُنْه الشّكائـمُ

عِشْرةٌ بين الزَّوج وزوجته. وفي الصَّفحات التَّاليات نقرأُ ونرى مصداقَ ذلك...

مَشُورَةٌ وَذَكَاءٌ:

* في قصصِ العربِ في عَصْر الجاهليّة أحاديثُ شائقة عِذَاب ، تنمُّ عن مكانةِ المرأةِ العربيّةِ الحصيفةِ عندهم؛ من حيثُ الاستماعِ إلى كلامِها ، وأخْدِ رأيها في كثيرٍ من الأمور الاجتماعيّة ، وأحياناً السّياسية؛ ولا يُعدُّ ناقصاً منَ الرِّجال من يستمعُ مشورة المرأةِ الزَّوجة؛ لأنَّ العشرة التي يتعاطىٰ الزّوجان صَفْوَها ، ويتبادلان فيها الثّقة والإعزاز جديرة بأنْ تمهّد للزَّوجةِ أحياناً سبيلَ المشورةِ على زوجِها فيما يعودُ عليهما بالنَّفع والخيرِ والمكانة والرّفعة؛ وهو بدورهِ لا يجدُ غضاضةً في أنْ يستمعَ إليها ، ويحقّقَ لها ما تريدُ ، بل ويأخذ بكلامِها ويطبّقُه.

* وكثيراً ما كانتِ الزَّوجةُ الحصيفةُ العاقلةُ ذاتَ أثرِ عظيمٍ في تشجيعٍ زوجها ، وحفْزِ همّته ليكونَ في حَلْقَةِ القومِ ، وفي سُدَّة كِرامِهم وكرمائِهم.

* وهذا ما حَدَثَ فعلاً لزوج أوسِ بنِ حارثة التي أظهرتْ من مشورتها ووفرةِ عقلها وحسنِ تربيتها لابنتها ما جعلَها من النّساء العاقلات اللائي سجّلْنَ أضوأ الآثار في تاريخ المرأةِ المشرقيّةِ العربيّة ، ثم حذَتْ ابنتها بُهيسةُ حَذْوَها ، فكانت سبباً لِصُنْع السَّلام ، وحقْن دماءِ ظلَّت تسيلُ قرابة أربعينَ سنة ، وكادت تطحنُ قبيلتَين من أكبرِ قبائلِ العرب عَصْر ذلك.

* والآن ، دعونا نتعرّفُ أكثرَ وأكثرَ حوادث القصّة ومجرياتها ولُحمتها وسُدَاها.

* ففي ليلةٍ طابَ هواؤُها ، ورقَّت أنْسَامُها ، وراقت نجومُها ، كان

الحارث بنُ عوف المريّ مع سمّاره وأصحابِه ومحبّيه ، وفيهم خارجة بنُ سِنَان ، وكانوا يجلسون أمام خيمةِ الحارثِ ، وراحُوا يتجاذبُون الأحاديث فيما بينهم عن الحروبِ التي كادَتْ تفني أوائِلَهم ، وتأتي عليهم ، هذه الحروبُ التي بدَّدتْ ثرواتِهم وأموالَهم ، وأهلكتْ فرسانَهم وأبطالَهم وأشداءهم ، وزادت نيرانَ الحقدِ بينهم وبين قبيلة عَبْس.

* وتجاذب الحارث بن عوف وصَحْبه أطراف حديث العزّة والمنعة والثروة والقوة ، وشرّقُوا وغرّبُوا بالأحاديث في تلكم الليلة الهامسة النّسمات؛ وهناك أخذت المحميّة والأنفة الحارث بن عوف وقال لجلسائه: معاشرَ العرب ، أترونَ أنّي أخطبُ إلى أحَدٍ من العرب فيردّني خائباً؟!

فابتدرَ خارجة بنُ سِنان وقال له على الفورِ: نعم يا حارثُ. وتعجَّبَ الحارث بنُ عوف وقال في لهجةٍ حائرة: ومَنْ هو هذا يا خارجة ، وأنا الحارث بنُ عوف من أسيادِ ذبيان؟!

قال خارجةُ: على رسْلكَ ، الذي أعنيه هو أوسُ بنُ حارثة بن لأم الطَّائي (١) ، فإنَّ له أنفةً وعزَّةً وشَرفاً ومكانةً بينَ العربِ جميعهم.

* وتعجّبَ الحارثُ بنُ عوف أكثر وأكثر ، وعلمَ صِدْق ما يقوله خارجة ، ولكنّه هو الآخرُ شريفٌ من أشرافِ العربِ ، وحليمٌ من حلمائِهم ، وسيّدٌ من ساداتِهم ، ولا يَجهلُ أحدٌ مكانَـتَه بينَ القبائل . . .

* وقبل أَنْ ينفضَّ صَحْبُ الحارثِ قال لخارجةَ: سأذهبُ إلى أُوسِ بنِ حارثةَ وأخطبُ ابنتَه ، فاركبْ بنا إليهِ إنْ شئتَ . . .

قال خارجة : نعم ، سأكونُ رفيقَكَ في هذه الرّحلة .

⁽١) ستأتي ترجمته بعد قليل.

* ولما تبسّمَ فجرُ تلك الليلة ، وأزمعَ الليلُ على الرَّحيل ، كان الحارثُ وخارجةُ يمتطيان جوادَيْهما بعد أنْ أمرَ الحارثُ غلامَه أنْ يُجهزَهما ويعلفَهما في الليل. ورحلَ الحارثُ وخارجةُ إلى أوسِ بنِ حارثة الطّائي (١)

(۱) أوسُ بنُ حارثة بن لأم الطّائي ، وأمَّه سُعدى ، ويُقال له: ابنُ سعدى ، كان سيّداً مِقداماً فاضلاً له أخبارٌ مطربةٌ في الجودِ والكرمِ وحُسْنِ الأحدوثة. منها: «أنَّه كانَ يينَ حاتمِ الطّائي وبينَ أوسِ بنِ حارثة ألطفُ مَا يكونُ بين اثنين؛ فقال النّعمان بنُ المنذر لجلسائِهِ: والله لأفسدَنَّ بينهما. قالوا: لا تقدرُ على ذلك...

قال: بلى ، فقلّما جرتِ الرّجالُ في شيءِ إلا بلغتُه. فدخلَ عليه أوسُ ، فقال: يا أوسُ ما الذي يقولُ حاتم؟ قال: وما يقول؟!

قال: يقول: إنّه أفضلُ منك وأشرفُ.

قال: أبيتَ اللعن ، صدقَ ، واللهِ لو كنتُ أنا وأهلي وولدي لحاتم لأنْهَبنا في مجلسٍ واحد؛ ثم خرجَ وهو يقول:

يقولُ لي النّعمان لا من نصيحة أرى حاتماً في قول من مُتطاولا له فوقنا بناعٌ كما قال حاتم وما النّصح فيما بيننا كان حاولا ديم ّ دخلَ عليه حاتمٌ ، فقالَ له مثلَ مقالتهِ لأوسِ؛ قال: صَدَقَ ، أينَ عسى أنْ أقعَ من أوس! إنّ له عشرة ذكُور أخسُّهم أفضل منّي ، ثمَّ خرجَ وهو يقول:

يُسائلني النّعمان كي يستزلّني وهيهاتَ لي أنْ أُستضامَ فأُصْرَعَا كفانيَ نقصاً أنْ أُستضامَ فأُصْرَعَا كفانيَ نقصاً أنْ أضيم عشيرتي بقولٍ أرى في غيرهِ متوسّعا فقال النّعمانُ: ما سمعتُ بأكرمَ من هذين الرّجلين ، ونَفَلَ كلّ واحد منهما مئةً من الإبل».

ـ والوفاءُ بضاعةٌ نادرةٌ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، ومن أجملِ ما قيل في الوفاء الدّائم هذه الأبيات الجميلة:

النّاسُ بالنّاسِ ما دامَ الوفاءُ بهم وأسعدُ النّاسِ ما بينَ الورئ رجلٌ لا تقطعنَّ يدَ المعروفِ عن أحَدِ واشكُرْ صنيعةَ فَضْلِ الله إذْ جعلتْ قد ماتَ قومٌ وما ماتَتْ فضائلهم وقال أحدهم:

والعسرُ واليسرُ ساعاتٌ وأوقاتُ تقضَى على يدهِ للنّاسِ حاجاتُ إنْ كنتَ تقدرُ فالأيّامُ تاراتُ إليكَ لا لك للإنسانِ حاجاتُ وعاشَ قومٌ وهم في النّاس أمواتُ

ومعهما غلامُ حارثة. وظلاّ يقطعان الفيافي والقفَار حتى وصلا مضاربَ بني طيىء ، وأتيا أوسَ بنَ حارثة في محلّه ، فوجداه في منزلِهِ.

* وأبصرَ أوسٌ الحارثَ بن عوف المريّ ، فبادرَ ورحَّبَ به أجملَ ترحيب ، وقال: أهلاً ومرحباً بكَ يا حارث. . . قال الحارث: وبك يا سيّد الكرام ، يا أوس بن حارثة (١٠).

أخوكَ الذي لا ينقضُ النّأيَ عهدهُ ولا عند صرف الدّهر يزورُ جانبُه وليسَ الذي يلقاكَ في البشر والرّضا وإن غبـتَ عنـه لسعتــك عقــاربُــه
 كانَ أوسُ كريماً ، وكان ذا إباءِ وأنفةٍ ، معروفاً في القبائل بذلك ، فمن أخباره

كان اوس كريما ، وكان دا إباء والله ، معروفا في القبائل بدلك ، فمن الحباره ما يُروى «أنَّ النّعمانَ بنَ المنذر كان قد دَعا بحلّة ، وعنده وفودُ العربِ من كلّ حيّ ؛ فقال: احضُروا في غَدِ ، فإنّي ملبسٌ هذه الحلَّة أكرمكم. فحضرَ القومُ جميعاً إلا أوسَ بن حارثة ؛ فقيل له: لِم تتخلف؟ فقال: إن كانَ المرادُ غيري ، فأجملَ الأشياءِ ألا أكونَ حاضراً ، وإن كنتُ المُراد ، فسأُطْلَبُ ويُعْرفُ مكاني.

فلمّا جلسَ النُّعمان لم يرَ أوساً ، فقال: اذهبُوا إلى أوسٍ ، فقولوا له احضُر آمناً ممّا خفتَ. فحضرَ ، فألبسهَ الحلّة ، فحسَدَه قومٌ من أهلِهِ ، فقالوا للحُطيئة: اهْجهُ ولكَ ثلاثمئة ناقة. فقال الحطيئة: كيفَ أهجو رجلاً لا أرى في بيتي أثاثاً ولا مالاً إلا منْ عنده؟ ثم قال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لأم بظهر الغيب تأتيني فقال لهم بشر بن أبي خازم ، أحد بني أسدِ بن خزيمة : أنا أهجوه لكم ، فأخذَ الإبلَ وفعل ، فأغارَ أوس عليها فاكتسَحها ، فجعلَ لا يستجيرُ حيّاً إلا قال : قد أجرتكَ إلا من أوس.

وكان بشر بنُ أبي خازم في هجائه قد ذكرَ أمّ أوس ، فأتي به ، فدخلَ أوسُ على أمّه ، فقال: قد أتينا ببشر الهاجي لكِ ولي. قالت: أو تطيعني؟ قال: نعم. قالت: أرى أنْ تردَّ عليه مالَه ، وتعفو عنه ، وتحبوه ، وأفعلُ مثل ذلك ، فإنّه لا يغسلُ هجاءه إلا مَدْحَه. فخرجَ فقال: إنَّ أمي سُعدى التي كنتَ تهجوها قد أمرتْ فيكَ بكذا وكذا! فقال: لا جرمَ ، واللهِ لا مدحتُ حتى أموت أحداً غيرك ، ففيه يقول:

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي فيمَن قضاها فما وطيءَ الشّرى مثل ابن سُعدى ولا لبّن النّعال ولا احتـذَاهـا» (خزانة الأدب ٤٠٣/٩ و٤٠٤). * وساد صمتٌ خيَّم على المكانِ ، ثمَّ قطعه أوسٌ قائلًا للحارث: ما جاء بك من بلادك يا حارث؟!

قال الحارثُ في هدوءٍ وأدب: جئتُك خاطباً يا سيّد الكرام. . .

فقال أوسُ بشيءٍ من الحدّة: لستَ هناك.

* فانصرفَ الحارثُ ولم يكلمُه كلمةً واحدةً بعدها ، وخرجَ إلى صاحبهِ خارجةَ بنِ سنان ، ومن ثمّ قفَلا راجعَيْن نحو أرضهِما وبلادهِما ، والغيظُ يكادُ يمزِّق جوفَ الحارث لما قَدْ بدرَ من أوسِ بنِ حارثة الطَّائي. . . .

* ودخلَ أوسٌ على امرأته مغضباً ـ وكانت من نساءِ عَبْس الحصيفات ـ فرأَتُه متغيّراً غاضباً ، وسمعتِ الحارثَ بنَ عوف آنفاً يتحدّث معه ثمّ ما لبَثَ أنِ انصرفَ؛ فقالت لأوس: مَنِ الرّجلُ الذي سلّمَ عليك فلمْ تُطِلُ معه الوقوفَ والكلام ، ولم يُطلُ هو معك ولم تكلّمه أيضاً؟!

قال أوسُ: يابنة الكرام، ذاك سيّدُ العرب الحارثُ بنُ عوف بن أبي حارثة المُريّ...

قالت امرأته: فما لكَ لم تستنزلُه وتحسن ضيافَتَه ، وأنتَ المشهورُ بالجودِ والسَّخاء وإكرام الضَّيف؟!

قال: ويحكِ يا هذه ، إنّه استحمقَ واستهجنَني. . .

فقالت امرأتُه متعجبةً: وكيفَ وهو لم يكلمْك إلا بضع كلمات؟! قال أوس: جاءَني خاطباً ابنتي.

قالت امرأتُه في هدوءٍ وتعقُّلِ: يا سيّد الكرام ، أفتريدُ أَنْ تزوّجَ بناتك؟! قال: نعم يا بنْتَ الأكارِم...

قالت: فإذا لمْ تزوّجْ سيِّدَ العَرب في زمانه ، فَمَنْ تزوّجْ؟!

قال الحارثُ وقد أدركَ صوابَ ما قالَتِ امرأتُه (١٠): قد كانَ ذلك ، وبَدَرَ منّي ما بدرَ ، ولا أدري ما أنا صَانِعٌ. . .

قالت: يا سيَّدَ الكِرام ، الأمْرُ سَهْل وبسيْطٌ...

قال: كيف؟

قالت: أَسْرِعْ ، وتَدَاركْ ما كانَ منْكَ ، وصححِ الخَطَأَ الذي حَدَثَ ، واللقاءَ الذي كانَ جافّاً.

قال أوسِّ: فبماذا وكيفَ؟!

قالت: الأَمْرُ هيّنٌ ، تلحقُهُ فتردُّه إلىٰ بيتِكَ ، وتكرمُهُ وتحسنُ وفادتَه ونُزُلَه.

قال الحارثُ في تعجُّبِ: يا هذه ، كيف لي أنْ ألحقَه وقد فرطَ منّي ما فرطَ إليه؟! ثم إنّه يعزُّ على نفْسي ذلك!...

قالت له: يا أوسُ ، يا زيْنَ طيى ، هوّنْ عليك ، تقولُ له: يا سيّدَ العربِ ، إنَّك لقيتَنِي وأنا مغضَبٌ لأمْرٍ ، فَلَكَ المعذرة فيما فرطَ مني ، فارجعْ ولكَ عندي كلَّ ما طلبتَ وأحببتَ ، فإنَّه سيفعلُ وسيعرفُ لكَ ذلك ، فهو حَصيفٌ ، وهو من السَّادة العُقلاء ، ولا ريبَ فعاداتُ السَّاداتِ سَادَاتُ العَادات ، أليسَ كذلك؟!

⁽۱) المرأةُ الحصيفةُ العاقلةُ نعمةٌ كبرى من نِعَمِ الله عزَّ وجلَّ على الرَّجُلِ ، وإنْ جازَ التَّعبير: فهي روضٌ أُنفٌ يجدُ المرءُ ما تشتهيهِ نَفْسُه ، وتلذَّ عينُه ، لأنَّها تشدُّ أزْرَه في مهمّاتِ الأمورِ ، وتقوّمُ رأيه إذا ما اعوجَّ ، وترشدُه إلى ما يُصلِحُ حياتهما وحياةَ أولادِهما بل وأسرته وأسرتها.

ـ أما إذا كانَتِ المرأةُ سفيهة طائشةً خفيفةً متسرّعةً ، فإنّها بلاءٌ وعذابٌ وعقوبةٌ ومرضٌ ، وخصوصاً إذا كانتْ من بيئةٍ لا تُقيمُ للآدابِ الاجتماعية وزناً ، وهناك تكونُ الكارثةُ والعياذُ بالله تبارك وتعالى. . .

قال أوسٌ: بلى ، جزاكِ الله كلَّ صالِحةٍ ، فأَنْتِ زوجةٌ صالحةٌ كريمةُ العقلِ ، طيّبةُ الأَصْل . . .

* وامتثلَ أوسٌ أَمْرَ امرأتِهِ الصّائب ، واستنارَ برأيها الوضيء ، وركبَ في أثرِ الحارثِ بنِ عوف وخارجةَ بنِ سنان ، ومن ثمَّ غذَّ في سيرِه حتى لحقَهُمَا في الطَّريق. . . .

* ويحدّثنا الآن خارجةُ بنُ سنان عمّا رأى وسمعَ فقال: (فواللهِ ، إنّا لنسيرُ في الصَّحراء نحوَ بلادِنا ، إذْ حانَتْ منّي التفاتةٌ ، فرأيتُ أوسَ بنَ حارثة في أثرنا يعدو مُسرعاً على فرسِهِ ، فأقبلتُ على الحارثِ _ وهو لا يكلّمني غمّاً _ وقلت له: هذا أوسُ بنُ حارثة الطَّاثي يعدو على فرسِه مُسرعاً في أثرِنا ولعلّه يطلبنا. . .

قال: يا خارجة وما نصنعُ به الآن وقَدْ ردَّنَا شرَّ ردِّ؟! امضِ بنا ولا تَقفْ. . .

* ولمَّـا رآنـا أوسٌ لا نَقِفُ ، ولا نلتفتُ إليهِ؛ قـال بصـوتِ عـال: يا حارثُ أَرْبِـعْ عليَّ ساعةً...

قال خارجةُ: فوقفْنَا له عندئذِ ، وجاء أوسٌ فكلَّمه بالكلام الذي أشارتْ عليه زوجُه ، فرجعَ الحارثُ معه مَسْروراً ، وقد رضيَ بما اعتذرَ به أوسُ وبما قالَ له . . .

* ولمّا وصلنا بيوتَ أوسٍ ، كانت زوجهُ قد بذلتِ المطارفَ ، وأعدتِ الحشَايا ، وكلّ ما يرفعُ من قَدْر زوجِها وقَدْر الحارثِ بنِ عوف المُرّيّ)(١).

⁽١) انظر: الأغاني (١٠/ ٣٤٣ و٣٤٤)؛ والمستطرف (٢/ ٢٢٢) مع الجمع والتصرف.

ادْعِى لَيْ بُهَيْسَة :

* جلسَ الحارثُ بنُ عوف وصاحبُه خارجة في بيتِ أوسِ بنِ حارثة جلسةً مفعمةً بالألطافِ والتّكريم ، والحفاوةِ والتّرحيب؛ ومن ثمَّ دخلَ أوسٌ على زوجتهِ وقال لها: (نِعْم الرأْيُ رأيُّكِ ، هاقد عادَ الحارثُ مَسْروراً ، فادعي لي فُلانة ـ لأكبرِ بناتِهِ ـ ، فجاءته على استحياء؛ فقال لها: أيْ بُنيّة؛ هذا الحارثُ بنُ عوف المريّ سيّدٌ من ساداتِ العربِ الأماجد ، قد جاءني طَالباً راغباً خاطباً ، وقد أردتُ أنْ أزوّجكِ منه ، فما تقولين؟!

قالت: (يا أبتِ لا تَفْعَل).

قال أوس: ولِمَ يا بنتي؟

قالت: (لأنّي امرأةٌ في وَجهي رَدَّة (١) ، وفي خُلقي بعض العُهْدة (٢) ، ولستُ بابنة عمّهِ فيرعى رحمي (٣) ، وليسَ بجارِك في البَلدِ فيستحي منك ،

⁽١) «ردة»: بعض القباحة الممزوجة بشيء من الجمال...

⁽٢) «عهدة»: عيب.

⁽٣) إِنَّ قُولَ ابِنَةِ أُوسِ هذه ، يدلُّ على أَنَّ معظمَ الفتيات عَصْر ذاك كُنَّ يؤثرنَ الزَّوجِ القريبَ ، ويدلُّ على ذلك قولُ إحداهن تعبر عن ذلك:

لَصَــوقٌ بــأكبــادِ النِّســاء وأصلُــه إذاما انتمىٰ من سِرّ أهْلىي ومحتدي ــونصحتْ أختُها ألا تقبلَ غريباً زوجاً لها ، وقالت لها: إنَّ شرَّ الغريبةِ يُعْلَنُ ، وخيرُهُا يُدفَنُ ، تزوّجي في قومكِ ، ولا تغررُكِ الأجْسَام. (مجمع الأمثال / ١٢٤).

ـ وجاءَ في قولِ الخنساءِ بنتِ عمرو السُّلميّة لأبيها وأخيها أنَّهما زوجاها في بني طبيء فقالت:

لا تحمدنَّ الدهرَ أختُّ أخاً لها ولا ترثينَّ الدَّهرَ بنتُّ لوالدِ همُ جعلوهَا حيثُ ليستُ بحرّةٍ وهمْ طرحوها في الأقاصي الأباعدِ (أشعار النساء ص ٨٦).

ولا آمن أنْ يرى منّي ما يكرَه فيطلّقني ، فيكون عليَّ في ذلك ما فيهِ مَسبَّة). قال أوسٌ لابنته: (قُومي باركَ اللهُ عليكِ).

* ثمّ قالَ أوسٌ لزوجتِه: (ادْعي لي فُلانة ـ لابنته الوسْطىٰ ـ فدَعتْها ، ثمّ قال لها مثل قولهِ لأختها)؛ فأجابتْه بمثلِ جوابها ، ثم قالت: (يا أبتِ إنّي امرأةٌ خرقاء ، وليستْ بيدي صناعة ، ولا آمنُ أنْ يرىٰ منّي ما يكرهُ ، فيطلّقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، وليس بابنِ عمّي فيرعى حقّي ، ولا جارك في بلدِك فيستحييك).

قال: (قُومي باركَ اللهُ عليك).

* وبعدها قالَ أوسٌ لامرأتِهِ: (ويحك ادعي لي بُهيسة ـ وكانت أصغرهن سنّاً). فجاءتُه وسلّمتْ عليه في ابتسامةٍ جميلةٍ وطلاقةٍ محيّا ، وقال لها كما قال لأختيها؛ فقالت له: (يا أبي ، أنتَ وذاك).

فقال لها: (يا بُهيسة ، اعلمي أنّي قد عرضتُ ذلك على أختيك فلانة وفلانة فأَبَتاه ، ولم يذكرُ لها مقالتَيْهما).

فقالت له: (يا أبتِ ، لكنّي واللهِ أنا الجميلةُ وجهاً ، الصَّنَاعُ يداً ، الرّفيعةُ خُلُقاً ، الحسيبةُ أباً ، الحَسنَةُ سَمْتاً ، فإنْ طلّقني فلا أخلف اللهُ عليهِ بخير).

فقال أوسٌ لبُهَيْسةِ: (قُومي ، باركَ اللهُ عليكِ يا بُنية).

خشونة عيشتي في البدو أشهىٰ إلى نفسي من العيش الطّريف فما أبغي سوى وطن شريف فما أبغي سوى وطن شريف

⁻ ونذكرُ هنا قصّة ميسون بنت بحدل الكلبيّة ، وكانت امرأةً بدوية ، فتزوّجها معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ ، وأقامت معه بالشّام في خفض من العيش ، ونضرة الحضّارة ، ولكنها حنّت إلى مراتع صباها ، وعافتِ الحليَ والحلل ، والدّيباج والحرير ، وراحت تهتفُ بأبياتٍ تقولَ في آخرها:

- * وسُرَّ أوسٌ منْ بهيسةَ ، وعلمَ أنَّ ما قالَتُه حقّاً ، وأنّها كفءٌ للحارثِ بنِ عوف المريّ سيّد العرب.
- * ثُمَّ إِنَّ أُوساً خرجَ إلى الحارثِ وقال له: (أَبشِرْ يا سيّدَ العرب ، إنّي قد زوّجْتُك بُهيسةَ بنتَ أُوس ، فأنتَ كَفَّ كريم).

قال الحارث: (قد قبلتُ نكاحَها).

* واتَّفقا على ذلك ، واطمأنَّ أوسٌ إلى عَقْل ابنة وإلى حَصَافَتِها ، فهي التي ستكونُ حليلةَ سيَّد العرب.

بُهَيْسَةُ العَاقِلَةُ المُنْجِبَةُ:

- * أمرَ أوسُ بنُ حارثة زوجَه أنْ تأخذَ أهبَتَها في زفافِ بُهيسة إلى الحارثِ بنِ عوف ، وأنْ تهيّئها وتصلحَ من شأنِها ، ثمّ أمرَ ببيتٍ عالي العِماد ، فَضُرِبَ للحارثِ ، وأنزلَه إيّاه ، كما كانتِ العادَةُ آنذاك.
- * ولما فرغَتْ زوجتُه من أمْر ابنتِها وهُيئت ، بعثَ بها إلى الحارثِ ، فلما أُدخِلَتْ إليهِ ، لبث هُنيهةً ، ثم خرجَ إلى صديقهِ خارجةَ بنِ سِنَان ، فقال له: (أفرغتَ منْ شأنِك)؟

قال الحارثُ: (لا والله).

قال: (وكيف ذاك) ؟.

قال: (لمّا مَددْتُ يدي إليها قالت: مَه ، أَعِندَ أبي وإخوتي!! هذا واللهِ ما لا يكونُ أبداً).

* يقولُ خارجة: (ثمَّ إنَّ الحارثَ أمرَ بالارتحالِ والدَّهابِ إلى مضاربنا في أرضِ بني ذُبيان ، وهاتيك النَّواحي فارتحلنا ورحلْنَا بها مَعَنا ، وسرْنا ما شاءَ اللهُ لنا أنْ نسيرَ في أرضِ اللهِ ، ثمّ إنَّ الحارثَ قال لي: يا خارجة

تقدَّم عنّي قليلًا ، فتقدمتُ ، ثمّ إنّه عدلَ بها عنِ الطّريق ، فما لبثَ أنْ لحقَ بي ، فقلتُ: أفرغتَ؟

قال: لا واللهِ يا خارجة.

قلت: ولمَ يا سيّدَ العرب؟!

قال: قالت لي: يا هذا ، أَكَما يُفْعَلُ بالأَمَةِ الجليبة ، أو السَّبيّة الأَخيْذَة؟! لا واللهِ يا بن السَّادات الأكارم؛ حتى تنحرَ الجُزر ، وتذبحَ الغنم ، وتدعو العرب ، وتعملَ ما يُعمل لمثلي ، فأنا ابنةُ سيّد طيىء . . .

قلتُ: واللهِ يا سيّد العرب ، إنّي لأرى لهذه المرأةِ همّةً وعقلاً ، وشأناً ومكانةً ، وأرجو أنْ تكونَ المرأةُ منجبةً).

* ويتابعُ خارجةُ حديثَه فيقول: (فرحلنا حتّى جئنا بلادَنا ، ثم إنَّ الحارثَ بنَ عوف أحضرَ الإبلَ والغنمَ ، ثمَّ دخل عليها وخرجَ إليَّ ، فقلت: أفرغتَ؟!

قال: لا.

قلت: ولمَ؟

قال: دخلتُ عليها أريدها ، وقلتُ لها: قد أحضرنا من المالِ ما قد ترين ، وصنعْنَا منَ الولائمِ ما طلبتِ. . . فقالت: واللهِ لقد ذكرتَ لي من الشَّرف ما لا أراهُ فيك . قلتُ لها: وكيف يا بُهيسة ، وأنا سيّدٌ مُطاعٌ كما ترَيْن؟! فقالت: يا هذا ، أتفرغُ لنكاحِ النِّساء ، والعرب تقتل بعضَها؟! ـ وذلك في أيّام حرب عَبْس وذُبيان _ .

قلت: فيكونُ ماذا يا بنتَ الكرام؟.

قالت: اخرجْ إلى هؤلاءِ القوم، فأصْلِحْ بينَهم، ثم ارجعْ إلى أهلكَ فلن يفوتَك ما تريدُ...

فقلتُ: واللهِ إنّي لأرى لها عقْلاً ورأياً سديداً وهمّةً كبيرةً ، ولقد قالت قولاً صحيحاً.

قال: فاخرجُ بنا؛ فخرجَ هو وهرمُ بن سنان ، ومشَيَا بين النَّاس بالصُّلْحِ فاصطلحوا على أنْ يحتسبوا القَتْلى ، فيؤخَذُ الفضلُ ممّن هو عليه ، فحملنا عنهم الدّيات ، فكانت ثلاثة آلاف بعيرٍ في ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجملِ الذّكْر وأجلّه.

* ثمّ إنَّ الحارث دخل على بُهيسة ، فرحَّبَتْ به وقالت: أمّا الآن فنعم ،
 فأقامتْ عنده في ألذّ عيشٍ ، وقد ولَدَتْ له بنين وبنات)(١).

 « وقد سجّل زهيرُ بنُ أبي سلمى هذا الفعلَ الجميلَ لهما ، وشادَ بذكرهما في معلّقتِهِ الشّهيرة التي مطلعُها:

أَمِنْ أُمَّ أُوْفَىٰ دَمْنَة لَـمْ تَكَلَّمِ بِحُومِانَةِ اللَّذَّاجِ فَالْمَتَثَلَّمِ (٢)

* ومنها يذكرهما وينعتُهما بالسَّيّدَين:

يميناً لَنِعْمَ السَّيِّدان وُجدتُما تداركْتُما عَبْساً وذُبيان بَعْدمَا وقد قُلْتُما إِنْ نُدرِكِ السِّلْمَ واسِعاً فأصبحتُما منها على خير مَوطنِ عظيمَيْنِ في عُليا معد هُديتُما عظيمَيْنِ في عُليا معد هُديتُما

علىٰ كلّ حالٍ من سحيلٍ ومبرمِ تفانَوا ودقوا بينَهم عطر منشمِ بمالٍ ومَعْروفٍ منَ القَولِ نَسْلمِ بعيدَيْن فيها من عقوقٍ ومأثم ومَنْ يستبح كَنْزاً منَ المجدِ يُعظمِ

⁽۱) انظر: المستطرف (۲/۲۲)، وأعلام النساء (۱۵۲/۱ و۱۵۷) مع الجمع والتصرف، وذلك نقلاً عن الأغاني.

⁽٢) «الدمنة»: ما اسود من آثار الدار. و«حومانة الدراج والمتثلم»: موضعان.

* لقد خلّد زهيرُ بنُ أبي سلمى هذين الكريمَيْن ، التي كانتْ بهيسةُ من وراءِ أحدهما ، وهو الحارثُ بنُ عوف.

* ولقد ظلّ ذكْرُهُما في شِعْرِ زهير بن أبي سلمى الذي رأينا كيف تحدّث عن هذين السّاعيّيْن في الخيرِ ، المحبّيْن للسّلام ، الدَّاعيَيْن إلى الصَّفاء وإلى الإخاءِ ، فأشادَ بموقفِهما ، وأشارَ إلى ما قامًا به من عمَلِ جليل ، وأشارَ إلى أنَّهما تحمّلا ديّات القَتْلى في حربٍ ضروس أخذتُ مسَاحةً كبيرةً من الأيّام والأزْمان ، وبسببها قُطِعَتِ الأرحامُ ، وتفرّقَ الأهلُ وتناحرَ الإخوانُ ، فأصْلَحا ما أفسدَ ، وجمعًا الشَّمل ، وأقسم زهير بالبيت الحرام قائلًا: إنّهما نِعْمَ السَّيدان في جميع الأحوالِ ، وأنّهما أصْبَحا في أعلىٰ الدَّرجات بينَ العربِ جميعهم.

* وهكذا كانتُ بُهيسة بنتُ أوس الطّائية واحدةً من نساءِ المشرقِ اللواتي كُنَّ من ربَّات البلاغةِ والرأي الصَّائب والحكمةِ ، فهل تستفيدُ من قصّتها النّساء؟! . وهل تستفيد الأُمَّهاتُ الآن (الحَمَوات) من قصّةِ والدةِ بُهيسةُ ويحذيْنَ حذْوَها؟! ويكُنَّ من العاقلات؟!

* * *





عُفِيرَة بنت عبّار

- * من أعلام نساء المشرق العربي اللواتي أثرين التاريخ النسوي برقائق الأخبار ، ورائق الأشعار .
 - * كانت مضرب المثل في العفة والإباء.





المَرْأَةُ والعِفَّةُ:

* لم يُؤثر عنِ المرأةِ العربيّةِ في سالفِ الأزمانِ تَخَاضعٌ أو استخذاءٌ ، بل كانت ذات إباءٍ وشَممٍ ، واعتزازٍ بكرامتها واعتدادٍ بنفسها ، وذلكَ في أغلب الأحايين.

* ومن المُتعالَم بين نساءِ عَصْر الجاهليّة أنَّ الأخلاق العربيّة قامَتْ على دعائم ثابتةٍ من مكارمِ الفضائلِ ، وفضائلِ المكارمِ ، ومنها: الاعتزازُ الشَّديدُ بالشَّرف الذي هو عنوانُ حياتهنّ ، وكذلك الحرصُ على حُسْنِ الأحدوثةِ ، وعلى سمعةِ الأسرةِ الطّيّبة ، وصيانةِ المرأةِ صيانةً كاملةً ، فكان لا بدّ للرّجالِ والنّساء من العفّة ، ومن التَّعفُّفِ؛ لأنَّ العدوانَ على العرضِ ، والاعتداء على الشّرفِ قد يجرُّ ويلاً ، ويشعلُ حرباً ، ولأنَّ المجونَ ليس من سماتِ السَّادة وليس من عاداتِهم.

* ولذلك نجدُ في تراثِنا الأدبيّ أنَّ الرِّجال قد أكثروا من الفخرِ بعفّتهم ، وافتخروا بصيانِتهم حرمة جيرانهم ، بل نجدُ كثيراً من الشُّعراء قد مَدَحُوا ومُدِحُوا ورثوا بالعفّة.

* وقد عُرِفَ عن العربِ أنَّهم قومٌ غُيرٌ على النساءِ إلى حد المغالاةِ والإغراقِ ، وهم يبيحونَ للرّجل أنْ يذكرَ أي شيءٍ في حياتهم إلا النساء ، وقد وردَ في أمثالِهم قولهم: «كُلُّ شيءٍ مَهَهٌ ما خَلا النِّساء وذكْرِهنَّ»(١).

⁽۱) انظر: مجمع الأمثال (۳/٥)، وجمهرة الأمثال (۱۱۸/۲). ومعنى «مَهَه»: اليَسير الحقير. أيّ أنَّ الرجلَ يحتملُ كُلَّ شيءِ حتى يأتي ذَكْرُ حُرَمهِ، فيمتعضُ حينئذ، فلا يحتملُه.

قال أهلُ اللغة: «المَهَاهُ والمَهَهُ: الجمالُ والطّراوةُ ، أي كلُّ شيءٍ جميلٌ ذكْرُهُ إلا ذكر النّساء؛ قال الميداني: «قلتُ: يجوزُ أنْ يكونَ المَهَاهُ الأَصْلُ ، والمَهَهُ مقصورٌ=

* هَكذا كان معظمُ العربِ ، وهكذا كانت حياتُهم قائمةً على صيانةِ العفّةِ . وفي هذا المجتمعِ البسيطِ الذي يقدّرُ العفّة ، فيعفُ فيه النّاس ، أو يتعفّفون ولا يجاهرون بالفحشاء ، إلا قلّة من الشُّعراء المُجّان قد جاهروا بفحشِهم من مثل امرىء القيس ومَنِ اغْتَرفَ منْ بحره .

* في هذا المجتمع العربيّ النّقيّ كانت عفّةُ المرأةِ أعظمَ حُلاها ، وكانتِ المرأةُ العفيفةُ الممنعةُ هي بغيةُ الرّجالِ الأسوياءِ ، وافخرَ خلالها ، وكانتِ المرأةُ العفيفةُ الممنعةُ هي بغيةُ الرّجالِ الأسوياءِ ، وهي المثلُ الأعلى عندهم؛ ولعلّهم كانُوا ، أو كان معظمُهم يَعْرِفُ ما يُنسبُ إلى سيّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فيما ذكره ابنُ أبي الحديد من قوله: "خِيَارُ خِصَالِ النّساءِ؛ شرارُ خِصَال الرّجال: الزّهو ، والجبن ، والبُخل. فإذا كانتِ المرأةُ مزهوةً لم تمكن من نفسِها؛ وإذا كانت بخيلةً حفظتُ مالَها ومالَ بعلِها ، وإذا كانت جبانةً فَرِقَتْ من كلّ شيءِ يعرضُ لها»(١).

منه ، مثل الزّمان والزّمن والسَّقام والسَّقم ، ويجوزُ على الضّد من هذا ، وهو أنْ
 يكون المَهَهُ الأصلُ ، ثم زِيْدتِ الألفُ كراهةَ التَّضعيف ، والمَهَاهُ أكثرُ في
 الاستعمالِ من المَهَهِ ، قال الشَّاعر :

وليـــسَ لِعَيشِنــا هـــذا مَهَــاهٌ وليســتْ دارُنــا الــدّنيــا بِــدَارِ وقال آخر:

كفي حزناً أنْ لا مَهَاهٌ لعَيْشِنا ولا عملٌ يرضى بهِ اللهُ صَالحُ» يريدُ لا جَمالَ ولا طراوة لعيشنا. (مجمع الأمثال ٣/٥).

ـ ومن عفّةِ العرب ما ذُكِرَ أنَّ الحطيئةَ لمَّا نزلَ ببني مقلّد بن يربوع سألوه عمّا يرضىٰ وعما لا يرضىٰ ، جاء في قوله: «ولا تجعلوا فناءَ بيتي مجلِساً لكم ، ولا تُسْمِعُوا بناتى غناءَ شبابكم...».

ـ ولذلك افتخروا بحمايةِ زوجاتهم من أهل العُهْرِ ، يقول أحدهم:

حميتُ عن العُهَّارِ أَطهار أُمّه وبعَضُ الرّجال المدّعيْنَ غُثاء (١) شرح نهج البلاغة (٢/٤).

* وللعفّة مظاهرُ شتّى ، فقد تكونُ في أنْ تخالطَ المرأةُ الحرّةُ الرّجالَ وتحادثُهم شريطةً أنْ تتصوَّنَ ، فلا يسمعون منها ولا تسمعُ منهم غير العفّ من القولِ ، وفي ذلك يقول سُويد بن أبي كاهل اليشكريّ من قصيدتِه العينيةِ الجميلةِ التي مطلعُها:

بَسَطَــتْ رابعــةُ الحَبْــلَ لنَــا فَـوَصَلْنَـا الحَبْـلَ منْها ما اتَّسَعْ وهي قصيدةٌ طويلةٌ تبلغُ (١٠٨ أبيات) ومنها يصفُ عفّة صاحبته رابعة التي يتغزّل فيها فيقول:

تُسْمِعُ الحُدَّاثَ قَولاً حَسَناً لو أرادُوا غَيْرَه لم يُسْتَمعُ (١) * ويقولُ غيرهُ يصفُ عفّة المرأة العربيّةِ الحرّة:

ويخَـالُهـا المَـرِحُ السَّفيـهُ تحبُّـه ونـوالُهـا غيـرَ الحــديـثِ بعيــدُ

* وقد تكونُ المرأةُ عفيفة ذاتَ هيبةٍ ووقار، فتكونُ عفّتها ستاراً بينها وبينَ النّاس، وهنا لا يجرؤُ أحدٌ أنْ يكلّمَها أو يشيرَ إليها، وإذا ما غابَ عنها زوجُها حفظتْ غيبته، وأرضَتْ أَوْبَتَهُ، وقد تحدّث عن هذهِ الناحيةِ علقمةُ بنُ عبدة، وهو شاعرٌ جاهليٌّ مجيدٌ، كان من صُدورِ الجاهليةِ وفحولها، قال عنه ابنُ سلام الجمحيّ: "له ثلاثُ روائع جياد لا يفوقهن شِعْرٌ". وعلقمةُ هذا يصفُ "نعمةً صاحبتَه ويذكرُ حرصَها على سرِّ الزَّوجِ ورضاه، ويشيرُ إلى عفتها وإلى صعوبةِ الكلام معها فيقول من بائيتهِ الشّهيرة التي مطلعُها:

طَحَا بِكَ قَلْبٌ في الحِسَأْنِ طَرُوبُ بعَيْدَ الشَّبابِ عَصْر حَانَ مَشيبُ

وهي قصيدةٌ طويلةٌ وجميلةٌ تبلغُ (٤٣) بيتاً ، ومنها قولُه في عفّةِ صاحبتهِ وحرصِها على حُسْنِ تبعّل الزَّوج في غيابه :

مُنَعَّمةٌ ما يُسْتطَاعُ كَلامُها على بابِها مِنْ أَنْ تُزارَ رقيبُ

⁽١) انظر: المفضليات (ص ١٩٠ ـ ٢٠٢).

إذا غابَ عنها البعلُ لم تفْشِ سرَّه وتُرضي إيابَ البَعْلِ حينَ يَؤُوبُ (١)

* وقد نجدُ بعضَ النساء العربيّات في ذلك العَصْرِ السَّحيق من عصرِ الجاهليّة يفتخِرنَ بعفّتهنَ ، من ذلك القولُ الذي يُنسبُ إلى الخنساء (٢) يوم القادسيّة إذ زعموا أنّها خاطبت بنيها قائلةً ومذكّرةً لهم بعفّتها وصيانتها: (. . . واللهِ الذي لا إله غيرهُ ، إنّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، كما أنّكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسَبَكم ، ولا غيّرتُ نسبَكم . . (٣).

* وممّا نجدُه منثوراً بين جواهرِ الأدبِ في أخبارِ العرب وأسمارِهم ، ما جاء من أخبارِ صخر بن عمرو السُّلَميّ أخي الخنساء الذي أشادَ وأشارَ الى عفّةِ أخته الخنساء حينما تسخّطت زوجتُه لأنه يقاسمُ أخْتَه مالَه ، ويعطيها خيرَ النّصفَيْن:

وَاللهِ لا أَمْنَحُهِ الشِرارَهَ الرَهَ عارَهَا وهي حَصَانٌ قد كَفَتْني عارَهَا (٤)

* إنَّ القصصَ التي وصلَتْ إلينا عن عفّةِ المرأةِ العربيّةِ لا تتسعُ إليها مئاتُ الصَّفحات ، وكلُّها قصصٌ مشرقةٌ تدلُّ على هذا الخُلقِ الذي جاءَ الإسلامُ فعزَّزه ، وممّا ورد عن العربِ المشارقةِ ونسائِهم المشرقيّات ما ذكره الميدانيُّ قال: «خرجَ سهلُ بنُ مالك الفزاريّ يريدُ النّعمان ، فمرَّ ببعضِ أحياءِ طيىء ، فسألَ عن سيّد الحيّ ، فقيلَ له: حارثةُ بنُ لأم ، فأمَّ رحلَه فلم يُصِبْهُ شاهداً ، فقالت له أختُه: انزلْ في الرَّحبِ والسَّعةِ ؛ فنزلَ فأكرمَتْه ولاطفَتْه ، ثمّ خرجتْ من خبائِها فرأى أَجْمَلَ أهلِ دهرِها فأكرمَتْه ولاطفَتْه ، ثمّ خرجتْ من خبائِها فرأى أَجْمَلَ أهلِ دهرِها

⁽١) المفضليات (ص ٣٩١).

⁽٢) اقرأ سيرة الخنساء في هذه الموسوعة ، وانتبه إلى الأخبار المزيفة التي دحضناها.

⁽٣) انظر كتاب: طهارة العرب (ص ١٥) لأحمد بن الأمين الشنقيطي.

⁽٤) تهذيب الكامل (٢/ ١٩٢).

وأكملِهم ، وكانت عقيلة قومها وسيّدة نسائِها ، فوقعَ في نفسهِ منها شيءٌ ، فجعلَ لا يدري كيفَ يُرسل إليها ولا ما يوافقُها من ذلك! فجلسَ بفناءِ الخباءِ يوماً وهي تسمعُ كلامَه ، فجعلَ ينشدُ ويقول:

يا أَخْتَ خَيْرِ البدُوِ والحَضَارَه كيفَ تَريُّنَ في فَتَى فَرَاره أَصبحَ يهوى حَرَةً مِعْطارَه إِياكِ أَعني واسْمعي يا جَارَه

فلما سمعَتْ قولَه عرفَتْ أنّه إيّاها يعني ، فقالت: مَا ذَا بِقَوْلِ ذي عَقْلِ أريب ، ولا رأي مُصيب ، ولا أنف نجيب ، فأقمْ ما أقمتَ مكرّماً ، ثم ارتحلْ متى شئت مسلَّماً . . . »(١٠) .

* ولقد بلغتِ العفّةُ بها أَنْ تبغضَ مَنْ يسيءُ الظَّنّ بها وإن كان زوجُها ، فقد وردَ أَنَّ الفاكِهَ بنَ المغيرة قد شكَّ في زوجتهِ هند بنتِ عتبة _ وكانت بريئة _ وقضىٰ الكاهنُ ببراءتها ، في قصّةٍ طويلةٍ معروفةٍ ، وأرادَهَا الفاكهُ أَنْ تعودَ إليه فرفضَتْه ، ومن ثم تزوّجها أبو سُفيان رضي الله عنهما.

* والمرأةُ العربيّةُ الحرّةُ تأنفُ من الزّني ، وتكرهُ فِعْلَه وسماعَه ، وتُؤكِّد بأنَّ الحرّة لا تزني ، ومنْ هؤلاء اللواتي خَلَدهُنَّ التّاريخُ النَّسويّ المشرقيّ : عُفَيرةُ بنتُ عبّاد الجَديسية (٢) ويقال: إنّ اسمَها الشّموسُ بنتُ عباد؛ التي كانتِ السَّبب في مقتلِ مَلكٍ خطيرٍ لأنَّه تعدّى على عفّةِ النِّساء .

⁽١) انظر: مجمع الأمثال (١/ ٨٠ و ٨١).

⁽۲) الأغاني (۱۱/ ۱٦۸ ـ ۱۷۱)، وأعلام النساء (۲۹۷ ـ ۲۹۹)، والكامل في التاريخ (۱/ ۳۲۸)، ومروج الذهب (۱/ ۲۶۳)، والأخبار الطوال (ص ۱۷)، وأخبار النساء (ص ۱۱)، والمعارف (ص ۲۱۱)، ومعجم البلدان (۱۲/۸) مطبعة السعادة بمصر (۱۹۰۱م)، والمحاسن والأضداد (ص ۲۷۰ ـ ۲۷۲)، وخزانة الأدب (۲/۹۸) طبعة مصر، وشمس العلوم لِنشوان الحميري (ص ۱۷)، ونهاية الأرب (۱۹/ ۳۳۹ ـ ۳۶۶) والروضة الفيحاء ص ۳۰۶ و ۳۰۰)، وشاعرات العرب (ص ۲۵۱ ـ ۲۵۳) ورغبة الآمل من كتاب الكامل (۲/ ۱۳۰).

* ترى كيفَ كان ذلك؟ وكيفَ قضت عُفيرةُ على ملكِ طَسَم وجديس؟ هذا ما ستجلوه الصّفحات التّاليات. . .

مَلِكُ طَسَم الظَّالِم:

* من أسمارِ العربِ ما ذكروا أنَّ عِمْليقاً مَلِكَ طسم وجديس وهم العربُ العاربةُ ، على ما ذكرَ بعضُ المؤرّخين ، وكانتْ منازلهُم اليمامة (١) ، وكان اسمُها في وقتِهم جَوّ^(٢)؛ وكان عمليقُ في أوّلِ مملكته غَشُوماً ظلوماً ركبَ طريق الظّلم والغَشْم والسّيرة بغيرِ الحقِ؛ لكنَّ ظلمه هذا قد تلاشي واندثرَ في غضبةٍ مضريةٍ كان سَبَها امرأةٌ.

* وذكروا أنَّ عمليقاً أتنه ذات يوم امرأةٌ من جديس اسمُها هُزيلةُ بنتُ مازن مع زوجٍ لها اسمُه ماش أو قرقس ، وكان قد طلّقها ، وأرادَ أخذ ولدِه منها ، فخاصمته وترافعًا إلى عمليقٍ ليحكم بينهما ؛ فقالت هزيلة : «أيّها الملكُ ، هذا ابني حملتُه تسْعاً ، ووضعتُه دفعاً ، وأرضعتُه شَفْعاً ، ولم أنلْ منه نَفْعاً ، حتى إذا تمّتْ أوصالُه ، واستوتْ خِصَالُه ، أرادَ أنْ يأخذَه مني قهراً ، ويسْلُبنيهِ سرّاً ، ويترك يدي منه صِفْراً » فقال عمليقُ لزوجها : «ما حجّتك أنت؟».

فقال الزّوجُ: «قد أُخَذَتِ المَهْر كاملًا ، ولم أنلْ منه طائلًا ، إلّا ولداً جاهلًا ، فافعلْ ما كُنتَ فاعلًا».

* فأمرَ عمليقُ بالغلام أنْ ينزعَ منهما ، وأنْ يُجْعَلَ في غلمانِهِ ، وقال لهزيلة: «ابْغِيهِ ولداً ، ولا تنكحي أحداً ، واجْزِيه صفداً» ، فقالت هُزيلة:

⁽۱) «اليمامة»: مدينة بالبادية من بلاد العوالي ، وبها قد تنبأ مسليمة الكذاب ، وهي بلاد بني حنيفة. وهي من المدن الشهيرة قديماً وخرج منها كثير من النبلاء والنبيلات.

⁽٢) بلدة معروفة الآن تبعد عن مدينة الرياض حوالي (١٠٠ كم).

«أمّا النّكاح فإنّما يكون بالمهرِ ، وأمّا السّفاحُ فإنّما يكونُ بالقَهر ، وما لي فيهما منْ أمْرِ».

* فلمّا سمع ذلك منها عِمليقُ ، أخذته سَوْرةُ الغَضب ، وأمرَ بأنْ تُباع هي وزوجُها ، فيُعطىٰ خُمْسَ ثمنها ، وتُعطى هُزيلة عُشْر ثمنِ زوجها ، وعندها أنشأتْ هُزيلة تنشدُ وتقولُ:

أَتَيْنَا أَخَا طَسَمٍ ليحكمَ بيننا فأبرمَ حُكِماً في هُزَيلةَ ظالما لَعَمرِي لقْد حُكِّمْتَ لا مُتَورَّعاً ولا فَهِماً عند الحكومةِ عَالما نَدِمْتُ فلمْ أقدر على مُتَزَحْزَحٍ وأصبحَ زُوجي عاثِرَ الرَّأي نَادِما

* فلما بلغ عمليقاً ما قالَتْه هُزيلةُ فيه ، وعرفَ التّعريض به ، غضبَ غضباً شديداً ما عليهِ من مزيد ، وأقسمَ أنّه لا تُهدى عروسٌ من جديس لبعلِها حتى يكونَ هو الذي يبدأُ بها قبلَ زوجها ، فلقُوا من ذلك جهداً وبلاءً وذُلاً وقهراً. فلم يزلُ يفعلُ ذلك حتى زُوّجتْ عفيرةُ بنتُ عباد الجديسيّة إلى بعلِها ، وهنا بدأتْ نهايتُه ، وكانتِ السَّبب في قَتله ، وفي السُّطور التّوالي نتابعُ أحداثَ العفّة مع العفيفةِ عُفيرة بنت عباد. . . ونرى كيف خلّصَت قومَها من ظُلم عمليق ، وممّا أحدثه من فجورٍ وظلم وإذلال . . .

عُفيرةُ تُحَرّضُ قَوْمَهَا ليَقْتُلُوا عِمْليقاً:

* تذكرُ المصادرُ أنَّ عُفيرةَ بنتَ عباد أختَ الأسود بن عباد قد تزوّجتْ ، فلما أُهديَتْ إلى بعلِها وأرادوا حَمْلَها له ، انطلقوا بها _ كالعادة _ إلى عمليق كيما ينالَها قبله ، فَحُمِلَتْ إلى عِمليق ، ومعها القيان يتغنينَّ وينشدنَ ويضربْنَ بالدفوف وهن يَقُلن:

ابْدي بِعِمليتِ وقُومي فاركَبي وبادِري الصَّبحَ لأَمْرٍ مُعْجِبِ فسوفَ تلقينَ اللهِ عنده من مَهْربِ

* فلمّا أنْ دخلَتْ على عِمليق ، افترعَها وخلّى سبيلَها ، فخرجَتْ على قومها في دمائِها في أَسُوأ حالٍ ، وأقبح منظر ، وأذلّ مَخْبر ، وكانت قد شقّت قميصَها من قَبُلِ ومن دُبُرٍ والدمُ يسيَلُ ، وجعلت تقولُ وترتجزُ:

> يـرضــيٰ بهــذا يَــالَقــومــي حــرُّ لأخــــذةُ المـــوتِ كــــذا لنَفْســـه

لا أحـــدٌ أذَلُ مِــنْ جَــديــسِ أَهَكَــذا يُفْعَــلُ بــالعَــروسِ أهْدَىٰ وقد أعْطَى وسيْقَ المَهْرُ خيـرٌ مـن أَنْ يفْعَـلَ ذَا بِعِـرسِـه

* ثمَّ إنَّ عُفيرة لم تصبرُ على ما حلَّ بها ، وما أُتي إليها ، ومن ثم أخذتْ تحرّضُ قومَها جديساً على طسم بكثيرٍ من القصائدِ والأشعارِ ومن ذلك قولُها تحرضُ قومَها وهي تبكي وتقول:

> أيصلُحُ ما يُؤتى إلى فتياتِكم وتصبحُ تمشي في الدّماءِ عُفيرةٌ إ فإنْ كنتمُو لا تغضبوا عند هذه ودُونكُمو طيبُ العَروسِ فإنّما فلمو أنّنا كنّا رجمالاً وكنتم فقُبحاً وسُحقاً للذي ليسَ دافعاً فمُوتُوا كِراماً واصْبِروا لعدوّكم ولا تجزعوا في الحرب يا قوم إنّها فيهلكُ فيها كلُّ وغدٍ مواكلٍ فللبيْنُ خيرٌ من مقام على أذى

وأنتم رجالٌ فيكم عَـدَدُ النَّمـل صبيحةً زُفّت في النّساءِ إلى البعل فكونُوا نساءً لا تفيقُ من الكُحْل خلِقتمْ لأَثْوابِ العرائِس والغسْلِ نساءً لَكُنَّا لا نقرُّ على الـدُّلِّ ويختالُ يمشي بيننا مشيةَ الفَحْلِ لحربِ تلظّى بالضّرام منَ الجزْلِ تقومُ بأقوام كرام على رِجْلِ ويسلمُ فيها ذُو الطَّعَانُ وذُو القتل وللموتُ خيرٌ من مقامِ على الذَّلّ

* ولما رآها أخوها الأسودُ بنُ عبّاد ، وسمعَ مقالها ، نهضَ إليها ، وأدخلَها الخباءَ؛ وسمعتْ جديسُ شِعْرَ عُفيرةَ أيضاً فأنفتْ أنفاً شديداً ، وأخذتهم الحميّةُ؛ ومن ثمّ اجتمعت قبيلةُ جديس فقال لهم الأسودُ بنُ عفار ـ وكان سيّداً مطاعاً فيهم ـ: يا معشرَ جديس ، لَتُطِيعنّني فيما آمركم به ، أو لأتكئن على سَيْفِي حتى يخرجَ من ظهري.

قالوا: يا أسود ، فإنّا نطيعُك فيما تأمرنا به.

فقال الأسودُ: يا قوم ، إنَّ طسَماً ليسوا بأعزِّ منكم ، ولكنَّ مُلْكَ صاحبهم علينا وعليهم هو الذي يُذْعننا إليهم بالطَّاعة ، ولو امتنعْتُم منهم لكانَ لكمُ الحقُّ ، ولو لا عجزنا ومجاملتُنا لعمليق ، ما كانَ له فضْلُ علينا ، فأطيعوني فيما آمركم بهِ ، فإنه عز الدَّهر ، وذهابُ ذلّ العمر ، واقبلوا رأيى .

قالوا: يا أسود ، إنَّ القومَ أكثر منّا عَدَداً وعُدداً ، وهم أكثرُ وأحمىٰ وأقوىٰ أيضاً ، وإنْ نحنُ بادأُناهم بالحربِ لم نَقْوَ عليهم لكثرةِ جندهم وأنصارِهم.

قال الأسودُ: أَيُّها النَّاس ، إنِّي صانعٌ للملِكِ عمليقِ طعاماً ثم أدعوهم له جميعاً ، فإذا جاؤوكم متفضّلين في الحُلل يرفُلُونَ بها ، نَهضنا إليهم بأسيافِنا ، وهم غافلونَ فأهْمَدناهُم بها وجعلناهُم كأَمْسِ الدَّابِرِ.

فقالت عُفيرةُ لأخيها: لا تفعلْ فإنَّ الغَدْرَ ذِلَةٌ وعارٌ ، ولكنْ كاثروا القومَ في ديارِهم فتظفروا أو تموتُوا كراماً.

قال الأسودُ: لا يا أُخيّة ، بل نمكرُ بهم فنكون أمْكَنَ منهم.

* ثم إنَّ الأسودَ عزمَ على اغتيالِ الملك عمليقِ وجنودهِ ، وصنعَ طعاماً كثيراً ، وأمر قومه أنْ يخترطوا سيوفَهم ثمّ يدفنوها في الرَّمْلِ .

* وبعد أنِ استوثقَ ممّا فعلَ ، دعا الأسودُ عمليقاً وسألَهُ أنْ يتغذّىٰ عنده هو وأهلُ بيتهِ ، وقومه ، فأجابه ، وخرجَ إليه مع أهلهِ يرفلُون في الحُلْي والحُلل؛ ثم إنّهم أخذوا مجالسهم ومدّوا أيديهم إلىٰ الطّعام ، وعندها استثارت جديس الشّيوف وأخذوها من تحتِ الرّمل ، وشد الأسودُ على

عمليق وقَتَلَه ، وكذلك شدّ كلُّ رجلٍ من جديس على جليسه حتى قتلوهم ، والأسودُ يرتجزُ ويقولُ:

يا صُبحةً يا صُبْحة العروسِ حتّى تمشَّتْ بدم جميسِ يا طَسمُ ما لقيت منْ جَديس هئيس

* ولما فرغُوا من الأشرافِ ، شدّوا على السّفْلةِ وغوغاء النّاس ، فلم
 يدعوا منهم أحداً ، فقال الأسودُ في ذلك :

ذُوقي ببغيكِ يا طَسْمٌ مجلّلةً فقد أتيتِ لَعَمري أعجبَ العَجبِ إِنّا أَبِينا فلم ننفكَ نقتُلهم والبغيُ هيَّجَ منّا سَورةَ الغَضَبِ وللن يعونُوا كذي أَنْفٍ ولا ذَنبِ ولنْ يكونُوا كذي أَنْفٍ ولا ذَنبِ وإنْ رعَيْتُم لنا قُربى مؤكّدةً كنّا الأقارب في الأرحامِ والنَّسب(١)

* وهكذا تخلّصَ النّاسُ من ظُلمِ عمليق ، وكانت عُفيرةُ هي السَّبب في القَضاءِ عليه ، وبعده قُضي أيضاً على الفطيون بسبب امرأة أيضاً في يومِ زفافِها (٢).

⁽۱) انظر: المحاسن والأضداد (ص ۲۷۰ ـ ۲۷۲)، ونهاية الأرب (۳۳۹ ـ ۳۴۱)، والروضة الفيحاء (ص ۳۰۶ و ۳۰۰)، والأغاني (۱۲۸/۱۱ ـ ۱۷۱) مع الجمع والتصرف، وانظر: شاعرات العرب (ص ۲۰۳).

⁾ الفطيون ، أو الفيطون ، له قصة تشبه قصّة عمليق ، وجاءت في كتاب «المحاسنِ والأضداد» حيث قال: «ومثله ـ أي مثل عمليق ـ الفيطيون ، مَلِك تِهامة والحجاز ، فإنّه سَلَكَ مَسْلك عمليق في مُلْكِ طسم وجديس في أمرِ النّساء ، فأمرَ ألا تُزفّ منَ اليهودِ في مملكته امرأةٌ إلا وبدؤوه بها ، فلبثَ على ذلك عدّة أحوال ، حتى زُوجتِ امرأةٌ من اليهود من ابنِ عم لها ، وكانت ذات جمالِ رائع ، وكانت أختَ مالكِ بنِ عجلان منَ الرّضاعة ، فلمّا أرادوا أنْ يُهدوها إلى زوجِها ، خرجت إلى نادي الأوسِ والخزرج رافعة ثوبَها إلى سرتها ، فقام إليها مالك بن العجلان فقال: ويحكِ ما دهَاك؟ فقالت: وما يكونُ منَ الدَّاهية أعظم من أنْ يُنْطَلَق بي إلى غيرِ بعلي بعد ساعة؟ فأنفَ من ذلك أنفاً شديداً ، فدعا ببزّةِ امرأة فلبسَها ، فلمّا انطلقوا بالمرأة بعد ساعة؟ فأنفَ من ذلك أنفاً شديداً ، فدعا ببزّة امرأة فلبسَها ، فلمّا انطلقوا بالمرأة

* ويعلّقُ الدكتور أحمد الحُوفي على ذَيْنكِ القصّيَّن: قصّة عمليق ، وقصّة الفطيون ، فيقول: «وهذه القصّةُ وتلك تغايران ما كان العربُ يأخذون أنفسَهم به من الأنفةِ والغيرة على النّساء وشراء العِرض بالمُهَجِ والأرواح ، فليسَ بمعقولٍ أن يصبروا على عهارةِ الملك وفجوره ببناتِهم حيناً من الدَّهْرِ ، حتى يقيضَ الله لهم رجُلاً منهم يتنكّر ليغتالَ الملك العاهر. وإن كان الفطيون يهودياً فليس له أنْ يستبيحَ هذا العمل البشعَ المنافي لِدِينهِ ، دون أنْ يجد حَرَداً ومقاومة عنيفة من شعبه ورجالِ دِيْنهِ ، على أنَّ اليهود بالمدينةِ لم يكن عليهم ملك في أي عهد من عهودِهم. وبين القصّتين تشابه أو تماثل تام ، فكلُّ من الرّجُلين طاغية ، وكل منهما يفترعُ العرائس قبل أزواجهنَّ ، والنّاسُ يسكتون على هذا الجبروتِ منهما يفترعُ العرائس قبل أزواجهنَّ ، والنّاسُ يسكتون على هذا الجبروتِ رحاً من الزّمان ، ثم تستثيرُ أخت أخاها في القصّتيْن ، فيقتل الملك ردحاً من الزّمان ، ثم تستثيرُ أخت أخاها في القصّتيْن كلتيهما بهذا التَّفصيل» (١٠).

* وعلى الرغم من أنّنا نوافقُ الدكتور الحوفي في رأيه أو فيما ذهبَ إليه من استنتاج ، فإنّ العفّة رمزُ المرأةِ العربيّةِ ، وشعارها ، ولعلّ أحداً قد حاول أنْ يعتدي على عُفيرة بنت عباد ، أو حاول أنْ يخدشَ شرفها

إلى الفطيون صارَ كواحدةٍ من نسائِها اللواتي ينطلقنَ بها متشبهاً بامرأة وقد أعدّ سكّيناً في خفّه ، فلما دخلتِ المرأةُ على الفطيون مالَ مالك إلى خزانةٍ في ذلك البيت فدخلَها ، فلما خرجتِ النّساء ، ودخلتِ المرأةُ قام إليها ليفترعَها ، فخرجَ إليه مالك بالسّكين فوجأه فقتلَه ، ثمّ قال لليهود: دونكم جنوده فاقتلوهم ، فاجتمعتْ عليهم فقتلوهم عن آخرهم . (المحاسن والأضداد ص ۲۷۲ و۲۷۳).

⁽۱) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٣٥٩ و٣٦٠). وهذا استنتاج جميل من الدكتور الحوفي ، ونحن بدورنا نشك في صحة قصة عفيرة بنت عباد إذ لا يُعقل أن تستمر أعمال عمليق وفساده إلى أن يقتله أخو عفيرة . . .

فاستنجدت بأخيها الذي قضى على المعتدي ، ثم جاءتِ الأخبارُ والرّوايات فجعلَتْ من الحبَّةِ قبّةً.

* على أنَّ قصصَ العربِ لا تخلو من ذِكْرِ مواقف عظيمة تَشهد للمرأةِ العربيّةِ وللمرأةِ المُسلمة بالعفّة والنقاء والصَّفاء، وفي تاريخِ المرأةِ المسلمةِ موقفٌ في غايةِ الحزْمِ والطَّهارةِ، وذلك في المدينةِ المنوّرةِ في عَهْد سيّدنا وحبيبنا محمّد ﷺ.

* فقد قام يهودُ بني قينقاع بنقضِ العهدِ الذي بينهم وبين رسولِ الله ﷺ والمسلمين ، ويتلخّص أمرهُم فيما يلي حَسَب ما جاءَ في كتب السّيرة والمغازي.

* ذكرتِ المصادرُ المتنوعة أنَّ امرأةً من نساءِ العرب ، قد ذهبتْ إلى سوقِ بني قينقاع ، وكانت قد جَلَبت شيئاً تبيعُه هنالك في سوقِ أولئك الأوغاد الملاعين ، الذين رضعُوا الغدرَ والخيانة والخسّة والدّناءة والصّفاقة ، فلما باعت تلك المرأةُ العربيّة ما جلبته ، انطلقت فذهبت إلى صائغ يبيعُ الذَّهب والحلي والجواهر في السُّوق ، وهذا الصَّائغ يهودي أيضاً يحملُ الحقد بين جنبَيْه على العفّة والطَّهارة ، وعلى الرّسولِ عَلَيْ والمسلمين . . كانتِ المرأةُ تريدُ شراء شيءٍ من الحلي من عند ذاك الصَّائغ اللعين .

* كانتِ المرأةُ العربيّة متنقبةً نقاباً كاملاً بحيثُ لا يظهرُ من وجهها شيءٌ مطلقاً ، كما هي عادةُ النّساء العربيّات اللاتي كُنّ يتنقبنَ صيانةً وعفّةً؛ خلافَ اليهودِ واليهوديات الذين تمادوا في الشّر ، ولم يعبؤوا بالقيم الخلقيةِ ، والتَّقاليدِ العربيّة الكريمةِ؛ فقد كان عند الصّائغ اليهودي بعض اليهود الأخابثِ ممن سوّلت لهم أنفسُهم المشوّهةُ أمْرَ السُّوء ، فطلبوا منَ المرأةِ العربيّة أنْ تكشفَ النقاب عن وجهها ليروه ، وجعلُوا يريدونها على المرأةِ العربيّة أنْ تكشفَ النقاب عن وجهها ليروه ، وجعلُوا يريدونها على

كشف وجهها ، فأبَتْ ورفضت ، فعمدَ الصَّائعُ الملعونُ إلى عملِ مشينِ ، فقد عَقَدَ طرفَ ثوبها إلى ظهرِها وهي لا تشعرُ ، فلما قامَتْ انكشفَتْ عورتها ، فضحكوا منها وسخروا سخرية شديدة ، وأعجبهم ما صنعُوا من كونهم استطاعُوا بخبيهم أنْ يكشفُوا عورة امرأة عربية حرّة متنقبة ؛ ولا شكّ في أنّه عبث من قوم مفسدين في الأرضِ ، لا يقدّرونَ الأخلاق والمُثل ، ولا يقدّرون عاقبة ما جَنَتْ أيديهم الغادرة ، ونفوسُهم الفاجرة المريضة الدّنيئة .

* ولما أحسَّتْ تلك المرأةُ العربيّةُ العفيفةُ أنَّ عورتَها قد كُشِفَتْ بفعلِ ذلك الصَّائغِ اللعين الحقيرِ الخبيثِ ، جلستْ ثانيةً مكانَها ، وصاحَتْ واستغاثت ، بينما كان أولئك اليهودُ العابثون يضحكُون منها ، ويسخرونَ ويستهزئون بها استهزاءَ الشَّامتين ، هنالك سَمعَ استغاثِتَها رجلٌ من المسلمين ، فوثبَ على الصَّائغِ اليهودي فقتلَه وجعلَه كأمْسِ الدَّابر ؛ وهناك تجمَّعُ اليهودُ الخبثاءُ على ذلكم الرجل المُسلم الشَّهم فقتلوه ، فاستصرخَ أهلُ المسلم المسلمين على اليهودِ الغادرين الخُبثاء .

* ولا تنسَ _ أتها القارىء الحبيبُ _ ما لهذا العملِ الدّنيء من إثارةِ النّفوسِ العربيةِ التي جُبِلت على حمايةِ الأعراض ، وصيانةِ النّساء من مثلِ هذا العَبَث ، والاستهانةِ بكلّ شيء في سبيل الشَّرف والكرامةِ.

* وبسرعة تنادى المسلمون ، فجاؤوا سِراعاً للنَّجدة ، ولم يجدِ النَّبيُّ ﷺ بدّاً من غزوِهم ، وقد نقضُوا العهدَ بهذهِ الفعْلَة النّكراءِ والجريمةِ السَّوداء ، والطَّعنة الرّعناء ، وحاصرهم خمس عشرة ليلة ، وتبيّن لليهودِ أنَّهم أمام قوّة محمديّة لا قِبَلَ لهم بها ، وتذكّروا أنّهم مأخوذون بإساءتهم واعتدائِهم على امرأة عربيةٍ مُسْلمة ، وقتْلهم أحدَ المسلمين.

* واستشارَ سيَّدُنا وحبيبُنا رسولُ اللهِ ﷺ كبارَ أصحابِهِ ، فأشاروا

بقتلِهم ، وكان لهم حليفان: سيّدنا عبادة بنُ الصَّامت الأنصاريّ الخزرجيّ الله عنه وأرضاه: الله ي تبرّاً إلى الله ورسوله منهم وقال رضي الله عنه وأرضاه: «يا رسولَ الله ، أتولّى الله ورسوله ، وأبرأ من حِلْفِ هؤلاء الكفّار وولايتهم».

* وأمّا حليفُهم الآخر فهو عبدُ الله بنُ أبي ابن سلول زعيمُ المنافقين ورأْسُهم ورئيسُهم الذي ألحَّ على النَّبيِّ ﷺ فيهم حتّى قَبِلَ شريطةَ أنْ يخرجُوا من المدينةِ صاغرين ولهمُ النّساءُ والذّريّة ، وللمسلمين الأموال.

* واستسلم اليهودُ ، وألقوا أسلحتهم ، ورضُوا بالحكْمِ النّبوي ، وخرجُوا من المدينةِ ، ولنستمع إلى هذه التّغريدةِ الجميلةِ التي ترسمُ عدوانَهم وتتحدَّثُ عن استسلامِهم:

قام اليهود بنقض عهد المصطفى متعمدين إحدى النساء المسلمات غدت لسوق الفاسقين باعت لما جلبته في سوق اليهود المُجرمين ذهبَت إلى سوق الجواهر تشتري أو تسبين جلست إلى سوق الجواهر تشتري أو تسبين فأراد كشف خمارها فأبت إباء الرّافضين فأراد كشف خمارها فأبت إباء الرّافضين وهناك كانُوا خلفها بعض اليهود الواقفين عقد والطرف ثيابها من خلفها مُسلين همت تريد الانصراف لتأمن المُتطاولين كشف والعورتها بحيلتهم فصاروا ضاحكين صرخت فجاء ملبياً أحد الرّجال المُسلمين في سرعة قتل اليهودي عبرة لكخرين في سرعة قتل اليهود فمرتقوه كمُعتدين

فوراً تنادى المسلمون فأسرعوا متجمعين ولقد أحاطوا باليهود وحاصروهم قاهرين بعدَ الحصار استسلموا بالحُكْم للهادي الأمين

* وهكذا نرى أنّ العفَّة وطهارة الأثوابِ من سماتِ المرأةِ العربيّة ، بل إنَّ بعض النّساء اشتهرن بالعفّةِ ، وأصبح لقب العفّةِ يلتصقُ باسمهنّ ، فلا يُعرفن إلا به ، ومن أمثلةِ ذلك ليلى بنت لكيز المعروفة باسم «ليلى العفيفة» ، وقد توسعنا بها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء»(١).

* أمّا ضيفتنا عُفيرة بنتُ عباد فلا نعلمُ منْ أخبارِها بعد تلكم الحادثة شيئاً ، وتسكتُ المصادر بعد ذلك عن أخبارِها ، لكنها تظلُّ من أعلامِ نساءِ المشرقِ العربيّ اللواتي أثرين التَّاريخ النّسوي برقائقِ الأخبار ورائقِ الأشعار؛ وكُنّ مضربَ المثلِ في العفّةِ والإباء.

* * *

⁽۱) اقرأ سيرة ليلى العفيفة في كتابنا «نساء في قصور الأمراء ص ٤٧٠ ـ ٥٠٠) تجد عفة المرأة العربية في غابر الأزمان.





عِنب بنت عفیف

- * ابنها: حاتم الطائي؛ المشهور بالكرم والجود والسخاء ، وكانت كابنها شاعرة ، معطاء ، سخية .
 - * كانت أقرى الناس للضيف ، ولا تردُّ سائلًا ، ولا طالب معروف.





المَرْأَةُ وَالسَّخَاءُ:

* في تاريخ الجودِ تبرزُ أسماءُ نساءِ كثيراتٍ في مشرِقنا العربيّ قد ضربن القدحَ المعلّىٰ في هذا المضْمَار ، حيث جُبِلْنَ على الكرمِ والجودِ والسّخاء ، فكان البذلُ سجيةً فيهنّ ، وطبعٌ لا تستطيعُ إحداهنَّ أَنْ تتخلّىٰ عنه ، بل تتحلّىٰ فيهِ ، وتعتبَرهُ أَجْمَلَ من الحُليّ والحُلل .

* وفي تاريخِنا العربيّ أمثلةٌ على الكريماتِ اللواتي علمْنَ أَنَّ اللهَ قد تكفَّل بالأرزاقِ ، وأنَّ على المرءِ أنْ يعطيَ ويجودَ ، فالمالُ غادٍ ورائحٌ ، ومنْ هؤلاء النسوة الكريمات واحدة من شواعرِ العربِ وكرمائهن اللاتي يُضربُ المَثَل بجودهن وتدعى ثُبيتةُ بنتُ مرداس بن قحفان العنبريّة إحدى كريماتِ عصْرِها ودهرِها.

* كانت ثبيتةُ ابنة مرداس واحدةً من شاعراتِ العربِ وبليغاتهنّ ، وكانت شديدة الكرمِ ، كما كان زوجُها رجُلًا كريماً لم يوجدْ أكرمُ منه في زمانِه ، ويبدو أنَّه كان قريبها .

* قيل: إنّ أخا امرأته قد أتاهُ يوماً فأعطاهُ بعيراً من إبلهِ ، وقال لامرأتِهِ ثُبيتة: هاتي حَبْلًا يقرنُ بهِ ما أعطيناه إلى بعيره، ثمّ أعطاه بعيراً آخر، وقال: هاتي حَبْلًا، ثمّ أعطاهُ ثالثاً؛ فقال: هاتي حبلًا؛ فقالت: واللهِ ما بقيَ عندي حَبْلٌ...

فقال: عليَّ الجِمالُ ، وعليكِ الحِبَالُ.

فرمَتْ إليه خمارَها ، وقالت: اجعلْهُ حَبْلًا لبعضها ، فأنشأَ يقُول:

لا تَعنُدُليني في العَطاءِ ويسّري لكلّ بعيدٍ جاءَ طالِبُه حَبْلا فَاتّبي لا تَبْكي عليّ أفَالُها إذا شبعَتْ من روضِ أوطانِها بَقْلا فَلَمْ أَرَ مثلَ الإبلِ مالاً لِمُقْتَنٍ ولا مثل أيّامِ الحقوق لها سُبلا

فأجابَتْه ثُبيتةُ وأنشدتْ:

حَلَفْتُ يميناً يابنَ قُحفان بالذي تزالُ حبَال المُحصدات أعدَّها فأعْطِ ولا تبخلُ لمنْ جاءَ طالِباً

تكفَّلَ بالأرزاقِ في السَّهْلِ والجبل لها ما مشَى منها على خُفّه جَمَل فعندي لها خطمٌ وقد زالتِ العِلل

* وتروي الأخبارُ أنّه كان هناك نساءٌ كريمات (١) وربّات أدبٍ ، وأنّه قد نزلَ ببعضهنَّ ضيفان ، فأكرمْنَهم وأفضْنَ عليهم من جودهنَّ.

* ويذكرُ الأخباريّون أنَّ أختَ حارثةَ بن لأم الطَّائية قد فعلَتْ ذلك ، وكذلك أمِّ شَذرة (٢) أمّ الزّبرقان بن بدر ، فقد أكرمتِ الحُطيئةَ الشَّاعر وأولادَه أيّما إكرام.

(۱) منَ النّساءِ السَّخيات المشتهراتِ بالكرم في مشرقنا العربيّ: عوانَةُ بنتُ زيد الحنفية المعروفة باللافظة لِسَخاتها ، وكذلك حبيبةُ بنتُ عبد العزى الذّبيانية العوراء ، وهي شاعرةٌ منْ شواعرِ العرب ، وكانت تُوصف بالكرم والسَّخاءِ والبحودِ؛ ومن شعرِها:

إنّي وربّ الـرّاقصات إلـى مِنـى بجنـوبِ مكَـةَ هـديهـنّ مقلَّـدُ أولـي علـى هُلـك الطعـام أليّـة أبــداً ولكنّـي أبيــنُ وأرشــدُ وصّـي بهـا جـدّي وعلّمنـي أبـي نفْـضَ الـوعـاء وكــلّ زادٍ ينفــدُ

_ ولعلَّ طرفةَ بنَ العبد البكريّ قصد اللافظة في شعرِه عندما قال:

يداك يد جودُها يُرتجى وأخرى لأعدانِها غَائِظة فأما التي خيرُها يُرتجى فأجودُ جوداً من اللافظة وأمّا التي شرّها يُرتجى فنفس العدوّ لها فائظة وأمّا التي شرّها يُتقى فنفس العدوّ لها فائظة «أمُّ شذرة»: هي أمُّ الزَّبرقان بن بدر ، وهي أيضاً عمّةُ الفرزدق همامُ بنُ غالب الشّاعر المشهور ، وهي بنتُ صعصعة بن ناجية المجاشعيّة ، واسمها هُنيدة.

الشاعر المشهور ، وهي بنت صعصعه بن ناجيه المجاشعيه ، واسمها هنيدة . وتروي الأخبارُ التي وصلت إلينا أنَّ الشَّاعر الحُطيئة نزلَ بها؛ وكانَ الحطيئةُ دميماً سيىء الخلْقِ ، لا تأخذُه العينُ ، ومعه عيالٌ كذلك ، فلمّا رأت أمُّ شذرة حالَه هانَ عليها ، وقصَّرتُ به ، ولم تبلغُ ما يرضيه ، فنظرَ بغيضُ وبنو أنف النَّاقة إلى ما تصنع به أمّ شذرة ، فأرسلوا إليه: أنِ ائتنا ، فأبئ عليهم وقال: إنَّ منْ شأنِ النِّساء التقصير والغَفْلة . ولم يجبهم إلى ذلك ، فدسّوا إلى هُنيدة أنَّ زوجَها يريدُ أن يتزوَّجَ ابنَة الحطيئة وكانت جميلةً كاملةً ، وعندها ظهرتْ من أمّ شذرة هنيدة جفوة ، وهي في ذاك تُدارِي به . (الأغاني ٢/ ١٧٢ ـ ١٧٤) باختصار وتصرف .

* ومن هؤلاء الكريماتِ اللواتي عطّرنَ تاريخَ الكرمِ بجودهنّ ، وكُنَّ من أسخىٰ النّساء وأكرمهنّ عنبةُ بنتُ عفيف بن عمرو بن امرىء القيس الطّائية (١)؛ أمّ حاتم الطّائي التي قيل بأنّها كانت أسخىٰ نساءِ العرب ، حيث كانت في منتهىٰ الجودِ والبذلِ والسَّخاء.

لا أَمْنَعُ سَائِلاً ما حَييثُ:

* لم تكنِ المصادرُ كريمةً علينا كَكَرمِ عنبةَ أمِّ حاتم ، فقد ضنَّتْ علينا في كثيرٍ من أخبارِها ، ولم تنفحْنَا إلا بقطراتِ لا تبلُّ الصَّدى ، ولكنّها كانتْ جميلةً كقَطْر النَّدى ، كما أنَّها تفيدُ في رسمِ بعضِ ملامحِ الكرمِ عند هذه المرأةِ السَّخيةِ الشَّاعرةِ المعطاءِ المِتْلافِ للمالِ. . .

* فقد كانت عنبة ابنة عفيف في الجودِ بمنزلةِ ابنها حاتم ، وكانت لا تدخرُ شيئاً ، ولا يسألُها أحدٌ شيئاً فتمنعَه ، حتى غدتْ بذلك أشهرَ من نَجْم الثّريّا في قومِها ، وبينَ نساءِ العرب ، ولهذا فقد ملَّها أهلُها وحَجروا عليها ، وكرهُوا جودها وسخاءَها. قال ابن قتيبة: «وكانت عنبةٌ لا تليقُ سيئاً سخاءً وجُوداً»(٢).

* وفي سخائِها يذكرُ الأصفهاني قصَّةً مفادها: «أنَّ عنبةَ بنت عفيف وهي أمُّ حاتم كانت ذاتَ يسارِ ومالٍ ، سخيّةَ اليد ، وكانت من أسخىٰ

⁽۱) الشعر والشعراء (۱/ ۲٤٢ و ۲٤٣)، والأغاني (۱۷/ ٣٦٥ و ٣٦٦)، وديوان حاتم الطائي وأخباره (ص ١٠)، وعيون الأخبار (١/ ٣٣٦)، ومجمع الأمثال (١/ ١٢٣)، والأخبار الموفقيات (ص ٤٣٨)، وسرح العيون (ص ١١١ و١١٧)، وأعلام النساء (١١/ و١١)، والمستجاد من فعلات الأجواد (ص ٧٠ و ٧١)، وشاعرات العرب (ص ٢٩٠) وغيرها كثير. وقد جاء في بعض المصادر أن اسمها «عِنَبة» بكسر ففتح، وفي الأغاني «عتبة» وفي الأخبار الموفقيات «النوار» وفي بعض المصادر الأخرى «غنية».

⁽٢) الشعر والشعراء (٢٤٣/١).

النَّاس وأجودِهم ، وأقراهم للضَّيف ، لا تردُّ سائلًا ، ولا طالبَ معروفِ ، وكانت لجودِها لا تلقى شيئاً تملكُه ، بل تَهَبُ ما عندها للسَّائلين.

* ولما رأى إخوتُها إتلافَها للمال ، وهِبَتَها لما تملكُ وسخاءها ، أفزعَهم هذا الجود ، وائتمروا بينهم أنْ يمنعوها مالَها ، ثم إنّهم حجروا عليها ولم يعطوها شيئاً ، وحبَسُوها في بيتٍ سنة .

* وظلّوا كذلك دهْراً لا يُدفعُ إليها منْ مالِها شيءٌ ، بل كانوا يطعمونَها قوتَها ، ولا يزيدون عليه ، وذلك بقدر ما يمسكُ الرّمقَ منَ المطعم ، لعلّها تكفّ عمّا كانت عليه ، حتى إذا ظنّوا أنّهم نجحُوا في خطّتِهم ، وأنّ اختَهم عنبة قد وجدَتْ صعوبة ذلك وألّمه ، وأنّها قد ذاقَتْ وقْعَ العُسْر ، وطعمَ البؤس ، وعرفَتْ فَضْل الغنيٰ والمالِ ، لعلّها تكفّ وترعوي عن إتلافِ مالها؛ وعندها أخرجوها من محبسها ودفعُوا إليها صِرمة (١) من إبلها ، وما علموا أنَّ منْعَهم أختَهم من الجودِ ، وحرمانهم لها قرابة سنة من الزَّمان قد زاد من عزمها على أن تكونَ أسخىٰ يداً من ذي قبل ، وأشد كرما ، ولا تُقصِّر مهما كانتِ الأحوالُ والظُروفُ ، وكيف تقلعُ عن الكرم والسَّخاء ، وقد ذاقتْ آلام كلّ محتاج ، وما يقاسيه من ألم الفَقْر والعوز؟!

* ولم تمكث عنبةُ فترةً بسيطةً حتى أتَنها امرأةٌ من قبيلةِ هوازن تستجديها، وكانت هذه المرأةُ تأتيها كلّ سنةٍ تسألُها ، وقد عوَّدتْها عنبةُ بنت عفيف على العطاءِ حتى وثقتِ المرأةُ الهوازنيّةُ بذلك ، وأصبحَ عطاءُ عنبةَ لها عادة.

* ولما رأتْ عنبةُ المرأةَ ضحكَتْ واستبشرتْ وقالَتْ لها: يا هذهِ ، دونَك هذه الإبل فخُذِيْها جميعها ، فواللهِ لقد عضَّني الدَّهر بِنَابِه عضّةَ لئيمٍ ، ولقد مسّني منَ الجوعِ ما آليتُ معه ألا أمنعَ سائلًا شيئاً ما حييتُ... فأخذتِ المرأةُ الإبلَ وانطلقتْ تثنى عليها بلسانِ الشّكْر..

 ⁽١) "صِرمة": الصرمة بكسر الصاد: القطعة من الإبل ما بين العشرين إلى الثلاثين.

* ولما انطلقتِ المرأةُ الهوازنيّةُ ، أنشأتْ عنبة تتحدَّثُ وهي تذكرُ كيفَ أَن الجوعَ قد نشبَ مخالِبَه بها وعضَّها عضّةً منكرةً ، ثمّ توجِّهُ خِطَابَها لأولئكَ اللائمين ، وأولئك العذّال الذين يمنعونها من الجودِ الذي فُطِرَ ووُلِدَ معها ، فكيفَ تستطيعُ أنْ تتركَ طبيعةً وُلدَتْ معها؟ اسمعْ إليها تقول:

لَعَمري لَقِدْماً عَضَّنِي الجوعُ عضّة فَآليتُ ألا أمنعَ الدَّهْ رجائِعا فَقُولا لهذا اللائمي الآن اعْفِني فإنْ أنتَ لم تَفْعَلْ فعضَّ الأصابِعا فماذا عسَاكم أنُ تقولُوا لأختِكم سوى عذلِكم أو عذلِ مَنْ كانَ مانعا وماذا تَرونَ اليومَ إلاّ طبيعةً فكيفَ بتركي يا بنَ أمِّ الطَّبائعا»(١)

* وبهذا التّصرّفِ الحسنِ الوّضيءِ عَلِمَ إخوةُ عنبة أنَّ ما صنعوه كان وَبالاً عليهم ، فتركوها على سجيّتها.

حقاً _ عزیزی القاریء _ کیف یترك المرء الطَّبائع (۲) ، لا سیما إذا
 کانتِ الطَّبائع طبائع جودٍ وسخاءِ وكرم ؟! (۳).

⁽۱) انظر: الأغاني (۱۷/ ٣٦٥ و٣٦٦) بشيء من التصرف. وانظر كذلك ديوان حاتم (ص ١٠)، وسسرح العيـون (ص ١١٦ و١١٧)، والشعــر والشعــراء (١/ ٢٤٢ و ٢٤٣)، وعيون الأخبار (١/ ٣٣٦) مع الجمع والتصرف.

⁽٢) من روائع ما يُذكَرُ قي الطَّبائع المتشرِّبةِ بالجودِ ما وردَ عن يزيدَ بنِ المهلّب «أنَّه كانَ مُسافراً بصحبةِ ابنه معاويةَ بنِ يزيد ، فمرَّ بامرأة بدويّةٍ ، فاستضافتْهُما ، ومنْ ثمَّ أحسنَتْ نزُلَهما ، فذبحتْ لهما عنزاً ، فلمّا أكلا ، قال يزيدُ لابنهِ: ما معكَ منَ النَّفقة؟ قال: مئةُ دينار.

قال يزيدُ: أعْطِها إيّاها.

فقال له ابنهُ: هذه امرأةٌ فقيرةٌ ، يرضيها القليلُ وهي لا تعرفُك.

فقال يزيد: إنْ كانَ يرضيها القليلُ ، فأنا لا يُرضيني إلا الكثير...

ثم أردفَ قائلًا لابنه: وإنْ كانتْ لا تعرفُني فأنا أعرفُ نفسي. . ».

 ⁽٣) ممّا جادت به القريحة هذه الجملة المليّحة في الجود والسَّخاء وهي قولُنا: «لِلْجُودِ
للَّةٌ لا يُدْرِكُهَا إلا الأسْخِيَاء».

عِنَبَةُ وَابنُهَا حَاتم:

* تذكرُ المصادرُ التي بين أيدينا أنَّ عنبةَ بنتَ عفيف هذه قد تزوَّجها عبدُ الله بن سعد بن الحشرج الطَّائي ، ولا نعرفُ شيئاً يُذكَرُ عن حياتِها مع عبدِ اللهِ هذا ، ولا نعرفُ كذلك شيئاً عن حياةٍ عبدِ الله بن سعد الطّائي هذا ، ولعلَّ ذلك يعودُ إلى أنَّها لم تمكثْ معه طويلًا ، لأنّه قد ماتَ بعد أنْ ولكتْ له حاتماً ، وربّما ولدتْ له ابنا آخر فكان أخاً لحاتم.

* وتذكرُ المصادرُ أيضاً أنَّ جدَّ حاتم سعدَ بنَ الحشرج قد قامَ بأمْرِ عنبة ، وأمْرِ حفيده حاتم كذلك حتى شبَّ ، وذهبَ في الجودِ مذْهَبه المعروف المُتَعالم المشهور في دنيا الأَجْواد.

* وذكروا أنَّ عنبةَ أمَّ حاتم الطَّائي قد أوتيتْ وهي حُبْليْ في المنَام، فقيل لها: «أغلامٌ سمحٌ يُقال له حاتم أحبّ إليك أمْ عشرة غِلمة كالنَّاس، ليوتُ ساعة البأس، ليسوا بأوغال(١)، ولا أنْكَاس (٢)؟

فقالت عنبةُ: بل حاتم (٣).

* ونشأ حاتمُ في كنفِ أمّه يتحلّى بأخلاقِ جودِها ، وورثَ عنها السَّخاء والكَرَم ، قال الميدانيُّ ـ رحمه الله ـ: «وزعَمَ الطَّائيّون أنَّ حاتماً أخذ الجود عن أُمّه غنيّةَ بنتِ عفيفِ الطَّائية ، وكانت لا تليقُ شيئاً سَخاءً وجُوداً» (٤).

⁽۱) «الأوغال»: الوغل: الضعيف الدنيء المقصر، والداخل على القوم في طعامهم وشرابهم دون أن يدعى.

⁽٢) «الأنكاس»: جمع نكس ، وهو الضعيف المقصر عن غاية الكرم.

⁽٣) هذه القصة مبالغ فيها ، ولعلها من تخيلات الرواة والقصاص ، والله أعلم بالصواب.

⁽٤) انظر: مجمع الأمثال للميداني (١/ ٣٣٧) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

* ويبدو أنَّ حاتماً قد وافَتْه المنيّةُ قبل أمِّه عنبة ابنة عفيف ، ولا تفصحُ الأخبارُ عن ذلك جليّاً ، ولكنَّ الباحث يستشفُّ ذلك من خلالِ النُّصوصِ والأخبارِ التي تتراءىٰ له في بعضِ المظانّ والمصادر.

* فقد ذكرَ صاحب "التذكرة الحمدونيّة" قصّة مفادُها: "أنَّ بني طيىء قد عظُم عليهم موتُ حاتم ، فادّعى أخوهُ أنْ يخلفَه في جوده وسخائِه ، وأنْ يقريَ للضّيوف كما كان حاتم يصنعُ ذلك. ونُمِيَ الخبرُ إلى أمّه عنبة ، فقالَتْ له: هيهاتَ هيهاتَ ، وأنّى لكَ ذلك؟! فشتّان ما بين خُلُقَيْكما ، لقد وضعتُ حاتماً ، فبقيَ سبعة أيّام لا يرضَعُ حتى ألقمتُ أحدَ ثديي طِفْلًا منَ الجيران!!! ، وكنتَ أنتَ راضعاً أحدهما وآخذاً الآخر بيدكَ ، فأنّى لك؟".

* وهكذا طار صيتُ حاتم في ميدانِ الجود ، وكلُّ ذلك أخذَه عن أمّه التي كادَ تاريخُ النّساء أنْ ينساها ، أو يتركَها جانباً ، ويتحدّث عن سخاءِ ابنها حاتم الذي بلغ بجودِه سَمْع الجوزاء ، وبلغ به السّها.

* ويظلُّ الجودُ والسَّخاء خُلُقاً محموداً متوارَثاً بين النَّساء العربيّات في العَصْر الجاهليّ ، ولما جاءَ الإسلامُ الحنيفُ أبانَ عن خلائق كثيراتٍ منهنّ ، وظهرنَ في أجملِ آياتِ الكرم وصُوره ، وذاعت أنباءُ كرمِ وسخاءِ كثيرات من المُسلمات المؤمنات.

* وإذا كان كرمُ الجاهليّة يُرادُ به أحياناً حُسْنَ الأحدوثة ، أو التّباهي بين النّاس ، وتجنّب اللؤم ، فإنّ جودَ المسلمات وسخاءَهُنَ وكرمهنَ كان

⁽١) انظر: التّذكرة الحمدونية. وهذه القصَّةُ وإن كانَ مبالَغٌ فيها ، فإنّها تدلّ علىٰ أنَّ الجودَ فطرةٌ وسجيّةٌ في الإنسانِ منذُ ولادتِه ، وينمو ذلك عنده بحسبِ البيئةِ التي ينشأُ فيها ، وبحسبِ ما عوَّده أبوه إنْ كريماً فكريم ، وإنْ بخيلاً فبخيل حقير.

ابتغاءَ وجُهِ العليمِ الخبير ، وكان عطْفاً على المحتاجين ، وامتثالاً لأوامر العزيزِ الحميدِ الذي له مُلْك السَّموات والأرض.

* وفي سماء الإسلام اشتهرت بالجود كواكب من النساء لا يكاد يحصيهن العاد ، من مثل أمّنا وسيدتنا وسيدة نساء العالمين أمّ المؤمنين خديجة بنت خُويلد ـ رضي الله عنها وأرضاها وحَشَرنا في معيّتها ـ وكذلك أمّنا عائشة الصِّديقة بنت الصّديق ، وأمّنا زينب بنت جَحْش ، ثمّ أسماء بنت أبي بكر الصِّديق رضي الله عنهنَّ جميعاً ، ثمَّ تلاهُنَّ جيْلٌ منَ السَّخيّات نذكرُ منهنَّ: عاتكة بنتُ يزيد بن معاوية ، وسُكَيْنَة بنتُ الحُسين ، وزبيدة بنتُ جعفر زوج هارون الرّشيد ، وغيرهن كثيرات كثيرات في الماضي والحاضر (۱).

* لقد قوّى الإسلامُ المرأةَ في الفضائلِ ، وجعلَها قسيمةَ الرّجلِ في الأُجْرِ والثّواب ، اقرأْ قولَه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُصَدّقِينَ وَٱلْمُصَّدِقَاتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللّهَ قَرْضًا حَسَنَا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٨].

* ونعودُ إلى ضيفتنا عنبةَ بنتِ عفيف التي اشتُهرت في سماءِ الجودِ لنودّع سيرتَها اللطيفة ، وقد عرفنا شيئاً عن جودِها ، لكنّا لم نعرفْ متى

⁽۱) ممّا يلفتُ الأنظارَ في الحاضرِ جودُ كثيراتٍ من النّساء المُعاصراتِ ، وقد رأيتُ بعيني كثيراتٍ منهنّ ، ومن أمثلةِ ذلك أنّه لما دعا خادمُ الحرمَيْن الشَّريفين الملك فهد بن عبد العزيز في السّعودية إلى التّبرع لأبطالِ القُدس في الانتفاضةِ المباركةِ في هذه الأيّام من شهر رجَب عام (١٤٢١ هـ) رأيتُ كثيراً من النّساء في السُّعودية وغيرها يبعثنَ بالأموالِ الكثيرةِ ويرسلنَ بحليهنَّ الغالية النّمن ، وقد سجّلتُ أجهزةُ الإعلامِ ذلك ، ومن الأشياءِ المطربةِ الجميلةِ أنَّ إحداهنَّ قد تبرعَتْ لهؤلاءِ الأبطالِ ببيتِها واسمُها «ثريّا» ، وقد أثارني هذا المشهدُ وأبكاني ، وبهذا سجّلتِ المرأة المعاصرةُ جُوداً يحاكي جودَ المُسلمات في عَصْر الرسالة. أمّا جود الرّجال المرأة المعالل القدس فكانَ شيئاً لا يُوصف سخاءً وكرماً فجزاهم اللهُ خيراً.

توفيت ، إلا أنّنا استطعنا أن نلقيَ بعضَ الضَّوء على سيرتها لتقتديَ النّساءُ بكرمها وجودِها ، بل لتقتدي النّساء بجودِ المسلماتِ في عَصْر صدِرِ الإسلام وما تلاه من عصور.

* * *





ماوت بنت عف زر

 « زوجة حاتم الطائي ، الشاعر الجواد ، مضرب المثل في العطاء .

 « كانت جميلة ، سخية ، حفظ لها التاريخ سجلاً ذهبياً .





مِنْ نِسَاءِ الكُرَمَاءِ:

* اشتُهِرَ العربيُّ الأصيلُ بكرمِهِ وسخائِهِ وجودِه ، كما اشتُهِرَ ببسالَتِهِ وفروسيّتِهِ ، وكانَ الكَرَمُ والشَّجاعةُ معاً الفضيلتَيْن العظيمتيْن في الحياةِ العربيّةِ والبدويّةِ.

* وممّا لا شكَّ فيه في تاريخ نساءِ المشرقِ العربيّ أنّهنّ أَلِفْنَ الكرمَ كما كُنَّ يألفْنَ أزواجهنَّ ، وكانتِ المرأةُ العربيّةُ المشرقيّة كريمةً سخيّةً ، لكنّها لم تبلغْ مبلغَ الرّجُلِ في جودِه وسخائِه وعطائِه.

* ولكنَّ هناكَ نساء مشرقيّات بلغْنَ السُّها في الجود والسَّخاء ، وبلغْنَ المنتهىٰ في الكرم؛ منهنّ عنبةُ بنتُ عفيف (١) أمّ حاتم الطَّائي ، وكانت من أسخىٰ النِّساءِ، وكذلك حفيدتُها سفَّانة (٢) ابنة حاتم الطَّائي (١) ، وهُنيدة بنتُ صعصعة زوجُ الزَّبرقان بن بدر، وسيّدتنا وأمُّنا الطَّاهرة خديجةُ بنت خُويلد (٣) ـ رضي الله عنها وأرضَاها وحشَرنا في معيّتها ـ وأمّنا الصِّدِيقةُ بنتُ الصِّديق ، وغيرهن كثيرات ـ رضي الله عنهنَ وأرضاهن _ .

* ومنَ الطّبيعي في الحياةِ أنْ تكونَ المرأةُ _ بشكلِ عام _ أقلَّ كرماً منَ الرّجُل ، وأقصرَ باعاً منه في هذا الميدان العظيمِ ، لأنَّ مالَها أقلُّ ، وهي في أكثر الأحيانِ لا مالَ لها إلا مال الزّوج أو مال الأب ، ثم إنّها ليست مختلطة بالرّجال الأجوادِ اختلاطاً يبعثُها على الكرّمِ ، ويمهّدُ أمامَها الطَّريقَ إلى الشّهرة به.

⁽١) اقرأ سيرتها وأخبارها في هذه الموسوعة الجميلة.

⁽٢) اقرأ سيرة سفانة في هذا الكتاب.

 ⁽٣) اقرأ سيرة أمنا الطَّاهرة الكريمة السَّخية خديجة بنت خويلد في موسوعتنا الشهيرة
 المباركة «نساء أهل البيت» (ص ١١ ـ ٧١) ففي ذلك خير كثير وبركة بإذن الله.

- * ونحنُ الآن أمامَ امرأةٍ من مشاهيرِ نِساءِ الكُرمَاء في سماءِ الكرم وفضَاء الجودِ، ولولا كرمُ زوجها لما خلَّدها تاريخُ النّساءِ المشرقيّات، ولا ذكرَها ، وربّما نسيَها كما نسيَ كثيراتٍ ، أو تناسىٰ كثيراتٍ ممن اشتُهِرنَ في عصرهنّ ، ثم غفلَ عنهنَّ غفلةً ذهبْنَ في طيّاتِها في أوديةِ النِّسيان.
- * وزوجُ ضيفتنا اليوم منْ مشاهيرِ كرماءِ عَصْره ، بل الدّنيا ، وكان جَواداً شاعِراً جيّدَ الشّعر، وكان حيثما نزلَ عُرِفَ منزلُه ، وكان فارساً مغواراً له في ميادين الفروسيّة صولاتُ وجولاتُ ، وكان ظَفِراً ، إذا قاتلَ غلَبَ، وإذا غَنِمَ أَنْهَبَ ، وإذا سُئِل وَهَبَ ، وإذا أَسَرَ أَطْلَقَ، وإذا سابقَ سبقَ، وذكروا أنّه قسَّم مالَه بضْعَ عشرة مرّة ، وكان أقسمَ باللهِ لا يقْتُلُ واحدَ أُمِّهِ.
- * هذا الكريمُ هو حاتمُ بن عبد الله بنِ سعد بن الحشرجِ الطّائي ، وأمُّه عنبةُ بنتُ عفيف الطّائية من أسخىٰ نساءِ عَصْرِها .
- « وأمّا امرأتُه التي خلّدها التّاريخُ النّسويّ المشرقيُّ فهي مَاويَّةُ بنْتُ عَفْزر (١) التي شهدتْ كرَمَه وسخاءَه ، وعرفتْ كذلك حالَه وأحْواله وأخبارَه .
- * ومن هنا اشتُهِرتْ ماويّةُ في تاريخِ النّساء ، وعرفَها النّاس من خلالِ زوجِها السَّخي حاتم ، ذلك الذي خلَّدها في شِعْره ونظْمِهِ على مرِّ العُصُور والأَعوامِ والأيّام ، فهلْ أتاكَ خبرُ ماويّة هذه؟ وهل أتتْكَ الأحاديثُ عنها وعن أحوالِها؟ وحياتها مع جودِ حاتم وسخائِه (٢)؟!

⁽۱) الشعر والشعراء (۱/ ۲٤٢ و ۲٤٢ و ۲٤٦ و ۲٤٧) ، وسرح العيون (ص ١١٤) ، وديـوان حـاتـم وأخبـاره (ص ١٥٩ و١٦٥ و١٧٩ و٢٠٩ و٢٠١ و٢١٨ و٢٨٩) ومواضع أخرى متفرقة من الديوان؛ ومجمع الأمثال (٢/ ١٠٤) ، والأغاني (٢/ ٣٦) و(٥/ ٣٧٧ و٢٧٨ و٣٧٨) و(٢١/ ٣٦٤) و(٢١/ ٣٦٢ و٣٧٩ ـ ٣٨٦ و ٣٩٠) ، وجمهـرة الأمثال (١/ ١١٩ و ١٢٠) ، والمستجاد من فعلات الأجواد (ص ١١) وغيرها.

⁽٢) قال أبو عُبيدة: «أجوادُ العرَبِ ثلاثةٌ: كعبُ بنُ مامَةَ ، وحاتِم طيىء (وكلاهما ضُرِبَ=

مَاوِيَّةُ وَحَاتَمُ:

* اشتُهرتْ ماويّة بنتُ عفزر هذه شهرةً عظيمةً في قصائدِ حاتم الطّائي ، ومن العجيبِ أنَّ اسمهَا وردَ في قصيدةٍ واحدةٍ له ثماني مرّات ، كما أنَّ اسمَها قد وردَ في قصائد أخرى مرّاتٍ ومرّات ، وكلُّها موزّعة موجودة في ديوان حاتم (٢).

* وماويّةُ هذه امرأةٌ حفلت بأخبارِها كتبُ الأدبِ والنّوادر والتّأريخ والتّراجم ، وأوردوا قصَّتها بألوان وأشكال متعدّدة ، وذكروا أحوالاً مختلفةً في صِلَتِها بحاتِم الطَّائي.

به المثَل) وهرمُ بنُ سنان صاحب زُهير». (الشّعر والشّعراء ١/ ٢٤١).

ـ وكان لحاتم قدورٌ عظامٌ بفنائه لا تنزلُ عن الأثافي ، وإذا أهلَّ رَجَبُ نحرَ كلَّ يومِ وأطعمَ. وقال ابنهُ عديُّ بنُ حاتم عنه: «كان حاتمٌ رجلًا طويلَ الصَّمت ، وكانً يقولُ: إذا كان الشّيء يكفيكَه التَّركُ فاتركْهُ».

ـ وأخبارُ حاتم بالجودِ أكثرُ وأشهرُ منْ أنْ تُذكر هنا ، وممّا قالَه الشُّعراء في جُودِ حاتم؛ وفي سُخائِهِ المشهور قول أحدِهم:

وحاتُم طَيِّى إِنْ طُوىٰ الْمُوتُ جَسْمَهُ ﴿ فَ ـ وقال أبو تمّام الطّائى يفخر بجودِ طبيء:

فَنَشْرُ اسمهِ في الجودِ عـاشَ مخلَّـدا

وسمّـي فيهــم وهــو كَهْــل ويــافِــعُ وزيــدُ القَنــا والأثــرمــان ونــافــعُ

(١) انظر: خزانة الأدب (٤/ ١٩٨ و ٩٩١) ، وأوَّلها:

ـ ومثل هذا كثيرٌ جدّاً في أدبنا العربيّ الوضيء الوضّاء.

أماويَّ قد طالَ التجنّبُ والهجرُ وقد عذرتْني في طلابكم عذْرُ (٢) راجع ديوان حاتم بن عبد الله الطّائي وأخباره في مواضعَ متفرقة.

* فقد ذكرَ البغداديُّ في «خزانته» قصّةَ ماويّة نقلًا عن الزّجّاجي في «أماليه» قال: «أخبرنا ابنُ دُريد قال: أخبرني عبدُ الرحمن عن عمِّه ، وأبو حاتم عن أبي عُبيد قَالا:

* كانت امرأةً من العربِ من بناتِ ملوكِ اليمن ذات جمالٍ وكمَال ، وحَسَبِ ومال ، فآلت أنْ لا تزوِّجَ نَفْسَها إلا منْ كريمٍ ، ولئن خطبَها لئيمٌ لَتَجْدَعنَ أَنْفُه ، فتحامَاهَا النَّاسُ ، حتى انتدبَ لها زيدُ الخيل(١) ، وحاتمُ بنُ عبد الله ، وأوسُ بن حارثة بن لأم الطَّائيون ، فارتحلُوا إليها ، فلمّا دخلُوا عليها قالت: مرحَباً بكم ، ما كنتُم زوّاراً ، فما الذي جاء بكم ؟ قالوا: جئنا زوّاراً خُطّاباً.

قالت: أكْفَاء كِرام.

* فأنزلَتْهُم ، وفرّقَتْ بينهم ، وأسبغَتْ لهم القِرىٰ وزادت فيه؛ فلمّا كان في اليوم الثَّاني ، بعثَتْ بعضَ جواريها متنكّرةً في زِيّ سائلة تتعرَّضُ لَهِم ، فدفعَ لها زيدٌ وأوسٌ شَطْرَ ما حُمِلَ إلى كلّ واحدٍ منهما ، فلمّا صارت إلى رُحْلِ حاتم دفَعَ إليها جميعَ ما كان من نَفَقَتِه ، وحمَل معها جميع ما حُمِل إليه؛ فلمّا كان في اليوم الثّالث دخلُوا عليها فقالت: ليصفْ كلّ واحدٍ منكم نفْسَه في شعرِه ، فابتدرَ زيدٌ وأنشأ يقول:

> والجَارُ يَعْلَمُ أَنَّى لَسْتُ خَاذِلَهُ هَذا الثَّناءُ فإن تَرْضَيْ فراضيَةٌ

هَلَّا سَأَلْتِ بني ذُبيانَ ما حَسَبي عنْدَ الطَّعانِ إذا ما احمرَّتِ الحَدَقُ وجَاءتِ الخيلُ مُحْمَرًاً بَوَادِرُهَا لِبِالماءِ يَسْفَحُ من لبَّاتِها العَلَقُ إِنْ نابَ دهْرٌ لِعَظْمِ الجارِ مُعْتَرِقُ أُو تَسْخَطَى فَإِلَىٰ مَنْ تُعْطَفِ العُنُقُ

اقرأ سيرة زيد الخيل بن مهلهل في موسوعتنا «فرسان من التّاريخ» ستجد خيراً بإذن

وقال أوسُ بنُ حارثة: إنَّك لتعلمينَ أنّا أكرمُ أحساباً وأشهرُ أفعالاً ، من أنْ نَصِفَ أنفسنا لك ، أنا الذي يقولُ فيه الشَّاعر _ بشر بن أبي خازم الأسدى _:

إلى أوسِ بنِ حارثةَ بنِ لأم ليقضيَ حاجَتي ولَقَدْ قَضَاهَا فَمَا وطيءَ الحصيٰ مثْلُ ابنِ سُعْدى ولا لبسَ النِّعالَ ولا احْتَـذَاهَـا

وأنا الذي عُقّتْ عقيقته ، وأُعْتِقت عن كلّ شعرةٍ فيها عنه نَسَمة؛ ثم أَنْشَأَ يقول:

فإنْ تنكَحي مَاويّة الخيرِ حَاتماً فتى لا يبزالُ اللهَّهْ وُ أَكْبَرَ همَّهِ وإنْ تنكحي زَيْداً ففارسُ قومهِ وصَاحِبُ نَبهانَ الذي يُتُقَى بهِ وصَاحِبُ نَبهانَ الذي يُتُقَى بهِ وإنْ تنكحيني تنكحي غيرَ فَاجرٍ ولا مُتَّقِ يوماً إذا الحربُ شَمَّرتُ وإن طارقُ الأضيافِ لاذَ برحلِهِ وأن طارقُ الأضيافِ للذَ برحلِهِ فأيَّ فتى أهدى لكِ اللهُ فاقبلي

فما مثلُه فينا ولا في الأعاجم فكاكُ أسير أو معونة غارم إذا الحربُ يوماً أقْعَدت كلَّ قائِم شذا الأمر عند المُعظِم المُتفاقِم ولا جَارف جُرْف العشيرة هادِم بأنفسِها نَفْسي كَفعْلِ الأشاتِم وجَدْتِ ابنَ سُعدى للقِرىٰ غيرَ عائِم فاتا كرامٌ من رُؤُوس أكارم

* وأنشأ حاتمٌ يقولُ:

أَمَاوِيَّ قَدْ طَالَ التَّجِنُّبُ والهَجْرُ وقَدْ عَذَرَتْنِي فِي طِلابِكُمُ العُذْرُ

إلى أن انتهى إلى آخرِ القصيدة ـ وهي مشهورة لله فقالت: أمّا أنتَ يا زيدُ فقد وترتَ العرب ، وبقاؤك مع الحرّةِ قليل ، وأما أنتَ يا أوسُ فرجلٌ ذو ضرائر والدّخول عليهنَّ شديد ، وأمّا أنتَ يا حاتم فمرضيُّ الخلائقِ ، محمودُ الشِّيم ، كريمُ النَّفس وقد زوجتُك نفسي».

* ويروي «الأصفهاني» صاحب «الأغاني» هذه القصّة على غيرِ رواية «البغدادي» في «الخزانةِ» ، فيقولُ ما مُفاده وما محصّله وملخّصه: «إنّ

سيّدنا معاوية بنَ أبي سفيان _ رضي الله عنهما _ تذاكروا عنده ملوكَ العربِ ، حتى ذكروا الزّبّاء وماويّة؛ فقال معاويةُ _ رضي الله عنه _: إنّي لأحبُّ أنْ أسمع حديث ماويّة وحاتم ، فقال رجلٌ من القوم: أفلا أحدّثك به يا أميرَ المؤمنين؟

فقال معاويةُ _ رضى الله عنه _: بلي يا هذا.

* وبعد أن انصرفَ عنها دعَتْه نفسُه إليها ، فأتاهَا يخطبُها ، فوجدَ عندها النَّابغةَ الذَّبياني ، ورجُلاً من الأنصارِ من النَّبيت ، فقالتْ لهم: انقلبُوا إلى رحالِكم ، وليقلْ كلّ واحدٍ منكم شِعراً يذكرُ فيه فَعَاله ومَنْصِبَه ، فإني أتزوجُ أكرمَكم وأشعَركُم.

* فانصرفوا، ونحرَ كلُّ واحدٍ منهم جزوراً، ولبستْ ماويّةُ ثياباً لأَمةٍ لها، ومن ثم تبعَتْهم؛ فأتتِ النَّبيتيّ، فاستطعمته من جَزورهِ فأطعمها ثيلَ جزوره مأي وعاء قضيبه من فأخذته، ثم أتتْ نابغة بني ذبيان فاستطعمته ، فأطعمها ذنب جزوره ، فأخذته ، ثمّ أتتْ حاتماً وقد نصب قِدْرَه ما ستطعمته ، فقال لها: قِرِّي حتى أعطيكِ ما تنتفعين به إذا صار إليكِ ، فانتظرتْ فأعطاها من العجز والسّنام ومثلها من كاهِل البعيرِ ، ثم انصرفت ؛ وأرسل كلُّ واحدٍ منهم إليها ظهر جَمَله ؛ وأهدى حاتم إلى جاراتِها ما أهدى إليها .

* وصبّحوها ، فاستنشدتهم ، فأنشدها النّبيتي:

هلا سَأَلْتِ النَّبيتيِّين ما حَسَبي عند الشَّتَاءِ إذا ما هَبَّتِ الرّيحُ

- * وبعده ثلاثة أبيات ، ثم قالت له: لقد ذكرتَ مَجْهَدةً.
 - * ثم استنشدتِ النَّابغة ، فأنشَدهَا يقولُ:

هلا سألتِ بني ذبيانَ ما حَسَبي إذا الدُّخانُ تغشَّى الأشَمطَ البَرمَا * وبعده بيتان ، ثمّ قالت: ما ينفكُ النَّاس بخيرٍ ما ائتدمُوا.

* ثم قالت: يا أخاطيّىء ، أنشدني ، فأنشدها:

أماويَّ قُدْ طالَ التَّجنُّبُ والهجرُ وقَدْ عذَرتْني في طِلابكمُ العُذْرُ أماويَّ إنَّ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ أماويَّ إنَّ المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ

* وبعده (١٦ بيتاً)؛ فلمّا فرغ حاتم من إنشاده دعَتْ بالغداء ، وكانت قد أمرتْ إماءَها أنْ يقدّمنَ إلى كلّ رجل منهم ما كان أطعمَها ، فقدمْنَ إليهم ما كانت أمرتهن أن يقدمْنَه . فنكّسَ النّبيتيُّ والنّابغةُ رأسَيهما ، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمى بالذي قدمتُه إليهما ، وأطعمهما مما قُدِّمَ إليه ، فتَسلّلا لواذاً ، وقالت : إنّ حاتماً أكرمكم وأشعركم .

* فلمّا خرجَ النّبيتيُّ والنّابغةُ قالت لحاتم: خلِّ سبيلَ امرأتك ، فأبىٰ حاتمُ ذلك ، فزوّدَتْه وردَّتْه ، فلمّا انصرف ، دعته نفْسُه إليها ، وماتتِ امرأتُه ، فخطبَها فتزوّجَتْه ، فولدت له عديّاً ، وقد كان عديّ أسلمَ وحَسُنَ إسلامهُ ، وله أخبارٌ منثورةٌ في السّيرةِ وكتبِ التّراجم»(١).

* وهكذا دخلَتْ ماوّية (٢) حياةً حاتم ، ومنذ ذلك الحين دخلتْ ماويّةُ في نساءِ التَّاريخ ، وغدَتْ واحدة من مشَاهيرهنَّ.

⁽١) انظر: الأغاني (٣٧٩/١٧ ـ ٣٨٤) بتصرّف واختصار. ومن الجدير بالذكر أنَّ عديَ بنَ حاتم ليستْ ماويّةُ أمّه، وإنّما أمّه النّوار امرأة حاتم، والله أعلم بالصواب.

 ⁽٢) قال ابن قُتيبة (الشّعراء ١/ ٢٤٧).
 وقال أبو الفرج الأصفهاني : (إنّها ماوية بنتُ عفزر ، وتلقّبُ بالزَّبّاء ، وكانت ملكة بالحيرة ، تتزوجُ مَنْ أرادتُ (الأغانى ٢١/ ٣٧٩).

حَدَّثيْنِي بِبَعْضِ عَجَائِبِ حَاتِم:

* تحتفي مصادرُنا الجميلةُ بأخبارِ جميلةٍ عن نساءِ العرب ، ومن ذلك ما ذكرَتْه امرأةُ حاتمٍ نفسُها ، حيثُ قالت له يوماً: «يا أبا سفَّانة ، إنِّي أشتهي أنْ آكل أنا وأنتَ طعاماً وحدَنا ، وليس عليه أحد.

قال: أفاشتَهيتِ ذلك؟

قالت: نعم.

قال لها: فوجِّهِي ، وبرّزي خيمتَكِ حيثُ اشتهيتِ ، فحملتِ الخيمة إلى الجماعةِ على فرسخِ ، وأمرَ بالطَّعام فَهُيِّيءَ ، وبنىٰ مَرْخاةً لِيَسْتَوِرَهَا عليها وعليه ، فلما قاربَ نضج الطّعام ، كشفَ عن رأسهِ ثمَّ قال:

فَلا تَطبُخِي قِدْري وستْرُكَ دونَها عليَّ إذاً مَا تَطبُخينَ حرام ولكن بهـذَاكَ اليَفَـاع فـأُوقِـدي للجَــزْلِ إذا أوقَــدْتِ لا بضــرام(١)

وفي ديوانِ حاتم أنَّ ماوية سَكُونيّة. (ديوان حاتم ص ١٦٥).

وذكر ابن عساكر «أنَّ ماوية هي بنت حجر بن النّعمان الغسّانية ، كان مقامُها بدمشق وفدَ عليها حاتمُ وأوسُ وزيدُ الخيل يخطبونها». (تهذيب ابن عساكر ٣/١٥٧

وكان لحاتم زوجتان: ماويّة ، والنّوار بنت ثرملة البحتريّة ، ويبدو أنَّ حاتماً تزوَّج النَّوار بعد ماوية ، وجمع بينهما. قال أبو سورة السَّنبسي: «كانتِ النَّوارُ تعاتبُ حاتماً على إنفاقِ ماله ، وتحثُّه على ولده ، وكانت ماويَّة امرأته السَّكونية تحضُّه على نفسِها ولا تزالُ تعيب عليه في إيثار النّوار عليها. فقال لها حاتم:

أماويَّ قد طالَ التَّجنّب والهجرُ وقد عذرتني في طلابكمُ العذْرُ» ويبدو أنَّ ماويّة تمادت فيما يبدو في تجنّيها ، وأطالت هجرها ، وأعانَها ابنُ عمّ لها يُقال له: مالك ، وزيّن لها تركَ حاتم ، وما زالَ بها حتى تركته _ كما سنقرأ في

جاءتْ روايةُ البيتِ الأوّل فِي ديوانِه: «لا تستري قدْري إذا ما طبختها. . عليَّ إذاً ما . . »؛ و «الجزْلُ»: الغليظَ منَ الحطبِ الذي له جمْرُ. و «الضّرام»: لا جمْرَ له مثل=

* ثم كشفَ السُّتور وقدَّمَ الطَّعام ، ودعا النَّاس ، فأكلَ وأكلُوا ، فقالت له امرأتُه: ما أتممتَ لي بما قُلْتُ! . . فقال لها: ما بي لا تُطاوعني نفسي ، ونفسي أكرمُ عليَّ من أنْ تطاوعني علىٰ هذا (١٠).

* ويبدو أنَّ جودَ حاتم وسخاءَه الشَّديدَ قد أثَّرَ أثراً عظيماً في نفسِ ماويّة بنتِ عفزر حتى كانت تحدّثُ بذلك مفتخرةً.

* ذكر الأصفهانيّ في «أغانيه» قصّةً عن ابن أخي ماويّة امرأة حاتم قال: «حدَّثَ الهيثمُ بنُ عدي ، عمّن حدَّثَه ، عن مِلْحانَ ابن أخي ماويّة امرأة حاتم قال:

قلت لماوية: يا عمّة ، حدّثيني ببعضِ عجائب حاتم.

فقالت: كلّ أمْرِهِ عجب ، فَعَنْ أيَّه تسأل؟

قلت: حدّثيني ما شئتِ.

قالت: أصابتِ الناسَ سنة ، فأذهبتِ الخفَّ والظّلفَ ، فإنِّي وإيّاه ليلةً قد أسهرنا الجوعُ؛ فأخذَ عديّاً ، وأخذتُ سفَّانة ، وجعلنا نُعلّلهما حتى ناما ، ثمّ أقبل عليَّ يحدّثني ويعلّلني بالحديث كي أنامَ ، فرققتُ له لما به من الجهدِ ، فأمسكتُ عن كلامه لينامَ ، فقال لي: أنمتِ؟ مراراً ، فلمْ

القصب وما أشْبَهه، ويُقال: رجلٌ جزْلٌ: أي تام من الرّجال، والجزلُ أيضاً: الذي له رأيٌ فاضلٌ ، وامرأةٌ جزلة. و«الضّرام»: الرّقيق من كلّ شيء ، الواحد ضَرْم.
 وقوله: «بهذاك اليفاع»: ما أشرف منَ الأرضِ.

⁽۱) انظر: ديوان حاتم (ص ٣٢٦) نَقْلاً عن ابنِ عَسَاكر (٣/ ٤٢٣) و٤٢٤). وهكذا نلحظُ منْ هذا الخبرِ أنَّ الجودَ والسَّخاء طبيعةٌ وسجيّةٌ في نفسِ حاتم الطّاثي الذي خالَطَتْ نفسُه الرأفة مع الكرمِ ، بل لم يرضَ أنْ توقدَ زوجته النّار بحطبٍ لا جمْرَ له ، وإنّما بحطبٍ له جمرٌ كبير ، وأنْ توقدَ على تلّ عالٍ ليراه النّاس فيأتوا ليأكلوا معه.

أجبْ ، فسكتُ ، فنظرَ في فتقِ الخباء ، فإذا شيءٌ قد أقبل ، فرفعَ رأسه ، فإذا امرأةٌ ، فقال: ما هذا؟

قالت: يا أبا سفّانة ، أتيتُك من عند صبيةٍ يتعاوون كالذّئاب جوعاً.

فقال: أحضريني صِبْيانكِ ، فواللهِ لأشبعنَّهم.

قالت _ ماويّة _: فقمتُ سريعاً فقلتُ: بماذا يا حاتم! فواللهِ ما نامَ صبيانكَ من الجوعِ إلا بالتّعليل.

فقال: واللهِ لأشبعنَّ صبيانك مع صبيانها.

* فلمّا جاءت ، قامَ إلى فرسهِ فذَبَحها ، ثم قدحَ ناراً فأجَّجها ، ثم دفع اليها شفرة ، فقال: اشتوي وكُلّي. ثم قال: أيقظي صبيانكِ؛ فأيقظتْهُم ، ثمّ قال: والله إنَّ هذا لَلُؤْم؛ تأكلونَ وأهلُ الصِّرْم حالُهم مثل حالكم! فجعلَ يأتي الصّرم بيتاً بيتاً فيقول: انهضُوا عليكم بالنّار. فاجتمعوا حولَ تلك الفرس، وتقنّع بكسائِه فجلسَ ناحية ، فما أصبحوا ومن الفرسِ على الأرْضِ قليلٌ ولا كثير إلا عظمٌ وحافِرٌ ، وإنّه لأشدُّ جوعاً منهم ، وما ذاقه »(١).

طَلِّقي حَاتماً:

* كانت ماويّةُ بنتُ عفزر من جميلاتِ النّساء في عصرِها ، وكانت في

⁽۱) الأغاني (۱۷/ ۳۹۰ و ۳۹۱). وتروى هذه القصّة بمعانٍ متشابهة عن زوجتِه النّوار وزادَ صاحب «الشّعر والشّعراء» عليها قوله: «فعَذَلَتْهُ على ذلك ، فأنشأ حاتمُ يقول: مَهْ للّا نسوارُ أقلّي اللومَ والعَلنَلا ولا تقولي لشيء فاتَ ما فَعَلا ولا تقولي لشيء فاتَ ما فَعَلا ولا تقولي لمالِ كنْتُ مُهلكَهُ مَهْلاً وإنْ كنتُ أعطي الجنّ والخبَلا يَرى البخيلُ سبيلَ المالِ واحدة إنّ الجواد يسرى في ماله سُبُلا لا تعذّلينيَ في مالٍ وصَلْتُ بهِ رَحْماً وخيرُ سبيلِ المالِ ما وصلا وضيوفه ، لأن مكارم الأخلاق دليل النجاح وسبيله.

كنفِ زوجِها حاتم الطَّائي تعيشُ حياةَ الدَّعةِ في أفياءِ سخائِهِ وجودِهِ ، وفاقَ ولعلَّها قد وجدتْ في نفسِها شيئاً من هذا الجودِ الذي خرقَ العاداتِ ، وفاقَ كل جود.

* وكان هناك ابنُ عمّ لحاتم يرقُب ما يفعلهُ حاتمُ عن جُنُبٍ ، وحاتمُ لا يشعرُ به ، ولعلّه كان يحسدُ حاتماً حَسَداً شديداً ، فلا هو يستطيعُ أنْ يفعلَ مثل أفعالِه ، ولا هو كريمُ السَّجيةِ فيجودُ بماله ، وذات يوم دلفَ إلى ماويّة والحسدُ يأكلُ قلبَه ، وقال لها: «يا هذه ، ما تصنعينَ بحاتم؟ فواللهِ لئن مَلكَ لَيُتلفنَ ، وإنْ لم يملكُ ليتكلفنَ ، ولئن ماتَ ليتركنَّ ولدك كلَّ عليك ، وعيالاً على قومك ، وأنا لك ناصحٌ مشفقٌ ، ولكِ محبٌّ وامق ، فطلّقي حاتماً ، فأنا أتزوجُ بك ، وأنا خيرٌ لكِ من حاتم ، لأنّي أكثرُ منه مالاً ، وأحسنُ منه حالاً ، وأنا أمسكُ عليك وعلى ولدك مالَهم ، وتعيشين معي عيشاً رغداً ، فمالي لك ، وأنا قعيد لك»؛ فلم يزلْ حتى طلّقَتْ معي عيشاً رغداً ، فمالي لك ، وأنا قعيد لك»؛ فلم يزلْ حتى طلّقتْ حاتماً ، وقالت: «لقد صدقتَ ، وإنّ حاتماً لكَما ذكرتَ».

* ترى كيف طلَّقت ماويّةُ حاتماً ، وهل كانت سعيدةً مع مالك؟! هذا ما يرويه الأصفهانيّ في «أغانيه» فيقولُ: «وكان النِّساء _ أو بعضهنّ _ يُطَلِّقْن الرِّجال في الجاهليّةِ (١) ، وكان طلاقهنّ أنّهنَّ إنْ كُنَّ في بيتٍ من شَعرٍ حوَّلْنَ

⁽۱) كان بعضُ النّساءِ في العصرِ الجاهليّ قد امتَزْنَ بحقِّ التّطليق ، فقد ذكرَ الميداني نقْلاً عن حمزة في «الدّرةِ الفاخرة» (۱/ ۲۲٤) قال: «كانتُ أمُّ خارجة َ عمرةُ بنتُ سعد ـ ، ومارية بنت الجُعيد العبديّة ، وعاتكةُ بنت مرّة بن هلال بن فالج بن ذكوان السُّلميّة ، وفاطمةُ بنت الخُرشب الأنمارية ، والسّوّاء العَنْزيّة ثم الهزّانيّة ، وسلمي بنت عمرو بن زيد بن لبيد أحد بني النّجّار ، وهي أمُّ عبد المطلب بن هاشم؛ إذا تزوجتِ الواحدةُ منهنَّ رجُلاً ، وأصبحت عنده ، كان أمرُهَا إليها ، إن شاءت أقامَتْ ، وإن شاءَتْ ذهبت ، وتكون علامة ارتضائِها للزّوج أن تعالجَ له طعاماً إذا أصبحَ». (مجمع الأمثال ٢/ ١٣٣ و ١٣٤).

الخباء ، فإنْ كان بابه قِبَلَ المشرقِ حوَّلْنَه قبل المغربِ ، وإن كانَ بابه قبلَ النَّمن حوَّلْنَه قبلَ السّام ، فإذا رأى ذلك الرّجلُ علمَ أنّها قد طلَّقَتْه فلم يأتِها .

* وإنَّ ابنَ عمِّ حاتم قال لماويّة ـ وكانت أحسن نساء النّاس ــ: طلّقي حاتماً ، وأنا أنكحُك ، وأنا خيرٌ لكِ منه ، وأكثرُ مالاً ، وأنا أمسكُ عليك وعلىٰ ولدك؛ فلم يزلْ بها حتّى طلَّقَتْ حاتماً ، فأتاها حاتمٌ وقد حولَتْ بابَ الخباءِ؛ فقال: يا عديُّ ، ما ترىٰ أمَّك عُدِيَ عليها؟

قال: لا أدري ، غير أنها قد غيّرتْ بابَ الخباء ، وكأنّه لم يفطنْ لما قال ، فدعاهُ فهبطَ به بطْنَ واد ، وجاءَ قومٌ فنزلُوا على بابِ الخباء كما كانوا ينزلُون ، فتوافوا خمسينَ رجلًا ، فضاقَتْ بهم ماويّة ذرعاً ، وقالت لجاريتها: اذهبي إلى مالك فقُولي له: إنَّ أضيافاً لحاتم قد نزلُوا بنا خمسينَ رجُلًا فأرسلْ بناقة نُقْرِهم ، ولَبنِ نسقهم؛ وقالت لجاريتها: انظريْ إلىٰ جبينِه وفمهِ فإنْ شافَهك بالمعروفِ فاقْبلي منه ، وإنْ ضربَ بلحيتهِ على صدرِه ، وأدخلَ يدَهُ في رأسِهِ ، فاقْفلي ودعيه .

ـ وقد وردَ في الشّعر الجاهليّ ما يثبتُ ذلك ، من ذلك قول الشّنفري:

إذا مــا جئْــت مــا أَنْهَــاكِ عنــه ولـــم أنكـّــز عليــكِ فطلّقينـــي ـــــ ومنَ النّساءِ اللواتي طلقْنَ أزواجهنَّ ماويةُ بنتُ عفزر ــ ضيفتنا ــ فقد طلَّقت زوجَها _ حاتماً الطّائي لما تخرّقَ في كَرمهِ ، وضاقَتْ به .

⁻ على أنَّ الْمرأة كانت لبقة في تصرّفها بعصمتِها ، لا تطلّق زوجَها حماقة وهوى ، وإنّما كانتْ تحرصُ على رباطِ الزَّوجيةِ ، لا تفصمُه إلاّ إذا لم تجدْ بدأ من فَصْمه . فهؤلاء اللائي كانت العصمة بأيديهنَّ لم يتلاعبنَ بها ، يدلُّ على ذلك أنَّ ماوية لم تطلّق حاتماً إلا بعدما يئستْ من كفّه عن التخرقِ في كرمه ، ولخشيتها على مستقبلها ومستقبل بنيها إن أنجبت منه . ويدل على ذلك أنَّ رجلاً منْ آلِ أبي طالب غضبَ على امرأته يوماً فقال لها: أمركِ بيدك ، فقالت : أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة ، فحفظته وأحسنت صحبته ، فلا أضيعُه إذا كان في يدي ساعةً من نهار ، وقد رددتُ عليك حمقك ، فأعجبَه قولُها وأحسنَ صحبتها .

* وذهبتِ الجاريةُ وأتَتْ مالِكاً فوجدته متوسّداً سقاءَ لبنِ ، وتحتَ إبطه آخر، فأيقظَتْه ، فأدخلَ يده في رأسه ، وضربَ بلحيته على صَدْرِه ، فأبلغَتْه ما أرسلَتْها به ماويّة ، وقالت: إنّما هي الليلةُ حتى يعلمَ النّاس مكانَه.

فقال لها: اقرئي عليها السَّلام ، وقُولي لها: هذا الذي أمرتُك أَنْ تطلّقي حاتماً فيه ، فما عندي من كبيرة قد تركتِ العمل ، وما كنتُ لأنحرَ ناقةً صغيرةً ، وما عندي لبن يكفى أضياف حاتم.

* فرجعتِ الجاريةُ ، فأخبرتْ ماويّة بما رأَتْ وما سمعت منه ، وما قَال؛ فقالت لها: اثْتِ حاتماً فقولي: إنَّ أضيافَكَ قد نزلُوا الليلة بنا ، ولم يعلموا بمكانكَ ، فأرسلْ لنا بناقةٍ ننحرها ، نُقْرِهم ، وبلبنٍ نسقهم ، فإنّما هي الليلةُ حتى يعرفوا مكانك.

* فأتتِ الجاريةُ حاتماً، فصرخَتْ به ، فقال حاتم: لبيك قريباً دعوتِ.

فقالت: إنّ ماويّةَ تقرأُ عليك السَّلام وتقولُ لك: إنَّ أَضيافَك قد نزلُوا بنا الليلة ، فأرسلْ إليهم بناقةٍ نَـنْحرها ولبنِ نَسْقِهم.

فقال: نعم وأبي ، ثمّ قام إلى الإبلِ ، فأطلقَ ثِنْتَيْن من عقالهما ، ثمَّ صاح بهما حتى أتى الخباء ، فضربَ عراقيبهما ، فطفقَتْ ماويّة تصيحُ وتقولُ: هذا الذي طلقتُك فيهِ ، تتركُ ولدكَ وليسَ لهم شيءٌ ، فأنشأ حاتمٌ يقول قصيدة داليّةً مطلعُها:

كلذاكَ اللزَّمانُ بينَنَا يتَلردَّهُ فلا نخنُ ما نَبْقىٰ ولا الدَّهْر ينْفَذُ

هَلِ الدَّهْرُ إلا اليومُ أو أمسِ أو غدُ يَـردُّ عَلينـا ليلـةً بَعْـدَ يـومِهـا ومنْهَا:

يَدَ الدَّهْرِ ما دامَ الحَمامُ يغرِّدُ ألا كلُّ مالٍ خالَطَ الغَدْرَ أنكدُ

فأقْسَمتُ لا أمشي على سرِّ جارتي ولا أشتري مالاً بِغَــدْرِ علمتُــه

إذا كانَ بعضُ المالِ ربّاً لأهلِهِ يُفَكُ بِهِ العاني ويـؤكُـلُ طيّبـاً إذا ما البخيلُ الخِبُ أَخْمَدَ نارَهَ كــذاكَ أمــورُ النَّــاسِ راضِ دنيــةً فمنهم جَوادٌ قد تلفَّتَ حولَه

فإتى بحمد اللهِ مالى مُعَبَّدُ ويُعْطَىٰ إذا ضنَّ البخيلُ المُصَرِّدُ أقـولُ لمن يَصْلَىٰ بنارِيَ أوقـدوا وســـام إلـــى فــرع العُـــلا متــورّدُ ومنهم لئيمٌ دائمُ الطَّرفِ أقودُ»(١).

* وهكذا عرفتْ ماويّةُ فَضْل حاتم الأجواد ، وسخي الفُرسان ، ولقد وضح الآن أنَّ جودَ حاتم هو سجيّة ، وليس سخاؤه مجلبةً لحمدٍ أو تصيُّداً لِثَناءِ ، فقد رأيناه كيفَ أغاثَ ماويّة وضيفانها ، وكان شعارُه:

رحماً وخيرُ سَبيلِ المالِ ما وَصَلا (٢) لا تَعْذُليني علىٰ مالٍ وصَلْتُ بهِ

* إنَّ حاتمًا الطائي الرَّجلَ الفارسَ لا يستطيعُ مهما نزلَ به الحدثان ألا يعطي ممّا عنده ، أو كلّ ما عنده ، يتكلُّفُ لذلك كلّ التَّكلُّف ، ويتكىءُ على نفسهِ وأهلهِ ، ولو لمْ يفعلْ لَشَانَهُ ذلك وعابَه؛ يقول:

وإنَّى لأُغْطِى سائِلي ولَربِّما أكلَّفُ ما لا أستطيعُ فأكْلَفُ

وإنِّي لمندمومٌ إذا قيلَ حاتمٌ نَبَا نبوةً إنَّ الكريم يُعنَّفُ

ولا تقولى لشميء فاتَ ما فَعَلا مهلاً وإن كنتُ أعطى الجنَّ والخَبلا إنَّ الجوادَ يرى في ماله سُبلا سوء الثَّناءِ ويحوي الوارث الإبلا ما كان يبنى إذا ما نعشه حُملا كما نبراهُ فلا يُقرى إذا نَبزَلا

الأغاني (١٧/ ٣٨٥ ـ ٣٨٧) بتصرف يسير جداً. وانظر: الأخبار الموفقيات (ص ٤٣٠ ـ ٤٣٣).

ديوانه (ص ٢٠١) ومطلع القصيدة: مَهْــلاً نــوارُ أقلُّــي اللــومَ والعـــذلا ولا تقولي لمالٍ كنتُ مُهلكة يىرى البخيـلُ سبيـلَ المـالِ واحـدةً إنَّ البخيل إذا ما ماتَ يتبعُه فاصدق حديثك إنَّ المرءَ يتبعُه ليت البخيل يراه النّاسُ كلُّهم والقصيدةُ مؤلِّفة من (١٨ بيتاً) وهي من عيونِ شغرِ حاتم.

سآبىٰ وتأبى لي أصولٌ كريمةٌ وآباء صِدْقِ بالمروءةِ شرّفُوا وأجْعَلُ مالي دونَ عِرضي وإنّني كندلكم ممّا أفيد وأتْلِفُ (١)

* وكانَ ما كانَ من تكلّفِ حاتم أنْ فَقَدَ ماويّة بنت عفزر ، وقد تكاتفَتْ ماويّة مع النّوارِ زوجةِ حاتم الأخرى _ رغمَ ما يكونُ عادةً بين الضّرّتَيْن من التّباعد والتّباغض والتّحاسد _ على عذلِ حاتم وعلى لومهِ ، فقد رأت كلتاهما في جودِهِ خطراً يهددهما جميعاً ، فاشتدّتا عليه ، وألحّتا على أنْ يغيرَ من عاداتهِ التي تعوّدَ ، ولما تسامرتا الحديث بياض النّهار ، فضيّقتا عليه طرفاً من الليل ، فاسمع إليه يقول:

وعَاذلتَيْن هَبَتَا بَعْدَ هجعة تلومانِ لما غوّر النَّجم ضلَّة فقلتُ وقد طَالَ العتابُ عليهما ألا لا تلوماني على ما تقدّما فإنكما لا ما مضى تُدركانِهِ فنفسكَ أكرمُها فإنَّك إنْ تَهُنْ

تلومان مِتْ لافاً مُفيداً مُلَوما فتى لا يرى الإتلاف في الحمدِ مَغْرِما وأَوعَدَتاني أَنْ تبينا وَتصرِما كفى بِصُروفِ الدَّهر للمرءِ مُحْكِما ولَسْتُ على ما فاتني متندّما عليكَ فلَنْ تلقىٰ لها الدَّهر مُكرِما عليكَ فلَنْ تلقىٰ لها الدَّهر مُكرِما

والقصيدة طويلة وجميلةٌ تعدُّ (٤٢ بيتاً) ومنَّها:

ذَوي طَبَعِ الأَخْلاقِ أَنْ يَتَكَرَّمَا وأسند إليه إنْ تطاولَ سلّما وأصْفَحُ عن شَتم اللئيم تَكَرُّمَا(٢)

وذو اللب والتقوى حَقيقٌ إذا رأى فَجاوِرْ كريماً واقتدحْ منْ زنادِهِ وأغْفِرُ عَوراءَ الكريمِ اصطناعَهُ

⁽١) انظر ديوانه (ص ٢٢٤ و٢٢٥) من قصيدة تعد (١٦ بيتاً) آخرها:

وإنَّ وإنْ طالَ النَّواء لميتٌ ويَصْطُمني ماويّ بيتٌ مسقَّفُ وإنّي لمجزيٌّ بما أنّا كاسبٌ وكلّ امرىء رهْنُ بما هو مثلِفُ و«يصطمني»: يضمني ويواريني.

⁽٢) انظر: ديوانه (ص ٢٣٥).

* بيد أنَّ ماويّةَ بنتَ عفزر زوجَهُ لم تقنعْ بما قالَ حاتم ، ولم تخلفْ وعيدَها ، وحاولَ حاتمُ على ما يبدو أنْ يترضَّاها ، فأعرضَتْ وأبتْ ، فلمْ يُبالِ حاتمُ بها هو الآخر ، فكيفَ يردُّ سائلًا أتاه؟! أو رجلًا يطلبُ نداه؟! وما ينفقهُ اليوم يأتي به الغدُ ، والإنسانُ رهْنٌ بفعالهِ ، ولن يبقىٰ له إلا ما قدَّمَ من حَسَنٍ أو قبيحٍ ؛ يقول لماويّة :

ويبقىٰ منَ المالِ الأحاديثُ والذَّكْرُ إذا جاءَ يوماً حلَّ في مالِنا نَزْرُ أماويَّ إمّا مانع فمبيِّن وإمّا عطاءٌ لا ينهنهُ ه الدَّهْرُ أَماويُّ ما يُغنى الثَّراءُ عن الفتى إذا حَشْرَجَتْ نفسٌ وضاقَ بها الصّدرُ (١)

أماويَّ إنَّ المالَ غادِ ورائـحُ أُمــاويَّ إنّــي لا أقــولُ لســائــلِ

* أمّا زوجُه النّوار، فلم تهجرهُ كما هجرتْهُ ماويّة بنت عفزر، وإن أكثرتْ من لومهِ ، وأطالَتْ في عَذْلهِ ، ورأت أنَّ أهلَه وعيالَه أحقُّ بما يعطيه النَّاس ، فما الذي يخلفُه عليه هذا البذلُ؟ لا يا نوّار، سيأخذُه غيره إذا مات، ولنْ يبقىٰ له غير سوء الثَّناء كلَّما ذُكرَ لبُخْلهِ وامتناعِهِ عن عونِ المُحتاج ، يقول: إنَّ البخيــلَ إذا مَــا مــاتَ يتبعُــه ﴿ سُوءُ الثَّناء ويحوي الوارثُ الإبلا^(٢)

* ولكنّ النّوار لم تتمهّلْ ، ولم ترعوِ وتستمعْ إليه ، فهي ترى أنَّ حاتماً قد ضَلَّ الطَّريق ، وأوردَ نَفْسَه مواردَ الهلاكِ والبوار ، فلقد أهانَ مالَه وأَفْنَاه ، وقد كنزَه الناس وعظّموه ، فأي منطقٍ تتفوهينَ به أيتُها العاذلة؟!

* إِنَّ مِنِ الخُسرانِ أَنْ تقارِنَ النَّوارِ حاتِماً بأولئكَ الرِّجالِ ، فما يكنزُ مالَه إلا كلِّ مُمْسكِ بخيلٍ شحيحٍ ، لئيم راغبٍ عن حميدِ الفعَال ، وماذا يجديهم المالُ إذا ماتوا؟ وهل الجودُ سيفضي بحاتمِ إلى الموتِ هُزْلاً وجُوعاً ؟!

ديوانه (ص ٢١٠). (1)

ديوانه (ص ٢٠١). (٢)

العاذلة ، هذا خُلُقي وخليقتي ، فلا تجعلي لسانك كالمبردِ
 فوقي ، فأريني جَواداً ماتَ جوعاً ، بل أريني بخيلاً قد عاشَ مخلّداً! يقول:

وقَدْ غابَ عَيُّوقُ الثُّريا فعرَّدا إذا ضَنَّ بالمالِ البَخيلُ وصرَّدا أرى المالَ عند المُمسِكينَ معبّدا وكل امرىء جارٍ على ما تعوَّدا(١) فلا تَجْعلي فَوقي لِسَانَكِ مبردا أرى ما ترينَ أو بخيلًا مخلّدا إلى رأي مَنْ تلحينَ رأيكِ مُسندا(٢) وعاذلة هبّت بليل تلومُني تلومُني تلومُ على إعطائي المال ضلّة تقول ألا أمْسِكْ عليكَ فإنّني ذريني ومالي إنَّ مالك وافرٌ أعاذل لا آلوكِ إلاّ خلقتي أريني جَواداً مات هُزلاً لَعلَّني وإلاّ فكفي بعض لومكِ واجْعَلي وإلاّ فكفي بعض لومكِ واجْعَلي

* إنَّ لكلّ كريم عادةٌ نبيلةٌ تَعوَّدها منذ فُطِرَ ، ومنذ أنْ رأتْ عيناهُ نورَ الحياةِ ، ولا يألو جهداً في إتيانها مهما كلّفَتْه ، ولذلك يخاطبُ حاتمٌ من تقول له: لقد أهلكتَ في سخائِكَ وجودكَ مالَـنَا ونفسَك؛ ولكنَّ حاتماً يصحّحُ لها مفهومَها ، ويخبرها بأنَّ لكلّ امرىء كريم من دهرهِ ما تعوّدا ، وإنَّ له عادةً يستعيدها:

وقائلة أهلكت في الجود مالنا فقلت عادة "

ونفْسَكَ حتى ضرَّ نفسَك جُودهَا لكل كريم عادةٌ يستعيدُها (٣)

 ⁽۱) يذكرني هذا البيت ببيت جميل للمتنبي وهو مطلع قصيدة له حيث يقول:
 لكـــل امــرىء مــن دهــره مــا تعــودا وعاداتُ سيفِ الدولةِ الطّعنُ فى العِدَا

⁽٢) ديوانه (ص ٢٢٩ و ٢٣٠) والقصيدة مؤلّفة من (١٥ بيتاً)؛ ومعنى «العيوق»: كوكَبُّ أحمرُ مضيءٌ بحيالِ الثّريا في ناحيةِ الشّمال، يطلعُ قبل الجوزاء، وسمّي بذلك لأنّه يعوقُ الدبران عن لقاءِ الثّريا. و «عرّد»: عرّد النّجم: غَار. و «صرد»: أعطىٰ القليل. و «لا آلوك»: لا أدّخر عنك شيئاً إلا خليقتي. و «لسانك مبردا»: أي تؤذيه وتأخذُه بلسانها.

⁽٣) ديوانه (ص ١٨٧)، و «عادة يستعيدها»: يتعوّدها؛ والمعنى: إنّما هي شيمتي، ولكلّ كريم شيمةٌ يُعرفُ بها.

* إنّه يجبُ عليها أنْ تلومَه إذا لم يطعمْ ويكرمْ ضيفَه:

فَلُــومينــي إِذَا لَــمْ أَقْــرِ ضَيفــي وأكْــرمْ مُكْــرمــي وأُهِــنْ مُهينــي(١)

* وكمْ عاذلةٍ لامَتْه على جودِه ، فأخبرها بأنَّ اللهَ يخلفُ الإنفاق:

ما يجلبُ الحمدَ تبذيراً ولا سَرفا(٢)

يا رُبَّ عاذلةٍ لامَتْ فقلتُ لها إنَّ على اللهِ ممّا ننفقُ الخَلَف ا لمّا رأتْنيَ أعطي المالَ طالِبَه فلا أُبالي تلاداً كان أو طَرِفا عدَّتْ سَماحيَ تبذيراً ولَسْتُ أرىٰ

* وهكذا كانتْ حياةُ حاتم ، حياةً مفعمةً بالسَّخاءِ والجود ، وهذا التّصرف لم تطربْ له زوجُه ماويّة ، فكان منها ما كانَ ، وظنَّتْ أنّه سيغدو فقيراً ، فتركَتْه ، ولكنّها عرفَتْ فَضْلَه في تلك الليلة التي ضافَها عددٌ من الرّجال الذين تعودوا على جودِ حاتم و[وفي الليلة الظّلماء يُفْتَقَدُ البدر].

* ويسكتُ التّاريخُ فلا يحدثنا عن ماويّة ، وعلى الرّغم مما بدَرَ منها ، فإنَّ اسمَها سيظلُّ علَماً بارزاً بينَ النَّساء .

ديوانه (ص ١٦٠). (1)

ديوانه (ص۲۸۰ و۲۸۱). **(Y)**





المتجردة امرأة التعمان

- * من أعظم نساء العرب جمالاً وكمالاً ومكانة أثيرة.
- * مثال المرأة العفيفة ، على الرغم مما نُسِجَ حولها من قصص وأساطير.





المَرْأَةُ الجَميْكَةُ:

* اشتهرتْ هذهِ المرأةُ في عَصْرِها وما تلاه بالملاحةِ ، وبأنَّها كانت منْ أعظمِ نساء العَربِ جَمالًا ودَلالًا وكمَالًا ، وقد داخَلَ سيرتَها وحياتَها كثيرٌ منَ الأخبارِ والرَّواياتِ المُضْطَربةِ المُريبةِ ، كما تعدَّدتِ الأهواءُ والرّواياتُ في حياتها ، واختلطت اخْتلاطاً عجيباً ، وتنوَّعَت تنوُّعاً غريباً.

* هذه المرأةُ الجميلةُ هي المُتجرِّدة (١) امرأةُ النّعمانِ بنِ المُنذر ، تلك المرأةُ التي ملأتُ دُنيا بعضِ شُعراء عَصْرِها بجمالِها الفاتنِ ، وشغلَتْ قلوبَهم وألسنتَهم ونفوسَهم ؛ كما جاءت بذلك الأخبارُ والحكاياتُ والرّواياتُ من أفواهِ الرُّواة ، وكما جمعتْ بعضُ مصادرِ الأدبِ أَغْزَال الشُّعراء بالمتجرّدة (٢).

(٢) ذكرتْ كتبُ الأدبِ والأسمار أنّ المتجرّدةَ اسمها «هند بنت عمرو بن هند». وقال الأصفهانيّ: «اسمُها ملوية» ، وقيل: هند بنت المنذر بن الأسود الكلبيّة. (الأغاني ١/٢١).

* ولعلَّ للبيئةِ الجاهليّةِ أثراً كبيراً في مَيْدَانِ الغَزَلِ بالمرأةِ ، فلم تكنِ البيئةُ آنذاك تجيزُ التَّغزُّلَ بالعذارىٰ ، حتى إنّهم حرّمُوا على الفتى أنْ يتزوَّجَ فتاةً تغزَّلَ بها فَشَهَرها.

* ومنَ الملاحظِ أنّنا نقرأُ شَطراً كبيراً من الغزلِ الجاهليّ في النّساء المتزوّجات ، ونجد هذا اللونَ من الأغزالِ عند امرىءِ القَيْس كقوله:

فَمِثْلُكِ حُبْلَىٰ قَدْ طَرَقْتُ ومُرضع فَأَلَهِيتُهَا عَنْ ذِي تَمَائِمَ مُحْوِلِ(١)

* وكذلك عنْد الأَعْشَى عندما يقول:

وَقَدْ أُخالِسُ رَبَّ البَيْتِ غَفْلتَه وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ مَا يَئِـلُ (٢)

* وممّا لا ريبَ فيه أنَّ الشَّاعرَ الجاهليَّ ، كانَ يتغزَّلُ بالعذارىٰ ، بيدَ أنَّه كانَ أَجرأً على المتزوّجات (٣).

* وكان بعضهم غَزِلاً في زوجتهِ ، إذ حَملَه الغَزَلُ على ذلك ، وهو وإنْ خالفَ المُتَعارَف المألوف ، ولكنَّه حَصَلَ ، فما حيلةُ الشَّاعرِ المحبّ الوَلِهِ الوامقِ إذا كان يحبُّ زوجتَه حبّاً جمّاً كما يحبُّ حبيبته؟!!..

* تغزّل زهير بنُ أبي سُلمى في زوجتِه الأثيرة أمّ أوفى ، بل بدأ معلَّقتَه الشَّهيرة الجميلة بالغَزَل في زوجته:

أَمِنْ أُمِّ أُوفَىٰ دمنةٌ لَـمْ تَكَلَّم بِحَـومَانَـةِ الـدَّرَّاجِ فَالمُتَثلُّم

⁽۱) انظر: شرح المعلقات العَشْر للشّنقيطي (ص ٦٠)، وهذا البيتُ من معلّقته المشهورة والتي مطلعها:

قِفًا نبكِ من ذكري حبيب ومنزلِ بِسِقْطِ اللَّوى بينَ الدُّخُولِ فَحومَلِ

⁽٢) انظر: المرجع السّابق (ص ١٣٣)، وهذا البيثُ من معلّقةِ الأعشى الشّهيرة، والتي مطلعُها: ودّغ هُــريــرةَ إنّ الــرّكــبَ مــرتحــلُ وهـــل تطيـــقُ ودَاعـــاً أَيّهـــا الــرّجـــلُ ومعنى «يئل»: ينجو.

⁽٣) انظر: تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ (١/ ٦١) بتصرف.

* وتغزّل أميرُ شعراءِ العَصْر الجاهليّ وحاملُ لوائِهم في زوجته أمّ جُنْدَب، ووصفَ جمالَها وطيْبها وإنْ لم تطيّب:

خَليليَّ مُرَّا بِي عَلَىٰ أُمِّ جُنْدَبِ لِتُقْضَى لُبَانِاتُ الفُؤادِ المُعذَّبِ فَانَكَما إِنْ تَنظراني سَاعةً مِنَ الدّهرِ تنفعْنِي لَدىٰ أمّ جنْدبِ أَلَمْ تريَاني كُلّما جئْتُ طَارِقاً وَجَدْتُ بِهَا طِيْباً وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ عَلَيْباً وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ عَقيلةُ أَتُرابٍ لها لا دميمةٌ ولا ذَاتُ خَلْق إِنْ تأمّلتَ جانبِ(۱) مَعَ غَزَلِ الشُّعَرَاءِ:

* الغزلُ هو التّصابي والاستهتارُ بمودّاتِ النّساء ، وقد تحدَّثَ أهلُ اللغةِ عن الغَزَلِ ومعانيهِ ومُرادِفَاته كالنّسيب والتّشبيب والتّغزّل.

* ففي «مُخصّصه» يقولُ ابنُ سِيْدَه: «إنَّ الغَزَلَ تحديثُ الفتيان الجواري؛ والتّغزّل: تكلُّف ذلك ، والنَّسيب: التّغزّل بِهنّ في الشِّعر ، والتَّشبيب مثله» (٢).

* وفي «اللسان» يقول ابنُ منظور: «إنَّ الغزَلَ حديثُ الفتيانِ والفتياتِ واللهوِ مع النّساء؛ ومغازلتهنّ: محادثتهنّ ومراودتهنّ ، والتّغزّل: التّكلّف لذلك ، وفي المَثَل: هو أغزلُ من امرىءِ القَيْس» (٣).

* ويرى ابنُ رشيق في «عُمدته» أنَّ: «التَّغزُّلَ والنَّسيبَ والتشبيبَ كلّها بمعنى واحد ، وأنَّ الغزلَ إلفُ النِّساء والتّخلّق بما يوافقهن ، وقد أوضحَ قدامةُ في كتابه «نَقُد الشِّعر» أنَّ الغَزَلَ غير التّغزّل»(٤).

⁽۱) شرح ديوان امرىء القيس للسّندوبي (ص ٦١ و٦٢) والقصيدة طويلة تبلغ (٦٦ بيتاً).

⁽٢) انظر: المخصص (٤/٤٥ و٥٥).

⁽٣) لسان العرب (١١/ ٤٩٢) ، وانظر: مجمع الأمثال (٢/ ٤٢٨) مع الجمع والتصرف.

⁽³⁾ Ilsaci (7/3P).

* ومن المعروفِ أنَّ الشَّاعر الغَزِلَ يتغزّلُ ليعبّرَ عن عاطفةِ الحبِّ للمرأةِ التي احتلَّتْ قلبه ، واحتوتْ على لُبّه بجمالِها الذي عبرَ إلى قلبهِ ومسَّ شغافه مسّاً رفيقاً ، فراحتِ الكلماتُ الهامسةُ تنطلقُ مرفرفةً على لسانهِ تصفُ مشاعره وتكشفُ عما يختلجُ بقلبهِ ويعتلجُ بنفسهِ.

* والشّاعرُ الغَزِلُ المحبُّ يعبّرُ عمّا بنفسهِ بهذا الشّعر الحارِّ الصَّادقِ الرّائع المُتناغم ، فالعربُ أمّةٌ شاعرةٌ تمتلك ناصية البلاغة الممزوجة بجميع الألوانِ والعواطفِ ، والشّعرُ هو الفنُّ الرحبُ اللطيفُ الذي ترجموا من خلالهِ عن عواطِفِهم ، وأبحروا من خلالهِ في بحارِ جميلة ، والغزلُ نَبْعٌ من هذا الفيضِ وذاك الفُراتُ الذي كان مع سِلْسالهِ ورقّته وسلسبيلهِ تلك المرأة الجميلة ، فهي تلهمُ المحبّين شِعراً فيه ليونةٌ ورقّةٌ وعطفٌ وإشفاق ، وإذا تمكّن الغزلُ من الرجلِ نتجَ عنه منَ الأحاديثِ العذاب ما يطربُ الألباب.

* وجرتِ العادةُ في عَصْرِ الجاهليّة ـ وغيره ـ أنْ يتغزّلَ الرجلُ بامرأة في جعلُها بطلةَ غزلهِ ، ومُنى أملهِ ، ويلفُّ ويدورُ في أغزالِه حولَها ، ويلجُّ ويلهجُ بذكرِها ، وقد يذكرُ اسمَها وقد لا يذكرهُ ، وهي قد تكونُ امرأةً حقّاً راها الشَّاعر فأُعْجِبَ بها ، وقد لا تكونُ امرأة معينة خاصّة ، وإنّما امرأة تخيّلها ذهْنُ الشَّاعر ، فصار يتغزّل بها ، ويلهجُ بذكرها ، ويلجُّ في إظهارِ صفاتِها ، وما قالتُ له ، وما قالَ لها ، إلى غير ذلك .

* وسببُ ذلك هو أذواقُ أهلِ ذلك العَهْد ، وعادتهم في وجوبِ الابتداءِ بالقصيدةِ بهذا النّوعِ من المقدّمات حتى يكون شعراً رقيقاً مرموقاً ، وقد أدّى تغزّل بعض الشُّعراء بنساءِ رجالٍ معروفين ، أو ببناتهم إلى وقوعِهم في مهالك.

* ومن أمثلةِ ذلك ما زعموا أنَّ النّابغة الدُّبياني قد تغزَّل بالمتجرّدةِ زوجِ الملكِ النُّعمان بن المنذر ـ ضيفة حلقتنا هذه ـ ، وما كان منْ غضبِ الملكِ

عليه ، وتهديده له بالقتل ، مما اضطر النّابغة إلى الهَربِ من وجْهِ النُّعمان إلى الغَسَاسنةِ أعداءِ النعمان ، ليسلمَ بِرِيْشِهِ من النُّعمان ، وما وردَ كذلك في قصّة الشّاعر طرفة بنِ العبد ومقتله على يدِ عمرو بن هند في قصّة مشهورة في كُتُب الأدبِ والأمثالِ والأسْمار.

* وعندما نحلِّقُ مع غَزَلِ الشُّعراء في العَصْر الجاهليّ نجدُ بعضَ الصُّورِ الجميلةِ الباسمةِ التي تُبرِزُ جمالَ المرأة ، وقلّما نجدُ في شعرِ الشُّعراء فحشاً ، فالشّاعرُ متأدّب في شعرِه ، يعرفُ حدودَه في الغَزَلِ فلا يتجاوزها ، لأنّه يعلمُ حقّاً أنّه إذا ذكرَ الفُحْشَ في شعرهِ ، وتعرَّضَ فيهِ بامرأةٍ معيّنة ، فأصابَها بسوءِ القولِ ، فإنّها لن تسكتَ عنه ، وإذا سكتَتْ هي ، فلن يفلتَ من عقابِ أسرتها وذويها ، وقد يكون ذلك العقابُ القَتْل.

* ولكنْ _ والحقُ يُقال _ لقد تركَ شعراءُ العَصْر الجاهليّ _ خاصّة _ صوراً رائعةً متحركةً وجميلةً رسموا من خلالها المرأة ، وهذا ما سنلمسُه في الفِقْرة التَّالية .

جَمَالُ المَرْأَةِ عنْدَ شُعَرَاءِ الجَاهليّةِ:

* في هذه الصَّفحات نتحدَّثُ حديثاً عامّاً عن المرأة الجاهليّة بعامّة ، وصورتها عند الشُّعراء الجاهليّين ، وكيف جعلَ الشّعراءُ من المرأة وحيَ خيالِهم ، ورسموها بأبدع ريشة ، وجعلوا جمالَها مصوّراً منقوشاً في مرآةِ الأيّام.

* ففي الإنسانِ جمالٌ ، وقد يكونُ في الشّكلِ أو اللونِ أو الصَّوت؛ وتبدو مظاهرُ الجمالِ أعمَّ في المرأة؛ والمرءُ بطبعه يدركُ الجمالَ بصورة ما ، ولعلَّ جميع بني الإنسان لهم هذه المقدرةُ ، فما منْ إنسانِ إلاّ له نوعٌ من الجمالِ يُطريهِ ويوقظُ إعجابَه ، لأنَّه قد خُلِقَ مزوّداً بعواملِ الاستجابةِ لما هو منسجم متناسقٌ؛ حيثُ فيه عاطفة تهتز وتطربُ وتسبَحُ في

ميدانِ الحسِّ ، وفيه ميلٌ ونفورٌ ، وفيه حبُّ وبغضٌ ، وفي الإنسان كلُّ ذلك ، وهذا ما يدفعُه إلى أنْ يفكّرَ في مظاهرِ الجمالِ على قَدْرِ مَا لَهُ من استعدادِ نفسى وثقافى.

* ولعلَّ جمالَ المرأةِ يعودُ في حقيقتهِ إلى حُسْنِها بالذَّات وإلى ملاحتِها؛ بينما نجدُ أنَّ بعضَ المحبّين للمرأةِ يرى أنَّ الجمالَ إنّما ينبعُ منَ النَّفس ، وينبعثُ منَ الأعماقِ ، وهذا كثيرٌ في الحياةِ ، ذلك أنَّ امرأةً قد تظهرُ جميلةً في رأي بعضِ النَّاس ، بينما تكونُ قبيحةً في نَظَر آخرين (١٠).

* والحقّ إنَّ الإحساسَ بالجمالِ أمْرٌ يتوقّفُ في معظمِ الأحوالِ على طبيعةِ الشَّيء ، فما هو جميلٌ بالمشرقِ ليس منَ الضَّروري أنْ يكونَ جميلًا عند أهلِ المغرب.

* وقد أدركَ العربُ الجمالَ في العَصْر الجاهليّ خاصّةً ، وفي سائر العُصُور ، وتذوّقُوه ؛ أدركوهُ في الطّبيعةِ من حولهم ، وأدركوه في المرأةِ ، وأدركوهُ أيضاً في الكلامِ وفنِّ القولِ ، وكيف لا؟ وهم ملوكُ البلاغةِ والفَصَاحةِ والبَيان!! فاحتفظوا بالشّعر وطربُوا له ، ورفعُوا شعراءَهم مكاناً عليّاً ، وعندما أدركوا كذلك جمالَ المرأةِ النّفسي والجَسدي أحبّوها حبّاً عظيماً ، وافتنّوا في وَصْفِ جمالها ورسْمِه في أشعارهم وأغزالِهم.

* ومن الطَّبيعيّ أنْ يدركَ العربُ عَصْر ذاك جمالَ المرأةِ الجسديّ بجميع حواسِّهم العُليا هي السَّمعُ والبصرُ؛ والحواسُّ العُليا هي السَّمعُ والبصرُ؛ والحواسُّ الدنيا هي اللمسُ والذّوق والشّم.

⁽۱) أذكرُ في هذا المجالِ هنا ، أنَّ أحدَ النَّاس قد أحبَّ امرأةً حبّاً مَلَكَ عليه كلّ شيء ، ولم تَرُقُ هذه المحبوبة لأمِّه ، أو لأحدِ منْ أهلهِ ، وأُصيب بالنّحولِ والمرض ، وحاولوا ردَّه عنها ، لكنّه قالَ لهم أخيراً: خُذوا عينيَّ وانظروا بهما إليها فسترونها كما أرَاها!!!.

* فالبصرُ والسّمع من الحواسِ العُليا التي تدركُ الجمالَ ، فالعينُ تبصرُ الصَّورةَ الجميلةَ ، والمناظرَ الفاتنةَ ، والأذنُ تدركُ الأنغامَ والأصواتَ المنسجمةَ ، فتتغذّى الرّوحُ ، ويترقّى الشّعور ، وتتهذّبُ العواطف.

* ومن المعروفِ أنَّ العينَ هي الطريقُ الرئيسُ للانفعالاتِ العاطفيةِ ، فالقَوامُ ، والمشيّةُ ، والحركةُ ، والإشارةُ ، والملابسُ ، والرَّشاقةُ ، و. . . وهذه الأشياء كلّها من مقاييس الجمالِ والجاذبيةِ ، والعينُ مصدرُ الحكْم عليها .

* يقولُ الدّكتور أحمد محمّد الحوفي ما مفاده: "وإذا توافَرَ الجمالُ في المرأةِ ، وتوافرَ إدراكه وتذوّقه في الرّجل ، وحدث تجاوبٌ بين إدراكِ الرجلِ ، وجمالِ المرأةِ ، فنتجَ عنهما الحبُّ من ناحية ، والغزّلُ من ناحية ، وبعضُ هذا الغزلِ تصويرٌ لمحاسنِ المرأةِ الجسديّةِ والمعنويةِ . . . والشُّعراء والمحبّون عامة خيرُ مَنْ يدرك هذا الجمال . . "(١).

* إنَّ جمالَ المرأةِ من أنفسِ ألوانِ الجمالِ وأغلاها وأعلاها ، وأشدّها تأثيراً على النّفوس. . ومن هنا هام بعضُ الصُّوفيين بجمالِ الحِسَان ، واتّخذوه وسيلة _ بزعمهم _ لمعرفةِ الجمالِ المُطلق ، وعوناً لهم علىٰ العِبادة.

* وممّا يُنْسَبُ إلى التّابعي الجليلِ الحسنِ البصريّ قوله: «النظرُ إلى الوجهِ الحَسنِ عبادة» ، والمعنى: إنّ النّاظرَ يقول: سبحان خَالِقهِ. وفي هذا التواءُ كما يُدرِكُ القارىءُ الفَطِن.

* وزعموا أيضاً أنَّ شريحاً القاضي قد رُئيَ واقفاً بالطريق فقيل له:
 ما وقو فك؟

⁽١) انظر: الغزل في العصر الجاهلي (ص ٣١) بتصرف يسير.

قال: عسى أنْ أنظرَ إلى وجْهِ حَسَنِ أتقوّى به على العبادة(١).

* وزعموا أنَّ الجنيد قال: «كما أن النساء حبائلُ الشَّيطانِ فهنَّ حبائلُ السَّيطانِ فهنَّ حبائلُ العِرفان؛ إذ قد يتوصّلُ العاشقُ عن عشقهن إلى معرفةِ مُبدعهن (٢). وهذا تهريجٌ أيضاً ، وخلْطٌ ما بعده خَلْط ، إذ لا يمكنُ للجُنيد ولا لغيره أنْ يخالفَ بأقوالهِ ما تواترَ عن النّبي ﷺ ، بَيْدَ أَنَّ كثيراً منَ الأمورِ قد لُفقَتْ ونسبتْ إلى الأكابرِ من أجل تحقيقِ فكرةٍ ما.

* أمّا الشُّعراء في عَصْر الجاهليّةِ فقد كانوا خلافَ ذلك ، وكانت نظرتُهم إلى المرأةِ نابعةً من فطرتهم ، وتلتقي نظرتُهم إلى جمالها الجسّدي عند معنى واحدٍ هو التّناسق والتّناسب والانسجام ، وهذا هو ذوقُ الفِطَر السَّليمة التي لم يفسدْهَا التَّرف ، ولم تعبث بها بِدعُ الحضارة المجلوبة؛ إذ كان الجمالُ والحُسْن في حياتِهم غيرَ مجلوبِ بتَطْرِيةٍ .

* فقد استحسنُوا من المرأة الوضاحة والصَّباحة والهيف والرَّشاقة والحياء ، وأحبُّوا أنْ تكونَ الرَّشيقة الهيفاء ضامرة الخصر ، ممتلئة الردفين بارزة النَّهدَيْن . . .

* يقول عبّاس العقّاد: «فالذَّوقُ العربيُّ في دقّةِ الخصورِ وبروزِ الأردافِ ذوقٌ محمودٌ يزكّيهِ حبُّ التَّنسيق ، كما يزكّيهِ تكوينُ وظائفِ الأعضاءِ ، وحمّادى الحُسْنِ في المرأة تكون كما وصفَها كعبُ بنُ زهير:

هَيْفَاءُ مَقْبَلَةً عَجْزَاءُ مَدْبِرةً لا يَشْتَكِي قِصَرٌ مِنْهَا ولا طُولُ (٣)»

انظر: محاضرات الأدباء (٢/ ٢٥).

⁽٢) تزيين الأسواق (١/ ٩٣).

 ⁽٣) انظر: شاعر الغزل (ص ٧٠) من مجموعة أعلام الشعر. طبعة دار الكتاب العربي
 ـ بيروت ط ١ ـ ١٩٧٠ م.

* وممّا يدلُّ على نظرة العربِ الصَّائبة إلى جمالِ الجَسَد ، ما رواهُ الأصمعيُّ قال: «قال أعرابيٌ لابنِ عمّه: اطلبْ لي امرأةً بيضاءَ ، مديدةً فرعاءَ ، جَعْدةً ، تقومُ فلا يصيبُ قميصُها منها إلا مشاسَة منكبَيْها ، وحلَمتَي ثديبها ، ورانقتَي أَلْيتَيْها ، ورضاف ركبَتيْها ، إذا استلقَتْ فرميتَ تحتَها بالأترجُّةِ العظيمةِ نفذَتْ من الجانبِ الآخر. فقال له ابنُ عمه: وأتى بمثل هذه إلّا في الجنان؟ »(١).

* وما من شكّ في أنَّ العربَ عَصْر ذاك قد أدركُوا الجمالَ إدراكاً كليّاً، ولقد رسمُوا في أدبِهم للمرأةِ صُوراً حسيّةً يدورُ معظمُها ـ كما ذكرنا ـ على الوسامةِ والقَسَامة ونضج الأنوثةِ ، وسحرِ العينيَّن ، والتّراخي في الحركةِ ، وجمالِ الحركةِ ، وجمالِ الحركةِ ، وجمالِ السَّحْرِ والنَّحْرِ ، وكثيراً ما شبّهوا المرأة بالرّئم العطبول ، وبالمَهَا البيضاء ، وبالبقرةِ الوحشيّة في جمالِ العينيَّن وما شابَه ذلك . .

* وقد أفرغ شعراء ذلك العصر القديم عواطفَهم كلَّها ، ونظراتِهم ، وأحاسيسهم حيال المرأة فيما عُرِف باسم الغَزَل أو النسيب أوالتشبيب ، فكانوا ـ بعامة ـ يفتتحون به قصائِدَهُم ، ويستهلّون به نظمَهم ، فيصفون من خلاله مدى حبّهم للمرأة ، ومدى كَلفِهم بها وهيامِهم بِسِحْر ملاحَتِها ، ويصوّرونَ في شِعْرهم أيضاً انطباعاتِهم الغراميّة بمفاتِنها الحسيّة ، ويقدمون به بين سائر أغراضِهم في أشعارِهم مهما تكن تلك الأغراض بعيدة عن مَرحِ الغَزَلِ ، ومتعةِ الغرام والعشقِ والهُيام . .

⁽۱) انظر: عيون الأخبار (٤/٥ و٦). ومعنى «مَديدة»: طويلة. و«فَرعاء»: ذات هيئة حَسنة. و«جعدة»: مجتمعةُ الخلْق الشّديدة. و«الرّانقتان»: أسفل الألية. و«رضاف الرّكبة»: الجلد الذي على الرّكبة. و«الأترجّة»: ثمرٌ من جنسِ الليمون ناعم الورقِ. و«أتّى بمثل هذه إلّا في الجنان»: أي هذه من الحورِ العين ولا يوجد مثلها إلّا في الجنة.

* نعم همُ الذين خاطبُوا الوجدانَ أوّلاً ، وهمُ الذين سَنُوا هذا الابتداع في قصائِدهم ، لإثارةِ وجدانِ السَّامع ، وكيما يستولُوا على مشاعِره قبلَ الخوضِ في الموضوعاتِ والأغراضِ المقصودةِ من قصائِدهم ، وكأتي بهم بهذا التقديم والاستهلالِ الغزليّ قد خدَّروا مشاعِرَ السَّامعين ومن ثمَّ دخلُوا قلوبَهم بسهولةٍ ويُسْرٍ من خلالِ المرأةِ ، ترى؛ أليسَ هذا بداية علم نفس حقيقيّ؟!!..

* وقد كانت دواعي الغزلِ وأسبابُه موفورةً في حياةِ شعراءِ عَصْر الجاهليّة ، فهم يعيشونَ معظمَ الأحايين والأوقاتِ في خيامِهم بالقربِ من الكَلا والماءِ ، فإذا ما نَفدَ ذلك ارتحلُوا؛ وكلُّ فريقٍ منهم له وجْهَةٌ هو مولّيها ، ويوم ذاك يفترقُ المحبّون ، فيتألمون لِلسّعةِ الفراقِ ، ويبكون أيّامهم المواضي ، وذكرياتِهم الخوالي التي عَبَرتْ بهم أفْقَ الليالي التي قَضَوها في مُتعةٍ ومَرَح.

* وهناك راحُوا بدافع حبّهم وهيامِهم يصوّرون تلكم المرأة الجميلة المليحة التي فتنَتْ ألبابَهم ، وسحرتْ أعينهم ، وسهّدتْ أجفانهم (١) ، وسلبتهم الكرى ، وجافت جنوبهم عن المضاجع ، وأوحتْ إلى خيالهم ما أوحته من الوصف والابتكار ، صوّروها على صورة تجلو فيها كلّ محاسنها من مفاتن الجسّدِ وجمالهِ بصفةٍ خاصّة . . . فهي امرأة طويلة فارعة ، سمهريّة العودِ ، حسنة القوام ، مُترفة منعمة ، مِكْسَال ، نؤوم الضّحى ، جميلة المحيّا ، مشرقة الوجه ، ساحرة العينين يزينهما كحل الضّحى ، جميلة المحيّا ، مشرقة الوجه ، ساحرة العينين يزينهما كحل وحور وسعة ، بضّة الجسم ، أسيلة الخدّيْن ، منصوبة العنق ، جيداء

⁽۱) ينطبقُ على كلّ واحد منهم قولَ الشّاعر الذي استخدمَ الجناس التّامَ فأحسن: إنْ لـــمْ تقــرِّحْ أدمُعــي أَجْفَــانــي مِــنْ بَعْــدِ بُعْــدِكــمُ فمــا أَجْفَــانــي

عطبُول، طويلةُ الشَّعْر فاحمتُه، تستوي على ساقَيْن كالأنابيبِ الرِّيانةِ ليونة ونعومةً؛ وكالعاجِ أو الرّخام بياضاً، مليئةُ الصَّدر، مصقولةٌ صَقْلَ مرآةِ مجلوّة، دقيقةُ الخَصْرِ، ثقيلةُ الرِّدفيْن، مليئةُ الذّراعين، رخصةُ الأنامِل، تبتسمُ عن ثغرِ جميلِ فاتن، يفترُّ عن أسنانِ منسقة بيض كاللؤلؤ أو الأقحوان أو البرَدِ، لمياءُ الشفتيْن، ريقُها عذبٌ كالعَسَل، وإذا تنفَّسَتْ كان لِنفسِها شذا طيب عبق، كأنه العطرُ المُستخرجُ ، ورائحتُها زكيةٌ دائماً؛ إذ يفوحُ العطرُ دونَ انقطاع من أعطافِها وأعكانِها وأردانها وأردافها، ومن مقصورتها ومن فراشِها وأثوابها، وقد تكونُ غنية بحليتها الطبيعيّة عن التّحلّي، وبجمالها الفطريّ البارع عن التّجمّل بأدوات الزّينة، وقلّما نجدها متحليةً بالعقودِ والجوهرِ والذّهب.

* تلكم صورةٌ حسيّةٌ ماديّةٌ رسَمها الشُّعراء الجاهليون ، وجلوها عن طريقِ حواسّهم الخمس:

لَمْساً: ليدِها الرّخصةِ النّاعمةِ الجميلةِ البيضاء.

ونظراً: إلى وجهِها المشرقِ الوضيء الجذَّاب.

وشماً: لشذاها العبقِ الفوّاح الطّيب.

وتذوّقاً: لريقِها العذبِ عذوبةَ الشُّلافِ والرّحيق.

وتسمُّعاً: لصوتها النّاعمِ الرخيمِ المطربِ الرّقيق الدَّفَّاق.

* وإذا ما استنفدَ الشّاعرُ الجاهليُّ حواسّه الخمس في وصفِ المرأةِ ، أو وصْفِ محبوبته ، فقد استغرقَ بذلك كلَّ ما في جعبتِه من مجالاتِ الوصفِ لمحبوبته؛ آسرته وساحرته ، ولا نكاد نجدُ شاعراً منهم قد تعمَّق أو تعرَّض فيما وراء ذلك لوصفِ المرأةِ معنويّاً ، فلم يصِفُوا نفسيّة تلك المرأةِ ، ولم يتعرضُوا ـ على الغالب ـ للحديثِ عن آمالِها وآلامِها ووجدانِها ،

ولم يبيّنوا مدى الارتباطاتِ الرّوحية والذّهنية التي تربطُهم بها(١).

* وكانت لهواتُ الشُّعراءِ تتجاوبُ بالغَزَلِ والتَّشبيبِ في كلّ صقْعِ من أصقاعِ الجزيرةِ ، ينفسونُ به عن حبِّ مبرّح ، وشوقِ لهيفٍ ، يفتنُونَ في وصْفِ مفاتِن النِّساء الجسديّة ، ويصرّحون ـ أحياناً ـ بما نالُوا من لذّاتٍ ومتع ولقاءات.

* ولقد كان الخَليُّ يحاكي الشّجي أحياناً فيتغزّلُ ، وهؤلاء وأولئك خلّفوا من الشّعر الغَزِل ثروةً عظيمةً تنبىءُ عن تقديرِ العربِ للمرأةِ ، وخضوعهم لسلطانِ الجمالِ والحبِّ والهيامِ ، ولم يكنُ من محضِ المُصَادفات أنَّ المعلّقات قد بُدِئَتْ بالغَزلِ ، وكذلك القصائدُ المشهوراتُ في تاريخ الشّعرِ العربيّ كقصيدةِ كعبِ بنِ زهير التي مدح بها رسولَ اللهِ ﷺ ، ثم تعقّبه وعارضَه كثيرون ونهجُوا نفسَ نهجهِ في الغَزَلِ وبكاءِ أطلالِ المحبوبةِ ووصفِها.

* وها نحنُ أولاءِ نجوبُ دواوينَ شعراءِ العَصْر القديم ، ونسمعُ ما جادَتْ به قرائحُهم من أوصافِ المرأةِ وصورتها عندهم ، وكيف جعلَ الشّعراء من المرأةِ وحيَ خيالهم ، وخيالَ وحيهم ، ومنى أملِهم.

* ففي الحديثِ عن القوامِ وطولِ المرأةِ ونومتها ومشيتها يقولُ الأعشىٰ في ذلك:

غَرّاءُ فَرعاءُ مصقولٌ عوارضُها تَمْشِي الهويني كما يمشي الوَحي الوَحِلُ كأنَّ مشْيَتَها من بيتِ جارتها مرَّ السَّحابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ^(٢)

⁽١) انظر: أمير الشعر في العصر القديم «امرؤ القيس» لمحمد صالح سمك (ص ١٤٨) بشيء من التصرف. دار نهضة مصر ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

⁽٢) ديوان الأعشى (ص ١ و٢). و (ريث): الإبطاء والتمهل.

* وهذا سلامةُ بنُ جندل السَّعدي يتحدَّثُ عن المرأةِ الجارية البيضاء ، النَّاعمة الحسنةِ الحسنةِ القوامِ النَّاعمة الحسنةِ الحسنةِ القوامِ الرَّحْصةِ اللينة المغناج ، فيقول:

وعنْدَنا قَيْنَةٌ بيضاءُ ناعمةٌ مِثلَ المهاةِ منَ الحُورِ الخَراعيْبُ(١)

* ويرجو ثعلبة بنُ صعير المازنيّ حبيبتَه «عمرة» أن تنوَّلَه قبل سَفَرِه ، ويشبّه هذه الحبيبة الجميلة في وضوح جبينِها ، وغورِ عينيها بالبقرةِ الوحشيّة ، وقد غارَتْ عيناها ، فراقت للنَّاظرين ، فيقول:

ولـرُبَّ واضحـة الجبيـنِ عـزيـزةٌ مثلُ المهاةِ تروقُ عين النَّاظر (٢)

* ويشبّه المخبل السَّعدي وجْهَ المرأةِ بالصَّحيفةِ لملاسَتِهِ وليْنِهِ فليس هو قليلَ اللحمِ ضامراً ، ولا كثيرَ اللحم بشعاً ، فهي خيْرةُ كلّ شيء ، تتصدّر المجلسَ دائماً ، شبيهة بالدر الثمين:

وتريكَ وجُهاً كالصَّحيفةِ لا ظمان مختلج ولا جَهْمُ مُ كَعقيلَةِ السَّدُرِّ استضاءَ بها مِحرابَ عرشِ عزيزِها العُجْمُ (٣)

بل يشبّهها بالدّرة ، ثمّ ببيضة النّعام التي خُبّئت في الرّمال ، هكذا المرأة الحبيبة المعشوقة ليس لها عظمٌ ناتىء:

أو بيضةِ الدَّعْصِ التي وُضِعَتْ في الأرْضِ لَيْس لمسِّهَا حَجمُ

* كما أنَّ المرّارَ بنَ منقذ الحنظليّ العدويّ يتحدّث عن محبوبتهِ خولةً ، وقد وصفَها وصفاً طويلاً في قصيدةٍ رائيةٍ تبلغُ (٩٥ بيتاً) ، فالمراةُ عنده

⁽۱) المفضليات (ص ١٢٠) رقم القصيدة (٢٢) و«الخراعيب»: جمع خرعب وهي ممتلئة الساقين الحسنة القوام ، الرخصة ، اللينة.

⁽٢) المفضليات (ص ١٣١) رقم القصيدة (٢٤).

⁽٣) المفضليات (ص ٥).

جميلةٌ ضامرةُ البطن ، ضامرةُ الخصرِ ، تتمايلُ كالنَّخلةِ ، فبدتْ صفراء من الطِّيْب ، يشبّهها بالشّمس كلما ذَرَّتْ _ طلَعَتْ _ فيقول:

لَحَسِبْتَ الشَّمسَ في جلْبابِها قد تبدَّتْ في غمامٍ مُنْسَفرُ صورةُ الشَّمسِ على صُورتها كلّما تَغْرُبُ شمسٌ أو تَذُرّ(١)

* وتحدَّثَ الشُّعراء كذلك عن إشراقِ محياها ، وقد تباروا في التَّفنّن في وصفِ ذلك الوجْهِ الجميلِ الجذّاب ، فهي عند امرىءِ القَيْس تضيءُ الظَّلام بنورِها كأنّها منارةُ الرَّاهبِ وسراجه الذي يستضيءُ به في عبادته فيقول: تضيءُ الظَّلامَ بالعشَاءِ كأنَّها منارةُ مُمْسِي راهبِ مُتَبَتِّلِ (٢)

* وهي عند طرفة بن العبد البكريّ شمسٌ مشرقةٌ نقيةٌ ؛ بل إنَّ المرأة عنده جميلةٌ ، وفي شفتيها سُمرةٌ ، وفي عينيها كُحْلٌ ونعاسٌ ، وقد لبست عقداً فوقَ عقيدٍ من زبرجدٍ كريم ، وهي مغناجٌ جميلةٌ ، إذا ابتسمَتْ تنمُّ عن شفاهٍ سُمْرٍ ، وأسنانٍ بيض كأنّها الأقحوانُ الذي نَبَتَ على كثبانِ الرَّمل ، فأسنانُها برّاقةٌ لامعةٌ ، كأنَّ الشَّمْسَ قد أعارتها نورها ؛ أمّا وجهها فهو في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ ، مصقولٌ كأنَّ الشمسَ ألقتْ عليه رداءَها ، فيقول :

ووجْهُ كَأَنَّ الشَّمْسَ أَلْقَتْ رداءَهَا عليهِ نقيِّ اللَّـونِ لَـمْ يتَخـدَّدِ (٣)

* وأمّا لبيدُ بنُ ربيعةَ فهو ينظرُ إلى امتلاءِ رِدْفَيْها ، ويرى أنّ ضوءَها يعشى البصَرَ ، فيقول:

وفي الحُدوجِ عَروبٌ غيرُ فاحِشَةٍ ريًّا الرَّوادفِ يَعْشَىٰ دونَها البَصَرُ

⁽١) المفضليات (ص ٩٢) ، و «المُنْسَفر»: المنقشع. و «ذرّت الشمس»: طلعت.

⁽۲) انظر: شرح ديوان امرىء القيس لحسن السندوبي (ص ۱۷۲) ، وشرح المعلقات (ص ٦٤).

⁽٣) اقرأ هذا في وصف خولة محبوبة طرفة في المعلقات (ص ٧٠) للشنقيطي.

* ويشبّهها بعضُ المتغزّلين من شعرائِهم تارةً بالشّمس يوم تطلُعُ في سَعْد الشُّعود في مثل قولِ النَّابِغة الذَّبياني:

بيضًاءُ كالشَّمْسِ وَافَتْ يومَ أَسْعُدِها لَمْ تؤْذِ أَهْلًا ولم تُفْحِشْ على جَارِ وفي مثل قُولِ النَّابِغة الذَّبياني أيضاً:

قَـامَتْ تَـراءى بينَ سِجْفَـي قبَّةٍ كالشَّمسِ يومَ طلوعِها بالأسْعُدِ

* وتارة أخرى يحلو للشَّاعر أنْ يتساءَلَ عمّا يرى من محيّاها. . . أيرى سنا البرق ، أمْ وجْهَ حبيبته «نُعمى» حيث يقول النّابغة:

أَلَمْحَةً منْ سنا برقي رأى بَصَري أَمْ وجْمه نُعْم بـدَا لـي أَمْ سَنَا نــارِ بلُ وجْهُ نُعْم بَدا والليلُ مُعْتكرٌ فَلَاحَ مَنْ بينِ أَثُـوابِ وأَسْتَـارِ

* وتارةً يراها الشَّاعرُ مضيئةً كدرةِ الصَّدفَة يبتهج بها الغوّاصُ ، بل يسجدُ أمامَها ، أو كدميةٍ من مَرْمَرِ مرفوعةٍ بآجرٌ يُشادُ بقرمد ، يقولُ النَّابغة :

أو درّة صدفيّة غـوّاصُهَا بهـجٌ متى ينْظُر إليها يَسْجـدِ أو دميّةٍ من مَرمر مرفوعةٍ بُنيَتْ باَجُرّ يُشَادُ بِقرمدِ

* وتملكتِ الحبيبةُ سعاد قلْبَ ربيعةَ بن مقروم الضّبيّ ، فتُضنيهِ وتوجعُه ، وتخلفُ المواعيد ، فيشبّهها بالظَّبيةِ البكْر ، وقد كثُرَ مرتعها واتَّسعَ ، تصعدُ الهضَبات ، وتنزلُ المنخفضات حرّةً طليقةً دونما رقيبِ أو وازع فيقول:

وأخلفَتْكَ ابنَـةُ الحُـرِّ المَـواعيـدا منْ حَوْمَلِ تَلَعَاتُ الجوِّ أو أُودَا^(١)

بانَتْ سُعادُ فأمْسَىٰ القَلْبُ مَعْمُودَا كأنَّها ظبْيَةٌ بِكُرٌ أطاعَ لَها

⁽١) المفضليات (ص ٢١٣) ، و«معمودا»: من قولهم: عَمَدهُ الحبُّ: أضناه وأوجعه. و"التلعات": من الأضداد؛ ما ارتفع من الأرض وما انخفض. و"حومل والجو وأود»: أسماء مواضع.

* وأمّا عينا المرأة وخدّاها وجِيْدُها ، فقد فاز بنصيبٍ كبيرٍ من غَزَلِ هؤلاء الشّعراء في العصر الجاهلي ، فقد وجَدوا في الغَزَالَةِ والمَهَا جمالَ العينيّن واتساعهما وطولَ العُنق ، كما وجدوا جمالَ الأعيُن واتساعهما وحورها في أبقارِ الوحْشِ ، فشبّهوا محبوباتِهم بهنَّ في ذلك.

* فحبيبةُ امرىءِ القيس ، حين تتدلّلُ عليهِ تصدّ وتبدي عن أسيلٍ ، وتتّقيم بعينٍ كعينِ الظّبيةِ الحنون ذات الطّفل التي ترعلىٰ في وجْرَة ؛ يقول:

تَصُدُّ وتُبدِي عن أَسِيلٍ وتتقي بناظرةٍ من وحْشِ وَجْرَة مُطْفِلِ وَجِيْدٍ كَجيدِ الرّئمِ ليسَ بفاحشٍ إذا هي نصَّتْه ولا بِمُعَطَّــل(١)

* أمّا محبوبةُ عنترة ، فقد كانت أكثرَ حياءً وخَفَراً ، وأطوعَ عناناً ، فيقولُ من معلّقته:

دارٌ لآنِسَـةٍ غَضيـضٍ طـرفُهَـا طـوع العنـاقِ لَـذيـذةِ المتبسّـم

* ويصفُ الأعشى عينَي الحبيبة ، فيشبّههما بِمُقَلِ الظّباء أو البقر الوحشي؛ إذ هما حَوراوان ، نظراتُهما فاترةٌ وقاتلةٌ في آنٍ معاً ، ويعلوهما حاجبٌ جميل:

تلألؤُهَا مثلُ اللجَيْن كأنَّما ترى مَقْلَتَي رئم ولو لَمْ تكحَّلِ سَجَوَيْنِ برجاوَيْن في حُسْنِ حاجبٍ وخلِّ أسيلٍ واضحٍ مُتَهلل (٢)

⁽۱) انظر: شرح ديوان امرىء القيس (ص ۱۷۱)؛ و «تصدّ»: تعرضُ عنّا وتبتعد بخدها الناعم الأملس. «بناظرة»: بعين ناظرة، و «وجرة»: اسم موضع، و «مطفل»: ذات أطفال، و «الجيد»: العنق، و «الرئم»: الظبي الأبيض الخالص البياض، و «ليس بفاحش»: غير كريه المنظر، و «نصته»: رفعته، و «المعطل»: الذي لا حلي عليه.

⁽٢) ديسوان الأعشى (ص ٧٧). و «اللجيسن»: الفضة. و «سجويسن»: فأتسريسن. و «برجاوين»: واسعتين صافيتين. و «أسيل»: أملس مسترسل.

* ويصوّرُ الحادِرةُ جمالَ عيني حبيبته "سُميّة" فإذا فيهما حَوَر ، _ وهو شدّةُ سوادِ العين مع شدّة بياضِها _ فنظنُ أنَّ في عينيها نُعاساً ، وذلك موصوفٌ في النّساء الجميلاتِ يكون في نظرها فُتور ، فهي حرّةُ الوجهِ كريمةٌ أمامَ هذه الصّورة ، لا يستطيعُ الشّاعر إلا أنْ يشبّه مقلتيها بعيني الغزال الشّارد فيقول:

وبمُقْلتَي حَوْرَاء تَحْسَبُ طَرفَها وسْنَان حُرَّةِ مُستَهَال الأَدْمُعِ الأَدْمُعِ * وشَعْرُ المرأةِ في كُلِّ عَصْر ، ولدى كلّ أمّة مظهرٌ من مظاهرِ جمالِها ، بل هو تاجُ الطّبيعةِ فوقَ رأسِها ، وللشُّعراء فيه خيالاتٌ تختلفُ باختلافِ بيئاتهم.

* فقد شبّهه المرقّشُ الأصغرُ في تدلّيه ، وقد استرخَتْ ذوائبه السُّود بالحِبال فقال:

أَلا حَبَّـذَا وَجُـهُ تُـرِينَا بَيَاضَـهُ وَمُنْسَدَلاتٍ كَالْمَثَانِي فَوَاحِما

* ووصفَ ربيعةُ بنُ مقروم شَعْر الحبيبةِ الذي استرسلَ على كتفَيْها ، وفيه دؤاباتٌ جميلةٌ ، فيشتِهه بالعناقيدِ المهدّلَةِ على الكَرمةِ فيقولُ:

قامتْ تُريكَ غادةَ البينِ مُنْسَدلًا تَخَالُـهُ فـوقَ مَثْنَيْهـا العَنَـاقيـدُ

* ووصف المرّارُ بنُ منقذ شَعْر المرأةِ بأنَّه جَعْدٌ طويلٌ فيه ضفائرُ فيقول:

تُهْلِكُ المِدْراةُ في أفسانِهِ فيإذا ما أَرْسَلْتَهُ ينْعَفِرُنُ جَعْلِكُ المِدْراةُ في أَفْرُقُ عَنْها كالضَّفُرُ(١)

⁽۱) المفضليات (ص ٩٠). ومعنى «المدراة»: المِشْط. وهلاكها: غوصُها فلا تظهر فيه. و«أفنانُه»: ذوائبه ، وأصلُ الفَنَن: الغُصن. و«ينْعَفر»: يصيبه العَفَر أي التراب وذلك من طوله.

* وشَعْرُ المرأةِ المحبوبة «الرّباب» عند المخبّل السّعدي هو شَعْرٌ غزيرٌ جَعْد كأنّه كرمٌ يضلُّ فيه المشطّ :

وتُضِلُّ مِدْرَاهَا المَواشطُ في جَعْدٍ أغَدمً كِأنَّه كَرمُ(١)

* وكما تغزَّلَ الجاهليُّون من الشُّعراء المحبّين في شُعْرِ المرأةِ ووصفوه بالسُّواد الفاحم والطُّولِ والجمالِ والغزارةِ ، تغزَّلُوا كذلك في الأردافِ ، والأعناقِ والثّغور ، وقد أجمعوا على أن مثلُهم الأعلىٰ في جمالِ المرأة هو البضاضَةُ ونعومةُ الجسم واكتنازُهُ شحماً ولحماً ، وامتلاءُ الصّدر والذَّراعَيْن ، ورقَّةُ الأصابع ، وسِحْرِ العينَيْن ، وثقلُ الردفَيْن ، وجمالُ السَّاقين ، ودقَّةُ الخَصْر ، وتكعّبُ الثَّديَيْن ، وفراعةُ العودِ ، وطولُ الجِيدِ ، وما إلىٰ ذلك منَ الأوصافِ التي جعلُوها معاييرَ الجمالِ والحُسن لدى نسائِهم على مقتضى أذواقِهم البدويّةِ الفطريّةِ ، ونجدُ معظمَ هذه الأوصاف في معلَّقة عمرو بن كلثوم حيثُ يقول:

> ذِراعَــيْ عَيْطَــلِ أدمـــاءَ بَكْــرٍ وثَـدَيـاً مثـلَ حُـقً العَـاج رخْصـاً ومتنَىٰ لَـدنـةٍ سَمَقـتْ وطـالَـتْ

تريكَ إذا دخلتَ على خَلاءٍ وقد أمنتُ عُيونُ الكَاشحينا هجانِ اللونِ لم تَقرأ جَنينا حُصاناً من أكف اللامسينا روادِفُهـــا تَنـــوءُ بمـــا ولينــــا(٢)

والنَّهــد تحسبُــه وسنـــانَ أو كسِـــلاً وقــد تمـــايـــلَ مَيْـــلاً غيــرَ منكَسِـــرِ ـ وقال غيره:

أيا ربحة النهد الذي بسسامه أَحُقَّان من عاج بصدركِ أمْ هُما ـ وقال آخر:

يحطُّ فتى الهيجاءِ عن فرس نَهْدِ رقيبانِ قَدْ قَدِما على جنّةِ الخُلدِ

المفضليات (ص ١١٦). و«المدرى»: المشط. و«الجعد»: الشَّعر المتقبِّض ليس بالسَّبْط. و«الأغم»: الشُّعر الكثير. و«الكرم»: شجر العنب.

تحدَّثَ الشّعراء كثيراً عن الثّدي ، فممّا قاله بشّار بن برد:

ومَـ أُكَمـةٍ يضيـقُ البـابُ عنهـا وكَشْحـاً قَـدْ جُنِنْتُ بـه جُنـونـا وسَــاريتَــيْ بلَنْــطٍ أو رُخــام يَــرنُ خشــاشُ حَلْيهمــا رنينــا

* ويصفُ النّابغةُ المتجرّدةَ إذْ يسقطُ قناعُها ، فتسترُ وجهَها بكفّها البضّةِ التي يزيّنُها الخِضاب ، أو هي تزيّن الخضاب ، وفي هذا يقول:

سَقَطَ النَّصيفُ وَلَمْ تُرِدْ إسقَاطَه فتناولَتْه واتَّقَتْنا بِاليَدِ بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَهُ عَنَمٌ تكادُ منَ اللَّطافةِ تُعْقَدُ

* وتطرّقَ شعراءُ ذلك العَصْر إلى وصْفِ فَمِ المرأة وأسنانِها وريقها ، فهذا بشرُ بنُ أبي خازم ينعتُ خليلتَه "إدام" بأنَّ رضابَها ووجهَها يُذهِبُ العقولَ ، فيصبحُ حبيبها كالسَّبيِّ لها ، تكشفُ عن بيضاءَ فارقةٍ ، حيث شبَّه فاهَا عند تغيير الأفواه بالخمر ، فيقولُ من قصيدةٍ طويلةٍ مطلعها:

ومنها قوله: لَياليَ تَسْتبيكَ بني غُروبِ كَأَنَّ رُضَابَه وهْناً مُدامُ(١) * وأمّا الأسودُ بنُ يعفُر النَّهشليّ فقد وصفَ محبوبتَه «أسماء» أجْمل

مــا أُشْـرعَــتْ إلا لجنــي قطــافِهــا

تجدا دمي قد حُفّ في أطرافِها

في الصّدر منها للطّعان أسنةٌ
 إنْ تنكرا قَتْلي بها فتبيّنا
 وقال بعضهم:

⁽١) المفضليات (ص ٣٣٣ و ٣٣٣) ، و «احتلام»: حلم في المنام. و «إدام»: أسم امرأة. و «رمام»: الخلق البالي. و «تستبيك»: تذهب بعقلك. و «الغروب»: أشر في الأسنان. و «الوهن»: بعد ساعة من الليل.

وصْفِ ، فشبَّه ريقَها بالخمر أوّل ما ينزلُ من الدَّنِّ فيكونُ صِرْفاً لم يُمزَجُ بشيءٍ فيقول:

كَأَنَّ رِيقَتَهَا بَعْدَ الكَرِيٰ اغتَبَقَتْ صِرْفاً تخيَّرَهَا الحانُونَ خُرْطوما^(١)

* ويصفُ المرّارُ بنُ منقذ أسنانَ محبوبتهِ «خولة» وبياضَهما ، كما يشبّه ريقها بالعَسَل في حلاوتِهِ فيقول:

وإذا تضحَكُ أبدى ضحكُها أُقْحواناً قيَّدتْهُ ذَا أُشُرْ لَنِي صَحَكُها عَسَلاً شِيْبَ بِه ثلجٌ خَصِرْ(٢)

* ويصفُ الحادرةُ جمالَ تبشُم محبوبتهِ «سميّة» ويصفُ كذلك طيْبَ ريقها وعذوبته ، فيشبّهه بالماءِ قريب العهد بالسَّحابة التي هبَّت عليها ريحُ الصَّبا ، فأصبحتْ ليّنةً خصبةً ، يأتي المطرُ بها سَهْلاً فيقول:

وإذا تُنازِعُكَ الحديثَ رأيتَها حسَناً تبشَّمها لـذيـذَ المكْرَعِ بغَريضِ سَاريـةٍ أدرَّتُه الصَّبَا من ماءِ أسْجَرَ طيِّب المُستنقع^(٣)

* وأمّا المرقّشُ فيذكرُ جمال شَعْر حبيبتِه «فاطمة» وعذبَ ثناياها ، وشبّه ريقَ «فاطمته» بماءِ المُزن فيقول:

تَراءَتْ لَنا يومَ الرَّحيْل بواردٍ وعَذْبِ الثَّنايا لَمْ يكُنْ مُتَراكِما سَقَاهُ حَبِيُّ المُزْنِ في متهلِّلٍ من الشَّمْس روَّاهُ رباباً سَواجِما(1)

 ⁽۱) المفضليات (ص ٤١٨)، «اغتبقت»: شُرْب العشي. و «صرفاً»: لم يمزج.
 و «الحانون»: جمع حان، والحاني: الخمّار. و «الخرطوم»: أول ما ينزل من الدن.

 ⁽۲) المفضليات (ص ۹۰) ، و«الأقحوان»: نبت له نور أبيض. و«أشُر»: جمع أشر ،
 وهو مثل التحزيز يكون في أسنان الطفل قبل أن يأكل.

 ⁽٣) المفضليات (ص ٤٤). و«المكرع»: ما يرتشف من ريقها؛ و«الغريض»: الطري؛
 و«السارية»: السحابة.

 ⁽٤) المفضليات (ص ٢٤٤ و٢٤٥)؛ و«الوارد»: الطّويل ، عنى شَعْرها ، و«متراكم»:
 متراكب. و«حَبِيُّ المزن»: ما اقتربَ منَ السّحاب. و«في متهلل»: أي في روض =

* وريقُ المحبوبة عند امرىء القيس يشبهُ طعمُه طعمَ المُدامة المعتّقة التي يأتي تجّار الخمرةِ بها ، فيقول:

إِذَا ذَقْتُ فَاهَا قُلْتُ طَعْمَ مُدَامةٍ معتّقَةٍ ممّا تجيئ به التُّجْرُ(١)

* ونلمحُ المرّارَ بن منقذ بارعاً في وصْفهِ للمرأةِ ، حيث تعرّضَ بشعرهِ لوصفِ ثيابها ، فهي تلبسُ نفيسَ الثياب ، وينتشرُ أريجُها عبقاً منَ المسْكِ فهي صفراءُ من الطّيب ، يشبُهُ لونُها عرجونَ العمر _ وهو نخلةُ السُّكر _ ، فقول:

عَبَـــ أَ العَنْبِــرِ والمسْــكُ بهـا فهــي صَفْـراءُ كَعُــرجُــون العُمُــرُ وَهْــيَ لَــو يُعْصَــرُ مــن أردَانِهـا عَبَـقُ المسْكِ لكَادَتْ تَـنْـعَصِــرُ (٢)

* ولنستمع إلى رائحة المرأة العطريّة عند امرىء القيس ، فحبيبتُه عندما

متهلّل. و«الرّباب»: سحاب دون السّحاب الأعظم. و«سواجم»: تسكبُ الماء، يريد تشبيه ريقها بماءِ المُزن.

ـ هذا وقد أضفىٰ المرقّشُ كلّ سِماتِ الجمالِ على فاطمتِهِ وفُطيمتهِ ، وفُطيم ، وفُطيم ، وفُطيم ، وفُطيم ، وفَاطِم ، كما أظهرَ عشْقَه لها ، اسمعُ إليه يقول:

وإنّي لأستحيى فطيمة جائعاً خميصاً واستحيى فُطيمة طاعِما وإنّي وإن كلّت قُلوصي لَراجِمٌ بها وبنفسي يا فُطيم المَراجِمَا أفاطِمَ إنَّ الحبَّ يعفو عن القِلىٰ ويجشمُ ذا العرض الكريمِ المُجاشما ألا يا اسلمي بالكوكبِ الطّلِق فاطِماً وإن لم يكنْ صرفُ النّوى متلائما ألا يا اسلمي ثمّ اعلمي أنَّ حاجتي إليك فردّي من نوالك فَاطِما ألا يا اسلمي ثمّ اعلمي أنَّ حاجتي وأنتِ بأخرى لاتبعتك هائِما أفاطما مَلو أنَّ النّساءَ ببلية

(۱) شرح ديوان امرىء القيس (ص ۱۱۸)، و«ذقتُ فاها»: إذا قبلتها في فيها.
 و«مُدامة»: خمرة. و«معتّقة»: قديمة. و«التّجرُ»: يريد تجّار الخمر.

 ⁽٢) المفضليّات (ص ٩٢) ، و «عَبَقُ » تُقرأ فعلاً عَبَقَ ؛ واسماً عَبَقُ ، وعبق الطّيب: من باب: فَرحَ ، عَلِقَ ، ولَصِقَ ؛ فهي صفراءُ من الطّيب. و «العُمُر»: نخلةُ السّكر. و «الأردان»: الأكمام. «كادت تنعصر»: أي تكادُ أكمامها تقطرُ من المِسْك.

تضعُ الطّيْبَ في فراشِها ، فإنّه تفوحُ من ذلك رائحةُ المسْكِ مثل نسيم الصَّبا الذي هبّ على القرنفُلِ ، فأتىٰ برائحته ورائحةِ حبيبتهِ الطّيّبة التي تنامُ مرفّهةً في رداءِ النّوم كأنّها باتَتْ على مسكِ مفتّتِ فيقول:

إذَا التَفتَتْ نَحْوي تَضَوَّعَ ريحُها نسيمَ الصَّبا جاءَتْ بِرَيّا القَرنْفُلِ وتُضْحِي فَتيتُ المِسْكِ فَوقَ فراشِها نؤومَ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضُّلِ(١)

* وما زال الحديثُ موصولاً عن المرأةِ ، وعن عطْرِها وزينتِها وأنواعِ طيْبِها ، كيما يطيبُ حديثُنا هنا عَنْها ، وكيما نتعرفُ أذواقَ العربِ عَصْرَ ذاك.

* ومن المعروفِ أنَّ الرِّجالَ الذَّواقين يستطيبون رائحةَ المسْكِ في المرأةِ ، ويمدحونَها بأنَّها مُمسّكة ، كما قرأنا آنفاً في شعرِ امرىء القيس ، الذي ذكرَ أنَّ حبيبتَه تنثرُ المسكَ على فراشِها كما تذرّه على جسْمِها.

 * وقد تعمّد بعضُ النّساء إلىٰ أنْ تضع المسْكَ على فيْهَا ووجهها ، كما ذكر عنترة العبسي ذلك فقال:

تبيتُ فُتَاتُ المِسْكِ تَحتَ لِثامِها فيزدادُ من أنفاسِها أرَجُ النَّدِّ

* وربّما تغلّلُ المرأةُ بالمسْكِ شَعْرَها ، كما تطيّبُ جسمَها وفراشَها ، فتسطعُ رائحته ، يقولُ سويدُ بنُ أبي كاهل اليشكريّ في حبيبته «رابعة» من قصيدة طويلة مطلعها:

بَسَطَــتْ رابعــةُ الحَبْــلَ لنــا فوصلْنَـا الحَبْـلَ منهـا مـا اتَّسـع

⁽۱) شرح ديوان امرىء القيس (ص ۱۷۰ و۱۷۲). و «تضوَّع»: فاحَ وانتشرَ؛ و «ريّا القرنفل»: ريحُ زهرِ هذا النّوع المعروف في الأفاويه. «و «تُضحي»: تنتبه من نومها في ضحوة النّهار. و «فتيت المسئك»: ما تفتّتَ منه ، فكأنّما باتَتْ هذه المحبوبة على مسئك مفتّت ، وإنْ لم يكن هناك مسئك. و «لم تنتطق»: لم تشدّ نطاقاً للعمل فهي مرفّهة. و «عن تفضّل»: عن ثوب النوم.

ومنها قوله في المسْكِ الذي يتخلّل شَعْرهَا الطَّويلَ وذوائبها الجميلة ، ففاحَتْ رائحتُه:

وقُـرونــاً سَـابِغــاً أَطْـرافُهـا عَلَّلتْهـا ريـحُ مسْـكِ ذي فنَـع(١)

* وربّما تطيبتِ المرأةُ بالمسْكِ والزَّنبق وتجمعهما معاً ، كيما تلفتَ إليها النّظر ، يقولُ امرؤ القيس:

وفَوقَ الحَوايَا غِزْلَةٌ وجَآذِرٌ تضمَّخْنَ منْ مسْكِ ذكيٍّ وزنْبَقِ

* وأمّا الأعشى (٢) ، فهو معجبٌ بالمرأةِ أصْلاً ، وأُعجِبَ برائحةِ المسك والزَّنبقِ في حبيبتهِ ، فعبَّر عن إعجابهِ بهذهِ الصّورة المليحة؛ إذا تحركَتِ المحبوبةُ سطعَ مسْكُها وزنبقها ووردها ، وليستِ الرّوضةُ المُعْشِبةُ العالية المخضرةُ التي يجوّدهَا الغيثُ ، وتضاحكُ الشَّمسُ أزاهيرهَا النّاميةَ المحفوفة بالزَّهر والفواحة المحفوفة بالزَّهر والفواحة بالشّذا _ وإن هبَّتْ علبها نسماتُ الأصيل فعطّرتْ الجوَّ بشذاها _ بأطيبَ من رائحةِ المحبوبةِ ، فيقولُ:

وِرَةً والزَّنْبِقُ الوَرْدُ منْ أَرْدَانِها شَمِلُ شبةٌ خضراء جادَ عليها مسبلٌ هَطِلُ

إذا تَقُومُ يَضُوعُ المسْكُ أَصْوِرَةً ما روضَةٌ منْ رياضِ الحَزْنِ مُعشبةٌ

⁽۱) المفضليّات (ص ۱۹۱)؛ و «القرون»: الذّوائب. و «السّابغ»: الطّويل التامّ. و «غلّلتها»: دخلت فيها. و «ريحُ»: بالرّفع: فاعل ، ونصَّ الأنباري على أن رَفْعَ ريح انفردَ بروايتهِ أبو عِكْرمة ، وأنَّ سائرهم ينصبُها. و «فَنَع»: الكثرةُ والفَضْل ، والمرادُ هنا طيْبُ ريحهِ وسطوعها.

⁽۲) «الأعشى»: اسمه ميمونُ بنُ قيس ، كان يكنى أبا بصير ، وهو أحدُ الأعلام منْ شعراء الجاهليّة وفحولها. وسُئل يونسُ بنُ حبيب النّحوي شيخ سيبويه: مَنْ أشعرُ النّاس؟ فقال: لا أومىءُ إلى رجلِ بعينه ، ولكنّي أقولُ: «امروُ القيس إذا ركبَ ، والنابغةُ إذا رهبَ ، وزهيرُ إذا رغبَ ، والأعشى إذا طَرِب». وقال أبو عبيدة: «وكان يغنّىٰ بشعره ، فكانتِ العربُ تسمّيه صناجةَ العرب». (معاهد التّنصيص ١٩٦/١).

يُضَاحِكُ الشَّمسَ منها كَوكَبٌ شَرِقٌ مُسؤَزَّرٌ بعَميْــمِ النَّبْــتِ مكْتَهِــلُ يَوماً بأطْيَبَ مِنْها الْأصلُ(١)

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ العربَ قد أولعُوا بالطّيْبِ والعطْرِ ، وكان الرّجلُ منهم يُعْرَفُ بطيْبِ رائحتهِ منْ بعيد ، وينفقُ على ذلكَ مَالاً جزيلاً ، وعُرِفَ جماعةٌ من علماءِ الصَّحابة بالتّطيُّب منهم: عبدُ اللهِ بنُ مسعود ، وعبدُ اللهِ بنُ مسعود ، وعبدُ اللهِ بنُ عباس (٢) رضي الله عنهم جميعاً ، حيث كانوا يقتدونَ بهذا في حبيبِهم وحبيبنا محمّدٍ رسولِ الله ﷺ .

* وإذا ما كان جماعةُ الرّجالِ مغرمينَ بالطّيْب مولعينَ بالعطرِ يضمّخُون به جسومَهم ، فمنَ الطّبيعي أنْ تكونَ النّساءُ أكثرَ ولوعاً وغراماً به ، لأنّه نوعٌ من التّجمّل والتّزيّن والنّعمة ، ولأنّه يروقُ للرّجالِ ويجتذبُهم.

* ولعلَّ المرأةَ تبدو بشكلٍ أوضحَ في العَصْر الجاهليِّ عند مشاهيرِ الشّعراء ، كشُعَراءِ المعلّقات ، وهذا امرؤ القيس الشّاعر اللاهي العابثُ يعطي المرأة جُلَّ اهتمامِهِ ، وقد برزتِ المرأةُ بروزاً واضِحاً في شِعْره ، ولا نكادُ نتجاوزُ الحقائقَ إذا قُلنا: إنَّ المرأةَ قد احتلّتْ في شِعْرِ امرىءِ القيس مكاناً مرمُوقاً بارِزاً أهم ممّا احتلّته عند أي شاعرٍ جاهليّ آخر ، وعلى نحو تفرَّد به .

* ومنَ الواضحِ تماماً في أخبارِ امرىءِ القيس أنَّه كان يجري في شعْرِه وراءَ العَبَثِ والمجُون إلى أبعدِ خاية ، فلمْ يكنْ عاشِقاً صادقاً ومحبّاً وفيّاً ،

⁽۱) انظر: ديوان الأعشى (عدة طبعات) ، وانظر: شرح المعلّقات العشر (ص ١٣١) ، و«الأَصْوِرة»: جمع صوار: الوعاءُ الذي يُحْرَقُ فيه المِسْك. و«شَمِل»: منْتَشر. و«الحَزن»: الأرضُ المرتفعةُ. و«كوكَبُ الماء»: بريقُ الماء. و«شَرِق»: زَاهِ. و«مُكْتَهِل»: تام. و«النّشر»: الرائحة. و«الأصل»: جمع أصيل ، وقت الغروب.

وإنّما كان فاحِشاً ، يشبّب اليوم بفاطمة وهِرّ ، وفي الغداة يزيّنُ له الهوى أنْ ينتقلَ إلى الرّباب وفَرتَنا ، فهو _ إنْ صحَّ التّعبير _ أسيرُ لذّات ، وصاحبُ خلاعة ولهو ؛ وكلُّ ما في شِعره من نسيبٍ إنّما هو ذكرٌ للنّساء ومحاسنهن ، ووصفُ عبيهِ معهن ولهوه بهن ، وقد أورد في شعرهِ أسماء كثيرات ومنهن: أمُّ مالك ، وأمُّ جُنْدب ، وسُليمي ، والخنساء ، ورُقاش ، وهند ، والرّباب ، وفرّتنا ، ولميس ، وقد جمع أربعة منهن في بيتٍ واحدِ فقال : والرّباب ، وفرّتنا ، ولميس ، وقد جمع أربعة منهن في بيتٍ واحدِ فقال : دارٌ لهنْد والرّباب وفَرْتَنا ، ولميت فقال :

دِيارٌ لهنْدُ والرّبَابِ وفَرْتَنَا لياليَنا بالنّعْفِ من بَدَلانِ * وجمعَ اثنتَيْن في بيتٍ فقال:

أُغَادي الصَّبوحَ عند هِرِّ وفَرْتَنا وليداً وهلْ أفْنىٰ شَبابي غيرُ هِرِّ عُول: * وفي هِرِّ يقول:

وهِـرُّ تصيـدُ قُلـوبَ الـرِّجـال وأفلَتَ منْها ابـنُ عَمْرو وحُجْرُ اللهِ تَصيـدُ قُلُـوبَ السِرِّجـال وأفلَت منْها ابـنُ عَمْرو وحُجْرُ * ومن نساءِ امرىءِ القيس اللواتي جاءَ ذكرهُنّ في شعره: سلامةُ ، وقذورُ ، وماويّةُ ، وسَلمى ، وأمُّ هاشم ، وابنةُ عفزَر ، وابنةُ يشكُر ، وأسماءُ ، وسعادُ ، وليلى ، وأمُّ الحويرث ، وأمُّ الرِّباب ، وعنيزةُ ، وفاطمةُ .

* وتظهرُ في غزلهِ وتذوّقهِ الجمالَ صورةُ المرأةِ التي ترتضيها الفِطَرُ السّليمة ، وإنَّ أجملَ ما ارتآه امرؤ القيس من الجمالِ في صُويحباتِه ومحبوباتِه أنهنَّ هيفاواتُ مديداتُ ، فرعاواتُ رشيقاتُ أو بديناتُ ، ناعماتُ مُترفات ، وهنّ مشرقاتُ الوجوهِ ، حورُ العيونِ ، فواترُ الأجفانِ ، ساحراتُ النَّظراتِ ، لمياواتُ الشّفاهِ ، فاتناتُ الثّغور ، بيضاواتُ الأَسْنَانِ ، أسيلاتُ الخدودِ ، جيداواتُ الأعناق ، سوداواتُ الشّعر ،

صقيلاتُ النّحور ، كاعباتُ النّهود ، ممتلئاتُ الرّوادفِ والأعجازِ ، بضَّاتُ الأيدي ، دقيقاتُ الأناملِ ، عِذابُ الرّيق . إلى غيرِ ذلك من أوصافٍ وأغزالٍ رسمَها لهنَّ في أشعاره.

* وهناك شاعرٌ آخر متخصِّص في المرأة أيضاً وهو الأعشى ، الذي رسمَ صُوراً متنوّعةَ الألوانِ والأشكالِ في أغزالهِ ، وذِكْر حبيباتِهِ ، ويكادُ الأعشى يتوّج كلّ قصيدةٍ يبدؤها بالغزلِ بذكر اسم حبيبةٍ خاصّة ، وقد اصطنع لذلك سبعة عشر اسماً ، منها ما شارك فيه شعراء آخرين من مثل: ليليٰ ، سلميٰ ، هند ، وسُعاد؛ ومنها ما يبدو خاصاً بقصائده وحدها من مثل: تيّا _ ريّا _ هريرة ، وقَتيلة؛ ومن الواضح أنَّ صيغةَ التّصغير كانت تستهوي الأعشىٰ في المرأة ، فيستخدمُ أسماء لم تَردْ عنده إلّا مُصغَّرة من مثل: جُبيرة وعُفيرة وقُتيلة.

* ونلمح أنَّ أكثرَ أسماء الحبيباتِ عنده وروداً في القصائد اسم قتلة وتصغيرها قَتيلة ، تليها تَيا ، ثمّ ليلي ، وهُريرة ، وسُميّة ، وميثاء...

* ومن النَّساء اللواتي ذكَرهنّ : سميّة حيث قال :

قسالستْ سُميّـــةُ إذْ رأَتْ برقاً يلوحُ على الجِبَال * وميثاءُ التي يقولُ فيها:

فما أنْ تبيّن أسطارُهَا لميْثَاءَ دارٌ عفا رسمها ديارٌ لميثاءَ حلَّتُ بها فقد باعدت منكم دارَهَا * وهند وسلمي يقولُ فيهما:

> فهو مشغوف بهند هائم خُلِقَــتْ هِنـــدٌ لقَلْبـــى فتنـــةً أَنْتِ سَلمي هم أُ نفسي فاذْكُري

يرعوي حينا وأخيانا يجن هكذا تعرض للنّاس الفِتنن سلم لا يوجد للنَّفس ثُمَن

* وسعادُ تنقلبُ إلىٰ سُعدى بقوله:

بانَتْ سعادُ وأمسىٰ حبْلُها رابا وأحدثَ النّأي لي شوقاً وأوصابا وأجْمَعتْ صرمَنا سعدىٰ وهجرتنا لمّا رأتْ أنّ رأسي اليومَ قد شَابا(١)

* والمرأةُ عند طرفةَ بنِ العبد جميلةٌ ، فيصفُ لنا حبيبتَه «خولة» وصْفاً جميلاً ، ففي شفَتيْها سُمْرة حلوةٌ ، وفي عينيّها كحلٌ ونُعاس ، وقد لبستْ عقْداً فوقَ عِقْد من زبرجد كريم ، فشبّهها بالغزالِ في كُحْلِ عينيها ، وحدّة شفتيّها ، وامتدادِ عنقِها فقال:

وفي الحيِّ أَحْوَىٰ ينفضُ المُرْدَ شَادِن مُظاهِرُ سِمْطَيْ لُؤلوً وزَبَرْجَد خَذُولٌ تراعي رَبْرباً بخميلة تناولُ أَطرَافَ البريرِ وتَرْتَدي

* وهذه الحبيبةُ مغناجٌ لعوبٌ ، وما أجملَ بسمتَها تنمُ عنها شفاهٌ سُمْرٌ ، فتبدو أسنانُها بيضاً كأنَّها الأقحوان الذي نبتَ على كثبانِ الرّمل ، فأسنانُها برّاقةٌ لامعةٌ ، كأنَّ الشَّمس أعارتُها نورها فقال:

وتَبْسِمُ عِن أَلْمِىٰ كِأَنَّ مِنُوراً تَخَلَّلُ حُرَّ الرَّمْلِ دِعْصِ لَهُ نَدِ سَقَتْهُ إِيَّاةُ الشَّمِسِ إِلَّا لِثَاتِهِ أَسِفَّ ولَمْ تَكِدِمْ عَلَيهِ بَإِثْمِدِ (٢)

* أمّا وجهُ محبوبتهِ خولة فهو في غايةِ الحُسْنِ والجمالِ ، مصقولٌ ، كأنَّ الشّمس قد ألقتْ عليه رداءَها فيقولُ:

وَوَجْهُ كَأَنَّ الشَّمسَ أَلقَتْ رداءَهَا عليهِ نقييُّ اللَّـون لــمْ يتخــدَّدِ * ونجدُ كذلك صُوراً جميلةً للمرأةِ عند زُهيرِ بنِ أبي سلمى ، وعند

⁽۱) ديوانه (ص ۷۸) و «راب»: أصبح مريباً. و «أوصاب»: أوجاع. ولم ينفرد الأعشى باصطناع أسماء وهمية لحبيباته ، وإنما هناك ـ مثلاً ـ الحارث بن حلزة يبدأ بأسماء وينتهى بهند.

⁽٢) ديوان طرفة (ص ٢ و٣) ، وانظر: شرح المعلقات العشر (ص ٧٠) و إياة الشمس»: شعاعها.

لبيدِ بنِ ربيعة ، وعمرو بنِ كلثوم ، وكذلك عند عنترة الذي أبدع في رسم حبيبته عبلة التي ندَّتْ منها نظرةٌ حلوةٌ مغناج والتي تشبهُ نظرةَ الغَزَال فيقول: وكَانَّما نظرتْ بعينَي شادنٍ رشاً من الغزلانِ ليس بتوءمِ * وتفوحُ من الحبيبةِ الرّائحةُ العطرةُ الطّيبة التي تشبهُ ريحَ المسْكِ ، ويسبقُ ذلك كلّه نكهتُها الطّيبة إذا ما رُمْتَ تقبيلَها؛ أو تشبه طيْبَ روضةٍ نضرة طيبة:

وكانَّ فأرةً تاجر بقسيمة سبَقَتْ عَوَارِضها إليكَ منَ الفَمِ أَو روضة أَنْفا تضمَّنَ نبتَها غيثٌ قليلُ الدَّمْنِ ليس بمَعْلَمِ

* وشبّه عنترةُ حاجبَي الحبيبةِ بحرف النُّون في تقوسه ، كما شبّه ثغرَها بزَهْرِ الأقحوان الطّيّب الرّيحِ ، حوله أوراقٌ بيض ووسطه أصْفَر ، تشبه به الأسنان المُتباعدة ، فقال:

لها حاجِبٌ كالنُّونِ فوقَ جفونها وثغرٌ كرَهْرِ الأُقْحروان مفلَّجِ

* هذا والحديثُ في هذا يطولُ بنا كثيراً لو رُحْنا نجوبُ رياضَه ، إلا أتنا اكتفينا باقتطافِ بعض أزاهِره من آدابِ العربِ في العَصْر الجاهليّ كيما تتوضَح الفكرةُ التي نتعرضُ لها ، ونتحدّثُ عنها.

* ومع هذا كلّه ، ففي هذه الفقْرةِ الجميلةِ فوائدُ تشيرُ إلى رقّة مشاعر العربِ في العَصْر الجاهليّ ، وإلى جمالِ المرأةِ عصر ذاك ، وكيف رسمها الشُّعراء بأعذبِ ألحانِ الكلام.

* بقي علينا أنْ نعودَ إلى المتجرّدة امرأةِ النُّعمان ، وإلى أخبارِها التي وصلَتْ إلينا عبْرَ المصادرِ ، وفيها كثيرٌ من الاضطرابِ والتّزوير ، ووضع النّقاط في غيرِ مواضعها.

* ومنَ العجيبِ أنَّ بعضَ الرُّواة جعلَ من المتجرّدة امرأةً بغياً ، تخادِن

الشّاعر الفُلاني؛ أو يصفها النّابغةُ وصْفاً يعرّضُه لغضبِ النّعمان؛ إلى جانب أمورِ لها يَدَان ورجْلان ، وأشياء أخرى ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان ، وفيها من التّناقضات العجيبةِ والمفارقات الغريبة ، ما جعلنا نقفُ وقفةَ تَصحيحِ ، ونعيدُ الأمورَ إلى نصابِها بإذن الله .

هَـلْ مِـنْ عَلاقَةٍ بِيننَ المُتَجَرِّدَةِ وَالنَّابِغَةِ:

* قصّةُ المتجرّدةِ امرأةِ النّعمان بن المنذر ـ التي كانتْ من أكملِ أهلِ عَصْرها جمالاً ـ هي من أشهرِ القَصَص النّسويّ في العَصْر الجاهليّ ، وأخذت مساحةً كبيرةً من المصادر ، وقد لعبتْ بها أفواهُ الرّواةِ ذات اليمين وذات الشمال ، وذكروا قصصاً وأحداثاً بينها وبين النّابغة الذّبياني (١) ، وأحياناً بينها وبين النّابغة الذّبياني وأحياناً بينها وبين المنخّل اليشكريّ وغيرهما من شعراءِ ذلك العَصْر السحيق اللطيفِ ، وكلُّ هذا جعلَ من المتجرّدةِ امرأة سُوء ، وامرأةً بغياً في

(١) منَ الفوائدِ هنا أنْ نشيرَ إلى أنَّ الآمدي قد ذكرَ في كتابهِ «المؤتلف والمختلف» مَنْ يُقال له النّابغة ، وأوردَ ثمانية:

أوّلهم: النّابغة الذّبيانيّ.

والثَّاني: النَّابغةُ الجعْديِّ الصَّحابيِّ.

والثَّالَثُ: نابغةُ بني الدِّيّان الحارثيِّ.

والرّابع: النّابغة الشّيبانيّ.

والخامسُ: النَّابغةُ الغَنويّ.

والسّادس: النَّابِغَةُ العدواني.

والسّابعُ: النَّابغة الذَّبيانيّ وهو نابغةُ بني قِتال بن يربوع .

والثَّامنَ: النَّابغة التّغلبيّ واسمُّه الحارثُ بنُ عدوان.

(المؤتلف والمختلف ص ٢٩٣) ، وانظر (أخبار النوابغ لحسن السندوبي ص ٤٠٩ _ ٤٦٥).

ـ والنَّوابغُ في الشّعر العربيّ كثيرون ، إلا أنَّ أوسعَهم شهرةً ، وأعلاهم شعراً وشأناً زياد بن معاوية النّابغة الذّبياني ، وهو المقصودُ عُموماً حينما يُطلق لفظ «النّابغة» مجرّداً عن النّسبةِ .

عَصْرِها ، تهوىٰ من تريدُ ، وتُدني من تشاءُ ، وهي في كنَف مَلكِ من أكابرِ ملوكِ عَصْرِه حَزْماً وشدّة وغيْرة ، وقصّة غيرة النّعمان متعالمَةٌ مشهورة في كتُب الأدبِ كالأغاني وغيره.

* ومن مهازلِ القَصص وهُزَالها ما جاء في بعضِ المصادر؛ أنَّ النَّابغة النَّبياني كان من خواص النّعمان بن المنذر ومنْ ندمائه ، وأهلِ أُنسه ، وأنَّ النّابغة : النّابغة هذا قد رأى المتجرّدة مرّة ، وذات يوم قال النَّعمان للنّابغة : يا أبا أمامة ، صِفِ المتجرّدة في شِعْرِك . . . فقال النَّابغة في وصفها قصيدة داليّة مطلعُها :

أَمِـنْ آلِ مَيّـةً رائـحٌ أو مُغْتَـدي عَجْــلانَ ذَا زَادٍ وغيــرَ مُــزَوَّد

* وأنشدَ القصيدة كاملة ، ووصفها فيها وصفاً شاملاً ومفصّلاً ، فوصف بطنها وفرجَها وأردافها وعُكنَها وسائرَ جسمها . . وكان للنّعمان نديمٌ آخر هو المنخّل اليشكريّ ، وكان يُتَهم بالمتجرّدة ، فلمّا سمع بهذا الشِّعر لحقّتُهُ الغيرة ، فقال للنعمان والحسدُ والغيرة يأكلان قلبه : ما يستطيع أنْ يقول هذا الشّعر إلا مَنْ جَرَّب!! فوقرَ ذلك في نفْسِ النّعمان بن المنذر ، فبلغ ذلك النّابغة ، فخَافَه ، وهربَ إلى ملوكِ غسّان (١) .

* وقبل أنْ ندحضَ هذه العلاقةَ ، وهذه القصّةَ المزعومةَ المُفتراةَ ، لا بدّ لنا أنْ نعرفَ شيئاً عن أخلاقِ النَّابغة وصفاتِه ، وكذلك نتعرّفُ أخلاقَ وصفات المتجرّدة المرأة الجميلة المجني عليها.

* فتذكرُ الأخبارُ المروية على اختلافِ مصادِرها ومواردِها ـ ومن شِعْرِ الشَّاعر نفسه ، والأحداث التي أحاطتْ به ، والحياة التي كان يحياها ـ أنَّ

⁽۱) انظر: خزانة الأدب (۱۱۹/۲ و۱۲۰) بتصرف يسير. وانظر: معاهد التنصيص (۱/ ۳۳۵_۳۳۷).

النَّابِغةَ كَانَ حَسَنَ الهيئةِ ، مهيبَ الطَّلعةِ ، وكانَ عاقِلاً رصيناً ، نديماً منَ الطّرازِ الأوّل ، كريمَ النَّفس ، عفيفَ الذّيل ، شريفَ السّيرة، مجرّبَ العود، أنوفاً ، لا يسفُّ إلى مدحِ غيرِ الملوك والعظماء ، ويقول عن نفسه: وكنْتُ امرأً لا أمْدَحُ الدَّهْرَ سُوقةً فلستُ على خيرٍ أتاكَ بحاسِدِ(١)

* وكان النّابغة كغيرهِ من شُعراء الجاهليّة شاعِراً غَزِلاً ، ولكنّه كانَ عفيهاً ، حكيماً عارفاً بأخلاقِ النّاس؛ والأخلاقُ في النّاس لا بدّ من أنْ تسوء ، والصّداقاتُ معرضةٌ دائماً لما يعكّرُها ، ولا يأمنُ الإنسانُ منَ الحَسَدِ والدّس عليه ، لذلك يتوقّع كثيراً من الإساءاتِ منَ النّاس.

* ولعل تمكُّنَ النَّابغةِ من ناصيةِ الكلمة ، وتغزّلهِ بأعذبِ الكلماتِ ،
 وأجملِ الأنغامِ الرَّقيقةِ التي يلذُ للأذنِ أن تسمعَها ، قد أوغرتُ صدورَ بعضِ القوم عليه ، وأوغروا الصُّدور عليه .

الشّور ، وكان ماهِراً في هذا عارفاً بما يبهرُ العيونَ ويعجبُ النّفوس ،
 ولعلّ غَزَلَه فيه حُسْنُ اختيارِ للصُّورة والمفرداتِ .

* إنَّ الرِّداءَ اللفظيَّ الجميلَ الذي يكسو النَّابغةُ به عواطفَه وأحاسيسَه ، يدلُّ على أنَّ له قلباً يخفقُ بالحبّ ، وضميراً يشعرُ بالهوى ، وكان غزلُه حلوَ الكلام ، مستساغَ السَّماع ، وشعرُهُ يشهدُ له بذلك.

الله المتجرّدة وأنها أحسن المتجرّدة وأنها أحسن المتجرّدة وأنها أحسن ما قال ، ففيها من الدّقة والوصف ما يبهرُ العقول ، وسنعرض لذلك إنْ شاءَ الله .

* أمّا صفاتُ المتجرِّدَةِ ، فنستطيعُ أنْ نستخلصَ معظمَها من القصيدةِ

⁽١) انظر: ديوان النابغة (ص ٤٥) طبعة دار بيروت ـ ١٩٨٢ م.

الدّاليةِ الطَّويلةِ المنسوبةِ إلى النَّابغةِ _ أو المنسوب معظمها إلى النَّابغة _ والتي وصفَ فيها حجابَها وخمارها ونصيفَها (١) ونعومة يدِها وخضابَها فقال:

سَقَطَ النَّصيفُ ولم تُرِدْ إسْقاطَه فَتَنَاولَتْهُ واتَّقَتْنا باليَد بمخضّبٍ رَخْصٍ كأنَّ بنانَه عنمٌ يكادُ من اللطَافَةِ يُعْقَد

(١) لعلَّه منَ المفيد هنا أنْ نشيرَ إلىٰ غطاءِ وخُمُرِ النِّساء في العَصْرِ الجاهليّ ، فلقد كانت أغطيةُ رؤوسهنّ متنوعةً ولها أسماءُ وأشكالٌ شتّى ومنها:

١ ـ الخِمار: وهو ما تغطّي به المرأةُ رأسَها ، وهو شقّةٌ على الرّأس تُلَفّ على جزء من الوجْهِ ، ومن أسمائه: النّصيف ، والقناع ، والبُرقع ، والسّب. وجاء ذكر الخمار في قول صخر في أخته الخنساء:

ولـو هلكَـتُ خـرقَـتْ خِمـارَهَـا واتّخـذَتْ مـن شَعَـر صِـدارهـا ٢ ـ وإذا كانَ الغطاءُ وحْدَه فهو المقْنَعُ ، والمقنعةُ ، وهي أصغرُ من القناع ، ذكره عروةُ بنُ الورد فقال :

فراشي فراشُ الضّيف والبيتُ بيته ولـم يلهنـي عنـه غـزالٌ مقنّـعُ ٣ ـ والنّقاب القناعُ على مارِنِ الأنف ، وهو على وجوه: الوصوصةُ ، النّقابُ ، اللثامُ؛ قال أبو عبيد: النّقاب عندَ العربِ هو الذي يبدو منه مِحْجرُ العين. وكان النّقاب قديماً لاحقاً بالعين ، وكانت تبدو إحدى العينين والأخرى مستورة ، وكان اسمُه عندهم الوصوصة والبُرقع؛ ومن ذكر القناع قول عنترة:

إِنْ تُغْدِفي دوني القناع في النبي طبّ بأخذِ الفّارسِ المستلِئم ٤ ـ والوصواصُ: النّقاب على مارنِ الأنف ، لا تظهرُ منه إلا العينان ، وهو البرقعُ الصّغير ، ويسمّى البخنقُ. ومنْ ذكرَ الوصواص المثقب العبدي قال:

ظهرنَ بكلّبةِ وسدلُدنَ رقماً وثقّبُدنَ السوصاوصَ للعيسونِ ٥ ـ البرقعُ والبرقعُ : وهو للدّواب ، ولنساءِ الأعراب ، فيه خَرْقَان للعين ، والبُرقع الموصوص هو الصّغير العينين ، وقد ذكرَ البرقع توبةُ بن الحمير فقال:

وكنتُ إذا ما جئْتُ ليليٰ تبرقَعَتْ فقد رابني منها الغداةَ سفورها ٢ ـ القناع: ما تغطّى المرأةُ رأسَها ومحاسنَها من ثياب ، وهو لباسُ الحرائر.

٧ ـ البُخنق: برقعٌ يغشي العنق والصّدر؛ وهو الخرقة تلبسُها المرأةُ فتغطي رأسَها ما قَبُلَ منه وما دَبُرَ غير وسط الرأس. وذكر عنترة البخنق فقال:

فخـرُ الـرّجـال ســـلاســلٌ وقيــودُ وكـــذا النّســـاء بخـــانـــقٌ وعقـــودُ

ومن قولِ النَّابِغةِ هنا يتبيّن لنا أنَّ المتجرِّدَةَ هذه ، كانت تغطّي محاسِنَها بقناعٍ أو غِطَاء (١) ، ولم تكن متبذّلةً كما وصفَتْها بعضُ الرّوايات

(۱) منَ المُتعارف عليه أنَّ الحجابَ كانَ معْروفاً في الجاهليّة؛ ولم تكنِ النّساء كلّهنّ سافرات ، وإنّما سفرَ بعضهنّ ، وتحجَّبَ بعضهنّ فغطيْنَ وجوههنَّ. وقد زعمَ «فير» في دائرةِ المعارفِ الإسلاميّة (٢٦٦٦) أنَّ الحجابَ لم يكنْ معروفاً في الجاهلية؛ وزَعْمُه ودعواه باطلان وغيرُ صحيحَيْن ، تدحضهما الأخبارُ الصّحيحة ، وتبطلهما الأشعارُ المأثورة عن شعراء الجاهليّة.

- ومنَ الأخبارِ الصَّحيحةِ في ممارسةِ النّساء للحجابِ ما جاء في «الأغاني»: «أنَّ السَّببَ في اليومِ الثّاني من أيّامِ الفجار الأوّل أنَّ شَباباً من قريش وبني كِنانة رأوا امرأةً جميلة وسيمة من بني عامِر بسوقِ عُكاظ ، وسألوها أنْ تسفرَ فأبَتْ ، فامتهنها أحدهم، فاستغاثت بقومها فقامتْ حرب». (الأغاني ٢٩/٧٤) طبعة ساسي ـ مصر. وكانت هندُ بنتُ صَعْصَعة جدّةُ الفرزدق تفاخرُ بقولها: «مَنْ جاءَتْ منْ نساءِ العرب بأربعةِ كأربعة يحلُّ لي أنْ أضع خماري معهم فلَها صِرمَتي: أبي صعصعة ، وأخي غالبٌ ، وخالي الأقرعُ ، وزوجي الزّبرقان بنُ بدر ، وهي ذاتُ الخِمار ، لأنّها دخلتْ على هؤلاءِ الأربعة فألقتْ خمارها ، فقالوا لها: ما هذا ، ولم تكوني متبرّجة؟! فقالت: داخلتني خُيلاء حين رأيتكم ، فأيّ امرأةٍ من العربِ وضَعَتْ خمارها عند مثلكم فلَها صِرْمَتي». (النقائض ص ٢٦٤).

ـ وفي أمثالِهم ما يؤيّد معرَفتهم الحجاب كقولهم: «إنَّ العَوانَ لا تُعلَّم الخِمرةَ»: أي إنَّ المرأةَ الثيّب أو بنتَ الثلاثين لا تحتاجُ إلى تعلَّم الاختمار. يُضربُ مثلاً للرجّل المجرّب (مجمع الأمثال ١٧/١).

ـ والشّعرُ الجاهلي حافلٌ بذكرِ الحجابِ ، كما حفل بذكر السُّفور ، فمثلاً يقول النّمر بنُ تولّب في امرأته التي هجرتْهُ:

وصدّتْ كأنَّ الشمْسَ تحتَ قناعِها بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ ـ ويعجب الشّنفرىٰ بأمِّ عمرو وهي متنقّبة لا تكشفُ وجهَها فيقول من قصيدةٍ مطلعُها:

> ألا أمّ عمرو أجمعَتْ فاستقلّتِ ـ ومنها قوله:

> لقد أعجبتني لا سُقـوطـاً قنـاعهـا كـأنّ لهـا فـي الأرضِ نسيـاً تقصّـه

وما ودّعت جيسرانَها إذ تـولـتِ

إذا مـــا مشـــتْ ولا بــــذات تلفُّــتِ علــــى أمّهـــا وإن تكلمّـــك تَبْلَـــتِ والقِصَص المُغْرِضة التي تشوّه كثيراً من حقائقِ النِّساء العربيّات في كُلِّ زمَانٍ ومكَانِ.

المتجَرِّدَةُ وقِصَصَ مَكْذُوبَةٌ:

* من العجيبِ حقّاً أنْ نجدَ كثيراً منَ القِصَص (١) قد حِيْكَتْ حولَ المتجرِّدةِ امرأةِ النّعمان ، وحولَ عشقِها وشغفِها بندماءِ زوجِها ، وهذا لم يكنْ من خلائقِ العربِ ولا نساءِ العرب ، بل كانتِ الغيرةُ إحدىٰ خلائق العرب البارزة.

* بينما نجدُ بعضَ المصادرِ تذكرُ قصّةَ تشبيبِ النَّابِغة بالمتجرّدة ، أو عشقها للمنخَّل اليَشْكُريِّ . . . ثم تبعثْهَا في ذلكَ المراجعُ الحديثةُ ودخلت جُحْرَها دون تَحَرِّ أو بحثٍ عن الحقيقةِ ، أو حتى إشارة إلىٰ الخَللِ .

* فقد ذكرَ أبو عثمان الجاحظ في الكتابِ المنسوب إليهِ «المحاسن والأضداد»: «أنَّ النَّابغة كان يشبِّبُ بالمتجرِّدة امرأةِ النّعمان بنِ المنذر ، وكانت من أكملِ أهل عَصْرِها جمّالاً ، فبلغ ذلك النّعمان ، فهمَّ بقَتْلِ النَّابغة ، فهربَ منه ، وسارَ حتى أتى الشَّام ، والملكُ بها جَبَلَةُ بنُ الأيهم الغسّاني ، فنزلَ عليهِ ، وأقامَ عنده ، وكتبَ إلى النُّعمان:

 ⁽۱) من هنا نجدُ من الأخبارِ أنّه قد مرَّ ذِكْرُ المتجرّدة امرأة النّعمان في كتُبِ الأدب؛
 وتروي بعضها أنَّ جلْمَ بنَ عمرو كان قد تعرَّضَ للمتجرّدة ، فبلغ أمْره النّعمان ،
 فحَمَلَهُ على أنْ يركبَ فرسَه اليحموم فأرْدَاه .

⁻ وتزعمُ كتبُ ومصادرُ أدبيّةُ أخرى أنَّ النَّابغةَ الذّبياني قد وصفَها في القصيدةِ الدّالية المنسوبةِ إليه ، وسمعَ النّعمان بالقصيدة - كما يذكرُ أهلُ الأخبار - ، بدسِّ حسّاد النّابغة القصيدة والأشعارَ الأخرى إلى النّعمان ، فانزعجَ منها ، ولما بلغ النّابغة الخبرَ ، فَرَّ إلى الغَساسنةِ لينجرَ بنفسه من عقابه ، وكان النّعمان متيماً بالمتجرّدة ، وللشّعراء فيها قصائدُ مشهورات . (المفصّل في تاريخ العرب ٣/ ٢٨٨).

حَلَفْتُ فَلَمْ أَثْرِكُ لِنَفْسِكَ رِيْبَةً وليس وراءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَـذْهَـبُ لئنْ كُنْتَ قَدْ بُلّغْتَ عَنِي خِيَانةً لمبْلِغُكَ الوَاشي أَغْشُ وأكْذَبُ»(١)

* ويذكرُ الأنطاكيّ خلافَ هذه القصّة في كتابه الشَّهير «تزيين الأسواق» فيقول: «المتجرّدة (٢) وهي امرأةُ المنذر بن ماء السَّماء (٣) ، وكانت من أعظم نساء العَرب جمالاً؛ فلمّا ماتَ عنها أخذَها ولدهُ النّعمان ، فكانَ يُجلسُها مع نديمَيْه: النَّابغة والمُنَخَّل ، فَشُغِفَتْ بالمنخّل وامتزجا ، فأمَرَ النَّعمان يوماً النَّابغة أنْ يصفَها ، فقالَ:

وإذا طعنْتَ طَعنْتَ في مُسْتَهدِفٍ رابي المَجسَّةِ بالعَبيرِ مُقَرمَدِ وإذا نزعْتَ نزعْتَ عن مُسْتَحصِفٍ نَزْعَ الحَزوَّرِ بالرَّشاءِ المُحْصدِ⁽³⁾

فقال المنخَّل: هذا وصفُ معاينٍ. وحرصَ النُّعمان على قَتْلِهِ ، فهربَ وكان عفيفاً.

* فلمّا خرجَ النُّعمان إلى الصَّيدِ رجعَ بغتة ، فوجدَ المتجرّدةَ مع المنخّل قد ألبستْه أحدَ خلخالَيْها ، وشدَّتْ رجْلَه إلى رجلها فقتلَه. وله فيها: إنْ كنْتِ عاذِلَتِي فَسيْرِي نحو العِراقِ ولا تَحُوري

 ⁽۱) المحاسن والأضداد (ص ۲۸۰) تحقیق محمد سوید ـ دار إحیاء العلوم ـ بیروت ط ۱ ـ ۱۹۹۱ م. والواضع من القصة تناقه الرغم من قصرها.

⁽٢) علّق محقّقُ كتابِ تزيينَ الأسواق على المتجرّدة بقوله: '«سعَىٰ المنخّل بينَ المنذرِ والنّابغة ، فشبّبَ بالمتجرّدة لينفردَ بمنادمةِ المنذر؛ ويروى: بل كان يحبُها ، وولد المنذر منها. لقبها النّعمان بالمتجرّدة لأنّه فاجأها عُريانة بلا نَصيف فوارتْ وجهها بمعصمها». (تزيين الأسواق ٢/ ١٤). ومنَ الواضح تخبّط المحقّق هنا حيثُ خلط بين المنذر والنّعمان وأشياء أخرى يدركها القارىء.

 ⁽٣) لاحظ الخلل هنا بأنَّ المتجرّدة امرأة المنذر وليست امرأة النّعمان.

⁽٤) تنزيين الأسواق (٢/١٤)؛ و«المستهدف»: المنتصب كالهدف. و«العبير»: الزعفران. و«رابي المجسّة»: ضخم. و«مستحصف»: ضيق. و«الحزوّر»: الغلام البافع. و«الرشاء المحصد»: الحبل الشديد.

ة الخِــدر فـي اليــوم المَطيــرِ وَلَقِدْ دُخَلْتُ على الفَتَ فلُ في الدِّمَقْسِ وفي الحريرِ الكَـــاعـــب الحسْنَـــاءِ تـــر مشي القطاة إلى الغدير فدفغتها فتكذافعت كتنفُّــــسِ الظَّبــــي البَهيْــــرِ خَـلُ هَـل بجشمِـكَ مَـنْ حَـرورِ ف كنَت وقالت يا مُنكُد ببكِ فــاهْــدَئــي عنّــي وسيْــري مَا شَفَّ جسْمى غيرُ حُبْ وأُحِبُّهـــا وتحبُّنــــي ويحيثُ ناقتُها بعيْرى ولقد شربت من المُدا مــــةِ بــــالصَّغيـــر وبــــالكَبيـــر ف إذا سكرتُ ف إنّني ربُّ الخــورنَــقِ والسّــديــرِ ربّ الشُّـــويهـــةِ وَالْبَعيــــر وإذا صحــوتُ فــاِنّنــــي يا هنـدُ للعَاني الأسيـر»^(١) يا هند هُل من نائِل

* وقد ذكرَ الدكتور «جواد علي» القصّة نفْسَها في موسوعتِهِ «المفصّل في تاريخ العربِ قبل الإسلام»، وفي آخرِها قال: «وجاء النُّعمان فقتلَهما، فضربَ العربُ بهِ المثل، فقال أوسُ بن حجر:

فجئتُ رُبيعيَ مولياً لا أزيدُه عليهِ بها حتّى يووبَ المُنخَّلُ

وقد أشارَ ذو الرُّمَّةِ إلى المنخَّلِ بقولِه:

تُقارِبُ حتى يطمعَ النَّأي في الهوى في الهوى في الهوى في المنجَّلِ (٢) المنجَّلِ (٢)

⁽۱) انظر: تزيين الأسواق (۱٤/۲ و ۱٥) تحقيق د. محمد التونجي ـ عالم الكتب ط ١ ـ ١٩٩٣ م. ومنَ الملاحَظِ أنَّ هذا الوصْفَ ليسَ لامرأة مرفّهة تسكنُ تُصور الملوكِ وتنضح أردانُها بالمسكِ والعِطْر؛ وإنَّما وصْفٌ لامرأة بدويّة تسكنُ الخيمة والخِدْرَ ، بالإضافة ذكْرِه أشياءَ أخرى تدلُّ على ذلك منْ مثل: النَّاقَة ، البعير ، القَطاة ، الغدير ، الظّبي ، وما شابة ذلك ، كما نلاحظُ على الأبياتِ مِسْحَةَ المرحِ والخفّةِ والدّعابةِ أكثر ممن شفَّه الحبُّ وأَسْقَمه الهُيامُ.

⁽٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٤٨٥).

* وقبل «الأنطاكي» يذكر «ابنُ قتيبة» في كتابه «الشّعر والشّعراء» أنَّ المنخَّل كان يشبّبُ بهندِ أختِ عمرو بنِ هند ، ولها يقول:

يا هِنْدُ هل مِن نائلِ يا هندُ للعَاني الأسيْرِ

* وكان المنخَّلُ يُتَّهمُ بالمتجرِّدة امرأة النّعمان بن المنذر ، وكان للنّعمان منها ولَدان ، كان النّاس يقولون إنّهما منَ المنخّل ، وهو القائلُ في النّابغة حين وصف المتجرّدة في قوله: «ما يعرف هذا إلا مَنْ جرب» ، وكان أيضاً يُتّهم بامرأةٍ لعمرو بن هند ، وكان جميلاً ، وهو القائلُ:

ولقد دَخلْتُ على الفَتَا قِ الخدْرَ في اليومِ المَطير

وَعَطَفَتُهِ الْغَلِيْ الْغَلِيْ كَتَعَطُّ فِ الظَّبِي الْغَريرِ وَعَطَفَتُهِ وَالْطَّبِي الْغَريرِ فَتُور فَتَرِتْ وقَالَتْ يَا مُنخْ خَلُ مَا بِجِسْمِكَ مَن فُتُور وآخرها:

يا هِنْدُ هَلْ من نائلِ يا هِنْدُ للعَاني الأسير وأحبُّه للعَاني الأسير وأحبُّه ناقتَها بَعيْري وقتلَه عمرو بنُ هند»(١).

* ونجدُ كذلك القصّة في كتاب «الأغاني» (٢) لأبي الفرج الأصفهانيّ مع أبيات المنخّل ، ولكنَّ الأصفهاني يُوردُها بروايةٍ أخرى تزيدُ الطِّين بلّة والمريضَ علّة والعطشَان غلّة ، حيث يذكرُ أكثرَ من روايةٍ عن علاقةٍ

 ⁽۱) انظر: الشعر والشعراء (١/ ٤٠٤ و ٤٠٥) باختصار في الأبيات فقط ، وعددها (١٢ بيتاً) ، وانظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩/ ٤٨٥) و (٩/ ٥٩٣ ـ ٥٩٣).

⁽٢) الأغانى (٢١/ ٨ ـ ٩) طبعة بيروت.

المتجرّدة بالمنخّل وعن شعرهِ فيها ـ كما زعم ، فيقول ما نصّه: "وأخبرني بخبرِ المنخّل مع المتجرّدة أيضاً عليُّ بنُ سليمان الأخفش (١١) قال: أخبرني أبو سعيد السُّكريّ ، عن محمد بنِ حبيب ، عن ابنِ الأعرابي قال:

* كانتِ المتجرِّدةُ امرأةُ النُّعمان فاجرةً ، وكانت تتّهم بالمنخَّل ، وقد ولدتْ للنعمان غلامَيْن جميلَيْن يشبهان المنخّل ، فكان يقال: إنَّهما منه ، وكان جميلًا وكان جميلًا وكان جميلًا وسيماً ، وكان النَّعمانُ أحمرَ أبرشَ قصيراً دميماً.

* وكان للنُّعمان يومٌ يركبُ فيه فيطيلُ المُكْثُ ، وكان المنخَّلُ من ندمائِهِ لا يفارِقُه ، وكان يركبُ فيه النُّعمان لا يفارِقُه ، وكان يأتي المتجرِّدةَ في ذلك اليوم الذي يركبُ فيه النُّعمان فيطيلُ عندها ، حتى إذا جاءَ النُّعمان آذنتها بمجيئهِ وليدةٌ ـ جاريةٌ ـ لها موكّلةٌ بذلك فتخرجه.

⁽۱) «الأخْفَشُ»: أبو الحسن عليُّ بنُ سُليمان بن الفضل ، كان عَالِماً ، روىٰ عن المبرّد وثعلب وغيرهما ، وروى عنه المرزبانيّ وأبو الفرج المُعافىٰ الجريريّ وغيرهما ، وهو غير الأخفش الأكبر ، والأخفش الأوسط.

وكان بينَ الأخفش وبين ابن الرّومي الشّاعر منافسةٌ ، فكانَ الأخفشُ يباكرُ داره ، ويقولُ عند بابِهِ كلاماً يتطيّر ويتأذّى به ، وكان ابنُ الرّومي كثيرَ التّطيّر ، فإذا سمع كلامه لم يخرجُ ذلك اليوم من بيتهِ ، فكثرَ ذلك منه ، فهجاهُ ابنُ الرّومي بأهاج كثيرة ، وهي مثبتةٌ في ديوانه ، وكان الأخفشُ يحفظُها ويوردُها في جملةِ ما يوردها استحساناً لها ، وافتخاراً بأنّه نوّه بذكْرِه إذْ هجاه ، فلما علمَ ابنُ الرّومي بذلك أقْصَرَ عنه .

ـ قال المرزباني: «لم يكنِ الأخفشُ بالمُتسِع في الرّواية للأشْعارِ والعلْمِ بالنّحو؛ وما علمتُه صنّفَ شيئاً البتة ولا قالَ شعراً ، وكَان إذا سُئِلَ عن مسألةٍ في النّحو ضَجِرَ وانتهرَ منْ يسأله».

ـ ومعنى الأخفش الصَّغير العين مع سوءِ بَصرِها. توفيَ الأخفشُ في ذي القعدة سنة (٣١٥ هـ) فجأة ببغداد ، ودُفن بمقبرة قنطرة بَرَدان ، وبَرَدان: قرية من قرى بغداد خرجَ منها جماعة من العُلماء وغيرهم. (وفيات الأعيان ٣/ ٣٠١ ـ ٣٠٢).

* فركبَ النُّعمانُ ذاتَ يومِ وأتاها المنخَّل كما كان يأتيها فلاعبَتْه ، وأخذَتْ قيداً ، فجعلت إحدى حلقتيَّه في رجلهِ والأخرى في رجُلها ، وغفلتِ الوليدةُ عن ترقُّبِ النُّعمان ، لأنَّ الوقتَ الذي يجيءُ فيه لم يكن قرُبَ بعد.

* وأقبلَ النُّعمانُ حينئذ ، ولم يطلْ مكثُهُ كما كان يفعل ، فدخلَ إلىٰ المتجرِّدة ، فوجدَها مع المنخّل قد قيّدتْ رجلَها ورجلَه بالقيدِ ، فأخذَه النُّعمان فدفعَه إلى عِكَبّ صاحب سجنه ليعذّبَه ـ وعِكَبّ رجلٌ من لخم ـ فعذّبَه حتى قَتَلَه . وقال المنخّل هذه الأبيات قبل أنْ يموتَ ، وبعثَ بها إلى النه:

أَلاَ مَنْ مُبْلِعُ الحُرِّينِ عنِّي بِأَنَّ القومَ قد قَتَلُوا أُبيِّا وإنْ لم تشاروا لي منْ عِكَبِّ فيلا أَرويتمُا أبيداً صَديّا يطوفُ بي عِكَبُّ في مَعدٌ ويطعنُ بالصَّملَة في قَفَيّا(١)

* قال ابنُ حبيب: وزعم ابنُ الجصَّاص أنَّ عمروَ بنَ هند هو قاتلُ المنخَّل ، والقول الأوَّل أصحّ.

* وهذه القصيدة التي منها الغناء يقولُها في المتجرِّدة ، وأوَّلها قوله:

ري نحو العسراق ولا تَحُوري العسراق ولا تَحُوري العي واذكُري كَرَمي وخِيْري تَ بجَواني الكُسيْر المُستِ الكَسيْر بمرّ قدِحي أو شَجيري»(٢)

إنْ كنتِ عَاذلَتي فَسيْري لا تَسْألي عن جلّ ما وإذا الرّياحُ تناوحَتْ الفيتنيي هيشً النّديّ

⁽١) «الصّملّة»: الحربة.

⁽٢) انظر: الأغاني (٩/٢١) ، وهذه القصَّةُ أوردَهَا الأصفهانيّ عن المتجرّدة وأظهرَ فجورَهَا ، وأكّد بأنَّ النّعمان قد قتلَ المنخّل. ومنَ الواضح تماماً أنَّ القصَّة غيرُ منسجمة ، وأنّها ضربٌ منَ الخيال ، وفيها منَ التَّناقُضات مَا يكشفُ زيفَها =

* ومنَ العجيبِ أنّنا نجدُ الأصفهانيّ يذكرُ في أخبارِ المنخّلِ أنّ النّعمانَ قد اتّهمه بامرأتِهِ المتجرِّدة فقتله ، ويوردُ عدّة أقوالٍ متناقضة فقال: «وكان النّعمان قد اتّهمه بامرأتِهِ المتجرِّدة ، وقيل: بل وجدَهُ معَها؛ وقيل: بل سُعِيَ به إليه في أمرِها فقتلَه ، وقيل: بل حَبسَه؛ ثم غَمض خبره ، فلم تُعْلَمْ له حقيقة إلىٰ اليوم؛ فيقال: إنّه دفنَه حيّاً ، ويُقال: إنّه غرّقَه ، والعربُ تضربُ به المثل كما تضربُه بالقارظِ العنزي وأشباهه ممن هلكَ ولم يُعْلَمُ له خَبر» (۱).

* ويذكرُ الأصفهانيّ قصّةً أخرى عن المتجرّدة هي أشبهُ بقصصِ بعضِ الأفلام المعاصرةِ ، ويذكر بأنَّ المنذرَ بنَ المنذر والد النّعمان قد عشقَها وكانت زوجاً لابنِ عمّ لها ، فراودَهُ على طلاقِها مقابل أنْ ينزلَ له هو الآخرُ

وزيفَ صانعها ومُروّجها ، ومن ذلك قولُ الأصفهاني عن المنخّل: «وكان المنخّلُ من ندمائِهِ لا يفارقُه» ، فكيفَ فارقَ المنخّل النّعمانَ في ذلك اليوم الذي يحتاجُ فيه النّعمان مَنْ ينادمُه؟! وهناك أشياءُ أخرى يدركُها القارىء الفَطِنُ ، وأشياءُ أخرى سنعرضُ لها بعد قليل بإذنِ الله.

⁻ ثم إنَّ الأصفهاني يوردُ قصيدةَ المنخّل وعددُ أبياتُها (٣٢ بيتاً) ويقول: "وهذه القصيدةُ التي منها الغناء يقولها في المتجرّدة وأوّلها قوله". فإذا كان أوّلُ القصيدة يزيدُ عن ثلاثين بيتاً ، فكم عددُ أبياتِ القصيدة؟

ـ وفي القصيدة هذه وصْفٌ للفُرسان والقِتال ، وهذا بعيدٌ عن جوّ القصيدةِ العام كقولهِ:

وعلى الجياد المُضمرا ت فروارسٌ مثرلُ الصّقر وعلى الخير من خللِ الغبا و يجفن بالنّعرم الكثير و يجفن بالنّعرم الكثير و وعد عدّة أبيات يدخلُ في وصْف فتاته:

ولقد دخلستُ على الفتا قالخدرَ في اليوم المطير ولقد دخلستُ على القصّة ، وكأنّها حقيقةٌ عند الأصفهاني. انظر: الأغاني (٢١/١١ ـ ١٢).

انظر: الأغاني (۲۱/٥).

عن زوجتِهِ سلمى أمّ ابنه النّعمان ، ففَعل ابنُ عمّها ذلك . . واقرأ معي الآن ما جاء به الأصفهاني عن المتجرّدة حيثُ قال: «إنَّ المتجرّدة ـ واسمها ملويّة؛ وقيل: هند بنت المنذر بن الأسود الكلبيّة ـ كانت عند ابن عمّ لها يُقال له: جُلْم ، وهو الأسودُ بنُ المنذر بن حارثة الكلبيّ ، وكانت أجمل أهلِ زمانِها ، فرآها المنذرُ بنُ المنذرِ الملك اللخميّ فعشقها ، فجلسَ ذات يوم على شَرابهِ ، ومعه جلمٌ وامرأتُه المتجرّدة؛ فقال المنذرُ لجلم: إنّه لقبيحٌ بالرجلِ أنْ يقيمَ على المرأةِ زَماناً طويلاً حتى لا يبقى في رأسهِ ولا لحيته شعرةٌ بيضاءٌ إلا عرفتُها ، فهل لك أن تطلّق امرأتك المتجرّدة ، وأطلّق امرأتى سلمى؟!

قال: نعم.

* فأخذَ كلُّ واحدٍ منهما على صاحبه عَهْداً. قال: فطلَّق المنذرُ امرأتَه سلمى ، وطلَّق جلمُ امرأتَه المتجرّدة ، فتزوَّجها المنذرُ ، ولم يُطْلِقُ لسلمىٰ أَنْ تتزوَّجَ جلماً وحجبَها _ وهي أمّ ابنه النُّعمان بن المنذر _ فقال النَّابغة الذُّبياني يذكر ذلك:

قد خادَعُوا جُلُماً عن حُرّةٍ خَودٍ حتّى تبطَّنَها الخدَّاع ذو الحُلُمِ * ثمَّ ماتَ المنذرُ بنُ المنذر ، فتزوَّجَها بعده النّعمانُ بنُ المنذر ابنه . . . » (١) .

* ومن الأشياءِ التي يُؤسَفُ لها أنْ نجدَ أنَّ السَّيدةَ «زينب فواز العامليّة» تذكرُ هذه القصّة والأبيات في كتابها «الدّرّ المنثور» وكأنَّ ما قرأتْ منَ الأشياء المُسلَّم بها ، فهي تؤكّدُ أنَّ المتجرِّدة زوجة المنذر ثمّ أخذها ولدُه النّعمانُ ثم خادنتِ المنخّل ، فتقولُ: «المتجرِّدةُ هندُ زوجةُ المنذر بن ماء

⁽۱) انظر: الأغاني (۲۱/۲ ـ ۷) ، ولاحظ زواج النعمان من امرأة أبيه المنذر!!

السّماء ، كانت من أعظم نساء العرب جمالاً ، فلما ماتَ عنها أخذَها ولدُهُ النَّعمان ، فكان يُجلسُها مع نديمَيْه النَّابِغة والمنخّل ، فشُغِفَت بالمنخّل ، وامتزجَا حُبّاً...»(١).

* ولكي تتوضَّحَ الصُّورةُ أكثر في ذهنِ القارىء ، يجبُ علينا أنْ نتعرّف بطاقة المنخّل اليشكري؛ فهو المنخّل بنُ مسعود ـ أو عُبيد ، أو عمرو ، أو الحارث ـ من بني يَشْكُر ، يروىٰ أنَّه كان ينادمُ النّعمانَ بنَ المنذر مع النَّابغة النّبياني ، وينشدُ القصائد ، وكان النُّعمان يكرمُه ويقرّبه إليه ، غير أنَّه كان يؤثرُ شعْرَ النَّابغةِ على شعرهِ ، فسعى المنخّلُ بالنَّابغةِ لدى النّعمان ، وأوغرَ صَدْره عليه، حتى همَّ بقتلهِ لولا أنَّه هربَ ، وخلا للمنخّل مجلسُ النعمان، وفيم يزلْ مقرّباً إليه حتى ارتابَ بهِ ، وقيل: إنَّ النُّعمانَ اتَّهمَه بامرأتِهِ المتجرِّدةِ فسجَنه وأمْعَنَ في تعذيبهِ ، وخفيَ مصيرُه؛ فقيل: إنَّ النُّعمانَ اتَّهمَه بامرأتِهِ المتجرِّدةِ فسجَنه وأمْعَنَ في تعذيبهِ ، وخفيَ مصيرُه؛ فقيل: إنَّه دُفِنَ حيّا ، وقيل: وقيل: يؤوبَ به المثلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه: «فلانٌ لنْ يؤوبَ حتى يؤوبَ المنظّلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه: «فلانٌ لنْ يؤوبَ حتى يؤوبَ المنظّلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه: «فلانٌ لنْ يؤوبَ حتى يؤوبَ المنظّلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه: «فلانٌ لنْ يؤوبَ حتى يؤوبَ المنظّلُ ، فيُقال في الغائبِ الذي لا يُرجى إيابه عمرو أيضًا . وقد شبّبَ بها في شِعْرِه كثيراً ، كما كان متهماً بزوجةِ عمرو أيضاً.

* ويظهرُ أنَّ جمالَ المنخَّل وشاعريّتَه ، ورقَّةَ مشاعِرِه ، وظَرْفَه إلى جانبِ حبّهِ للشّراب وحسن منادمته قد هيّأتْ له تلكَ المكانةَ لدى ملوكِ الحيرة وأهل بيتهم ، ويبدو إلى جانب ذلك كُلّه أنَّه كان يعشقُ الغنَاء ، ويؤكّدُ ذلك قصيدته الرّائية من مجزوءِ الكامِل ، تلك القصيدة التي جعلَها طيّعة لأصواتِ المغنّين (٢)؛ والتي لم يصل إلينا من شِعْره سواها (٣).

⁽١) انظر: الدُّرّ المنثور (ص ٤٨٨).

⁽٢) انظر: ديوان بني بكر في الجاهلية (ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣) بتصرف. وانظر: الأغاني (٦٤٠ ـ ١٨/١١).

⁽٣) يذكرُ المؤرّخون أنَّ المنخّل اليشكريّ قد حبّسه الملكُ عمرو بنُ هند ثمّ قتَلَه ، ولم =

* وهكذا نجدُ الخلْطَ في الرِّواياتِ ، وتداخلِ الأحداثِ مع بعضِها ، وزَجّ المتجرّدة مرَّةً هنا ، ومرَّةً هناك ، ومرَّة زوجة للأبِ وأخرى للابن ، ومرّة عاشقةً والِهةً ، ومرّة خائنةً فاجرة ، بالإضافة إلى كلام لا يقبلُه أولو الألباب ، وذلك من أجلِ أنْ يختلقُوا قصّةً حولَ عفّة المتجرّدة ومَنْ ماثلَها من نساءِ الطَّبقة الأولىٰ في ذلك االعَصْر.

* وكما رأينا في القِصَصِ والأخبارِ السَّابِقة أنَّ روايةَ الأخبارِ مضطربةٌ فيها اضطراباً ظاهراً ، وفيها خَلْطٌ بين الأخبارِ دون تحقُّقِ أو تثبُّت ، فنرى أنَّه في الوقتِ الذي يقصُّ علينا الرُّواةُ قصّة المتجرّدة وعشْقِها للمنخّل يضيفون عشقَ المتجرّدة للمنخّل وشغَفَها به ، ثم يقولون: إنَّ النُّعمان قتلَه ، أو قتلَهما ، بل عمرو بن هند هو قاتله ؛ وسنوضحُ في الفقرةِ القادمةِ حقيقةَ ذلك بإذنِ الله .

* ومنَ المُضْحكِ أنَّ هذه القِصَص لا تحملُ معنى الفنّ القَصَصي؛ بل هي _ على أغلبِ الظّنّ _ ما وجَدَهُ الرّواة وأهلُ الأخبارِ والأسمارِ من قصائدَ أو قصيدةِ استهوتُهم ، فأخذوا يتخيّلون ويمدّون ويمطّون فيها ، ويزيدون في الأبياتِ والأحداثِ لتكتملَ القصّة على النّحو الذي أرادوه.

* إنّنا نستطيعُ أنْ نعتبرَ أنَّ قصَّةَ المتجرّدة مع المنخّل نوعٌ من أنواع القَصصِ الموضوعِ المصنوعِ ، إذ لا ترتكزُ على أساسٍ صحيح ، وقرارٍ متين.

يجدوا دليلاً من شعرِه لتلك الحقبةِ الخطيرةِ من حياتهِ إلا بينتَين يذمُّ بِهما قومَه لتشاغلهم عن استخلاصِهِ من حَبْس الملك. (الشّعر والشّعراء ٣١٨/١).
- ولم يكنِ المنخَّلُ في عصرِه مغموراً ولا مقلاً ، ولكن ذهبَ بقصائدِ حَبْسه ، أنَّه كان في الحيرةِ غريباً لا أهْلَ ولا قرابة؛ ولو تُهومِسَ بشعرِه لكانَ ذلك في حذرٍ إذ سيفُ عمرو بن هند مضلتُ لا يجرؤ أحدُّ على إشهارِ ما يسوءه، وقد أضاعَ الخوفُ والإرهابُ قصائدَه حتى عفت مع السّنين ، فلما جُمِعَ الشَّعْر ، ووضعتِ الدّواوين ، لم يُعرَفُ له من أشعار إلا هذا المقدار الضّئيل الذي وصَلَ إلينا؛ والله أعلم بحقيقةِ الصّواب.

* بل إنَّ المرأةَ في عَصْرِ الجاهلية كانت حديثَ الشُّعراء بشكلِ عام ، وربما يتحدَّثُ الشَّاعر عن المرأةِ في معرضِ شعرهِ دون أن يذكرَ اسمَها؛ وقد يذكرُ ذلك؛ ولكنْ هل ذكرتِ المتجرّدة صراحةً في شِغْرِ المُنخّل ، أو شعر النَّابغة الذُّبياني؟!

* هذا ما تكشفُه الفقرةُ التّالية وتفصحُ عنه بإذنِ الله.

هَـلْ ذُكِرَتِ المُتجرِّدَةُ في شِعْرِ النَّابِغَـةِ؟

* إنَّ الذَّخيرةَ المذخورةَ أمامنا من الشّعر الجاهليّ ، لم تكنْ جميعُها سليمةً من الدَّخيلِ الذي حمل على الشّعر في عصْرِ متأخّر ، أو من الفاسدِ الذي لفَّقَتْه الأهواءُ والأقاصيص ، أو منَ الموضوعِ الذي صنَعتْه أخيلةُ الرّواة والوضّاعين لقضاءِ مآربَ لهم.

* وحينما نتحدّثُ عنِ الرّوايةِ والرّواة ، فإنّما نعني الرّواية الصَّحيحة الموثّقة ، والرّواة الثّقات المشهود لهم من قبلِ العُلماء بالثّقة ، وننبّه على الرّواة الوضّاعين ، ومن ثمّ نقوّمُ الخبر أو الشّعر بميزانٍ صحيح ، فنأخذُ الصَّحيح الذي لا غبار عليه والذي وثقه الرّواةُ ، وشهد بصحّته النّاقلون الثقات ، وننبّه على الفاسدِ المصنوعِ أو المنسوب إلى تلك الفَترة ، أو إلى رجلِ مشهور ، وقد رفضه النّقّاد ونبّهوا عليه.

* وممن نبّه على هذا الأمرِ منَ القُدماء «ابن سلام الجمحيّ» الذي عزا أسبابَ الوضْع إلى عاملَيْن: العصبيّة القبلية ، والرّواة الوضّاعين ، وكان ممّا قال: «... وكان قومٌ قد قلّت وقائعُهم وأشعارُهم ، وأرادوا أن يلحقُوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسنِ شعرائِهم ، ثم كانتِ الرُّواة بعد فزادوا في الأشعار »(١).

⁽١) طبقات الشعراء (ص ٤٠).

* ولم يَخْفَ بطبيعةِ الحالِ هذا الشّعرُ المصنوعُ على النّاقدين الأفذاذِ ، العالمين بالشّعر والرّواية ، فكانوا يرفضونَه. وقد نبّه ابنُ سلام على الرُّواةِ الكذّابين، كحمّاد الرّاوية ورفضَ مرويّاته وبيّنَ فسادَ روايته وحذَّر منه، وذكرَ صِنْفاً آخر منَ الرُّواة كانوا يحملُون الشِّعر الزَّائف، وهم رواةُ الأخبار والسير، وأشارَ إلى ابن إسحاق راوي السّيرة النبوية فقالَ في معرضِ حديثه عن أبي سُفيان بن الحارث بن عبد المطلب: "ولسْنَا نعدُّ ما يروي ابنُ إسحاق له ولا لغيرهِ شعراً، ولأنْ لا يكونُ لهم شِعْراً أحسنُ من أن يكونَ ذلكَ لهم "(۱).

* ونقدَ ابنُ النّديم ابن إسحاق أيضاً على عدم عِلْمِهِ بالشّعر فقال: «ويُقال: كان يُعْمَلُ له الأشعار ويؤتى بها ، ويسأل أنْ يُدخِلَها في كتابه السّيرة فيفعل ، فضمَّنَ كتابه من الأشْعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشّعر»(٢).

* ففي الشِّعر الجاهليّ وبعضِ الأخبارِ أشياءُ موضوعةٌ ، ولم يكنِ النّقّاد القدامي غافلين عنه ، فقد نقدوه ومحّصُوه وبيّنوا صحيحَه من فاسِدِه.

* وها نحنُ أولاءِ أمامَ أبياتٍ نُسِبت إلىٰ النَّابغة ، وزعموا أنَّه أنشدَها في المتجرِّدة ، فقد جاءَ في «رسالةِ الغُفْران» لأبي العلاء المعرّي أنَّ ممّا نُسِبَ إلى النَّابغة قوله في المتجرِّدة:

أَلِمّا عَلَىٰ المَمْطُورَةِ المَتَاأَبُده مُضَمَّخة بالمسْكِ مخصوبة الشَّوىٰ كأنَّ ثناياهَا وما ذُقْتُ طعْمَها لِيَقْرُرْ بها النُّعمانُ عيناً فإنَّها

أقامَتْ بها في المربع المُتَجرِّده بدُرِّ وياقُوتٍ لَها مُتَقلِّدَه مجَاجَةُ نَحْلٍ في كميتٍ مُبَرَّدَه له نعْمةٌ في كلِّ يوم مُجدَّدَه (٣)

⁽١) طبقات الشعراء (ص ٢٠٦).

⁽٢) الفهرست (ص ٣٦).

 ⁽٣) «الممطورة»: الأرض التي أصابها المطر ، أي أرض مخصبة. و«المتجردة»: امرأة النعمان. و«الشوى»: أطراف الأعضاء ، يعني الكفين والقدمين.

* وقال المعري: «لعلَّها لرجلٍ من بني ثعلبة بن سعد قصد القدوم بها على النُّعمان»(١)!.

* إذاً فهذهِ الأبياتُ لا تصحّ نسبتها إلى النّابغة ، ترى ماذا عن داليةِ النّابغةِ المشهورةِ؟ هل جميع القصيدة من شعْرِ النّابغة في المتجردة ـ كما زعموا ـ؟ أمْ زِيْدَ فيها لتكتملَ معانيها؟! حَسَناً تعالوا نستجلي الحقيقة فيما يلى:

* يروي الأخباريون وأهلُ الأسْمَار والأشعار أنَّ النَّابِغةَ الذَّبِياني كان منَ الطَّبقةِ الأولىٰ من شعراءِ عصر الجاهليّة ، وكان ذا قَدْرٍ كبيرٍ عند النُّعمان بنِ المنذر خاصّاً به ، وكان من ندمائِهِ وأهل أُنْسِه .

* ويذكرُ هؤلاء أنَّ النَّابِغةَ كان ذات مرّةٍ عند النُّعمان ، فرأى زوجتَه المتجرِّدة يوماً ، وقد غشيَها أمرُ سقط من أَجْلِهِ خمارُهَا ونصيفُها ، فاستترتُ بيدِها وذراعِها ، فكادتْ ذراعُها تسترُ وجهَها لضخامِةِ ذراعِها ، فقال قصيدتُه الدَّاليةُ التي مطلعها:

أَمِنْ آلِ مَيَّةً رَائِحٌ أَوْ مغْتَدِ عَجْدِلانَ ذَا زَادٍ وغَيْدَ مَزْدِدِ

* وفي هذه القصيدة يصفُها النَّابغة وصْفاً فصَّل فيه تفصيلاً عجيباً ، فقد وصف وجهها ونَحْرهَا وبطنَها وأردافَها وعورتَها وأطرافَها وكلّ ما يخطرُ بالبالِ من هذه الأشياءِ ، وكأنّه يصف جارية حبيبة صارمَتْهُ ورحلتْ ولم تودّعه ، فصار وَالها حيران القلبِ والخاطر.

* وعلى الرغم من أنّنا لا نثقُ وثوقاً تامّاً بأنَّ النَّابغة قد أنشدَ هذه القصيدة جميعها ، رغم وجُودِها في ديوانِهِ بجميع طبعاتِه ، لكنّنا نعترفُ بأنَّ النابغة ذو قريحة جميلةٍ مغناج في الغزلِ والنَّسيب ، ولكنَّه عرف بتعفّفه وابتعادهِ

⁽١) رسالة الغفران (ص ٧١ ـ ٧٢) وهذه الأبيات غير موجودة في ديوان النابغة.

عن الموبقاتِ والخزايا ، بيد أنَّ تغزّله كان نزوةً من نزواتِ الشُّعراء الذين يرَوْنَ الوجودَ كلَّه متمثلاً في الجمالِ والحبّ.

* وفي قصيدتِه الدَّالية الشَّهيرة ـ المنسوب معظمها إليه ـ يبدو النَّابغةُ حزيناً لأنَّ الحبيبةَ ذهبَتْ دونَ أنْ تودّعه ، وكانت من قبلُ صَباحاً ومَساءً ، لكنّه الآن يتمنّى ألا يحلّ الغد ، ولسان حاله يقول: لا قرَّب اللهُ الغَدَ إذا كان فيه توديعُ الأحبّة وفراقُهم ، وقد رسمَ النَّابغة هذه المعاني بالكلماتِ العذبةِ التى تقطرُ رقّةً وحناناً ودلالاً ، وتتضمَّخُ جودةً فقال:

لا مَـرْحبَـاً بِغَـدٍ ولا أَهْـلاً بِـهِ إِنْ كَانَ تفريتُ الأحبَّةِ في غَـدِ

* ثمّ يُتْبِعُ ذلك بقولِه مصوِّراً أنَّ موعدَه منها آخر الدهر فيقولُ مخاطباً نَفْسَه:

حَانَ الرَّحيْلُ ولم تودِّعْ مَهْدَداً والصُّبْحُ والإمسَاءُ منْها مَوعدي(١)

* ويصفُ النَّابغة فتاتَه الغانية _ وليستِ المتجرّدة كما زعموا _ التي غنيتُ بجمالها عن حليها ، وقد رمته بنظراتها التي تشبه السِّهامَ القاتلةَ ، فأصابَ فؤادَه نوعٌ من حُبِّها النّافذ كالسَّهم القاتلِ ، وذلك من خلالِ جمالها ونظراتها الفاتنةِ من عينيَها الجميلتَيْن القاتلتَيْن:

في إثْرِ غانية رمثك بِسَهْمِها فأصابَ قَلْبَكَ غيرَ أَنْ لَم تُقْصِدِ ولقد أصَابَ فؤادَه منْ حبِّها عن ظَهرِ مِرنَانٍ بِسَهْم مُصْرَدِ نظرت بمقْلَة شَادِنٍ مُتَربِّبٍ أحوى أَحَمُ المُقْلتَيْن مُقَلَّدِ

* وهذه الفاتنةُ الجميلةُ تتدلىٰ العقودُ الذّهبيّة على صدرِها وتزيّنُ

⁽۱) «لم تودع»: خطاب لنفسه. و«مَهْدَدَاً»: فسَّرهُ الأصمعيّ بأنّه اسمُ جارية ، ولم يذكرُ في القاموسِ ولا اللسان في شرح البطليوسي أنّه من أسمائهنّ ، وربّما أرادَ بمهدد ميّة فقد يسمُّون المرأةَ في الشّعرِ بأسْمَيْن.

نحرَها ، فتبدو كأنّها ذهبٌ متوهجٌ شُبّه بالنّجم المتلألىء في كبد السَّماء: والنَّظمُ في سِلْكِ يزيّنُ نَحْرَها ذهَبٌ توقَّد كالشَّهابِ المُوقَدِ (١)

* وتبدو هذه الجاريةُ الفاتنةُ بعد هذا كلّه صفراء من كثرةِ الطّيوبِ والعطْرِ ، وهي طويلةٌ فارعةٌ ، كالغصنِ المتثنّي الليّن النّاعم؛ وقد حَجَبَ حسنُها حُسْنَ السِّراج:

صَفْراءَ كَالسِّيرَاءِ أُكْمِلَ خَلْقُها كَالغُصْن في غُلْوائِهِ المَتَأَوِّدِ وَتَخَالُها في البيتِ إذْ فاجَأْتُها قد كانَ مَحجُوباً سِراج المُوقدِ

* ويتابعُ النّابغة بنبوغِ غزلي وصْفَه لهذه الفاتنة ، فهي سمينةٌ ، مكتنزةُ لحم البطْنِ ، حتى أصبحتْ طيّات فوقَ طيّات ، ويشمخُ ثَدْياهَا ويرتفعان ، ويضْغَطان على الثّوب ، ولكنْ يرتفعُ الثّوب بنهودِ ثديها ، وعدم ارتخائه ، وهذه المرأةُ الفاتنةُ ذات كتفيّن جميلين أمْلسَيْنِ مكتنزَيْن ، وبشرتُها بيضاء ، وأردافها ممتلئة ، تتراءى من تحتِ سترِها الرّقيق المشقوق الوسط ، شبيه بالشّمس يوم تعرضها في برجِ الحمّلِ ، وهي أحلىٰ وأجمل ما تكون حينذاك؛ اسمعْ إليه يقول:

والبطنُ ذو عُكَنِ لَطيفٌ طَيُّهُ والإثْبُ تَنْفُجُه بثَدْي مُقْعَدِ محطوطةُ المتنيَّن غيرُ مُفَاضَةٍ ريّا الرّوادِفِ بضَّةُ المُتَجرّدِ قامَتْ تراءَى بينَ سَجْفَي كلّةٍ كالشَّمْس يومَ طُلوعها بالأَسْعُدِ (٢)

* كما أنَّه يشبِّه هذه الجارية بالصَّدفة والدّرة الخارجة من البحرِ التي إذا

⁽۱) جاء في الأغاني في مثل هذا المعنى رواية أخرى لهذا البيت ، ولم ترد في الديوان: بالسدُّر والساقُوتِ زُيِّسَ نَحْسُرُها ومفَصَّلِ مسنْ لسؤلوْ وزَبسرجَدِ

 ⁽۲) ديوان النابغة (ص ٣٩)، و«العكن»: ما انطوى من لحم البطن من السمن.
 و«الإتب»: ثوب. و«تنفجه»: ترفعه عن بقية الصدر. و«ريا»: ممتلئة. و«تراءى»: تظهر نفسها. و«الأسعد»: برج الحمل.

رآها الغوّاص هلَّلَ وكبّر وسجد ، بل إنّها لشدّة جمالها تبدو كأنّها دمية وتمثالٌ وصورة من المرمر ، _ والمرمر : هو الرّخام الأبيض والأحمر _ ترفع وتزين بالقرميد:

أو درّةٍ صدفيّةٍ غواصُهَا بَهِجٌ متى يَرَهَا يهلُّ ويَسْجُدُ اللهِ وَيَسْجُدُ اللهِ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَاللّهُ وَيَعْمُ وَيَعْمُ وَاللّهُ وَاللّهُ

* وها هو ذا النّابغةُ يكونُ أكثرَ رشاقةً ودقّةً في رسمِ متجرّدته ـ كما زعموا ـ وقد صوَّرها في دقّةٍ وجمالٍ يعجزُ عنهما المصوِّرُ البارعُ . لقد سقَطَ النّصيف ، وهو كلُّ ما غطّى نصف البدنِ ، أو الوجه ، فتناولَتُه بإحدىٰ يَديْها ، وأسرعَتْ بيدها الأخرى فوضعَتْها على عورتها تخفيها ، أو على وجهها تخفيه ، والصُّورة التي صنعها النّابغةُ لا تنطقُ بالحركةِ فحسبْ ، وإنّما تنطقُ كذلك بالتّعبير النّقسي للمرأة ، فاضطرابُها عند لقائِه فجأةً ، وعند سقوطِ النّصيف ، وفزعُها مع الخجلِ عندما أرادت أن تحجبَ عنه ما انكشف منها ، كلُّ هذه العواطف والحركات واضحة في الصّورة نحسُها ونلمسُها في قوله:

سَقَطَ النَّصيْفُ ولمْ تُرِدْ إِسْقَاطَه فَتَنَاوِلَتْه واتَّقَتْنَا بِاليَدِ

* ثم يصفُ كيفَ اتَّقتِ النَّاظرينَ إليها بكف حمراءَ مخططةٍ بالحنّاء ، ويكادُ من لطافتِه ونعومتهِ أَنْ يُعْقَد ، فقد شبّه بنانها بالعنَم وهو شجرٌ ليّنُ الأغصانِ لطيفُها كالصّفصاف ، والعنمُ أيضاً زهرٌ أحمرُ مستطيلٌ مثلُ الأصابع؛ فيقول:

بمخضّبِ رخْصِ كأنَّ بنانَه عنَمٌ يكادُ منَ اللطافةِ يُعْقَدُ (١)

⁽۱) في هذا البيت إقواء ، وفي رواية معاهد التنصيص (۱/ ٣٣٥): «عنم على أغصانه لم يعقد». وانظر: الأغاني وغيره في هذا المجال.

* ولعلَّ فتاته قد جَمدَتِ الكلمةُ على شفتَيْها عندما سقطَ نصيفُها ، فلم تقدرْ على إظهارِ حاجتها ، فشبَّهها بالإنسانِ المريضِ غيرِ القادر على الكلام ، والذي ينظرُ إلى مَنْ يزورُه:

نَظَرتُ إليكَ بحاجةٍ لم تقْضِها نظرَ السَّقيمِ إلى وجُوه العُوَّدِ (١)

* وبعد أنْ يذهب روعُها ، تستعيضُ عن الكلام بابتسامةٍ حلوةٍ لطيفةٍ ، فيشبّهُ سوادَ شفتَيْها بقوادم الطّائر ، وتكون شديدة السّواد ، كما يشبّه بياضَ ثغرِها ببياضِ البردِ ، وقد نثرتِ الإثمدَ على لثتها ليشتدَّ بياض أسنانِها ، كما يشبّه لون ثغرِها بالأقحوانِ في بياضِه إلى صفرةٍ عندما تمطرُ السّماء ، فيزول ما علقَ عليه من غبارِ ، فيكون صافياً:

تَجْلُو بقادمَتَي حَمامةِ أيكةٍ بَرَداً أُسِفَّ لِثاتُهُ بِالإثْمِدِ كَالْأُقْحُوان غَداةَ غِبِّ سمائِهِ جفَّتْ أَعَالِيهِ وأَسْفَلُه نَدي

* وتأتي بعد ذلك النّقاطُ الحاسمةُ في القصيدةِ ، ويبدأُ النّابغة ـ كما زعموا ـ بالممنوعاتِ ، فيأخذُ في وصْفِ عذوبةِ فمِها كما حدَّثَه النّعمان ، وأنّه شهيُ الموردِ ، يشفي العطشان ، ويرويه أيضاً بطيْبهِ وطيْب رائحتهِ ، يقول:

دٌ عــذبٌ مقبَّلُـهُ شَهِـيُّ المَـورِدِ ه عــذبٌ إذا مـا ذُقْتَـه قُلْـتَ ازددِ ه يُشْفىٰ بريًا ريقها العَطِشُ الصَّدي

زَعَمَ الهُمامُ بأنَّ فَاهَا بارِدٌ زَعَمَ الهُمامُ ولم أذقْه أنَّه زَعمَ الهُمامُ ولم أذقْه أنَّه

نظرتُ بمقلَّةِ شَادَنِ مَتَّرَبُّتِ أَحَدِي أَحَدِي أَحَدِمُ المُقلتَيْنِ مُقلِّدِ

⁽۱) ديوانه (ص ٤٠) ، وانظر إلى كثرة الألوانِ في البيتِ الآتي من نفْس القصيدة ـ وقد سبق الحديث عنه ـ حيثُ كانَ الشَّاعرُ دقيقاً في رسْمِهِ عندما صوَّر نظرتَها إليه بنظرة الظّبي المكتمل الذي قد اكتحلتْ عينُه فهي سوداء ، والذي هو أسمرُ البشرة في احمرارٍ ، والذي يتقلّد بقلادةٍ تزيّن جِيْده:

* وهذه الفتاةُ الفاتنةُ الجميلةُ المتزيّنةُ بالدّرّ واللؤلؤ ، لو عرضَتْ لراهبٍ لم يتزوَّجْ ، لأدامَ النَّظرَ إليها ، ولاستطار لحسنِ حديثها ، وعذوبةِ كلامها ، بحيث لو سمعَتْه الوعولُ النَّافرة لأنِسَتْ ونزلَتْ من الهضابِ لسماعِها:

لَو أَنّها عرضَتْ لأَشْمطَ راهبٍ عَبَــدَ الإلــهَ صـــرورةٍ مُتعبّـــدِ
لَـرَنَـا لـرؤيتهـا وحسْنِ حـديثهـا ولخَـالَـه رشَـداً وإنْ لــم يــرشــدِ
بتكَلُّــمٍ لــو تستطيـــعُ كـــلامَــه لدنَـتْ لـه أروى الهضابِ الصُّحَّـدِ

* ثم يصلُ النَّابغة بعد ذلك كلّه إلى الذّروةِ في الجرأةِ ، حيث يكشفُ بوصفِهِ لفتاتهِ عن أشياءَ ممنوعهِ ، ويذكر عورتَها ، ويصفُ الشَّعر الأسودَ المحيط بعورتها ، وقد تجعَّدَ وكثر ، كالكرمِ الذي أُسْنِدَ بعضُه على بعضٍ ومالَ على الدّعائم ، وفي هذا يقول:

وبف احمم رَجْلِ أثيب نَبْتُهُ كالكرمِ مَالَ على الدِّعام المُسْندِ * ويتوسَّعُ في وصفِ الفرج ، ويبسطُ القولَ في ذلك ، فهو عريضٌ في غلظِ وارتفاع ، وهو ملءُ اليدِ قد حازَ على ما حولَه وارتفع ؛ وإذا نظره يراهُ أقمرُ مركناً ضُخماً له أركان:

فإذا لَمشتَ لَمشتَ أَخْتَمَ جائِماً متحيّــزاً بمكــانِــهِ مــلءَ اليَــدِ وإذا نَظَرتَ رأيتَ أَقْمر مشرِقاً ومُــركَّنــاً ذا زرْنَــبِ كــالجلمَــدِ

* وهل بعد هذا الغَزلِ غزلٌ أكثرُ واقعيّةً من هذه الوجهةِ التي دخلَ فيها في الممنوعات؟! . . إذاً لنتابع بقيّة الوصفِ الذي أدخلوهُ على قصيدةِ النّابغة لينهُوا به «المشوار».

* فهذا الفرجُ رابي المجسّة ، عظيم المَلْمَس ، مدهونٌ بالطّيْبِ والعبيرِ في حالةِ الطَّعن ، لكنَّ حقيقتَه في حالةِ الجذْبِ والإخراجِ أنّه ضيقُ ينتزع ما أدخل فيه ، كما ينتزعُ الحبلُ المفتول الضّيّق: وإذا طعنْتَ طَعنْتَ في مُسْتَهدفٍ رابي المجسَّةِ بالعَبيرِ مُقَرمَدِ وإذا نزعْتَ نزعْتَ عن مُستَحصِفٍ نَنْعَ الحَزَوَّرِ بالرَّشاءِ المُحصَدِ

* ومنَ الملاحظِ أنَّ هذه الأبيات مزينةٌ بالاستعارةِ على ما في الوصفِ من الإفحاشِ ، وذلك في كلمتَي: «طعنتَ ونزعتَ»؛ والطَّعنةُ تكون للسّكين أصْلاً ، وليس لما أدخل في الفرج هنا ، وكذلك الحالُ في لفظةِ «نزعتَ»(١).

* وتتجلَّى ذِروةُ الوصفِ الإباحي الصَّريح في قوله:

وإذًا يَعَضِ تُشُدُّه أعضاؤُه عض الكبيرِ من الرّجَالِ الأَذْرَدِ

* حيث يستعيرُ لفظةَ العضّ ، وهي للأسنانِ أصْلاً ، فيشبّه هذا العضّ بِعَضّ الذي سقَطَ مقدّم أسنانِهِ ، فلا يؤذِ ، وإنّما يجدُ لذةً في ذلك .

* ويتابعُ النَّابغةُ الجولةَ الأخيرةَ ليقولَ في وصفِ فتاتِه ، ووصفِ ما لا ينبغي وصفه بأنَّ مَنْ ذاقَه لا يستطيعُ الابتعاد عنه ، ومن ابتعدَ عنه لا يجدُ منهلاً أفضلَ منه ، حتى أصبح جزءاً لا يتجزّأُ منْ حياتِهِ وذاتِهِ (١) ، يقول:

وَيَكَادُ يَنزعُ جَلْدَ مَنْ يُصْلَىٰ به بَلَـوافِـحِ مَثْـلِ السَّعيـرِ المُـوقَـدِ لا وَارِدٌ منهـا يَحُـوزُ لِمَـورِدِ (٢)

* هذه هي معظمُ أبياتِ القصيدة الدّالية النَّابغيّة التي ملأتْ دُنيا القصائدِ وشغلتِ النَّاس ، ترى هل هي في وصْفِ المتجرّدة _ كما زعموا _ أم أنّها منحولة؟! في السُّطور التَّوالي نستجلي بعضَ الأمر بإذن الله .

⁽١) انظر كتاب: الطبيعتان الحية والصامتة في الشعر الجاهلي (ص ٥٥٩ ـ ٥٦٠)بتصرف.

⁽۲) انظر: دیوان النابغة (ص ۳۸ ـ ٤٢) طبعة بیروت ، ودیوانه (ص ۹۳ ـ ۹۸) طبعة تونس.

المتجرِّدةُ ووقْفَةُ تَصْحِيْح:

* إنَّ ما قرأناهُ في قصيدةِ النَّابغةِ للمتجرّدة ، تجعلُنا نقفُ وقفةَ تأمُّلِ أمامَ النُّصوصِ التي وصلَتْ إلينا ، والتي تجعلُ منَ المتجرِّدةِ امرأةً غير موثوق بها ، بل وتجعلُ من النعمان رجلًا لا يغارُ على عِرضِهِ.

* منْ ذلك ما ذكرَهُ ابنُ قُتيبة فقال: «إنَّ النُّعمانَ قال للنَّابِغةِ وعنده المتجرّدة: صِفْها لي في شِعْرِك يا أبا أمامة! فقال قصيدتُه التي أوّلها: «أمن آل ميّة رائح أو مغتد. . » وذكرَ فيها بطْنَها وعكُنها ومتْنَها وروادفَها وفرجَها فقال:

وإذا لَمْستَ لَمَسْتُ أَخْتَم جَاثِماً مُتَحيّــزاً بمكــانِــهِ مــلءَ اليَــدِ وإذا طَعَنْتَ طَعَنْتَ في مُسْتهدَفٍ رابي المجسَّـة بـالعبيـرِ مُقـرمَــدِ وإذا نزعْتَ نزعْتَ من مُستَحْصَفٍ نَزْعَ الحزوَّر بالرَّشَاء المُحصَدِ»(١)

* وفي «الأغاني» يذكرُ «الأصفهاني» ذلك فيقول: «قال النُّعمان للنَّابِغةِ: يا أبا أُمامة ، صِفِ المتجرّدة في شِغْرِك ، فقال قصيدتُه التي وصفها فيها ، ووصف بطنها وروادفها وفرجها. فلحقتِ المنخّل من ذلك غيْرةٌ ، فقال للنُّعمانِ: ما يستطيعُ أنْ يقولَ هذا الشِّعر إلا مَنْ جرّبه ، فوقرَ ذلك في نَفْسِ النُّعمان ، وبلغَ النَّابِغة ، فخافه ، فهربَ ، فصار في غسَّان. قالوا: وكانَ المنخَّل يهوى هنداً بنتَ عمرو بن هند ، وفيها يقولُ:

ولَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الفَتَا قِ الخِدْرَ فِي اليَومِ المَطيْرِ

قال: فبلغَ عَمْراً خبرَ المنخَّل فأخذَه فقتَلَه. وقال المنخَّلُ قبل أَنْ يقتلَه وهو محبوسٌ في يدهِ يحضُّ قومَه على طلبِ الثَّأْر به:

طُلَّ وسْطَ العِرْاقِ قَتْلي بِلا جُرْ مِ وَقـومـي يُنْتِجُـون السِّخَـالا»(٢)

الشعر والشعراء (١/ ١٦٦).

⁽۲) الأغاني (۱۱/۱۱ ـ ۱۹) و (۹/۱۶۱) طبعة ساسى بمصر.

* إنَّ هذا النَّص الذي قرأناه يهمّنا أهميّةً كبرى ، فهو يخلطُ بينَ الأخبارِ خَلْطاً واضِحاً ، فهو في الوقتِ الذي يقصُّ علينا قصَّة المتجرِّدةِ مع المنخَّل والنَّابغةِ ، يضيفُ إلى هذه قصّة عشْقِ المنخّل لابنةِ عمرِو بن هند ، تلك القصّة التي قالَ المنخّل فيها شِعراً حُبِسَ منْ أجلهِ ، ثم قَتِلَ؛ وكان قتلُه في أيّام عمرو بن هند الذي سبقَ النُّعمانَ بنَ المنذر ، وسبقَ المتجرّدة بما لا يقلُّ عن عِقْدٍ منَ الزَّمنِ ، ومعنى هذا أنَّ الخبرَ يؤكِّدُ أنَّه مضطربٌ ، فهو يَرِدُ في صورتَيْن؛ الأولى عشْقُ المنخّل للمتجرّدةِ ، وهو أمْرٌ يمكن أنْ نشُكَّ فيه كلَّ الشَّك عندما نرى من بقيّة القصّةِ أنَّه قُتِلَ في زمن عمرو بن هند. والثَّانية ما نراهُ منَ العَجب العُجاب ، وذلك عندما نتابعُ بقيَّة الخبر ، ونرى أنَّ النَّعمانَ بنَ المنذر الملكَ الغيورَ ، والذي يغارُ على زوجهِ المتجرِّدة أشدّ الغيرة يرضى بأنْ يكلُّفَ النَّابغة بتصويرِ امرأته عاريةً في قصيدةٍ لم تخلُ من دعارةٍ وفجْرٍ ، ثمّ يسمحُ النّعمان لنفسهِ أن يستمعَ إلى القصيدةِ حتى نهايتها في جَمْع من أصدقائِهِ وسمّاره ، وبعدَ هذا كلّه لا تتيقَّظُ غيرتُه إلا بعد أنْ ينتِهها المَنخّل ، وهو الملكُ العربيّ الأصيلُ الغيور!!. .

* ثمَّ كيفَ يستطيعُ المنخَّلُ أَنْ يقولَ للملكِ النُّعمان هذا القولَ العجيبَ الغريبَ الذي نستبعدُ أَنْ يصدرَ من شاعرٍ إلى ملكِ كبيرٍ عندما يقولُ للنّعمان: «ما يستطيعُ أَنْ يقولَ هذا الشّعْرَ إلا منْ جرَّبه»؟! ألا ترى أنَّ في هذا القولِ طعناتٌ مسمومةٌ قاتلةٌ موجّهةٌ إلى الملكِ الغيورِ في وقاحةٍ ونَزَقٍ وتعريض؟!!

* لعلَّ بعضَ الرُّواةِ ، أو من أُغْرِمَ منهم بالشَّعر ، كانوا إذا وجدوا بيتاً جميلاً منَ الشَّعر ، أو وجدوا خَبراً يمكنُ أن تدورَ حولَه قصّة ، استهوتهم القصّةُ ، وأخذوا يمدّون في البيتِ ، ويزيدونَه بوضعِ أبياتٍ جديدةٍ أخرى لتكتملَ القصّة .

* يقولُ الدّكتور محمد زكي العشماوي في كتابه «النَّابغة الذّبياني»: «ونستطيعُ أَنْ نعتبرَ قصّةَ المتجرّدة هذه نوعاً من هذا القَصَص ، ونستطيعُ أَنْ نعتبرَ قصيدةَ المتجرّدة نوعاً من هذا الشِّعر الذي وُضِعَ لأغراضٍ مثل تفسير أو تزيين لقصةٍ من القِصَص أو توضيح لاسمٍ منَ الأسماءِ ، أو شرح لمثَلِ من الأمثال»(١).

* ومن ها هنا نشكُ في قصيدة المتجرّدة شكاً يدفعُنا إلى إنكارِها ، أو إنكارِ معظمها، للأسبابِ التي أوردناها آنفاً، ومنها نص الأغاني المُضطرب غير المنطقي ولا المقبول ، ثم كيف ترضى امرأة سليلة الأكارم كالمتجرّدة أن تتعرّى أمام النَّابغة ومن ثمَّ يصوّرها ويرسمُها بكلماته؟! يُضافُ إلى هذا القصيدة «الدّالية النّابغيّة» نفسها ، فنحنُ قد تعرضنا لها بالشَّرح والتَّحليلِ والتَّقويم فيما مضى منَ الصَّفَحات ، ورأينا أنَّ الشَّاعر يذكرُ أكثرَ من اسمِ لفاتنتهِ وفتاتِهِ ، فهي «ميّة» في مطلّع القصيدة ، وهي «مَهْددُ» في البيتِ الخامس؛ وهي «جارةٌ قريبة» في أبياتٍ بعدها؛ ولعلَّ سائلٌ أو مُعترض يقول: إنَّ هذه الأسماء رموزٌ يرمزُ بها عن المتجرّدة. فلماذا يصرّحُ بها في يقول: إنَّ هذه الأسماء رموزٌ يرمزُ بها عن المتجرّدة. فلماذا يصرّحُ بها في نهايةِ القصيدة ويذكر الهُمام زوجها ، وأنَّه حدَّثَه عن فمها العذبِ الشّهيّ نهايةِ القصيدة ويذكر الهُمام زوجها ، وأنَّه حدَّثَه عن فمها العذبِ الشّهيّ النّدي ، وأنّه لم يذقْه ، وإنّما جاءَتْه هذه الصّفات عن الملكِ الهُمام؟!

* يجيبُ الدّكتور محمد زكي العشماوي عن هذا السُّؤال بوضوح فيقول: «واعتقادي أنَّ هذه الأبيات الثَّلاثة التي وردَ فيها ذِكْرُ الهمام قد اقتضَتْها حاجة القصّة في تبرئة النَّابغة آخر الأمْرِ؛ فالقصيدة حريصة أنْ تضع هذه الجملة الاعتراضيّة في الأبياتِ الثّلاثة لتؤكّد للقارىء أنَّ النَّابغة لم يذق فم المتجرّدة ، ولم يحسّ عذوبته ، ولكنّه قد علمَ العذوبة عن الهمام:

⁽١) انظر: النابغة الذبياني (ص ٧٧) بشيء من التصرف.

زعم الهمامُ بأنَّ فاهَا بارِدٌ عَذْبٌ مُقبَّلُهُ شَهِيُّ المَوردِ زعم الهمامُ ولم أُذُقُهُ أنَّه عنْبُ إذا ما ذُقْتَه قلت ازدَدِ زعم الهمامُ ولم أُذُقْهُ أنَّه يُشْفَىٰ بريّا ريقِها العطشُ الصَّدِي

وإذا صحَّ أنَّ النُّعمان لم يحدَّثُه عن عذوبةِ فم زوجتِه ، وأنَّ النَّابغةَ لفرطِ حبّه للمتجرّدة قد تخيّله متحدَّثاً إليه بجمالها ، فإنّ هذا يتعارضُ مع روحِ النَّابغة ، وحرصهِ في علاقَتِه بالملوك»(١).

* وهذه القصيدةُ الدّاليةُ الشّهيرةُ تحفلُ في نهايتها بنوع من الدَّعارةِ والمُجون ، فنجدُ وصفاً حسّيّاً جنسيّاً صريحاً ، قد يكون فيه شيءٌ من الجَمالِ الفنّي في التصوير ، ومع ذلك لا ينبغي لأَبْلَهِ أَنْ ينسبَه لزوجةِ مَلِكِ ، هو في الوقتِ نفسه صديقٌ له ، ووليٌّ لفضْلِهِ ونعمته .

* وإذا صحَّ أنَّ هذه القصيدة قيلَتْ فعلاً ، وأنَّ الذي أنشأها وصاغَها هو النَّابغة ، وأنَّها لم تُنشَدْ أمامَ الملك وإنَّما سمعَ الملك بخبرها ، بأنْ قيلَ له إنَّ النَّابغة قد عرض للمتجرّدة في قصيدة ، فإنَّ ذلك مستبعدٌ ، لأنه لو كان يحبُّها ، لرأينا وقرأْنَا له فيها شِعْراً آخرَ ، ولوجدنا لهذه القصيدة ، ولهذا الفنّ في وصْفِ المرأةِ أمثلةٌ كثيرةٌ في ديوان النَّابغة ؛ ولكنّنا لا نظفرُ في الدّيوانِ كلَّه على شيءٍ من هذا الفنّ الذي جاءَ في هذهِ القصيدة .

* وإذا قيل: إنَّ علاقتَه بالمتجرِّدة قد بُترت بانقطاعهِ وبُعْدِهِ عن النُّعمان ، فإنَّه لا يُعْقَلُ أنْ تنقطع صِلتُه الرُّوحية بالمتجرِّدةِ ، وأنْ يتجرَّدَ من ذكرياتِه ومن ماضيهِ ، وألَّا يظهرَ كلّ هذا في شِعْره ، وفي قصائدَ تفيضُ لوعةً وشوقاً.

* ولو كان هذا هو السَّبِ الحقيقيُّ لغضبِ النُّعمان على النَّابغة ، فإنَّه

⁽۱) انظر: النابغة الذبياني (ص ۷۹ ـ ۸۰).

لا يمكنُ أَنْ يعودَ النُّعمان فيعفو عن النَّابغة ويصفحَ عنه ويقرِّبه إليه. ولو كان هذا الوصفُ قد قيلَ في تصويرِ جاريةٍ عند النُّعمان ، أو رسم صورة لامرأةٍ عاريةٍ على سبيل الرِّياضة الشِّعرية ، لما كان هناك تردّد بها وقبولها (١٠).

* هذا وقصيدة النّابغة صورة حيّة لامرأة فتّانة المحاسن ، إذا استثنينا بعض أبيات خارجة عن الذوق، وخلاصة القول في قصيدة المتجرّدة ، إمّا أن تكونَ موضوعة ، وُضعَتْ فيما بعد لتؤيّد القصّة الشّائعة المنتشرة عن غضب النُّعمان على النَّابغة ، وحينئذ لا يمكنُ أنْ تكونَ هذه القصيدة سبباً من الأسباب التي دعتِ النُّعمان أنْ يخاصمَ النَّابغة ويتوعّده ، وإما أن تكونَ هذه القصيدة قد قالَها النَّابغة وهذا شيءٌ يبدو بعيداً وغريباً إذا قرأنا الديوان ، وعلى فرض أنّنا سلّمنا بأنّ هذه الدّاليّة من قصائدِ النَّابغة ، فلا يمكن التسليم أنّها قيلت في المتجرّدة امرأة النّعمان .

* أمّا هروبُ النّابغة من وجُهِ النّعمان ، وغَضَب النّعمان عليه ، فسببُه ليس المتجرّدة كما زعمَ المغرضون وشوهوا صُورَ النّساء العربيّات ، ووضعوهنّ في مقاماتٍ لا تليقُ بهنّ ولا بأمثالهنّ ؛ إذاً فما سببُ هروبِ النّابغة من وجْه النّعمان بن المنذر؟

* تذكرُ المصادرُ عدَّةَ أسبابِ متباينةٍ لهروبِ النَّابغة من النَّعمان ، منها أنَّ النَّابغة ـ كما زعموا ـ أنشدَ مُرَّة بن سعد القريعيّ داليّته التي ذكرَ فيها المتجرّدة ، فأنشدَها مُرَّةُ النُّعمانَ ، فامتلاً غضَباً فأوعدَ النَّابغة وتهدَّده ، فهربَ منه ، فأتى قومَه ، ثم شخصَ إلى ملوكِ غسَّان بالشَّام فامتدحَهم.

* وقيلَ: إنَّ عصامَ بنَ شَهْبَرِ الجرميِّ حاجبَ النُّعمان أنذَره وأعْلَمَه ما يريدُه النُّعمان ، وكان صديقَه ، فهربَ.

⁽١) المرجع السابق (ص ٨١) بشيء من التصرف.

* وقيل: إنَّ السَّبب في هربه منَ النُّعمان أنَّ عبد القيس بن خُفَاف التَّميميّ ، ومرة بنَ سعد بن قريع السّعدي عَملا هجاءً في النُّعمان على لسانِ النَّابغة ، وأنشدا النعمان منه أبياتاً وفيها ما فيها من فحشٍ وإقذاعٍ وتعريضِ به وبأمّه وجده.

* وقيل: إنَّ مرةَ بن سعد القُريعي الذي وشى بالنَّابغة ، كان له سيفٌ قاطعٌ يُقال له ذو الرِّيفة من كثرة فِرَنْده وجوهرهِ ، فذكرَهُ النابغةُ للنُّعمان ، فأخذَهُ ، فاضطغَنَ ذلك القريعي حتى وشىٰ به إلى النُّعمان وحرضه عليه.

* وقيل: إنَّ سببَ هرب النَّابغة من النُّعمان وشاية المنخل به في تلك القصيدة الدّالية (١).

* وهكذا نلاحظُ أنَّ معظمَ الأقوالِ والأخبارِ تشيرُ إلى أنَّ الأمرَ هو مجرّدُ وشايةٍ من قومٍ كرهُوا النَّابغة وحقدُوا عليهِ ، وتملّكهم الحَسَدُ ، والانتقامُ منْهُ ، فأرادوا أنْ يبعدوا بين النَّابغة والنُّعمان ، فبعضُهم وشَى به لأنَّه أخذ سيفَه ، ونسبَ إليه أشعاراً لم يقلُها ، ونجدُ أنَّ النابغة يقسمُ بأنَّه لم يقلُ شيئاً ممّا بلغ إلى النُّعمان ، إلا أنْ تكونَ مقالة أقوامٍ كأنّها قرّعَتْ كبده لشدّتها وقوة نفاذها إلى نفسه ، وفي هذا يقول:

فَلا لَعَمرُ الذي مَسَحتُ كعبتَه ومَا هُريَق على الأنصابِ من جَسَدِ والمؤمنِ العائذاتِ الطير تمسَحُها رُكبانُ مكّة بينَ الغَيْلِ والسَّندِ ما قلتُ من سيىءِ مما أتيتُ به إذاً فلا رفَعَتْ سَوطي إليّ يَدي إلا مقالـة أقـوام شقيـتُ بِهـم كانَتْ مقالتُهم قَرْعاً علىٰ كبدي (٢)

⁽۱) انظر في ذلك الأغاني (۱۱/۱۱_۱۷) بتصرف يسير، ومعاهد التنصيص (۱/ ٣٣٥_٣٣٠).

⁽۲) دیوانه (ص ۳۵-۳۳).

* ونجدُ كذلك في قصيدةٍ أخرى أنَّ النَّابِغةَ يهاجمُ بني قريع بن عوف ويتّهمهم بالوشايةِ ، ونجدُ كذلك قصائد أخرى يدافع فيها النّابغة عن نفسهِ من وشايةِ الوشاة وكذبهم.

المشهورة:

أتاني أبيتَ اللَّعن أنَّكَ لُمتني وتلكَ التي أهتمُ منها وأنْصَبُ

يبيّنُ النّابغةُ أنّه اتصل بملوكِ غسّان وأنّه مدحَهم ، وآثر أنْ يكونَ صديق الجميع ، وهذا أثار غضبَ النّعمان ، بيد أنّ النّابغة يبرّرُ للنّعمان ذلك ، فهو وإن كانَ قد اتصل بهؤلاءِ الملوكِ وصادقَهم ، فَلِمَ الغَضَبُ ، وأنتَ يا نُعمان مِنْ هؤلاءِ الملوكِ بمنزلةِ الشّمس منَ الكواكبِ الصّغيرة المنتشرة حولَها ، إذا طلعَتْ تلاشَتِ الكواكبُ ، ولم يَعُدُ لها ولا لضيائِها وجودٌ ، فضياءُ الشّمس غالبٌ عليها ، ولمَ الغضبُ وأنتَ قد أُعطيْتَ من المكانةِ والسّلطان ما ترىٰ كلّ سلطان يتذبذبُ إلى جوارِه ، وترىٰ منازلَ الملوكِ تتوارى خَلْفَ منزلتك:

إذا طلعَتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ إلى النّاس مَطليٌّ به القَارُ أجربُ ترىٰ كلَّ مَلْكِ دونَها يتـذبـذَبُ

* ثم ينهي قصيدته باستعطافِ النُّعمان بأنْ يعفوَ عن الأخطاءِ ، فأيّ الرّجال المهذّب؟! وقد يكون مع هذا كلّه مظلوماً ، ولكنّه لا يتبرّمُ بذلك ، بل يتوقّع الرّضا:

علَى شَعَثِ أَيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ وإِنْ تَكُ ذَا عُتِبِي فَمثْلُك يعتَبُ(١)

وَلَسْتَ بمُسْتَبِينِ أَخِـاً لا تلمُّـهُ فـإنْ أكُ مظلـومـاً فَعَبـدٌ ظلمْتَـه

فَإِنَّكَ شمسٌ والملوكُ كواكبٌ

فلا تتركني بالوعيدِ كأنّني

أَلَــمْ تــرَ أَنَّ اللهَ أعطــاكَ سُــورةً

دیوانه (ص ۱۷ ـ ۱۸).

* وهكذا نجدُ في هذهِ القصيدة الشَّهيرة بأنَّ غضب النُّعمان على النَّابغة كان لشيءٍ آخر غير المتجرّدة ، وإنّما كانت ثورةُ النعمان عليه لعدمِ ولائهِ التّام له ، ولأنّه لم يوقف حياتَه عليه وقْفاً كاملًا ، بل خطبَ النَّابغة وُدَّ الغَسَاسِنَة ، فأثارَ حفيظةَ النُّعمان عليه.

* وهكذا نجد أنَّ قضيَّة المتجرّدة وقصّتها بريئةٌ من هذا الخلط براءة الذّئب من دم يوسُف.. كما أنَّ القصيدة المزعومة في المتجرّدة، والإفحاش في أبياتها الأخيرة ليست من نَظْم النّابغة؛ وهناك ملاحظة يجدرُ بنا أنْ ننتبه إليها ، وهي في الأبيات التي نُسبت إلى النّابغة:

"وإذا لمَسْتَ لمست... إلى قوله: بالرشاءِ المُحصد» حيث نجدُ تشابُها بينها وبينَ أبياتٍ من القصيدةِ المعروفةِ باليتيمةِ ، والموجودة في ديوان "العَكَوّك» واسمه: عليُّ بنُ جَبلَة ، وتُنْسبُ هذه القصيدة اليتيمة لأكثر من شاعرٍ ، منهم: العكوّك علي بن جبَلة ، وأبو الشَّيص الخزاعيّ ، ودوقلة المنبجيّ ، بل تنازعها وادّعاها شعراء كثر ، ومطلع هذه القصيدة: هَـلُ بـالطّلـولِ لسـائِـلِ ردُّ أَمْ هَـل لَهـا بتكلّم عَهْـدُ هَـل بِالطّلـولِ لسائِـلٍ ردُّ أَمْ هَـل لَهـا بتكلّم عَهْد وصي قصيدةٌ طويلة تعـدُّ (٦٦ بيتاً) مثبتةٌ في ديوانِ العكوّك (ص ١١٥ ـ ١١٩)؛ وفي القصيدةِ أبياتٌ تحملُ نفْس معنى أبياتِ النّابغة ، بل إنّ القافية دالية ، والبحر نفسه من البحر "الكاملِ»:

ولَهِ الْهَ الْمُ رَابِ مَجَسَّتُ فَ ضَيْقُ الْمُ الْمَ الْكِ حَرَّهُ وَقُلُ فَكَ الْمَ الْكِ حَرَّهُ وَقُلُ فَكَ الْمَ الْعَيْلُ وَكَبَّهُ الْعَبْلُ فَكَالَ الْعَيْلُ وَكَبَّهُ الْعَبْلُ فَالْمَالُ الْعَيْلُ وَكَبَّهُ الْعَبْلُ فَا اللّهِ اللّهِ فَإِذَا طَعَنْتَ فَي لَبِدٍ وَإِذَا سَلَلْتَ يَكِ اذُ يَنْسَلُهُ فَإِذَا طَعَنْتَ فَي لَبِدٍ وَإِذَا سَلَلَ تَ يَكِ اذُ يَنْسَلُهُ

* ومع هذه الجرأةِ والكلام المكشوفِ ، نجدُ كثيراً من الألفاظِ متكررةً في القصيدتَيْن على الرغم من تباعدِ العصْرَيْن ، فالنَّابغةُ جاهليٌّ ماتَ قبلَ الهجرةِ بـ (١٨ سنة) أي سنة (٦٠٤ م)؛ والعكوّك مات في سنةِ (٢١٣ هـ) فالفارقُ بينهما قرابة قرنَيْن ونصف؛ فأي منَ الشَّاعرين نصدَّق؟ وأيّهما كان مقلّداً للآخر؟!

* إذاً ، ألا يوجدُ هناك شَخْصٌ قد وضع َ هاتَيْن القصيدتَيْن في عصرٍ متقارب؟! ولعلّه بالقرن الثَّالث الهجريّ أو بعده قليلاً؟ أليس الأمرُ يحتاجُ إلى رويّة لمعرفةِ الحقيقة؟!

آراءُ مضْطَرِبَةٌ حَوْلَ المُتَجرِّدة:

* ممّا لفت نظرنا في قصّة المتجرّدة ، أنَّ كثيراً من القصص والأخبار المتناقضة التي وردَتْ عن المتجرّدة قد جعلتِ الآراءَ فيما بعد تضطرب ، بل إنَّ كثيراً من المصنّفين قد جاءت أحكامُهم غير صحيحة ، وكانت مضطربة حول المتجرّدة ، ومنهم أبو العلاء المعريّ الذي ذكر المتجرّدة في معرض حديثه عن عدي بن زيد ، وأوردَ بأنَّ النُّعمان قد قتل جَلَم بنَ عمرو حيث أركبَه على فرسِه اليحموم فوقع عنها فماتَ ، يقولُ المعريّ على لسان عديّ ما نصُّه من جملة حديث «... أنْ يلحقني ما لحق جَلَماً صاحبَ المتجرّدة لمّا حُمِلَ على اليحموم ، والتّعرض لما لم تسبق به العادة منَ المُوم... "(۱).

* وبعد عدّة صفحاتٍ نجدُ المعريّ مع النّابغة في «رسالةِ الغُفران» يسألُه عن قصيدتِه في وصْفِ المتجرّدة فيقول: «يا أبا أُمامة ، إنّك لحصيفُ الرّأي لبيبٌ ، فكيفَ حسَّنَ لك لُبُكَ أنْ تقولَ للنُّعمانِ بنِ المُنذر:

زعم الهمامُ بِأنَّ فاهَا باردٌ عنْبُ إذا ما ذقْتَه قلتَ ازدَدِ زعمَ الهُمامُ ولم أذقْه بأنَّهُ يشفىٰ ببردِ لِثَاتِها العطشُ الصَّدي

⁽۱) رسالة الغفران (ص ٦٢) طبعة دار صادر. و«اليحموم»: فرس النعمان بن المنذر. و«الموم»: الشر.

فيقول النّابغة بذكاء وفَهُم: لقد ظلمني مَنْ عابَ عَليّ ، ولو أنصف لَعَلِمَ أنّني احترزتُ أشدَّ احترازِ ، وذلك أنّ النّعمان كانَ مُستهتراً مُولَعاً بتلكَ المرأةِ ، فأمرني أنْ أذكرَها في شعري ، فأدرْتُ في خَلَدي بالي فقلتُ : إنْ وصفتُها وصْفاً مُطلقاً ، جازَ أنْ يكونَ بغيرِها معلّقاً ، وخشيتُ أنْ أذكرَ اسمَها في النّظم ، فلا يكونُ ذلك موافِقاً للملكِ ، لأنّ الملوكَ يأنفونَ من تسميةِ نسائِهم ، فرأيتُ أنْ أسندَ الصّفةَ إليهِ فأقول: زعمَ الهُمام ، إذ كنتُ لو تركتُ ذكره لَظنَّ السّامعَ أنَّ صِفتي على المشاهدةِ ، والأبيات التي جاءتْ بعد داخلة في وصْفِ الهُمام ، فمن تأمّل المعنى وجدَه غير مختلّ» (۱).

* ويتابعُ المعريّ رحلتَه مع النّابغة قائلًا: «يا أبا أُمامة ، فأنشدْنا كلمتك التي أوّلها:

أَلِمّا على المَمْطُورةِ المتأبِّده مُضَمّخةٌ بالمسْكِ مخضوبةُ الشّوى كأنَّ ثناياها وما ذُقْتُ طَعْمَها ليَقْررْ بها النَّعمانُ عيناً فإنَّها

أقامَتْ بها في المَرْبَع المتجرّده بدرِّ وياقوتِ لَها مُتَقلِّده مجاجة نَحْلٍ في كُميتِ مبرَّدَه له نِعمةٌ في كلّ يوم مجدَّده

فيقولُ أبو أمامة: ما أذكرُ أنّي سلكتُ هذا القَريَّ ــ الرّوي ــ قطّ. فيقولُ مولاي الشّيخ: إنَّ ذلك لَعَجب ، فَمَنِ الذي تطوّع فَـنَسبَها إليكَ؟

فيقول: إنَّها لم تُنْسَبْ إليّ علىٰ سبيلِ التطوّع ، ولكنْ على معنى الغَلط والتّوهم ، ولعلّها لرجلٍ من بني ثعلبةَ بنِ سَعد.

* فيقولُ نابغةُ بني جَعَدة: صحبني شابٌ في الجاهليّةِ ونحنُ نريدُ الحيرةَ ، فأنشدني هذه القصيدة لنفسهِ ، وذكر أنّه منْ ثعلبةَ بنِ عكاية ،

رسالة الغفران (ص ٦٩ ـ ٧٠).

وصادفَ قدومَه شكاةً من النُّعمان فلم يصلْ بها إليه. فيقول نابغةُ بني ذبيان: ما أجدر ذلك أنْ يكونَ!»(١).

* وهكذا نلاحظُ اضطرابَ أخبارِ المتجرّدة في صفحاتِ «رسالةِ الغُفران» وفي موضع واحد ، فمرّة تُتهمُ بجلمِ بن عمرو ، ومرّة بالنّابغة ، ومرة يتقوّلُ بعضُهم على النَّابغة ، وأشياء أخرى تجعلُنا في شكّ ممّا وصلنا عن المتجرّدة.

* ويأتي بعضُ الأخابثِ منَ المُستشرقين من مثل المستشرق: "هَارتُوج دِيْرنْبِرج " Hartwig Derenbourg الذي نشرَ ديوان النَّابغةِ ، والذي كان شديد الإيمان بقصة المتجرّدة ، ويعتقدُ أنَّها السّببُ المباشرُ الذي أخرجَ النَّابغة من جنّةِ النُّعمان ؛ ثمّ يأخذُ على النَّابغة بعضَ تصرّفاتهِ ، يلومُه لأنَّه قرأ قصيدة المتجرِّدة أمامَ عدو من أعدائِهِ مرّة بن سَعْد بن قُريع ، كأنَّما يُسلّمُ بتفاصيلِ القصّة ، وكأنَّ السَّبب عنده في غضبِ النُّعمان هو هذه القصَّة (٢).

* وجاء بعضُ المستغربين فزادوا الطّين بلّة ، وأكّدوا قصّة المتجرّدة مع النّابغة ومع المنخّل ، ففي تحقيقه لديوانِ النّابغة الذّبياني ، يقول «كَرَمُ البُستاني» في المقدّمة ما نصُّه: «وقد حظي ـ النّابغة ـ عند أبي قابوس النُعمانِ بنِ المنذر ملكِ الحيرةِ ، فقرّبَه إليه دونَ سائرِ الشُعراء ، وجعله في حاشيتِه ينادمُه ويؤاكلُه في آنيةٍ من الفضّةِ والذَّهبِ. وهو أوَّلُ شاعرٍ تَكسَّبَ بشعرِه ، فكثُرَ مالُه ، وقد جرّ عليه تقريب النَّعمان له ، وإغداقه عليه العطايا ، حَسَدَ المنخّل اليشكريّ ، الشّاعر ، وأبناء عوف بن قريع ، العطايا ، حَسَدَ المنخّل اليشكريّ ، الشّاعر ، وأبناء عوف بن قريع ،

رسالة الغفران (ص ۷۱ ـ ۷۲).

⁽۲) انظر: النابغة الذبياني (ص ۱۰) لمحمد زكى العشماوي ، بتصرف يسير.

وكانوا من بطانةِ النُّعمان ، فأخذوا يتربّصون به ، ليبعدوه عن بلاطِ المناذرة.

* واتفق أنْ نظمَ النّابغةُ قصيدتَه الشّهيرةَ في المتجرِّدةِ زوجِ النّعمان ، وذكرَ في وصْفِه لها ما لا يليقُ ذكره ، فاتّخذها المنخّل اليشكريّ ـ وكان يهوى المتجرِّدة ـ حُجةً لإيغارِ صَدْرِ النّعمان عليه ، فخافَ النّابغةُ ، وهربَ إلى قبيلتِهِ ، فاغتنمَ الأقارعُ فرصةَ غيابهِ ونظمُوا على لسانِه أبياتٍ في هجوِ النّعمان ، وأوصلوها إليه ، فزادوا من نقمتِه عليه»(١).

* ويأتي محقّقُ ديوان النّابغة «محمّد الطّاهر بن عاشور» لينقلَ دون تحقيقٍ أقوالَ مَنْ سبقه فيقول ما نصّه: «وقال ـ النّابغةُ ـ يمدحُ النّعمانَ بنَ المنذر ويعتذرُ إليه مما بلغه عنه؛ أيّ مما بلغ النّعمان عن النّابغةِ ، وذلك في أمْرِ المتجردة ، قال في ديوانِه الموجود مع ديوان الشّعراء السّتة من روايةِ الأصمعيّ: كانتْ عند النُّعمان المتجرّدة ، وكان النّابغةُ يجالسُه ويسامرُهُ ، ومعه رجلٌ من بني يَشْكُر يُقال له المنخّل ، وكان جميلاً ، وكان يُتهم بالمتجرّدة ، فقال قصيدته: «أمِنْ آلِ ميّة بالمتجرّدة ، فقال النُّعمان للنَّابغة: صِفْها ، فقال قصيدته: «أمِنْ آلِ ميّة بالمتجرّدة ـ فكان ذلك بدءُ غَضَب النُّعمان عليه» (٢).

* وفي تقديمه لأربعة أبيات ميمية مطلعها:

أَلَمْ أَقْسَمْ عَلَيْكَ لَتَخْبِرِنِي أَمْحَمُولٌ عَلَىٰ النَّعْشِ الهمام؟ يقولُ الطَّاهِرُ بنُ عاشور أيضاً ما نصُّه: «ثَقُلَ النُّعمان من مرضٍ أصابَه،

⁽۱) انظر: ديوان النابغة (ص ٦) بتحقيق كرم البستاني ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٩٨٢ م.

⁽٢) انظر: ديوان النابغة الذبياني (ص ٧٦) بتحقيق الطاهر بن عاشور ـ طبعة تونس ـ ١٩٧٦ م.

فكان يُحْمَلُ على سريرٍ يُنْقَلُ ما بينَ الغَمْر وقصوره التي بالحيرة ، وكان قد حَجَبَ النَّابِغة لِمَا بلغه عنه من أمرِ المتجرّدة ، وكان النَّابِغة إذا أرادَ الدِّخول أخبرَه عصامُ حاجب النَّعمان أنَّه عليلٌ. . . »(١).

* ثمّ يأتي بعد ذلك صاحبُ «موسوعة الشّعر العربي» ليجمع خُبْثَ مَنْ سَبقَه ، ويجلوه بثوبِ خبيثٍ جديدٍ ، ويجعلَ من المتجرّدة امرأةً فتّانةً تعرض مفاتِنَها وهي شِبْهُ متجرّدة من ثيابِها تعرض جَسَدها المتجرد أمام النّابغة لتقوم أمامَه ومن ثم يرسُمها بالكلماتِ ، لنستمع إلى ما تحدّث به عن المتجرّدة حرفيّاً ، وليلاحظِ القارىءُ الكلامَ المعسولَ الممزوجَ بالسّم الزُعاف حيثُ يقولُ ما نصُّه عن المتجرّدة:

«لعلّ من أكثر ما مدّ بشهرة النابغة ، في أرجاء الأدب القديم ، هي قصيدته المطوّلة ، المعروفة باسم «المتَجَرِّدة» والتي تجرأ بها ، فوصف زوجة النعمان ملك الحيرة ، وهي شبه متجرّدة من ثِيابها.

ولا شك في أن النَّابغة إذ كان يدرك حقّاً مَغَبَّة هذه القصيدة ، كان يغامر مغامرة الفنَّان أمام الجمال ، وقد تجاوز كلّ مَحْظور ، وأطاع حواسَّه المفتونة بمعالم الرّوعة الأنثوية.

وهو لم يُعطِ لحياته قيمة تفوق قيمة استبداد الجمال به ، وشعوره بتبعيّة تمجيده ، وخلقه ثانية على مستوى الفنّ والمثال. وقد يكون الشّاعر وجد لنفسه مبرّراً ، كما قال عن الغواص في قصيدته ، حين انتزع الدّرة من الصّدفة ، فما إن رآها حتَّى تهلّل لها وسجد.

وكذلك كان الأمر ، وبالنّسبة إليه هو ، عندما سقط النّصيف عن زوج

المرجع السابق (ص ۲۳۲).

النّعمان أمامه ، فما كان منه إلاّ أن مجّد الجمال العاري ومارس انفعاله به ، دون تحفّظ من أية مسؤولية أمام السّلطان.

ولقد حشد النابغة أعظم إمكاناته كمصور وناحت ، ومتأمّل وناظم لدرر الجمال والأنوثة ، وكَمُلَحّن ، يكشف أنغام الفِتْنة في الجسد المُتَجَرّد ، ويرسم خطوطه الموسيقية المنغمة بدقة هاو أصيل.

فإذا بالمتجردة تقوم أمام الناظر ، وكأنها ، حَقّاً ، دُمية عاج منحوتة الشكل بفنيّة رائعة ، حتى إنّ الشّاعر لم يَنْس أن يصوّر كيف رفع النّهْدُ الثّوْب عالياً ، هكذا ، ليسقط كالهالة حول الجسد القائم وراء شفوفه .

ثم كانت انبثاقة الجسد من بين سجْفتي كِلَّة ، كالشَّمس يوم طلوعها ، أو كدرّة خرجت من الصَدَفة. وتأتي هذه اللّوحة الحركية ، عندما يحكي الشّاعر كيف سقط النصيف ، دون أن تريد إسقاطه ، وكيف حاولت أن تُخفي فتنتها بكفّها وأنملها ، وكأن الأنمل كذلك عنصر فتنة إضافية جديدة ، وصفه الشّاعر فقال: إنه «يكاد من اللّطافة يعقد». ولكن التمثال كان كذلك إنساناً. فأسرع الشَّاعر ليُبْرز وجود الأنوثة النفسي من وراء وجودها الجسدي ، فحرّك اللوحة ، وأحيا التّمثال. ووصف النَّظرة التي طغت منه ، عندما وجدت صاحبته نفسها في هذا الموقف أمام الشّاعر ، فأرادته أن يراها ، وألا يراها في الوقت نفسه ، فقال هذا البيت الرائع:

نَظَرَت إِلَيْكَ بِحَاجَةٍ تَقْضِها نَظَرَ السَّقِيمِ إلى وُجُوهِ العُوَّدِ

أعطته المُتْعة من بعيد ، وحرمته منها في الوقت نفسه ، وقام العالم كلُه هكذا بينهما ، فرنّت الفجيعة من أصداء هذا البَيْت. وأكثر من هذا ، فإن النابغة يبرهن على علوّ في استخدام هذا البَيْت. وأكثر من هذا ، فإن النابغة يبرهن على علوّ في استخدام أساليب المواربة ، والحوار الفني المُبَطَّن ، ويكشف بذلك عن خيال مثقّف راق ، وخاصة في المقطع الذي يحاول فيه

أن يقطع المسافة بينه وبين المتجردة ، وأن يتخيل تَلاحُماً حيّاً بينهما. فيلجأ إلى لسان الهُمام ، ليقول بواسطته أوصافاً عن ثغرها ، ولَمَاها ، وريقها العذب. . . وفي الوقت نفسه يعترف أنّه لم يقربه ، وبذلك يزيد في إغراء الوصف وجاذبيته الحسية.

ويعرض النابغة ، في مقطع تالي ، إلى الرّاهب الأشمط الّذي يخضع لِجمالها ، بدون اكتراث لعقله ، كأن الشّاعر يُعْطي لنفسه المبرر الأخلاقي الّذي يجعله يَتَعَبَّد للجمال ، ويظلّ في براءة ذلك الرّاهب.

ولكن الشّاعر سمح لنفسه أن يتخيّل في نهاية هذه الملحمة الحسيّة ، منظراً للتمتع المباشر بالمتجردة ، أو سواها. وقد جاءت معالجته لهذا المنظر في منتهى البراعة اللفظية والفنيّة ، حتى جعل الصور تتلامح من بعيد ، ومن خلال الأوصاف بدون المسمَّيات ، وبطريقة التلخيص والتكثيف في الرُوْية. وفي الانفعال»(١).

* وبهذا الأسلوب المبطّنِ الخبيثِ تظهرُ المتجرّدةُ عاريةً عن الفضيلةِ ، من مثل قوله: « . . عندما وجَدَتْ صاحبته نَفْسها في هذا الموقفِ أمامَ الشَّاعر ، فأرادته أنْ يراها ، وألاّ يراها في الوقتِ نَفْسه . . . » وقوله: «أعْطَتْهُ المتعة من بعيد ، وحرمَتْه منها في الوقتِ نفسه ؛ وقام العالَم كلّه هكذا بينهما . . . » .

* ولا ندري في الحقيقةِ لماذا يريدُ هؤلاء تشويه حقيقة نساء علْيةِ القوم العربيّات؟! مع العلْم أنَّ المرأةَ العربيّة الحُرَّة كانتْ تأنفُ من الخَنَا ولا تكادُ تتصوّره ، فكيف يجعلُ هؤلاء منها امرأةً سهلةَ المنال؟! وإذا كانت نساءُ

⁽۱) انظر موسوعة الشعر العربي (۲/ ۲٤٠ ـ ۲٤۱)؛ شركة خياط للكتب والنشر، بيروت ـ لبنان ـ ۱۹۷۶ م.

عِلْيةِ القومِ بهذا المستوى المتردّي - كما يزعم المغرضُون - فكيف كانت نساءُ العامّة؟!

* إنَّ معظمَ ما وصلَ إلينا من قصصِ عن غرامِ المتجرّدةِ أو انحرافِها لا نقبلُه في ميزان المنطق ، حيث إنَّ نساءَ الملوكِ العرب في العَصْر الجاهليّ كُنَّ من الصِّيانةِ والأدبِ والحشمةِ في مكانٍ سامٍ ، شهدَ لهنَّ التّاريخُ بذلك ، وكذلك الآثارُ والأشعارُ والأخبارُ التي تحدَّثَ عن مجدِ المرأةِ العربيةِ ومكانتها قبل الإسلام.

- أمّا عن نهاية المتجرّدة وختام حياتها ، فلا نعلمُ شيئاً بعد هذه الحادثة وتلكم القصّة المنسوجة نَسْجاً رديئاً ، إلا أنَّ ابنَ حزم الأندلسي يُوحي في «جمهرة أنسابِ العرب» بأنّها أدركتْ عَصْرَ النّبوة ، وذلك عند ذِكْر بني قُشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة قال: «وهبيرةُ بنُ عامر بن سلمة الخير ، أسرَ المتجرّدة امرأة النُّعمان ، فلمّا عرفَها أطلقَها»(١).

* وهكذا يقفُ التَّاريخُ هنا ، فلا يحدَّثنا عن أخرياتِ حياةِ المتجرّدةِ
 المرأةِ المجني عليها ، وتسكتُ المصادرُ أيضاً فلا تحدثنا عن نهايتها.

* وتبقى المتجرّدة مثال المرأة العفيفة الجميلة في دنيا النساء المشرقيات اللواتي نشأن في الحلية ، وتنعمن بالديباج والدرّ والياقوت.

^{* * *}

⁽١) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ٢٨٩).





الباب الثابي نساءً من عصر للخضرم بين

> المخنسا، بنت عمرو سقانة بنت حاتم الفارعة بنت أيالصّلت هند بنت أثاث









المخنساء نبت عمرو

- * أميرة شاعرات عصرها ، ومن الجميلات الآسرات في قبيلتها ، مع عقل راجح ، وحَزْم واضح.
 - * رفضت الزواج من دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بني جشم .
 - * تشرَّفت بالإسلام ، وعزَّت به ، ونُظِمت في عداد الصحابيات.





أُمِيْرَةُ شَاعِرَاتِ عَصْرِها:

* كَانَ الشِّعرُ العربيُّ يذيعُ وينتشرُ ، ويتخطّىٰ الفيافي والآفاق ، وكان يحفظُه ويرويهِ جيلٌ بعد جيْلِ ، ويحفظُه الرّجالُ والنّساءُ على السَّواء.

* وقد نبغتْ نساءٌ منَ المشرقِ العربيّ في هذا الفنِّ ، ورويْنَ الشَّعْرَ وأنشَدْنَه وقُلْنَه ، واشتُهرتْ منهنّ طائفةٌ غير يسيرةٍ في العصر الجاهليّ ، وما تلاه من عصورِ إلى وقْتِنا الحاضر.

* فالعربُ أمّةٌ شاعرةٌ بليغةٌ، وكان العربُ يعتزّونَ بشعْرِهم أيّما اعتزاز، ويتّخذونَه وسيلةً لِتَخليدِ مآثرِهم، والإشادةِ بفضائِلهم، والإشارةِ إلى محامدِهم، قال لُوبُون: «ولم يكنْ منَ اللغو أنْ نقولَ: إنَّ العربَ قرضُوا وحدهم منَ الشَّعْر - في الجاهلية والإسلام - أكثرَ ممّا قرضته أممُ العالَم مجتمعةً (١٠).

* ومع هذا الحجم الكبير من الشّعر والفيض الزَّاخر مِنْ شعْرِ الرِّجال ، لا نجدُ إلا قلّة من شعْرِ النّساءِ ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلى أنَّ كثيراً من الشّعرِ النساء عبْر الزَّمنِ ، فضاع من شِعْرِ النِّساء كثيرٌ وبقي قليل ، ولعلَّ هناكَ سبباً هو أنَّ الشَّاعرَ كان لسان قبيلتِهِ ، يذيعُ محامدها ، ويهجو خصومَها ، ولم تكنِ المرأةُ لِتَقومَ في القبيلةِ هذا المقام ، لذلكَ قلَّ في شعرِ النِّساء ذكْرُ الحروبِ والأيّامِ التي كانت منتشرةً في العَصْرِ الجاهليّ ، لذلك قلَّ شعرُ النِّساء الذي وصَلَ إلينا.

* وهناكَ ناحيةٌ أخرى ، وهي أنَّ العربَ كانوا يؤثرونَ الفحولةَ والجزالةَ في الشِّعر ، وقد وجدوا في شعْرِ الرّجال ، بينما وجدوا في شعْرِ النّساء سهولةً وليناً وضعفاً ، فلم يحفلُوا به .

حضارة العرب (ص٤١٥).

* لكنَّ هذا كلّه لم يمسحْ من تاريخِ العربِ ، ومن تاريخِ النساءِ المشرقيّات شعرهن وأدبهن وبلاغتهن وأثرهن الجميل الذي وَعَتْه أذنُ التَّاريخ الواعية ، ومن ثمَّ برزتْ وظهرتْ أسماء منهن مجليةً في ميادينِ الفضائلِ ، وميادين الأدب والشّعر والحكمةِ والمَثلِ والسِّياسةِ والحريةِ والعلْم والجهادِ ، وسائرِ ألوانِ الحياة.

* ومن بين مشاهيرِ النساء الخالداتِ يسطعُ اسمُ الخنساءِ بنتِ عمرو بن الحارث من آل الشَّريد السُّلميّة (١) ، التي نحفلُ ونحتفلُ ، ونسمعُ ونستمتعُ بسيرتها في هذه الصَّفحات ، وعبر هذا الكتابِ اللطيفِ الجميلِ.

* وللخنساءِ السُّلميَّة هذه ديوانُ شعرٍ مشهور مُتعالَمٍ بين أهلِ الأدبِ والمعرفةِ والعلْم ، حتى يجوزَ لنا أنْ نسميَها أميرةَ شاعراتِ عَصْرِها _ إنْ صحَّ التَّعبير _.

* ومن الجديرِ بالذكر أنَّ هناكَ شاعراتٌ قد اشتُهرنَ في العصر الجاهليّ

المصادر التي تحدثت عن الخنساء كثيرة جداً تبلغ المئات ، ومنها: ديوان الخنساء في طبعاته المتنوعة والمختلفة ، وانظر: زهر الآداب ((1/7/8-47/8)) ، والحماسة البصرية ((1/7/8-47/8)) ، والشعر والشعراء ((1/7/8-28)) ، والوافي بالوفيات ((1/1/8-28)) ، والاستيعاب ((1/1/8-28)) ترجمة رقم ((1/1/8)) ، والإصابة ((1/1/8-28)) ترجمة رقم ((1/1/8)) ، وأسد الغابة ((1/1/8-28)) ، وأسد الغابة الكتب العلمية ، والأغاني ((1/1/8-28)) ، وخزانة الأدب ((1/1/8-28)) طبعة دار الكتب العلمية ، وسرح الكتب العلمية ، والأغاني ((1/1/8-28)) ، وأعلام النساء ((1/1/8-18)) ، وشرح مقامات العربي للشريشي ((1/1/8-18)) ، وأعلام النساء ((1/1/8-18)) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ((1/1/8-18)) ، وأعلام النساء ((1/1/8-18)) ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ((1/1/8-18)) ، وأعلام النساء ((1/1/8)) ، وجمهرة أنساب والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (انظر الفهارس (1/1/8)) ، وجمهرة أنساب المرب ((1/1/8)) ، وديوان دريد بن الصمة ، بتحقيق د. عمر عبد الرسول حدار المعارف مصر ((1/1/8)) ، وخيرها كثير .

ومنهنّ: الخِرنقُ بنتُ بدر أختُ طرفةَ بن العبد، ولها ديوانٌ مطبوع، وكذلك جَنوبُ الهذليّة لها ديوانٌ أيضاً ، وقد ألَّفَ «المرزبانيّ» المتوفى سنة (٣٨٤ هـ) كتاباً ضخماً في ثلاثةِ أجزاء ، ويقعُ في (٢٠٠ صفحة) جمع فيه كثيراً من أشْعار النّساءِ وسمّاه «أشعارَ النّساء» ، وقد فُقِدَ هذا الكتابُ إلا جزءٌ منه صغيرٌ طُبعَ بتحقيق: د. سَامي مكّى العاني؛ وهلال ناجي منذُ سنوات ، وهو قطعةٌ من الجزء الثَّالث ، والذي يُمثِّل عُشْرَ الكتاب تقريباً؛ وهناك مؤلَّفاتٌ كثيرةٌ في أشعار النَّساء على مرّ العصور إلى وقتنا الحاضر؟ ومن المؤلَّفات المنتشرةِ المشتهرةِ في هذا الميدان: كتابُ «شاعراتُ العَربِ» جَمْعُ وتحقيقُ عبد البديع صَفْر ، وكتاب: «الشَّاعرات من النَّساء» لسليم التّنير ، وكتاب «شَاعِراتُ العَرب في الجاهليّة والإسلام» لِبَشير يموت ، وكتُبُّ أخرى كثيرةٌ جدّاً ، بالإضافةِ إلى ظهور دواوينَ كثيرةٍ لشاعراتٍ عربياتٍ من مختلفِ الأقطارِ العربيةِ من المحيطِ إلى الخليج، وهناك كثيرٌ من أشعارِ هؤلاء النّساء يمتازُ بالجمالِ وحسنِ التّركيبِ واختيارِ المواضيع المهمّة والجميلة؛ وبعضُها قد استوحَيْنَه من التّراثِ القديم، وبعضُها من واقعهن ، والمطلعُ عليها يجدُ مصداقَ ما ذكرناه.

الخَنْسَاءُ وجَمَالُهَا السَّاحِرُ:

* في بيتٍ من بيوتِ العزِّ والسِّيادةِ ، كان مولدُ تماضرَ بنت عمرو بن الحارث الملقبة بالخنساءِ ، وهذا البيتُ السُّلميُّ بيتٌ جديرٌ بالفخرِ ، حيث نجدُ الحبيبَ الأعظَم سيّدنا محمّداً عَلَيْهُ ينتسبُ إليه بقوله: «أنا ابنُ العواتكِ من سُلَيم» (١).

أ ـ تكريمُ وتمجيدُ الأُمّ المُنجِبة ، وإعلاءُ قَدْرِها ، كما نُسِبَ إلى أمّه: عمرو بن =

⁽۱) لعلّهُ منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ أنَّ العربَ منذُ القِدَمِ قد افتخروا بالانتسابِ إلى الأُم ، ولعلَّ مردَّ هذا النَّسب يرجعُ إلى أمورِ شتّى ومتعدَّدة منْ أبرزِها:

* وفوقَ أرضِ نجدٍ ، وفوقَ تربتِها كانت حياةُ الخنساء؛ وفي تلك الرَّوابي والهِضابِ نشأتُ تماضر نشأةَ البناتِ اللواتي لا يُؤْبَهُ لهنّ بادىءَ الأَمْر ، ولكنْ ما أنْ بدأتْ هذه الفتاةُ تشبُّ عنِ الطَّوق حتى لفتَتْ إليها الأنظار ، وبدا الجمالُ يظهرُ عليها ، وبدأتِ الملاحةُ ترتسمُ وتتوضَّعُ على قسماتِ وجهِها الذي غدا سَاحراً آسِراً جذّاباً ، وراحَ أهلُها وذووها يَلْمَحُون فيها شبهاً بالظَّبيةِ الجميلةِ ، إذْ يرونَ في أنفِها خَساً (۱) ، وعندها لقبوها فيها شبهاً بالظَّبيةِ الجميلةِ ، إذْ يرونَ في أنفِها خَساً (۱) ، وعندها لقبوها

هند؛ وكما نُسِبَ المناذرة إلى أمّهم: ماء السّماء وهي: ماويّة بنتُ عوف بن جُشَم ، وكما انتسب الحارثُ الأعرج إلى أمّه ماريّة ، انتسبَ الغساسنةُ إليها؛ قال حسّانُ بنُ ثابت _ رضي الله عنه _ في مَدْح جَبَلةَ بنِ الأيهم:

للهِ درُّ عصَابِةِ نادمتُهَام أَيوماً بجلَّقَ في الزَّمانِ الأوّلِ أُولاد جفنَة حسول قبر أبيهم قبر ابنِ مارية الكريمِ المفضلِ وقد نَسَبَ بعضُ الشّعراء النبي ﷺ إلى أمّه فقال:

صلّىٰ الإلـهُ علـى ابـنِ آمنـةَ التـي جـاءَتْ بـه سبْـطَ البنـانِ كــريمــا بــ الفخرُ بالأمّ لعراقتها ، كقولِ وَزَرِ بن جابر النّبهاني ، وقد رمىٰ عنترةَ بنَ شداد فقال: «خُذْهَا وأنا ابنُ سلمى» ، فتحاملَ عنترةُ بالرّمية حتى أتى أهلَه ، فقال وهو جريح:

وإنَّ ابنَ سلمى عنده فاعلمُوا دمي وهيهات لا يُرجى ابنُ سلمى ولا دمي وكثيراً ما كان يقولُ الضّارب: خُذْها وأنا ابنُ فلانة. وكان حسَّان بنُ ثابت ـ رضي الله عنه ـ يُنْسَب إلى أمّه «الفُريْعَةَ»، وقد ناداه عمرو بنُ الحارث الأعرج معجباً بشعرِه بقوله: يا بنَ الفريعة أربعَ مرّات في مجلسٍ واحدٍ.

ج_مدحُ أبنائِها بأنَّهم من نَسْلِها ، كما يُمدَحُ الملُّوك ، وأبناء المُنْجِبات.

د ــ قد تكونُ الأمُّ عظيمة الشهرة ، فَيُنْسبُ إليها بنوها ، ومن ثمَّ يشتهرون بها ، من مثل : محمّد بن عليّ بن أبي طالب المعروف بابن الحنفيّة .

ـ وهناكَ أمورٌ أُخرى كثيرةٌ لا يتسعُ المقامُ لإيرادِها هنا ، ويدركُها القارىء الفطنُ من خلال دراسته لهذا الكتاب.

(١) «الخنس»: الخنسُ: تأخر الأنفِ عن الوجْهِ مع ارتفاعِ قليلٍ في الأرنبةِ ، وهي صفةٌ مستحبّةٌ أكثر ما تكون في الظّباء وبقر الوحش.

«الخنساء» ، وكادَ هذا اللقب أنْ يطمسَ اسمَها الحقيقيَّ أو يكاد. . . . كما طغىٰ على كنيتها «أمَّ عمرو»(١).

* وانتقلتِ الخنساءُ من مراحلِ الطَّفولةِ الغضَّة البريئةِ النّاعمةِ ، إلى مرحلةِ الصّبا والشَّبابِ والجمالِ ، ويبدو أنّها كانت وحيدةَ أبويها منَ البناتِ ، وليسَ لها من الإخوةِ سوى معاويةَ شقيقِها ، وصَخْرِ أخيها لأبيها.

* ولعلَّ جمالَ الخنساءِ وملاحتَها ، وما كانت تحسُّه من عطفِ أبويها وأخويها جعلَها تعبَدُّ بنفسِها ، وتفخر بجمالِها وأسرتها ؛ ولعلَّ احتضانَ أبويها لها جعلاها ذات عواطف جياشة ومشاعرَ لطيفة ، وكذلك وهَبَاهَا من الحريّة ما أطلق لسانَها من عقاله ، فتابَعَ عقلها ، ولاحَق عاطفتَها ، والتزم حدود الأنفة والكرامة ، وتلقَّنها بعد ذلك أرضُ نجد ، لأنَّ تربتها تنبتُ البُنية القويّة ، وسماؤها تجودُ بالذِّهْنِ الصَّافي ، وهواؤها نشيطٌ ، ونسيمها عليلٌ لطيفٌ ، فاشتهرَ أهلُها بالبلاغة ، وقد ذهبوا في الشّعر كُلَّ مذهب.

الخَنْسَاءُ وخطبَةُ دُريد بن الصِّمَّة:

* بين أحضانِ الشَّرفِ ، وأرواحِ العزّة ، وبينَ أردانِ الجمالِ ، وأعطافِ الملاحةِ ، كانت نشأةُ الخنْساءِ بنت عمرو ، وزادَ من جمالِها ومكانتها كمالُ تفكيرها ، فقد عَرفَ فيها أبوها رجاحةَ العقلِ ، واتزانَ الفكْرِ ، حيث رفضتِ الزَّواج من فارسِ جُشَمٍ وبطلِها دريدِ بنِ الصِّمّة ، في الوقتِ الذي كانت كثيرٌ منَ الفتيات يرغبنَ زواجَ دريد.

* ولعلَّ هذا الرَّفض العقلانيَّ قد بُني على أساسٍ متينٍ منَ الأنفةِ والمنعةِ

⁽۱) كانت تماضُر من ذواتِ الجَمال ، ويدلُّ على ذلك تلقيبها بالخنساء ، قالت زينب فواز: «تماضرُ الشّهيرةُ بالخنساء ، وتكنى أم عمرو ، وإنّما الخنساءُ لقبٌ غَلَب عليها وهي الظّبية». (الدّرّ المنثور ص ١٠٩) ويقال: خُناس: كغُراب.

من قَبْلُ ، فطالَما صحبتِ الخنساءُ أباهَا وهو آخذٌ بيدِ ابنيْهِ: معاوية وصخر في المواسمِ وهو يقولُ: «أنا أبو خَيْرَي مُضَر ، ومن أنكرَ فليعتبر»؛ فلا ينكرُ عليه أحدٌ؛ وكانتِ الخنساءُ ترى وتسمعُ ذلك فتهتزُ نفسُها فخراً وعزّاً وطرَباً ، فهي أختُ خَيري مُضَر من غيرِ منازع.

* وطالما لمستِ الحبَّ موجوداً في بيتها يتنقلُ في أسرتها ، فهدأتْ نَفْساً ، وقرّتْ عيناً ، ونظرتْ إلىٰ الدُّنيا فرأَتْها جميلةً صافيةً حانيةً ، ورأَتُها أهزوجةً نشوىٰ على شفَةِ الزَّمانِ ، حيثُ لم يكن أخوها الشَّقيق أقربَ إليها من أخيها لأبيها صَحْر ، وإنّما الأمرُ على عكسِ ذلك تماماً ، فصحرٌ قريبٌ أليفٌ إلى قلبها أكثر من أخيها الشّقيق .

* وطالما تعودت أنْ تُدلي دلُولَها في الأمور ، وتقول رأيها ، وتبدي مشورتَها ، فَيُمْضَىٰ ويُسْمَعُ ما تقول ، هنالك تبلورت شخصيّتها ، واستوتْ على سُوقها.

* وقد ظهرت شخصيّة الخنساء جلية عندما خطبَها دريد بن الصّمة ، فقد كانت ذات حَسَبٍ وشَرفٍ وجَاهٍ ومكانةٍ ، وكانت ذات جمالٍ أخّاذ ، وتقاسيم متناسقةٍ ، ولذا فقد شبّهوها بالبقرة الوحشيّة ، فعرفَتْ ما تملكُ في يدِها من سلاحِ الجمالِ الذي يذلّ أمامَه بعضُ كبراء الرّجال . . وكانت مع ذلك عاقلة حازمة . . . وهذه الشّمائل الحِسَان جعلَتْها من شهيراتِ النّساء في العالَم النَّسوي قديماً وحديثاً.

* وزادَ من شُهرةِ الخنساءِ رفْضُها لفارسِ بني جُشَم المظفّر دريدِ بنِ الصِّمّة الذي غزَا نحو مئةِ غزوة ما أخفقَ في واحدةٍ منها ، ولكنّه أخفقَ أنْ يغزوَ قلبَ الخنساءِ بنت عمرو الجميلةِ المُلاّحة .

 « ففي ذات يوم كان دريدُ بنُ الصِّمة قربَ دُورِ بني سُلَيم ، ولما اقتربَ من مضاربهم حانتُ منه التفاتة فرأى فتاةً تعالجُ بعيراً لها بالقَطِران ، وقد

تَبَذَّلَتْ حَتَّى فَرْغَتْ مَنْهُ ، ثُمَّ إِنَّهَا نَضَتْ عَنْهَا ثَيَابَهَا ، واغتسلَتْ وهي لا تشعرُ به ، فأعجَبتْه ، وأخذتْ بلُبِّه .

* ثمّ إنّها عادت في خطواتٍ رشيقةٍ إلى بيتها وعلى وجهها علائمُ الجمالِ تشهدُ لَها ، ورآهَا دريدُ على تلكَ الحالِ فأُعْجِبَ بها أيّما إعجابٍ ، ورأى ما تخفى ثيابُها من مفاتنَ جسديّةِ فعلقَ بها؛ إذْ سرى من لفتاتِها السِّحْرُ ، وشعَّتْ من مشيتِها الفتنةُ ، وعرفَ دريدُ أنَّ هذه الحسناءَ المليحةَ الفاتنة هي تماضر بنت عمرو الملقبة بالخنساء ، وانصرفَ إلى رحلهِ ، وأنشأً يتغنّى بجمالِها ومحاسنِها ، ومهارتها في علاج بعيرِها ، ثم أخذً يلفتُ نظرَها إلى مكانتهِ في عالَم الفُرسان إذا ما اشتدَّ الخطُّبُ ، وحمىَ الوطيسُ ، واحمرتِ الحدق ، وضاقَتِ الأنفاسُ ، فيقول:

وقفُــوا فـــإنَّ وقــوفَكــم حَسْبــي حَيِّوا تُماضِرَ وارْبِعُوا صَحْبي أخُناسُ قَدْ هَامَ الفؤادُ بكم ما إنْ رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِهِ متحسّراً نضــحُ الهنّــاء بـــهِ فَسليْهِم عندى خُناسُ إذا

وأصابَه تَبُلُ من الحبِّ كاليــوم طَــالِــيَ أَينُـــقٍ جُــرْبِ يضَعُ الهِنَاء مواضعَ النُّقُب نَصْحُ العبيـرِ بـريطـةِ العَصْـب عضَّ الجميعَ الخطبُ مَا خَطبي (١)

* ويبدو أنَّ دريدَ بنَ الصِّمة قد آوتْهُ ليلةٌ مليئةٌ بالأحلام العِذاب ، ولعلَّ خيالَ تماضر لم يغادر مخيلتَه تلكم الليلة لحظةً واحدةً ، حتّى إذا تنفَّسَ

انظر: ديوان دريد بن الصمة (ص ٤٣ ـ ٤٤) والشُّعر والشُّعراء (١/ ٣٤٣) ، ومعنى: «واربعوا»: الإرباع: الاطمئنانُ والإقامةُ في المكان. و«نُحناس»: يعني الخنْسَاء رخَّمه ليستقيمَ له الوَزْنُ. و«تَبْلُ»: أَفْسَدَ الحبُّ العقلَ وذهبَ به. و«الهنَاء»: ضربٌ من القطران ، و «أينتٌ»: جمعُ ناقة. و «النّقب»: القطعُ المتفرّقةُ منَ الجربِ و«العبيرُ»: الزَّعفران. و«الرّيطة»: كلّ ثوبٍ رقيق. و«العَصْبِ»: ضَرْبٌ منَ البرود.

الصَّبح ، وتبسَّمَ الفَجْرُ ، واغروربتْ أحلامُه في تماضر ، واخضوضَرت آمالُه فيها ، أخذَ دريدٌ طريقَهُ إلى منزلِ عمرو والدِ تماضر التي لعبتْ بلبّه ، وخلبتْ فؤادَه ، وجعلته يترنَّمُ بألحانِ الغَزَلِ ، وغزلِ الأَلْحان ، وهو الفارسُ الصّنديدُ ذو الشّكيمة ، والشّدة ، والبأس.

* وفي بيتِ الخنساءِ الرفيعِ العمادِ جلَس دريدُ بنُ الصِّمة ، واستقبلَه والدُها بالتِّرحاب والبشَاشةِ ، ومرَّتْ لحظاتُ صَمْتٍ قطعها دريدُ بقولهِ مخاطباً عَمْراً والدها: «جئتُ أخطبُ ابنتَك تماضر».

فقال له عمرو والدُها(١): «مرحَباً بك أبا قرّة ـ كُنية دريد ـ إنَّكَ لَلْكريمُ لا يُطْعَنُ في حَسبِهِ ، والسّيد لا يُردُّ عن حاجتِهِ ، والفحلُ لا يقرعَ أنفه ـ لا يُعابُ ـ ، ولكن لهذهِ المرأةِ في نفسِها ما ليسَ لغيرها ، وأنا ذاكركَ لها ، وهي فاعلةٌ .

* ثمَّ دخلَ على ابنتِهِ وقال لها: «يا خنساءٌ ، أتاك فارسُ هوازن ، وسيّد بني جشم ، دريدُ بنُ الصّمة يخطبُكِ ، وهو مَنْ تعلَمين».

فقالتِ الخنْساءُ ـ ودريد يسمعُ قولَها ـ: «يا أبتِ أتراني تاركةً بني عمي مثل عوالي الرّماح ، وناكحةً شيخ بني جُشم ، هامة اليوم أو غد»؟!

 « فخرج إليه أبوها وقال له: «يا أبا قرة ، قد امتنعَتْ ، ولعلَّها أنْ تجيبَ فيما بعد».

فقال له دريدُ: «قد سمعتُ قولكما» ثمَّ انصرفَ.

* وتشيرُ بعضُ الرّوايات (٢) إلى أنَّ معاوية أخا الخنساء كان صديقاً

 ⁽١) يبدو أنَّ أمَّ الخنساءِ قد ماتتْ قبلَ أنْ تتزوّجَ الخنساء ، لأنّنا لا نسمعُ لها صوتاً ،
 ولا رأياً في خطبةِ الخنساء ، أو زواجها.

⁽٢) انظر مثلاً: الأمالي (٢/ ١٦١) طبعة دار الكتب المصرية.

لِدُريدِ ، فأراد أَنْ يجاملَ دُريداً ، فحاولَ معَها ولكنها رفضَتْ ذلك أيضاً ، ووجدتْ إلىٰ جانبها أخاها صخراً يعطفُ عليها ويغمرها بفيضِ حنانِهِ.

* فقد جاء في كتابِ «الأمالي» ، و «شرح ديوان الخنساء» لأبي العبّاس ثعّلب ، وغيرهما من مصادر قصّة ذلك ومفادها: «كان دريدُ بنُ الصمة الجُشَمي صديقاً مصافباً ومؤاخياً لمعاوية بن عمرو أخي الخنساء ، فخطبَ إليه الخنساء أخته ، فقال له: يا فارسَ الأبطالِ ، إنَّ مثلَ الخنساء لا يُفتاتُ _ يُكذبُ _ عليها بأمرٍ ، وأنا طالبٌ ذلك إليها.

* فانطلقَ معاويةُ ، وأتاها مشرعاً وهو راكبٌ ، فلمّا رأته الخنساء قالت: إنّي لأرى فخذه بارزةً ، وما ذلكَ إلّا لأمرٍ مُهم.

* فلمّا انتهى إليها قال لها: يا أُخية ، قد عرفْتِ الذي بيني وبينَ
 دريد بنِ الصّمة ، وإنّه خطبكَ إليّ ، فأحبُ أن تسمعيني وتتزوجينَهُ.

قالت: ما وجدتَ شيئاً ترضى به صديقَك غيري؟!

قال: يا أُخية ، إنّى أحبُّ أنْ تفعلي.

قالت: هل بقيَ منه شيءُ؟! ثم أردفتْ قائلةً: أنظرني حتى أشاورَ نفسي؛ ثمّ قالت: أرسلهُ إليَّ.

* فرجع معاويةُ إلى دريد، فقال له: انطلقْ إليها، فإنَّها قد أمرتني بذلك.

* فركبَ دريدٌ فرساً ، ولبسَ حُلَّة له ، ثم أقبل إليها فنزلَ ، فأمرتُ بوسادةٍ ، فأُلقيتْ له ، ثم أخذتْ تحدّثه وتسائله ، ثمّ دعَتْ بلبنِ فسقَتْه ، وامتحنته (١) ، فلم يرضها ، فأمرتْه بالانصراف .

⁽١) وفي رواية أنَّها سقَتْه اللبن ، وجعلتْ تحبسُه حتى أتاهُ البول ، فلما نهضَ ليبولَ ، =

فقال: علام أنصرفُ؟!

فقالت: سيأتيك رأيي.

* فانصرفَ دريدٌ ، ثمّ إنّها أرسلتْ إليهِ تقول: إنَّكَ شيخٌ كبيرٌ ، قد ضَعُفَ بصرُكَ ، وذهبَ ذَفَرُكَ _ طِيْبُكَ _ ، وكبرتْ سنُّكَ ، وولِّى شبابُك ، فلا حاجة لنا بك.

* فأرادَ معاويةُ أنْ يكرهها على الزَّواج من دُريد ، فقالت في ذلك :

لقد أَوْدى الرزَّمانُ إذاً بِصَخْرِ بما آلى مُعَاوية بن عَمْرو لقد أَوْدَى الـزَّمـانُ إذاً بِصَخْـر وقد أصْفَحْتُ سيّدَ آلِ بَدْر وهمم أكفاؤُنا في كملِّ شُرِّ قصِيرُ الشُّبْرِ من جُشَم بن بكُرِ إذا أغْذَى الجليسَ جَرِيمَ تَمْرِ إذاً أَصْبَحْــتُ فــي ذلِّ وفَقْــرِ تَخَفَّىٰ جَمْعُهم في كُلِّ جُحْرِ(١)

لئن لم أوتَ من نَفْسى نَصيباً أيُـوعُـدنـي حُجَيّـةُ كُـلَّ يـوم لَئِنْ أَنكحتنى غَصْباً دُريداً أتكرِهُني هُبلْتَ علىٰ دُرَيْدٍ وهم أَكْفَاؤُنا في كُلِّ خَير معَاذَ اللهِ يَرْضَعُنِي حَبَرْكَيٰ يَـرىٰ شَـرَفاً ومَكْـرُمـةً أتَـاهـا لَئِنْ أَصْبَحتُ في جُشَم هَـديّـاً

بعثتْ بجاريتها ، فقالت: انظري إلى بولهِ أيخذُّ الأرضَ أمْ يطفو؟ فرجعتِ الجاريةُ فأخبرتها أنّها رأته طافياً ، فقالت: ليس عنده شيءٌ. .!! فأمرته بالانصراف. (شرح ديوان الخنساء ص ٢٢٠ ـ ٢٢١).

انظر: الأمالي (٢/ ١٦١) ، وشرح ديوان الخنساء (ص ٢٢٠ ـ ٢٢٢) مع الجمع والتّصرف. ومعنى «حجيّة»: لعلّه لقبٌ تهجو به دريداً وتسخرُ منه. و«حبركي»: غليظ الظُّهر ، قصير الرّجلين ، ويُقال معناه: القراد. و«جريم تمر»: اليابسُ منه. و «هديّاً»: الهديُّ: العروس ، و «تخفى جمعُهم في كل جُحر»: كناية عن الضّعف والجبن والهرب من وجه المقاتلين.

* ورفضتِ الخنساءُ بأنفةِ وإباء هذا الزَّواج غير المتكافى، وقهرتْ مَنْ قهرَ الفرسانَ في حومةِ الميدان ، بل أسرتْهُ بجمالِها الفاتن ، فلا يستطيعُ أنْ يفعلَ إزاءها شيئاً . . . وينصرفُ الفارسُ الجشَمي الحبركى خالي الوفاض ، لا يمتلكُ إلا نفتَاتِ أشْعَارهِ يرسلُها ، ويتسلّى بها ، أو يسلو بها عمّنْ سلقَتْه بألسُن أَشْعَارِها الحِداد .

* أمّا الخنساءُ ، فقد كانت في حَالِ المنتصرِ الظَّافرِ الفائزِ ، فهي المليحةُ الملاحةُ التي تعتزُّ بجمالها وصبَاها الغضّ ، وترفضُ الشَّيخَ الكبيرَ الذي أكلَ عليهِ الدهرُ وشرب ، وإنْ كانَ سيّداً في قومهِ ، جليلَ القَدْر ، فهي لا تدفع بمستقبلها لتقبلَ أوّلَ طارقِ يخطبُ ودَّها ، وأبَتْ أن تبيعَ جَسَدَها متعةً لغيرِها ، حيث لم يلفتْ نظرَ دريد سوى مفاتنِ جسمِها ومحاسنها ، ثم هناك فارقٌ كبيرٌ في السّنّ بينهما؛ فهي في زهرةِ شبابها وذروتهِ ، وهو شيخٌ كبيرٌ أكلته السّنون وأَضْنَتُهُ الأيّام ، فكيف يلتقيان والفارقُ بينهما واسعٌ ، عميقُ الغور؟!

* لذا رفضتِ الخنساءُ ، وأَبَتْ هذا الزَّواج ، وهي تعلمُ مكانةَ دريدٍ الاجتماعيةِ والشّعرية ، وعلمتْ أنَّ رَفضَها له ربّما يعرضها للتّشهير بها ، ولكنّها الحياةُ حياة الحرية التي كانت تَزِنُها بعقلِها ، لا بعواطِفها أو بطيشِ الفتياتِ اللائي هُنَّ في سِنِّ مثل سنّها .

* وبالفعلِ غضبَ دريدُ بنُ الصّمة لرفْضِ الخنساءِ له ، وزاده غضباً أنّ كلّ الشُّبل التي حاولَ من خلالِها أنْ يصلَ إلى قلبها كانت موصدة ، ولم يَلِنْ قلبها ، فشهَّرَ بها تشهيراً لاذعاً ، وقال يهجوها بقصيدةٍ سينيّةٍ طويلةٍ مطلعُها:

لِمَنْ طَلَلٌ بذاتِ الخمسِ أَمْسىٰ عفًا بيَن العَقيقِ فَبَطْن ضِرسِ

* ومنها قولُه:

وَقَاكِ اللهُ يا بُنَةَ آلِ عَمْرِهِ فَلا تَلِدي ولا ينْكَحْكِ مِثْلِي وتنزعُم أنّني شيخٌ كبيرٌ لقد علمَ المراضعُ في جمادى بأني لا أبيت بغير لحم وأني لا ينالُ الحيّ ضيفي

من الفِتْيانِ أَمْثالي ونَفْسِي اِذَا مَا لَيْكَةُ طرقَتْ بنَحْسِ اِذَا مَا لَيْكَةُ طرقَتْ بنَحْسِ وهَلْ خَبَرتُها أنّي ابنُ أَمْسِ إِذَا استعجلْنَ عن حزّ بنهسِ وأبدأ بالأراملِ حين أُمْسي وأبدأ بالأراملِ حين أُمْسي ولا جاري يبيتُ خبيت نَفْسِ

* ومنها:

ومَا قَصُرَتْ يَدي عن عُظْمِ أَمْرٍ وما أنَا بالمُزَجِّىٰ حين يَسْمو

أَهُــمُّ بــه ولا سَهْمــي بنكُــسِ عظيـمُ في الأُمـورِ ولا بـوهْـسِ(١)

* ويبدو أنَّ الخنساءَ قد وصلتْ إليها سينيةُ دريدِ في التّعريض بها ، وبفخره بنفسهِ ، ولكنَّها قابلَتْ ذلك بهدوء ، وبابتسامةِ لطيفةِ بسيطة ، وقيل لها: «يا خنْساء ألا تجيبين دُريداً إذْ هَجاك»؟!

فقالت: «لا أجمعُ عليه أنْ أردَّه ، وأنْ أهجوه» (٢).

⁽۱) انظر: ديوان دريد بن الصمة (من١٥ - ١٢٠) والقصيدة تعد (١٩ بيتاً) ، وانظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم للحسن البوسي (٣/ ١٩١ - ١٩٢) تحقيق د. محمد حجي ود. محمد الأخضر - دار الثقافة - الدار البيضاء - المغرب - ط١ - ١٩٨١ م. ومعنى: «ذاتُ الخمس»: اسم مَوضِع؛ و«بطنُ ضرس»: جبَلٌ في ديارِ عَبْسِ؛ و«ابنة عمرو»: الخنساء؛ و«نخس»: الجهدُ والضّر. و«جمادى»: شدّةُ البردِ وهو وقتُ القَحْطِ والجدبِ في البوادي. و«حَزّ»: الحزّ: قطعُ اللحم. و«نَهْس»: نَهَسَ اللحم: انتزَعَه بالثّنايا للأكلِ؛ والمعنى: ينهسنَ اللحم في عَجَلٍ دونَ ريثِ لحزّه وقطعه من شدّة الزّمن ، و«خبيث نفس»: أي ثقيلُها كريهُ الحال؛ و«المزجّى»: الرّجل النّاقصُ المروءة والدّون عن كلّ شيء؛ و«وَهْس»: الوهسُ: هو الموطوء الذليل.

* أمّا دريدُ بنُ الصّمة فلم يطقُ أنّها رفضتُ خطبتَه لها ، وإنّما ثارَ على اعتزازِها بنفسها ، وسفّه رأيها في عدم قبوله زوجاً لها ، فأطلق عنانَ لسانه بهجائِها وإيذائِها ، فقال في تهكّم: وقاكِ الله يا بنة عمرو وكلمةُ وقاكِ الله أو حفظك الله وكلمةُ ظاهِرُهَا الدُّعاء ، وباطنُها السُّخريّة والاستهزاء ، ثم يتحدّث عن سجاياهُ ومنها: الكرمُ ، والرّحمةُ ، وحسنُ الأحدوثةِ ، وإذا كان أمرُهُ كذلك ، فَلِمَ امتنعتِ الخنساءُ من اتّخاذه زوجاً لها؟! هل لأنّه شيخٌ كبيرٌ؟ فالمقياسُ عنده ليسَ بالسّنّ ، وإنّما بالوجاهةِ والثّراءِ والشُهرة والمكانةِ بيد أنّ الخنساءَ تَغْفُلُ عن هذا كُلّه وتتجاهله وتريدُ لنفسِها شاباً ، ولا يهمُها هذا الشّيخ وإن كان فارساً شُجاعاً جَسوراً لم يخطىء سَهْمُه ، وهو مرموقٌ أينماكان ، وحيثما نزلَ الميدان .

* وهكذا اتّخذتِ الخنساءُ قرارها بنفسِها ، ورفضتْ دُريداً وقوله :

أنُحناسُ قد هَامَ الفؤادُ بكم وأصابَه تَبْلٌ من الحُبِ

* رفضتْ هذا كلّه لتكونَ سيّدة نفسِها ، ولتظهرَ شخصيّتها واضحةً بين نساءِ المشرقِ العربي اللواتي نعتزُّ بهنّ في كلّ زمانٍ ومكَان.

في رحَابِ الزَّوَاجِ:

* لم يَطُلُ مَقَامُ الخنساءِ في بيتِ أبيها بعد قصّة رفْضِها دريد بن الصّمة ، وهناك أقبلَ أحدُ فتيانِ قومها ، واسمُه رواحةُ بنُ عبد العزّى السُّلميّ ، فخطبَها ، فقبلَتْه زوجاً لها(١).

الخنساء ، لأنها تعلمُ أنَّ دريداً مغضَبٌ ، وأنه حليفُ قبيلتها ، فقابلتْ هجاءَه اللاذع بالصَّفحِ الجميلِ ، وكذلك بالمسامحةِ ، علماً بأنها تستطيعُ أن تردَّ الإساءةَ بأنكى وأشد.

الشعر والشعراء (١/ ٣٤٤).

* وذكر ابنُ قتيبة (١) هذا فقال: «فخطبَها رواحةُ بنُ عبد العزى السُّلميّ، فولَدتْ له عبد الله وهو أبو شَجَرة (٢).

* وتذكرُ بعضُ المصادرِ والمراجعِ أنَّ رواحةَ بنَ عبد العزّى هذا شابٌ جاهليٌ ، يلهو لهوَ الشّبّان الجاهليين الذين كانوا يجدونَ متعتَهم وروحَ حياتِهم ، وحياةَ روحهم في شيئين لا ثالث لهما: الخمرةُ ، والمرأةُ . . .

(١) المصدر السابق عينه.

(٢) «أبو شجرة»: يُقال: اسمُه سُلَيمُ بنُ رواحةَ بنِ عبد العزّىٰ السُّلَميّ ، أو عبدُ الله بنُ رواحة ، واحة ، ولذا فَقَد نشَأ شُجاعاً معتدّاً بنفسِه ، وكانَ مِقْداماً فارسِاً ، قال في قتالِ بني فِهْر:

فَلُو سَأَلُتْ سَلَمَىٰ غَداةً لقائِنًا عَداقً المَائِلًا لو نأيتُها لقَاءً بني فِهِ وكانَ لقاؤُهِ مَا عَداقً الجوارِ حاجةً قد قضيتُها صبرتُ لهم نفْسِي وعرجْتُ مُهرتي على الطّعن حتّى صار ورداً كميتُها وكان الطّعانُ في لؤي بنِ غالب غداة الخُول حاجةً فقضيتُها

- وكان أبو شَجرة هذا جاهليّاً تفتنُه الحياةُ الجاهليّة ، ثمّ أسلمَ مع سُليم حين أسلَمتُ ، وارتدَّ مع من ارتدَّ. قال الطّبريُّ: «وقد كان لحقَ فيمنَ لحقَ من بني سُليم بأهل الرّدة أبو شجرة بنُ عبد العزى ، وهو ابنُ الخنساء». وذكر الطّبري أيضاً شِعراً لأبي شجرة يدلُّ على بلائِه في الحربِ ، ومع جيشِ خالد ، فقال من أبياتٍ مطلعها:

صَحا القلُّبُ عن مي هواهُ فأقصرا وطلَّاوعَ فيها العاذلين فأبْصَرا ومنها:

سَـلِ النَّـاسَ عنّـا كـلَّ يـومِ كـريهـة إذا مــا التقينــا دارعيــن وحُسَّــرا وآخرها:

فروّيتُ رمحي من كتيبةِ خاليه وإنّي لأرجو بعدها أنْ أعمّرا و وذكر «المبرّد» في «الكامل» قال: «أتى أبو شجرة عمرَ يستحلّه، فقال له: مَنْ أنت؟ قال: أنا أبو شجرة السُّلمي. فقال: يا عدوّ نفسه، ألستَ القائل: فرويتُ رمحي من كتيبةِ خالد... ثم لخفَ _ أهوى _ عليه بالدّرة، فهربَ وركبَ ناقته وهو يقول:

قــد ضــنَّ عنــا أبــو حفــصِ بنــائلــهِ وكـــلّ مختبـــطِ يــــومـــــاً لــــه وَرَقُ (الإصابة ٢١/١٩١_١٩٠) ، و(تاريخ الطبري ٢٦٦/٣) مع الجمع والتصرف. * بيد أنَّ رواحة كان لَهْوُهُ الميسرَ ، فهو مُنى أملهِ وأملُ مناه ، وهو روحُه التي بين جنبَيْه ، يبذلُ منْ أجلهِ ما جمعَه ويجمعُه منَ المالِ ، ثمّ يبدّده ويتلفُه في داءِ القِمار ، ذلك الدّاء الرّهيب الذي لا بُرْءَ منه ولا شفاءَ ، وخصوصاً إذا تمكَّن من نفسِ المُقَامِر ، نسألُ اللهَ اللطف.

* وحاولتِ الخنساءُ المرأةُ العاقلةُ أَنْ تَأْخَذَ بِيدِ زُوجِها إلى جادّةِ الصَّواب، وأَنْ تهذّبَ سلوكه، وأَنْ تنقذَه من هذهِ الوهدةِ القاتلةِ الرهيبةِ ، ولكنَّ محاولاتها ذهبتْ أدراجَ الرّياح.

* وتابعتِ الخنساءُ طريقَ الإصلاح ، ولم تقنط ، وحاولتْ أنْ تمسكَ _ هي _ عليها زوجها ، وضحّتْ في سبيلِ ذلك كثيراً ، لدرجةٍ جعلَتْه يُغالي في انحرافِهِ وإغراقِهِ في الميسر ، واستغلَّ شدّة حرصها عليه أسواً استغلالٍ وأقبحه ، فابتزَّ بذلك مالَها ومالَ أخيها ، وكان كلّما فرغَتْ يده ، أظهرَ لها الضّيق بحياتِهِ معها ، والتّبرم بها ، فهمَّ بالرَّحيل عنها ، ولكنّها تتشبَّتُ به وتقولُ له: «أَقِمْ ، وأنا آتي صَحْراً فأسأله».

* وتُضطرُ الخنساءُ إلى الاستعانةِ بندى أخيها صخر وجودِهِ وسخائِهِ ، فقد كان يُعطيها ما تريدُ؛ وتروي القِصصُ التي وصلَتْ إلينا عنه أنّه كان يقسمُ ما عنده مناصفة بينهما ، ويقدّمُ لها خيرَ نصفٍ بكلّ أريحيةٍ وطيبِ نفْس؛ وكان يشعرُ بالسَّعادةِ العارمةِ تغمرُ نفْسه وهو يجودُ بمالهِ على أختِهِ الخنساء ، ولا عجبَ ، فللسَّخاء لذّةٌ صارخةٌ لا يدركُها إلاّ الأجواد ، كما أن السَّخاء ثوبٌ يُلْبِسه اللهُ مَنْ أرادَ مِنْ عبادِهِ وخَلْقِهِ .

* ويقيمُ هذا الزَّوجُ المتْلافُ المضياعُ للمالِ كلَّما امتلاَّتْ يداهُ من الغِنى؛ ولَعلَّ رواحَة هذا قد راقَتْ له هذه العملية ، فكان يتْلِفُ ما تحملُ الخنساءُ من أخيها من المالِ ، ثم يجيئها صفْرَ اليَديْن خالي الوفاض....

وتعاودُ الخنساءُ الكرةَ بالذَّهاب إلى أخيها صَخْر ، فيقسمُ مالَه شطرَيْن أيضاً ، حتى فعلَ ذلك مرَّات.

* ذكرَ صاحبُ «العقدِ الفريدِ» قصَّةً جرَتْ بين أمِّنا عائشة بنت أبي بكر الصِّديق _ رضي الله عنهما _ ، وبين الخُنساء ، في صِدار (١) من شَعَرٍ كانتِ الخنساءُ تلبسُه (٢) حزناً على أخيها فقال: «دَخَلَتِ الخنساءُ على عائشةَ أُمِّ

(٢) كانتْ ملابسُ المرأةِ في العَصْر الجاهليّ كثيرةُ ومتنوعةً ، ومعروفةً في أشعارِ العَرب ، ومنها:

١ ـ «المِرْطُ»: وهو كساءٌ من صوفٍ أو خز ، ويبدو أنَّ ذيلَه كان طويلاً ينسحبُ على
 الأرض كما يقول امرؤ القيس:

خَـرَجَـتُ بهـا أمشـي تجـرُّ وراءَنـا علــيْ أثــرينــا ذيــلَ مِــرطِ مــرجَّــلِ ــوقد ذكرَ المِرط والريطة المنتخلُ بنُ عويمر الهذليّ عندما قال:

فَحُـــورٌ قـــد لهـــوتُ بهـــنَّ حينـــاً نــواعِــمُ فــي المــروطِ وفــي الــرِّيــاطِ ٢ ــ «الرّيطة»: وهي الملاءةُ من نسجِ واحدٍ ، وقطعةٍ واحدةٍ ، وهي كلّ ثوبٍ ليّنٍ رقيقٍ. قال الأعشى:

والسَّاحبات ذيـول المِرط آونـة والرّافلات على أعجازها العِجَل ٣ ـ «الصَّدار»: وهو ما تلبسهُ المرأةُ على صَدْرها ، قال عروةُ بنُ الورد في فخره بسباياهم من طيّىء:

ترى كُلّ بيضاء العوارضِ طَفْلةً تُفَرَّىٰ _إذا شالَ السَّماكُ _ صِدارَهَا _ وكانتِ المرأةُ الحزينةُ تتخذه من شَعَرٍ ، كما فعلتِ الخنساءُ تحقيقاً لقول أخيها صخر:

وَلَـو هلكـتُ خَـرَّقَـتُ خمـارَهَـا واتّخــذَتْ مِــنْ شَعَــرِ صِــدَارَهَــا ٤ ــ «الجُبّة»: وهي ثوبٌ واسع ، ويظهرُ أنَّ الجبّة كانَتْ منْ ملابسِ الإماء ، وقد ميّزوا الإماءَ بالجُبَبِ.

٥ ـ «السَّابري»: ثوَّبٌ رقيقٌ جيّد ، قال امرؤ القيس:

تَصِدُّ عَن المَأْسُورِ بَيْنِي وَبِينَها ﴿ وَتُدنِّي عَلَيَّ السَّابِرِي المُضَلَّعَ =

⁽۱) «الصِّدار»: بكسر الصَّاد: ثوبٌ رأسُه كالمِقْنَعة ، وأسفلُه يغشىٰ الصَّدر والمنكبين ، تلبسُه المرأة ، وكانتِ المرأةُ الثّكلي إذا فقدَتْ حميمَها ، فأحدّتْ عليه ، لبستْ صِداراً من صُوفٍ. (لسان العرب).

المؤمنين ـ رضي الله تعالى عنها ـ وعليها صِدارٌ منْ شعرٍ قد استشعرتُه إلى جلْدِها ، فقالت لها: ما هذا يا خَنْساء؟! فو اللهِ لقد توفي رسولُ الله ﷺ فما لبسْتُه.

قالت: إنَّ له معنى دعاني إلىٰ لباسهِ ، وذلك أنَّ أبي زوّجني سيّد قومه ، وكان رجُلاً متلافاً ، فأسرفَ في مالهِ حتى أنفدَهُ ، ثم رجعَ في مالي فأنفذَهُ أيضاً ، ثمَّ التفتَ إليَّ فقال: إلى أين يا خنساء؟

قلتُ: إلى أخى صخر..

قالت: فأتيناهُ ، فقسمَ مالَه شَطْرَيْن ، ثمَّ خيّرنا في أحسنِ الشَّطرين ، فرجَعْنا من عنده ، فلم يزلُ زوجي حتى أذهبَ جميعه ، ثم التفتَ إليَّ فقال لي: إلى أينَ يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صخر. .

قالت: فرَحلْنا إليهِ، ثم قسَّم مالَه شطريْن، وخيّرنا في أَفْضَلِ الشَّطرين، فقالت له زوجته: أما ترضى أَنْ تشاطرهم مالكَ حتى تخيرهم بين الشَّطرين؟ فقال:

^{7 - «}الحِبَرَةُ»: وهي ضربٌ من برود اليمن ، وهي أيضاً البرد الموشى.
٧ - وهناك أيضاً أنواع كثيرة ، منها: «اللّفاع والمِلْحَفة». وهو ما تتلفّع به المرأة ، وهو (الشّال) في عصرنا. و «النّطاق والمِنْطقة» ، وهي شقة تلبسها المرأة ، وتشدّ وسْطَها ، وكانت أسماء بنتُ أبي بكر - رضي الله عنهما - تسمّى ذات النّطاق ، أو ذات النّطاقين. و «البَثُ» ، وهو الطّليسان من خزّ ونحوه. و «الحُلة»: وهي إزار ورداء ، و «البُرْد»: هو الثّوب الموشّى ، و «الكساء» الذي يُلتحفُ به. و «المِعْرَض» الثوب تُعرضُ فيه الجارية وتُجلى. و «البُرنُس» كل ثوبٍ رأسُه ملتزق به ، درّاعة كان أو جبّة أو ممطراً ، وهو أيضاً قلنسوة طويلة ، وكان النّساء يلبسنها في صَدْر الإسلام.

⁻ أمّا ألوانُ هذه الملابس ، فأكثرُها شيوعاً اللونُ الأحمر ، وكان اللونُ الأحمر شعارَ الملوكِ والأشرافِ ، وكانت أمّنا عائشة رضي الله عنها تحبُّ من ألوانِ الملابسِ الأحمرَ والمُعصفَر.

وَاللهِ لا أَمْنَحُهِ الشِرَارَهَ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ ا

* ولعلَّ حياةَ الخنساءِ لم تكنْ طويلةً مع رواحةَ هذا ، فهي لم تنجبُ منه سوى ابنها أبي شجرة.

* وتسكتُ المصادر بعد ذلك؛ ثمّ تحدثنا عن زواجها من مرداس السُّلمي، قال ابن قُتيبة في «الشَّعر والشَّعراء»: «ثم خلفَ عليها مرداسُ بن أبي عامر السّلمي»(٢).

* ولا نعرفُ السَّبب الذي جعلَ مرداساً يتزوِّجُ الخنساء بعد رواحة ، وأغلبُ الظَّنَّ أنَّ رواحة (٣) خرجَ يطلبُ المالَ في بعض الغاراتِ فلقيَ حتفه

ما بأيدي الناس.

⁽۱) انظر: العقد الفريد (۳/ ۲٦٦_ ۲٦٧)؛ وانظر: الشعر والشعراء (۱/ ٣٤٥_ ٣٤٦)، وشرح مقامات الحريري (۱/ ٣٤٩_ ٣٥٠).

⁽Y) الشعر والشعراء (Y(٣٤٣)).

⁽٣) ممّا تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ اتهامَ رواحةَ زوجِ الخنساءِ بالمقامرة أمْرٌ لمْ تذكرُهُ المصادرُ القديمةُ ، ولم تُشِرْ إليه ، فلم يذكر ابنُ قتيبةَ في «الشّعر والشّعراء» ذلك ، ولا ابن سلام في «طبقات فحول الشّعراء» ، ولا الأصفهانيُّ في «الأغاني» ، وكذلك بقيةُ المصادر التي ترجمت للخنسّاء؛ بينما تذهبُ الدكتورة بنت الشَّاطيء إلى أنَّ داءَ المقامرةِ قد استفحلَ برواحةَ بعد الزَّواجِ فتقول: «لعلّنا لا نخطيءُ الظَّنَّ إذا زعمنا أنَّ داءَ المقامرة لم يستفحلُ برواحةَ إلا بعد أنْ تزوَّجَ» (الخنسّاءُ ص ٢٩) طبعة القاهرة ١٩٥٧ م. ولم نجدْ في شعرِ الخنساء ما يدلُّ على ذلك ، وكلُّ ما في الأمْر أنَّ رواحةَ كان كريماً قد صَفِرَتْ يداه ، وهمَّ أنْ يرحلَ سعياً وراءَ المال ، فوجدت الخنساء أنَّ كريماً قد صَفِرَتْ يذاك ، فطلبتْ منه أنْ يقيمَ ، وستجدُ من أخيها صخرِ العونَ الوقتَ غيرُ مناسب آنذاك ، فطلبتْ منه أنْ يقيمَ ، وستجدُ من أخيها صخرِ العونَ والنّجدة ، فليسَ من المعقول أنْ يعيشَ هذا السَّيد على الاستجداء أو السّؤال. وواو رجعنا قليلاً _ قبل صفحات _ لألفينا أنَّ الخنساءَ قد رفضت دريدَ بن الصّمة واعتزَتْ بنفسِها ، فليسَ من المعقول أنْ تقبلَ الخنساءُ زوجاً مثل رواحة يطلب واعتزَتْ بنفسِها ، فليسَ من المعقول أنْ تقبلَ الخنساءُ زوجاً مثل رواحة يطلب

وماتَ عنها. ولعلَّ هذه الفترة القصيرة التي قضتُها الخنساءُ مع رواحةَ لم تكن مؤثّرةً في حياتها تأثيراً يجعلها تنفعلُ بموتهِ فترثيه وتذكره في شِعْرها ، كما فعلَتْ فيما بعد بمرداس بن أبي عامر الذي رثَتْهُ.

* وهكذا تزوَّجَتِ الخنساءُ بعد رواحةَ رجلاً جواداً هو مرداسُ بنُ أبي عامر السُّلمي ، وكان مرداسُ سيّداً معروفاً يلقَّبُ بالفيضِ (١) لِسَخائِهِ وجودِه وكرمهِ.

* كان مرداسُ ذا ثراءِ عريض ، يفيضُ به علىٰ المحتاجين ، وعلى سائليهِ ، وكان رجلَ جدِّ وعملِ ، يهتبلُ كلّ فرصةٍ ليوفّرَ من خلالها أسباب الحياةِ السَّعيدة لأسرته ، حتى ماتَ في إحدىٰ مغامراتِهِ تاركاً الخنساء ، وأربعة أولاد هم: العبّاسُ ، ويزيدٌ ، ومعاوية (٢) ، وابنة اسمها عمرة.

* وهكذا عاشتِ الخنساءُ مع مرداس بن أبي عامر حتى وافتهُ المنيّة وماتَ ، وتهتزُّ الخنساءُ لفَقْدِه اهتزازَ الحزين ، فرثتهُ بقصيدةِ لاميّةٍ رائعةٍ تُعدُّ من عيونِ أشعارِها في المراثي ، حيث راحت تعدّدُ شمائله ، ومَالَه من حبّ في قُلوبِ أهلِ بيته جميعاً ، لما اتَّصَف به من سماحةٍ وندى وحدبِ عليهم ، ولما اتّصف به سيّدٌ وفارسٌ في قومه ، وحيث فضَل النّاس بحلمهِ ودماثةِ خُلقِهِ وحبّه للنّاسِ ، بالإضافةِ إلى شجاعته ، وفي ذلك تقول: ألا اخْتَارَ مرداساً على النّاس قاتِلُهُ ولَو عَادَهُ كَنّاتُهُ وحَلائِلُهُ وَلَو عَادَهُ كَنّاتُهُ وحَلائِلُهُ وَلَو عَادَهُ كَنّاتُهُ وحَلائِلُهِ

 ⁽۱) قالت الخنساء ترثي مرداساً ، وتذكره بلقبه الفيض:
 والفيضُ فينا شِهَابٌ يُسْتَضاءُ بهِ إنّا كـذلـكَ منّا تخررجُ الشُّهُ بُ
 وقالت أيضاً:

لِيَبْسكِ الفيضَ مِرداساً سُلَيم أولو أحسابِها وأولُو نُهاهَا وخَيْسلِ قَد لَفَقْتَ بِجَمْع خَيْسلِ فَدارَتْ بين كبشَيْها رَحَاهَا (٢) ذكر ابنُ حزم في «جمهرته» أنّهم أربعةُ أولادٍ وهم: العبّاسُ ، وجزءُ ، ومعاويةُ ، وهُبيرةُ ، وكذلك صاحبُ «الاستيعاب» ، بينما لَمْ تُؤكّذ بقيّةُ المصادرِ هذا العدد ، لذلك اضطربت بعض الأخبار في هذا المجال ـ كما سنرى بإذن الله ـ .

وقلْن ألا هَلْ منْ شِفَاء يَنالُهُ وقد منع الشِّفاء مَنْ شَدَّ قادِراً فلمّا رآهُ البدرُ أظلم كاسِفاً رنيناً وما يُغْني الرّنينُ وقد أتى وفَضَّل مِرداساً على النَّاس فَضْلُه وأنْ ربَّ واد يكرهُ القومُ هَبْطَهُ تركْت بهِ ليلا طويلاً ومَنْزِلاً وسَبي كآرامِ الصَّريمِ حوْيتَهُ فعدْتُ عليهِ بعد بُوسي بأَنْعُم متى ما تُعادِل مَاجِداً تعتدل بهِ المخَنْسَاءُ وابنتها عَمْرة :

وقد عَلِقَتْ هند بنَ عمرو حبائله (۱) وقد عَلِقَتْ هند بنَ عمرو حبائله (۱) أرَنَّ شَوَانٌ برقَهُ فَمَايلُه بنغشِكَ مِنْ فَوقِ القُريّةِ حامِلُه وأنْ كُلّ هم همّه فهو فَاعِلُه هبَطْتَ وماءِ مَنْهَلِ أنْتَ نازِلُه تعاوى على جنبِ الطّريق عَواسِلُه خلالَ رجالٍ مُسْتكين عواطِلُه وكلُّهم يُثني به ويواصلُه وكما عَدَلَ الميزانَ بالكف ثاقلُه (۲)

* تذكرُ المصادرُ أنَّه كانَ للخنساءِ أربعةُ بنين ، وهذا ما ذكروه علىٰ لسانِها في خطبةٍ نسبوها لها ليلةَ القادسيّة إذْ ثحتُّهم علىٰ القتال فتقول:

⁽۱) الصواب قولها: عمرو بن هند ، لا هند بن عمرو ، ولعل ما ورد في البيت تصحيف وغلط من النسّاخ.

⁽۲) انظر: ديوان الخنساء (ص ۱۷۱ ـ ۱۷۱) ، تحقيق د. إبراهيم عوضين ، طبعة المكتبة الأزهرية للتراث ـ مصر ـ ط۱ ـ ۱۹۸۵ م. وشرح ديوان الخنساء لأبي العباس ثعلب (ص ۱۳۸ ـ ۱٤۱). ومعنى: «الكنّة»: امرأة الأخ ، ويُقال: امرأة الأبن. و «يناله»: يعني الشّفاء ، و «أرنّ» بكئ ، و «شوان»: اسم قرية ، وشوان: جبل يشنُ الماءَ من أعلاه إلى أسفله ، أي يصبّ ، فلذلك قيل له: شَوان. و «بُرق»: جمع برقة ، والبرقة: الأرضُ التي فيها حجارةٌ ورملٌ ، وحجارةُ طيْنِ ، وكل لونَيْن فهو أبرقُ. و «القُريّة»: اسمُ المكان الذي أصيبَ فيهِ مرداسُ زوجُ الخنساء ، وهو منْ أشهرِ قرى اليمامة ، و «عَواسِله»: ذئابُه ، وعَسَلان الذّئب: خَبَبُه واضطرابُه في عَذْوِه؛ و «الآرام» الظّباء. و «مُستكين»: ذليلٌ خاضِع. و «عواطِلُه»: جَمعُ عاطلٍ وهي المرأةُ التي لا حَلْي عليها. و «ثاقِلُه»: النّاقل: الوازِن.

«إنّكم لبنو رجلٍ واحدٍ ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حَسبَكم ، ولا هجنتُ حَسبَكم ، ولا

* وكان للخنساءِ ابنةٌ وحيدة هي عمرةُ بنتُ مرداس بن أبي عامر ، وهي آخر ولدها.

* وقد ذكرتْ بعضُ المصادرِ والمراجعِ قصّةً حدثَتْ بين عمرةَ وأمّها الخنساء ، وهذه القصّةُ أقربُ إلىٰ الأسطورة منها إلى الحقيقةِ ، ولعلَّ ناسجو الأخبار، وحاكو الأشعارِ ، وصانعو القصص قد وضعوها للتّسلية ، وصاغوها في مصانِعهم ليلبسوها الخنساء في ليلةِ زفافِ ابنتها عمرة.

* والآن دعونا نستمع إلى القصة التي رواها علقمة بن جرير قال: «أقبلتُ يوماً أسوقُ شارفةً لي من الإبلِ ، أريدُ نَحرها عند الحيّ ، فأدركني الليل بين أبياتِ بني الشَّريد ، فإذا عمرة بنتُ مرداس عروس ، وأمُّها الخنساءُ عندها ، فقلتُ لهم: انحروا هذه الجزور ، واستعينُوا بها ، وجلستُ معهم ، ثمّ أذنَ لنا فدخلنا ، فإذا هي جاريةٌ وضيئةٌ _ يعني عمرة _ وأمُّها الخنساءُ ملتفة بكساءِ أحمرَ ، وقد هرمتْ ، وكانت تلحظُ الجارية لحظاً شديداً.

فقال القومُ: باللهِ يا عمرة ألا تحرشْتِ بها ، فإنّها الآن تعرفُ بعضَ ما أنتِ فيه.

فقامت عمرةُ تريدُ حاجةً، فوطئتْ على قدمها وطأةً أوجعتها، فقالت لها وقد اغتاظَتْ: أفِّ لكِ يا حمقاء، إنّني كنْتُ أحسنُ منكَ عرساً ، وأطيبُ

⁽۱) لنا تعليقٌ على هذا القولِ ، وعلى هذه الخطبة في فِقرةٍ خاصّة تحت عنوان: الخنساءُ في وصيّة أبنائِها ، إذْ إنّنا نشكُ في هذه الخطبةِ ، وفي عددِ أولادِها الأربعة من رجلٍ واحد. ونسألُ الله أنْ يلهمَنا الصَّواب.

ورساً ، وأبسطُ منك عرفاً ، وأرقُ منك نعلًا ، وأكرمُ منك بعلًا ، وذلك إذْ كنتُ فتاةً أعجبُ الفتيان ، لا أذيب الشّحم ، ولا أرعى البهم ، كالمهرة الصّنيع ، لا مضاعة ولا عند مضيع ؛ فضحكَ القومُ من غيظِها من ابنتها»(١).

* وهناك قصّةٌ أخرى عن الخنساءِ وابنتها عمرة تقول: «كانت عمرة بنتُ مرداس بن أبي عامر آخرَ ولدِها ، وعجزتِ الخنساءُ بنت عمرو ، فلما كبرتْ وتسعْسَعت ـ هرمتْ ـ ، ولَّتْ يوماً فرأتْ عمرةُ لحمها قد اضطربَ ؛ فقالت: واللهِ ، لقد أمسيتِ يا خُناس مضطربة اللحم .

قالت: تزوجْتُ مرّةً في هؤلاءِ ، ومرةً في هؤلاء ، ثمَّ قالت:

أَلا قالتْ عُميرةُ إذْ رأتْني وزَاكَتْ مثْنَها حدٌّ حَديْدُ (٢)

⁽۱) انظر: ديوانها (ص ١٤٠ ـ ١٤١) بتصرف، طبعة مصر ١٩٨٥ م. ولعلَّ في هذه القصّةِ أشياءَ تدعونا إلى أنْ نشكَّ في صحّتها؛ حيث إنَّ واضعَها وناسجَها ومؤلّفَها قد زعم أنَّ الخنساءَ بنتَ عمرو كانت ملتفَّة بكساء أحمر ، بينما أجمعتِ الرواياتُ والأخبارُ التي وصلَتْ إلينا ، والتي تحدَّثَتْ عن حياةِ الخنساءِ ، بأنَّها كانت تلبسُ الصِّدار بعد موتِ أخيها صخر بنِ عمرو ، وكان الصِّدارُ لباسَ الحِدادِ في الجاهليةِ ـ كما مرَّ معنا ـ .

⁻ ثم هلْ منَ المعقولِ أنْ تقولَ الخنساءُ تلكمِ العبارات المسجوعة المصنوعة التي تنضحُ بالغيرةِ من ابنتها ، وأنْ تتحدَّث عن نفسِها بأنَّها كانت فتاةً تعجبُ الفتيان؟!!! - ولعلَّ القارىءَ الفطنَ يلحظُ التَّصنُّع في القصّةِ في ردِّ الخنساءِ ، عندما وطئت ابنتها قدمَها ، فهل تعيدُ الخنساءُ ذكريات زفافها ، وأنّها أحسنُ عُرساً من ابنتها ، وأكرمُ بعلاً ؛ ترىٰ أيّ بعل كان؟!

ـ ثم إنَّ عبارةَ الخنساء مسجوعة فيها التَّأْتُق الشَّديد ، والعنايةُ الفائقة في اختيار اللفظ الملائم ، وهذا لم يكن في عَصْر الخنساءِ من مثل: عرساً ، ورساً؛ ونعلاً وبعلاً. ـ يُضاف إلى ذلك كلّه أنّ الخنساءَ كانت مشهورةً بأشعارها فلا حاجةً إلى مثل تلكم الأسجاع ، وذلكم التّصنّع الذي صافح آذان القوم.

⁽٢) يقال: قالت بنو سُليم لعميرة _عمرة _: «ذُوقي _ اختبري _ الخنساء ، فانظري ما عندها.

فَأَتَنْهَا فُوضِعتْ يَدَيْهَا عَلَى مَنكَبَيْهَا ثُمَّ قَالَتْ: حَدٌّ حَدَيدٌ ، ثُمَّ وَلَّتْ وَهِي تَمشي ، =

أُرانِي كُلِّما جمَّعْتُ مَالًا تقَسَّمَه رواحة والشَّريدُ فأرانِي كُلِّما جَمَّعْتُ عرضي وإنْ أُهْزَل فأَيْسَرُ ما يَبِيدُ (١)

* وكانت عمرة بنت مرداس هذه شاعرة مجيدة مقلة ، وتُعدُّ في المخضرمين ، وقد عُرفَت بفن الرّثاء ، كما عُرفت أمّها بذلك ، ولعلَّها كانت تتخذُ من أمّها مثلاً أعلى لها في هذا المضمارِ ، ومن أجملِ مراثيها تلك القصيدة البائية التي رثَتْ فيها أخاها يزيد لما قُتِلَ ، وذلك أنَّ يزيدَ كان قد قتلَ قيسَ بنَ الأسلت في بعض حروبهم ، فطلبَه بثأرِه هارون بن النّعمان بن الأسلت ، حتى تمكَّنَ مِنْ يزيد فقتلَه بقيسِ بن أبي قيس ، وهو ابن عمّه ، فقالت في مطلع رثائها له:

أجـد ابن أمّي أَنْ لا يَـوُوب وكانَ ابنُ أمّي جَليداً نَجيبا تَقيّاً نَقيّاً رحيب المَقَام كميّا صليّا لَبيبا خَطيبا حليماً أريباً إذا مَا بَـدا سديدَ المقالةِ صلْباً دريبا

ومنها:

أتى النَّاس من بعدِ ما أمْحلُوا فقالَ وجدتُم مكَاناً خَصِيْبا فسَاروا إليه وقالُوا استَقمْ فلم يجدوهُ هَلُوعاً هَيـوبـا(٢)

* ولها في أخيها يزيد مراثٍ كثيرة ، ومن مراثيها:

أعينيَّ لَمْ أَختلكُما بخيانَة أبلى الدُّهْرُ والأيَّامُ أَنْ أَتَصَبَّرا

فقالتِ الخنساء:

ألا قـــالَــتُ عُميــرة إذ رأتْنــي وزاكــت متنَهــا حــدُّ حـــديــدُ فقالت عميرة: أنشدك الله يا أمة. فقالت: أما الأبيات فقد مضت. (شرح ديوان الخنساء ص ١١٧_١١٨).

⁽۱) شرح ديوان الخنساء (ص ١١٧ ـ ١١٨) والدر المنثور (ص ١١٠) مع الجمع والتصرف اليسير.

⁽٢) انظر: أعلام النساء (٣/ ٣٥٩)؛ والدر المنثور (ص ٣٥٢)، والقصيدة تعد (١٨ بيتاً).

وما كنتُ أخشى أنْ أكونَ كأنّني بعيــرٌ إذَا ينعَـــيْ أخــيَّ تحسَّــرَا ترىٰ الخصمَ زوراً عن أُخيِّ مَهَابةً وليسَ الجليسُ عن أُخيِّ بأَزْوَرا^(١)

* وكانت عمرةُ ابنةُ الخنساء تحبُّ أخاها لأبيها(١) العباس بن مرداس حبّاً كبيراً ، كما كانت أمُّها الخَنْساء تحبُ أخَاهَا صخراً حباً عظيماً ، وكان العبّاسُ فارساً شاعراً شديدَ العارضةِ ، قويَ البديهةِ ، ذا بيانِ وفصاحة ، سيّداً في قومه من كِلا طرفَيْهِ _ أبيهِ وأُمّه _ ، وهو مخضرمٌ أدركَ الجاهليّة والإسلام ، وأسلمَ ، ويقال: إنَّه ممن حرَّم الخمرَ في الجاهلية؛ ومن أخبارِه أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان سألَ جلساءه: مَنْ أشجعُ النَّاسِ في شعره؟ فتكلّموا في ذلك ، فقال: أشجعُ النَّاسِ العبّاسُ بنُ مرداس في قوله:

أَكُرُ على الكَتيبةِ لا أُبالي أحتفي كَانَ فيها أَمْ سِوَاهَا(٢)

* وكانَ العباسُ أشعرَ إخوتِه وأشهرَهُم وأفرسَهم وأسودَهُم ، وروى عن النبي ﷺ ، ونقل عنه الحديث ، ومن شعرِه المستحسنِ قوله:

يا خَاتِمَ النُّباءِ إِنَّكُ مُرسَلٌ بالحقّ كلُّ هُدى السَّبيلِ هُداكَ إِنَّا اللَّبيلِ هُداكَ إِنَّ الإلَه بني عليكَ محبّة في خَلْقِهِ ومحمّداً سمَّاكا

* ولما ماتَ عبّاسُ هذا في الشّام سنة (١٦ هـ) أو (١٨ هـ) رثاه أخوه
 سُراقة ، كما رثته أختُه عمرة فقالت:

لِتَبْكِ ابنَ مرداس علىٰ ما عَراهُمُ عشيـرتُـه إذا حُـمَّ أمـس زوالُهـا لَدَى الخصْمِ إذ عُنْدَ الأميرِ كفاهُم فكانَ إليـه فَصْلُهـا وجـدالُهـا ومُعضِلـة للْحَـامليـن كَفيتهـا إذا أنهلَتْ هوجُ الرّياحِ طِلالُها(٣)

⁽١) زعم بعض الرواة أنّ أمّه الخنساء ، وهو خطأ؛ والصُّواب أنَّ أمّه زنجية .

 ⁽۲) الإصابة (٥/ ٣٣٠) ترجمة رقم (٤٥٠٤)؛ وقال أبو عمر القرطبي : «كانَ عباسُ بنُ مرداس من المؤلفة قلوبهم ، وممن حَسُنَ إسلامُه منهم». (الاستيعاب ١٦/٦).

⁽٣) انظر: الأغاني (١٤/٣١٠_٣١١)، وأعلام النساء (٣/٣٦٠)، والدر المنثور (ص٣٥٣)=

* ومن خلالِ هذه الأثارة من شغرِ عمرة بنتِ الخنساء ، ندركُ أنّها كانت تقتفي نهج أمّها الخنساء في الرثاءِ ، بل نجدُ أنّها صورة مصغّرة لها ، كما أنّها امتداد لسيرتها ، إلا أنّ عمرة لم تَحْظ بالشُهرةِ التي تسنّمَتْها أمّها الخنساء في عالم الشّهيرات في المشرقِ العربيّ ، كما أنّه لم يَصِلْ إلينا من شِعْر عمرة ، ما وصل إلينا من شِعْر أمّها.

الخَنْسَاءُ وحسَّانُ بنُ ثَابِت وأُكْذُوبَةٌ بلْهَاء:

 « ظهرتِ الخنساءُ في مجتمعِها امرأةً شاعرةً ، تَنَاقَلَ شعرها الحاضرُ والبَاد ، فقد قالتُ من الشّعر مالفَتَ إليها الأنظار ، وأصاخَ إليها الأسماع .

* ومن الملفتِ للنَّظرِ أنَّها قد بلَغَتْ مكانةً سامقةً في نفوسِ النَّاسِ ، حتى أخذَ كثيرٌ من محبّي الأساطير ، ومحبّي القَصصِ يضعون مارقَّ لهم وراقَ حولَ حياتِها وشِعْرِها ، وكانوا غافلينَ عمّن حولَهم ، وعمن سيكشفُ زيفَهم الأدبي ، ومَجْدَ أدبِهم المزعوم.

* وممّا حاكَهُ الرُّواةُ من قَصصِ في حياةِ الخنساء ، تلكم القصّة المزعومة الشّهيرة الرَّنانة التي زعموا من خلالها أنّها تنقدُ شِعْر حسّانَ بنِ ثابت الأنصاريّ ـ رضى الله عنه ـ.

* فقد أحسَّ بعضُ القدماء بما للخنساءِ من مكانةٍ ساميةٍ في فنّ الشّعرِ ، وتفرّدها عن غيرِها من شواعرِ عَصْرها ، ورأوها تعتلي درجات الشّعر صاعدةً ، وترتقي سدّة النَّظم ، و لا تهوي منْ عليائِها وفضائها ، ورأوا أنَّ حسانَ بنَ ثابت شاعرٌ فحلٌ منَ الشُّعراءِ الفحولِ في الجاهليّةِ ، ولا يمكنُ للخَنْساءِ أنْ ترتفع إلى مستواه ، وإلىٰ سدّةِ مكانتهِ الشّعرية ، ومقدرتهِ على

ومعنى: «فصلُها وجدالُها»: أي كان يفصلُ بين عشيرته في الخلافاتِ والخصوماتِ.
 و«هوج الرّياح»: الرّياح الشّديدة. و«طلالها»: جمع طلّ ، وهو المطر الخفيف.

النَّظم، وقد لاحظَ بعضُهم أنَّ الخنساءَ ترتقي، بينما يهبطُ حسَّانُ ـ بزعمهم ـ من درجتِه، فأحبَّ بعضُ المتحذلقين أنْ يصوِّر ذلك في قصّةٍ، ويضعُ ويصنعُ لها يَديْن ورجلَيْن ، ويحيكُ ما حاكَ في صدرهِ في حادثة جمعتِ الخنساءَ وحسَّانَ بنَ ثابت في قبّةِ النَّابغةِ الذّبياني ، حيثُ أنشدَتُه الخنساء رائيتها في رثاءِ أخيها صخر.

* ولعلَّ حبكةَ القصةِ الضَّعيفةِ هي التي نَمَّتْ علىٰ كذبِها ، وذلك في بيتِ حسَّان بن ثابت الشَّهير:

لَـنَا الجفَنَاتُ الغرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحى وأَسْيافُـنَا يقْطُرنَ منْ نَجدةٍ دَمَا

فإنَّ لهذا البيتِ قصَّةً موضوعةً في تاريخِ النَّقد الأدبي للشّعر العربي ، فربّما وُضعَتْ لتأييدِ رأي على آخر في قضيةٍ لغويّةٍ ، أو لعلَّ الأهواءَ قد لعبتْ دورها كيما ترفع من مكانةِ شاعرٍ ، وتحطَّ من منزلةِ آخر ، ذلك أنَّ القصَّة مضطربةُ الرّواياتِ ، كثيرةُ الوجوهِ والأقوالِ ، متهافتةُ الحجّةِ ، القصَّة مضطربةُ هزيلةٌ ضعيفةُ الحبكةِ ، ليس يربطُ لُحْمتها بِسُدَاهَا سوى التّهويلِ ، وعدمِ التّثبُّت ، وأَخْذِ الأمور على ظواهرِها ، دون أنْ يتعمّقَ القارىءُ ، ويكشفَ زيفَها من زواياها وخَبايَاها.

* وممّا زادَ القصّة شهرة ؛ أنّ كثيراً من كتبِ الأدبِ القديمةِ قد روتْها ، ومن ثمّ ورثَها المصنّفون في العصورِ التالية ، وراحوا يستشهدون بها عندما يتناولون حياة الخنساءِ ، وهم يتعصّبُون لها ، أو عندما يتناولون حياة حسّان بن ثابت _ رضي الله عنه _ ، أو حياة النّابغة الذبياني في سوقِ عكاظ ، وأصبحتِ القصّةُ المزعومةُ في المصادرِ والمراجعِ من الأمورِ المُسَلَّم بها ، ولا تحتاجُ إلى مناقشةٍ أو جَدَل.

* وقد أوردَ هذه القصة ابنُ قتيبة في «الشّعر والشُّعراء» ، والمرزباني في «الموشّح» وغيرهما كثير ، وتقولُ القصّة: «كانَ النّابغةُ الذّبياني تُضْرَبُ له

قبّةٌ حمراءُ من أدم بسوقِ عكاظ^(۱) ، وتأتيه الشُّعراء ، فتعرضُ عليه أشعارَهَا ، فأنشده الأعشَى أبو بصير ، ثم أنشدَه حسَّان بنُ ثابت ثمّ الشّعراءُ ، ثم جاءتِ الخنساءُ السُّلميّةُ فأنشدتْهُ ، فقالَ لها النَّابغة: واللهِ لولا أنّ أبا بصير أنْشَدني آنفاً لقلتُ إنّكِ أشعرَ الجن والإنس»^(۲).

* وفي روايةٍ أنّه قال لها: «اذهبي فأنتِ أشعرُ من كلّ ذات ثديَيْن ،
 ولولا أنّ أبا بصير أنشدني قبلكِ لفضّلْتك على شعراء هذا الموسم».

* فغضب حسّانُ بنُ ثابت لأنَّ النابغة فضَّل الشُّعراء عليهِ وقال: واللهِ لأنا أشعرُ منكَ ومن أبيك ومن جدّك. فقال له النَّابغةُ: حيثُ تقولُ ماذا؟
 قال حسَّانُ: حيثُ أقولُ:

لَّنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُّ يَلْمَعْنَ بِالضُّحِي وَأُسِيافُنَا يَقْطُرُنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا(١)

* وفي رواية: «أنَّ النابغةَ قبضَ على يَدِ حسَّان ثم قال له: يا بنَ أخي ، إنَّكَ لا تحسنُ أنْ تقولَ مثل قولى:

فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الذِّي هُو مُدركي وإنْ خلْتَ أَنَّ المَنْتَأَى عَنْكُ واسعُ فَخَنَسَ حَسَّانُ لِقَوله (٣).

* ويذكر ابنُ قتيبة: «أنَّ النَّابغةَ التفتَ إلى الخنساءِ وقال: خاطبيهِ ياخُنَاس.

فقالت له: ما أجود بيتٍ في قصيدتك هذه التي عرضتَها آنفاً؟ قال: قَوْلَى فيها: لنَا الجفناتُ الغرّ. البيت .

 ⁽۱) من مرويات أهل الأخبار ، أن الشعراء الجاهليين كانوا يغدون إلى سوق عكاظ ،
 فيتعاكظون ـ أي يتفاخرون ـ ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون .

⁽٢) الموشح (ص ٧٦) بتصرف يسير ، والأغاني (١١/٩).

⁽٣) الأغاني (١١/٩) بتصرف يسير.

فقالت: ضعَّفْتَ افتخارَك وأنْزَرْتَه في ثمانيةِ مواضع في بيتك هذا. ثمَّ ذكرت له ثماني سقَطَات.... فسكتَ حسَّان ولم يحِرْ جواباً»(١).

* وإلى هذا الحدّ تروى القصّة برواياتٍ متعدّدة (٢) ، وهذه القصَّة التي يظهرُ فيها الوضعُ تدلُّ دلالةً واضحةً ـ بِغَضّ النّظرِ عن عدم صحتها ـ على مكانةِ الخَنْساء في عَالَمِ الشُّعراء ، وأنَّها قد ارتقتْ إلى مصافِّ الكبار منهم ، وأنّها تنازعهم مجدهم الفنّي.

* وزعمَ واضعو القصّة أنَّ الخنساءَ ، أو النَّابغةَ الدُّبياني قد شرحَ بيتَ حسَّانَ بنِ ثابت شرحاً وافياً ، وأظهرَ ما فيه منَ العيوبِ التي تجعلُه بعيداً عن الفهم العربيّ ، والتّذوّق البيّاني ، والإحساس بالكلمة ، فقالتِ الخنساءُ ، أو قال النَّابغة ينتقده ، ويبيّنُ له سقطاته خطوةً ، خطوةً ، على النَّحو الآتي:

* لقد أقللْتَ جَفَناتِكَ وأسيافَكَ؛ يريدُ النَّابِغة أَنَّ لفظةَ «جفَنَات» جَمْع مؤنّثِ سالم، وهو جمعٌ دالٌ على القلّة، وأنَّ منَ الأفضل أن يقول: «جفَان» للدّلالة على الكثرة. وكذلك لفظة «أسْيَاف» من جموع القلّة، وجمع الكثرة هو «سُيوف»؛ فحسّان _ كما زعموا _ يفخرُ ، والفخر هنا يستدعى الـتّكثير والتّعظيم والتّهويل.

الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٣) وما بعدها.

 ⁽۲) من تلكم الرّوايات ما ورد «أنَّ الحُطيئة قد مرَّ بحسَّان بنِ ثابت وكلاهما شاعر فَحلٌ ،
 وكان حسَّان ينشد قوله:

لنا الجفَنَاتُ الغرّ يلمعنَ بـالضّحى وأسيــافنــا يقْطُــرنَ مــن نجــدةٍ دَمَــا والتفتَ حسَّان إلى الحطيثةِ وقال: كيفَ ترى؟ قال: ما أدى بأساً.

فقال حسَّان: انظروا إلى الأعرابي يقول: ما أرى بأساً ، أبو مَنْ هو؟ فقال الحطيئة: أنا أبو مُليكةً.

فقال حسَّان: واللهِ ما كنتَ أهونَ منكَ حيثُ اكتنيتَ بامرأةٍ!!!!!. (الأجوبة المسكتة ص ٢٠٨).

* وعابَه كذلك فيما زعموا في قوله: «الغُرّ» ، وذلك لزعمهم أنَّ لفظة «الغرّة» هي بياضٌ قليلٌ في الجبهة ، أو هي بياضٌ قليل في لون آخر غيره ، وزعموا أنَّ النَّابغة قال له: لو قُلْت: «البِيض» لكان أكثر اتساعاً ، ولكان أكثر من الغرّة وأجود.

* وعابَه في قوله: "يلمعن بالضَّحى": واللمع شيءٌ يأتي بعد شيء ، وأنَّه لو قال: "يشرقْنَ" لكان أكثر ، لأنَّ الإشراقَ أَدْوَمُ منَ اللمعان ، واللمعانُ سريعٌ؛ وأنَّه لو قال: "بالدّجى" بدلاً من الضُّحى لكانَ أحْسَن وأكثر ، حيث كلّ شيء يلمعُ بالضُّحى.

* وعابَه في قوله: «يقطرن» ، وأنّه لو قال: «يَسِلْن» ، أو «يجرينَ» ،
 كان أكثر وكان أحسن ، وكذلك قوله. «دما» ، والدّماء أكثرُ منَ الدم(١).

* وتزعمُ القصّةُ _ أو يزعم واضعُوها أو وضّاعُوها _ أنَّ حسَّانَ قد سكتَ ، ولم يحِرْ جَواباً؛ ولم يردَّ علىٰ الخنْساءِ أو النَّابغة ، وذلك حسبَ مزاج من نَسَبَ القصة لها أو للنَّابغة .

* وهذا النَّقدُ الأدبيُّ الذي نسبوه إلى الخنساءِ أو النَّابغة لا يصحُّ ، بل إنَّ قصَّة النقد هذه موضعُ اتهام من قديمِ الزَّمان ، وهو خبرُ مصنوع شَكَّ فيه العلماءُ ، فقد حكىٰ ابنُ جنّي عن أبي على الفارسيّ أنَّه طعنَ في صحّةِ هذه الحكاية (٢). قال أبو على: «هذا خبرٌ مجهولٌ لا أَصْلَ له» (٣).

* فالقصّةُ موضوعةٌ ، «وما هذا القَصَصُ المرويُّ عن عكاظ إلّا من

⁽١) انظر: الموشح (ص٧٦-٧٧) بتصرف.

⁽٢) شرح شواهد المغني للسيوطي (١/ ٢٥٧).

⁽٣) خزانة الأدب (٣/ ٤٣١) طبعة مصر.

رواياتِ أهلِ الأخبار ، وضَعُوه مع قَصصِهم الموضوع عن اختيارِ قريش للغة ، وتخيّرِها أحسنَ الألفاظِ ، وتحكيمِها في الشّعر»(أ).

* ومما يضعفُ القصَّة أنَّ حسَّانَ بنَ ثابت قال: «جئتُ نابغةَ بني ذبيان ، فوجدتُ الخنْساءَ بنتَ عمرو حين قامَتْ من عندِه ، فأنْشَدْتُه ، فقال: إنَّكَ لَشَاعرٌ ، وإنَّ أختَ بني سليم لبكَّاءَة»(٢).

* والقصّةُ كذلك موضعُ إنكار لدى المتعمقين في الأدبِ في العَصْر المحديثِ ، لأنَّ عَصْر الخُساء يسبقُ عَصْر المُصطلحات اللغوية بعدة قرون ، ولعل هذه القصة قد صُنِعَتْ وحيكَتْ في القرنِ الثَّالث الهجريّ بعد أنْ عُرِفَ المنطق ، وعُرِفَ شيءٌ من ألوانِ البلاغةِ والبديعِ والبَيان ، وبعد أنْ دُوّنَتِ العلومُ وتُرجمتْ بعضُ الآدابِ الأخرى كالفارسيّة واليونانية والهنديّة وغيرها من آداب.

* ومن الواضح لكل ذي بصيرة أنّه يوجدُ في القصَّة كثيرٌ من التكلّفِ والتّعنّتِ والتّجنّي ، ولا يصحُّ أنْ يُنْسبَ إلى شاعرةٍ من شواعرِ عَصْر الجاهليّة خالية الذّهنِ من قواعدِ اللغةِ ، فالخنساءُ نفسُها لم يَسْلَمْ شِعْرُهَا من استعمالِ جَمْعِ القلّة للكثرةِ ؛ قالتِ الخنساءُ في أخيها صَخْرٍ قصيدة مؤلّفة من ثمانية أبيات آخرها:

سقَىٰ الإلهُ ضَريحاً جنَّ أعْظُمَه ورُوحه بغزير المزنِ هطَّالُ (٣)

وقال السَّموءَل:

وأَسْيَافُنا في كلِّ شرقٍ ومغربٍ بها من قراعِ الدَّار عين فُلولُ

⁽١) المفصل في تاريخ العرب (٩/ ١٨٩).

⁽٢) أعلام النساء (١/ ٣٦١) ، نقلاً عن الأغاني (٤/ ١٧١ _ ١٧٢) طبعة بيروت.

⁽٣) انظر: ديوانها (ص ٤٠٥_٤٠٦) طبعة مصر. والأعظم: جمع قلّة.

* وفي العصر الإسلاميّ قال بشَّار:

كأنَّ مثارَ النَّقع فوقَ رؤوسنا وأسيافُنَا ليلٌ تهاوي كواكبُه

* إذاً فلا نستطيعُ أنْ نسلِّمَ بصحّةِ النَّقد الموجّهِ لحسّانَ من قِبَلِ الخنساءِ لأسبابِ كثيرة جدّاً ، منها:

* أنَّ النَّقَد الدقيقَ ذي التقاصيل والتَّشقيقات الكثيرة ، والذي يقومُ على التّحليل والتّعليل لم يكنْ موجوداً في العَصْر الجاهليّ ، بل لم نجدْ نقداً من هذا النّوع في سوقِ عكاظ ، وإنّما ظهرَ هذا النَّقد عندما ظهرتْ آثارُ المصطلحاتِ الصَّرفية التي وضَعَها أهل اللغة بُعيد القرنِ الثَّالثِ الهجريّ من مثل تخصيص أوزان القلّة ، وأوزانِ الكثرةِ من صِيَغِ الجموع ، وتبويبها في كتُبِ النَّحو والصَّرف واللغة.

* لعلَّ هذا النَّقد(١) المُفَصَّل والذي يعتمدُ على الصَّرفِ وعلى التَّذوقِ

⁽۱) لم يكنِ النّقدُ الأدبيُّ عند العرب في الجاهليّة مُبرمجاً مفصّلاً منظّماً هذا التّنظيم وهذا التّقسيم المعروف ، وإنّما نشأً النقدُ مُرتجلاً ، وكانَ هيناً يسيرُ ملائماً لروحِ العَصْر وللشّعر العربي نفسه ، عربيّ النّشأة كالشّعر ، لم يتأثرُ بمؤثّرات أجنبيةٍ ، ولم يقمْ إلا علىٰ الذّوق العربي السّليم.

ـ وقد وُجِدَ النَّقَدُ في أطوارِ تهذيب الشَّعر ، وفي اختيارِ المعلَّقات وتعليقها في الكعبةِ ، وفي حكومة النَّابغة بين المرىءِ القيس وعلقمة ، وحكومة النَّابغة بين الشَّعراء ، فقد «كان تضربُ له قبةٌ حمراء بعكاظ ، ويأتيه الشَّعراء فتنشده أشعارَها»؛ وفي حكْم ربيعة بنِ حذار الأسديّ على الزّبرقان بن بدر ، والمخبّل السَّعدي ، وعبدة بن الطَّبيب ، وعمرو بن الأهتم.

⁻ ووُجِدَ أيضاً في نقد الشّعراء للشّعر آثار أخرى ، فامرؤُ القيس يمرُّ بكعب وأخويه الغضّبان والقَعْقاع ، فأنشدوه فقال: «إنّي لأعجبُ كيفَ لا يمتلىءُ عليكم ناراً جودة شعركم». فسمّوا بني النّار. ويقول النّابغة: «أشعر الشّعراء مَن استُجيد كذبه وأضحك رديثه». وسمّي كعبَ الغنوي كعبَ الأمثال لكثرة ما فيها من شِعره ، وسمي طفيلُ الغنوي طفيلَ الخليل لكثرة وصفه إيّاها؛ والنّمر بن تولب المحبّر =

الأدبيّ، قد وضعَه بعضُ أنْصَارِ المُبالغةِ في الشِّعْر، حيثُ وجدوا لهم متنفَّساً في شِعْر حسّانَ بنِ ثابت ونَقْد الخنْسَاء ـ المزعوم ـ له؛ وتشريح شِعْره وبيانِ ما ينبو عن ذوقِ الوضَّاعِ المريضِ ، وحبِّهِ للمبالغةِ؛ يقولُ ابنُ رشيق القيروانيّ في كتابه الشهير «العُمدة»: «والمبالغةُ ضروبٌ كثيرةٌ ، والنّاسُ فيها مختلفون ، منهم مَنْ يؤثرها ويقولُ بتفضيلها ويراها الغاية القصوىٰ في الجودةِ ، وذلك مشهورٌ من مذهبِ نابغةِ بني ذبيان ، وهو القائلُ: أشْعَر النّاس من استُجيد كذبه وروى قومٌ من حديثِ النّابغة ومطالبته حسّان بالمبالغةِ ، ونسبته إيّاه إلىٰ التّقصير في قوله: «لنا الجفنَات الغرد . . . » البيت ؛ ما هو مشهور عندهم في كتُبِهم . . » .

* هناك نقطة مهمة جداً في بيتِ حسّان المذكور ، إذْ إنَّ هذا البيتَ منْ أجودِ ما قال حسّانُ من شعْرِ ، بل ومن أجودِ أبياتِ القصيدة التي جاءَ منها هذا البيت ، فعندما ذكر ابنُ سلام الجمحيّ الشُعراء ، ذكر حسّان بن ثابت معهم ، واختار له أبياتاً من أربع قصائد له ، بدأها بقوله: «ومن شعره الرّائع الجيّد....» ، وخصّ البيت المذكور مع بيت بعده:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغرّ يلْمَعْنَ بالضُّحىٰ وأُسيافُنا يقطُرنَ مِنْ نجدةٍ دَمَا أبىٰ فِعلُنا المعروفَ أنْ ننطقَ الخَنَا وقائلُنَا بالعُرفِ إلاّ تكلُّمَا

* وأيّاً ما كانَ الأمرُ ، فإنّ ما نُسِبَ إلى بيتِ حسَّان من عيوبٍ _ على لسانِ الخنساء المزعوم _ مردودٌ غير مقبول ، وذلك بِعَرضهِ على قواعد

لحسن شعره ، وسمّوا قصيدة سويد بن أبي كاهل: «بسطت رابعة الحبل لنا...»
 اليتيمة ، كما سمّوا بعد ذلك خطبة لِسَحْبانَ الشّوهاء لحسنها ، ويقول زهير ؛
 ويروى لحسّان :

وإنَّ أشعرَ بيتِ أنتَ قائلهُ بيتٌ يقالُ إذا أنشدته صدقا ـ ورأى لبيدٌ بعد شيخوخته أنَّ أشعرَ النَّاس امرؤ القيس ، ثم طرفةُ ، ثمّ نفسه . إلى غير ذلك من مظاهرِ النقد في الجاهليّة ؛ وكلّها أحكام عابرة مرتجلة وبسيطة .

اللغة العربيّة التي هي الحكمُ والفَيْصَلُ والمرجع؛ وعَرضهِ على الذَّوق الأدبيّ السَّليم، والتَّذوق البيانيّ لسِحْرِ الكلمات. ولنا في كلامِ قُدامةَ بنِ جعفر في كتابه «نقد الشّعر» دليلٌ على ما ذكرنَاهُ، وعلى ما اختاره محمدُ بنُ سلام الجمحيّ في «طبقات الشُّعراء»(١)، يقول ابن قُدامةَ منْصِفاً حسّانَ بن ثابت وتحرّيه للصّواب:

على أنَّ مَنْ أنعَم النَّظر عَلِمَ أنَّ هذا الرَّدَّ علىٰ حسَّان منَ النَّابِغةِ كان ، أو من غيرِه؛ خَطَأٌ ، وأنَّ حسَّان مصيبٌ ، إذْ كانتْ مطابقةُ المعنىٰ بالحقّ في يدِه ، وكان الرّادُّ عليه عادلاً عنِ الصّواب إلىٰ غيرِهِ.

فمن ذلك أنَّ حسَّان لم يُرِدْ بقوله «الغُرّ» أنْ يجعلَ الجِفَان بِيْضاً ، فإذا قصَّرَ عن تصيير جميعها بيضاً نقضَ ما أراده ، لكنّه أرادَ بقولهِ «الغرّ» المَشْهُورات ، كما يُقالُ يومٌ أغرّ ، ويدٌ غرّاء ، وليس يرادُ البياض في شيءٍ من ذلك ، بل يُرادُ الشُّهرة والنَّباهة.

وأمّا قولُ النّابغةِ في «يلمعن بالضّحى» وأنّه لو قال «بالدُّجى» ، لكان أحسن ، إذْ كلُّ شيءٍ يلمعُ بالضّحى ، فهذا خلافُ الحقّ وعكسُ الواجب ، لأنّه ليسَ يكادُ يلمعُ من الأشياءِ إلا السّاطع النّور ، الشّديد الضّياء ، فأمّا الليلُ فأكثرُ الأشياءِ ممّا له أدنى نورٍ وأيسر بصيص يلمعُ فيه ، فمن ذلك الكواكبُ ، وهي بارزةٌ لنا ، مقابلةٌ لأبصارنا دائماً ، تلمعُ بالليل ، ويقلُ لمعانها بالنّهار حتى تخفىٰ ، وكذلك السُّرُج والمصابيح ، ينقصُ نورها كلّما أضحىٰ النَّهار ، وفي الليلِ تلمعُ عيونُ السّباع لشدّة بصيصها ، وكذلك اليراع حتى تخال ناراً.

فأما قولُ النَّابغة ـ أو مَنْ قال ـ: إنَّ قولَه في السُّيوف «يجريْنَ» خيرٌ من

انظر: طبقات الشعراء (ص ٨٤).

قوله «يقطرن» لأنَّ الجريَ أكثرُ من القطر ، فلم يُرِدْ حسّانُ الكثرة ، وإنَّما ذهبَ إلى ما يلفظُ به الناس ويعتادونَه ، من وصْفِ الشُّجاع الباسلِ ، والبطلِ الفاتكِ ، بأنْ يقولوا «سيفُه يقطرُ دماً» ولم يُسْمَعْ «سيفُه يجري دماً» ولعلّه لو قال يجرينَ دماً يعدلُ عن المألوفِ المعروفِ من وصف الشُّجاع النّجد إلى ما لم تجرِ عادة العرب بوصْفِه»(١).

* وما أجمل إنصاف قدامة بن جعفر للحق في قوله هذا الذي يُظْهِرُ علْمَه ومعرفته بأسرارِ العربيّة! وما أكثره تحرياً للصّواب والسّداد في مناقشتِه تلك الجميلة! ومن ثمّ يضعُ يد القارىء على الحقيقة ، ويجعلُه يميلُ إلى أنَّ هذا النَّقد وهذا الحَيْف المنسوب إلى الخنساءِ أو النَّابغةِ مخترعٌ منحولٌ موضوعٌ مصنوعٌ ، صاغَهُ الوضَّاعون في غفلةٍ عن أعينِ الرُّقباء ، ومن الطَّبيعي أنْ نشكَ في صحّةِ هذا الخبرِ وأمثالهِ ، لأنّه في ضغفهِ وتهافتِه ممّا لا يليقُ بالخنساء أو بالنَّابغة أنْ يقوله ، ولا أنْ يصدرَ عن مثلهِ على حصافتِه وعلو كعبه.

* ولذا فإنّنا سنقفُ الآن ـ بعد توضيح قدامة لوهْنِ الخبر ـ على بعض النّقاط المهمّة في هذا الخبرِ ، وبيانِ فسَاد ذوقِ الوضّاع فيه ؛ وقد استفدنا بذلك من كتابِ «في أصولِ تاريخ العربِ الإسلاميّ» للأستاذ محمّد شرّاب ، حيث تعرّضَ لهذه النُّقطة بشيء من التَّفصيل والتَّحليل.

١ ـ قولُ النَّاقد لحسَّان: «قلَّلتَ جفناتكَ ، وأسيافكَ» لأنَّ هذين الجمعَيْن للقلَّة. . . فإنَّه لا يصحُّ ، وذلك لأنَّ جمعَ المؤنّث السَّالم «جفَنات» يكونُ للقلّة ، ويكونُ للكثرة ، وهذا شيخُ العربيّة ، وإمامٌ من

⁽۱) انظر: نقد الشعر (ص ٣٦-٣٧) نشره الأستاذ محمد عيسى منون ـ المطبعة الوطنية ـ مصر _ ١٩٣٤ م.

أئمتها ينقلُ في كتابه فيقول: «وأمّا ما كانَ على فَعْلَة فإنَّكَ إذا أردتَ أدنىٰ العدد جمعتَها بالتَّاء وفتحتَ العَيْن ، وذلك قولك: جَفْنَة وجَفَنات ، فإذا جاوزتَ أدنى العَددِ ، كَسَرْتَ الاسمَ على فِعَال نحو: جَفْنَة وجِفَان . . . وقد يجمعون بالتَّاء وهم يريدون الكثير ، وقال الشَّاعر حسَّان بن ثابت: لنا الجفنات فلم يُرِدْ أدنىٰ العَدد » .

* وقول سيبوبه: «وقد يجمعون بالتَّاء. . . إلخ» دليلٌ على كثرتِه ، وأنَّه ليسَ شاذًاً.

* وأمّا قوله: "إنّ أسياف " جمع قلّة ، فهذا صحيحٌ ، ولكنّ ابن يعيش في "شرح المفصّل" يقول: "قد يُسْتَعمل اللّفظ الموضوعُ للقليل في موضع الكثير ، وإنّ الجموع قد يقعُ بعضها موضَع بعض ، ويُستغنى ببعضها عن بعض ، وإذا قُرِنَ جمع القلّة بما يصرفه إلى معنى الكثرةِ انصرف إليها ، كأنْ تسبقُه "أل" الدّالة على تعريفِ الجنس ، كقولهِ تعالى: ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلأَنفُسُ الشُحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨] ، أو يُضاف إلى ما يدلُّ على الكثرة ، كقوله تعالى: ﴿ يَكَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوا أَنفُسَكُمُ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التّحريم: ٦] ، ومن ذلك تعريف العناف الأسياف إليهم وهي من جموع القلّة قول حسّان: "وأسيافنا" ، فإضافة الأسياف إليهم وهي من جموع القلّة صَرَفَتُها إلى الكثرة .

٢ ـ وأمّا طعنُهم على حسّان لقوله: «الغرّ» لزعمهم أنَّ الغُرَّة بياضٌ قليلٌ في لونٍ آخر ، فإنَّ حسَّان بنَ ثابتَ لم يُرِدْ من الغُرّة البياض ، وإنَّما أرادَ الجفنَات المَشْهُورات ، كما يُقال: يومٌ أغرّ ، ويدٌ غرَّاء.

٣ ـ وأمّا عيبُه ، لقولهِ: "يلمعْنَ بالضَّحى" لزعمهم أنَّ كُلَّ شيءِ يلمعُ بالضَّحى ، فهذا خلافُ الحقّ ، كما قال قُدامةُ بنُ جعفر: "لأنَّه ليس يكادُ يلمعُ بالنَّهار منَ الأشياءِ إلا السَّاطع النّور ، الشّديد الضّياء ، فأمّا الليلُ ، فأكثرُ الأشياءِ مما له أدنى نور يلمعُ فيه ، فمن ذلك الكواكب ، وهي بارزةٌ

لنا ، مقابلةٌ لأبصارِنا ، دائماً تلمعُ في الليل ، ويقلُّ لمعانها بالنَّهار حتى تخفىٰ . . . » . . يُضاف إلى هذا أنَّ الشَّاعر قَرويٌّ حَضَريٌّ ، ويريدُ أنْ يقولَ : إنّ كرمَهم لا يخصُّ الضِّيفان الطَّارقين ليلاً ، بل يعمُّ النَّاس جميعاً ، فالجِفَانُ مُعدّةٌ للضِّيفان ومساكين الحيّ بالغداةِ ، وهي لشهرتها يقصدها الآكلون ولو لم يَروا ضوءَ نَارِ .

\$ ـ وأمّا عيبُه لقولهِ: "يقطرن" ، وأنّه لو قال: "يجرينَ" ، كانَ أكثر في الفَخْر فالشَّاعر لم يُرِدْ من قوله : يقطرنَ الكثرة ، وإنّما ذهبَ إلى ما يلفظُ به النّاس ويعتادونه من وصفِ الشَّجاع الباسلِ الفاتكِ ، حيث يقولون : "سيفه يقطرُ دماً" ، ولم يُسْمَعْ "سيفُه يجري دماً" ، ولعلّه لو قال : يجرين دماً ، يعدلُ عن المألوفِ المعروفِ من وصف الشّجاع ، إلى ما لم يُجْرِ عادةُ العربِ بوصفه . . . "(1).

* إنّ ماحِيْكَ حولَ هذا البيتِ هو قصّة مُهلْهلَةٌ ، وأنّ الخنساءَ بريئةٌ من هذا النّقد براءة يوسُف من دم الذّئب ، أو براءة الذّئب من دم يوسُف؛ بل إنّ الخنساءَ لم تُعرفْ شاعرة باكية إلا بعد مَقْتَل أخويها معاوية وصخر ، ومن المعروفِ في التّاريخ الجاهليّ أنّ معاوية بنَ عمرو أخاها قُتِلَ في سنة (٢١٢ م) ، وأنّ صخراً أخاها قُتِلَ بعده بنحو ثلاث سنين حوالي سنة (٢١٥ هـ) ، بينما يذكرُ تاريخُ الأدب ، وتاريخ النّابغة يشير إلى أنّ النّابغة قد ماتَ في سنة (٢٠٢ أو سنة ٢٠٤ م) ، فكيفَ وقفتِ الخنساءُ تنشدُ النّابغة في سوقِ عكاظ رائيتها المشهورة قبل أنْ يقْتَلَ أَخَوَاها ، أو قبل أنْ يُقْتَلَ صَخْر؟! فهل جلسَ لها النّابغة بعد موتِه كيما يستمع إلى إنْشَادِها!!؟!! أوْ

⁽۱) انظر: في أصول تاريخ العرب الإسلامي (ص ۲۵۲_۲۵۳) طبعة دار القلم دمشق ـ ط۱ ـ ۱۹۹۳م، وديوان الخنساء (ص ۱۱۹ـ۱۲۰) طبعة مصر، مع الجمع والتصرف.

هَلْ دَخَلَتْ هي ومن معها إلى قبرهِ ليسمعوه إنشادهم!! إنَّ هذا لَشيءٌ عُجاب. . وعجيب. .

* وهكذا نجدُ كثيراً منَ الرُّواة ينسبون هذه القصّة للخنساءِ ، ليجعلوا منها أميرة شعراءِ عَصْرِها ، أو واحدةً من أمراءِ الشّعر في عَصْرِها .

* وعن هذه القصّةِ المزعومةِ يقولُ الدّكتور أحمد الحوفي بعد أنْ أوردَها كاملةً نقلاً عن «الأغاني» ، و«شرح مقاماتِ الحريريّ» ، و«شرح شواهد المُغني» ، وغيرها: «والوضعُ ظاهرٌ في هذا الحُكْمِ ، لأنّه يتكىءُ على التّفرقةِ بين جَمْعِ المؤنّث السّالم ، وجمعِ التّكسيرِ من حيثُ القلّة والكثرة ، وهذا المعنىٰ من اصطلاحِ النّحاة في عَصْرِ التّدوين ، ويعتمدُ على المبالغةِ في الاستعارةِ ، وعلى التّهويل في التّصوير ، وهذه نزعة لم تعرف إلا حينما دُرِسَتْ علومُ البلاغة ، وزاحمَ العقلُ والمنطقُ الذّوقَ والفطرة ؛ والنقدُ كلّه منبعثُ عن إيثارِ للغلو والمغالاة في المعاني في عَصْرِ كان الشُّعراء أميلَ فيه إلى الصّدق والخيال المقبولِ ، لذلك فإنَّ قدامة بنَ جعفر على الحق في دفاعهِ عن حسّان» (١).

* وأجدني في نهاية هذه الفِقْرة بحاجة ماسَّة لأنْ أذكرَ بأنَّ المرأة كانت راوية للشّعر وناقدة على مرّ العصور ، لأنَّ الشّعر العربيَّ كان يفوحُ وينتشرُ أريجُهُ في الآفاقِ ، وفي النّجاد والفيافي والحضر والبوادي ، وكان له محبُّون ومعجبون هم الرّواة ، فكانوا يَرْوونه جيْلاً بعد جِيْل ، وكان الرّجال الرُّواة يحفظونه ويروونه كما يحفظون الأنسابَ والوقائع ، هذا من ناحية الرّجل ، فهل روتِ المرأةُ الشّعرَ ونقَدتُهُ ؟!

* نعم ، إنَّ التَّاريخَ الأدبيَّ النَّسويَّ العربيَّ يشيرُ إلىٰ ذلك ، وقد وعتْ

⁽١) المرأة في الشّعر الجاهلي (ص ٥٩٨).

أذنُ التَّاريخِ بعضَ أخبارِ النَّسوة اللائي روينَ الشِّعرِ وحفظْنَه؛ ومنهنّ: الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلت ، فقد الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلت ، فقد قدمت على النّبي الكريم ﷺ بعد فَتْح الطَّائف ، فقالَ لها: «هل تحفظينَ من شِعْر أخيك شيئاً»؟

فأخبرته خبرَه ، وأنشدتُه شِعْره الذي أوّله:

بَاتَتْ هُموميَ تَسري طَوارِقُها أَكُفُ عينَي والدَّمعُ سَابقُها وأنشدته قوله:

كَـلُّ عيـشٍ وإنْ تَطَـاولَ دهـراً صَـائِـرٌ مَـرةً إلــى أنْ يَــزُولاً لَيَــرُولاً لَيَــرُولاً لَيَــوُولاً لَيتني كنتُ قبلَ ما قَدْ بَـدا لـي في تــلالِ الحيـاةِ أرعِـىٰ الـوعـولا

فقال لها رسولُ الله ﷺ: «كان مَثَلُ أخيكِ كَمَثَلُ الذي آتيناه آياتنا فانسلخَ منها فأتبعه الشّيطان فكان منَ الغاوين»؛ وفي رواية: أنّها أنشدته شِعْراً دينياً لأميّة ، فقال: «آمنَ شِعْرهُ وكفَر قَلْبُه»(١).

* ومن الطَّرائفِ الأدبيةِ التي تحتويها خزانةُ أدبِ العربِ تلكم العجائب الجميلة عن بناتِ الشّعراء ، فقد ذكروا أنَّ الشَّاعر الغنائيَ الأعشى قد علَّم ابنتَه ، وثقَّفَها ، حتى اطمأنَ إلى ذوقِها ونقدِها ووثق بذلك ، فكان بعد هذا يعرضُ عليها شعره ، ويقولُ لها: «عُدّي لي المُخزيات» ـ يعني القصائد اللاتي يُخزينَ غيره فلا يستطيعُ أنْ يأتيَ بمثلهن ـ فتسمعُه من شعره (٢).

* ومن المطربِ أيضاً في هذا المجال ، والذي يزيدُ في ثروةِ ورصيد المرأةِ الأدبيّ والنَّقدي ما أورده المرزبانيّ في «موشّحه» من أنَّ حسَّان بنَ ثابت كان على ثقةٍ تامّةٍ من ذوقِ ابنته ليلى ، وطواعية التَّعبير لها على

انظر: أسد الغابة (٦/ ٢١٥ ـ ٢١٦) ترجمة رقم (٧١٦٣).

⁽٢) الأغاني (١٠٦/١٥) طبعة مصر.

البديهةِ ، فقال ما نصُّه: «أرِقَ حسَّانُ بنُ ثابت ذات ليلة ، فَعَنَّ له الشَّعر ، وعنده ابنته ليلي في خِدْرها ، فقال بيتاً:

متَاريكُ أَذْنَابِ الأمورِ إذا اعْتَرتْ للخَذْنَا الفُروعَ واجْتَثْنَا أَصُولَها ثُمَّ أَجْبَل _ انقطع َ _ فلم يجد شيئاً ، فقالت له ابنته: يا أبتاه ؛ كأنَّك أَحْتَلْتَ!

قال: أُجَلْ.

فقالت: فهل لكَ أنْ أجيزَ عنك؟

قال: نعم.

قالت: أعد.

فأعاد قوله ، فقالَتْ:

كِرامٌ يُعاطُونَ العَشيرة سُولَها مَقاويلُ بالمعروفِ خُرْسٌ عن الخَنَا

قال: فحميَ الشَّيخ، فقالَ:

تناولتُ منْ جوّ السَّماءِ نزولها وقَــافيــةِ مثــلَ السّنــانِ رَزينــةٍ فقالت:

يَراهَا الذي لا يَنْطقُ الشِّعر عنده ويعجنزُ عن أمثالها أنْ يقولَها فقال حسَّان: لا أقولُ شعراً وأنتِ حيّةٌ.

قالت: أَوَ أُؤَمِّنُك؟

قال: أو تفعلين؟

قالت: نعم ، لا أقولُ شِعْراً ما دمتَ حيّاً (١).

الموشح (ص ٧٨_٧٩).

* وكانت أمُّنا عائشة الصِّديقة بنت الصِّديق ـ رضي الله عنهما ـ راويةً للشَّعر ، فَعَنشأتْ فصيحةَ اللَّسان ، قويةَ البيان ، حافظةً لكثيرٍ منَ الشِّعر .

* حدَّثَ هشامُ بنُ عسروةَ عن أبيه قال: «ما رأيتُ أحداً أعلمَ بفقه ولا بطبِ ولا بشعر من عائشةَ»(١).

* وحدّثَ أبو الزَّناد أنَّه ما رأىٰ أحداً أروى لِشِعْر من عروةَ ، وأنَّ عروةَ قيلَ له: ما أَرْوَاكَ!

فقال: ما روايتي في روايةِ عائشة ـ يعني خالته أمّ المؤمنين ـ ، ما كان ينزلُ بها شيءٌ إلا أنشدتْ فيهِ شعراً»(٢).

* وقالوا: «إنّها كانت تروي القصيدة ستين بيتاً ، والقصيدة مئة بيت» (٣).

* وكانت معجبةً بشعرِ حُجَيَّة بن المضَرَّب ، وتحضُّ على روايته ، لأنَّه يعين على البرِّ^(٤).

* وذهبَ عطارد والزّهري إلى أنّها كانت أعلم النّاسِ من نساءٍ ورجال (٥).

⁽١) انظر موسوعتنا نساء أهل البيت (ص ١٥٣) ط٤ ـ ١٩٩٩ م ، دار اليمامة بدمشق.

⁽۲) طبقات ابن سعد (۸/ ۰۰)؛ وانظر المرجع السّابق.

⁽٣) المصدر السَّابق.

⁽٤) انظر: لسان العرب (١٩/ ٦٦).

⁽٥) تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٣٥). يقول الدكتور أحمد الخُوفي معلّقاً على رواية أمّنا عائشة للشّعر: «وليسَ منَ الطّبيعي أنْ تنفردَ السّيدةُ عائشةُ بالحافظةِ الراويةِ للشّعر بين النّساء العربيّات ، وإنّما الطّبيعي أنْ يشركَها كثيرٌ منَ النّساء ، فلا بدّ أن كانتُ نساءٌ أخر يحفظنَ الشّعر ويروينَه ، ولكنهنَّ لم ينلْنَ ما نالتِ السَّيدةُ عائشةُ من مَجْدِ =

* ولم تكن أمنًا عائشة _ رضي الله عنها _ وحدَها في هذا المجالِ ، وإنّما كان هناك ناقداتُ للشّعر ، وكان بعضُ الشُّعراء يتحرّى مرضاتهن ، فقد كانت عمرةُ الجُمحيّة امرأة جزلة فصيحة يجتمعُ الرِّجالُ عندها لإنشادِ الشّعرِ والمحادثةِ ، وروايةِ الأخبار ، وكان أبو دَهْبل الجُمحيّ يهواها ، ولا يكادُ يفارقُ مجلسها مع كلّ مَنْ يجتمعُ إليها ، وكانت هي محبّةٌ له أيضاً ، وكانت عمرةُ توصيهِ بحفْظِ ما بينهما ، فلمّا قيلَ لعمرة : إنَّ أمرهما قد ذاع في المجالسِ ؛ احتجبَتْ عن جُلاسِها وعن أبي دَهْبل ، وأرسلتْ إليه تعذلُه ، فقال :

وأعيت غواشي عَبْرتي ما تَفَرَّجُ خلال ضلوعي جمرة تتوهّجُ وطوراً إذا ما لجَّ بي الحزنُ أنشجُ ونحنُ إلى ما يُوصلَ الحبل أحوجُ (١)

تطَاولَ هذا الليلُ ما يتبلَّجُ وبتُ كئيباً ما أنامُ كائما فطوراً أمني النَّفْس من عمرة المنى لقد قطع الواشون ما كان بيننا

* ويذكر الأصفهاني في «الأغاني» بأنَّ خرقاء العامريّة محبوبة ذي الرُّمة تحفظُ شِعْره وتنقده ، ومن قولها: «كانَ رقيقَ البشْرة ، عذبَ المنطقِ ،

ونباهةٍ صيت ، ولم تُسَجَّل حياتهن كما سجِّلَتْ حياتُها ، فهي زوجُ النّبي ﷺ وبنتُ صَديقهِ وخليفتهِ ، ولو لم يُقَدِّرُ لها أَنْ تكونَ كذلك ، وأَنْ تشتركَ في نصرة حزبٍ سياسي قوي ، وأَن تكونَ راوية للحديث الشريف ، لو لم يقدِّرُ لها ذلك كلَّه لضاعَ كثيرٌ من أخبارِها ، كما ضاعَتْ أخبارُ مئاتٍ من أمثالِها». (المرأة في الشّعر الجاهلي ص ٩٢).

ـ وهكذا نجدُ أنَّ المرأة العربيّة في العصر الجاهليّ ، وفي العصر الإسلاميّ ، كانت تتذوّقُ الشّعر ، وكانت تنبيّنُ مواضعً الخودةِ فيه ، أو الرداءةِ ، فتشيرُ إلى الحسنِ منه ، وتظهر جماليّته بحكم قريبٍ من الصّحة وقريب من البساطة.

⁽١) أعلام النساء (٣٤٦ ٣٤٧) بتصرف.

حسنَ الوصفِ ، مقاربَ الرصفِ». وروتْ قَطَامِ صاحبة ابنِ ملجم لكثيّر عزّة بعضَ شعره ، ونقدتُهُ ، وفضّلتْ عليه امرأ القيس. .

* بيد أنَّ المرأة في عَصْر الجاهليّة كان لها شأنُ يُذكرُ في الشِّعْرِ والأدبِ ، فهناك عشراتُ منَ الشَّواعر ، ذهبت أشعارهُنّ إلا قليلاً جاءنا في بعضِ الأخبار؛ منهنّ كبشةُ أخت عمرو بن معدي كرب ، وجليلةُ بنت مرّة زوج كليب وائل ، وميسةُ بنتُ جابر امرأةُ حارثة بن بدر ، وضيفتنا الخنساء بنت عمرو السّلمية ، وخِرنِق بنتُ بدر (۱) ، وليلى العفيفة (۲) ، وأميمةُ زوج ابن الدّمينة الشّاعر ، وغيرهنّ .

* وقد أوردت بعض الأخبار التي وصلَت إلينا بأنَّ أبا نُواس الحسنَ بنَ هانيء كان يروي لستين شاعرة من شاعراتِ العرب؛ ومنهنّ مَنْ بلغ من شأنها أنْ يستحكمَ إليها فحولُ الشعراء ، كأُمَّ جندب زوجِ امرى ِ القيس ، فقد حكَّمها زوجُها امرؤ القيس بينَه وبين علقمة الفحل ، فحكمتْ حكماً دلّ على ذكاء ومعرفة وبصر (٣) ، وكانت هندُ بنتُ الخس ، وجمعةُ بنتُ حابس من الخطيبات المنوهات الشّهيرات.

الخَنْسَاءُ وَهِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةً:

* كانتِ الخنساءُ بنتُ عمرو الشّلميّة أميرة شاعراتِ عَصْرِها ، وهي منْ
 أكثرِ شواعرِ العربِ في عصرها ومصرِها فَخْراً بأخويها وبشجاعتِهما؛ ولما

⁽۱) اقرأ سيرة هاتين المرأتين في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» طبعة دار اليمامة بدمشق عام ۲۰۰۰ م.

⁽٢) اقرأ سيرة هاتين المرأتين في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» طبعة دار اليمامة بدمشق عام ٢٠٠٠ م.

⁽٣) حكومة أم جندب مشهورة في كتب الأدب ، لكننا نشكُّ في صحتها ، ونؤمنُ ونوقن بأنّها موضوعة مخترعة .

قُتِلا هزَّها ذلك ، وظلَّتْ مشدودةَ الإحساسِ ، تقولُ الشَّعر في رثائهما ، فيتجاوبُ الزَّمنُ مع صدى شدوها بهما ولهما ، وتعداد محاسنهما.

* ولعلَّ الخنساء كانتْ تحسُّ باللذِة في ذلك وخصوصاً في رثاءِ أخيها صخر ، فلا تملُّ من ترداد الرّثاء فيهِ ، والبكاء عليه ، وكانت تنطلقُ تسمعُ العرب في الأسواقِ نفثاتها وأشعارها فيه ، وهذا ما يصوّرُ للباحثِ احتفالها بِشِعْرِ الرّثاء ، وفتنتها بشجاعةِ أخويها وبسالتِهما في ميادين الفروسيّة والقتالِ ونزالِ الفُرسان والأبطال.

* قال عبد الرحيم العبّاسي في «معاهده»: «وكانتِ الخنساءُ في أوّل أمرِها تقولُ البيتَيْن والثّلاثة ، حتى قُتِلَ أخواها معاوية وصخر ، وكان صخر أخاها لأبيها ، وكان أحبّهما إليها ، لأنّه كان حليماً جواداً محبُوباً في العشيرة»(١).

* وتروي الأخبار التي تناقلها الرُّواةُ فيما بينهم أنَّ لقاءً قد تمَّ بين الخنساءِ وهند بنتِ عتبة العبشميّة عُقيبَ غزاةِ بدر ، وتناشدتا الأشعار ، وكلّ واحدةٍ منهما تذكرُ ما حلَّ بساحتِها من المصائبِ بمقتلِ الأحبّةِ من الأهلين والأقارب الأدنين وقالت الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا: إنَّ هذا اللقاءَ بينَ هاتين المرأتين الرَّاثيتين قد كانَ في سوقِ عُكاظ الشَّهير ترى هل التقتا فِعْلاً ، وهل جمع الدهرُ بينهما هناك ، وبثَّتْ كلُّ واحدةٍ منهما الأخرى شجونَها ، وألقَتْ ما في نفسِها؟!!

* إذاً ، دعونا نقرأ قصة اللقاء التي جادَتْ بها بعضُ المصادر ، وجاءتْ
 في كثيرٍ من كُتُب الأدب.

* فقد ذكرتْ دواوين الأدب وكتب الأسمار والسِّير قصّة لقاء الخنساء

⁽١) معاهد التنصيص (١/ ٣٤٩).

عقيلة العرب هند بنت عتبة في عكاظ فقالت ما مفادُه: «كان صخرُ بنُ عمرو السُّلمي ذا بأس وشجاعةٍ وفروسيّةٍ ، ويزينُ ذلك كلَّه السَّحَاء الذي تفيضُ به يداه ، فقد كان منَ الأجوادِ المعدودين ، وكان قد قاسمَ أخته الخنساءَ مالَه ثلاث مرّات في دهرِه ، فلمّا هلك أبو الخنساء وأخواها: صخرٌ ومعاوية ، جعلت ترثيهم ، وتشهدُ الموسم ، وقد سَوَّمَتْ (١) هودجَها برايةٍ وتقول: أنا أعظمُ العربِ مصيبةٌ ، وتبكيهم في شعرِها حتى عَرفَتِ العربُ ذلك منها ، فلما كانتْ وقعةُ بدرِ الكبرى بين المسلمين والمشركين ، وقَتلَ فيها من مشركي قريش: عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة ، والوليدُ بنُ عتبة بن ربيعة العبشميون ، أقبلتْ هندُ بنتُ عتبةَ بنِ ربيعةَ ثرتي أباها وعمُّها وأخاهَا ، وتقولُ فيهم الأشعار ، وبلغَها ما كانت تفعلُ الخنساءُ في الموسم وتسويمها هودجَها ، ومعاظمتها العرب بمصيبتها ، فقالت هندُ بنتُ عتبة: أنا أعظمُ منَ الخنساءِ مصيبةً ، وأمرتْ بهودجها فسوِّمَ برايةٍ أيضاً ، وشهدتِ الموسمَ بعكاظ ، _ وكانت عُظاظ سوقاً تجتمعُ فيه العرب _ ، وجعلتْ تسألُ عن الخنساءِ ، فَدُلَّتْ عليها ، فقالتْ: اقرنُوا جَمَلي بجَملِها ، فَفَعَلُوا ؛ فلمَّا دَنت منها نظرتِ الخنساءُ إليها وقالت: مَن أنتِ يا أُخيَّة؟ فقالت: أنا هندُ بنتُ عتبة بن ربيعة أعظمُ العرب مصيبةً ، وقد بلغني أنَّك تعاظمينَ العرب بمصيبتك ، ففيمَ تعاظمينَهم؟ قالتِ الخنساءُ: بأبي عمرو بن الشّريد ، وأخوي صخْرِ ومعاويةً؛ ففيم تعاظمينَهم أنتِ؟

قالت: بأبي عتبةَ بنِ ربيعة ، وعمّي شيبة بنِ ربيعة ، وأخي الوليدِ بنِ عتبة.

قالتِ الخنساءُ: أَوَ سَواءٌ هم عندك يا أخت؟! ثم إنَّها أنشأتْ تقولُ:

⁽۱) «سومت»: جعلت علامة على الهودج.

أبكى أبى عَمْراً بعين غزيرة وصنويً لا أنسى معاوية الذي وصَخْراً ومَنْ ذا مثلُ صخر إذا غَدا فَذَلكَ يَاهِنْدُ الرَّزيّة فاعْلَمي

فقالتْ هندُ بنتُ عتبة تجيبُها:

أَبْكى عميدَ الأَبْطَحَيْن كلَيْهما أَبِي عتبةُ الخيراتِ ويحكِ فاعْلَمي أولئكَ أهلُ المجدِ منْ آلِ غالبٍ

قَليل إذا نامَ العيونُ هُجودُهَا له منْ سَراةِ الحرّتَيْن وفودُهَا بِسَاهمةِ الأبصارِ قُبِّ يقودُهَا ونيرانُ حربٍ حين شُبَّ وقودُهَا

وحاميهما من كُلِّ باغ يُريدُها وشيبة والحامي الذِّمار وليدُها وفي العزّ منها حين تُثنّي عديدُها(١)

* ويروي الميداني في «مجمع الأمثالِ» قصّة لقاء الخنساء هند بنت عتبة في بعضِ المواسم فقال: «أقبلت ـ الخنساء ـ من الموسم ، فوجدتِ النَّاسَ مجتمعينَ على هندِ بنتِ عتبة بن ربيعة ، ففرجَتْ عنها ، وهي تنشدُهم مراثي في أهلِ بيتها ، فلما دنَتْ منها قالت: على مَنْ تبكين؟

قالت: أبكي سَادةً مضوا.

قالت: فأنشديني بعضَ ما قُلْتِ.

فقالت هند: «أبكي عمودَ الأبطحين. . . . الأبيات. . . ».

فقالتِ الخنساء: «مرعى ولا كالسَّعدان» ، فذهبَتْ مثلًا» (٢). ويُضْرَبُ للشيء يفضلُ على أقرانِهِ وأشكالهِ.

⁽١) انظر: ديوانها (ص ٢١٦ ـ ٢١٨) طبعة بيروت ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٣).

⁽٢) انظر: مجمع الأمثال (٣/ ٢٦٥) بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. طبعة البابي الحلبي بمصر. ونقلَ الميداني عن أبي عُبيد قال: «حكى المفضّل أنّ المثل لامرأة من طبيء ، كان تزوّجها امرؤ القيس بن حُجر الكندي ، وكان مفرّكاً ، فقال لها: أين أنا من زوجكِ الأول؟ فقالت: مرعى ولا كالسّعدان أي إنّك وإن كنتَ رضاً فلست كَفُلان. (مجمع الأمثال ٢٦٦/٣).

* وأودُّ أَنْ أهمسَ في أذنِ القارىءِ الكريم فأقولُ له: إنّني في شكَّ من صحّةِ هذه القصّة ، وإنْ وردَتْ في أكثر من مصدر ، وإنَّ القَلْبَ لا يطمئنُ لَها ، خصوصاً أنَّ في القصّة اضطراباً ، وخَلْطاً في بعض التّحليلات في اسم والدِ الخنْساء عمرو بن الشَّريد.

* من ذلك ما ذكره القَلْقَشندي في كتابه (نهاية الأربِ في معرفة أنساب العرب) (ص ٦١ طبعة القاهرة ١٩٥٩ م) أنّه ثبت في صحيح مسلم أنّ أبا الخَنْساء وهو عمرو بن الشَّريد كان يردفُ النَّبي ﷺ ، ويروي له شعر أبا الخَنْساء.

* يقولُ القَلْقَشندي: «وقد ثبتَ في صحيحِ مسلم عن عمرو بن الشَّريد أنَّه قال: ردفتُ النَّبيَّ ﷺ يوماً فقال: «هلُ معكَ من شِعْرِ أُميَّة بنِ أَبِي الصَّلت شيء»؟

قلت: نعم.

قال: «هيه».

فأنشدتُه بيتاً ، فقال: «هيه».

فأنشدتُه بيتاً ، حتى أنشدتُه مئة بيت ، فقال: «إنَّه كادَ ليسلمُ في شِعْره».

* ومنَ الملاحظِ أنَّ القلقشندي قد وهمَ في هذا الحديث في اسمِ عمروِ بنِ الشَّريد، حيثُ ظنَّه أنَّه والدُ الخنساء؛ والصَّحيح أنَّ راوي الحديث هو الشَّريد بنُ سُويد الثَّقفيّ، والذي روىٰ عنه ذلك هو ابنه عمرو بنُ الشَّريد بن سُويد الثَّقفيّ، وقد ترجم له ابنُ الأثير في "أسدِ الغابةِ"، كما ترجم للشَّريد أيضاً ابن حجر في "الإصابة"، وذكرًا الحديث السَّابق، فقد ذكرهُ ابن الأثير بسندِ رفعه إلى عمرو بن الشَّريد الثقفي عن أبيه الشَّريد قال: استنشدني رسولُ الله ﷺ شعرَ أميّة بن أبي الصَّلت، فأنشدته الشَّريد قال: استنشدني رسولُ الله ﷺ شعرَ أميّة بن أبي الصَّلت، فأنشدته

مئة بيت ، ما أنشدتُه بيتاً منها إلاّ قال: «إيهِ» حتى وفّيتُها مئة؛ فلما وفيتُها قال: «إنْ كادَ لَيسْلِم»(١).

الخَنْسَاءُ والإسلامُ:

* يروي كُتَّابُ السِّيرة والتِّراجم والطَّبقات أنَّ الخنساء قدمتْ على رسولِ الله ﷺ مع قومها فأسلمتْ معهم ، وغدتْ واحدةً من الصَّحابيات اللواتي سعِدْنَ ونعمْنَ بالصُّحْبَةِ النَّبويَّةِ ، وكُنَّ منْ خيرِ أُمَّةٍ في خيرِ القُرون.

* وذكروا أنَّ رسولَ الله ﷺ كان يستنشدُهَا ويعجبُه شعرها ، فكانت تنشدُه ، ويقولُ «هيه يا خُناس» أو يوميء بيده (٢).

* والخنساءُ شاعرةٌ منَ الشُّواعر في عَصْر المُخَصْرمين (٣) ، وتُطلقُ

 ⁽۱) انظر: أسد الغابة (۲/ ۲۲۹) طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت؛ والحديث أخرجه أحمــد (۳۸۸/٤) ، وابــن سعــد (۳۷٦/٥) ، والبخــاري فــي الأدب المفــرد (ص ۸۲۹).

⁽٢) أسد الغابة (٦/ ٨٩) ترجمة رقم (٦٨٧٦)؛ والاستيعاب (٢٩٢/١٢)، والإصابة (٢٦/ ٢٦٢). ومعنى «هيه» كلمةُ استحسانِ واستزادةِ من الحديث.

 ⁽٣) «المخضرمون»: مِنْ خضرم ، والخِضْرِمُ: الكثيرُ منْ كُلّ شيءٍ. والخِضْرم: الجوادُ
الكثيـرُ العطيّـة ، والجمعُ: خَضَـارِم وخَضَـارمـة ، والهـاءُ لتـأنيـثِ الجمعِ ،
وخِضْرمون ، ولا تُوصف به المرأة.

_ وناقةٌ مخضرمةٌ: قطعُ طرفِ أذنها ، والخضرمةُ: قطعُ إحدى الأذنَيْن ، وهي سمَةُ الجاهليّة. وخضرمَ الأذن: قطعَ من طرفها شيئاً وتركه يَنُوسُ ، وقيل: قطعَها بنصفَيْن ، وقيل: المخضرمةُ من النُّوق والشَّاء المقطوعة نصف الأذن. وقيل لكلّ مَنْ أدركَ الجاهلية والإسلام: مخضرم ، لأنَّه أدركَ الخضرمَتين: خضرمة الجاهلية وخضرمة الإسلام.

ـ ورجلٌ مخضرم: إذا كان نصفُ عمره في الجاهليّةِ ونصفُه في الإسلام ، وشاعرٌ مخضرم: أدركَ الجاهليّة والإسلام مثل لَبيد وغيره ممّن أدركهما.

ـ ورجلٌ مخضرم: أبوه أبيضُ وهو أسود. ورجلٌ مخضرم: ناقصُ الحسَب. وقيل: هو الذي ليس بكريم التَّسب. وقيل: المخضرمُ في نسبهِ المختلطُ من أطرافِه. =

كلمةُ مخضرم عند العربِ في الأصلِ علىٰ مَنْ أدركَ الجاهليّةَ والإسلام ، ثمّ أُطلقَتْ على طبقةِ الشُّعراء الذين أدركوا الجاهليّةَ والإسلام.

* فالخنساءُ واحدةٌ من عَصْرِ المُخضْرمين لأنَّ الإسلامَ يكادُ يشطرُ حياتها إلى شطرَيْن ، وهي شاعرةٌ مجيدةٌ ، عاشَتْ معظمَ حياتها الشّعرية ومجدها الفنيّ في العَصْر الجاهليّ. قال ابنُ قُتيبة في كتابهِ الموسوعي «الشّعر والشُّعراء»: «وهي جاهليّةٌ ، كانت تقولُ الشَّعر في زمنِ النَّابِغة الذُّبياني»(١).

* وأمّا ابنةُ الشّاطىء عائشةُ عبد الرحمن فتقولُ في كتابها عن «الخنساء» ما نصّه: «عاشتِ الشّطرَ الأهمّ والأحفلَ من حياتها في أخرياتِ العَصْر الجاهليّ، ولم تدركِ الإسلام إلا بعد أن اكتملَتْ حياتُها الفنية بوجْهِ خاص ، وشارفَتْ نهايتها، ومن أجلِ هذا جازَ لنا أنْ ننسبها فنيّاً إلى العَصْر الجاهلي ، وإن كانت حياتُها قد امتدت في الواقع إلى ما بعد الإسلام سنين عدداً؛ وإذا حقّ لمؤرخي الأعلام أنْ يسلكوا تماضر بنتَ عمرو بنِ الحارث بنِ الشريد السّلمي في عدادِ المخضرمين ، فإنّ المؤرّخ الأدبيّ لا يهونُ عليه أنْ يحسبَ الخنْسَاء الشّاعرة منهم ، وإنّما هي عنده جاهليّةٌ خالِصَةٌ (٢٠).

* ومهما يكن منْ أمرٍ ، فالخنساءُ شاعرةٌ منَ المخضرمين ، تشرَّفَتْ بالإسلام وعزَّتْ به ، ونُظِمَتْ في عدادِ الصَّحابيات رضي الله عنهنَّ جميعاً.

* قال مُصطفى صادق الرَّافعي ـ رحمه الله ـ: «وأشهرُ المخضرمين: لبيدُ، وحسَّان، والحُطيئة، والنَّابغة الجعدي، والخنْساء»(٣).

وقيل: هو الذي لا يُعرفُ أبواه ، وقيل: هو الذي ولدته السَّراري.
 (لسان العرب ١٨٤ / ١٨٥ ـ ١٨٥) باختصار.

⁽١) الشُّعر والشُّعراء (١/ ٣٤٤).

⁽٢) الخنساء لبنت الشاطيء (ص ٩) ، القاهرة طبعة ١٩٥٧ م.

⁽٣) تاريخ آداب العرب (٣/ ٥٣).

* ولا نستطيعُ أَنْ نُجزّىءَ حياةَ الخنساءِ ، أو أَنْ نفصلَ بينَ حياتها في الجاهليّةِ ثمّ الإسلام ، فهي شاعرةٌ تمتلكُ موهبةَ الشّعر ، وقد وقعَتْ تحتَ تأثيرِ عهدَيْن متقاربيْن هما: الجاهليّة والإسلام ، وقد تأثّرت بكليهما؛ ولعلّ تأثرها بمقتلِ أخويها كان أشدّ حتى في الإسلام.

* فقد روي أنَّ عمرَ بنَ الخطاب _ رضي الله عنه _ أُخْبِرَ بأنَّ الخنساءَ دخلتِ المدينة المنوّرة وهي مَتلبِّبةٌ بزي الجاهليّة ، فقام إليها عمرُ في أناس من أصحابه ، فدخل عليها ، فإذا هي على ما وُصفَتْ له منها ، فعذَلها ووعظها وأخبرها أنَّها تموتُ ، ولو خُلّدَ أحدٌ لخلّدَ رسولُ الله ﷺ ، والذي تصنعينَ ليس من صُنْع الإسلام.

فقالت: اسمع منّي ما أقولُ في عَذْلكَ إيّاي ولومكَ لي.

فقال: هاتي؛ فأنشأَتْ تقول:

سَقَىٰ جَدَثاً أكنافُ غمرةَ دونَه مِنَ الغَيْثِ دَيْمَاتُ الرَّبيعِ ووابلُه أُعيرهمُ سَمْعي إذا ذُكِرَ الأَسَىٰ وفي القَلْبِ منه زفرةٌ ما تُزايلُه وكنتُ أعيرُ الدَّمعَ قبلَكَ مَنْ بكىٰ فأنْتَ علىٰ مَنْ ماتَ بعدكَ شَاغِله (١)

⁽۱) انظر: ديوانها (ص ٤١٤) تأليف د. إبراهيم عوضين ـ مصر ـ ١٩٨٥ م؛ وقد وردتِ القصَّةُ بشكلِ آخر في بعضِ المصادر ، كالوافي بالوفيات ، حيثُ قال ما مفاده: «يروى أنَّه لما كانَتْ خلافةُ عمر ـ رضي الله عنه ـ أقبلَ بنو عمّها إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب فقالوا: يا أميرَ المؤمنين ، هذه الخنساءُ ، لم تزلْ تبكي على أبيها وأخويها في الجاهلية حتى ذهبَتْ وأدركتِ الإسلامَ ، وقد قرّحَتْ مآقيها كما ترىٰ ، فلو نَهيتَها لرجونا أن تنتهيَ . فدخلَ عليها فإذا هي علىٰ ما وُصِفَتْ له ، فقال: ما أقرحَ مآقي عينيك يا خنساء؟

قالت: بكائي على السَّادات من مُضر. فقال: حتّى متى يا خنساء؟! اتّقي الله ، وأيقني بالموتِ؛ إنَّ الذي تصنعينَ ليس من صُنع الإسلام ، وإنّه لو خلَدَ أحدُّ لخلد رسولُ اللهِ ﷺ ، وإنَّ الذين تبكينَ هلكوا في

* وروي أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب _ رضي الله عنه _ دخلَ البيتَ الحرام ، فرأى الخنساءَ تطوفُ بالبيتِ محلوقةَ الرّأسِ ، تبكي وتلطم خدّها ، وقد علَّقت نَعْلَ صخر في خِمارِها، فوعظَها؛ فقالت: إنّي رُزِئْتُ فارساً لم يُرزأُ أحدٌ مثله.

فقال: إنَّ في النَّاسِ مَنْ هو أعظمُ مَرْزَأَةً منك ، وإنَّ الإسلام قد غطّى ما قبله ، وإنّه لا يحلُّ لك لطْمَ وجهكِ ، وكشفَ رأسكِ!!

فَكُفَّتْ عن ذلك. وقالت ترثي أخاهَا صخراً وأخاها معاوية:

هَـريقـي مِـنْ دُمـوعـكِ واسْتَفيقـي وقُــولــي إنَّ خيــرَ بنــي سُلَيــم وإنّــي والبُكــا عَــن بُعْــدِ صَحْــرٍ

وصَبْراً إِنْ أطفْتِ ولَـنْ تُطيقي وفـارسَهـم بصحـراء العَتيْتِ كسَالِكَةٍ سوى قَصْدِ الطَّريتِ

ولكنِّـي وجْــدتُ الصَّبْــرَ خَيــراً

ومنها:

ومنها:

وإذْ فينا معاوية بن صَخْر فبكيه فقد ولَّه على حميداً

من التَّعليقِ والـرّأْسِ الحليقِ

على أَدْمَاء كالجَملِ الفَتيقِ أصيلَ الرّأي محمودَ الصّديق^(١)

قالت: ذلك أطول بعويلي عليهم.
 قال: فأنشديني ممّا قلت.

قالت: أما إنِّي لا أنشدك مما قلتُ اليوم، ولكنِّي أنشدك مما قُلتُ السّاعة، وأنشدت: «سقَى جَدثاً أكناف...» فكأنَّ عمرُ رقَّ لها فقال: لا ألومك يا خنساء في

البكاءِ عليهما ، خلّوا سبيل عجوزكم ، فكلّ امرىء يبكي شجوه ، ونامَ الخلي عن بكاء الشّجي،!! (الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٩٣].

⁽۱) ديوان الخنساء (ص ۸۸_۸۹) باختصار ، نقلاً عن شعر الخنساء لكَرم البستاني (ص ۱٤۲) ، وانظر: شرح مقامات الحريري (۱/ ۳۰۶).

مَعَ الخَنْسَاءِ في وصيّةِ أبنائهَا:

* تذهبُ المصادرُ المتنوعةُ إلى قصّةِ مفادها أنَّ الخنساءَ قد حضرتْ حربَ القادسيّة ، وأنَّها رافقتْ بنيها الأربعة يومذاك حينما ضُرِبَ البعثُ علىٰ المُسلمين ، فذهبتْ معَهم وأوصَتْهم في وقعةِ القادسيّة.

* ومنَ العجيبِ أنَّ هذه الوصيَّة قد وردتْ في المصادرِ التي بين أيدينا على ألوانِ ثلاثة:

* إمّا مُشَاراً إليها كما جاء في «تاج العروس» للزَّبيدي الذي قال: «ورُوي أنَّها شهدتِ القادسيَّة ومعها أربعةُ بنين لها ، فلمْ تزلْ تحضُّهم علىٰ القتالِ ، وتذكرُ لهم الجنَّة بكلام فصيح ، فأبلُوا بلاءً حسَناً ، واستُشْهِدوا ، فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يُعطيها أرزاقَهم».

* وإمّا باختلافٍ في النّص كما جاء عند عمر رضًا كحَّالة صاحب كتاب «أعلام النّساء» (٣٦٨ ـ ٣٦٨) ، الذي اختلف مع غيرِه ، فلم يذكر أنّهم بنو أب واحدٍ ، وإنّما هم بنو امرأةٍ واحدة .

* وإمّا اختلاف بحذفِ بعضها ، كاختلافِ ابنِ حجر في «الإصابة»
 (٢٢٧/١٢) الذي قدَّمَ وأخَّر في بعضِ العبارات وجاءَ بالوصيّةِ مختصرة.

* ونحنُ ذاكرو الخطبةَ التي أوردهَا ابنُ عبد البرّ في كتابه الشّهير «الاستيعاب» _ وأوردَها غيره أيضاً _ ، فقال ابن عبد البرّ ما نصُّه: «ذكرَ الزُّبيرُ بنُ بكَّار ، عن محمدِ بنِ الحسنِ المخزوميّ (١) ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبد الله ، عن أبيهِ ، عن أبيهِ ، عن أبيهِ ، عن أبيهِ ، عن أبيه ، قال:

* حضرتِ الخنساءُ بنتُ عمرو بن الشَّريد السُّلميَّة حربَ القادسيَّة ،

⁽١) محمد بن الحسن المخزومي ، المعروف بابن زَبَالة أحد المتروكين.

ومعها بنوها أربعة رجالٍ ، فقالت لهم منْ أوّلِ الليلِ: يا بنيّ ، إنكم أسلمتُم طائعين ، وهاجرتُم مختارين ، وواللهِ الذي لا إله إلّا هو إنكم لَبنو رجلٍ واحدٍ ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ؛ ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، ولا هجنتُ حسبَكم ، ولا غيّرتُ نسبكم ؛ وقد تعلمون ما أعدَّ اللهُ للمُسلمينَ منَ النَّواب الجزيل في حربِ الكافرين ؛ واعلموا أنَّ الدَّار الباقية خيرٌ منَ الدارِ الفانية ، يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِيرِ ﴾ وَالمُوا أَنَّ الدَّار الباقية وَرَابِطُوا وَاتَّهُوا اللهَ لَعَلَّمُ تُقَلِّمُون ﴾ [آل عمران : ٢٠٠]؛ فإذا أصبحتُم غداً إنْ شاءَ اللهُ سالمين ، فإذا رأيتُم الحربَ قد شمّرتْ عن ساقِها ، وباللهِ على أعدائهِ مستنصرين ، فإذا رأيتُم الحربَ قد شمّرتْ عن ساقِها ، واضطرمَتْ لظي على سِيَاقِها ، وجللت ناراً على أوراقِها ، فتيمّمُوا وطيسَها ، وجالدوا رئيسَها عند احتدامِ خميسها ، تظفروا بالغُنْم والكرامة ، في دارِ الخلدِ والمقامة .

* فخرج بنوها قابلين لِنُصْحِها ، عازمينَ على قولها. فلمَّا أضاءَ لهمُ
 الصُّبح ، باكروا مراكِزَهم ، وأنشأ أوّلُهم يقولُ:

يَا إِخْوَتِي إِنَّ العجوزَ النَّاصِحَة قَدْ نَصَحَنْنا إِذْ دَعَنْنَا البَارِحَة مَقَالِمَ النَّالِحَة مَقَالِمُ السَّالِ الضَّروسَ الكَالَحَة وإنَّما تَلْقَون عَنْدَ الصَّابِحَة من آلِ سَاسَانَ الكلابَ النَّابِحَة قد أيقنُوا منكم بوقع الجَائِحَة وأنتمُ بين حياةٍ صَالِحَة قد أيقنُوا منكم بوقع الجَائِحَة وأنتمُ بين حياةٍ صَالِحَة أو مَيتةٍ تورثُ غُنماً رابحَة

ـ وتقدُّم فقاتَل حتى قُتِل رحمه الله .

* ثمَّ حملَ الثَّاني ، وهو يقولُ: إنَّ العجــوزَ ذاتُ حــزْمٍ وجَلَــدْ قـد أمـرتْـنَـا بـالسَّـداد والـرَّشَـدْ

والنَّظــر الأوفــقِ والـــرّأي السَّــدَدُ نصيحـــة منهـــا وبـــرّأ بـــالـــولَـــدُ

فَباكِروا الحربَ حماةً في العَددْ أو مِيتَــةِ تــورثكُــم عــزَّ الأَبــدْ

* فقاتلَ حتى استُشْهِدَ رحمه الله .

* ثمّ حملَ الثَّالث ، وهو يقولُ: واللهِ لا نَعْصـي العجــوزَ حَــرفَــا نُصْحــاً وبــرّاً صَــادِقــاً ولُطْفــا حتّـــى تلفُّـــوا آل كشـــرىٰ لفَّـــا إنّــا نــرىٰ التَّقْصيــرَ منكُــم ضَعْفَــا

* فقاتَل حتى استُشْهِد رحمه الله .

* ثمّ حملَ الرَّابِع وهو يقول: لسْتُ لخنْسَاءَ ولا لسلأخْسرم إنْ لم أرد في الجيشِ جيش الأعجم إمّـــا لِفُـــوزٍ عـــاجـــلِ ومَغْنَـــم

ولا لعَمْــروِ ذي السَّنَــاء الأَقْــدم ماض على الهولِ خِضَم خَضْرَم أَوْ لُــوفُــاةٍ فَــي السَّبيــلِ الأكــرم

إمّــا لفــوز بــارد علــى الكَبِــدُ

في جنَّةِ الفِردَوسِ والعيشِ الرّغَدْ

قد أمرتْنَا حَدَبِا وعَطْفَا

فبـادروا الحـربَ الضَّـروسَ زَحْفَـا

أو تكْشِفُوهم عن حِماكم كشْفَا

والقَتْــلَ فيكـــم نَجْــدةً وزُلْفَــيٰ

* فقاتل حتّى قُتِلَ رضي الله عنه وعن إخوتِه.

* فبلغَها الخبرُ فقالت: الحمدُ للهِ الذي شرَّفَني بقتلِهم ، وأرجو من ربّي أَنْ يجمعني بهم في مستقرّ رحمته. وكانَ عمرُ بنُ الخطَّاب رضي الله عنه يعطي الخنساءَ أرزاقَ أولادِها الأربعة لكلّ واحدٍ مئتي درهم حتى قَبضَ رضى الله عنه»^(۱).

⁽١) الاستيعاب (٢١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٨) بهامش الإصابة. وانظر: أسد الغابة (٦/ ٩٠) ، وخزانة الأدب (١/٤١٧)، والدر المنثور (ص ١١١)، وشرح مقامات الحسريسري (١/٣٥٦) ، ومعساهم التنصيسص (١/٣٥٣ ـ ٣٥٥) ، والإصسابــة (۱۲/ ۲۲۷ ـ ۲۲۸) وأعلام النساء (۱/ ۳۶۸ ـ ۳۷۰) وغيرها.

* إنَّ المتأمّل في هذه الوصيّة «الخنسائيّةِ» التي صدرتْ عن الخنساءِ ـ رضى الله عنها ـ ، يجدُ أنَّها وصيّةٌ متكلّفةٌ ، بل ظاهرةُ التّكلُّفِ والصَّنْعة الشَّديدة من مثل: «فاغدوا إلىٰ قتالِ عدوّكم مستبصرين ، وباللهِ على أعَدائِهِ مُسْتَنصرين»، ومثل السَّجع المصنوع: «وطيسها ، رئيسها ، خميسها». ولو كانتْ هذه الوصيّةُ صحيحةً لا عِللَ فيها ولا أسقامَ وأوهامَ لما سَهَا أو غَفلَ المصنَّفُونَ القُدماء عن ذِكْرِها ، أو الإشارة إليها. ثمَّ إذا عرفْنَا بعد ذلك كلَّه أنَّ مِنْ رواتها محمَّد بنَ الحسن المخزوميِّ المعروف بابن زبالة الذي نصَّ ابنُ حجر العَسْقَلاني في «الإصابة» (٢١/ ٢٢٧) ، على أنَّه أحدُ المتروكين ، ترجَّحَ لدينا أنَّ الوصيَّة موضوعةٌ مصنوعةٌ ، كما يتبيَّنُ لنا أنَّ ناسجَها وواضعَها قد جهلَ تماماً تاريخَ حياةِ الخنساءِ، وذلك أنَّها تزوَّجت اثنين، وقد ولدت أكبرَ بنيها من رواحةً بنِ عبد العزى، والباقين من مرداس بن أبي عامر _ كما مرَّ معنا _ ، ثم يتبيّن لنا جَهْل واضعها بتاريخ أكبرِ بنيها وهو أبو شجرة الذي أسلمَ ، ثمَّ ارتدَّ وعادى الإسلام ، ولم يعدْ إليهِ إلا مرغماً بعد أنْ ضاقتِ الدُّنيا في وجههِ ، فعاد مُعْلِناً التّوبة والنّدم على ما بدرَ منه ، وذلك واضحٌ من تاريخ أبي شجرةَ الذي ذكره الطَّبري في أحداث سنة (١١ هـ).

* ويظهرُ لنا جَهْل ناسجِ القصّة في أمرِ آخر هو تصوّره للخنساءِ ، حيثُ عرفَ من شعرها أنّها تمجّدُ البطولةَ والبسالةَ والشَّجاعة ، وكلّ ألوان الفروسيّة ، فوضع هذه الوصيّة على لسانها ، وعرفَ أنّه يعجبُها منْ أبنائِها أن يكونوا أبطالاً وشُجعاناً ، وعرفَ أنّها امرأةُ صدْقِ تحتفظُ بكرامتها ولا تسقطُ ، فأتى على لسانِها ما يصوّر هذين الأساسين اللذين اعتزّتْ بهما في حياتِها (١).

⁽۱) انظر: الخنساء شاعرة بني سليم للدكتور محمد جابر الحيني (ص ٩١) بتصرف يسير. سلسلة الأعلام رقم (١٦) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٧ م.

* ثمّ نأتي إلى الأبياتِ والأرجازِ التي قالَها أبناؤها وهم يتقدّمون إلى القتالِ ، حيث نجدُ التكلّف واضحاً أشدّ الوضوح في هذا الرجزِ الذي خرجَ من مشكاةٍ واحدةٍ ، ومن نفسٍ واحدٍ ، ومن ناسجٍ واحد ، والمتأمّلُ في رجّزِ الأبناءِ الأربعة يجدُ مصداقَ ما ذكرناه.

* وهناك أمرٌ مهمٌ جدّاً في هذا المجالِ ، وهو أنّنا لم نجد أثارةً من شعرِ الخنساءِ ، أو أيّ إشارة منها في رثاءِ أبنائها الأربعة بعد موتِهم في وقعة القادسيّة ، وهي الصَّادحةُ الشّاديةُ بفنّ الرّثاء ، والتي وصلتْ كلماتُ رثائها فلامَستْ سَمْعَ الجوزاء . فهل مردّ ذلك إلى ما كانت تأخذُه الخنساءُ من بيتِ المال من أرزاقِ أولادها!؟! أو أنّ الإسلامَ قد هذّبها وجعلها تصبرُ وتحتسبُ؟! أمْ أنّ راوي القصّة وهم ونسبَ إلى الخنساءِ قصّة مقْتَل أولادِها الأربعة ، في حين أنّ امرأة نَخْعيّةُ شهدتْ مع بنيها القادسيّة ، ودعت لهم ، وحادوا سالمين غانمين؟!

* ما رأيكم لو نسمعُ ونقراً قصّة المرأة النَّخعيّة هذه؟ ذكرَ عبدُ العزيز النَّعالبي في كتابهِ «خلافة الصِّديق والفاروق» نقلاً عن الطّبري قصّة هذه المرأة فقال: «ظهرت امرأةٌ في الميدانِ منَ النَّخع ، كان لها بنون أربعة حضروا حربَ القادسيّة ، فخطبتْ فيهم تحمّسُهم ، وتضري بخطابها الجنود ، فقالت: أيّ بني! إنكم أسلمتم فلم تبدّلوا ، وهاجرتم فلم تثوبُوا ، ولم تنبُ بكم البلاد ، ولم تقحمكم السّنة ، ثم جئتُم بأمّكم ، عجوز كبيرة ، فوضعتموها بينَ أيدي أهْل فارس ، والله إنكم لبنو رجلٍ واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنْتُ أباكم ، ولا فضحتُ خالكم ، انطلقُوا فاشهدوا أوّلَ القِتالِ وآخرَهُ ، وموتُوا كِراماً.

* فأقبلوا يشتدّون ، فلمّا غابُوا عنها ، رفعتْ كفّيها إلى السَّماء ، وهي تدعو الله وتقولُ في دعائِها:

* اللهم ادفعْ عن بنيّ ، ولا تجعلْ يومهم قبلَ يومي.

* فرجعُوا إليها بعد أَنْ أَبلُوا بلاءً حَسناً ، وأحسنوا القتالَ ، ما كُلِمَ رجلٌ كُلْماً واحداً»(١).

* إذاً ، فقد وضح الأمْرُ واستبانَ ، وظهرتِ الحقيقةُ في قصّةِ الخنساء وأولادِها الأربعة ، وعلمنا تماماً أنّ تلكم القصةَ مزعومةٌ ، وذلك للأسبابِ التي بيّنّاها آنفاً ، ثمّ تأتي قصة هذه المرأة النّخعية التي تشبه قصّتها _ إلى حدّ ما مع أولادها _ قصّة الخنساءِ المزعومة مع أولادِها ، ولكنَّ أولادَ النخعيّة يعودون إليها وهم سالمون ، أما أبناء الخنساء _ كما زعموا _ فقد ماتُوا في ساحةِ الجهاد.

* لقد كانتِ الخنساءُ في الحقيقة امرأة فريدة الصِّفات بين النساء ، ويندر أنْ نجد لها مثالاً في كثيرٍ من البيئات العربيةِ ، فهي المرأة القويّة التي تزدري الخوف والجبن ، وترى قوام الرّجولة في الإقدام والشَّجاعة والصَّبرِ على المكاره ، ثم إنها تنفعلُ بالبطولةِ الفذّة ، وتتأثّر بشجاعةِ الأبطالِ وخصوصاً شجاعة أخويها معاوية وصخر ، ثمّ بطولة أبنائها الذين قُتلوا في حرب القادسية ـ كما زعموا ـ .

* ويروى أنَّ الخنساء قالت لما شهدتِ القادسية:

دلَّ على معرف قِ وجُهه بِ بوركَ هذا هادياً منْ دَليل تحسبُ عَضْبَان من عزِّهِ ذلكَ منه خُلتٌ ما يحول ويل أمِّه بُعُر مَا يحُول ويل أمِّه مِسْعَرَ حَرْبِ إذا أُلقيَ فيها وعليهِ الشَّليل (٢)

⁽١) انظر خلافة الصديق والفاروق (ص ٢٤٠ ـ ٢٤١) طبعة دار ابن كثير بدمشق.

⁽٢) أعلام النساء (١/ ٢٧١).

أَثَارةٌ من نَشْرِهَا وَشِعْرِهَا:

* تُعتبرُ الخنساءُ منْ أفصحِ النِّساء العربيّاتِ في عَصْرِها ، فقد ملأتِ الدّنيا وشَغَلَتِ النَّاسِ بأشعارِها وأقوالِها ، حيثُ عبّرتْ بنفثَاتِها الرّقيقاتِ أصدقَ تعبيرِ عن إحساسها ومشاعرِها ، وخُصوصاً في فَنّ الرّثاء.

* ويُرجِعُ بعضُ المصنّفينَ بلاغةَ الخَنْساء وفصاحتَها إلى مقتلِ أخويها ، فقد ذكرَ ابنُ حجر وغيرُهُ قالوا: «وكانتِ الخنساءُ تقولُ في أوَّلِ أمرِها البيتيْن أو الثَّلاثة ، حتى قُتِلَ أخوها الشّقيق معاويةُ بنُ عمرو ، وقُتِلَ أخوها لأبيها صَخْر ، وكان أحبّهما إليها لأنَّه كان حليماً جَواداً محبُوباً في العشيرة».

* وقد أُثِرَتْ عن الخنساءِ بعضُ الكلماتِ البليغةِ ، ومنها ما ذكروا بلاغتَها في وصفِ أخويها ، حيث أوردَ صاحبُ «أعلامِ النّساء» ذلك فقال: «قيل للخنساءِ: صِفي لنا أخويك صَخراً ومعاوية».

فقالت: كان صخرٌ واللهِ جنّة الزَّمان الأغبر، وذعافُ الخميس الأحمر، وكان واللهِ معاوية القائِل الفَاعل(١١).

قيل لها: فأيُّهما كان أسْنَى وأَفْخر؟

قالتْ: أمَّا صِخرٌ فَحَرُّ الشِّتاء ، وأمَّا معاويةُ فبردُ الهواءِ.

قيل لها: فأيُّهما أوجَعُ وأفْجَعُ؟

قالت: أمّا صخر فجمرُ الكبد؛ وأمّا معاويةُ فسقَامُ الجَسَد. وأنشأتْ تقولُ: أَسَدانِ مُحمَرًا المخَالِبِ نَجْدة بحْرانِ في الزَّمَنِ الغَضُوبِ الأَنْمرِ قَمرانِ في النَّادي رَفيعَا محتدٍ في المجدِ فرعَا سُؤدد مُتَخيّرِ^(٢)

⁽١) انظر: الإصابة (١٢/ ٢٢٥) ، ومعاهد التنصيص (١/ ٣٤٩) وغيرهما.

 ⁽۲) أعلام النساء (١/٣٦٧) ، وسواء أصحت هذه القصة أو لم تصح ، فإنها تدل على
 أن الأخوين لديها سواء ، فهما أخوان ، وهما بطلان.

* وذكرَ ابنُ قُتيبة أنَّ الخَنساءَ كانت تقولُ: «كنتُ أبكي لِصَخرِ منَ القَتْل ، فأنا أبكي له اليومَ منَ النَّار»(١).

* وكان أخوها صخرُ بنُ عمرو شريفاً في قومهِ بني سُليم ، وخرجَ في غزاةٍ ، فقاتلَ فيها قِتالاً شديداً ، وأصابَه جرحٌ رغيبٌ _ واسعٌ _ ، فمرضَ من ذلك ، فطالَ مرضُه ، وعاده قومُه ، فكانوا إذا سألوا امرأته سَلْمي عنه قالت: لا هُوَ حيٌّ فيُرجى ، ولا ميتٌ فيُنْعى ، وصخرُ يسمعُ كلامَها ، فشقَّ عليهِ ذلك . وإذا قالوا لأمِّه: كيف صخر اليوم؟ قالت: أصبحَ صالحاً بنعمةِ الله؛ فلمّا أفاق من علّته بعضَ الإفاقة ، عمدَ إلى امرأتِهِ سلمى ، فعلَقها بعمودِ الفسطاط حتى ماتت .

* وقال غيرُه: بل قال: ناولوني سَيْفي لأنظرَ كيفَ قوّتي ، وأرادَ قَتْلَها ، وناولوه السَّيفَ فلمْ يُطقِ السَّيف ، ففي ذلكَ يقول:

أرى أمَّ صَخْرِ لا تملُّ عِيَادَتي وما كنْتُ أخشَى أنْ أكونَ جِنَازةً فأي امرىء ساوى بأمِّ حليلة أهمُ بأمرِ الحزمِ لو أستطيعُه لَعمري لقد أنبهتِ مَنْ كانَ نائِماً وللْمَوتِ خيرٌ من حياة كأنَّها

وملَّتْ سُلَيمى مَضْجَعي ومَكَاني عليكِ ومَنْ يغترُ بالحَدَثَانِ عليكِ ومَنْ يغترُ بالحَدَثَانِ في لا عاش إلّا في شَقاً وهَوانِ وقد حِيْلَ بينَ العِيْرِ والنَّزوانِ وأسْمَعْتِ مَنْ كانَتْ له أُذنانِ محلّةُ يعسوبِ برأسِ سنَان (٢)

الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٧).

⁽٢) انظر: الشّعر والشّعراء (١/ ٣٤٥)، وديوانها (ص ٢١٥) طبعة بيروت، وغير ذلك كثير، ومعنى: «الجِنَازة»: بكَسْرِ الجيم؛ وفتحُها غيرُ صحيح، وهي السَّريرُ الذي يُحملُ عليه الميّت. و«العيرُ»: الحمار، و«النَّزوان»: الوثب، و«اليعسوب»: أميرُ النّحل وذكرُها، ثمّ كثرَ ذلك حتّى سمّوا كلَّ رئيسٍ يَعْسُوباً، ومعنى البيت: إنَّ الرئيسَ إذا قبيلَ ، جُعِلَ رأسُه على سِنانٍ ، يعني أنَّ العيش إذا كان هكذا فهو الموتُ.

* وللخنساءِ مراثٍ كثيرةٌ رائعةٌ في أخويها ، وعندما نتحدَّثُ عن فنّ الرّثاء ، يتبادرُ إلى الذّهنِ المرأة الرّاثية ، وتمثّلُها ضيفتُنا الخنساءُ بنتُ عمرو السُّلميّة التي كانت من السَّابقات في هذا البابِ ، وهذا الفنُ الشِّعري الذي لمع وسطَع في أشعارِ النّساء؛ وذلك أنَّ النِّساء أسرعُ تأثراً منَ الرّجال ، وخصوصاً في مجالِ البداوة هنّ أظهرُ تأثراً منَ الرّجال ، لأنَّ السَّجاعة واحتمالِ الحياةَ البدويّة عند الرِّجال تقومُ ـ على الأغلب ـ على الشَّجاعة واحتمالِ الشَّدائد؛ فإذا ما أُصيبَ الرَّجُل تكونُ المرأةُ أقل تحمّلاً للمُصَاب من الرَّجل لأنَّها أكثرُ انفعالاً منه ، ولقد عبَّر «بروكلمان» عن هذه الظَّاهرة فقال: «على النَّها أكثرُ الحزنِ لم يكنْ يناسبُ رجال القبيلةِ ، كما كان لائقاً بنسائِها وخاصّة الأخوات ، ومن ثمّ بقيَ الرّثاءُ الفنّيُ من مقاصدهن حتى عَصْر التّسجيل التّاريخي» (١).

* إِنَّ اشتهارَ النِّساء بالرثاء ظاهرةٌ اجتماعيةٌ في العَصْرِ الجاهليّ ، لأنَّه

⁻ وذكر أبو العبّاس ثعلب قال: «كانت سلمى منْ أحبُّ النَّاس إليه ، وأكرمهم عليه - أي على صَخْرٍ - وكانت أجمل نساءِ قومها ، وكان صخرٌ يعرفُ لها منزلتَها وقَدْرهَا. ثمّ إنَّ صخراً خرجَ في غزاةٍ له ، فأصابتُه جراحةٌ شديدةٌ فمرضَ منها ، فكان قومُه يعودونَه ، فقالوا لِسَلمى: كيفَ أصبحَ صخر اليوم؟ فقالت: لا أصبحَ حيّاً فيرجى ، ولا ميتاً فيُنْسَى.

ـ وسمعَها صخرٌ فشقّ عليه ، وقال: هذه بنتُ عمّي وأحبّ النَّاس إليَّ ، ومن بلاثي عنها ما قد علمت ، تقولُ هذا غرضاً ـ مَلَلاً ـ وتمنّياً لفراقي ، أمّا واللهِ ، لئن عافاني الله لأقضينَ ما في نفسي عليها، ثمّ أوردَ باقي القصّة والأبيات. (ديوان الخنساء ص ٢١٣_٢١٢).

⁽۱) تاريخُ الأدبِ العربي لبروكلمان (۱/ ٤٨). ويعلّلُ بروكلمان كثرة الرّاثيات فيقول: «لعلَّ المرثيةَ الشّعرية نشأتُ نشأتها الأولى من ندبِ النّوائح المجرّد منَ القوالبِ ، ولهذا غلبَ تعهّده بعد ذلك على النّساء ، وقد بلغَتْ في ذلك الخنساءُ أقصى مراتب الشّهرة». (تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ١/ ١٦٤).

كان عَصْرَ بداوةٍ ، ونستطيعُ أنْ ندركَ ذلك عندما نستعرضُ نتاجهنَّ الأدبيَّ في عصرهنَّ ؛ وقد جمعتُ وتعرضتُ لطائفةٍ منهنّ في كِتَابي «نِسَاء في قُصور الأمراء»(١) في ترجمة «الخِرنِق بنت بدر»(٢) أخت طرفةَ بنِ العبد ، حيثُ أوردتُ فيه ما يشْفِي ويبلُّ الصَّدىٰ.

* ولعلَّ هذه الظَّاهرة الاجتماعيّة في رثاءِ النِّساء ، قد جعلتِ المرحومَ «مصطفى صادق الرّافعي» يقولُ: «ولا يهولنَّكَ كثرةُ أسماءِ النِّساءِ اللاتي قُلْنَ شَعْراً ، فعمودُ الشِّعر عندهنّ الرّثاء ، وليس لهنّ إلا المقاطيعُ والأبياتُ القليلةُ ، ولم تَبِنْ منهنَّ إلا الخنساء ، وليلى الأخيليّة ، وما شَعَرتِ الخنساء حتى كثرت مصائبها ، وكانت قبلَ ذلك كَغيرِها من النساء ، تقول البيتين والثّلاثة ، حتى قُتِل أخوها صخر»(٣).

* ولعل في قولِ الرَّافعي هذا بعض العموميّة ، حيثُ نَجِدُ شواعرَ عربياتٍ في عَصْرِ بني أميّة ، وعَصْر بني العبَّاس ، وكذلك في الأندلسِ ، وفي غيرِهِ من العصورِ ، إذ اشتهرنَ بالشِّعر ، ولم يكنْ عمودُ الشِّعر عندهنَّ الرِّثاء وحْدَه ، خُذْ مثلاً: عُليّة بنتُ المهدي العبّاسيّة (٤) ، وقبلها ميسون بنتُ بحدل الكلبيّة (٥) زوجُ سيّدنا معاوية _ رضي الله عنه _ وأمُّ ابنه يزيد بن معاوية ، ورابعةُ العدويّة (١) ، وزبيدةُ بنتُ جعفر (٧) زوج الرَّشيد ، وعائشةُ معاوية ، ورابعةُ العدويّة (١) ، وزبيدةُ بنتُ جعفر (٧) زوج الرَّشيد ، وعائشةُ

⁽۱) الكتاب مطبوع بدار اليمامة في دمشق عام (۲۰۰۰ م).

⁽۲) انظر كتابنا: «نساء في قصور الأمراء» (ص ١١٥ ـ ١٤٥).

⁽٣) تاريخ آداب العرب (٣/ ٦١).

⁽٤) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» (ص ٢٥١ ـ ٣٢١) ففي سيرتها فوائد جمة .

⁽٥) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» (ص ٥٢٣ ـ ٥٤٦) فسيرتها إمتاع للأسماع.

⁽٦) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٥٥ ـ ٢٩٨) فسيرتها إمتاع للأسماع.

 ⁽٧) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٢٩٩ ـ ٣٤٤) ففي سيرتها كثير من الفوائد والعظات.

بنتُ يوسف الباعونيّة (١) ، وعائشةُ التَّيمورية (٢) ؛ ومن نساءِ الأندلس: حفصةُ بنتُ الحاج الرّاكونيّة (٣) ، ونزهون الغرناطيّة (٣) ، وأمُّ العلاء الحجَاريّة (٣) ، وغيرهنّ كثيرات...

* إنَّ ذيوعَ الرِّثاءِ عند معشرِ النّساءِ يعودُ إلى ظواهرَ اجتماعيّةٍ في عصرِ الجاهليّة ، من امتدادِ الصَّحراءِ الواسعةِ ، والعصبيّة ، وعدمِ اختلاطِ الدّماء ، واحتفاظِ العربِ بالمُثُلِ العُلْيَا والأخلاقِ الفاضلةِ ، وما شابَهَ ذلك.

* وعلى ضوءِ هذا نستطيعُ أَنْ ندركَ إيثارَ النِّساء للرثاءِ ، وانشغالهنَّ به عَصْر ذاك ، لأنَّ المرأة كانَتْ لا تستلهمُ الصَّبرَ على أخٍ أو أبِ أو ابن عمّ أو قريبٍ ، حتى تُفاجأً مرّةً أخرىٰ بالرّزءِ بعزيز آخر ، ولعلَّ ذلك كان سببَ التصاقِ الرّثاءِ بالمرأةِ لصوقَ الطّفْل الوحيدِ بأمّه.

* لقد آثرتِ الحياةُ الجاهليّة بما تحملُه من ظواهِرَ اجتماعيةِ المرأةَ العربيّةَ بالرّثاءِ ، ومن ثمَّ وكلتْ لها أنْ تنهض به في ميدانِ الأدب ، حتى كان الرّثاءُ النَّسوي أمْراً تواضعَ عليه المجتمعُ الجاهليُّ ، لأنَّ الفارسَ عصر ذاك كان يخرجُ ولا يعرفُ أيعودُ أمْ يلاقي حَتْفَه! وإذا ما لاقى حتْفَه فإنَّه يعنيه أن يُناحَ عليه ، وأنْ يُرثى كيما يبقى ذكْرُه بعد الموتِ محفوظاً في أشعارِ قومهِ وكلماتِهم ، كما كان ملءَ الأسماعِ والأبصارِ وهو حيُّ يذرعُ ميدانَ القتالِ والنزال ، ويُظْهِرُ بطولاتِه وفروسيّتَه.

* ولعلَّ الطموحَ إلى الخلودِ وبقاءَ الذُّكْرِ شيءٌ تحبُّه النُّفوس ، ولذا كان

 ⁽۱) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٩٣ ـ ٤٤٠) ففي سيرتها كثير من الفوائد والعظات.

⁽٢) اقرأ سيرتها في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٤٤١ ـ ٥٠٩) ففي سيرتها فوائد كثيرة.

⁽٣) اقرأ سيرهن في موسوعتنا الجميلة «نساء من الأندلس» طبعة دار اليمامة بدمشق.

رثاء النّساء للكرامِ من قومهن تقليداً معروفاً ، وقد صوَّر ذلك الشَّاعرُ الجاهليُّ المشهورُ طرفةُ بنُ العبد البكْريّ في معلّقته الدّاليّةِ الشَّهيرةِ عندما قال مخاطباً ابنة أخيهِ معبد ، لأنَّه لم يكن قد تزوَّج ، وليسَ له من نساءِ يَنُحْنَهُ غيرها:

فَإِنْ مَتُ فَانْعينِي بِمَا أَنَا أَهْلُهُ وَشَقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يَا بِنَهَ مَعبدِ وَلَا تَجْعَلَيْنِي كَامِرْىءِ لَيْس هَمُّهُ كَهَمِّي ولَا يُغْنِي غَنَائِي ومَشْهَدي بَطِيءِ عنِ الجُلّىٰ سَرِيعِ إلىٰ الخَنَا ذليلٍ باجماعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ بَطِيءِ عنِ الجُلّىٰ سَرِيعِ إلىٰ الخَنَا ذليلٍ باجماعِ الرِّجالِ مُلَهَّدِ فَلُو كُنْتُ وغْلًا في الرِّجَالِ لَضَرّني عَدَاوة ذي الأَصْحَابِ والمتوحّدِ ولكنْ نَفَىٰ عَتِي الأَعَاديَ جُرأتي عليْهِم وَإِقْدَامي وَصِدْقي وَمحْتدي ولكنْ نَفَىٰ عَتِي الأَعَاديَ جُرأتي

* وهكذا كانَ الرّثاءُ تقليداً عند المرأةِ العربيّةِ لا تنساهُ ولا تهملُه ، ويدلُّ على هذا كثرة الشَّاعراتِ الرّاثياتِ في الجاهليّةِ من مثل: الخِرنِقُ بنتُ بَدر ، وليلىٰ بنتُ لُكيز المعروفة بِلَيلى العفيفة ، والخنساءُ ، وجَنوبُ الهذليّة وغيرهنَّ كثيرات في هذا المجال.

* وكما كانتِ المرأةُ الشَّاعرةُ راثيةً باكيةً ، كانتْ من جانبِ آخر قسيمةَ الشَّاعر في إذاعةِ ونَشْر مفاخِر القبيلةِ ، وذِكْرِ فضائل الذي ترثيه ، فكما كان الشَّاعرُ لِسَانَ القبيلة السياسي ، كانتِ الشَّاعرةُ الرَّاثيةُ لسانَ القبيلةِ الباكي ، كلُّ منهما له وظيفتُه وميدانُه وأُفقُه.

* إذاً ، كان رثاءُ الخنساءِ يؤدّي وظيفةً اجتماعيّةً في القبيلةِ ، ومن هنا ندركُ السِّرَّ في احتفالِ رجالِ بني سُليم ، وسعيهم الحثيث في جمعِ وروايةِ شعْرِها ، لأنَّه يصوّرُ جماعتَهم وبطولاتِهم.

* ولقد نهلتِ الخنساءُ عناصرَ الشَّعرِ من بيئتِها التي كانت تعدُّ مدرسةً في الشَّعر إبّان العَصْر الجاهليّ ، حيثُ عاشَتْ في بيتِ أبيها ، تصافحُ أسماعَها نسماتٌ من الشَّعرِ من حينِ إلى حين؛ فأخُوها معاويةُ يتغنَّى بالشَّعرِ عن

مَجْدِه؛ وأخوها صَخْرٌ يلجأً إلى الشَّعْرِ إذا ما عضَّهُ الدَّهر بحَدثِ من أحداثِهِ ، بالإضافةِ إلى عبيرِ أشعارِ أخرى من فطاحلِ شُعراء قومها الذين ملؤوا الدنيا وشغلُوا النَّاس.

* ومن هذه البيئة العبقة بالشّعر أخذت الخنساء تجمع من رياضها زَهْر تلكم الرّياحين الشّعرية مما كان فتنة القلوب والأسماع في الجاهليّة ، ولما اشتدَّ عودُها وشبّت عن الطَّوق ، وعركتُها الحياة ، وعلمتُها الأيّام ، راحتْ تملأُ الدّنيا بِشِعْرها الذي غلبَ عليه طابَعُ الرّثاء حسبَ الظُروف التي مرّت بها ـ كما عرفْنَا من سيرتِها ـ.

* ولعلَّ انطلاقَها إلى الرَّثاء كان منذُ فجيعتها بِفَقْدِ أُخويها معاوية وصخر ، وبعد أنْ تخطَّتْ مرحلة الشَّباب والنَّضارة النَّسوية ، لذا فإنها تحدثنا بأنَّ مقتلَ أُخيها صخر كان المفتاح إلى بابِ الشعر عندها ، فأخذت تقولُ الشَّعر ، وتلجأ إلى النَّظم ، علَّها ترتاحُ من همومِها وحزنها ، تقول: فَقَدْ أَصْبَحتُ بعدَ فتى سُليمٍ أَفرَّجُ همَّ صَدري بالقَريضِ أُسَائِلُ كُلَّ والهة هبولٍ برَاها الدَّهْرُ كالعظم المهيضِ أَسَائِلُ كُلَّ والهة هبولٍ برَاها الدَّهْرُ كالعظم المهيضِ

* وقد احتفظتِ المصادرُ القديمةُ بأجودِ أنواعِ القصائدِ التي نظمتُها الخنساءُ في رثاءِ أخويها ، وخصوصاً في رثاءِ أخيها صخر. . . ومن مراثيها فيه قولُها من قصيدة طويلة :

يا عَينُ جُودي بالدّمو ع المُسْتَهد الآتِ السَّوافع وابْكي لِصَخدٍ إذْ ثدوى بين الضَّريحةِ والصَّفَائع السَّيِّدِ الجحجاحِ وابن السَّادةِ الشَّم الجحاجِح الجماحِ من المهاصِرِ والمَماسخ الجَابِرِ العَظْمِ الكسيرِ من المهاصِرِ والمَماسخ

* وقولها فيه في القصيدة الدّالية الشَّهيرة:

أعيني جُودا ولا تَجمدا ألا تبكيانِ لصَخْر النَّدى

% ومنها:

طَـويـلَ النّجادِ رفيعَ العِمـا إذا القومُ ملدُّوا بليديهم فَنَالَ الله فَوقَ أيديهم ويحملُ لِلْقَـوم ما عَـالَهـم جموعُ الضُّيوفِ إلى بينهِ وإنْ ذُكرَ المجدُ أَلفَيْتَهِ غياث العَشيرة إنْ أمحلُوا

د سَادَ عشيرتَه أمْردَا إلى المجدِ مَدَّ إليهِ يَدا من المجدِ ثم مَضَى مُصْعِدا وإنْ كانَ أصغرهم مَولدًا يرى أفْضَل الكسب أنْ يُحْمَدا تــأزَّرَ بــالمجــدِ ثــمَّ ارتــدىٰ يهيــنُ التّـــلادَ ويُحيـــي الجَـــدَا

* ولعلَّ من أشهرِ مراثي الخنْساءِ وأجملِها القصيدةُ الرّائيّةُ التي ذكَرها أبو الفرج الأصفهانيّ وغيرُهُ ، وفيها تظهرُ الخنساء في ذروةِ الرّاثيات ، وفي ذروة المجدِ الفنّي لهذا النّوع من الشّعر .

* فهي تجرِّدُ نَفْسَها وتخاطبُها في مطلع القصيدةِ لتسألَها لِمَ لا تبكي ، فهل أصابَها القَذَىٰ ، أم المرض ، أم الوحَشة ، ثم تستدركُ بأنَّها حين تلمُّ بها الذَّكري فإنَّ عينَيْها تنهمران بالدّموع السّواجم التي تسيلُ على الخَديْن في تدفِّقِ مِدْرَارِ كالسَّيل ، ثمَّ إنَّ هاتَيْن العينين الباكيتيُّن على صخر تفيضان بالدَّمع وقد زاغَ منهما البصرُ ، لأنَّ النَّاس قد وضعوا أخَاهَا صخراً في حفرةٍ وأهالوًا عليه التّراب ليخفوهُ ، لذلك ستظلُّ نُحناسُ تبكيهِ مهما كان من شأنِها ، لأنَّ الدهرَ ضَرّارُ . . . و و . . . تقولُ :

تُبكي لِصَخْرٍ هـي العبـرىٰ وقـد تبكى خُنَاسُ فما تنفكُ ما عَمرتْ لا بُدَّ مِنْ ميتَةٍ في صَرْفِها غِيَرٌ

قلَى بعَينِكِ أَمْ بِالعينِ عُوَّارُ أَمْ أَقفرتْ إِذْ خَلَتْ مِن أَهلِها الدَّارُ كَأَنَّ عَيْنِي لَـذَكْـراهُ إِذَا خَطَـرَتْ فيضٌ يَسيلُ على الخدَّين مِدْرَارُ ولهَتْ ودونَه منْ جديدِ التُّربِ أَسْتَارُ لها عليه رنينٌ وهيىَ مفْتَارُ والدهرُ في صرفهِ أحوالٌ وأطُوارُ

* ثم إنَّ الخنساءَ أخذتْ تعدَّدُ خِصَالَ أخيها صخر ، فهو سيّد الرّجال ، وهو صلبٌ ، جريءٌ ، ورّادُ ماءِ ، يندفعُ إلى الميدانِ اندفاعَ النّمر ثم تنتقلُ الخنساءُ إلى الحديثِ عن مفاخر أخيها صخر وصفاتِه فتقول :

وإنَّ صَخْراً إذا نَشْتُ و لَنَحَارُ وإنَّ صخراً إذا جاعُوا لعقارُ كأنَّه عَلَمٌ في رأسِهِ نَارُ وللحروبِ غداة الرَّوعِ مشعَارُ شهادُ أندية للجيشِ جرّارُ لريبةِ حينَ يُخلي بيتَه الجارُ

وَإِنَّ صَخْراً لَوالينا وسيّدنا وَإِنَّ صخراً لمقدامٌ إذا ركبوا وَإِنَّ صخراً لتأتَمُّ الهداةُ بهِ جلدٌ جميلُ المحيّا كاملٌ ورعٌ حمّالُ ألويةٍ هبّاطُ أوديةٍ لم تَرَهُ جارةٌ يمشي بساحتِها

* وهكذا تمضي في رثائها إلى أنْ تنتهي بقولها:

لا يمنعُ القومَ إنْ سَأْلُوه خُلْعَتَه ولا يُجاوزُه بالليلِ مُسرَّارُ

* والخنساءُ كما ترى تخلعُ على أخيها صفات الرّجلِ الكاملِ ، فهو ذو خصائلَ حميدة ومكارم حِسَان ، وهذه القصيدة من بدائع الخنساء التي تمثّل فنّها الشّعري في مجال الرّثاء.

* هذا وقصائدُ الخنساءِ كثيرةٌ وعديدةٌ ، وقد احتوى ديوانها الذي وصَل الينا على مراثٍ كثيرة في أخويها معاوية وصخر ، وغيرهما ، ومن روائع مراثيها: السّينيةُ الجميلةُ التي بلغت فيها السُّها ، ومطلعُها:

يــؤرّقنُــي التّــذكّــر حيــنَ أُمْسِــي فيــردَعُنــي مــع الأحــزانِ نُكْســي علــى صخــرٍ وأيُّ فتـــيّ كَصَخْــرٍ ليـــومِ كـــريهـــةٍ وطعـــانِ خَلْــس

ومنها تذكره أوّل النّهار للغارة ، ووقت المغيب للأضياف:

ألا يـا صَخْـرُ لا أنْسَـاكَ حتّـى أُفـارقَ مُهجتـي ويُشَـتَّ رمسِـي يُهذكَـرُني طلوعُ الشَّمسِ صَخراً وأذكـرُهُ لكــلّ غــروبِ شَمْـسِ ولـولا كَثْـرةُ البـاكِيـنَ حَـولـي علـىٰ إخــوانِهــم لقتلــتُ نَفْسـي

ولكن لا أزالُ أرى عجولًا هُما كُلْتَاهُما تبكي أخَاها وما يبكينَ مشلَ أخي ولكن فيا لَهْفي عليه ولَهْفَ أمّي

وباكية تنوحُ ليومِ نَحْسِ صبيحةً رُزْئهِ أو غبَّ أَمْسِ أسلّي النَّفْس عنْه بالتّأسّي أيصْبحُ في الضَّريحِ وفيه يُمسي

* ورثاءُ الخنساءِ لأخيها صخر يذكّرنا برثاءِ الفارعةِ بنتِ شداد المريّة لأخيها في قصيدةِ داليةٍ جميلةٍ ، تعدُّ من أحسنِ المراثي ، قال الحُصريّ القيروانيّ في «زَهْره»: «ومن أحْسَنِ المراثي ما خُلِطَ فيه مدحٌ بتفجُّع علىٰ المرثيّ ، فإذا وقع ذلك بكلام صحيح ، ولهجةٍ معربة ، ونظام غيرِ متفاوت ، فهو الغايةُ من كلامِ المخلوقين»(۱).

« والآن دعونا نسمعُ ونستمتعُ برثاءِ الفارعةِ بنتِ شداد وهي ترثي أخاها
 مَسْعُوداً:

يا عينُ بكي لمسعود بنِ شدّادِ مَنْ لا يُذابُ له شَحم السّديف ولا ولا يحلُّ إذا ما حلَّ مُشَيِّ ذاً قوالُ محكمةٍ نَقَّاضُ مُبْرَمَةٍ قَتَالُ مَسْغَبةٍ وثَّابٍ مَسْرُقَبةٍ حلَّالُ مُسْعَبةٍ وثَّابٍ مَسْرُقَبةٍ حلَّالُ مُسْعَبةٍ فَرَّاجُ مُفْظِعةٍ حملاً لُ مُسْرعة فَرَّاجُ مُفْظِعة حمالُ الحوية شهَادُ أندية جمّاعُ كلِّ خصالِ الخيرِ قد علمُوا جمّاعُ كلِّ خصالِ الخيرِ قد علمُوا أبا زُرَارة لا تبعدْ فكلُّ فتى هلا سقيتُم بني جُرْم أسيركُم

بكاء ذِي عبراتٍ شَجوه بَادي يخفُو العيالَ إذا ما ضُنَّ بالزَّادِ يخشىٰ الرّزيّة بينَ المالِ والنَّادي فتّاحُ مُبْهَم في حبَّاسُ أَوْرَادِ منّاعُ مَعْلَب قِ فكّاكُ أَقْيادِ مناعُ مَعْلَب قِ فكّاكُ أَقْيادِ حمّالُ مضلِعة طلَّاعُ أنجادِ حمّالُ مضلِعة طللَّعُ أنجادِ مسدّادُ أوهية فرتاجُ أسدادِ زينُ القرين ونِكُلُ الظَّالم العادي يوماً رهينُ صفيحاتٍ وأعوادِ يوماً رهينُ صفيحاتٍ وأعوادِ نفْسِي فداؤك من ذي كُربةٍ صادي

 ⁽۱) زهر الآداب (۹۲۸/۲).

نِعمَ الفَتى ويمينِ اللهِ قد علمُوا هو الفتى يحمدُ الجيرانُ مَشْهَدهُ الطَّاعنُ الطعنةَ النَّجلاءِ يتبعُها والسَّابيءُ الزِّقَ للأضيافِ إنْ نزلوا

يخلُو بهِ الحيّ أو يغدو به الغَادي عند الشّتاء وقد همّوا بإخمادِ مثْعَنْجِراً بعدما تَغْلي بأزْبَادِ إلى ذراهُ وغَيثُ المحوجِ الغَادي(١)

النخَنْسَاءُ في ميْزَانِ الأُدبَاءِ والشُّعَرَاءِ:

* في ميزانِ الأدباءِ قديماً وحديثاً أمورٌ فنيّةٌ ونقديّةٌ ، يستفيدُ منها الباحثُ أو الدَّارسُ ، وهي تعينُه على المضيِّ في أبحاثِهِ ، وتزوّدُه بالأخبارِ المهمّة التي يستطيعُ من خلالها أنْ يرسمَ ملامحَ صورة الشّخصية التي يترجمُ لها.

* والخنساءُ واحدةٌ من نساءِ المشرقِ العربيِ التي ظهرتْ ملامحُها جليةً
 من خلالِ المصادرِ والمراجع التي بين أيدينا.

* وتظهرُ صورةٌ وضيئةٌ لأدبِ الخنساءِ وشعرِها عند ابن عبد البرّ حيث قال: «وأجمع أهلُ العلْمِ بالشّعر أنَّه لم تكن امرأةٌ قبلَها ولا بعدها أشْعَرَ منها»(٢).

* وقال العسكريُّ: «ومنهم مَنْ قدَّم الخنساء»(٣).

* وقالوا: «أجودُ أشعَارِ النّساء أشعارُ الموتورات ، أي التي قَتِل لها قتيلٌ ، فلم يدركُ بدمِه ، وأشعرُ النّساء في الجاهليّةِ والإسلامِ الخنْساءُ».

⁽١) زهر الآداب (٢/ ٩٤١).

 ⁽۲) انظر: الاستيعاب (۲/۳۳۲)؛ وانظر: أسد الغابة (۸۹/٦) ترجمة رقم (۲۸۷۲)،
 والإصابة (۲۲۷/۱۲)، وشرح مقامات الحريري (۱/۳۵۰)، وخزانة الأدب
 (۱/ ٤١٤) وغيرها.

⁽٣) المصون (ص ١٧).

* ويشْبِهُ هذا ما جاء عند ابن طيفور في "بلاغاتِ النساء" حيث قال: "حدّثنا أبو زيد عمر بن شبّة ، وقُرِىء عليه وأنا حاضرٌ ، وقرأتُ عليه بعض ذلك قال: كانوا يقولُون: أجودُ أشعارِ النساء أشعارُ الموتورات الحاضّاتِ على الطّلب والدّخولِ ، والمعيّرات في ذلك بالتّقصير ، والتّاكلات المؤبّنات؛ وأشعرُ النساء في الجاهليّةِ والإسلام خنساء ، وهي تماضر بنتُ عمرو بن الشّريد السُّلميّة ، ولها أشعارٌ مشهورةٌ ، وأخبارٌ مذكورة "(۱).

* وقال المبرّدُ: «وكانتِ الخنساءُ ، وليلىٰ الأخيليّة ، بائنتَيْن في أشعارهما ، متقدمتَيْن لأكثرِ الفحول ، وربّ امرأة تتقدّمُ في صناعةٍ ، وقَلَّ ما يكونُ ذلك ، فالجملةُ ما قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّوُا فِ ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِ الْخِصَامِ غَيْرُمُبِينٍ ﴾ [الزخرف: ١٨](٢).

* وقال محمدُ بنُ سلام: «وجعلنا المراثي طبقةً بعد العشر ، أوّلُهم متممُ بنُ نويرة رثَتُ أخويها صخراً ومعاوية».

* وقال ابنُ قتيبة: «وهي جاهليّةٌ ، كانت تقولُ الشّعر في زمنِ النّابغة الذّبياني»(٣).

* وقبل أنْ نتابعَ مسيرتنا المعطار في ميدانِ النَّقد الأدبيّ ، وفي رياضِ النَّقّاد ، نتوقّفُ قليلاً في محطَّةِ النَّقد بين أيدي النَّقاد الذين اطّلعُوا على شِعْرِ الخنْساءِ. إذ إنَّ للنُقّاد دورهم الفعّال في توجيهِ الأدب وتقييمه ووزْنهِ ،

⁽١) بلاغات النساء (ص ٢٣١) طبعة مكتبة السندس بالكويت.

 ⁽۲) انظر: زهر الآداب (۹۲۸/۲) بتصرف یسیر. والعقد الفرید (۱۱/۶) نقلاً عن الکامل (۱۲۱۳/۳).

⁽٣) الشعر والشعراء (١/ ٣٤٤).

وذلك بما يحدثُه هذا النّقد في العَملِ الأدبيّ من أثرٍ طيّب يدفع المتأدّبين إلى الاحتفالِ به ، أو إلى إهمالِه ، والإغضاءِ عنه.

* ومن المعروفِ أنَّ قلمَ النّاقدِ البصيرِ كمبضعِ الجرّاحِ ، يستسلمُ له المريضُ ، فيعزلُ ما يعزلُ ، ويحتفظُ بما يشاء ، معتمداً على ثِقَةِ المريضِ فيه وفي مقدرته وعلْمهِ (١).

* وكذلك نجدُ النَّاقدَ يدلي رأيه في هذا المجالِ ، فيقتدي به من وراثِهِ الواثقون به خُصوصاً إذا كان من الثقات.

* والعملُ الأدبيُ إنتاجٌ تقديريُّ ، تتفاوتُ حولَه الآراءُ وتتباين ، ليس لِنَقْصِ فيه ، وإنّما لاختلافِ الأذواقِ المقدرة ، واختلافِ المعايير المقومة التي يُوزَنُ بها العملُ فيحكم له أو عليه.

* ولذا فإنّنا نجدُ ابنَ سلام ـ وهو من علماء الشّعر الأقدمين ـ يحصرُ فنَّ الخنْساءِ في الرّثاء والتّفجّع ، ومن ثمَّ جعلَها ثانيةَ شعراءِ المراثي الأربعة المفضّلين ، مقدّماً عليها مُتمم بن نويرة كما مرَّ معنا قبل قليل. ثمّ جاءَ النّقادُ من بعدِهِ فحصرَ معظمهم فنَها في الرّثاء.

* ومنَ النُّقادِ فئةٌ فضَّلَتْ بعضَ الشَّواعر على الخنساءِ ، فالأصمعيُّ مثَلاً يقدُّم عليها ليلى الأخيليّة حيث قال في سؤالٍ وجّهه إلىٰ أبي حاتم السّجستاني _ وكان راويته _ فقال له: «أشعرتَ أنَّ ليلى الأخيلية أشعرُ منَ الخنساءِ (٢)؟!

* وذكر الحصريُّ أنَّ الخنساءَ أشعرُ نساءِ العربِ عند كثيرٍ منَ الرّواة ، وكان الأصمعيُّ يقدَّمُ ليلى الأخيلية ، وهي ليلى بنت عبد الله بن كعب بن ذي الرّحالة بن معاوية وقيل لها الأخيليّة لقول جدّها كعب :

نَحَنُ الأَخايلَ ما يزالُ غلامُنا حتّى يدبَّ على العَصَا مذْكُورا

⁽١) ديوان الخنساء (ص ١٥٩) بتصرف.

⁽۲) فحولة الشعراء (ص ۳۷ ـ ٤٥) طبعة ١٩٥٣ م.

قال أبو زيد: «هذا البيت لها فسمّيت به»(١).

* ويوازنُ أبو زيد بين هاتَين الشَّاعرتين فيقول: «وليلى أغزرُ بحراً ، وأكثرُ تصرّفاً ، وأقوى لفْظاً ، والخنساءُ أذهبُ في عمود الرّثاء»(٢).

* بينما نجدُ أنّ ابنَ قتيبة في «الشّعر والشُّعراء» يقدّمُ الخنساءَ على ليلى
 فيقول عن ليلى: «. . . . وهي أشعر النّساءِ لا يُقدّمُ عليها غير خنساء».

* بينما ميزانُنا النّقديّ لا يقرُّ مثل هذه الآراء ، إذْ إنَّ الخنساء لم تكنْ أشْعَرَ من ليلى ، أو ليلى أشعر من الخنساء ، فلكلّ واحدة منهما مذهبُها الشّعري وفنُها ، وكذلك ظروفُها وبيئتُها وحياتُها.

* وهكذا نجدُ معظمَ الأقدمين منَ النُّقاد والخبراء بالشّعر يذكرون الخنساءَ في مجالِ المرثية ، وبالتّالي نراهم يحدّدون مركزها من شعرائِها وشاعراتِها ، أو يحدّدون مركزَها من شاعراتها فحسب ، ولم يخرجُوا بها عن هذا المجال.

* بيد أنَّ ابنَ قتيبة قد زادَ شيئاً يسيراً في حدودِ المرثيةِ الخنسائيّة التي كانت قدوةً لغيرها ، ومدرسةً تخرّج فيها أهلُ هذا الفنّ ، فقال: «أمّا ما أدخلتِ الخنساءُ من صفاتٍ جديدة في المرثيةِ ، فمنَ الصّعب أنْ نحدده ، لأنّه لم يصل إلينا شيءٌ تامٌّ من هذا النّوع قبل قصائِدها ، إلا ما وردَ عن المُهلهلِ ، وهو في مُجمله يَقْرُبُ من طريقةِ الخنساءِ . ولكنْ ما لا شكّ فيه هو أنّ من تبعَها من شعراء الرّثاء وشواعره اغترفُوا جميعهم من بحرِها الفيّاض بفيضِ العاطفةِ البشريّة».

* إنَّ النَّقاد الأقدمين لم يصدروا حكماً على الخنساءِ مفصّلًا دقيقاً ،

⁽١) زهر الآداب (٢/ ٩٢٨).

⁽٢) المصدر السابق ذاته.

وإنّما كانتْ أحكامُهم آراءً عامّةً ليس فيها ذلك العمقُ الأدبيّ ، لأنَّ عصرهم لم يكن عَصْرَ نَقْدِ دقيقِ ، تُنْخَلُ فيه الأحكامُ النَّقدية نخلاً.

* ومن ذلك ما وردَ أنّ جريراً قد شَهِدَ للخنْساءِ بالتقدّم والشَّاعرية ، فقد قيل لجرير: مَنْ أشعرُ النَّاس؟ فقال: أنا لولا الخنساءُ ، _ أو قال: لولا هذهِ الخبيثةُ _.

فقيل له: فَبِمَ فَضَلَتْك؟

قال: بقولها:

إِنَّ الزَّمانَ وما يفنىٰ له عَجَبٌ أَبقىٰ لنا كُلَّ مجهولٍ وفجعنا إِنَّ الجديدَيْن في طُولِ اختلافِهما

أبقى لنا ذَنباً واستُؤْصِلَ الرَّاسُ بالحالمين فَهمْ هَامٌ وأرماسُ لا يفْسُدانِ ولكنْ يفْسُدُ النَّاسُ(١)

* ويذكرُ الشَّريشيُّ أنَّ بشَّار بنَ بُرد الشَّاعر المشهور كان له رأيٌّ في شِعْرِ النَّساء أو شعرِ الخنساءِ خاصّة ، ففي روايةٍ عنه أنّه قال: «لم تقلِ امرأةٌ شِعراً إلا ظهرَ الضَّعفُ فيه».

فقيل له: «أو كذلك الخنساء»؟!

فقال: «تلك كان لها أربعُ خصي»(٢).

⁽۱) ديوانها (ص ٣٩٦) طبعة مصر ، وشرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٠) ، وخزانة الأدب (١/ ٤١٤) ومن الواضح أنَّ شِعْرَ الخنساءِ هذا فيه الصِّبغةُ الإسلاميّةُ ، وأنها قالتُهُ في زمنِ الإسلام ، وأنَّ هذه الشَّهادة _ إنْ صحَّتْ _ لشهادةٌ ذهبيّةٌ ، لكنّا لا نركنُ إلى أنها أشعرُ منْ جرير ، فجريرُ فحلُ الشّعراء ، وسيّدٌ من أسيادهم ، ومن العبثِ والجهلِ أنْ نجعلَ الخنساء في طبقتهِ أو تجري في ميدانهِ ، فجريرُ شاعرٌ مفلقٌ متفنّنٌ في اللفظ ، وفي الصُّورة الشّعرية ؛ ثم إنَّ جريراً قارعَ الفرزدقَ والأخطلَ والبُعيث ، وما أدراكَ ما هؤلاء العمالقة الفطاحل !؟!

⁽٢) انظر: شرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٠)، وقطوف الريحان (ص ٢٤٢)، ومنَ الواضح هنا لكلِّ بصيرٍ بالنَّقدِ أنَّ بشارَ بنَ بُرد لم يَقُلُ هذا القولَ مديحاً للخنْساءِ أو =

- * ويروى أنَّ النَّابغة قد شهدَ للخنساءِ بالجودةِ والشَّاعرية عندما أنشدَتْه مرثيتها في أخيها صخر فقال لها: «اذهبي فأنتِ أشعرُ منْ كلّ ذات ثديَيْن».
 - * وقال لها أيضاً: «إنّكِ أشعرُ الإنسِ والجِن»(١).
- * ويروى عن أبي نُواس أنَّه قال: «ما قلتُ الشّعر حتى رويتُ لستّين امرأة منهنّ الخنساء ، فما ظنّكَ بالرّجال! وإنّي لأروي سبعمئة أرجوزة ما تُعرف»(٢).

* ونكرّرُ هنا قول المبرّد: «كانتِ الخنساءُ وليلي الأخيليّة في أشعارِهما متقدمتين لأكثرِ الفحول ، وقلّما رأيتَ امرأة تتقدمُ في صِنَاعةٍ»(٣).

* وحدَّثَ المفضّلُ الضّبي قال: «كنتُ جالِساً يوماً على بابِ منزلي ، أحتاجُ إلى درهم واحدٍ ، وعليَّ دَيْنٌ عشرة آلاف درهم ، إذْ جاءني رسولُ المهديّ ، فقال: أجبْ أميرَ المؤمنين. فقلتُ في نفسي: وما بعثتُه إليَّ! لعلَّ ساعباً سعىٰ بي عنده.

فقالت له الخنساء: «لا واللهِ ولا ذا خصيَيْن».

اعترافاً بمقدرتِها وفحولةِ شِعرها ، وإنّما قالَ هذا من قبيلِ الدُّعابة ، فليسَ من المعقولِ في ميزانِ النَّقد أنْ يصف بشّار شعر النّساء بالضّعف ، ثم يستدركَ ويفضّلَ الخنساء على الرِّجال الشّعراء الفحول!

ـ وقد رُوي أنَّ النَّابغة قال لها: «ما رأيتُ ذاتَ مثانة أشعْرَ منك».

⁽١) هذهِ الأقوالُ منَ القَصصِ المصنوع ، ونعتقدُ أنّها قيْلَتْ للانتصارِ للخنْساء. ويذكرُ ابنُ قتيبةَ أنَّ النّابغةَ قال للخنْسَاء: «أنشديهِ _ أي لحسَّان _» ، فقال: «واللهِ ما رأيتُ ذاتَ مثَانةِ أشعرَ منك».

فقالتْ له الخنساءُ: «واللهِ ولا ذا خصْيَيْن». (الشّعر والشّعراء ١/٣٤٤). وأرادَ بالمثَانةِ هنا: موضعُ الولدِ منَ الأُنثى ، وهو أحدُ معانيها.

⁽٢) انظر: تاريخ آداب العرب (٣/ ٦٥) ، نقلًا عن الأغاني (٢٥/ ٤٠) طبعة بيروت.

 ⁽٣) زهر الآداب (٢/ ٩٥٥).

* ثمَّ دخلتُ منزلي ، ولبستُ ثيابي ، وسِرْتُ إليه ، فلمّا مثلتُ بين يديه أوماً إليَّ بالجلوس، فلمّا سكنَ جأْشي قال لي: يا مفضّل ، ما أفخرُ بيتِ قالَتُه العَرب؟

فأُرتجَ عليَّ ساعة ، ثمّ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين ، قول الخنساء؛ فاستوى جالساً ، وكان متكئاً ، فقال: أي بيت هو؟ فقلتُ قولها:

وإنَّ صَخراً لتأتُّ الهُداةُ بهِ كَأنَّه عَلَمٌ في رأسِهِ نَارُ

فقال المهدي: قد قلتُ له فأبى عليَّ _ وأوماً إلى إسحاق بن بزيغ _.

قلتُ: الصَّوابُ مع أميرِ المؤمنين».

ثم إنَّ المهديَّ حَادَثَهُ وأعطاه ثلاثينَ ألف درهم (١).

* وفي مجالسِ الخُلفاء كان للخنساءِ نصيبٌ في الامتداحِ والثَّناء عليها ، والإشادَةِ بذكرِها وشعرِها وتقدمها. . من ذلك ما رُوي أنَّ عبدَ الملك بنَ مروان سألَ في مجلس له : «أيّ نساء الجاهليّة أشعر»؟

فقال الشَّعبي: «الخنْسَاءُ».

فقال عبدُ الملكِ له: «ولمَ فضَّلْتَها على غيرِها»؟

قال: «لقولها:

وقَائِلةٍ والنَّاسُ قد فَاتَ خَطْوُها لتدركه يا لَهْفَ نَفْسي على صَخْرِ أَلا ثكلتْ أُمُّ الله النَّالِي القَبْر (٢)

* وقال الحصريُّ عنِ الخنساء ما مفاده: «وهي أشدُّ نساء العرب عند كثير من الرّواة».

* ويقول: «ومن أحسنِ المراثي ما خُلِطَ فيه مدحٌ بتفجّعِ على المَرثيّ ، فإذا

⁽١) انظر: شرح مقامات الحريري (١/ ٣٥٣ و٣٥٤) بتصرف واختصار.

⁽٢) ديوان الخنساء (ص ١٢٥) باختصار ، نقلاً عن أمالي اليزيدي (ص ١٣).

وقعَ ذلك بكلامٍ صحيح ، ولهجةٍ معربة ، ونظامٍ غير متفاوت ، فهو الغايةُ من كلام المخلوقين ، واعلمُ أنَّ منْ أجلِّ الكلام قول الخنساء من قصيدة:

يا صُخْرُ ورّاد ماء قد تَنَاذَره أهلُ المياهِ فَما في ورْدِه عَارُ للمياهِ فَما في ورْدِه عَارُ للم تَرهُ جارةٌ يمشي بساحتِها لرِيْبَةٍ حينَ يخْلي بيتَه الجارُ»(١)

* وكما علمنا أنَّ الأصمعي قدَّم ليلى الأخيلية على الخنْساء ، بينما اعتبرَ أبو زيد أنَّ ليلى أغزرُ بحراً ، وأقوى لفظاً ، أمّا الخنساءُ ، فهي أكثرُ جمالاً وأذهبُ في عمودِ الرّثاء .

* ولئن كان الرثاءُ هو الميدانُ الفسيحُ ، والفضاءُ الرَّحب الذي برزتْ فيه الخنساءُ ، فهذا لا يعني أنّها أشعرُ الجنّ والإنس ، كما زعم النّابغة ، أو كما زعموا أنَّ النَّابغة قال ذلك ، فَشِعْرُ الخنساءِ وخُصوصاً الرّثاء لا يخرجُ عن وصفِ أحزانِها ودموعها ، وتعدادِ مناقبِ الفقيد ومحامدِه.

* وهكذا نرى الخنساء تملأُ أسماعَ الأدباءِ والشُّعراء الأقدمين (٢) ،

وإنّبي حين آكلُ خبرَ عمرو أشتقُ رغيفَ شقّاً عنيفاً فإنْ يصبرْ يَدُقُ حُزناً طويلاً فتى لرغيف قلرطٌ وشنف ودونَ رغيف قلع الننايا وإنْ فقد الرَّغيف بكي عليه وإنْ فقد الرَّغيف بكي عليه

لأشجع من أبي ليث هزئر وأعمل في ثرائده بأمري وإن يجزع ألذعه بشغري وواسطتان مسن در وشد وحرب مشل وقعة يدوم بدر بُكا الخنساء إذ فُجِعَت بصخر

ران تحت اسرطيعت باعشى طبيعة بيروت، وديوان أبي نواس (٥٣٢) طبعة دار (الأغاني ٢٥/ ٢٩٠_٢٩١) طبعة بيروت، وديوان أبي نواس (٥٣٢) طبعة دار الكتاب العربي، ببروت، بتحقيق أحمد الغزالي.

ـ وممّن ذكرَها أيضاً ابن الونّان حيث قال:

وابـكِ علـىٰ ذنـبِ وقلـبٍ قــد قسَــا بمقلـــــة كمقلـــــة الخنســـــاء إذ

كالصَّخر من هواه لم يَسْتَفُقِ بِكَاتُ على صخر بلا ترفقِ بكتُ على

⁽١) انظر: زهر الآداب (٢/ ٩٢٧ و٩٢٨) بتصرف يسير.

 ⁽٢) ممن ذكر الخنساء في شغره من الأقدمين ، أبو نُواس ، الحسنُ بنُ هانيء ، حيثُ
 قال في هجاءِ عَمْراً الكاتب _ وكان بخيلاً _:

وتملأُ ندواتِهم وجلساتِهم بالنّقاش والخصامِ ، فبعضُهم يجعلُها الأولى في عالَم شاعرات النّساء في المشرقِ العربيّ ، وبعضُهم يقدّمها على كثيرٍ من الشُّعراء.

* وإذا ما رجعْنَا إلى المصادرِ القديمةِ ألفينا ترجمةَ الخنساء في معظمها على اختلافِ مشاربها ، وتجمِعُ كلّها على شاعريتها وتقدمها في فنّ الرّثاءِ والبكاءِ ، ومنها: الطَّبقاتُ الكبرىٰ ، والاستيعابُ ، وأسدُ الغابة ، والإصابةُ ، ثم الشّعر والشّعراء ، والأغاني ، وزهرُ الآداب ، ومعاهدُ النّنصيص ، وشرحُ مقاماتِ الحريري ، وسرحُ العيون ، وخزانةُ الأدب ، وديوانُها بروايةِ أبي العبّاس ثَعْلَب ، وغيرُ ذلك من مصادر لا تُحصىٰ في هذا المقام. ومن خلالِ تلكم المصادر تبدو صورةُ الخنساءِ صورةَ المرأةِ المُشْرقةِ المتألّقة في أدبها وإسلامِها وشعرِها ، وكُلّ ما يتعلّق بحياتها.

* أمّا الأدباءُ والشُّعراءُ المحدثون فقد انعكستْ صورةُ الخنساءِ في مرآتِهم جليّةَ المعالم، ناصعةَ السَّماتِ والقسماتِ، فاحتفلوا بها، وعمروا بها كثيراً من الدّروس والمحاضرات، بل والكتب المتخصّصة عنها.

* ففي موسوعته «تاريخ آداب العرب» يقولُ مصطفى صادق الرّافعي ـ رحمه الله ـ عن النّساء الشّواعر ومنهنّ الخنساء: «ولا يهولنّك كثرةُ أسماء النساءِ اللاتي قُلْنَ شِعراً ، فعمودُ الشّعر عندهنّ الرّثاء ، وليس لهنّ إلاّ المقاطيعُ والأبياتُ القليلةُ ، ولم تَبِنْ منهنّ إلا الخنساءُ وليلى الأخيليّة ، وما شَعَرتِ الخنساءُ حتى كثُرتْ مصائبها ، وكانت قبلَ ذلك كغيرِها من النّساء تقولُ البيتين والثّلاثة حتى قُتِلَ أخوها صخرٌ فأجادتْ وأطالَتْ ، لأنّها أصبحتْ مصروفة الهم إلى نوع من الحُبّ في نوع من الشّعر. فلو كان يُعْرفُ عندهم أشعرُ من هاتين لسمّوهنّ ، غير أنّ المصائب لا تجعلُ غيرَ الشّاعرةِ عندهم أشعرُ من هاتين لسمّوهنّ ، غير أنّ المصائب لا تجعلُ غيرَ الشّاعرةِ

شاعرةً ، ولا بدّ من تركيبٍ ملائم في بعضِ النّاس ، لتلقّي مادّة الشّعر عن الرّوحِ والقَلْبِ والطَّبيعة ، ولم يأتِ في شِعْرِ النّساء خاصّة أفحلُ ولا أجزلُ من شعرِ الخنساء ، كأنَّ فَقْدَ رجالِها جعلَها رجُلاً»(١).

* وفي حديثه عن فنّ الرّثاء في العَصْرِ الجاهلي نجدُ الدكتور شوقي ضيف يضعُ الخنساءَ في المقدّمة فيقول: «وقامَ بالقِسْطِ الأكبرِ عن نَدْبِ الميّتِ وبكائِهِ الخنساءُ . . . وسَابِقَتُهنَّ التي لا تُنازع الخنساء»(٢).

* وبهذا القول نعتبرُ أنَّ المراثيَ فَنُّ قد نشأَ وازدهرَ من نياحاتِ النِّساء ، ومع أنَّ أوسَ بنَ حجر الشَّاعر المعروفَ قد خلَّفَ بعضَ المراثي الرّائعة ، إلاّ أنَّ هذا الفنَّ إنَّما بلغَ أَوْجهُ في مراثي الخنساء.

* ويلخِّصُ الدكتور أحمد الحوفي فنَّ الرّثاء النّسويّ بقوله: "والرثاءُ هو المجالُ الفسيحُ الذي تطلَّقَتْ فيه عواطفُ المرأةِ ، لأنَّه نوعٌ منَ النُّواح والبكاءِ ، وإنَّ المرأةَ لتلجأُ إلى دموعها أوّل ما تلجأُ إذا حزبها الدَّهْرُ ، أو كرَبَهَا القضَاء ، وإنّها لتلتذُ الحزنَ وتستديمه ، وتوالي البُكاء وتستطيله ، وفاءً وحسرةً ، أو ضعفاً ورقةً ، ثم تنفّسُ عن نفسِها إنْ كانت شاعرة بمقطوعاتِ تسكبُ فيها لوعتها وحرقتها (٣).

* ويتابعُ الحوفي خصائص رثاءِ النّساءِ والخنساء فيقول ما مفاده: "إنّهنّ يُشِدْنَ بفضلِ المرثي من شجاعةٍ وبطولةٍ وكرمٍ ونجدةٍ وعفّة والخنساء في رثائِها لا تخرجُ عن وصفِ أحزانِها ، وتعدادِ مناقب أخويها ، كما يعدّد الرّجال مناقبَ الرّجال ولقد تعاظمتْ هي وهندُ بنتُ عتبة مصيبتيهما

⁽١) تاريخ آداب العرب (٣/ ٦١ _ ٦٢) بشيء من التصرف.

⁽٢) العصر الجاهلي لشوقي ضيف (ص ٢٠٧) ، وانظر: شاعرات العرب (ص ٩٨).

⁽٣) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦١٢).

وادّعتْ كلُّ واحدة منهما أنّها أعظمُ بلوى ، بَيْدَ أنّهما في هذه المفاخرة لم تخرجا عن التّنويه بالمحامد المألوفة ، ومحاكاة الرّجال؛ وأرجّحُ أنَّ محاكاتهن للرّجال في رثائهم وفي إشادتهم بفضائلِ المرثي ، وأنَّ ضيق أفق خيالهن ، وعجزهن عن تصوير حزنهن ، والتّعبير عن مشاعرهن بحيث يشركُنَ الآخرين والأخريات معهن فيما يشعرنَ به ، هي السّبُ فيما نرئ من شبه رثائهن برثاء الرّجال ، وفيما نرئ في مراثيهن من احتباس على ذكر المحامد العامة ، حتى إنّنا قلّما نستطيعُ أنْ نميّز رثاء امرأة من رثاء رجلٍ ، وقلما نجدُ في مراثيهن ملامح ناطقة ، وسمات كاشفة تنبعُ من الأنوثة ، وتعبّرُ عن عواطف الإناث»(١).

* وفي الحقّ إنَّ الخنساءَ والرّاثيات من النِّساء أَشْجَىٰ منَ الرّجال قُلُوباً عند الفجيعة ، وأشدُّ منهم حُزناً ، وأعظمُ لوعةً ، لأنَّهنَّ أضعفُ احتمالاً ، وقلوبهن أسرعُ انخلاعاً ، وإذا كان ذلك صحيحاً ، فلماذا لم تجىء مراثيهن أشد حرارةً وأقوى تأثيراً؟!

* لعلَّ السَّبب الرئيس في ذلك هو أنَّ الانفعالاتِ والعواطفَ والأحاسيسَ كالطَّربِ والغَضَبِ والحزنِ والفرح لا يتفجّر منها الشّعرُ ساعة احتدامِها؛ لأنَّ الانفعالَ القويَّ قد يعقدُ اللسانَ ، وربّما يشلُّ التفكير ، ويشغلُ عمّا عداه.

* فالشّاعر قد لا يقولُ شيئاً منَ الشّعرِ أو النَّظمِ إلا بعد أنْ يصحوَ من ذهولهِ ، أو بعد أنْ يهداً من غضبهِ ، أو تستقرَّ نفسُه ، إذ تصفو قريحتُه ، وعندها يستطيعُ الإبداع الشّعري وقد اسْتَقْرَتِ انفعالاتُه رواسبَ عقلية محتفظة بحرارةِ الشّعور الكامنة؛ وإذاً فهو لا يقولُ إلا عن رويّةٍ وهدوء.

⁽١) المرجع السابق نفسه (ص ٦١٢ ـ ٦١٧) بتصرف واختصار.

- * والنّساءُ يفْثأْنَ حزنهنَّ بالدُّموع الغِزار الجِرار ، وبالآهات والأنّاتِ والعويلِ وبالصَّمت الحزين والاستغراقِ الأليم والذّكرى المُوجعة ، فإذا ما عمدنَ إلى القريضِ مَتَحْنَ من عاطفةٍ قد تنفَّسَت ، وأوين إلى لغةٍ كان البكاءُ والدَّمعُ والنَّشيج أطوعَ منها وأصدقَ تعبيراً (١).
- * وممّا لا شكّ فيهِ أنَّ النّساءَ الرّاثياتِ الباكياتِ أكثرُ منَ الرِّجال ذِكْراً للوعةِ ، وأكثرُ حديثاً عن البكاءِ والدُّموع والوجيعة ، لأنَّ ضعفَهُنَّ وسرعة انفعالهن يتجلّى في تصويرهن للتّرح بالحديثِ عن البُكاءِ ومخاطبةِ العيونِ والدُّموع ، حتى إنَّ مراثيهنَّ تتسمُ بالنّواح أكثرَ ممّا تتسمُ بغيرِه ، وإنَّ نواحهنَ متشابِهُ لا تمايزَ بينه ولا خلاف ، ولهذا تصطبغُ مراثيهن بوحدةِ الموضوع ، ممّا جعلَ الحكمةَ تندرُ في شِعرهنَّ ، وكذلك الغَزَل؛ إذ إنَّ خلوَّ مراثيهن من المقدمةِ الغزليّةِ هو صدى لأنوثتهن .
- * يقولُ الدكتور أحمد الحوفي: «وقد تزعمتِ الخنساءُ شواعر الجاهليّةِ والإسلامِ في الرّثاء ، لكثرة ما رثَتْ أخويها ، ولجودةِ مراثيها ، وحرارةِ عاطفتها» (٢).
- الدكتور جواد علي في «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» عن الرّثاء في العصر الجاهليّ ، وعن الرّثاء النّسوي عصر ذاك فقال: «الرّثاءُ من سننِ الجاهليّة القديمةِ ، وهو من أبوابِ الشّعر المهمّة ،

⁽۱) ليسَ لهذا أثارة في رثاءِ الرّجال ، وإنْ عظُم حزنُهم ، وأمضّهم الهمُّ ، كمرثيةِ متممِ بنِ نويرة لأخيه مالك ، ومرثيةِ الأُبيردِ بن المعذّر الرّياحي لأخيه بُرَيد ، ومرثيةِ ومرثيةِ دريد بن الصّمة لأخيه عبدِ الله ، ومراثي المهلهل لأخيهِ كُليب ، ورثاء أبي ذُبيد الطّائي لابنِ أخته ، ومرثيةِ أوس بن حجر لفضالة بن كلدة. (المرأة في الشعر الجاهلي ص ٦١٨ ـ ٦١٩).

⁽٢) المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٢٦).

وقد نبغتِ النِّساءُ الرِّاثياتُ في هذا البابِ ، واستنبطنَ فيه أساليب بديعة لم يتنبّه لها الفحولُ ، لِما طُبِعْنَ عليه من رقّةِ الطِّباع وشدّةِ الجزعِ في المصائبِ ، وصدقِ الحسّ ، ورقّةِ العاطفة. وشِعْرُ الرّثاء وإن كان من واجبِ النِّساء النّائحات في الغالب ، وقد بلغ الغاية في شعرِ الخنساء ، إلا أنَّه من واجب الشُّعراء كذلك»(١).

* ويتحدّثُ الدكتور الحوفي عن رثاءِ النساءِ ، وقِصَرِ نَفَسِهِنَّ بالشَّعر عامة ، ومع إجادتهنّ الرثاء فيقولُ ما نصُّه: «إنّهنّ لم يبرعْنَ إلاّ في الرّثاء ، لأنَّه وثيقُ الصّلةِ بنفوسهنّ وميلهنّ ، فهنّ رقيقاتُ الشُّعور ، ضعيفاتُ الاحتمالِ ، سريعاتُ الانفعال ، فيّاضاتُ العيون ، لا يطقْنَ فَقْد الأحباب ، وهنّ أشدُّ حُزناً ، وأحدُّ لوعةً منَ الرّجال.

* على أنَّ رثاءهن في جملته متشابهُ السِّمات ، لا يستطيعُ منافسةَ رثاءِ الرجال؛ لأنَّ مراثي الرّجال الصّادرة عن عواطف صادقةٍ تصوّر شخصياتهم ونظراتهم إلى الحياة.

* وقد قصَّرْن في الأغراضِ التي عالجْنَها ، فلم تُدانِ إحداهنَّ شاعراً في الغَزلِ ، أو الحماسةِ ، أو الفخرِ ، أو الهجاء ، فنحنُ نذكرُ الخنساء على أنَّها قد أجادتِ الرِّثاء ، وشأتْ فيه بعضَ الرِّجال ، وإنْ تخلَّفَتْ عنِ الفحولِ في براعةِ التَّصوير وقوّة الأداءِ ، ولكنّا لا نستطيعُ أنْ نجدَ شاعرةً قاربت شاعراً في فنّ آخر»(٢).

* ويتابعُ الدّكتور الحوفي حديثَه قائلًا: «وتمتازُ قصائدهنّ بوحدةِ الموضوع.... ولم يجمعْنَ في شعرهنّ أفانينَ عدّة من وصْفٍ ومدحٍ

⁽١) المفصل في تاريخ العرب لجواد على.

⁽٢) المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٦٤).

وفخر ، كما كان يفعلُ كثيرٌ من الشُّعراء ، لأنَّ النّساء لم يبلغْنَ هذه المكانة الفنيّة.

* وقصائدهن مقطعات ، فليست لإحداهن مُطَوَّلة ، وأطول قصائد الخنساء ـ وهي زعيمتهن في طولِ القصائد أيضاً ـ قصيدتها التي مطلعها: ألا يا عين فانهمري بغَزْر وفيْضِي فيضة من غير نَزْر أبياتُها عشرون بيتاً. وقصيدتُها التي مطلعُها:

مَا هَاجَ حُزنكِ أَمْ بالعينِ عُوَّارِ أَمْ ذَرَّفَتْ إذ خَلَتْ من أهلِها الدارُ أبياتُها خمسةٌ وثلاثون ، على أنَّ بعضَ أبياتها غيرُ مقطوعٍ بنسبِها إليها. وقصيدتُها التي مطلعُها:

أَلاَ مَا لَعَينَيْكِ أَمْ مَالَهِا لَقَد أَخْضَل الدَّمعُ سِربَالَها

أبياتها سبعةٌ وثلاثون ، وليست كلّها مقطوعاً بروايتها. على حين تكثرُ المطوّلاتُ في شعْرِ الرّجال..... وربّما كان مبعثُ القصرِ في شعْرِ النّساء تعاطي الموضوع الواحد ، وأنَّ دموعهنَّ وصياحهنَّ وأنّاتهن تنفّسُ حزنهنَّ تنفيساً أقوى وأبرز من الشّعر ، فيجدْنَ فيها بعضَ السّلوى ، فيؤثرنَها على الشّعر المطوّل ، لأنّهنّ ملُولات لا يصبرنَ على قرضِ الشّعر مدةً طويلةً ، والقصيدةُ المطوّلةُ تحتاجُ إلى جهدٍ وصبر وعزيمة »(١).

* بيد أنَّ السَّيدةَ بنتَ الشَّاطىء نقضَتْ ما أُخِذَ على الخنساءِ من قِصَرِ القصيدة ، وخلو شعرِها من الحكمةِ أو قلّةِ الحكمة في قصائدها؛ ولم ترضَ عن الأقدمين من النُّقاد الذين وضعوا طولَ النَّفَس في القصيدةِ موضع التَّقدير؛ فقالت: "إنّني لستُ ممن يُدخلون في حِسَابِهم عند وزنِ الشَّاعرة

⁽١) انظر: المرأة في الشعر الجاهلي (ص ٦٦٤ _ ٦٦٨) باختصار وانتقاء وتصرف.

طولَ القصيدة أو قِصَرها ، وكثرة الحِكمِ في شعرِها أو ضآلة حظّه منها ، والحقّ أنّ هذه الموازين النقدية لم تَعْدُ فيما أرى جديرةً بالاعتبار في عصرِنا المفتون بفنية الشعر ، وإنسانية الفن ، المعتد بالعمق أكثر من اعتدادهِ بالطُّول والعرض»(١).

* وتتابعُ ابنةُ الشَّاطىء كلامَها بإيجاد مقاييس نقديّة جديدة لِشِعْر الخنْساء فتقولُ: «وليس معنى هذا أنّني أضعُ شِعرَ الخنْساء بمنأى عنِ النَّقد، أو أنجو لها به خالصاً من المآخذِ والعيوب، وإنّما معناهُ أنّي أحاولُ أنْ أعرضَ شاعريّة الخنساء على مقاييس نقديّة جديدة»(٢).

* ولعلَّ ابنةَ الشَّاطىء قد نسيت وهي تتحدَّثُ عن الخنساءِ ، بأنّ هذه الشَّاعرة لم تعشْ حياة ابنة الشَّاطىء في العَصْرِ الحديث ، هذا العصرُ الذي فتنتُهُ فنيّةُ الشِّعر وإنسانيّة الفنّ ، والذي يعتدّ بالعمق أكثر من غيره.

* لقد عاشتِ الخنساءُ في عصرٍ نقدي ساذجٍ ، وفي بيئةٍ بسيطةٍ بعيدةٍ عن العمقِ والغوصِ وراءَ الأفكارِ والمعاني واستنباط الأحكام النّقديّة.

* ونجدُ صورة الخنساءِ مبثوثة في أعمالِ المستشرقين ، وأعمالِ بعضِ كتّاب الموسوعات ، ومن الذين كتبوا عنها وتحدثوا عن شعرِها «كرنكوفِ» الذي لم يخرج بالخنساءِ عن مجالِ المرثية التّقليدية ، ولاحظ على مراثيها الكثيرة المتعددة سمّة القصر ، وصدق التّفجّع والحزنِ ، وحصرها في صورٍ محدودة المعاني والتّعابير فقال في «دائرة المعارف الإسلاميّة»: «ومن العسير أنْ نقطع برأي فيما إذا كانتِ الخنساءُ قد أضافَتْ سمات إلى المرثية ، أو لم تُضِفْ ، ولو أنّنا نكادُ نقطع بأنّ قصائدها ألهمَتْ عدداً كبيراً

⁽١) الخنساء (ص ٧٦ و٧٧).

⁽۲) الخنساء (ص ۷۱ – ۷۷).

من شُعراء المراثي المتأخّرين ، ومنهم ابنتها عمرة ، أمّا إذا وازنّا بين شعرها وشعرِ غيرها من أصحابِ المراثي من معاصريها ـ وحسبي أنْ أذكرَ منهم مُتمماً وأبا ذُؤيب ـ فقد حقّ لنا أن نعترف بأنَّ قصائدها يعوزها ما عندهم من الجَمال الشِّعري ، ولكنّا نجدُ فيها على الرغم من قِصَرِها ـ بالنّسبة لقصائدهم ـ حزناً أبلغ صدقاً ، وإنْ كنّا نجدُ فيها تكراراً لنفْسِ ـ الأفكار ، يبعثُ السّامة في النّفس» (١).

* ومن المستشرقين الذين أدلوا دلوهم في الحديثِ عن الخنساءِ ، ونشأةِ المراثي عند النساء: المستشرق «غوستاف فون غرنباوم» الذي قال: «وإذا كانتِ المراثي قد نشأتْ من نياحاتِ النساء ، فقد جعلَ ذلك منها فناً نسائياً؛ ومع أنَّ أوسَ بنَ حجر قد خلّفَ بعضَ المراثي الرائعة ، إلا أنَّ هذا الفنَّ إنما بلغَ أَوْجَهُ في مراثي الخنساء الشّاعرة التي عاشتْ في النّصفِ الأوّل من القرنِ السَّابع. ولقد اتّخذتِ المرثيةُ أسلوباً خاصاً واضحَ المعالم تميّز لي جانبِ التّعابير الخاصة والميل نحو تكرار بعضِ العبارات في عددٍ من الأبياتِ الأولى المتتابعة ـ بمميزاتِ شكليّة ، نظير نشوء ما هو من قبيل اللازمة ، والميل إلى التزامِ القافية في صدور الأبيات فضلاً عن أعجازها»(٢).

* وقال غرنباوم أيضاً عن الخنساء: «أمّا الخنساءُ فقد جعلتْ قِممَ الجبالِ تتدحرجُ بداعي وفاةِ أخيها ، والنّجومَ تهوي ، والأرضَ تهتزُّ ، والشمسَ تظلمُ. والخنساء عندما تنوحُ على مَنْ فقدتهم ، تعمدُ بلا عناء ملحوظ إلى إشراكِ الكونِ برمّته في مأتم جلّلهُ الحزنُ المفرطُ ، واللوعةُ المسرفةُ ، ولئن كان أسلوبها هذا قد حظيَ بالإعجابِ والتّقدير ، فإنّه لمْ

⁽١) دائرة المعارف الإسلامية مادة (الخنساء).

⁽۲) دراسات في الأدب العربي لغرنباوم (ص ۱۲۷) ترجمة إحسان عباس وآخرين.

يتّخذْ مثالاً يحتذى ، ذلك لأنَّ الإحساسَ بالطبيعةِ اتّخذ في تطوره وجهةً أخرى ، مختلفةً عن هذه كلّ الاختلاف»(١).

* أمّا البُستاني ، فيصفُ الخنساء بالغلق المُفرط في الحزنِ ، وبافتقارِ مراثيها إلى المعاني الحكميّة ، وبضعفِ مخيلتها ، وقلّة أو خلو قصائدها من تعدّدِ المواضيع وأن شعرها خالٍ أيضاً من المطولات ، فيقول: «ولعلّ الغلوّ أظهرُ خاصّة في الخنساء ، فهي مغاليةٌ في حُزنها ولوعتها ، مغاليةٌ فيما تنعتُ به صخراً من التعوت. . . . ورثاءُ الخنساء عاطفي بحث ، لا يشوبُه تكلّف ، ولا يرتفعُ به الفكرُ إلى المعاني الحكميّة التي نجدها في رثاء لبيد لأخيه.

* ومما يجدرُ ذكره أنَّ شِعْرَ الخَسْاء خالِ منَ القصائدِ الطّوال التي عرفْنَاها في الشُّعراء الجاهليين ، فأطولُ قصيدةٍ لها الرّائية: قذى بعينيكِ أمْ بالعين عوّار وهي لا تتجاوزُ الخمسة والثّلاثين بيتاً ، وأكثرُ شِعرها أبياتٌ ومقطعاتٌ أو قصائدُ قصيرة ، ولعلَّ ذلكَ ناتجٌ بعضُه من ضَعْفِ المخيّلة في المرأةِ ، وبعضُه الآخر عن وحدةِ موضوعِ الشَّاعرة ، وعدمِ تعدُّدِ أغراضها ، فهي لم تطرقُ غيرَ الرّثاء بما فيه من تفجُّع ومدح ، وما يتبعُ المَدْحَ من ذكْرِ غزوة دون أنْ تَعْمَد إلى وصفِ الحرب ، وتصويرها ، وإثما تجعلُ همَّها في النُّواح على صخرِ ، وإطراءِ شمائلهِ وتمثيلها ماديّاً ، ممّا جعلَ أفكارَها محصورةً في صُورِ محدودةِ المعاني والتّعابير" (٢).

* وأحكامُ البُستاني هذا فيها شيءٌ من البُعْد عنِ حقيقةِ الخنْساءِ ، إذْ إنّها من أَشْهَرِ شواعرِ العربِ ، وديوانُها الرّحبُ يملأُ الأسماعَ ، وفيهِ من

⁽١) تاريخ آداب العرب (ص ١٦٥).

⁽٢) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام (ص ٢٣٣).

الحكمةِ شيءٌ غيرُ يسيرٍ ، بالإضافة إلى فنونٍ أخرى ، بيد أنَّ سِمَةَ الرّثاءِ والبكاءِ قد غلبَتْ عليها.

* أمّا صاحب "الرّوائع" فيتحدَّثُ عن الخنساءِ بشيءٍ أكثر دقّة من بطرس البُستاني فيقول عنها: "فهي شاعرةٌ أكثرُ منها ناظمة وهو ما يروقُنا فيها، وإنْ كان للبعضِ ممن عاصرَهَا أو تأخَّر عنها من الرّثائين قوّةُ سَبْك، وجمالُ شاعريّة لا نراهما في شعْرِ الخنساءِ، أمّا ما أدخلته من صفاتٍ جديدة في المرثية، فمن الصّعب أنْ نحدّده، ولكنْ ممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ مَنْ تبعَها مِنْ شعراءِ الرّثاء وشواعره اغترفُوا جميعهم من بحرِها الفيّاض بفيضِ العاطفةِ البشريّة "(۱).

* ومع هذه الآراء النقدية لا بدَّ لنا أَنْ نشيرَ إلى خصائص مراثي الخنساء ، فقد كان رثاؤها يؤدي _ بشكل عام _ وظيفة اجتماعية في القبيلة ، يقول الدّكتور محمد جابر الحيني: "ومنْ هُنا ندركُ السّرَّ في احتفالِ رجالِ سُليم وسعيهم الحثيث في جَمْع ورواية شعْرِها ، وأنّها حينما كانت تقولُ شعْرَهَا إنَّما يصدرُ عنها وكأنَّه صادرٌ عن الجماعة "(٢).

* فمراثي الخنساء إذاً ما هي إلا نوحُ قُمريّةٍ شجتها الأحزان ، ومزاجٌ من ذوبِ العاطفةِ المتألمّةِ ، والنّفسِ الدّاميةِ ، والوفاءِ الثّاكلِ ، وتعبيرٌ عن حسِّ ملهوفٍ ، وشعورٍ مصعوقٍ ، ولذا فقد كانت نَفَثاتُها الحرّى بعيدةً عن مقدماتِ الشّعراء ، وأناةِ الصَّنعة (٣).

انظر: الروائع ، العدد رقم (٢٨) في المقدمة.

 ⁽۲) الخنساء شاعرة بني سليم (ص ١٣٠) ، سلسلة الأعلام _ مصر _ رقم (١٦) عام
 ١٩٧٧ م.

 ⁽٣) انظر: ديوان الخنساء: دراسة وتحقيق للدكتور إبراهيم عوضين (ص ١٤٤) بشيء من التصرف.

* لقد كان شعْرُها دموعاً تسبقُ الألفاظَ ، ولكنّها لا تستسلمُ البكاءَ حتى نراها تعودُ سريعاً إلى العزّة والمجدِ ، فتذكرُ فضائلَ المرثيّ ، وتعدّدُ مناقبَه وبطولاته وشمائله ، وقد لا يستغرقُ استهلالُها الباكي أكثرَ من بيتٍ ، أو شَطْرَ بيت ، ونرى مثل هذا في كثيرٍ من أشعارِها كقولها في هذه السِّينية:

حسَنَ الطُّعَانِ عَلَى الفَـرسْ بيْنَا نُـــؤَمُّلُـــه اخْتُلِـــسْ ترب المناخر مُنْقَعِسسْ حين النّصائع في الغَلَسْ فصل الخِطَاب إذا التبسش بعدد ابن أمسى إذ رُمِس الغَــائِــريــنَ ومَــنْ جَلَــسْ

يَا عَيِنُ بَكِّي فِارِساً ذًا مِـــــرَّةِ ومَهَـــــابــــةٍ يَـــذَرُ الكمـــيَّ مجـــدَّلاً نعْم الفَتى عند الوغَيى مَــنْ ذا يقــومُ مقَــامَــه غَيْتُ العشيرة كلُّها

يَاعَيْنُ جُودي بالدمو

* وقولها في هذهِ الرّائية التي نختارُ منها:

ع علي الفَتي القَرم الأُغَرِه أبيـــــضُ أبلـــــجُ وجهُـــــهُ كالبدر من خير البَشر أصبحت ت حِصْنِه منكسِر

* ومثل هذا كثيرٌ في أشعارِها التي يضمُّها الدّيوان المحقّق المطبوعُ في مِصرَ ، وغير مصر .

* ومنَ الملفتِ للنَّظر في شعر الخنساءِ ومراثيها ذلكم الخطابُ إلى عينيها كيما تُسْعِداها في مصيبتها ، حتى لقد أصبح خطابُها لهما لازمةً في أكثرِ مراثيها ، وغدا استهلالُها قصائدها بخطابِ عينيَّها سمةً بارزةً وخصيصةً تمتازُ بها مراثي الخنْسَاء؛ وهذه السِّمةُ التي سيطرتْ عليها تقودُها إلى تكرارِ مطالع كثيرٍ من قصائدِها ، بحيث تتشابَه في عددٍ كبيرٍ منها ، ولك أنْ تقرأً معي بعضَ النَّماذج من مطالِعها كيما تتوضّح تلك السِّمةُ التي أَشَرْتُ إليها؛ فنجدُهَا تخاطبُ عينيها الاثنتين أحياناً فتقولُ في مطَالع قصائدها:

أُعيني جُدودا ولا تجمداً أُعيني جُدود ولا تجمداً أُعيني هلا تبكيانِ على صَخْر أُعيني جُودا بدمع غير منزورِ أُعَيني جُودا بالدُّموعِ على صخرِ

ألا تبكيانِ لِصَخْرِ النَّدى بدمع حثيثٍ لا بكيءٍ ولا نَزْدِ وعُرولًا إنَّ صخراً غَيرُ مقْبودِ على البَطَلِ المِقْدام والسَّيِّد الغرِّ على البَطَلِ المِقْدام والسَّيِّد الغرِّ

* وكما تخاطبُ عينيُّها الاثنتين تخاطبُ العينَ في مطالعَ كثيرةٍ ومنها قولُها:

> يا عين جُودي بالدُّموع يا عين جُودي بالدُّموع يا عين جُودي بالدُّموع يا عين جُودي بالدَّموع يا عين جُودي بدمع منك مدرارِ يا عين جُودي بدمع منك مغزارِ يا عين جُودي بدمع منك مغزارِ يا عين جُودي بدمع منك مغزارِ يا عين جُودي بدمع منك مهراقِ

فقَدْ جَفَتْ عَنْكِ المَوارِدْ المُسْتَهِلَة السَّوافِ المُسْتَهِلَة السَّوافِ المُسْتَهِلَة السَّوافِ على الفَتى الفَّرمِ الأَغَر المُسْتهِلَة السَّواجِ المُسْتهِلَة السَّواجِ الجدولِ الجاري جهد العويل كماء الجدولِ الجاري وابكي لصخرِ بدمع منك مدرارِ وابكي لصخرِ بدمع منك مدرارِ إذا هدى النَّاسُ أو همُّوا بإطراقِ إذا هدى النَّاسُ أو همُّوا بإطراقِ مثلِ الجمانِ على الخَدَّيْن محدورِ مثلِ الجمانِ على الخَدَّيْن محدورِ

* ومثلُ هذا كثيرٌ جدّاً في معظَم قصائدِها؛ ومنَ الواضحِ في شِعْرِ الخنساء ومراثيها بُعْدُهَا عن التكلّف ، حيث جاءَتْ مراثيها مدائحَ للمّيتِ ممزوجة باللّهجةِ الصّادقةِ ، والعاطفةِ الخالصةِ ، والتفجُع الصّادقِ ، والإعجابِ بأخيها ذي الشّمائلِ الكريمة ، والمناقبِ الحميدة ، فهو عندها جوادٌ سخيٌ ، أبو اليتَامَىٰ ، ومأوى الأراملِ و اسمع إليها تقولُ:

ضَخْم الدَّسيعةِ بالنَّدى متدفّقاً مأُوى اليتيمِ وغايةُ المنتابِ وأب اليتيمِ وغايةُ المنتابِ وأب واليتامي ينبُتُ ون فِناءَه نَبُتَ الفِراخِ بمكلىءٍ معْشَابِ

* وقولها تصفُ بسالَتَه وشجاعتَه:

قد كَانَ حِصْناً شَديدَ الرّكْن مُمتنعاً لَيْتُ أَ إِذَا نَــزَلَ الفِتْيــانُ أَو ركبُــوا

أَغـرَ أَزْهَـر مثـلُ البـدرِ صـورتُـه صافٍ عتيقٌ فما في وجههِ نَدب

* ومن خصائصِ رثاءِ الخنساء أنّها أشركتِ الكونَ جميعَه في مأتم جلَّلهُ الحُزْنُ ، وغلَّفَتُه اللوعةُ ، فجعلتْ قِمَم الجبالِ تتدحرجُ بداعي وفاةِ أخيها ، والنُّجومُ تهوي ، والأرضُ تهتزُ ، ولنَسْتمعْ إليها تقول:

ضَاقَتْ بَيَ الأَرضُ وانقضَّتْ محارِمُها حَتَّى تخاشَعتِ الأعلامُ وَالبيْـدُ وَقَـائليـنَ تعــزّي عــن تــذكُــرهِ فَــالصّبــرُ ليـسَ لأمْـرِ اللهِ مــردودُ * وتقولُ:

فإنْ تكُ مرةٌ أوْدَتْ بهِ فقد كان يُكْثِرُ تِقْتَ الَها فَخَرَّ الشَّوامِخُ مِنْ قَتْلهِ وزُلْزَلَتِ الأرضُ زِلْزَالَها وزَالَ الكواكِبُ منْ فَقْدهِ وجللت الشمسُ إجلالَها

* ويُضاف إلى خصائص رثاء الخنساء استخدامها لِصِيَغِ المبالغَة ذاتِ الأثرِ المحسوس في نفس سامعِها من مثل قولها:

حمّالُ ألويةِ قطاعُ أوديةِ شهّادُ أنديةِ للوترِ طلابا و:

مأوى الأرامل والأيتامِ إنْ سغبوا شهّادُ أنجيةِ مطعامُ ضيفان و:

جَلْدٌ جميل المحيّا كاملٌ وَرعٌ وللحروبِ غداةَ الرَّوعِ مسْعَار * كما نجدُ في رثاءِ الخنساءِ لوناً من ألوانِ التَّساؤلِ من مثلِ قولها:

سُقيا لقبركَ من قبرٍ ولا برحَتْ جودُ الرَّواعدِ تسقيهِ وتجتلبُ ماذا تضمَّنَ من جُودٍ ومن كَرم ومن خلائقَ ما فيهنَّ مقتضبُ

* ونودُّ في نهايةِ هذه التّرجمة أنْ نشيرَ إلى أنَّ الخنساءَ لم تكن تقتصرُ في شِعْرِها على الرِّثاء فحسبْ ، ولكنَّها تعدَّثُهُ إلى أغراض أخرى ، كالوصف والمديح والفخرِ والهجاءِ والحكمةِ ، وجاءت هذه الأغراضُ في ثنايا شِعْرِها ، ومن الملفتِ للنَّظرِ أنَّ بعضَهم زعمَ خُلو شعرها من الحكمةِ ، وهذا لا ينطبقُ على الخنساء ، فعندما نقرأً قصائدها نجدُ الحكمةَ مبثوثةً فيها ، ومنها قولها:

> فــأُقْسِــمُ لــو بقيــتَ لكنــتَ فينــا ولكـنَّ الحـوادثَ طـارِقـاتٌ

> > * وقولها:

كلُّ ابنِ أنثى بريبِ الدَّهْرِ مرجومُ لا سُـوقَـٰةٌ منهـم يبقـٰىٰ ولا مَلِـكٌ إنَّ الحوادثَ لا يبقى لنائِبها

وقولها:

إنَّ الزَّمانَ وما يفني له عَجَبٌ أبقىٰ لنا كُـلَّ مجهـولٍ وفجَّعَنــا إنَّ الجديدَيْن في طولِ اختلافهما ※ وقولها:

ذلك من خلالِ ما قدّمناه من أشعارها.

عديداً لا يكاثر بالعديد لها صرفٌ على الرّجُل الجليدِ

وكلُّ بيتٍ طويلِ السَّمك مَهْدُومُ ممَّــنْ تُمَلِّكــهُ الأَحْــرارُ والــرُّومُ إلَّا الإلـهُ وراسـي الأصـل معلـومُ

أبقى لنا ذنباً واستُؤْصلَ الرَّاسُ بالحالمين فَهم هَامٌ وأرمَاسُ لا يَفْسُدان ولكنْ يفسُدُ النَّاسُ

لابدَّ منْ ميتةٍ في صرفها عِبَرٌ والدَّهرُ في صرفهِ أحوالٌ وأَطُوارُ

* والأمثلةُ كثيرةٌ في شعرِ الخنساء عن وجودِ الحكمةِ ، وقد لاحظنا

* وأخيراً فالحياةُ مع الخنساءِ وأدبِها حياةٌ جميلةٌ منعِشَةٌ ، ولا بدّ لنا من وداعِها.

* أما وفاتُها فقد اختلفَ بتأريخهِ الباحثون ، فمنهم من قال: إنها توفيتْ سنة (٢٦ هـ) وبعضُهم قال: كانت وفاتُها في أوّلِ خلافةِ عثمان ، وبعضُهم قال: توفيت سنة (٢٤ هـ). بيد أننا لم نَعُدْ نسمعُ أخبارها بعد ذلك الخبر المزعومِ عن حضورِها معركةِ القادسيّة مع بَنِيْها الأربعة. ولكنّا نقول: ماتت الخنساءُ التي أبكتِ العيونَ وبكت كثيراً ، ولكنّه لم يبكها أحدٌ ، ولا دمعَتْ عليها عينٌ ، ولا نطق برثائها أحدٌ ، ولكنّها ستظلُ ملءَ الأسماع فرضي الله عنها.

* * *





سنفانذ بنت حاتم

- * صحابية نعمت بنعيم الإسلام، وهي ابنة الجواد، وأخت الأجواد، وكانت السبب في إسلام أخيها عدي بن حاتم.
- * كانت امرأة جزلة ، ذات وقار ، وعَقْل ، وذكاء ، وفصاحة ، ورأي صائب.





في عِدَادِ الصَّحَابِيَّاتِ السَّخِيَّاتِ:

* انحدرتْ هذه المرأةُ من بيتِ يفيضُ بالجودِ والكَرمِ والسَّخاءِ ، وإذا ذُكرَتْ بيوتاتُ الأجوادِ كانَ بيتُها في مقدَّمةِ هذه المحمدةِ العظيمةِ التي يحبُّها اللهُ ورسولُه.

* ومن حُسْنِ حظ هذه الكريمة السَّخية أنَّها أضحَتْ واحدةً من نساءِ المشرقِ العربيّ ممن نلْنَ الصُّحبة النّبويّة ، ونعمنَ بنعيمِ الإسلامِ ، وفُزْنَ معَ الفائزاتِ ، وكُنَّ من خيرِ نساءِ القرونِ علىٰ الإطلاق ، بشهادةِ سيدِ الخَلْق على الإطلاق .

* ومن حسنِ حظّها أيضاً أنّها كانتْ سببَ إسلامِ أخيها الذي غدا سَعيداً بالإسلامِ ، وسيّداً بين الأنّام ، هذا العَلَمُ هو الأميرُ الشَّريفُ أبو وَهْب ، وأبو طريف عديُّ بنُ حاتم الطَّائي _ رضي الله عنه _ صاحبُ النّبي ﷺ ، المعروفُ المشهورُ بين أعلامِ الرّجال ، وُلدَ في العَصْر الجاهليّ قبلَ الهجرةِ النّبوية بنحوِ من خَمسين سنة ، وكان يُكنّى أبا طَريف وأبا وَهْب ، وكان طويلاً جسيماً ، إذا ركبَ الفرسَ كادَتْ رجلاهُ تخطّان في الأرضِ (١٠). وكان منَ الصَّحابة المعمَّرين الذين عاشُوا قرابةَ مئة وعشرين عاماً ، فقد توفيَ سنة من الله عنه .

* أمّا أختُه التي كانت سبباً في إسلامِهِ فهي سفّانَةُ بنتُ حاتم الطَّائية (٢)؛ الصَّحابيةُ الكريمةُ ابنةُ الجوادِ ، أختُ الجواد.

انظر: المعارف (ص ۱۱۳).

⁽۲) أسد الغابة (٦/ ١٤٣) ترجمة رقم (٦٩٨٨)؛ والإِصَابة (٣٠٦/١٢) رقم (٥٤٣) ، ولسان العرب (٢١/ ٢١١)، وعيون الأثر (٢/ ٢٧٨ و٣١٩)، والدّرّ المنثور (ص ٢٤٤)، وأعلام النّساء (٢/ ١٩٦) وديوان حاتم (ص ٢٥ ـ ٢٨) ومواضع أخرى؛ وخزانة الأدب

* قال ابنُ عسَاكر: «أسلَمَتْ ، وحكَتْ عن النّبي ﷺ؛ حكى عنها أخوها عديُّ بنُ حاتم ، وقد قدمتِ الشَّامَ في طلبِ أخيها "(١).

من أُخْبَارِ سَفَّانَةً وجُودِهَا:

* إذا عرفنا أنَّ أباها حاتماً كان سيّدَ أجوادِ عَصْره ، عرفْنَا أيضاً أنَّ ابنتَه سفَّانة (٢) من سيّدات نساء عَصْرِها في الجودِ والسَّخاءِ ، وقد ورثتْ حصائِلَ هذه الخَصَائل عن أبيها حاتم ، وعن جدّتها لأبيها عنبةَ بنتِ عفيف (٣) التي كانت أسخى امرأةٍ في قومها.

* كانتْ سفّانَةُ قرَّةَ عينِ أبيها الذي كان يكنىٰ بها فيُقال: أبو سفَّانة ، كما يُقال: أبو عديّ (٤) ولعلَّ حاتماً قد عُرِفَ بهذه الكنيةِ اللطيفةِ أبي سفَّانة أكثر ممّا عُرِف بكنية أبى عدي.

* وتوردُ كتبُ الأخبارِ والأدبِ أنَّ ابنَ دارة (٥) أتىٰ عديَّ بنَ حاتم

 ⁽٣/ ١٢٢ و ١٢٣)، والأغاني (١/ ٣٦٣ ـ ٣٦٣ ـ ٣٩٠)، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النّساء ص ١٤٠ ـ ١٥٤) ونهاية الأرب (١٧/ ١٥٧) و(١٨/ ٧٧)، والمغازي للواقدي (٣/ ٩٨٤)، وطبقات ابن سعد (٢/ ١٦٤)، والسّيرة النبوية (٤/ ٢٤٧)، وغيرها كثير جداً.

⁽۱) تاریخ مدینة دمشق (تراجم النساء ص ۱٤٠).

⁽٢) «سفّانة»: بتشديد الفاء ، هي اللؤلؤة؛ أو أصل اللؤلؤة ، وبها سميت سفانة بنت حاتم بهذا الاسم ، وبها كان يكنى. (لسان العرب ١٣/ ٢١١) بتصرف.

⁽٣) اقرأ سيرة عنبة بنت عفيف في هذا الكتاب.

⁽٤) انظر: الأغاني (٣٦٣/١٧).

 ⁽٥) «ابنُ دارة»: هو سالمُ بنُ دارة ، واسم أبيه: مُسافع بنُ يربوع؛ وأثمه: دارةُ من بني أسد ، وسمّيت دارةً لجمالِها ، شُبّهت بدارةِ القمر.

قال الآمدي عن ابن دارة: وهو وأخوهُ عبد الرحمن شاعِران مُحْسِنَان».

ـ وكان ابنُ دارة هجاءً ، وهو الذي هجَا ثابتَ بنَ رافع الفزاريّ فقتلُه ، وهو القائل: لا تـــأمنـــنَّ فـــزارّيـــاً خلـــوتَ بـــهِ علــــي قلـــوصـــكَ واكتبْهَـــا بــأشيَـــار=

فمدحه ، وذكرَ في مديحهِ أبَاه وذكرَه بكنيتهِ المشهورِ فيها «أبو سفَّانة» فقال وقد أشارَ إلى قصّة جودِه وهو ميّت^(۱) تحتَ التُّراب:

– وكان الذي قتله زُميل بنُ أبير بن عبد مناف بن عقيل الفزاري ، وهو مخضّرم ،
 وقال :

أنسا زُمَيسلٌ قساتسلُ ابسنِ داره وراحسضُ المخسزاةِ عَسنُ فَسزَاره و«راحض»: غاسل ، والرّحض: الغَسْل.

ـ وفي ابنِ دارة يقول الشاعر وهو الكميتُ بنُ معروف:

فلا تكثُّرا فيه الضَّجاج فإنّه محًا السّيف ما قالَ ابنُ دارة أجمعا و«الضّجاج»: الضّجيج ، وهو الصّياح عند المكروه والمشقّة والجزع.

ـ ومن المفيد هنا أنّ نشيرَ إلى هذهِ الفائدة: الكمتُ الشُّعراء الأسديون ثلاثة: الكميتُ بن معروف شاعر ، وجده الكميتُ بن ثعلبة هذا الشّاعر ، والكميتُ بنُ زيد الأخير أكثرهم شعراً ، والكميتُ الأوسط أشعرهم قريحةً ، وكلّهم بنو أب. (الشّعر والشّعراء ٢/٢).

(۱) تذكرُ طيىء أنَّ رجُلاً يُعْرِفُ بأبي الخيبري ، مرَّ بقبرِ حاتِم في نَفَرٍ منْ قومهِ ، فنزلُوا به ، وباتَ يُناديه: يا أبا عديّ ، أكرمْ أضيافَك؛ _وذلك استهزاءً وسخريةً _ ، ويقولُ: إنّ طيئاً تزعُمُ أنّه لم ينزلْ بهِ أحدُ إلّا قراهُ وأطْعَمهُ.

ـ فلمّا كانَ آخر الليلِ نامَ أبو الخيبري ، فلمّا كان في السَّحَر ، وثبَ أبو الخيبري يصيحُ ويقول: واراحلتاه! . .

فقال له أصحابه: ما شأنك؟

فقال: خرجَ واللهِ حاتمٌ بالسَّيف حتى عَقَر ناقتي وأنا أنظرُ إليهِ؛ فنظروا إلى راحلته فإذا هي لا تنبعثُ ، فقالوا: قد واللهِ قراك.

فنحروها ، وظلّوا يأكلونَ من لحمِها ، ثمّ أردفوهُ وانطلقوا ، فساروا ما شاءَ الله ، وبينما هم في مسيرهم ، طلعَ عليهم عديُّ بنُ حاتم ومعه جَمَلٌ أسودُ قد قَرَنَهُ ببعيره ، فقال: أيّكم أبو الخيبريّ؟

قالوا: هذا.

قال: إنَّ حاتماً جاءَني في المنام ، فذكرَ لي شَتْمك إيّاه ، وأنَّه قراكَ وأَصْحَابكَ راحلتَك ، وقال في ذلكَ أبياتاً ردِّدها عليَّ حتى حفظتُها وهي:

أب خيبريّ وأنتَ امرؤٌ حسُودُ العشيرةِ شتّ امها فماذا أردتَ إلى رُمّةِ بـ دَاويةٍ صخبٍ هَامها=

أبوكَ أبو سفَّانَةَ الخيرِ لم يزلُ لَدُنْ شبَّ حتّى ماتَ في الخيرِ راغبا به تُضْرَبُ الأمثالُ في النَّاس ميّتاً وكان لـه إنْ كـان حيّـاً مُصـاحِبـا قَرىٰ قَبْرُه الأَضْيافَ إذْ نزلُوا بهِ ولـمْ يَقْـرِ قبـرٌ قَبْلَـه قـطّ رَاكِبـا(١)

* وكانتْ سقّانَةُ من ربّاتِ الجودِ والكرمِ والسَّخاء ، وكانت من أجودِ نساءِ العربِ في عَصْرها ، ولدَتْ وولدَ معها نصيبٌ وافرٌ من الجودِ والكرمِ ، وكان أبوها حاتم يعطيها الصِّرمةَ بعد الصَّرمةِ من الإبلِ ، فتُنْهِبُها وتعطيها الناس ، حتى غدتْ مطمَع آمالِ النَّاس في العَطاء.

فقال لها أبوها حاتم: «يا بُنيّةُ ، إنَّ الكريمَيْنِ القرينَيْنِ إذا اجتمعًا في مالٍ أتلفًاه ، فإمّا أنْ أعطي وتمسِكي ، وإمّا أنْ أمسكَ وتُعطي ، فإنَّه لا يبقى على هذا شيء». وقال حاتم يذكرُ ذلك:

خُبِّرتُ سَفَّانَةَ قَالَتْ أَسْرعِ وجَشِّمِ العيْسَ وإنْ لم تفْجعِ رُجُبِّرتُ سَفَّانَةَ قَالَتْ أَسْرعِ وجَشِّمِ العيْسَ وإنْ لم تفْجعِ رمَّانَ من وَادي القُرى الأَرْبَعِ (٢)

= تبغي أذاها وإعسارها وحولك غَوْثُ وأنعامَها وإنسامَها وإنسامَها وإنسا لنُطعهم أضيافَنا من الكوم بالسَّيف نعتامها وقد أمرَ بي أنْ أحملكَ على بعير ، فخذهُ ، فأخذَه ، وركبَ ، وذهبَ .

(الشّعر والشّعراء ١/ ٢٤٩) و(خزانة الأدب ٣/ ١٢٣) مع الجمع والتصرف.

ـ وقد أوردتُ القصَّة هنا للطّرفةِ ونزهةِ النَّفْس ، وإلاّ فهذهِ قصّة مختلقةٌ لا يصدّقها مَنْ له أدنى عَقْل ، وربّما رواها أحدُ أقرباءِ حاتم ، ونسبُوا ذلك إليه ، وإلى ابنهِ عدي؛ من بابِ الانتصار لجودِه وكرمهِ؛ والله أعلم بحقيقة الصواب.

(۱) ديوان حاتم (ص ۱۷۸) ، وخُزانةُ الأدب (٣/٣٪١) طبعة بيروت؛ ومدحَ ابنُ دارةَ عديّاً فقال:

أبوكَ جوادٌ ما يُشقُ غبارُهُ وأنتَ جوادٌ ما تعذَّر بالعِللُ (الشعر والشعراء ٤٠٣/١).

(۲) انظر: الأغاني (۳٦٦/۱۷۰)، وديوان حاتم (ص ۱۷۸_۱۷۹)، وأعلام النساء (۱۹٦/۲) والأخبار الموفقيات (ص ٤٣٥) مع الجمع والتصرف اليسير. و«رمان»: = * وفي روايةٍ أنَّ حاتماً قال لسفَّانة: «إمّا أنْ أعطيَ وتُمسِكي ، وإما أنْ أمسكَ وتعطي ، فإنَّه لا يبقى على هذا شيءُ

فقالت: «واللهِ لا أمْسِكُ أبداً».

وقال أبوها: «وأنا واللهِ لا أمْسِكُ أبداً».

قالت: «فلا نتجاور».

فقاسَمها ماله وتَبَايَنَا^(١).

سَفَّانَةُ وَالإسْلام:

* كانت أنفاسُ المدينةِ المنورة تسبّعُ ، ويخفقُ فؤادُها لربّ العالَمين ، فقلوبُ المؤمنين قد استنارت بأنوارِ اليقين ، واطمأنّتْ نفوسُهم باللهِ عزَّ وجلَّ ، وشرحَ صدورهم للإسلام ، فَهُمْ على نورِ من ربّهم ، وممن شرحَ اللهُ صدره للإسلام: سفّانَةُ بنتُ حاتم الطّائية ، ثم أخوها عديُّ بنُ حاتم.

* ففي السَّنَةِ التَّاسِعةِ من الهجرةِ النَّبويةِ ، كانت سَريّةُ طيىءٍ ، وذلك في ربيعِ الأوّل من هذا العَام؛ إذ أرسلَ النَّبيُّ عَلَيٌّ عليَّ بنَ أبي طالب _ رضي الله عنه _ في خمسين فارساً لهدم «الفلْسِ» _ صنم لطيّىء _ ، فسارَ إليهِ وهدَّمَه وأحرقَه ، ولمّا حار به عبّاده قاتلَهم وهزمَهم واستاقَ نَعَمَهم وشاءَهم ، وسبىٰ منهم سبّايا ، منهنَّ سفّانةُ بنتُ حاتم .

* ولما رجع إلى المدينةِ المنوّرةِ جُعِلَتْ سفّانةُ بنتُ حاتم في حجرةٍ عند

⁼ جبل في بلاد طيىء غربي جبل سلمى وإليه انتهى فل أهل الردة يوم بزاخة (معجم البلدان: مادة: رمّان). و«وادي القرى»: واد بين الشام والمدينة ، وهو بين تيماء وخيبر ، وفيه قرى كثيرة ، وبها سمي.

⁽١) أعلام النساء (١/١٩٦).

بابِ المسجدِ النّبوي ، كانتِ السّبايا يقمنَ فيها ، فلما مرَّ بها رسولُ اللهِ ﷺ قامتْ سفَّانة إليهِ فقالت: «يا رسولَ الله: هلكَ الوالدُ ، وغابَ الوافدُ ، فامنُنْ عليّ من الله عليك».

فقالَ لها النّبيّ ﷺ: «ومَنْ وافدُكِ»؟

قالت: عديُّ بنُ حاتم.

قال: «الفَارّ منَ اللهِ ورسوله»؟ ثمّ مضيّ وتركَها.

فكرَّرَتْ هذا منَ الغَدِ ، وبعد الغَدِ ، فمَنَّ عليها وقالَ: «لا تعجلي بخروج حتى تجدي مِنْ قومك مَنْ يكونُ لكِ ثقةٌ حتى يبلّغكِ إلى بلادِك ، ثم آذنيني».

* فلمّا أعلمَتُه بأنّها وجدت رفقةً ثقاتٍ ، كسَاها وحملَها وأعطاهَا نفقةً ، فشكرتِ النّبيّ ﷺ على هذا الجميلِ ، وكان مما قالت: «شَكَرَتُكَ يدٌ افتقرتْ بعد غِنى ، ولا ملكتُكَ يدٌ استغْنَتْ بعد فَقْر ، وأصابَ اللهُ بمعروفكَ مواضَعه ، ولا جعلَ لك إلى لئيمٍ حاجة (١) ، ولا سَلَبَ نعمة كريمٍ إلا وجعلكَ سبباً لردّها عليه».

* ثمّ ارتحلتْ حتى قدمَتْ على أخيها عديّ بالشَّام ، لأنَّه لما سمعَ بِخَيْلِ رسولِ الله ﷺ ، احتملَ بأهلهِ وولدهِ وتركَها وفرَّ إلىٰ الشَّام ، فلمّا وصلَتْ إليهِ وبختْهُ على صنيعِهِ ، فلم يجد ما يعتذرُ بهِ ، ثمّ أخبرتْه بما لقيتْ

⁽۱) من أصعبِ وأمرُّ الحاجاتِ والأشياءِ في هذه الدّنيا حاجةُ السَّمْحِ الكريمِ إلى اللئيم، لأنَّ نقلَ الجبال أهونُ منَ الحاجةِ إليه، خصوصاً إذا كانتْ في الشّخص بذورُ اللؤم، ومن ثمّ اغتنى، أو تسلّم مركزاً ما، وهناك تفوحُ رائحةُ اللؤم منه، وتظهرُ خَسَاسةُ أصلهِ. واللؤمُ وحده قبيحٌ ، فكيفَ إذا اقترنَ به البخلُ وسوءُ الظّنِّ بالنّاسِ؟! ولله درُّ القائلِ: إذا امتلاَّتْ أيدي اللئيم منَ الغنى تنفَّس كالمسرحاضِ فاحَ وأنْتَنَا وأمّا كريمُ الأصلِ كالعَصنِ كلّما تحمّلَ من خيرٍ تـواضعَ وانحنى=

من رسولِ اللهِ ﷺ من كرمٍ وحُسْنِ معاملة ، وقالت له: «أرى أَنْ تلحقَ به سَريعاً ، فإنْ يكن نبيّاً فللسّابق إليه فَضْلة ، وإنْ يكن مَلِكاً فلن تذلّ في عزّ اليمنِ وأنتَ أنتَ». فقال: «هذا هو واللهِ الرّأيُ»؛ فما كانَ منه إلّا أَنْ أَخدَ برأيها ، وقدمَ على رسولِ الله ﷺ (۱).

* ويروي ابنُ عساكر ـ رحمه الله _ قصّة إسلام سفّانة بقصّة مشابهة لِمَا السّلفْنَا فيقول ما مفادُه: «وكان في السّبي أختُ عديّ بن حاتم الطّائية ، لم تُقْسَمْ ، فأُنْزِلَتْ دارَ رملة بنتِ الحارث ، وكان أخوها عديُّ بنُ حاتم قد هرب حين سمع بحركة عليً بنِ أبي طالب ـ عليه رضوان الله ـ ، وكان له عينٌ بالمدينة المنوّرة ، فحذرهُ وحوّفه ، فخرج عديُّ إلى الشّام ، وكانت عينٌ بالمدينة المنوّرة ، فحذرهُ وحوّفه ، فخرج عديُّ إلى الشّام ، وكانت أختُ عديّ إذا مرّ النبيّ علي تقولُ: يا رسولَ الله! هلكَ الوالدُ ، وغابَ الوافدُ ، فامنُنْ علينا مَنَ اللهُ عليك! كلُّ ذلك يسألُها رسول الله عليه: «مَنْ وافدكِ»؟ فتقول: عديّ بنُ حاتم ، فيقولُ عليه: «الفارّ من الله ورسوله»؟ حتى يئسَتْ.

* فلما كان اليومُ الرّابعُ مرَّ النّبيّ ﷺ فلم تتكلّمْ سفّانة ، فأشارَ إليها رجلٌ: قُومي إليهِ فكلّميهِ ، فقامَتْ فكلّمته ، فأذنَ لها ووصَلَها ، وسألَتْ عنِ الرَّجلِ الذي أشارَ إليها؟ فقيل لها: هو عليُّ بنُ أبي طالب ، وهو الذي سبَاكم وهدَّمَ صنَمكم ، أمَا تعرفينَه؟!

فقالت: لا واللهِ ، ما زلتُ مُدْنيةٌ طرفَ ثوبي علىٰ وجْهي ، وطرفَ ردائي على اللهِ ، ولا رأيتُ ردائي على الدَّار ، ولا رأيتُ وجْهَه ، ولا وجْهَ أحدِ منْ أصحابهِ . . "(٢).

⁽۱) انظر: أعلام النساء (۱۹۲/۲)، وأسد الغابة (۱۲/۳) مع الجمع والتصرف.

⁽٢) انظر: مختصر تاريخ مدينة دمشق (١٠/ ٢٥٥) بتصرف يسير.

* وفي حديثِ آخر بمعناه يذكرُ ابنُ عسَاكر قصَّة إسلام سفَّانة ، وقصَّة إسلام عديّ فيقول ما مفادُه: «إنَّ سفانةَ كلَّمَتِ النَّبيَّ ﷺ وقالَتْ: فامننْ عليَّ مَنَّ اللهُ عليك! قال ﷺ: «قد فعلتُ! لا تعجلي بخروجٍ حتى تجدي منْ قومكِ مَنْ يكونُ لك ثقة يبلِّغك إلى بلادِكِ ، ثمّ آذنيني».

قالت سفّانة: وأقمتُ حتى قدمَ قومٌ من بليِّ أو قُضَاعة وأنا أريدُ أنْ آتي الشَّام، فجئتُ رسولَ اللهِ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ اللهِ! قَدِمَ رجالٌ من قومي لي فيهم ثقةٌ وبلاغٌ؛ فكسَاني رسولُ الله ﷺ، وحَملَني وأعْطَاني نفقةً، فخرجتُ معهم حتى قدمتُ الشَّامَ. قال أبو عامر: وكانتْ قد أسلَمَتْ وحَسُنَ إسلامُها»(١).

* ويتابعُ ابنُ عساكر الحديثَ ويذكر إسلامَ عديّ وقدومَه على النّبيّ عَيْلَةٍ ، فيروي عن عديّ ما مُفَاده: «قال عديُّ: وإنّي لقاعدٌ في أهْلي ، إذ نظرتُ إلى ظعينةِ تؤمّنا ، فقلتُ: ابنة حاتم؟! فإذا هي هيه! فلمّا وقفتْ عليّ انْسَحَلَتُ _ أي: أخذَتْ بالكَلام _: القاطعُ الظَّالمُ ، ارتحلتَ بأهلكَ وولدكَ ، وتركتَ بقيّةَ والدِكَ؛ أخْتَكَ وعورتَك؟!

قلتُ: يا أُخيَّة! لا تقُولي إلاّ خيراً ، فواللهِ ما لي من عُذْرٍ ، ولقد صنعتُ ما ذكرتِ!!

* ثم نزلَتْ ، فأقامَتْ عندي ، فقلتُ لها: _وكانتِ امرأةً حازمةً _: ما تَرِيْنَ في أمرِ هذا الرَّجل؟ _ أي النّبي ﷺ _ قالت: أرى أنْ تلحقَ به سريعاً ، فإنْ يكنْ نبيّاً فللسَّابقِ إليه فَضْلة ، وإن يكُنْ مَلِكاً فلَنْ تذلّ في عزّ اليمنِ وأنتَ أنتَ ، قلتُ: واللهِ إنَّ هذا الرّأي.

⁽١) المصدر السَّابق نفسه.

* فخرجتُ حتى أقدمَ علىٰ رسولِ الله ﷺ المدينة ، فدخلتُ عليه وهو
 في مسجدِه ، فسلمتُ عليه ، فقال: «مَنِ الرَّجُل»؟

قلتُ: عديُّ بنُ حاتم.

* فرحَّبَ به النَّبيُّ ﷺ وقرَّبَه، وكانَ يتألُّف شريفَ القوم ليتألُّفَ به قومه.

* فقامَ رسولُ اللهِ عَلَيْقُ، فانطلقَ به إلى بيتِهِ ، قال عديُّ: فلقَيْتهُ امرأةٌ كبيرةٌ ضعيفةٌ فاستوقَفتهُ ، فوقفَ لها طويلاً تُكلّمُه في حَاجَتِها. قلتُ في نفسي: ما هذا بمَلكِ! ثمَّ مضى حتى إذا دخلَ بيته تناولَ وسادةً من أدمٍ محشوّةٍ ليفاً ، فقدَّمَها إليَّ ، فقالَ: «اجلسْ على هذه» قلتُ: بل أنتَ فاجْلِس.

قال: «بل أنتَ فاجلسْ عليها».

فجلستُ عليها ، وجلسَ رسولُ الأرضَ ﷺ بالأرضِ ، قلتُ في نفسي : ما هذا بأمْرِ مَلِك!! فدخلَ الإسلامُ في قلبي ، وأحببْتُ رسولَ الله ﷺ حبّاً لم أحببْهُ شيئاً قطّ .

* ثمَّ أقبلَ عليَّ رسولُ الله ﷺ فقال: «هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ تكبّر توحّد الله؟ وهل من أحدٍ غير الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ تعظّم الله؟! ومَنْ أكبرُ مِنَ الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم! أفررتَ أنْ تعظّم الله؟! ومَنْ أعظمُ منَ الله؟! هيه يا عديّ بن حاتم ، أفررتَ أنْ تشهدَ أنْ لا إله إلا الله؟ وهل منْ إله غير الله؟ هيه يا عديّ بن حاتم ، أفررتَ أنْ تشهدَ أنَّ محمّداً رسولُ الله ؟ قال عديّ: فجعلَ رسولُ الله ﷺ يقولُ نحو هذا ، وأنا أبكى ثمّ أسلمتُ »(١) .

* ويروي ابنُ عسَاكر عن عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قصّة

⁽۱) مختصر تاریخ مدینة دمشق (۱۰/ ۲۰۵_۲۰۲) بتصرف یسیر.

إسلام سفّانة وخلاصَها منَ الأسر، فيذكر أنَّ سفّانة قالَتُ للنّبي ﷺ: يا محمّد، إنْ رأيتَ أنْ تخلّي عنّي فلا تشمّتْ بي أحياء العرب! فإنّي ابنةُ سيّد قومي، وإنَّ أبي كان يفكُّ العاني، ويحمي الذّمار، ويُقْري الضَّيف، ويشبعُ الجائع، ويفرّجُ عنِ المكروبِ، ويفشي السَّلام، ويطعمُ الطَّعام، ولم يردَّ طالبَ حاجةٍ قطّ، أنا ابنةُ حاتم الطَّائي.

قال النّبيّ ﷺ: «يا جاريةُ ، هذه صفةُ المؤمنِ حقّاً ، لو كانَ أبوكِ إسلاميّاً لترحمْنَا عليه ، خلُّوا عنها ، فإنَّ أباها كان يحبُّ مكارمَ الأخلاقِ ، والله يحبُّ مكارمَ الأخلاق»(١).

* وبهذا التصرّفِ الحكيمِ غدت سفَّانةُ واحدةً من كواكبِ نساءِ الإسلام، فأسلمتْ وآمنتُ وصدَّقت وبايعَتْ ، وهكذا غدتْ سفّانة بفضلِ الله منْ عداد الصَّحابيات الميمونات. قال ابنُ الأثير: «وكانتْ أسلمتْ فحسُنَ إسلامُها»(٢).

* وكانت سفّانة كذلك سبَباً لنجاة قومها من الأسرِ من أيدي المسلمين أمام رسولِ الله ﷺ ، حيث كانت فصيحة جزلة ، وقد وصفَها أخوها عديّ بقوله: «كانت امرأة حازمة»(٣).

* كما جاء في وصفِ بلاغتها وعقلها قولهم: «وكانت امرأةً جزلةً ،
 ذاتَ وقارِ وعَقْل»(١٤).

سَفَّانَةُ وَابن حَاسمُ:

* أصحابُ النَّبِيِّ ﷺ نجومٌ زَوَاهِرُ ، وسيرهم بركةُ المجالِسِ ، ونورُ

⁽۱) مختصر تاریخ مدینة دمشق (۱۰/ ۲۵۷).

⁽۲) أسد الغابة (٦/٦٤) ترجمة رقم (٦٩٨٨).

⁽٣) السيرة النبوية (٢/ ٥٨٠).

⁽٤) الرسالة المحمدية (ص ٥٣٨).

- القلوبِ، وجلاءُ النُّفوس، ومَنْ منّا لا يحبُّ الحديثَ عنهم وقراءة سِيَرهم؟!
- لذلك أحببتُ أنْ نستظلَّ بأفياءِ سيرةِ سفَّانة وعدي بن حاتم ـ رضي الله
 عنهما _شِعراً ونثراً ، ليكتملَ أُنْسُنَا ، ويحلوَ سَمُرنا ، ويحسُنَ كتابُنَا .
- * فقد كانَ عدي زعيماً في قومهِ ، سيّداً مُطاعاً ، وكان يدينُ بالمسيحيّةِ؛ وعندما جاءَ الإسلامُ كان له موقفٌ مثيرٌ ، ترى ما هذا الموقف؟!
- * عديٌّ نفسه يروي لنا ذلك فيقول: «ما منْ رجلٍ منَ العربِ كان أشدّ كراهيةً لرسولِ الله ﷺ حين سمع به مني؛ أمّا أنا فكنتُ امرأً شريفاً ، وكنتُ نصرانياً ، وكنتُ أسيرُ في قومي بالمِرْبَاعِ ، وكنتُ في نفسي على دِيْنٍ ، وكنتُ ملكاً في قومي لما كان يُصنعُ بي.
- * فلما سمعتُ برسولِ الله ﷺ كرهْتُهُ ، فقلتُ لغلام كان لي عربيّ؛ وكان راعياً لإبلي: لا أبا لكَ ، اعددُ لي من إبلي أجْمالاً ذُللاً سِماناً ، فاحبسُها قريباً منّي ، فإذا سمعَت بجيشٍ لمحمدٍ قد وطيءَ هذه البلاد ، فأذنّي ، ففعل.
- * ثم إنّه أتاني ذات غداةٍ فقال: ياعديّ ، ماكنتَ صانعاً إذا غشيتْكَ خيلُ محمّد الآن ، فإنّي قد رأيتُ راياتٍ ، فسألتُ عنها فقالوا: هذه جيوشُ محمّد. فقلت: فقرّب إلى أجْمَالي ، فقرّبَها.
- * لقد هيّأت نفسي لمغادرة بلادي وموطني، فِراراً من مواجهة المسلمين الذين هم جيشُ محمّد. فلمّا جاءني الخبرُ بأنَّ خيلَ محمّد وطئتْ أرضَنَا ، وأعلامَهُ تلوحُ في مقدمةِ الغزاةِ ، حملتُ أهلي وولدي ثم قلتُ: أَلْحَقُ بأهلِ دِيني من النَّصارى بالشَّام ، فسلكتُ طريقاً مجهولاً

لا يعرفُه إلا القليلُ منَ النَّاس ، يوصلُ بين نَجْدٍ والشَّام ، وخلَّفْتُ بنتاً لحاتم في الحاضرِ هي أختي سفَّانة ، فلما قدمت الشَّام ، أقمتُ بها.

* وتخالِفُني خيلُ رسولِ الله ﷺ ، فتصيبُ ابنة حاتم أختي فيمَنْ أصابَتْ ، وقُدِمَ بها على رسولِ الله ﷺ في سبايا طتىء... وقد بلغ رسولَ الله ﷺ خَبرُ هَربي إلىٰ الشَّام (١٠).

الله عدي بن حاتم ، ثم والآن سنسمع هذه التّغريدة الجميلة عمّا قاله عدي بن حاتم ، ثم نستكمل معه بقيّة القصّة:

كَانَ ابنُ حَاتِم سَيّداً في طَيّي، للسّائلين يسروي يَقُسُولُ فَإِنَّسَا كُنِّسًا بِعَيْسُ رَاغِسَدِيسَ قَدْ كُنْتُ في قَوْمي شَريفاً صاحبَ القَوْلِ المبين ديْن المسيح بهِ أدينُ ولستُ أرضىٰ عنه دِيْن قد كُنْتُ ذا مالِ وَصِيْتِ بينَ قُومي أُجْمَعين ومُحمّدٌ وصَلَتْ لنَا أخبارُهُ في الوافِدين مذْ أَنْ سمعْتُ بِه كَسرهْتُ لِقَاءَهَ هذا يَقين لمّا عَلمْتُ بِأَنَّه يغْزُو جَميعَ المُعرِضين هيَّ أَتُ نَفْسى للفرار فلا أُلاقى المُسلمين لمّا سمعت بخَيْك جاؤوا إلينا قادمين فَأَخَذْتُ أَهْلَى ثُمَّ إِبْلَى وَانْطَلَقْنَا هَارِبِينَ وتركْتُ خَلْفِي بنتَ حَاتم منْ نسائي الأَقْربين فَفَرِرْتُ نحوَ الشَّام موطِن للنَّصَارى الأكْثَرين الخيلُ جَاسُوا في مَحلَّتِنا رِجَالًا حازمين

⁽١) انظر: تغريدة السيرة النبوية (٤/ ٢١٥) بتصرف يسير.

أَخذُوا لأُختي مَعْ نساء أُخْرياتٍ آسِرين عادُوا إلى خَيْرِ البريّةِ بالسّبايا غانِمين

* وما زالَ الحديثُ موصولاً مع عديّ الذي يحدّثنا عن إسلامه ، وعن قصّةِ أختهِ سفّانة التي غادَرها في أرضهِ فجاءت خيلُ المسلمين بقيادةِ البطلِ الفارسِ العالِم العَيْلَم عليّ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ثم سِيْقَتْ أسيرة وحُبِسَتْ بالمدينةِ ، وكانت عاقلة ذكية فصيحة ذات رأي صائب ، فخاطبتِ النّبيّ علام بليغ ، فأكرمَها وكساها وحملَها على دابّةٍ ، وأعْطَاها نفقة ، فقدمت الشّام وعاتبَتْ عديّاً على تركهِ إيّاها ، فاعتذرَ بكلام لطيفٍ ، ثم أشارت عليه أنْ يسارعُ إلى الإيمانِ باللهِ ورسوله ، وأن يلحق المدينة ليظفرَ بالخيرِ ، ولا يكونَن من الجاهلين ، والآن ما رأيك عزيزي القارىء نتابعُ القصّة شِعراً؟ حَسَناً ، فهذه الأبياتُ الجميلةُ تصوّر وقائع أسْرِ سفّانة وحوارها مع النّبي ﷺ ، ثم ذهابها إلى الشّام:

وضَعُوا السَّبايا عند مَسْجدِ خيرِ كُلِّ المُرسَلين فيهِ لَّ ابْنَةُ حَاتمٍ تَتَرقَّبُ الهَادي الأَمين لمّا رأتْ تَعدد تَّفَ معه حديث الآملين ورَجَتْهُ أَنْ يَمْنُنْ عَلَيْها مِشْلَ مَنِّ القَادِرين قالتُ أَبُونا ماتَ كَانَ من الرِّجالِ المُحسنين قدْ فرَّ وَافِدُنا وكانَ يَخَافُ بطش المُسلمين قال النَّبيُّ فَمَنْ يكُونُ وعنه قد تتحدَّثَيْن قالتُ له ذاكَ ابنُ حاتم قالَ رأسُ الهَاربين فازَتْ بعفو المصطفى وعطائِه كالوافديْن فذرَ أُرسِلَتْ للشَّام مع وفيد غدوا كمرافقيْن قد زَال رَاوِيْنا عَديُّ رَاويا للسَّامِعين للرَّال رَاوِيْنا عَديُّ رَاويا للسَّامِعين

من قوله إنّي لَقَاعِدُ بينَ أَهْلَي أَجْمَعِين وَإِذَا الظَّعَيْنَةُ أَقْبَلَت كَانُوا لِبَيْتي عَامِدين وإذا بِهَا أُختي أَتَتْ بالعَفو فازَتْ عن يَقيْن وإذا بِهَا أُختي أَتَتْ بالعَفو فازَتْ عن يَقيْن فسألتُها ماذا يكونُ محمّد كي أَسْتَبين فسألتُها ماذا يكونُ محمّد كي أَسْتَبين قالتْ بهِ فَالْحَقْ تكن بينَ الرِّجالِ المُكْرمين هو خيرُ خَلْق الله طرّاً لا تكن في الجَاهِلين هو خيرُ خَلْق الله طرّاً لا تكن في الجَاهِلين

* واستجابَ عديٌ للنّصيحةِ ، وغادرَ أرضَ الشّام ، وتوجّه تلقاء المدينةِ ، ودخلَ علىٰ النّبيِ ﷺ في مسجدِه ، وعرّفَه بنفسِهِ ، فانطلقَ به إلىٰ بيتهِ وأكرمَه ، وجرّتْ بعضُ الأحداثِ وعرضَ عليه الإسلام ، وأبانَ له أنَّ دينَه باطلٌ قائِلاً «أَلَمْ تَكُ ركوسيّاً ؟» أو: «أنا أعلمُ بدينكَ منْكَ! ألستَ ركوسيّاً ، وأنتَ تأكلُ مرباعَ قومك (() ثم أخبرهُ ﷺ بأنَّ الإسلام هو دينُ الحقّ والرّشَادِ ، فاستجابَ عديٌّ للإسلام ، وفازَ مع الفائزين ، وأضحىٰ من سِلْكِ دُررِ الصَّحابة الكرامِ رضي الله عنهم أجمعين ، والآن لِنَقْرأ هذه التّغريدة الجميلة التي تفصحُ عمّا أوردْنَاه:

أمَّا ابنُ حَاتم فاسْتَجابَ إلىٰ النّصيحةِ في رِضَاء في رِضَاء في رَا تسوجَه للمدينةِ أرضِ خيرِ الأنبياء يروي عديٌ قالَ جنتُ إلىٰ المدينةِ للقاء فلاحلْتُ مَسْجِدَ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ طُراً في حَياء فلاحلْتُ مَسْجِدَ خَيْرِ خَلْقِ اللهِ طُراً في حَياء قالَ النّبيُ فَمنْ تكونُ ففيكَ سِيْمَا الغُرباء فأجبتُه أنا ابن حَاتم جنتُ منْ أجلِ الوَلاء قال النّبيُ فمرحَباً بكَ جنتَ أهلاً لا مِراء قال النّبيُ فمرحَباً بكَ جنتَ أهلاً لا مِراء

⁽١) «ركوسياً»: الركوسية: دين بين النصارى والصابئة. و «المرباع»: ربع الغنيمة.

من بَعْدِ ذلك قادني للبيتِ دُونَ الجُلَسَاء في الدَّربِ لاقَتْه عجوزٌ أوقفَتْه على انتحاء أَيْقَنتُ ليسَ محمدٌ مَلكا وليسَ له هَوَاء ليقَنتُ ليسَ محمدٌ مَلكا وليسَ له هَواء لو كَانَ مَلكا ما أجابَ إلى نداءِ الضَّعفاء في البيتِ حدَّثني بكلِّ حقيقتي دونَ التِواء في البيتِ محدَّثني بكلِّ حقيقتي دونَ التِواء فعرفتُ أنَّ محمّداً فيه النبوةُ والصَّفَاء قد قال أَسْلِمْ يا عديُ فإنَّه دينُ الوَفَاء قد قال أَسْلِمْ يا عديُ فإنَّه دينُ الوَفَاء تاللهِ سوفَ تراهُ يعلو كلَّ أديان السَّماء أَسْلَمتُ للمولى وصِرْتُ إلىٰ الرَّسُولِ كَأَصْدقاء (١) أَسْلَمتُ للمولى وصِرْتُ إلىٰ الرَّسُولِ كَأَصْدقاء (١)

* وأمّا أحمدُ محرّم ـ رحمه الله ـ فقد سجَّلَ في «ديوانِ مَجْدِ الإسلام» خواطِرَهُ وهمساتِهِ عن عديٌ وسفَّانَة بقصيدةٍ ميميةٍ جميلةٍ ، تحدَّثَ من خلالِها عن قصّة سفَّانَة بنتِ حاتم وأخيها عدي ، وكيفَ هداهُما اللهُ إلىٰ الإيمان ، فقال:

إلى اللهِ فارغبْ يا عديُّ بنُ حاتمِ اللهِ فارغبْ واتَّبعْ دينه الذي خرجتَ حَذَارَ القَتْلِ من آل طيّىء كَفَى النَّفسَ قَتْلاً أَنْ تضلَّ حياتُها أما ضقْتَ ذرعاً إذْ علمتَ من العمل عَديُّ استمعْ أنباءَ أختِكَ واستَعِنْ صَفَا قلبُه فاختارَها خطّة هدى وسارتْ مطاياهُ تـؤُمُّ محمّداً

وَدَعْ دَيْنَ مَنْ يبغي العمى غيرَ نَادمِ يدينُ به المبعوثُ مِنْ آلِ هاشم وما أنت من بلوى القتيلِ بسالم وتذهب حيرى في مدبِّ الأراقم مكانك أمْ أنت امرؤٌ غيرُ عالم برأي يُجلِّي ظلمة الشَّك حازمِ بجنِّبُ مَنْ يختارُها كل لائِم وضاءَ الحوايا والخُطَى والمناسم

⁽١) تغريدة السيرة النبوية (٤/ ٢١٨).

محلاً تمنّى مثلّه كل قادم تدين به فاشهد تكن غير آشم كدأب الألى سنّوه من كُل ظالم وإنّي رأيت الحق ضربة لازم لمن يمتري والحق بادي المعالم بعافية من دائها المُتفاقِم نفوسُ البرايا خانها كلُ عاصم ونبّه من القوم العِدَا كلُ عاصم ويحكم من سادتِها كُل حاكم وأرض فما من آخذ أو مُزاحم وأرض فما من آخذ أو مُزاحم إساءة جانٍ أو مضرة جارم على الضّعف والي من حُماة المحارم ودَعْ خَطَراتِ الوهم من كلً واهم (١)

فأنزلَه في دارِه وأحلّه وقال له إنّي لأعْلَم بالذي المرباع وهو محرّم ألم تأخذ المرباع وهو محرّم فقال بلئ إنّي إلى الله تائب لأنت رسول الله ما فيك مردية تداركت بالإسلام نفسي فأصبَحت هو العِصْمة الكبرى إذا لم تَفُرُ بها تأمّل عدي ما يقول محمد تأمّل عدي ما يقول محمد تأمّل عدي الله في الأرض ظلّه وسوف يفيض المال في كل موطن وتخرج ذات الخدر ما إنْ تروعها وتخرج ذات الخدر ما إنْ تروعها هو الله فاعرف يا عدي سبيله

* وبهذا ظهرتْ فضيلةُ سفَّانة ، وعزَّتْ بالإسلامِ بلُ صارتِ «النَّسَاء شقائق الرّجال» كما قالَ النّبي الكريم ﷺ؛ وأصبحتْ نساءُ الصَّحابة نُجوماً زواهِرَ في سماءِ الإسلام ، وكانت سفَّانَةُ من هؤلاءِ الكريماتِ الطَّاهرات ، رضي الله عنها وعنهن جميعاً.

* * *

⁽١) ديوان مجد الإسلام (ص ٤٥١ ـ ٤٥٣).





الفارغة بنت أبيالصلت

- * أخت الشاعر أمية بن أبي الصلت ، كانت ذات لُبُّ ، وعقل ، وعَفاف ، وجَمال.
- * صحابية مُحدِّثة ، صادقة في الرواية ، أَخَذَ عنها كثير من التابعين.





المَرْأَةُ العَاقِلَـةُ:

* الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثَّقفيّة (١) ، أختُ أميَّة بنِ أبي الصَّلْت الشَّاعر المشْهُور، هي التي نحفَلُ بسيرتها بينَ نساءِ المشرقِ العربيّ من عَصْر المُخضرمين ، ذلك العصرُ الذي سطع فيه نجمُ كثيراتٍ ، وتألَّقتُ كواكبُ منهنَّ في ذلك العصرِ الجميلِ المشرقِ بأنوارِ الإسلام على الدُّنيا جميعها.

* كانت ضيفتُنا الفارعةُ منَ النِّساء اللواتي اشتهِرْن بالجمالِ والعقلِ ،
 قال ابنُ عبد البرّ عنها: «وكانت ذاتَ لُبِّ وعفَافٍ وجَمال» (٢٠) ، بينما قال ابنُ الأثير عنها: «وكانت ذاتَ لُبِّ وعقْلِ وجَمال» (٣٠).

* ومن الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عن الفارعةِ أنّها نشأَتْ في بيتٍ من سَراةِ البيوتِ الثّقفيّة ، وكان بيتُها بيتاً يجمعُ العزّ والشَّرفَ والسِّيادة ، ويرفدُ هذه الخصائلِ أنَّه بيتٌ يمتازُ بالأدبِ والشَّاعرية ، فقد كان أبوها «أبو الصَّلت» _ واسمُه عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف الثّقفي _ سيّداً في قومه ، وأمّا والدتُها ووالدةُ أخيها أميّة فهي رقيّةُ بنتُ عبد شمس بن مناف ، وهي سيّدةٌ من شريفاتِ قريش ، وبهذا جمعتِ الفارعةُ الكرمَ من طرفيه ، إذ جمعتِ الشَّرفَ الثَّقفيّ إلى المجدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ إذ جمعتِ الشَّرفَ الثَّقفيَّ إلى المجدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ إلى المجدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ الفرعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان للفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المعرفية أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشي ؛ وكان الفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ تدعىٰ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ المحدِ القرشيّ ؛ وكان المفارعةِ أختُ العربُ المحدِ القرشي ؛ وكان المورة أختُ المحدِ القرشي المحدِ القرشية في المحدِ القرش المحدِ المحد

⁽۱) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥ ـ ٣٧٧)، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥ و٢١٦) ترجمة رقم (٣١٦٧)، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٥٧ و٣٥٨)، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٥٧ و ٣٥٨)، وأعلام (٣٥٨ ـ ٤٩٩)، وأعلام النساء (٤/ ١٩ و ٢٠)، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤)، وديوان أمية ابن أبي الصلت (ص ٣٧ و ٣٨ و ٣٨٥ و ٨٥ و ٥٥ و ١١٥ و ٣٧٩) وغيرها.

⁽٢) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥).

⁽٣) أسد الغابة (٦/ ٢١٥).

عاتكة، ذكرها ابنُ حَجَر في «الإصابة» فقال ما نصُّه: «عاتكةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثَّقفيّة أخت أميّة ، ذكرها السُّهيليّ في مبهماتِ القرآن في أواخر تفسير سورة الأعراف»(١). ولم يُشِر ابنُ حجر إلى أنَّها صحابيّة أو أنَّها أسلَمتْ مع مَنْ أسلمَ منَ النّساء اللواتي نُظِمنَ في سِلْكِ دُرر الصَّحابيات.

* وهكذا كانتْ نشأةُ هذه المرأةِ العاقلةِ ، حيث عاشتْ في أسرةٍ تجمعُ بين الفَضْلِ والحسَبِ والأدبِ والشّعر ، وقد نبّه ونبغ منها أخوها أميّةُ الذي قال عنه الأصفهاني في «الأغاني»: «كان قد نظرَ في الكتُب وقرأها ، ولبسَ المسوحَ تعبّداً ، وكان ممن ذكرَ في شِعرِه إبراهيمَ وإسماعيلَ والحنيفيّة ، وحرَّم الخمرَ ، وشكَّ في الأوثانِ ، وكان محققاً ، والتمسَ الدِّين وطمعَ في النُبوّة ، لأنّه قرأ في الكتُبِ أنَّ نبيّاً يُبْعَثُ منَ العربِ ، فكان يرجو أنْ يكونَ هو ، فلمّا بُعِثَ النّبيُ ﷺ ، قيل له : هذا الذي كنْتَ تسْتَريثُ وتقولُ فيه ، فحسدَهُ عدوّ اللهِ ، وقال إنّما كنتُ أرجو أنْ أكونَه»(٢).

* وذكر ابنُ قُتيبة خَبراً لا يكادُ يختلفُ عمّا وردَ عند الأصفهاني ، وزادَ على الأصفهاني بقوله: «وكان يخبرُ بأنَّ نبياً يُبعثُ قد أظلّ زمانه ، ويُؤَمِّلُ أَنْ يكونَ ذلك النَّبيّ ، فلمّا بلغَهُ خروجُ رسولِ الله ﷺ وقصَّتُه كفَرَ به حَسَداً (٣).

* ولا شكّ في أنَّ الفارعةَ أخته كانَتْ تعرفُ كثيراً عن حياةِ أخبها وأحوالِهِ ، بل كانت ترى أنّ كثيراً من الجماعاتِ قد عزفَتْ قبيل الإسلامِ عن مفاسدِ الجاهليّة ، ونبذَتْ عبادةَ الأصنامِ ، وجعلَتْ تبحثُ عن ديْنِ إبراهيم ، وهؤلاء هم مَنْ أُطْلِقَ عليهم اسم «الحنفاء».

⁽١) الإصابة (٢٤٦/٤).

⁽٢) الأغاني (٣/ ١٨٠) طبعة دار الكتب المصرية.

⁽٣) الشعر والشعراء (١/ ٩٥٤).

* ولما أشرقت أرضُ مكّة بنورِ الإسلام لم يعلنْ أميّةُ إسلامه ، بل إنّ الرّوايات جميعها أجمعَتْ على عدم إسلامه ، لأنّه كان يسعىٰ وراءَ النّبوة ، بيد أنّه لم يدّع ذلك أبداً ، ولذلك قال ابنُ دُريد: "وكان بعضُ العُلماء يقولُ: لولا النّبيُ عَلَيْ لادّعَتْ ثقيفٌ أنّ أميّة نبيٌ "(۱).

* ويبدو أنَّ الفارعة قد أحاطَتْ عِلماً بكلّ هذهِ الأشياء ، ورأتْ أنَّ أخاها على باطلٍ ، وأنَّ النَّبيَّ محمّداً على باطلٍ ، وأنَّ النَّبيَّ محمّداً على باطلٍ ، وأنَّ النَّبيَّ محمّداً على فالفارعةُ قد نشأَتْ وعاشَتْ في الطَّائفِ ، وكانتِ الطَّائفُ يومذاك مدينة السِّخر والجَمال ، ودوحة الخصبِ والظّلال ، وفيها متنزّهاتُ لأعيانِ مكّة ، وهي مصيفُهم الذي يركنون إليه عند اشتدادِ الحرّ في مكّة ، ومن الجميلِ في أخبارِ البُلدان أنّ كثيراً من المصنّفين يصفُ الطَّائف بأنّها قطعةٌ من الشَّام ، إذ كانت تحتضنُها الأشجارُ ، وكانت ذاتُ مزارعَ ونخيلِ وأعنابِ وسائرِ الفواكه ، وكانت معتدلة المناخِ جميلة الطَّبيعة ، ممّا جعل المكّيّين عصر ذاك يرتادونها ويمكثون فيها ويحمِلونَ الأَنباءَ المكيّة ، وأخبارَ الرِّسالةِ المحمديّة ، فوقر الإيمانُ في نَفْسِ الفارعة ، واستجابتُ وأخبارَ الرِّسالةِ المحمديّة ، فوقر الإيمانُ في نَفْسِ الفارعة ، واستجابتُ الأنذاءِ الإسلامِ ، وهمساتِ المؤمنين الذين عطروا الدنيا برحيقِ الإسلام.

الفَارِعَةُ والصُّحْبَةُ النَّبويَّةُ:

* تعدُّ الفارعةُ بنتُ أبي الصَّلْت الثَّقفيّة إحدىٰ نساءِ عصرِ المُخَضْرمين ممّن نعمْنَ بالإسلامِ ، وكُنِّ من رعيل الصَّحابيّات اللواتي كتَبَ اللهُ لهنَّ الخير ، فكُنّ في خيرِ أُمّةٍ أُخرجَتْ للنَّاس.

* ولا نعرفُ متى كان إسلامُ الفارعة ، إلاّ أنَّ ابنَ عبد البرّ وغيرَهُ يُشيرون بقولهم: «قدمتِ الفارعةُ على رسولِ الله ﷺ ، وكانت ذات لُبّ

⁽١) الاشتقاق (ص ٣٠٣).

وعفافٍ وعَقْل وجمالٍ ، وكان رسولُ الله ﷺ يعجبُ بها الله عَلَيْ يعجبُ بها الله عَلَيْ يعجبُ بها الله

* وتقولُ زينبُ فوّاز عنها: «كانت منْ أديباتِ العربِ الشَّاعراتِ العاقلاتِ الجميلاتِ الهيئةِ والمنظرِ ، وكانت من الصَّحابياتِ المحدّثاتِ الصَّدقات في الرِّواية ، أخذَ عنها كثير من التَّابعين»(٢).

* وكذلك نقلَ عنها جمال الدِّين السَّمان الحمويّ صاحب كتاب «معجم الأديبات الشَّواعر» فقال: «كانت من أديبات العربِ وشواعرهنَّ ، وكانت منَ الصَّحابيّات المحدِّثات ، أخذ عنها كثيرٌ من التَّابعين ، فلمّا مات أميّةُ قدمتْ على رسولِ الله ﷺ (٣)».

* ومن الجدير بالذّكر أنْ نُشيرَ إلى أنَّ الفارعة قد اشتُهِرَ أمرُها ، وطار صيتُها في قصّة وفاة أخيها أميّة الشَّاعرُ الكافرُ الذي قال عنه النَّوويُ ـ رحمه الله ـ: أميّةُ بنُ أبي الصَّلت الكافر . . سمع النَّبيُ عَلَيْة شِعْرَهُ الذي فيه حكمة . . . كان أميّةُ يتعبّد في الجاهليّة ، ويؤمنُ بالبعثِ ، وينشدُ في أبياته الشَّعرَ المليحَ ، وأدركَ الإسلامَ ولم يُسْلِمْ ، ثبتَ في صحيحِ مُسلم عن الشَّريدِ بنِ سُويد (١٤) ـ رضي الله عنه ـ قال: ردفتُ رسولَ الله عَلَيْ يوماً فقال: «هل معكَ من شعرِ أميَّة بنِ أبي الصَّلْت شيءً ؟ قلتُ: نعم. قال:

 ⁽۱) الاستيعاب (٤/ ٣٧٥) ، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥) ، والإصابة (٤/ ٣٦٣) ، والبداية والنهاية (٢/ ٢٢٤) ، وتهذيب ابن عساكر (٣/ ١٢٧) ، ومروج الذهب (١/ ٥٧/) ، وتفسير ابن كثير (٢/ ٢٦٤) ، ولسان العرب (١/ ٢٩٢) ، وغيرها.

⁽٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص٣٥٧).

⁽٣) معجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٢).

⁽٤) الشَّريدُ أبو عمرو الصَّحابي رضي الله عنه مذكورٌ في المختصر والمهذَّب في الشَّهادات في سماع الشَّعر وهو أبو عمرو الشّريد بن سويد الثّقفيّ الحجازيّ. روى عنه ابنه عمرو ويعقوب بن عاصم ، وحديثُه المذكورُ في المختصر والمهذب ، رواه مسلم في صحيحه . (تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٤٤).

«هيه» ، فأنشدتُه بيتاً فقال: «هيه» ، ثمّ أنشدتُه بيتاً فقال: «هيه» ، حتى أنشدتُه مئة بيتٍ فقال: «إن كادَ ليُسْلِم» ، وفي روايةٍ: «فلقد كادَ يسلمُ في شِعْرِه» (١٠).

* وتدلُّ الأخبارُ والرِّواياتُ التي تحدَّثت عن الفارعةِ بأنَّها تحفظُ أشعاراً كثيرةً لأخيها ، وخُصوصاً الأشعارَ التي قالَها عند وفاتِهِ وقُبيل موتِهِ حوالي السَّنة الخامسة من الهجرةِ. على أنَّ كثيراً من أخبارِ وفاةِ أميّة التي علَّقُها الرُّواةُ على ذِمّةِ الفارعةِ لا يعوّلُ عليها ، ولا يمكنُ للباحثِ أنْ يطمئنَّ إليها ، أو يركنَ إليها ويسْكُنَ إلى صحّتها؛ إذْ إنّ هذه الأخبارَ قد عبثَتْ فيها الأسطورةُ ، ولعبَتْ في بعضِها الأهواء ، ولعب في بعضِها القصّاص ، وقصّوه على أصحابِ القلوبِ السَّليمة فظنّوه من الحقائقِ ومن المُسَلّمات.

* يقولُ الدّكتور جواد على: "وهذا القصصُ الواردُ عن أميّة هو بالطّبع من القصصِ المصنوع الموضوع ، مثلُ كثيرٍ منْ أخبارٍ وأخبارٍ غيره ، قُصَّ علىٰ ذوي القُلوب الطّيّبة منَ الرُّواة والأخباريين ، فأخذُوه ونقلُوه كما نقلُوا ما شاءَ اللهُ من الإسرائيليّات والأساطير ، وروي على أنَّه ممّا كان يعلمه الأحبار والرّهبان والخاصّة من أهلِ الكتاب. ولا أستبعدُ أنْ يكون هذا القصصُ قد ظهرَ في أيّام الحجّاج عصبيّة وتقرّباً إليه ، فقد كان الحجّاجُ من القصصُ قد ظهرَ في أيّام الحجّاج عصبيّة وتقرّباً إليه ، فقد كان الحجّاجُ من ثقيف كذلك ، وقد أنتج الوضّاعُون في أيّامهِ شيئاً ثيراً مِنَ الأخبارِ في قبيلةِ ثقيف ، كما أنتجُوا شيئاً في ذمّها وفي ذمّ رجالِها نكايةً به "(۲).

* إذاً فمعظمُ ما يُنْسَبُ إلى الفارعةِ من أخبارٍ أقرب إلى الأسطورةِ منها

⁽١) تهذيب الأسماء واللغات (١/ ١٢٦) باختصار يسير جداً.

⁽٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٤٨٧).

إلى الحقيقة ، ومنها ما أوردَهُ ابن سلام في «طبقاتِهِ» حيثُ روى بسندهِ عن أختِ أميّة أنَّها قالَتْ: «إنِّي لفي بيتٍ فيه أميّةُ نائمٌ ، إذ أقبلَ طائِران أبيضان ، فسَقَطا على السَّقْفِ ، فسقَطَ أحدهما عليه ، فَشَقَّ بطْنَه ، وثبتَ الآخرُ مكانَه ، فقال الأعلىٰ: أَوَعَىٰ؟

قال: وعيٰ!

قال: أأقْبَلَ _ ويُقال: أَزَكَا _؟!

قال: أبيٰ!

قال: خَسَأً! فَرَدَّ قَلْبَه وطار ، والتأم السَّقْفُ.

قالت: فلمّا استيقظ قلتُ له: يا أخى ، أحسَسْتَ شيئاً؟

فقال: لا ، وإنِّي لأجدُ تَوصيْبًا ١١ ، فَما ذاك؟

فأخبرتُه. فقالَ: يا أُخيّة! أنا رجلٌ أرادَ الله بي خَيْراً فلم أقبله.

قالت: فلمّا مرض مرضته التي ماتَ فيها؛ فإنّي عنده ، إذ نظرَ إلى السَّماء ، وشقَّ بصرُه ، ثمَّ قال:

لَبِيكُم اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اللهِ المِلْمُلِي المُلْمُلْمُلْمُ اللهِ اللهِ اللهِ المُلْمُلْمُلِلْمُلْمُلْمُلْمُلِلْمُلْم

* ثمَّ أُغميَ عليه ، ثمَّ شقّ بصره ، ثمَّ نَظَر وقال:

لَتِيكُمُ فَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ فَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمُ فَ اللَّهُ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّهُ عَ بالنّعم محفود ، ومنَ الذَّنب مخضود.

* ثمّ أُغمى عليه ، ثمَّ شقّ بصره ، وقال:

إِنْ تَغْفِر اللَّهِمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدِ لَكَ لا أَلَمَّا

⁽١) «توصيباً): التوصيب: الفتور الشديد في البدن ، من الوصب وهو الوجع والمرض.

* ثمّ أغمي عليه ، ثمّ أفاق فقال:

لَيَتَني كَنْتُ قَبْلَ مَا قَدْ بَدَا لي في قلالِ الجَبَالِ أرعىٰ الوعُولا كُـلُّ عَيْـشٍ وَإِنْ تَطَـاول دهْـراً قصْــرُه مــرّةً إلـــىٰ أَنْ يــزُولا ثُمَّ خَفَت وماتَ»(١).

* ويروي ابنُ كثير _ رحمه الله _ قصّةً لا تختلفُ كثيراً عمّا ذكره ابنُ سلام ، بل فيها شيءٌ ممّا ذكرهُ ابنُ سلام ، ويذكرُ سنداً من الرّجال آخرهم الزُّهري عن سعيد بن المسيّب قالَ:

«قدمتِ الفارعةُ أَختُ أَميّةَ بن أبي الصَّلْت على رسولِ الله ﷺ بعد فَتْح مكّة (٢) ، وكانت ذات لبّ وعقْلِ وجمالٍ ، وكان رسولُ الله ﷺ بها مُعْجَباً ، فقال لها ذات يومٍ: «يا فارعةُ ، هل تحفظينَ من شِعْرِ أَحيْكِ شيئاً»؟ فقالت: نعم ، وأعجبُ من ذلك ما قَدْ رأيتُ. كان أخي في سَفَر ، فلمّا انصرفَ ، بدأني فدخَلَ عليّ ، فرقدَ علىٰ سريري ، وأنا أَحْلِقُ أديماً في يدي ، إذْ أقبلَ طائِران أبيضَان ، أو كالطَّيريْن أبيضَيْن فوقعَ على الكوة يدي ، إذْ أقبلَ طائِران أبيضَان ، أو كالطَّيريْن أبيضَيْن فوقعَ على الكوة

⁽۱) انظر: طبقات الشعراء لابن سلام (ص ۲۲۳_۲۲۴) طبعة دار المعارف (۱۹۵۲ م) وانظر: ألف باء للبلوي (۱/۵۰۸-۵۰۹)، والإصابة (۱/۱۳۲)، ومحاضرات الأدباء (۲/۲۲۱).

وهذا الخبرُ الذي أسندَهُ ابنُ سلام إلى الفارعةِ بنتِ أبي الصَّلت خبرٌ يعتريه الضَّعْفُ، ويجعلنا نشكُ فيه ، إذ لا يُعقل أنْ يأتيَ طائران ويتحدّثان بلسانٍ عربيّ فصيح ، ويتحاوران فوقَ رأس أميّة ، بعد أنْ يشقّا بطنه ، ولعلَّ هذه القصّة قد حاكَها وخاطَها أحدُ الوضّاعين الذين تخصّصوا في نشج الأخبار الشّائقة والمثيرة ، فكانت له مهارةٌ في إثارةِ العواطف لحسْنِ تأليفهِ هذه الأُحبولة المنسوجة من الأوهام.

ولعلَّ بعض ناسجي الأخبار تخيّلَ هذه الحادثة قياساً على ما قرأ في السّيرة النبويّة من شقٌ صدر النبي ﷺ، ومن ثمَّ صنع هذه القصّة وجعلَها تجري في حياة الفارعةِ وأميّةً.

⁽٢) جاء في الاستيعاب ، وأُسد الغابة ، والإصابة ، وحياة الحيوان «بعد فتح الطائف» بدلاً من فتح مكة .

أحدهُما ، ودخلَ الآخر ، فوقعَ عليه ، فشَقَّ الواقعُ عليه ما بين قَصِّهِ إلى عانتِه ، ثمَّ شمَّه ، عانتِه ، ثمَّ شمَّه ، ثمَّ شمَّه ، فقال له الطَّائِرُ الآخر: أوعىٰ؟!!! .

قال: وعَيٰ.

قال: أزكيٰ؟!

قال: أبيٰ.

* ثمَّ ردَّ القلبَ إلى مكانهِ ، فالتأم الجرحُ أسرعَ من طرفةِ عَيْن ، ثمَّ ذهبَا ، فلمّا رأيتُ ذلك ، دنوتُ منه فحركتُه ، فقلتُ: هل تجِدُ شيئاً؟ قال: لا ، إلاّ توهيناً في جَسَدي ـ وقد كنتُ ارتعبتُ ممّا رأيتُ ـ.

فقال: مالى أراكِ مرتاعة؟

قالت: فأخبرتُه الخبرَ.

فقال: أُريْدَ بي ، ثمَّ صُرِفَ عنِّي؛ ثم أنشأَ يقولُ:

بَاتَتْ هُمومي تَسْرِي طَوارِقُها أَكُفُّ عَيْني والدَّمْعُ سابِقُها مَّاتَ هُمومي تَسْرِي وَلَمْ أُوْتَ بَراةً يَقُصُ نَاطِقُها (۱)

* قالت: ثمَّ انصرفَ إلى رحْلهِ ، فلم يلبثْ إلا يسيراً حتى طُعِنَ في جَنازتِهِ ، فأتاني الخبرُ ، فانصرفْتُ إليهِ ، فوجدتُه منعوشاً قد سُجِّي ، فدنوتُ منه ، فشَهَقَ شهقةً ، وشقّ بصره ، ونظرَ نحو السَّقْف ، ورفع صوته وقال: لبيكما لبيكما ها أنا ذا لديكُما ، لا ذو مال فيفْدِيني ، ولا ذو

⁽۱) روتِ الفارعةُ (۱۳ بيتاً) من هذهِ القصيدة ، ومنها في آخرِها قولُه: يُسوشِكُ مَسنْ فسرَّ مسن منيّته يسوماً علسى غسرةٍ يسوافقُها إنْ لسم تمتْ غبطةً تَمْتْ هسرماً للمسوتِ كساسٌ والمسرءُ ذائِقُها (البداية والنهاية ۲/ ۲۲۰).

أهل فَتَحْمِيني. ثم أُغميَ عليهِ إذ شهقَ شهقةً ، فقلتُ: قد هلكَ الرَّجُل...».

* ثم إنَّ ابن كثير يكملُ القصّة على نحو مما ذكرَ ابنُ سلام ، وفي نهايتها أفادتْ بأنَّه مات؛ فقال رسولُ الله ﷺ: «يا فارعةُ إنَّ مثَلَ أَخيْكِ كَمَثْلِ اللهُ ﷺ: «يا فارعةُ إنَّ مثَلَ أَخيْكِ كَمَثْلِ اللهُ آياتِهِ فانْسَلخَ منها فأتبعه الشَّيطانُ فكانَ منَ الغَاوِيْنَ»(١).

* ويروي «النّعلبيُّ قصّة غريبة تشبه إلى حدِّ ما رواية ابن كثير ، وابن سلام ، وكذلك تشبه ما جاء في «الأغانيّ» ، وفي «الإصابةِ» ، و«حياة الحيوان» ، وغيرها ، ومعظمُها تنقلُ الخبر عن الفارعة ، فقد روى النّعلبيُّ هذا فقال: «لما مات أميّة ، أتَتْ أختُه فارعة رسولَ الله ﷺ ، فسألَها عن أخيها ، فقالَت: بينما هو راقدٌ إذ أتاه رجُلان فكشَطَا سقْفَ البيتِ ، ونزلا فقعدَ أحدهما عند رجليه ، والآخر عند رأسه ، فقال الذي عند رجليه للذي عند رأسه : أوعَىٰ؟

فقال: وعَيٰ!

قال: أَزَكَا؟

قال: زكًا!

قالَتْ: فسألْتُه عن ذلك؛ فقال: خيرٌ أُريد بي؛ ثمّ قطَرَت عينُه، ثمّ غُشِي عليه، فلمّا أفاقَ، قال:

كُـلُّ عَيْـشٍ وَإِنْ تَطَـاولَ دَهْـراً صَـائــرٌ أَمــرُهُ إلــىٰ أَنْ يَــزُولاً

⁽۱) البداية والنّهاية (٢/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦) ، وهذه القصّة لا تختلفُ عن قصّة ابنِ سلام ، إلّا أنَّ واضَعها كان أمُهرَ في وضْع الأقاصيص وقد وجدَ أمامَه مادّة ، فراحَ يكيّف ويحشو ما نسيهُ صاحبه ، حتّى جاءنا بهذه التّفصيلات المطوّلة ، فلم ينسَ أنْ يصفّ لنا وجْهَ الفارعة ، ولم ينسَ أنْ يقولَ إنّهما طائران أو كالطّائرين ، ولم ينسَ أيضاً أنْ يقولَ إنّ الفارعة قد فزعتْ وارتعبتْ (ديوان أميّة ص ٨٤).

لَيتَنِي كَنْتُ قَبْل مَا قَدْ بدا ليْ في قِلالِ الجِبَالِ أَرعىٰ الوعُولاَ إِلَى عَظَيْمٌ شَابَ فِيْهِ الصَّغيرُ يوماً ثقيلا (١)».

* يقولُ محقّقُ ديوان أميّة: ﴿ومهما يكنْ فكلُها رواياتُ لا نُسلّمُ بها علىٰ علاتها ، وهي لا تعدو مجرّد قَصَص وأساطيرَ ، فسواءٌ جاءتِ الفارعةُ إلى الرَّسولِ ﷺ ، أو لمْ تجيء ، وسواء كانتِ القصّةُ من قولها وقد شاهَدتُها بوجهِ منَ الوجوهِ ، أمْ كانت من صُنْع راويةٍ حاذقٍ بروايةِ الأخبار ، فهي لا تعدو أكثرَ من إطْلاعنا على مكانةِ هذا المُتَألَّه الجاهليّ ، الذي أصبحَ من أبطالِ الأساطير على ألسنةِ الرُّواة»(٢).

* ومن هنا يتبيّنُ لنا أنَّ الفارعةَ بنتَ أبي الصَّلت ساعَدتْ على حفظِ شيءِ من شغرِ أخيها ، وتُعَدُّ ممن حفظَ شيئاً وشطراً من شعرِه ، وأخبارِه ، ففي حديثِ الفارعةِ أنَّها قدمَتْ على النَّبي ﷺ ، فقال لها ذات يوم: «يا فارعةُ هل تحفظين من شعرِ أخيك شيئاً»؟

فقالَتْ: نعم.

ثمّ ذكرَتْ خبرَ وفاتِهِ ، وأنشدَتْ شيئاً من أشعارِه ، كما روتِ المصادرُ ذلك^(٣).

* ومن خلالِ هذه الأخبار يظهرُ لنا أنَّ الفارعةَ صحابيةُ التقتِ النَّبيَّ ﷺ وأسلَمَتْ ، وسَمِعَ منها بعض أخبارِ أخيها.

⁽١) قصص الأنبياء (ص ١٦١) طبعة مصر.

⁽۲) ديوان أميّة بن أبي الصّلت (ص ۸۵).

 ⁽٣) انظر مثلاً: البداية والنهاية (٢/ ٢٢٤) ، ونهاية الأرب (١٣/ ٢٧١ و٢٧٢) ، وحياة الحيوان (١/ ٣٥٣) ، وأسد الغابة (٦/ ٢١٥ و٢١٦) ، والإصابة (٤/ ٣٦٣ و٣٦٤) وغيرها كثير.

صُورٌ منْ حَيَاةِ الفَارِعَةِ:

* لا يستطيعُ الباحثُ أَنْ يلُمَّ أَشْتَات الأخبارِ المتفرقةِ في بطونِ المصادرِ والتي تحدَّثت عن الفارعةِ ، لكونها نزرةً أوّلًا ، ولأنّها ضعيفةٌ من جانبٍ آخر ، وخُصوصاً تلك الأخبار التي تتعلّق بوفاةِ أخيها أميّة.

* بيد أنّنا نقرأُ في المصادرِ والمراجعِ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يستنشدُها شعْرَ أخيها ، وكان يسألُها عن أخبارِه ، وعن وفاتِه ؛ وتذكرُ زينب فوّاز في «درّها المنثور» أنَّها أنشدتِ النَّبيَّ ﷺ قصيدةَ أميّة اللاميّة جميعها:

كُلُّ عَيْبِ مِن وَإِنْ تَطَاوَلَ دهُراً صَائِبِ أَمْدُهُ إِلَى أَنْ يَسَرُولًا كُلُّ عَيْبِ مِن وَلا عَيْبِ وَلا عَيْبِ مِن وَال

فقال لها رسولُ اللهِ ﷺ: «ما أطْيَبه منْ شِعْرِ سألتُكِ بالله أعيْدِيهِ» فأعادَتْ عليهِ شعْر أخيها أميّة ، ومن ثمّ أنشدَتْ شِعْراً جيّداً ، فقالَتْ:

لَكَ الحمدُ والنَّعْماءُ والفَصْلُ رَبّنا فلا شَيءَ أَعْلَىٰ مِنْكَ جدّاً وأَمْجَدُ مَلِيْكٌ علىٰ عَرشِ السَّمَاء مُهيمنٌ لِعِـزّتِـه تَعْنُــو الــوُجُــوهُ وتسجــدُ

وهي قصيدةٌ طويلة تزيدُ عن أربعين بيتاً (١) أنشدتُها حتى أتَتْ على آخرِها (٢).

* وتذكرُ زينب فوّاز أيضاً أنَّ الفارعةَ قد أنشدتِ النَّبيَّ ﷺ قصيدةً لأُميّةَ ، والتي يقولُ فيها:

عِندَ ذِي العرشِ يُعرضُون عليهِ يعْلَـم الجهـرَ والكـلامَ الخَفِيّـا يَـومَ نـأتيــه وهــوَ رَبُّ رَحيـمٌ إنّــه كَــانَ وعْـــدُهُ مــأتيّــا

⁽١) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ٣٦٧ ـ ٣٧٦) وهي (٤٢ بيتاً).

⁽٢) الدر المنثور (ص ٣٥٧).

يسومَ نـأتيه مثلمَا قَـالَ فَـرُداً أَسعيــدٌ سَعَـادةً أنـا أرجُـو رَبّ إِنْ تَعْفُ فالمُعَافَاةُ ظَنّي إِنْ أُواخَذْ بِما اجتَرمْتُ فَإِنّي

لم يلز فيه راشداً وغويا أم مُهَانٌ بِما كَسَبْتُ شقيا أوْ تُعاقِبْ فَلَمْ تُعاقِبْ بَريا سوفَ أَلْقَى منَ العَذَابِ فريّا(١)

* ومنَ الواضحِ لكلِّ ذي لبّ وبصيرةٍ أنَّ هذه الأبيات من الشّعر المنحول ، ومنَ النّظم المُتكلّفِ الموضوع ، ولعلّها نُظِمَتْ بعد عَصْرِ أميّة في عَصْر بني أُميّة ، ونُسبت إليهِ ، لأنّنا نلمسُ أنَّ النّاظمَ قد تأثّر كثيراً بسورة مريم ، واقتبسَ كثيراً من آياتها من مثلِ: ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُومُ مَأْلِيًا ﴾ [مريم: ٢١] ﴿ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِينَمَةِ فَرَدًا ﴾ [مريم: ٩٥] و ﴿ يَنَمَرْيَهُ لَقَدْ جِمْتِ شَيْئًا فَرَيّا ﴾ [مريم: ٢٧] ، بالإضافةِ إلى أنَّ أنفاسَ الأبياتِ العامّة هي أنفاسٌ إسلاميّة ؛ كما أنّها موضوعةٌ مصنوعةٌ بعد عصرِ الفارعةِ وأميّة بزمنٍ طويل.

* بقي أنْ نعلمَ أنَّ الفارعةَ ممن روى عنها ابنُ عبّاس^(۲) ـ رضي الله عنهما ـ ، وأنّها بقيَتْ في عَهْدِ النّبيّ ﷺ منَ النّساء المعدوداتِ المتّصفاتِ بالفضائلِ ، المقدّمات عند الصّحابة^(۳) ، إلى أنْ ماتَتْ ، بيد أنّنا لا نعرفُ سنةَ وفاتها ، ولم نستطع أن نستنتجَ ذلك من أخبارِها ؛ ولكنّها ظَلّت مِنْ مشاهير الصَّحابيات ، ومن نساء المشرقِ العربيّ ، فرضي اللهُ عنها وأرضَاها.

* * *

⁽١) الدر المنثور (ص ٣٥٧ و٣٥٨) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٣ و٣٨٤).

⁽٢) أعلام النساء (٤/ ٢٠).

⁽٣) الدر المنثور (ص ٣٥٨)، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٣٨٤) مع الجمع والتصرف.





هن بنت أثاث

- * من السابقات إلى الإسلام في فجره الوضّاء.
- * من ذوات الفصاحة والنباهة ، ولاقت الألاقي في سبيل إسلامها ، فصبرت راسخة اليقين. وهاجرت إلى المدينة. وكانت شاعرة جريئة.





مِنَ الرَّعيلِ الأُوّلِ:

* هندُ بنتُ أثاثةَ بن عبّاد بنِ المطّلب بن عبدِ مناف القرشيّةُ المطّلبيّةُ (١) ، واحدةٌ من النّساء اللواتي أسلمْنَ بمكّةَ منذُ مطلعِ شمسِ الرّسالةِ المحمّديةِ.

* ومنذُ أَنْ جَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ برسالةِ مَحَمَّدِ ﷺ ، أَشْرَقْتِ الدُّنيا بنورِ الحقّ ، وبدأتِ العقولُ المتفتَّحةُ تستجيبُ لأنداءِ الهمسَاتِ النّبويّةِ التي أخذتْ تلامسُ الأفئدةَ ، وتوقظُها من سُباتِها الذي استمرَّ مدّةً طويلة.

* وكان من بينِ السَّابقين الذين اجتذبَتْهمُ الدَّعوةُ المحمديّة ضيفتُنا هندُ بنتُ أثاثةَ المطّلبيّة؛ التي تركتْ أثراً بارِزاً في تاريخِ المرأةِ المشرقيّة في فجرِ الإسلام؛ وفي تاريخِ السَّابقات بمكَّة ، حيثُ ذكرها ابنُ إسحاق فيمن أسلمَ بمكَّة .

* بينما أخذَ الحماسُ زينبَ فواز العامليّة ، وافتتحتْ ترجمةَ هندِ بقولها: «كان أبوها أثاثة منْ أمراءِ العربِ المشهورين بالشَّجاعةِ والفروسيّةِ والكرمِ ، وكانت هي منْ ذواتِ الشَّهامة والمروءةِ والحِكمِ ، أديبةٌ فاضلةٌ ، كاملةٌ عاقلةٌ ، لها معرفةٌ بالشّعر والعروض ، وممّا قالته في رثاءِ أبيها حين فُتِل هذه الأبيات:

⁽۱) انظر: الإصابة (۱۰۹/۱۲ و ۱۹۰ ترجمة رقم (۱۰۸۳) ، وأسد الغابة (۲۸۸۲) ترجمة رقم (۱۰۸۳) ، والدر المنثور (ص ۵۳۰) ، وأعــلام النساء (۱۰۱ و ۲۱۲) ، ونهــايــة الأرب (۱۰۱/۱۷) و(۲۱۸/۱۸) ، والسيرة النبوية في مواضع ، ومصادر أخرى كثيرة من مثل: شاعرات العرب (ص ٤٠٣) ، والمغازي (ص ٤٩٤).

⁽۲) انظر: الإصابة (۱۲/۱۰۹).

لقَد ضمَّتِ العَفْراء مَجْداً وسُؤدُداً وحُلماً أصيلاً وافرَ اللبّ والعَقْلِ عُبيدة فابْكيهِ لأضيافِ غيربة وأرملةٍ تهوي لأشعثَ كالجذْلِ(١١)».

* ويظهرُ من الأخبارِ التي وصلَتْ إلينا عنِ النِّساء المؤمناتِ ، أنَّ هنداً هذه كانت بمكّة ، وكانت من ذواتِ الفَصاحةِ والنَّباهةِ ، ولقيتْ في سبيلِ إسلامها ما لاقته أخواتُها المؤمنات القانتاتُ ، فصبرتْ وتحمّلَتِ الصِّعاب وهي ثابتةُ الإيمان ، مطمئنةُ القلبِ ، راسخةُ اليقين ، وكانت ترى ما يحلُّ بالمسلمين والمُسلماتِ من ألوانِ العذابِ وأنواعِ الشَّدائد وهم صابرون محتسبون ، وشهدتْ كذلك ثبات كثيراتٍ منَ المسلماتِ على الدِّيْن حتى لقي بعضُهنَ الموتَ وحظين بالشَّهادة ، وهي ما تزالُ ثابتةً صابرةً ، تلكم الشّهيدة هي سُمّية بنت خُبَّاط أمّ عمّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ .

* وصبرت وصابرت هندٌ إلى أنْ جاءتِ الأوامرُ الإلهيّةُ للرّسولِ الكريم ﷺ بالهجرةِ ، وكان هذا هو مفتاحُ الفرجِ للمسلمين والمسلماتِ والمستضعفين والمستضعفات ، فهاجرتْ هندٌ في الأرضِ (٢) ، أرضِ اللهِ

⁽۱) انظر: الدّرّ المنثور (ص ٥٣٦). ومنَ الملاحظِ أنَّ كلامَ السّيدة زينب العامليّة كلامٌ يعتمدُ على الصّياغةِ واللّغة وعرضِ عضَلات البلاغة ، بيد أنَّ الحقيقةَ خلافُ ذلك ، فليس أبو هند من أمراء العرب ، وليست الأبياتُ التي رثَتْ بها هندٌ أباها هي في رثاء أبيها ، وإنّما في رثاء عُبيدة بن الحارث لما سنعرف ، وإنّما تتعجلُ زينب في أحكامِها كعادتها ، وتخفيٰ عليها الحقائقُ ، والله المستعان .

 ⁽٢) قسم العلماء والفقهاء الذهاب في الأرض إلى قسمَيْن اثنين: ١ ـ هَرَباً؛ ٢ ـ طلباً.
 فالأوّل؛ الهرب: ينقسم إلى ستّة أقسام:

١ ـ الهجرةُ: وهي الخروجُ من دارِ الحرب إلى دارِ الإسلام ، وكانَتْ فرضاً في عَهْد
 النّبي ﷺ ، وهذهِ الهجرةُ باقيةٌ مفروضةٌ إلى يوم القيامة .

٢ ـ الخروجُ من أرضِ البدعة.

قال الإمامُ مالك: «لا يحلُّ لأحدِ أنْ يقيمَ بأرضِ يُسبُّ فيها السَّلَف».

وقال ابن العربيّ: «وهذا صحيحٌ؛ فإنَّ الْمنكرَ إَذا لم تقدرُ أنْ تغيّره ، فَزُلْ عنه».

الواسعة ، وكانت وجهتُها إلى المدينةِ المنوّرة ، حيث سُجِّلَت في قائمةِ الصَّابراتِ المُهاجراتِ.

هندٌ في غَزَاةِ أُحُد:

* تشير الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا عن طريقِ المصادرِ المتنوَّعة ، بأنَّ هندَ بنتَ أثاثة قد أقامَتْ مع ثلّةِ المُهاجرات في المدينةِ المنوّرةِ ، تنعُمُ برحيقِ الإيمانِ ، وتنعمُ بالمجالسِ النّبويّةِ ، وتستفيدُ منها ما استطاعَتْ إلى ذلك سبيلاً ؛ ولما كانت غزاةُ أحُدٍ ، كانت هندُ بنتُ أثاثة في عدادِ الصَّحابياتِ المجاهداتِ اللواتي كُنّ يخرجْنَ مع الجيشِ الإسلاميّ ، ويقدّمْنَ ما يستطعْنَهُ من خِدْماتٍ للمجاهدين كيما ينلْنَ هُنَّ الأخرياتِ شرفَ المشاركةِ في الجهادِ في سبيلِ الله تعالىٰ ، وفي نصرةِ رسولهِ الكريم ﷺ.

* وخاضَ المسلمون معركة أحدٍ ، وكانت مظاهرُ الشَّجاعةِ البطوليّةِ في أصحابِ رسولِ الله ﷺ ظاهرةً في هذه المعركةِ ، وكان الأصحابُ الأخيارُ رجالًا ونساء يَفْدونَ النَّبيَّ ﷺ بالأرواحِ ، وظهرتْ بطولاتٌ نادرة من مثل

٣ ـ الخروجُ من أرضٍ غلبَ عليها الحرامُ.

٤ ـ الفرارُ منَ الأذيّةِ في البدنِ. وتلك رخْصَةٌ منَ اللهِ تفضَّل بها على عبادِه.

٥ ـ خوفُ المرضِ في البلادِ الوخمةِ ، والخروجُ منها إلى الأرضِ النَّزهَةِ .

٦ _ الفرارُ خوفُ الأذيّةِ في المالِ ، فإنَّ حرمةَ مالِ المُسلم كحرمةِ دمه.

والثَّاني؛ ينقسمُ إلىٰ ثلاثةِ أقسام ، هي:

١ _ قصدُ البقاع .

٢ ـ قصدُ الثّغور للرّباط بها وتكثير سوادها للذب عنها.

٣ ـ زيادةُ الإخوة في اللهِ تعالى.

⁽أحكامُ القُرآن ١/ ٤٨٤) و(تفسيرُ القُرطبي ٥/ ٣٤٩) مع الجمع والتّصرّف اليّسير.

ـ وفي الهديّ النّبوي أنَّ رسولَ الله ﷺ قالُ: «مَنْ فرَّ بدَينه من أَرضِ إلى أرض ، وإن كان شبراً استوجبَ الجنّة ، وكان رفيقَ إبراهيم ومحمد عليهما السَّلام». وهناك أدلّة أيضاً في القرآن الكريم.

بطولةِ أبي دَجَانَةَ الأنصاريّ ، وأنسِ بنِ النّضر ، وطلحةَ بنِ عبيد الله ، وأبي طلحة الأنصاريّة وأبي طلحة الأنصاريّة وغيرها.

* ولكن ما دورُ هندِ الحقيقيّ في غزاة أُحد؟! وهلْ حاربتْ بالسّيفِ والسّنانِ كنسيبةَ بنتِ كعب؟!

* كانت هندٌ شاعرة جريئة ، تستطيع أن تلهب الحماس في النّفوس ، أو تكبِتَ الأعداء بما آتاها الله من فصاحة وجزَالة ، فقد جاء في ترجمتها أنّها وقفت في أحدٍ تردُّ على صوتِ نساءِ المشركين اللواتي كُنَّ منْ مُسْعِراتِ الحربِ يوم ذاك ، واستطاعت هندٌ أنْ تُسْكِتَ واحدة من زعيمات الشّعر يومَها ألا وهي هندُ بنتُ عتبة وذلك قبل أن تُسْلِمَ وتُكتَبَ مع الصّحابيّات ، حيث إنّ هندَ بنتَ عتبة أسلمَتْ يومَ الفتح .

* أما كيف كان رَدُّ هند بنت أثاثة على هندِ بنتِ عتبة ، فذلك ما يرويه ابنُ إسحاق حيثُ قال ما مفادُه ومحصّله وملخّصه: «قالت هندُ بنتُ عتبة في وقعةِ أحدٍ تفتخرُ بقتلِ حمزة بنِ عبد المطّلب وغيره ممن أُصيبَ منَ المسلمين بعد أنْ علَتْ على صخرةٍ مشرفةٍ ، وصرخَتْ بأعلى صوتها تنادى:

نَحْنُ جَزيناكم بيومِ بَدْرِ والحربُ بعدَ الحربِ ذاتُ سُعرِ مَا كَانَ عن عتبةَ لي من صَبْر ولا أخيي وعَمّه وبِكُري شفَيتُ نفسي وقضَيتُ نَـذْري شفَيتَ وحْشِيُّ غليلَ صَـدري فَشُكُـرُ وحشيٍّ عليَّ عُمري حتى تـرمَّ أعْظُمي في قَبْرِي

فأَجَابِتُها هندُ بنتُ أثاثة بن عبّاد بن المطلب ونَقَضَت (١) قولَها ، وقالَتْ:

⁽١) «نقضَتْ قولها»: جاءتْ بعكسِ ما جاءت به. والنَّقائضُ: في الشَّعر تعني أنْ ينقضَ =

يَــا بنْــتَ وَقَــاع عظيــمِ الكُفْــرِ خَـزِيْتِ في بَـدْرِ وبَعْـدَ بَـدْرِ صَبّحكِ اللهُ غَـدَاةَ الفَجْرِ مِلْهَــاشميتــن الطُّــوالِ الـــزُّهــر بِكُــلِّ قطَّــاع حُسَــام يفْـــري حمــزةُ لَيْثــي وعلــيٌّ صَقْــري فَخَضّبًا منه ضَراحي النَّحْر إِذْ رَامَ شَيْبُ وأبوكِ غَــدري

هندٌ وَالرِّثَاءُ:

* كانت هندُ بنتُ أثاثةَ واحدةً منَ النّساء اللواتي كُنَّ يعبّرنَ بالكلماتِ في عَصْرِ النّبوةِ ، وكُنَّ يشاركْنَ في الأحداثِ بالّلسانِ والسّنانِ وما يقدرْنَ على أدائه .

* ففي غزوة بدرِ كان عبيدةُ بنُ الحارث القرشيّ أحدَ أبطالِ المبارزةِ الذين ندبَهمُ النّبي ﷺ استجابةً لدعوةِ عتبةَ بنِ ربيعة الذي تقدّم نحو صفوفِ

شاعرٌ ما قالَه آخرُ منَ الشُّعراء ، ويجيء بضدّ ما جاءَ بهِ.

ولما بزغَ الإسلامُ بأنوارهِ ، وافترّ عن زهرِ رياضهِ ، انقسمَ الشّعراء إزاءَ الشّعر إلى فريقَيْن متناقضين:

١ ـ فريقُ شعراءِ رسول اللهِ ﷺ ويمثّله: حسّانُ بنُ ثابت ، وكعبُ بنُ مالك ، وعبدُ الله بن رواحة وكلُّهم من الأنصار رضي الله عنهم.

٢ ـ وفريق ضدّه ، ويمثّله شعراءُ قريش ومَنْ والاهم منَ المشركين واليهود.

ـ ومنَ الطّبيعي أنْ تقومَ بين هؤلاء الشّعراء حربٌ كلاميّةٌ ، اتَّخذت في معظم الأحيان صورةَ النَّقائض أو المناقضات. وكانت معانى النَّقائض ذات معاني إسلاميَّة في أغلبها وأحياناً تكونُ في الفخرِ وذكر المآثرِ والأحْسَابِ.

ـ وممّا ينبغى الإشارةُ إليه أنَّ كعبَ بنَ مالك قد وضعَ الأسسَ العلميّة للنَّقائضِ التي ازدهرت وتعقدت في العصرِ الأمويّ ، فقد كان يلتزمُ القول في موضوع الشّاعر وقافيته وبحره. وقد لاحظُنا هذا في ردِّ هند بنت أثاثة على هند بنتُ عتبة.

انظر: السّيرة النّبوية (٣/ ٧٣) بتصرف يسير ، طبعة دار الخير بدمشق ـ ط٢ ـ ١٩٩٥م؛ وانظر غيرها من المصادر.

المؤمنين وحولَه أخوه شيبة بنُ ربيعة ، وولده الوليدُ بنُ عتبة تظاهُراً بالقوّة ، وكانت هذه المبارزة الغاشمة أوّل شرارة قَدَحَ زَنْدها الغَرورُ الكَفُورُ ، والمتر الجاهليّ الفاجر ، وبدأتِ المبارزة بينَ أبطال المجتمع المُسلم الثّلاثة وهم: عُبيدة بنُ الحارث ، وحمزة بنُ عبد المطلب ، وعليّ بن أبي طالب ـ رضوان الله عليهم ـ وبين عتبة وشيبة والوليدِ ، وما هي إلا جولةٌ حتى جندل سيدنا حمزة أسدُ الله وأسدُ رسوله مُبَارِزَهُ ، وكذلك عليّ ؛ أمّا عُبيدة فقد اختلف مع قرنهِ ضربتين أثبت كلٌ صاحِبه ، ولحق حمزة وعليٌ قرن عُبيدة فذقفا عليه ، ثم حَملا عُبيدة إلى رسولِ الله عَليه ، نم حَملا عُبيدة إلى رسولِ الله عَليه ، نم حَملا عُبيدة إلى رسولِ الله عَليه ، ناهُ عَنه وأرضاه ـ.

* ويذكرُ الأخباريّون أنَّ هندَ بنتَ أثاثة قد رثَتْ عُبيدةَ بنَ الحارث بقصيدةٍ لاميّةٍ ، وفي هذه القصيدةِ تذكُرُ مآثرَهُ وفضائِلَه وجُودَه وسخاءَهِ لكُلِّ النَّاسِ فتقول:

لقد ضُمّنَ الصّفراءُ مَجداً وسُؤدداً وحلْماً أصيلاً وافرَ اللّبِ والعقلِ

(۱) عُبيدةُ بنُ الحارث بن عبد المطلب ، رأسُ بني عبد مناف ، أسلمَ قديماً ، وهاجرَ ،
وحَملَ أوّلَ رايةٍ في الإسلام وهو ممن شهد بدراً ، وماتَ إثرَ جراحةِ رجله بأشهرٍ في
موضع يُقال له الصَّفراء ، بعد أنْ أُصيبتْ رجلُه ، وقال في ذلك:

فَإِنْ تَقَطّعُوا رَجُلّي فَإِنّي مُسلّمٌ أعياشُ بها عيشاً من اللهِ دانيا مع الحورِ أمثال التّماثيلِ أُخْلِصَتْ مع الجنّه العُليا لمن كانَ عاليا وبعتُ بها عيشاً تعرق صفوه وعالجتُه حتى فقدتُ الأدانيا فأكرَمني الرّحمنُ من فضلِ مَنّهِ بشوبٍ من الإسلام غطّى المسّاويا ومَا كانَ مكروها إليّ قتالُهم غداة دعا الأكْفَاءُ مَنْ كانَ داعيا لقيناهم كالأسْدِ تخطرُ بالقنا فقاتلُ في الرّحمن من كان عاصيا

(شعر الدُّعوة الإسلامية في عصر النبوة ص ٢٧٣_٢٧٤) ، وانظر سيرته في كتابنا «فرسان من عصر النبوة».

عُبيدة فابْكيه لأَضْيافِ غُربة وبكّيه للأقوام في كل شَتُوة وبكّيه للأيتام والريح زَفْرفٌ فَإِنْ تصبح النّيرانُ قد ماتَ ضَوْءُها لِطَارقِ ليلٍ أو لِمُلتَمسِ القِرى

وأرملة تهوي لأشْعَثَ كالجِذْلِ إذا احمرَّ آفاقُ السَّماء منَ المَحْلِ وتَشْبيبُ قِدْرِ طالَما أَزْبدتْ تَغْلي فقد كانَ يذكيهنَّ بالحطبِ الجَزْلِ ومُستنبحِ أضحىٰ لديهِ على رِسْلِ(١)

* ويذكرُ كُتَّابُ السِّيرة أنَّ هنداً بكَثْ رسولَ اللهِ ﷺ بقصائدَ شعريّةٍ حزينةٍ دامعةٍ ، وقد سجَّلَتِ المصادرُ القديمةُ قطعاً من رثائِها للنّبي ﷺ ، وكذلك سجّلَت آثاراً نسويةً أخرىٰ لشَاعراتٍ من عَصْر النّبوّة.

* ومن الآثارِ الجميلةِ في شعر هند بنت أثاثة هذه البائيّة الجميلة التي تنبىءُ عن رقّة مشاعرِها ، وصدْقِ إيمانها ، وأثرِ الإسلامِ في شِعْرها ، تقولُ هند:

قد كانَ بعدكَ أنباعٌ وهنْبَشَةٌ إنّا فَقْدنَاكَ فَقْدَ الأرضِ وابلَها قد كنْتَ بدراً ونُوراً يُسْتَضاءُ به وكانَ جبريلُ بالآياتِ يحضُرنَا فقد رزئنتَ أباً سَهْ للَا خَليقَتُهُ

لو كنتَ شاهِدَها لم تكثر الخُطَبُ فاحْتَلْ لقومِكَ واشهدهُم ولا تغب عليكَ تنزِلُ من ذي العزّة الكتُبُ فغابَ عنّا وكلُّ الغيبِ محتجبُ محضَ الضَّريبة والأعراقِ والنَّسب(٢)

* وفي جلالِ المصيبةِ بوفاةِ النَّبيِّ ﷺ تنفثُ هندُ بنتُ أثاثة بهذه التّائيةِ الباكيةِ الدّامعة ، وتخاطبُ عينَها بألا تملّ البكاء؛ إذ المصيبةُ قد عظُمت

⁽١) السّيرةُ النبوية (٣/ ٣٥_٣٦) وقال ابن هشام: «وأكثرُ أهلِ العِلْم بالشّعر ينكرها لهند».

⁽٢) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١_٣٣٢). و«الهنبثةُ»: الأمرُ الشَّديد، واختلاطُ القولِ، والمناسبةُ هنا: وفاةُ النبي ﷺ، وبوادرُ الخلاف في اختيارِ الخليفةِ بعده واللهُ أعلم.

وجلّت بوفاةِ الحبيبِ الأعظمِ سيّدنا رسولِ الله ﷺ ، وتوجّهُ هندٌ خطابَها إلىٰ سيّدة نِساءِ العالَمين سيّدتنا فاطمة الزّهراء رضيَ اللهُ عنها وأرضاها وحشَرنا في معيّتها ، تقولُ هند:

ألاً يما عين ابكي لا تملّي وقد بكر النّعيُّ بخير شخص ولي عشنا ونحنُ نراكَ فينا فقد بكر النّعيُّ بذاكَ عمداً وقد عظمت مصيبتُه وجلّت إلى ربِّ البريّة ذاك نشكو أفاطِمَ إنَّه قد هُد رُكني

فَقَدْ بكرَ النّعيُ بِمَنْ هويتُ رسولِ اللهِ حقّاً ما حييتُ وأمرُ اللهِ يَسركُ ما بكيتُ فقد عظمتْ مصيبةُ من نُعيتُ وكُلُّ الجهدِ بعدكَ قد لقيتُ في إنَّ اللهَ يعلم ما أتيتُ وقد عظمتْ مصيبةُ مَنْ رُزيتُ()

* ومن مراثيها في النّبي عَلَيْتُهُ هذه الدّاليّة الجميلة:

أَشَابَ ذَوَابِتِي وَأَذَلَّ رَكُنيي فأعطيْتَ العَطَاءَ فلمْ تُكدَّرْ وكنتَ ملاذَنا في كُلِّ لِنْبٍ وإنّك خيرُ مَنْ ركبَ المطايا رسولُ اللهِ فارقنا وكُنَّا أفاطمَ فاصْبِري فلقد أصابَتْ وأهل البرّ والأبحارِ طررًا وكانَ الخيرُ يصبحُ في ذُراه

بكاؤكِ فَاطمَ المَيْتَ الفَقيْدَا وأخْدَدَمْتَ الولائِدَ والعَبيدا إذا هبّتْ شَامِيةٌ بُرودَا وأكرمُهم إذا نُسِبُوا جُدودَا نرجّي أنْ يكونَ لنَا خُلُودا رزيئَتُكِ التهائِمَ والنُّجودا فلم تخطى مُصيبتُه وحيدا سعيدَ الجَدِّ قد وَلدَ السُّعودا(٢)

* وبمثل هذه النّفحاتِ المندّاة برحيقِ الإيمانِ ، عبّرتْ هندُ بنتُ أثاثةَ في رثائِها النّبيّ ﷺ ، وبرهنَتْ عن جَلَل المُصاب ، بفراقِ الحبيبِ الأعظم

⁽١) انظر: طبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١).

⁽٢) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٦) ، وطبقات ابن سعد (٢/ ٣٣١).

مخرِج النَّاسِ من الظُّلمات إلى النّور بإذنِ العزيزِ الحميدِ؛ ولم تكنْ هندُ وحدهًا تحلُّقُ في هذا الفضاءِ ، وإنَّما كانت هناك شواعرٌ بكينَ رسولَ اللهِ ﷺ ، ومنهن عمّته صفيّةُ بنتُ عبد المطلب أمُّ الزُّبير ، حيث قالتْ من قصيدة لها بائية ؟ تخاطبُ سيّدة نساءِ العالَمين فاطمة الزهراء رضي الله عنها وحشرنا في معيتها ومعية الذين تشملهم رحمته:

أَفَ اطِمُ بِكُ فِي وَلا تَسْأَمِي فِصُبْحَ كِ مِا طَلَعَ الكَوْكَ بُ هــو المــرءُ يُبْكــيٰ وحُــقَّ البُكــا فبكي الرسول وحقت له فَعَيْني مالكِ لا تدمعينَ

علىٰ الماجدِ السَّيِّدِ الطّيِّب شهود المدينة والغيب وحُتَّ لِـدَمعِـكِ يُسْتَسْكَـبُ(١)

* وقالَتْ صفيّةُ أيضاً:

عَيْن جُودي بِدمْعة تَسْكابِ عَيْنِ مَنْ تَشْدُبِينَ بَعْدَ نِسِيّ فاتح خاتم رؤوف رحيم مشفِقِ ناصحِ شفيقِ علينا

خصَّــهُ الله ربُّنــا بــالكِتـــاب صَادقِ القيلِ طيِّب الأَثْـوابِ رحمة من إلهنا الوهاب وجـزاهُ المليـكُ حُسْـنَ الثَّـواب^(٢)

ـ ومن مراثيها في ابنِ أخيها رسولِ الله ﷺ قولُها في هذه القصيدةِ الدَّاليةِ المؤثّرة:

> عيـن جُـودي بـدمعــةٍ وسُهــودِ وانْدُبي المصطفىٰ بحزنِ شديدٍ كِـدتُ أقضى الحياةَ لمّا أتـاهُ فلقمد كسانَ بالعِبَادِ رؤُوفًا

وانْــدُبــى خيــرَ هــالــكِ مفْقُــودِ خَـالَـطُ القَلْبَ فهـو كـالمعمُـودِ قَــدَرٌ خُــطٌ فــي كتــابٍ مجيــدِ وَلَهُ م رحمةً وخير رشيد

انظر: نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٤) باختيار وتصرف. (١)

نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥). (٢)

رضي اللهُ عَنْه حيّاً وميتاً وجَزاهُ الجِنَان يـومَ الخُلُـودِ (١) * ومن روائِعهَا وبدائِعها في رثائِه ﷺ هذه اليائيّة:

ألا يا رسُولَ اللهِ كُنْتَ رجاءَنَا وكُنْتَ بنا برّاً ولم تَكْ جَافِيا وكنتَ رحيماً هَادِياً ومُعلّماً لَيَبْكِ عليكَ اليومَ مَنْ كانَ باكِيا فدى لرسولِ اللهِ أمّي وخَالَتي وعمّي وخالَي ثمّ نَفْسي ومَالِيا فلو أنَّ ربَّ النَّاس أبقى نبيّنا سعِدْنا ولكنْ أمْرُهُ كانَ ماضِيا عليكَ من اللهِ السَّلام تحيَّة وأُدْخِلْتَ جنّاتٍ منَ العَدْنِ راضيا(٢)

* ومن الأصواتِ النَّسويةِ التي رثتِ النَّبيَّ ﷺ صوتٌ جميلٌ حنونٌ رؤوم نحبُه؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يحبُّ صاحبته كحبه لأُمّه ، هذا الصَّوتُ الطَّيبُ المباركُ هو صوتُ أمِّ أيمنَ بركةَ بنتِ ثعلبة ، مولاة حبيبنا وسيّدنا محمد ﷺ وهي التي قالَ فيها «أمّ أيمن أمّي» ، وكان يقول لها: «يا أمّه» وإذا ما نظرَ إليها قال: «هذه بقيّةُ أهلِ بيتي»؛ هذه المرأةُ الوفيةُ ذات القَدْرِ الكبيرِ في نفسي ، ترثي النّبي ﷺ بقصيدة جميلةٍ تتضحُ بالبراءةِ والوفاءِ والصّدقِ والحبّ والحبّ والعَطْف فتقولُ:

عَينِ جُودي فَإِنَّ بِـذَلِـكَ لَلَـدَّ مَـعِ شِفَـاءٌ فَـاكُثِـري مِ البُّكَـاءِ حَينَ قَالُوا الرّسولُ أمسىٰ فقيداً ميّتـــاً كـــانَ ذاكَ كـــلُّ البَــلاء وابكيًا خيرَ مَنْ رُزئناهُ في الدّنـ ــيـا ومَـنْ خصَّـه بـوحـي السَّمـاء بـدمــوع غــزيــرةٍ منـكِ حتّـى يقضــي اللهُ فيــكِ خيــرَ القَضَــاءِ

⁽۱) طبقات ابن سعد (۲/ ۳۳۰) ، ونساء من عصر النبوة (ص ٤٢٠) و «المعمود»: المريض لا يستطيع الجلوس حتى يعمد من جانبه بالوسائد. و «أقضي»: أموت. و «يوم الخلود»: يوم القيامة.

 ⁽۲) شاعرات العرب (ص ۲۰۶_۲۰۰) ، ونساء من عصر النبوة (ص ٤٢٠) طبعة دار
 ابن كثير الثانية عام ۲۰۰۰ م.

فلقَد كان ما علمتِ وصُولاً ولقد كانَ بعدَ ذلك نُوراً طيبَ العودِ والضَّريبة والمَعْ

ولقد جاءً رحمةً بالضّياءِ وسِراجاً يُنيرُ في الظَّلماء دِنِ والخِيمِ خَاتَمَ الأنبياءِ(١)

* وممن شاركَ في رثاءِ المصطفىٰ ﷺ من عَصْرِ النّبوة ، وظَهَرَ صوتُها عالياً هندُ بنتُ الحارث (٢) بن عبد المطلب التي أثّرتْ فيها وفاةُ النّبيّ ﷺ واعترتها الهمومُ فتندَّتْ قريحتها الصَّافيةُ عن هذه الأبياتِ الدّاليةِ الصَّافية الصَّافية :

آب لَيلي علي بالتَّسْهَاد واعتَرتْني الهُمومُ جدّاً بِوَهْم واعتَرتْني الهُمومُ جدّاً بِوَهْم رحمة كان للبرية فلراً طيب العُود والضريبة والشائلج صادق السّجية عَفْ السّجية عَفْ عاش ما عاش بالبرية براً شم ولّئ عنّا فقيداً حَميداً

وجَفَا الجنْبَ غيرُ وطْءِ الوسادِ لأمورِ نسزلْسنَ حقّاً شِسدادِ فهَدى مَسنْ أطاعَهُ للسَّدادِ يَمِ محضُ الأنْساب واري الزّنادِ صادقُ الوعدِ مُنتهى السرّوادِ ولَقَدْ كَانَ بنهمة المررسادِ فجَزاهُ الجنَانَ ربُّ العِبَادِ (٣)

* وفي «نهايةِ الأرب» أوردَ النّويري أثارةً من رثاءِ عمّات النّبي ﷺ لابن أخيهنّ محمّد ﷺ ، وأروىٰ ، وعاتكةَ بنات

⁽۱) انظر: طبقات ابن سعد (۲/ ۳۳۲ ـ ۳۳۳) ، ومنح المدح لابن سيد الناس (ص ۳۳ ـ ۳۳۷) ، ونساء من عصر النبوة (ص ۳۰ ـ ۳۱) ومعنى «م البكاء»: من البكاء وحذفه النون على لغية. و «العودُ والضّريبةُ والمعدنُ والخِيمُ»: بمعنىٰ الأصل والطّبيعة.

⁽۲) هندُ بنتُ الحارث بن عبد المطلب ابنة عمّ رسول الله ﷺ ، وهي صحابيةٌ فاضلةٌ ، وهي أختُ أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب الشّاعر المعروف والصّحابي الكريم ، والذي ترجمنا له في كتابِنا: «رجال مبشّرون بالجنّة» (ص ۱۲۸ ـ ۱۵۱) طبعة دار ابن كثير الرابعة عام ۱۹۹۹م.

⁽٣) طبقاتُ ابن سعد (٢/ ٣٣٠).

عبد المطلب ، وذكر مرثيةً لأروى بنت عبد المطلب وهي:

ألا يا عين ويحكِ أسْعِديني الا يا عين ويحكِ واستَهلّي فإنْ عذلتْكِ عاذلة فقُولي على نور البلادِ معا جميعاً فإلا تُقْصِري بالعَذْل عنّي لأمْر هددّني وأذلاً رُكْنى

بدمعِكِ ما بقيتِ وطَاوِعيني على نورِ البلادِ وأسعِديني علامَ وفيم ويحك تعُذليني رسولِ اللهِ أحمد فاتركيني فلُومي ما بَدا لكِ أو دعيني وشَيَّبَ بَعْدَ جدَّتها قُروني(1)

* وممّا يُروىٰ من رثاءِ النّبيّ ﷺ لعاتكةَ بنتِ عبد المطلب هذه الأبيات الدّالية اللطيفة الحزينة:

يا عينِ جُودي ما بقيتِ بعبرةٍ يا عينِ فاحْتَفلي وسُحِي واسْجُمي أنّى -لكِ الويلاتُ- مثلُ محمّدٍ فابكي المباركَ والموفق ذا التقىٰ مَـنْ ذا يفـكُ عـن المُغلّل غُلّهُ أمْ مَـنْ لكـل مُـدَفّع ذي حاجةٍ أمْ مَـنْ لـوحـي الله ينـزلُ بينـا فعليـك رحمة ربّنا وسـلامُـه فعليـك رحمة ربّنا وسـلامُـه

سخاً على خير البرية أخمد وابكي على نور البلاد محمد وابكي على نور البلاد محمد في كُلل نائبة تنوب ومشهد حامي الحقيقة ذا الرشاد المرشد بعد المُغيّب في الضّريح المُلْحَدِ ومُسَلسلٍ يشكو الحديد مقيّد في كل مُمْسَىٰ ليلة أو في غد يا ذا الفواضِل والنّدىٰ والسُّؤددِ (۲)

* ومن أشعارِ النِّساء في الرّثاء النّبوي ما قالته عاتكةُ أيضاً ، هذه الأبيات الميميّة التي تنضحُ بذكرِ الفضَائِل المحمديّة:

على المُصطفىٰ بالنُّور من آلِ هاشمِ وبالرُّشدِ بعد المُنْدَباتِ العَظَائمِ

أعينيَّ جُودا بالدُّموع السَّواجم

علىٰ المصطفىٰ بالحقّ والنُّور والهدىٰ

⁽١) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥).

⁽٢) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٥ و٤٠٦).

على المُرتضىٰ للبرّ والعَدْل والتُّقىٰ على الطَّاهرِ الميمون ذِي الحَلْم والنَّدىٰ أعينيَّ ماذا بَعْدَما قد فُجعْتُما

وللـدّيـن والإسـلام بَعْـدَ المَظـالـمِ وذي الفَضْل والدّاعي لخيرِ التَّراحُمِ بهِ تبكيانِ الدَّهْرَ من وُلْدِ آدَمِ^(١)

* وذكر كثيرٌ من المصنفين أنَّ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء _ رضي الله عنها _ قد رثَتْ والدَها ﷺ ، وأنّها قد قالت هذه الأبيات النّونية _ والعاقلُ لا يخفىٰ عليه أنّها مصنوعة _:

اغْبَرَ آفَاقُ السَّمَاءِ وكُورَتْ شَمْسُ النَّهَارِ وأَظْلَمَ العَصْرانِ والأَرضُ من بعدِ النَّبِيّ كثيبةٌ أَسَفَا عليهِ كثيبةُ السَّخَفانِ فلتبكِهِ شُولُ البلادِ وغَرْبُها ولتبكهِ مُضَرَّ وكلُّ يَمَاني فلتبكِهِ الطُّورُ المعظَّمُ جودُهُ والبيتُ ذو الأُسْتَار والأركانِ يا خاتَمَ الرّسُلِ المبارك صِنْوُهُ صلّى عليكَ منزلُ القُرآنِ نفسي فِدَاؤك ما لِرأْسِكَ مائِلاً ما وسَّدُوك وسَادَةَ الوسْنَانِ (٢) نفسي فِدَاؤك ما لِرأْسِكَ مائِلاً ما وسَّدُوك وسَادَةَ الوسْنَانِ (٢)

* وينسبونَ لسيّدتنا فاطمةَ رضي الله عنها أنّها وقَفَتْ على قبرهِ ﷺ فقالت:

مَا ضَرَّ مَنْ قَد شمَّ تُربةَ أحمدٍ ألا يَشمَّ مدى الزَّمان غَواليا صُبَّت عَلَى الأَيَّام صِرْنَ لياليا^(٣) صُبَّت عَلَىٰ الأَيَّام صِرْنَ لياليا^(٣)

* هذا ومراثي النّساء لرسولِ اللهِ ﷺ تملأُ الصَّفحاتِ ، وقد استطردنا
 هنا إتماماً للفائدةِ وتنشيطاً للقارىء ، حيث إِنّ وفاةَ النّبي ﷺ قد هزَّتِ

⁽۱) طبقات ابن سعد (۲/ ۳۲۷).

 ⁽۲) انظر: الروض الأنف (۲/ ۳۸۰)، وزهر الآداب (۳۸/۱)، ونهاية الأرب
 (۸۱/ ٤٠٤ ـ ٤٠٤)، ومن الجدير بالذكر أن سيدتنا فاطمة الزهراء لم تقل شعراً وإنما تنسب هذه الأبيات لها، والله أعلم.

⁽٣) نهاية الأرب (١٨/ ٤٠٣).

النّساءَ والرّجالَ والكبارَ والصِّغار، وذُهلوا جميعاً لولا موقفُ سيّدِ الشُّجعان وأشْجع الأُسْيادِ، سيّدِنا أبي بكْر الصِّديق رضي الله عنه الذي أعلنَ أنَّ اللهَ حيِّ لا يموتُ ، عندها ثابَ النَّاسُ إلىٰ رشْدِهم ، وعلموا صِدْقَ ما قاله الصَّديق الأكبرُ أبو بكر ، وسمعُوا جميعاً قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ عندما أخذ أبو بكر يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدُ إِلَا رَسُولُ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَايْن مَّاتَ أَوَ أَخَذ أبو بكر يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدُ إِلَا رَسُولُ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَايْن مَّاتَ أَو أَخْذ أبو بكر يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدُ إِلَا رَسُولُ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَايْن مَاتَ أَو قَدْ اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَلَى اللهُ عَن أبي بكر وحشرنا في معيّتهِ.

هِنْدٌ في أَفْوَاجِ المُجَاهِدَاتِ:

* لما كانتُ غزاةُ خيبر ، خرجَ مع رسولِ الله ﷺ عشرون امرأةً من نساءِ المسلمين ، وفيهنَّ عمّتُه صفيّةُ بنتُ عبد المطلب ـ رضي الله عنها ـ ونساءٌ أخريات منهن ضيفتُنا هندٌ بنتُ أثاثة ، قال ابنُ سعد: «أطعَمها النَّبيُّ ﷺ بخيبر مع أخيها مسْطَح ثلاثين وسقاً»(١).

* وتذكرُ كتبُ السّيرةِ ودواوينُ الحديثِ النّبويّ الشّريفِ شهودَ النّساء خيبر ، فتقول: «وشهدَ خيبرَ مع رسولِ الله ﷺ نساءٌ من نساءِ المسلمين ، فرضَخَ لهنّ رسولُ اللهِ ﷺ منَ الفيء ، ولم يضربُ لهنّ بسَهْم»(٢).

* وروى الإمامُ أحمدُ وغيره أنَّ النِّساء شهدنَ خيبر ، وذلك فيما رواه عن أميّة بنِ أبي الصَّلت. عن امرأة من بني غفار ، قالت: «أتيتُ رسولَ اللهِ عَلَيْ في نسوة من بني غِفار ، فقلنا: يا رسولَ اللهِ ، قد أردنا أنْ نخرجَ معك إلىٰ وجهك هذا ، وهو يسيرُ إلى خيبر ، فنداوي الجرحیٰ ، ونعينُ المسلمين

⁽١) انظر: الإصابة (١٢/ ١٦٠) نقلاً عن ابن سعد في الطبقات الكبرى (٨/ ٢٢٨).

⁽٢) أخرجه مسلم برقم (١٨١٢)، وأبو داود برقم (٢٧٢٩)، والترمذي برقم (١٥٥٦).

بما استطعنا ، فقال: «على بركةِ الله». قالت: فخرجْنَا معه ، وكنتُ جاريةً حَدَثةً ، فأردفَني رسولُ الله ﷺ على حقيبةِ رحْلهِ ، فوالله نزلَ رسولُ الله ﷺ إلى الصّبح وأناخ ، ونزلتُ عن حقيبةِ رحله ، وإذا بها دم منّي ، وكانت أوّل حيضةٍ حضتُها ، فتقبضتُ إلى النّاقة واستحييتُ ، فلما رأىٰ رسولُ الله ﷺ ما بى ، ورأىٰ الدم ، قال: «مالكِ؟ لعلكِ نُفستِ»؟

قلتُ: نعم.

قال: «فأصْلِحي من نفسكِ ، ثم خذي من إناء من ماء ، فاطرحي فيه مِلحاً ، ثمّ اغْسِلي به ما أصابَ الحقيبةَ من الدم ، ثم عُودي لمركبكِ».

قالت: فلما فتح رسولُ الله ﷺ خيبَر ، رضخَ لنا منَ الفيءِ ، وأخذَ هذه القِلادة التي تَرَيْنَ في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عُنقي ، فواللهِ لا تفارقني أبداً.

قالت: فكانت في عنقِها حتى ماتَتْ ، ثم أوصتْ أن تُدفنَ معها ، وكانت لا تطهرُ من حيضةِ إلاّ جعلَتْ في طهورها ملحاً ، وأوصتْ به أن يُجعل في غُسْلها حين ماتت (١٠).

* وهكذا حظيت هندُ بنت أثاثة وهذه الغِفاريّة وغيرهما من نساءِ المسلمين بالمعيّةِ النّبويّةِ في هذه الغَزاةِ الميمونةِ ، وأخذْنَ نصيباً منَ الغنائمِ ، وكنّ كما ذكرهنَّ أحمد محرّم في ديوانه الجميلِ «مجد الإسلام» حيث قال من قصيدة لامية جميلة:

أتيسنَ بِهِسنَّ مسنْ شَسوقٍ غَليسلُ وعُسدْنَ لَهُسنَّ منقَلَسبٌ جميسلُ

⁽۱) قصة المرأة الغفارية وخبرها ، أخرجه الإمام أحمد (۲/ ۳۸۰) ، وكذلك ابن سعد في الطبقات (۸/ ۲۱٤) ، والبيهقي في السنن الكبرى (۲/ ۲۰۷) ، وانظر: البداية والنهاية (٤/ ٢٠٤). ومعنى: «حقيبة رحله»: الرفادة في مؤخر القتب. و«رضخ»: أعطى عطاء غير كثير.

ف لا دَعَةٌ ولا ظ لَ ظُليلُ فَليلُ ولا دَليلُ ولا هادٍ سِواهُ ولا دَليلُ كثيرُ متاعِها نَوْرٌ قليلُ كثيرُ متاعِها نَوْرٌ قليلُ بهنَّ من العُلى فَرْعٌ طويلُ بحيثُ يجرَّدُ العَضْبُ الصَّقيلُ بحيثُ يجرَّدُ العَضْبُ الصَّقيلُ ولا وَلَدُ يشوقُ ولا حَليلُ وليسَ لهنَّ في الدّنيا مثيلُ وليسَ لهنَّ في الدّنيا مثيلُ يزيدُ جمالَه الخلُقُ النَّيلُ فأجرُ اللهِ موفورٌ جزيلُ (۱) فأجرُ اللهِ موفورٌ جزيلُ (۱)

* هذه هي هند بنت أثاثة الصّحابية الكريمة المجاهدة الشّاعرة ، التي عشنا مع سيرتها وقتاً جميلاً .

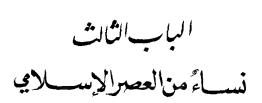
* وتسكتُ المصادرُ بعد ذلك فلا تنفحنا بأخبارِها ، بيد أنَّ ابن سعد يقولُ في الطَّبقات: «اغتربتْ عند أبي جُندب فولدتْ له بنته ريطة»(٢).

شرضي الله عن هند بنتِ أثاثة ، وعن نساء الصّحابة ، وحشرنا في زمرة السّعداء إلى الجنّة زُمراً ، إنّه كريمٌ مجيب.

* * *

⁽١) انظر: ديوان مجد الإسلام (ص ٣٢٩ و٣٣٠) بانتقاء.

⁽٢) طبقات ابن سعد (٨/ ٢٢٨) ، وانظر: الإصابة (١٢/ ١٦٠).



تقتة بنت غيث الصُّورِيَّة زنيب نت أحرا لمقدسة زينب بنت أحدالغري ستّ الوزرارالتنوخت سئعا دالغذربت شهرة بنت أحدا لإثري فاطتربنت براهيم ليطائحته فاطمذبنت أحدا كحرازت فاطهت بنت الأقرع فاطمت بنت سعدالخير فاطتر نبت سليان الأنصارية فضّ النُّوبسيّة كربيت بنت انحدالمرؤزية المتكأمت بالقبرآن





تقيّة بنت غيث الصُّوريّة

- * سِتُ النعم الدمشقية ، محبة للعلم والأدب ، حاضرة البديهة ، ذكية ، لمّاحة ، عاقلة ، فصيحة .
- * ذات علم غزير ، وحافظة لأشعار القدماء ، وهي شاعرة معروفة ، تجري على سجيتها مع الإعراض عما يتنافى مع الأخلاق الفاضلة.





سِتُّ النَّعَم:

* امرأةٌ شَدَا الزَّمانُ والأعوانُ بفضلِها ، ونظموهَا في عقْدِ النِّساء المحسنات الفاضلاتِ ، وعاشتُ ما يقارب ثلاثة أرباعِ القَرن ، وكانت حياتها كلّها حياة عطاءِ وسَخاءِ ، وإحسانٍ ، وعلْمٍ ، وما بين مولدِها ووفاتِها خيرٌ كثيرٌ ، ونفعٌ غزير .

* وبطاقة هذه المرأة تقول: هي تقيّة بنتُ المحدِّثِ غيثِ بن عليّ بن عبد السلام بن محمّد بن جعفر السّلميّ الأرمنازيّ الصّوري^(۱)، وتكنى أمّ علي ، وتشتهر بكنيتها ، كما أنّها تُعرف بلقب ستّ النّعم ، وما أدراك ما ستّ النعم؟!.

* وستّ النّعم هذه منَ النّساء الدّمشقيّات اللواتي فتحنَ عيونهنّ على جمالِ دمشقَ ، وعلى رياضِها الباسمةِ ، وأقاحِيْها (٢) الضّاحكةِ ، وياسمينها (٣) الأنيقِ ، كما عرفَتْ نرجسَها الغضّ الذي يرنو بأحداقهِ على

ا) ومن جميل ما نُظم في الياسمين قولُ الشَّاعر:
 كَانًا الياسمينَ الغضَّ لما أدرتُ عليه وسُطَ الرّوضِ عيني سماءٌ للزبرجيدِ قد تبدَّت لنا فيها نجيومٌ من لُجيْنن

⁽۱) الوافي بالوفيات (۱۰/ ۳۸۶ و ۳۸۰) ، وسير أعلام النبلاء (۲۱/ ۹۶ و ۹۰) ، وأعلام النبلاء (۲۱/ ۹۱ و ۹۰) ، وأعلام النساء (۱/ ۱۷۶ و ۱۷۰) ، والأعلام (۲/ ۲۸) ، والنجوم الزاهرة (۲/ ۹۲) ، وشنرات النهب (۲/ ۳۳۱ و ۴۳۷) ، والعبر (۲/ ۲۳۷) ، ووفيات الأعيان (۱/ ۲۹۷ ـ ۲۰۰) ، والروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص ۲۸۲) ترجمة رقم (۱۳۲) ، ونزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ۲۲ و۲۷) ، وتاج العروس (۱۳۲) ، وشاعرات العرب (ص ۳۷) وغيرها كثير.

 ⁽۲) من روائع ما نُظم في الأقحوان قولُ الشّاعر:
 والأقحوانةُ تحكي وهي ضاحكةٌ عن واضح غير ذي ظُلْم ولا شَنَبِ
 كَانَها شَمْسةٌ من فضةٍ حُرِسَتْ خوفَ الوقوع بمسمارٍ من الذَّهبِ

الخزامي، فيفهم الخزامي غزل عيون النرجس(١).

* ففي يوم منَ أيّام صفَر من سنةِ (٥٠٥ هـ) وُلدَتْ هذه السَّيدة الفاضلة في دمشقَ الفيحاء ، وسماها أهلُها تقيّة (٢) تيمّناً بهذا الاسمِ اللطيفِ الذي رَجَا أَنْ يكونَ لها شأنٌ عظيمٌ بين نساءِ أَهل المشرقِ خاصّة ، وبين نساءِ الإسلام بعامّة.

باقَىاتٌ منْ أُخْبِسارِهَا:

* تدلُّ أخبارُ ستِّ النَّعم تقيّة الصُّورية إلى أنَّ والدَها أبا الفرج غيثَ بنَ على الصُّوري الأرمنازيّ أحد علماءِ عَصْره الثّقات ، وكان خطيب^(٣) مدينةِ صُور ومحدثها (٤) ، وقد روى عن أبي بكر الخطيب ، ورحلَ إلى دمشقَ

(۱) ومن أروع ما نُظم في النّرجس قولُ الشَّاعر: وتسرىٰ البهارَ مُعانقاً لبنفسج فكانَّ ذلك زائرٌ ومَازُورُ وكانَّ نسرجِسَها عيونٌ كُحِّلَتُ بالنَّاعفرانِ جفونُها الكافورُ

(٢) «تقيّة»: منْ وَقَلْ ، يُقال وقاهُ اللهُ وقياً ووقايةً ، وواقيةً: صَانَه .

وفي الحديث: «فوقىٰ أحدُكم وجْهَه النَّار».

ووقًاهُ ما يكرهُ: حماهُ منه؛ وفي التَّنزيلِ العزيزِ: ﴿ فَوَقَنْهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَالِكَ ٱلْيَوْمِ﴾ [الإنسان: 11].

والتَّقي: المتَّقي. وقالوا: ما أَتْقَاهُ للهِ.

ورجلٌ تقي من قوم أتقياء وتُــقُواء.

ورجلٌ تقيّ معناه: أنَّه مُوقِ نَفْسَه منَ العذَابِ والمعاصي بالعمل الصَّالح ، وأصلُه من وقيتُ نفْسي أقيها. (لسان العرب ١٥/ ٤٠١) بتصرف واختصار.

وكما نقول: رَجَلٌ تقي نقولُ: امرأةٌ تقيّة ، وجمعُها تقيَّات.

(٣) «الخطيب»: هو الذي يخطبُ النّاس ويذكّرهم في الجُمع والأعياد ونحوهما، وكانتِ
 الخطبةُ في أوّلِ الأمْرِ من اختصاصِ الخُلفاء والأمراء. (صبح الأعشى ٥/ ٤٦٣).

(٤) «المحدّث»: يُطلق على الحافظِ لأحاديثِ النّبي ﷺ، ويكونُ عارفاً برواةِ الأحاديثِ عالماً بأسماءِ رجال السّندِ. (صبح الأعشى ٤/٤٦٤).

ومصرَ ، وعاشَ ستاً وستينَ سنة ، وتوفي سنة (٥٠٩ هـ)(١). وكان والدُها أبو الفرج هذا يُعْرفُ بابنِ الأرمنازيّ ، وكان خطيبَ صُور ، وأحدَ الفُضلاء الكبراءِ العُلماءِ ، وسمع من غيرِ واحدٍ ، وحدَّث ، وقد روىٰ عنه شيخُه أبو بكر بن الخطيب بيتَيْن من شِعْره (٢).

* وقد رضَعَتْ تقيّةُ لبانَ العِلْمِ منذ صِغَرها ، بَيْدَ أَنَّها لم تعقلْ أباها جيّداً عندما وافَتْه المنيّة ، فقد توفيَ أبوها وعمرها لا يتجاوزُ أربعَ سنين ، ولكنَّ ذلك لم يمنعُها من حبّ العلْمِ والأدبِ ، فنشأتْ في رحابِ الفَضْل والمكارم ، وغدَتْ واحدةً منْ أديباتِ وعالماتِ عَصْرِها اللواتي تركْنَ في الدّنيا دوّياً كبيراً ، وكُنَّ من مشاهيرِ نساءِ المشارقةِ .

* ويظهرُ منَ الأخبارِ القليلةِ التي وصلَتْ إلينا عن تقيّةِ الصُّوريّة هذه ، وكذلك الأخبارُ التي استخلصْنَاها من سيرتها أنَّها لما بلغَتْ مبلغ النّساء تزوَّجَتْ أحدَ أفاضل عصرِها ، ويُدعى فاضل بن سعد الله بن صمدون الصّوري المولود في شوّال سنة (٩٠ هـ) بدمشق ، والمتوفى سنة (٩٠ هـ) بلامشق ، والمتوفى سنة (٩٠ هـ) بالإسكندرية ، ويكنى بأبي محمّد ، فولدت له ابنه أبا الحسن على بن فاضل.

* وكان ولدُها تاج الدّين أبو الحسن عليّ بن فاضل ، وهو صوريُّ الأَصْلِ مصريُّ الدّار ، أحدَ العلماءِ الحفّاظِ^(٣) الكبار ، وكان فاضلاً في علم النّحو والعربيّة ، والقِراءات ، حيث قرأ علْمَ القراءات على أحمَد بن

⁽١) انظر: شذرات الذهب (٦/ ٤٠)، ووفيات الأعيان (١/ ٢٩٩).

⁽٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٩٥) الهامش بتصرف يسير.

 ⁽٣) «الحفّاظ» جمعُ حافِظ؛ والحافظُ: مِنْ ألقابِ المحدّثين ، وأصلُه منَ الحفْظ ضد
 النّسيان ، واختصّ بالمحدثين لاحتياجِهم إلى كثرةِ الحفْظ لمتونِ الأحاديثِ وأسماءِ الرّجال ونحو ذلك ، والحافظيّ نسبة إليه للمبالغة. (صبح الأعشى ٦/ ١٢).

جعفر الغافقيّ ، وأكثر عن السِّلفي ، وسمَع بمصرَ منَ الشَّريف الخطيب ، وكان رأساً في هذا الشَّأْن ، وكان حَسَنَ الخطّ ، جيِّد الضَّبط لما يكتبه ، وتوفي أبو الحسن هذا في شهرِ صفرَ سنة (٦٠٣ هــ)(١).

* وبعد هذا كلّه ، ألا تستحقُّ السَّيّدةُ تقيّة الصُّورية أنْ تكونَ ستّ النّعم؟! فهي أمُّ عالِم ، وزوجُ عالِم ، وابنةُ عالم ، بل وحفيدةُ عالِم حيث إنَّ جدَّها عليّ بن عبد السَّلام من علماء صُور ، وتوفي سنة (٤٧٨ هـ) في مدينة صور (٢).

مِنْ لَطَائِفِهَا الأَدبيّةِ:

* كانتِ السَّيدةُ تقية الصُّورية حاضرةَ البديهةِ ، ذكيةً لمّاحةً ، حَباها اللهُ عَقْلاً كبيراً ، وذهناً حاضِراً ، وفصاحةً نادرةً ، وأدباً جمّاً.

* وإذا كانَ المرءُ ذا أدبٍ يزينُه في الورى ، فإنّما العزُّ في الأحسابِ والآدابِ ، والنّاس معادنُ ، فهم كالفضّة أو الذّهب ، وما عدا ذوي الأدبِ والفضل فهم هَمَجٌ رعاعٌ ، ولله درّ القائل:

أكرِمْ بذي أدبِ أكرِمْ بذي حَسبِ فإنّما العزُّ في الأحْسَابِ والأَدبِ والأَدبِ والنّاسُ صِنْفَانِ ذو عقْلِ وذو أَدَبٍ كمعدنِ الفضّةِ البيضاءِ والذَّهبِ وسائرُ النَّاسِ منْ بين الورىٰ همَجٌ كانُوا مواليَ أو كانوا منَ العَربِ

* ولذا فقد كانت تقيّةُ أديبةً تحبُّ فنونَ الأدبِ ، وأصولَ اللسن ، لأنّها كانت تعرفُ بأنَّ الفصاحةَ أحسنُ لباسٍ يرتديه الإنسانُ ، وأحسنُ إزارٍ يتّزرُ به العاقِلُ ، والأدبُ صاحبٌ في الغربةِ ، ومؤنسٌ في القلّة ، ورفعةٌ في

⁽۱) انظر: شذرات الذهب (۲۰/۷)، ووفيات الأعيان (۱/ ۲۹۹) مع الجمع والتصرف.

⁽٢) «صور»: النّسبةُ إليها صُوري ، وهي بضمّ الصّاد ، وسكونِ الواو ، وهي مدينةٌ من ساحل الشّام.

المجالسِ ، وزينٌ في المحافلِ ، وزيادةٌ في العَقْل ، ودليلٌ على المروءةِ ، ومنِ استفادَ الأدبَ في حداثتهِ ، انتفعَ به في كِبَرِه .

* وقد انتفعتِ السَّيدةُ تقيّةُ الصُّورية منَ الأدبِ ، وكانَ لها مع الحافظِ أبي طاهر السَّلفي (١) لطائف أدبيةٌ تستحقُّ التَسجيل والمُذاكرة ، حيث إنَّ العَلاّمَةَ السِّلفيَّ نَفْسَه قد ذكرها في بعضِ تعاليقِه ، وأثنى عليها وكتَبَ بخطه ما مفادُه: «عثرتُ يوماً في منزل سكْنَاي ، فانجرحَ أخمصي ، فشقَّتْ وليدةٌ

(۱) «الحافظُ السِّلفي»: أبو طاهر أحمدُ بنُ محمد بن أحمد الأصبهانيّ ، أحدُ الحفّاظ المكثرين ، مسندُ الدنيا ، ومعمّر الحفّاظ ، وُلدَ سنة (۲۷٦ هـ) بأصبهان ، ورحل في طلبِ الحديثِ ، ولقيَ أعيانَ المشايخ ، وجابَ البلادَ ، وطافَ الآفاق ، ودخل ثغرَ الإسكندريّة سنة (۵۱۱ هـ) وكانَ قدومُه إلى الثّغر من مدينةِ صور ، وقصدَه النّاس ، وسَمعُوا عليه ، وانتفعُوا به .

_ قال ابنُ خَلَّكان: «ونقلتُ من خطّهِ فوائد جمّة ، ونقلتُ من خطّه لبُثَينة صاحبة جميل ترثيه:

وإنَّ سُلوِي عن جميلٍ لَسَاعةٌ سواءٌ علينا يا جميلُ بنُ معمرِ وكان كثيراً ما ينشد:

منَ الدَّهْرِ ما حانَتْ ولا حانَ حَيْنُها إذا مـتَّ بـأسَـاءُ الحيـاةِ ولينُهـا»

قالوا نفوسُ الدّارِ سكانُها وأنتمُ عندي نفوسُ النّفوس لنفوسُ النّفوس وأنتمُ عندي نفوسُ النّفوس وأماليه وتعاليقُه كثيرةٌ ، واستوطنَ الإسكندريّة بضْعاً وستينَ سنة مكبّاً على الاشتغالِ والمطالعةِ والنّسخ وتحصيل الكتُب ، وجاوزَ المئة ، ومكثَ نيفاً وثمانين سنة يُسْمعُ عليه.

ـ قـال الذّهبي: «ولا أعلمُ أحـداً مثلَـه في هـذا؛ تـزوَّجَ بالإسكندريـة امرأةً ذات يسارٍ فسلّمت إليه مالَها، وحصلت له ثروةٌ بعد فَقْرٍ ، وصارت له بالإسكندريّة وجاهةٌ».

_وقال ابنُ السّمعاني: «هو ثقةٌ ورعٌ متقنٌ متثبتٌ حافظ فَهِم ، له منَ العربية حظٌّ». توفيَ نهار الجمعة في (٥ ربيع الآخر) من سنة (٧٦ هـ) بثغر الإسكندرية. _ رحمه الله _. (وفيات الأعيان ١/ ١٠٥ و ١٠٦) و(شذرات الذهب ٢/ ٤٢٠ و ٤٢١) مع الجمع والتصرف.

في الدّار خِرقةً من خمارِها ، وعصبَتْ به جرحي ، فأنشدتْ تقيّةُ المذكورةُ في الحالِ لنفسِها تقولُ:

لَوْ وَجَدْتُ السَّبيلَ جُدْتُ بِخَدِي عِوضاً عَنْ خِمارِ تِلْكَ الوليْدَهُ كَيْفَ لَوْ السَّبِيلَ جُدْتُ الحميْدَهُ (١٠)» كَيْفَ لِي أَنْ أُقَبِّلَ اليومَ رِجْلًا سَلكَتْ دَهْرَها الطَّريقَ الحميْدَهُ (١٠)»

* قال القاضي شمسُ الدّين أحمد بن خَلِّكان _ رحمه الله _ معلّقاً على هذا البيتيْن اللطيفيْن لتقية: «نظرتُ في هذا المعنى إلى قولِ هارون بن يحيى المنجّم:

كَيفَ نالَ العَثارُ مَنْ لَمْ يَزَلْ مِنْ لَهُ مَيْوَلْ مِنْ لَهُ مقيماً في كُلِّ خطْبِ جَسيمِ أَو تمرقَّى الأذَى إلى قدم لم تخطُ إلّا إلى مقام كريم (٢٠)»

* ولتقيّة الصُّورية غيرُ ذلك أشياءُ حسَنةٌ ، وأشعارٌ جميلةٌ في مواضع شتّى ، فمن ذلك قولها في وصفِ مليح ، وحمرة خدّه الصَّحيح:

خدُّ مَنْ أهواهُ يحكي زُحَلًا صَبغُوهُ منْ دَمي كالعنْدَمِ ولمَاهُ عَسَلٌ فيهِ الشَّفَا وحماهُ كعْبَتي بل حُرمَتي (٣)

* وروى العمادُ الأصفهاني في ترجمة السَّلفي الأبيات الآتية ـ وفيها

⁽۱) انظر: شذرات الذهب (۲/۲۷)، والوافي بالوفيات (۳٤٨/۱۰) مع الجمع والتصرف اليسير.

⁽۲) وفيات الأعيان (۲۹۸/۱)؛ وانظر: الوافي بالوفيات (۲۱/ ۳۸۶ و۳۸۵)؛ وهذا يدلُّ على غزارةِ علْمِ تقيّة ، وحفظِها لأشعارِ القدماءِ ، وحسنِ تصرّفها في استخدامِ المعانى في شِعْرها.

⁽٣) انظر: الرَّوضة الفيحاء في تواريخ النِّساء (ص ٢٨٦). ومثل هذا قول بعضهم: وأهيد في خدتُه من من مناءِ وَرْدٍ يجوزُ الحسنُ فهو بلا شَبيهِ فلسو أخجلتُه بنالقولِ جهدي الحمرةِ خددٍ منا بنانَ فيه وقال آخر في هذا المعنى مقتبساً منَ القُرآن الكريم:

ونارُ خَدِيهِ التي أَضرِمَتُ عَدا بها كان لِقَلبِي غَرام اخترام اخترتُه مسولي هَذَا غُلام ﴾ اخترتُه مسولي هَذَا غُلام ﴾

ذِكْر لتقيّةً ـ وكتبَ بعضُ الأفاضل إليها ، وقد مدحت نَفْسَها:

ومَا شَرفٌ أَنْ يمدحَ المرءَ نَفْسَه ومَا كُلُّ حِيْنِ يصدقُ المرءَ قلبُه ولا كلُّ مَنْ ترجُو لغَيْبِكَ حافِظٌ

وَلَكِلَ أَفْعِلَا تُلذَمُّ وتُملدَحُ ولا كلُّ أصحابِ التّجارة تَربحُ ولا كلُّ مَنْ ضمَّ الوديعةَ يصْلُحُ

فكتبَتْ إليهِ:

تَعَيْبُ على الإنسانِ إظهار علْمهِ فَدتُكَ حَيَاتي قد تقدَّمَ قَبْلَنا وللْمُتنبّي أحرف في مديجه أروني فَتَاةً في زماني تفوقُني تقوقُني تقيَّة تُمْدَحُ الحَافِظَ السّلفيّ:

أبالجدِّ هذا منكَ أَمْ أَنْتَ تمزحُ الله لله الله تمزحُ الله مدحِهم قومٌ وقالُوا فأَفْصَحُوا على نفسهِ بالحقّ والحقُّ واضحُ وتعلُو على عِلمي وتهجو وتمدحُ (١)

* كانت السّيدةُ تقيّةُ الصُّوريةُ حسنةً من حسناتِ الدَّهْر ، وشاعرةً من شاعراتِ العَصْر ، وكانتْ لا تتكّلفُ في الشّعر ، وإنّما يأتي شعْرُهَا سجيّةً ، وعفو الخاطر ، وكانت شديدة الورعِ لا تقولُ منَ الشعرِ ما يتنافىٰ مع الأخلاقِ الفاضلةِ.

* ذكرَ ابنُ خَلَكان ـ رحمه الله ـ أنَّ تقيّة الصُّورية كانَتْ قد سألتِ الشَّيخَ الإمامَ العالم أبا الطَّاهر إسماعيلَ بنَ عوف الزُّهري عن الشِّعر فقال: «هو كلامٌ إنْ تكلمتِ بحُسنِ فهوَ لكِ ، وإنْ تكلّمتِ بشرِّ فهو عليكِ»(٢).

⁽١) انظر: خريدة القصر وجريدة العصر (قسم شعراء مصر ٢/٣٢٣).

 ⁽۲) معجم السفر للسلفي (رقم ۱۰۱). ومن الجديرِ بالذّكر أنّ السلفي كان شاعراً يقرضُ الشّعر ، وله أشعارٌ جميلةٌ مطربةٌ منها قوله:

* لذا آلت تقيَّة على نفسِها ألا تقولَ منَ الشِّعْرِ إلا الحسنَ اللطيف ، كيما يكتبُ لها ، ويشهدُ بمحاسنِ ألفاظِها وبراعتها.

* وكانت تقيَّةُ هذه تجلُّ الحافظَ السّلفيَّ وتحترمُهُ ، وكان السّلفي أحدَ الحفّاظ المكثرين عن الرّواة والشّيوخ ، كما أنّه قد روى عن تقيَّة وغيرِها منَ النَّساء؛ وكان يقرُّ لتقيةَ بأنَّها شاعرةٌ حسنةُ الإنشاءِ ويقول: «أنشدتني تقيةُ بنتُ غيث بن علي الأرمنازيّ الصّوري المدعوة بستّ النّعم بالثّغر ، ولم ترَ عيني شاعرة سِواها»(١).

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ تقيَّة قد مدحتِ السَّلفي في قصيدةٍ جميلةٍ بديعةٍ ، أظهرتْ فيها منَ البراعةِ وحسن النَّظم ما يشهدُ لها بالتفوّق في هذا المضمار ، حيث ذكرتُ كثيراً من الوردِ والزَّهْر في مدحِهِ؛ ومن هذه القصيدةِ الجميلةِ في الحافظ المذكور قولُها:

وَالرّوضُ مبتسمٌ بنورِ أَقَاحِهِ للمّا بكي فَرَحاً عليهِ غَمامُها

أَعْـوامُنـا قَـدْ أَشْـرقَـتْ أَيّـامُهـا وعَلا علىٰ ظَهر السِّماكِ خيَامُها وَالنّرجسُ الغَضُّ الذي أحداقه ترنُو فيفهم ما يقولُ خزامُها

> ليس على الأرضِ في زماني

> كه جبت طُولاً وعَرضاً

ومــــا ظفــــرتُ بِخِــــــلُّ

مَنْ شأنه في الحديثِ شَاني فیے علی رغے کل شانی

مــن غيــر غــل فــأرضــي

من جميل وبديع ما قيل في الرّوض والرّياض قول الشاعر :

وما رصَّع الـرَّبعـيُّ فيــهِ ونظَّمَــا فلم أذر في التشبيه أيهما سما

يخطمرن بيمن تمايمل وتبختُمر لسو أنَّمه يبقلي بقاءَ الجسوهسرِ ألستَ ترىٰ وشَيَ الرِّياضِ المُنمُّنَما وقد حَكَتِ الأرضُ السَّماء بنورها وقال الآخر:

هذي الرّياضُ كأنّهنَّ عرائسٌ فى جـوهـر فـاقَ الجـواهـرَ قيمـةً

وَشَقَائِقُ^(١) النُّعمانِ في وجنَاتهِ وبنفسج (٢) لبسَ الحِدادَ لحزنِهِ والجُلنارُ^(٣) علىٰ الغصونِ كأكْؤُسِ وغصونُ آسِ^(٤) شَبَّهَتْهُ عيونُـنُــا وكأنَّما زُهْرُ الرّياضِ عَسَاكر يبدي نسيم الصُّبح سرّ عبيرها يا صاح قُمْ لِسَعادةٍ قد أقبلتْ واجمع خواطِرنَا لِنَجْلُوَ فِكُرَهَا مَدْحُ الإمامِ علىٰ الأنام فريضةٌ

خَالَاتُ مسْكِ حاكَها رُقَّامُها أسفاً على مُهَج يزيدُ غَرامُها خـرطَـتْ عقيقـاً وَالنُّضـارُ مـدامُهـا غيــداءَ يثنــي قَـــدُّهَــا وقَــوَامُهــا فــي مــوكـــبِ منشــورة أعـــلامُهـــا فينهُ عن طِيْبِ بها نمَّامُها وتنبَّهَــتْ بعــدَ الكــرىٰ نــوّامُهَــا لمّا تجرَّدَ للقريضِ حُسامُهَا فخـرُ الأئمـةِ شيخُهـا وإمـامُهَـا^(ه)

هذي الشّقائق قد أبصرتُ حُمرتَها كَـانَّهُـا أَدْمُـعٌ قَـد غَسَّلَـتُ كُخُـلاً

من أجملِ الأشعارِ في البنفسج قول الصّنوبري:

وبنفسج غــضّ القِطــاف كـــأتـــه عُقِــدَتْ صــوالجــهُ فقــامَ مُــزنّــراً وقال ابنُ المعتز :

وكأنَّ البنفسجَ الغضضَّ يحكي

مما قيل في الجلنار وجماله ، ما قاله ابن سناء الملك: وجلَّنـــــــــارِ علـــــــى غُصــــــونٍ يحكمي الشراريب وهمي خضر وقال آخر:

> كانّما الجلّنارُ لمّا (٤) وممّا قيل في الآس:

> لــــلآس فضـــــلُ بقــــائِــــهِ ووفــــائِــــهِ قسامستُ على أغصسانِيهِ ورقساتُيهُ (٥) وفياتُ الأعيان (١/ ٤٦٩).

(١) ومن أجمل ما قيل في شقائق النّعمان قولُ ابن الرومي:

مع السُّوادِ على قُضبانها الـذُّلُـلِ جادتْ بهما وقفةٌ في وجنتَي خَجِلُ

من خالص الساقوتِ نوعٌ أزرقُ بيـــنَ الكُـــراتِ وبعضُـــه مُتَمنْطِـــقُ

أثـرَ القـرص فـى خُـدودِ الجَـواري

وكــــلُّ غصـــن بهـــنَّ مـــائـــسُ وهمو بأطرافها كبائس

أظه___رهُ الـ_رّوضُ للعيـون تنشــــــرُ لاذاً علــــــى الغُصـــــونِ

ودوامُ منظَـــرهِ علــــى الأوقــــاتِ كنصول نَبْلِ جَدْ مُسؤتلفاتِ

عِلْمِي بِهَ ذَا كَعِلْمِي بِهَذا:

* تدلُّ أخبارُ تقيَّة الصُّورية على مجدِها الشِّعريّ ، وعلى أفقِها الواسعِ ، وخيالِها الخصيبِ ، ناهيك بمعارِفها الواسعةِ ، وثقافتها الجميلة.

* من ذلك ما ذكرهُ ابنُ خَلّكان قال: "حكىٰ لي الحافظُ زكي الدّين أبو محمد عبد العظيم المنذريّ ـ رحمه الله ـ أنَّ تقيّة المذكورة نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفّر تقي الدّين عمر ابنَ أخي السّلطان صلاح الدّين ـ رحمهما الله تعالى ـ ؛ وكانتِ القصيدة خمرية ، ووصفَتْ آلةَ الخمر وما يتعلّق بالخمر ، فلما وقفَ عليها قال: الشّيخة تعرفُ هذه الأحوالَ من زمن الصّبا ـ فبلغَها ذلك ، فنظمَتْ قصيدة أخرى حربّية وصفَتْ بها الحرب وما يتعلّق بها أحسنَ وصْف ، ثمّ سيّرت إليه تقول:

«عِلْمي بهذا كَعِلْمي بهذا. وكان قصدها براءة ساحِتها مما نسبها اليه»(١).

* ومن شعرِ تقيّة في التّشوّقِ إلى دمشقَ الشَّام ، وكانت قد نأَتْ عن واديها الجميل ، وباتَتْ تساهر النّجوم ، فلعلَّها تغفو ، وترىٰ في الطّيفِ دمشقَ الجميلةَ الحبيبةَ ، فاسمعُ إليها تقول:

نأيتُ وما قَلْبِي عَنِ النّأي بالرّاضي فلا تَغْتَرِرْ منّي بصدّي وإعْراضِي وإنّـي لمشتَــاقٌ إليهــم متيّــمٌ وقَدْ طعنُوا قَلبِي بـأسمَر عـرّاضِ إذا مَــا تــذكّــرْتُ الشّــآمَ وأهْلَــهُ بكيتُ دماً حزناً على الزّمنِ الماضي

⁽۱) انظر: وفيات الأعيان (۲۹۸/۱)؛ وانظر: الوافي بالوفيات (۲۰/۳۸۰) ونزهة الجلساء في أشعار النساء (۱/۱۷۶) والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ۱۰۹)، والأعلام (۲۸/۲).

ومُذْ عَبْتُ عَنْ وادي دمشقَ كَأَنّني أبيتُ أُراعي النّجمَ والنّجْمُ راكدٌ فَهَلْ طارقٌ منهم يلمُ بناظري لَعَلَ الليالي أَنْ تجرّدَ صارماً

نَـزُّه الطَّـرفَ فـى دمشـقَ ففيْهــا

هي في الأرض جَنَّةٌ فتامَّلُ

كَمْ سَمَا في ربوعها كُلّ قَصْرٍ

وتناغيك بينها صارخات

كُلُّهِــا روضَــةٌ ومَــاءٌ زُلالٌ

يُقرِّضُ قَلبي كلَّ يوم بمقْراضِ وقد حَجبُوا عنْ مُقْلَتي طيبَ إغماضِ فإنَّ لقاءَ الطَّيفِ أكْثرُ أَغْراضي على البَيْن أو يقضي لها حَكمٌ قاضي (١)

* ولعلَّ أبياتَ تقيَّة الصّورية في التّشوّق لدمشق ، تذكّرنا بأبياتِ عائشة بنت يوسُف الباعونيّة المتوفاة سنة (٩٢٢ هـ) التي تقولها في دمشقَ الشَّام:

كُلُ مَا تَشْتَهِ ي وَمَا تَخْتَارُ كَيْفَ تَجْرِي مِنْ تحتِها الأَنْهارُ أشرقَتْ من وجوهِها الأقمارُ خَرسَتْ عن نُطْقِها الأَوتَارُ وقُصُورٌ مشيدةٌ وديَارُ

ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ تقيّةَ الصُّورية قد روى عنها من شعرِها أبو القاسم بن رواحة ، كما أنَّها مدحتِ السّلفي ـ كما مرّ معنا ـ ومدحت كذلك صاحب حماة بقصيدةٍ طويلة جميلة فأجازَهَا (٣).

منَ الفَاضِ الدُّ المُحْسِنَاتِ الحَالِدَاتِ:

* لما شمَّر المصنّفون أيديهم للكتابةِ عن نسائِنا في المشرقِ العربيّ ، ذكروا تقيّة الصُّورية هذه ، وأسبغوا عليها حُللَ الإنعامِ والاحترام ، وهي بلا شكّ تستحقُّ هذا وأكثر.

⁽۱) الوافي بالوفيات (۱۰/ ٣٨٥).

⁽۲) شذرات الذهب (۱/۱۰۹)، والكواكب السّائرة (۱/۲۹۲)، وشاعرات العرب (ص ۱۳۲) وغيرها.

⁽٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٥) ، والروضة الفيحاء (ص ٢٨٦).

* فقد نشأتُ تقيّةُ نشأةَ بناتِ العُلماء ، ونساء العلماء ، ونهلَتْ من علوم عصرِها ومعارف وقتها ما جعلَها واحدةً من مشاهيرِ النساء ، فقد كانت إحدى الشَّواعر الفاضلات المجيدات المُحسنات.

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ لما ترجم لها: «تقيّةُ بنتُ المحدّث غيث. . شاعرة مُحسنة مشهورة ، وهي والدةُ المحدّث علي بن فاضل بن صَمْدون (١).

* وفي "وفياتهِ" قال ابنُ خَلّكان: "أمُّ علي تقيّةُ كانت فاضلة ، ولها شعر جيّد ، قصائد ومقاطيع ، وصحبتِ الحافظ أبا الطَّاهر أحمد بن محمد السّلفي الأصبهانيّ ـ رحمه الله تعالى ـ زماناً بثغرِ الإسكندرية ، وذكرَها في بعض تعاليقه وأثنى عليها"(٢).

* وذكرها الحافظُ المنذريّ ـ رحمه الله ـ في ترجمةِ ابنها عليّ من «التّكملة» وقال: «وحدّثنا عنها شيخنا الحافظُ المقدسي وغيره، وكان شيخُنا أبو الحسن يثنى عليها كثيراً» (٣).

* بينما ذكرَها ابنُ العماد الحنبليّ في «شَذراته» بقوله: تقيّةُ بنتُ غيث بن عليّ الأرمنازي الشّاعرةُ المُحسنةُ ، لها شعْرٌ سائرٌ ، وكانت امرأة برزة جلدة ، مدحت تقي الدِّين عمر صاحب حماة والكبار ، ولها ابنٌ محدّث» (٤).

سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٤).

⁽٢) وفيات الأعيان (٢/ ٢٩٧). وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: «أنشدتني تقية بنت غيث بن علي الأرمنازي الصوري المدعوة بـ ست النعم بالثغر ، ولم تر عيني شاعرة سواها». (معجم السفر برقم ١٠١).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٩٥) الهامش.

⁽٤) شذرات الذهب (٦/ ٤٣٦).

* وفي «نزهَتِه» ترجم لها السُّيوطي فقال: «كانت فاضلةً ، ولها شعرٌ وقصائدُ ومقاطيعُ ، ذكرها السّلفي في بعضِ تعاليقه وأثنى عليها»(١).

* وفي كتابه الشَّهير الكبير «الوافي بالوفيات» أثنى عليها صلاح الدين الصّفدي فقال: «أمُّ علي الشَّاعرة تقيةُ...، هي أمّ تاج الدين أبي الحسن... كانت فاضلةً ولها شعْرٌ: قصائد ومقاطيع؛ وصحبتِ الحافظَ السّلفي زماناً بالإسكندرية»(٢).

* وأمّا ياسين بن خير الله العمريّ فقال عن تقية: «كانت أوحدَ أهلِ زمانها بالأدبِ ، ولها مشاركة في بعضِ العُلوم ، وأتقنتِ النّحو ، ولها شعْرٌ جيّد»(٣).

* وفي «دُرّها المنثور» نثرتِ السّيدةُ زينبُ بنت يوسُف فواز العامليّة هذه المعلومة فقالت: «تقيّةُ... ذكرها الحافظُ السّلفي في تعليقهِ ، وأثنى عليها ، وأخذت عنه العلم بثغرِ الإسكندريّة ، وفاقتِ الرّجال ، ولها زيادة على ذلك الباع الطّولي في الشّعر والأدب ، ولطائفها الأدبية مع الحافظِ المذكور كثيرة» (٤).

* وأدلى الزَّبيدي دلوه في الثَّناء عليها فقال: «تقيةُ الأرمنازية مجيدةٌ ، بديعةُ النَّظم» (٥).

* وقال عمر رضا كحّالة: «تقيةُ بنتُ غيث بن علي الأرمنازيّ الصّوريّ

⁽١) نزهة الجلساء (ص ٢٦).

⁽٢) الوافي بالوفيات (١٠/ ٣٨٤).

⁽٣) الروضة الفيحاء (ص ٣٨٦).

⁽٤) الدر المنثور (ص ۱۰۹).

⁽٥) تاج العروس من جواهر القاموس (١٠/ ٣٩٧).

شاعرةٌ مجيدةٌ بديعة النَّظم ، ولها قصائدُ ومقاطيعُ في ديوانِ صغير »(١).

* بينما نجدُ أنَّ خيرَ الدِّينِ الزِّركليِّ في «الأعلام» يصفُها بقوله: «تقيةُ بنتُ غيث بن علي السّلمي الأرمنازي أمِّ علي ، وتلقب بـ ستّ النّعم ، فاضلة متأدّبة ، لها شعرٌ جيّد ، قصائد ومقاطيع ، جمعت في ديوانِ صغير ، أصلُها من بلدةِ صُور ، وولدت في دمشق ، وسكنتِ الإسكندرية ، وتوفيت بها»(٢).

* هذا وقد أثنى عليها كُلّ مَنْ كتبَ عنها ، وامتدحَها بالفَضْلِ والأدبِ والبلاغةِ والبيانِ واللسنِ والفصاحةِ ، وهذا مما يزيدُ في رصيدِ نساءِ المشرقِ العربي في ميدانِ العلْم والأدبِ.

* أمّا عن وفاة تقيّة الصُّورية ، فنذكر أنَّ المنيَة قد وافَتْها في الإسكندرية في أوائل شهرِ شوّال من سنة (٥٧٩ هـ) وعمرها (٧٦ سنة) (٣) رحمها الله تعالى.

* * *

أعلام النساء (١/ ١٧٤).

⁽٢) الأعلام (٢/ ١٨).

 ⁽۳) وفيات الأعيان (۱/ ۲۹۹)، وسير أعلام النبلاء (۲۱/ ۹۰)، والوافي بالوفيات
 (۱۰/ ۳۸۵)، وأعلام النساء (۱/ ۱۷۵)، وغيرها كثير.

وقال الذهبي في «العبر»: عاشت (٧٤ سنة) وهو الصّواب ، فقد ذكر السّلفي أنّها وُلدتْ في المحرّم سنة (٥٠٥ هـ) والله أعلم.





زنيب نت أحرالمقدسية

- شيخة مسندة ، أنفقت عمرها في العلم والحديث والفقه ، حتى غدت عَلَماً في العلم والعمل والصلاح والتواضع .
- * واحدة من أساتذة العلماء والعالمات في عصرها ، ولها تلاميذ كثيرون كابن الخباز ، وابن الصائغ .





المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ العَذْرَاءُ:

* عاشَتْ هذه المرأةُ الصَّالحُة قرابةَ قَرنٍ مَن الزَّمان ، وكانت شيخةً مسندةً أنفقَتْ عمرها كلّه في طلبِ العلْمِ والحديثِ والفقْهِ ، حتى غدتْ من صَوالحِ نساءِ المشرق العربيّ عِلماً وعَمَلاً ، وصَلاحاً وتواضُعاً.

* لم تتخذْ هذه العالمةُ الشَّيخةُ زوجاً ولا وَلَداً ولا ابنةً ، وإنّما اتّخذتِ الكُتبَ صاحباً وأنيساً () ، والحديث النَّبويَّ جَليساً ، و[خير جليسٍ في الزَّمان كتاب] (٢) ، ولعلَّ اللهُ عزَّ وجلَّ قد أرادَ لهذهِ المرأة الخيرَ بذلك ، كيما تكونَ من حافظاتِ حديثِ نبيّه ﷺ ، وراويات الصَّحيح ، وناقلات العِلم.

* ولعلَّ شغفَ هذه المرأة المُسندة بحبِّ العلْم وحبِّ الحديث قد جعلَها منْ أشهرِ نساءِ وقْتِها بالرِّواية ، حتى إنَّ النَّاس قد نزلُوا بموتِها درجةً في الرّواية.

* هذه المحدثةُ العالمةُ هي زينبُ بنتُ أحمد بن عبد الرَّحيم المقدسيّة الصَّالحية ، المرأةُ الصَّالحة العذراءُ ، وتُعْرَفُ ببنتِ الكمال ، وتكنى أمّ محمد ، وأمّ عبد الله (٣).

 ⁽١) منَ الأشياءِ التي تسرُّ القلبَ والخاطِرَ ، أنَّه كان في بعضِ العُهودِ الماضيةِ مكانةٌ عظيمةٌ للكتاب النَّافع عند أهلِ الفتاةِ ، فكانت لا تُجهَّزُ العروسُ إلا يُجهَّزُ معها بعضُ الكتب الشَّرعيّةِ النَّافعة .

ـ ذكر الإمامُ الذّهبيُ ـ رحمه الله ـ أنَّ البِكْرَ كان في جهازها عند زفافِها نسخةٌ من كتابِ «مختصر المُزَني». (سير أعلام النبلاء ٢٣٣/١٤). نرجو اللهَ أن تعودَ هذه العادةُ النَّافعةُ في أيّامنا هذه ، وأنْ تتعظَ نساؤُنا وتنتفعَ بناتُنا ويَلْتفِتْنَ إلىٰ دينهنَّ لِيُصْلِحْنَ آخرتهنَّ.

⁽٢) هذا عجز بيتٍ للمتنبي وصدْرُه: [أعزُّ مكانٍ في الدُّنا سَرْجُ سَابح].

⁽٣) شذرات الذهب (٨/ ٢٢١)، وذيل العبر (٤/ ١١٧)، والوافي بالوفيات (١٥/ ٦٨)،=

* وبنتُ الكمالِ هذه مفخرةُ نساءِ الشَّام في العِلْمِ والرّواية ، حيثُ نهلَتْ. منْ عددٍ منَ العُلومِ الشَّرعّيةِ المتنوّعةِ عن مشاهيرِ العلماءِ وكبرائهم في ذلك الوقتِ ، وهذا ما يسجّل لها فَضْلاً عظيماً ، ويسجّل للمرأةِ المسلمةِ العالِمةِ أيضاً الفَضْل والفخر ، إذْ إنَّ ذلك دليلٌ على نضارةِ وحيويةِ الإسلامِ في كلّ زمانٍ ومكانٍ ، وكلّ عَصْر ومصْر.

* ومنَ المعروف أنَّ النِّساءَ هُنَّ شقائقُ الرِّجال ، وخصوصاً في الرّواية والتّحديث ، لأنَّ النِّساءَ مثلُ الرّجال في التّحمُّل للعلْم؛ ونجدُ مصداقَ ذلك من الهدي المحمديّ ، حيثُ حرصَ سيّدُنا وحبيبُنا رسول الله ﷺ على تعليم جماعةِ النِّساء ، وإسماعهن حديثَه الشَّريف ، فهن مُكلّفات بذلك منذ أنّ جهرَ ﷺ بالدَّعوةِ إلى اللهِ في مكّةَ المكرمةِ .

وأعلام النساء (٢/٢٤ _ ٥٠) ، والدرر الكامنة (١١٨/٢) ، والوفيات لابن رافع السّلامي (٢/٣١ ـ ٣١٦) ، وأعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين الصفدي (٢/ ٧١٧ و ٧١٣) ، ومرآة الجنان (٤/ ٣٠٥) ، والأعلام (٣/ ٦٥) ، والسلوك (٣/ ٥٧)، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٦) ترجمة رقم (٢٧٩) ، وغيرها.

⁽١) أُخرَجه الشَّيخان ، ومنَ الواضح في هذا الحديثِ الشَّريف أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد خصَّ بعضَ الكُبراءِ والأشرافِ بدعوتهِ ، خصَّ كذلك بعضَ الكبيرات والشَّريفاتِ بها

* وعلَّقَ محمَّد المنتصر الكتَّاني على الحديثِ السَّابق تعليقاً جميلاً فقال: «فما كادت تسمعُ المرأةُ العربيّةُ باسْمِها يُنادىٰ ويُهتفُ به حتى استجابَتْ للنّداء سَميعَةَ ، مُطيعةً ، خفيفةً ، مرحةً ، كلُّها آذانٌ وانتباه وأَلْسِنةٌ مجيبةٌ: لبيكَ لبيكَ يا داعي السّماء ، يا أيّها الأمين والصِّدّيق؛ لقد عرفْنَاك وليداً قد خُلِقَتْ بك الدّنيا خَلْقاً جديداً ، وعرفناكَ رضيعاً فكان اليُمْنُ والخيرُ مُصاحِباً لمرضعَاتِك ، وعرفْنَاك يافعاً فعرفْنا بك الطُّهر والعفاف ، ثم صِرْتَ زوجاً فكنْتَ فذّاً في قومك ، حُنواً وبرّاً ، ثمّ عرفناك أباً فعرفنا الأبوّة البرّة الكريمة لكرائم معززاتٍ مكرماتٍ ، لا عهدَ لنا بمثلها أبوة لمثلهنّ عذاري مدللات ، فمن مثلك أصلح للنذارة الصَّادقة ، والبشارة السّارة ، والقيادة الرّشيدة لهذه البشريّة الضّالة ، وإذا بالمرأة العربية تستزيدُ نذيرهَا الهادي ما تعرفُ به حقيقتها ، وتدركُ به غايتها من هذه الدّنيا ، وواجبها فيها ، والفروق بينها وبين مستعبديها منَ الرّجال ، وإذا بها تدرك وما يزالُ بها رمتٌ أنَّ الأصلَ واحدٌ ، والحقوق والواجبات مشتركة ، وأنهنَّ والرّجال شقائق ، فآمنتْ بهذا الدّاعي الحبيب الذي يُنذرُهَا وقومَها: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبُ مِّمَّا ٱكْنَسَبْنَ ﴾ [النساء: ٣٢]؛ و «إنّما النّساء شقائقُ الرّجال» (١).

* لذلك كانتِ المرأةُ العربيّةُ السَّبَاقة لهديِ النُّبُوة ودِيْن الحقّ ، قد سبقتِ الرِّجالَ جميعاً ، فكانت خديجةُ بنتُ خويلد زوجُ رسول الله ﷺ أوّلَ مستجيبٍ ومؤمنٍ ومشجّعٍ ، فكانت تقوّي قلبَه لِتَلقّي ما أَنْزلَ اللهُ عليه (٢).

أيضاً ، وهذا يدلُّ على مكانتهن ، واستقلال شخصيتهن ، وتلقيهن هذا الدِّينَ منذ اليوم الأوّل كالرجلِ سواء بسواء .

⁽١) أخرجه أحمد (٦/٦٥٦) ، وأبو داود برقم (٢٣٦).

⁽٢) عن كتاب: عناية النساء بالحديث النبوي (ص ١١ ـ ١٢) باختصار يسير.

* وتتابعتْ نساءُ الأمّة فيما تلا عَصْر النّبوة من عصورِ بالاستجابةِ إلى الدَّعْوةِ المحمديّة ، فكُنَّ سميعاتٍ مطيعاتٍ ، ورحْنَ يتعلمْنَ ويُعلِّمْنَ ، ولم يتركْنَ هذا الميدانَ يستأثرُ به الرّجال وحدهم ، وإنّما شاركْنَ فيه ، وكان لهنّ أطيبُ الأثرِ فيه .

* ولذا فإنه ينبغي أنْ يعتنيَ العلماءُ وأولياءُ الأمور بالنساء كما اعتنى بهنَّ النبي عَلَيْ والسَّلف الصَّالح ، فيأخذْنَ العلْمَ والرّواية ، ويتحملنَ ذلك كالرّجال لِيكُنَّ هادياتٍ مهتدياتٍ ، مفاتيحَ للخير ، فما من طاعةٍ تقومُ على الوجه الصَّحيح إلا بالعلْمِ ، والعلمُ منْ أفضلِ الطَّاعات على الإطلاقِ ، وهذا ما ذكرته أمُّ الدرداء العالمةُ الفقيهةُ حيث قالت: «لقد طلبتُ العبادةَ في كلِّ شيء، فما أصبتُ لنفسي شيئاً أشفىٰ منْ مجالسةِ العُلماء ومذاكرتهم»(١).

فما أحوج نساء هذه الأيّام لأمثالِ أمّ الدرداء من المربّيات العالماتِ الفاضلاتِ الزّاهدات^(٢)! ومثلِ زينب بنت أحمد التي نرصّعُ هذا الكتاب بأخبارها وسيرتها!!

زينَبُ ومَجَالِسُ العِلْم وشيُوخُهُ:

* وُلدَتْ زينبُ بنتُ أحمد المقدسية في دمشقَ سنةَ (٦٤٦ هـ) ، ويظهرُ أنَّ مولدَها كان في أسرةٍ يشيعُ فيها حبُّ العِلْم ، والاهتمامُ بالعلماء ، فتشيرُ

⁽١) المرجعُ السَّابق (ص ١٣) بتصرف يسير.

⁽٢) قال عبدُ الحميد بنُ باديس: ﴿إِنَّ الجهالةَ التي فيها نساؤُنا اليوم هي جهالةٌ عمياء ، وإِنَّ على أُوليائِهنَّ المسؤولين عنهنَّ إِثماً كبيراً فيما هُنَّ فيه ، وإِنَّ أهلَ العِلْم والإرثِ النَّبوي مسؤولون عن الأُمّةِ ، رجالِها ونسائِها ، فعليهم أَنْ يقوموا بهذا الواجبِ العظيم في حتى النساء بتعليمهن خلْف صفوفِ الرّجال ، وفي يومٍ خاص بهن اقتداءً بالمعلّم الأعظم ، ﷺ».

⁽هدي النبوة ص ١٣٣).

أخبارها إلى أنَّها قد أُحْضِرَتْ في صغرِها مجالسَ الحديثِ المنتشرة في دمشقَ آنذاك ، وكانت زينبُ إذ ذاك طفلة في الثَّالثةِ من عمرِها.

* ولعلَّ هذه المجالس قد أثَّرتْ في زينَب تأثيراً واضحاً ، وهي ما تزالُ صغيرة السِّن طريّة العُود، فنشأتْ ونشأ معها حبُّ العلْم ، فبعد أنْ أُحْضِرِت في صغرِها تلكم المجالس النّضرة ، أخذتْ تسمعُ فيما بعد بنفسِها على ثلة من حفّاظِ دمشق الشّام ومُسنديها ، ومن الواردينَ عليها من أكابرِ علماءِ الأمْصَار ومشاهيرِهم ، فقد سمعت كثيراً من الكُتُب والأجزاءِ الحديثيّة .

* ولزينبَ بنتِ الكَمال شيوخٌ كثيرون ، وشيخاتٌ أيضاً ، أخذَتْ عنهنَّ العلْم بطريقِ السَّماع.

* ومن أشهرِ شيخاتها: المحدّثةُ حبيبةُ بنتُ أبي عمر المقدسية ، وهي أوّلُ شيخةِ حضرَتْ زينب عليها ، وتحمّلت عنها بطريق السّماع؛ وذلك في سنة (٦٤٨ هـ)(١).

* ومن أشهرِ مشايخها الذين سمعت منهم وأجازوها: محمدُ بن عبد الهادي بن يُوسف المقدسيّ الصّالحي المتوفىٰ سنة (٢٥٨ هـ) حيث سمعت منه وأجازَها.

* ومن مشايخها أيضاً خطيب مُرْدا(٢) واسمُه محمدُ بنُ إسماعيل بن أحمد المقدسيّ الحنبليّ المتوفىٰ سنة (٦٥٦ هـ) حيث سمعتْ منه وأجازها أيضاً.

* وسمعتُ زينبُ بنتُ أحمد من سبُطِ الحافظِ ابن الجوزي وغيره أيضاً.

انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١١٧).

⁽۲) انظر: برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ۱۷٦).

* وهناك عددٌ من الحفّاظ والعُلماء الذين لم تستطعْ زينبُ أَنْ تَأْخذَ عنهم العِلْم بالسَّماع والتّلقّي؛ ولعلَّ السِّرَّ في ذلك هو بُعْدُ أوطانِهم ، وبُعْدُ الشُّقَة ، أو لأسبابِ أخرى؛ لذلك استجازَتْ عدداً من حفّاظ العَصْر ومحدثيهم المشاهير الأعلام في الشّامِ ، والعِراقِ ، ومصرَ ، ثم إنّها روَتْ عنهم بعد ذلك بالإجازةِ .

* ويزيدُ عددُ الذين استجازتهم زينب عن ثلاثين حافظاً وحافظة ، فمنَ العُلماء والمشايخ الذين استجازتهم: مسندُ بغداد المحدث إبراهيم بن محمود بن سالم بن الخير الأزجيّ البغداديّ الحنبليّ المتوفى سنة (٦٤٨ هـ) ، وأبو نَصْر الأعزُّ بن العُلِّيق البغداديّ المتوفى سنة (١٤٩ هـ) ، وسبطُ السّلفي المتوفى سنة (١٥٦ هـ) قد روت عنه كثيراً ، والإمامُ الحافظُ مسندُ الشّامِ أبو الحجاج يوسُف بن خليل الدّمشقي محدّث حلب المتوفى سنة (١٤٨ هـ) أوروت كذلك عن يوسف بن عبد الرحمن بن علي ولد الحافظ أبي الفرج بن الجوزي المتوفى سنة (١٥٦ هـ) ، وهي آخرُ مَنْ حدّث عنه بالإجازة (٢٥٠).

⁽۱) أبو الحجّاجِ يوسُفَ بنُ خليل بنِ قراجا بن عبدِ الله ، محدّثُ الشَّام الدَّمشقيّ الأَدَميّ السَّد الحنبليّ نزيل حلّب ، وُلِدَ بدمشقَ سنة (٥٥٥ هـ) ، وطلبَ الحديثَ ، وكتبَ ما لا يُوصفُ بخطّهِ المليح المُتقنِ ، ورحلَ إلى الأقطارِ ؛ وكان إماماً حافظاً ثِقةُ نبيلاً مُتُقناً ، واسعَ الرِّواية ، جميلَ السِّيرة ، متسعَ الرّحلة .

ـ قال ابنُ ناصر الدِّين: «كان منَ الأثمةِ الحفّاظ المكثرينَ الرَّحَّالين ، بل كانَ أوحدهُم فضْلاً ، وأوسعَهم رحلةً وكتابةً ونَقْلاً ، وهو طيّبُ الأخلاق ، مرضيٌّ الطَّريقة ، مِتقنٌ حافظٌ ، عالِمٌ بما يُقْرأُ عليه ، لا يكادُ يفوتُه اسمُ رجُلٍ ».

ـ وقال الذَّهبي: «روىٰ عنه خلقٌ كثير، وآخرُ مَنْ روىٰ عنه إجَّازةً زينبُ بنتُ الكَمَال». توفيَ سَحَر يومِ الجمعة منتصف جمادى الآخرة بحلبَ سنة (٦٤٨ هـ)، ودُفنَ بظاهِرها، ـ رحمه الله ـ. (شذرات الذهب ٧/ ٤١٩ ـ ٤٢١) بتصرف.

⁽٢) انظر: الذّيل على طبقاتِ الحنابلة (٤/٢١٦).

* ومن المحدّثات اللواتي استجازتهنّ زينبُ ، المسندةُ المحدّثةُ عجيبةُ البغداديّةُ المتوفاة سنة (٦٤٧ هـ)(١).

* ولزينبَ بنتِ الكمال شيوخٌ لا يُحْصَون ، وقد خرَّجَ لها محمّد بنُ يحيى بن أسعد أسماءَ مشيختِها في جزءَيْن ضخميْن ، وعن هؤلاء تلقّتْ زينبُ العِلْمَ سماعاً وإجازةً ، حتى غدت مسندة ذات شخصيةٍ متميزة ، يَشُدُّ إليها طلابُ العِلْم رحالَهم للاستفادة من علمِها.

* ومن العجيبِ في أخبارِ معظم هؤلاء العالمات المسندات أنهنَّ من المعمرات ، فقد باركَ اللهُ في أعمارهن وأوقاتهنَّ وأعمالهن ، حيث انتفع بهنَّ خلقٌ لا يحصون .

 « فقد عاشتِ العالمةُ المسندةُ زينب بنت الكمال حياةً طويلة ، قَضَتْها في طلبِ العلْم والحديثِ ، وأخْذِهِ من أعليائِهِ وأهلِهِ .

* وعندما شبّت زينبُ عن الطّوق ، واشتدَّ عودُهَا ، وصَلبَتْ قناةُ مرويّاتها ، وكثرتْ محفوظاتُها ، واحتاجَ النّاسُ إلى علمها ، هبّت تبذلُ المعرفة لطالبيها ، وأدّتُها كأحسنِ ما يكون الأداء بطريقةٍ محبّبةٍ إلى نفوس الطُلاب ، ولم يشغَلْها عن ذلك شيءٌ من مشاغلِ الدنيا ، وساعدها على التبحّر في هذا المجال المبارك الطّيب حياتها الطّويلة التي لم تتفرغْ فيها لزوج أو ولد.

* وتفرَّدَتْ زينبُ عن غيرها ممن عاصرها من النِّساء ، بجملةٍ كبيرةٍ من الأجزاء التي ترويها بالإجازةِ تُقَدَّرُ بحِمْلِ بعير ، وقد توافدَ عليها طلبةُ العِلْم،

⁽۱) عجيبةُ بنتُ الحافظِ محمّد بن أبي غالب الباقداري البغداديّة ، روتْ عن جماعةِ من العُلماء ، وتوفيتُ في صفر سنة (٦٤٧ هـ) ، وعمرُها (٩٣ سنة) ، ولها مشيخةٌ في عشرة أجزاء . (شذرات الذهب ٧/ ٤١٢).

وتزاحموا على بابِها ، فقرؤوا عليها الكُتُبَ الكبار ، والأجزاء الصِّغار ، وذلك في بيتها ، أو في الجامع الكبيرِ بدمشقَ ، وهو جامعُ بني أميّة.

* وقُرىءَ على زينب مشاهير الكتبِ والأجزاءِ التي ذكرهَا تلامذتها؟ ومن الكُتب التي قُرِئَتْ عليها: صحيح مسلم ، ومقدمةُ كتابِ الاستذكار لابن عبد البرّ ، ومسندُ أبي بكر الصِّديق ، وعوالي سعيد بن منصور عن يوسف بن خليل الدمشقيّ ، وكتبٌ كثيرةٌ لا تُحصى أوردَ بعضها عمر رضا كحالة في موسوعتهِ الشَّهيرة: «أعلام النِّساء»(١).

 « ونظرةٌ واحدةٌ إلى ما قُرِىء عند هذه العالمة ، نعرفُ إذ ذاك قَدْرَها ومكانتها في عالَم الإسنادِ والرّواية .

مكَانَتُهَا وقَدْرُهَا وأَخْلاقُهَا:

* ظلت زينبُ بنتُ الكمال المقدسيّة منهمكةً في طلبِ العلْم ، حتى اقتعدَتْ سُدّةَ الفَضْل بين نساءِ عصرِها ، ولما طعنَتْ في السِّن وكبرتْ ، علا إسنادُها وتفرَّدت بأشياءَ ، وعندها استجازَها عددٌ من محبّي الحديث وطلبته ، وعددٌ أيضاً منَ الطَّالبات المحدّثات ، أجازتهم ، وذلك على عادةِ الحفّاظ والمحدّثين في ذلك العصر.

* وقد تلقّى الحديثَ عن زينبَ المقدسيّة هذه عددٌ لا بأْسَ به من طلّاب العلم في عَصْرها ، في القرنيُن السَّابع والثَّامن الهجريَّيْن .

* وكان من الطّلاب قسمٌ سمع أو قرأً عليها ، ومنهم من استجازها فأجازتُه ، ومنهم مَنْ أحضرَه أبوه _ وهو صغيرٌ _ مجالسَ تحديثها ، كيما ينشّئه على حبِّ العلْم ، وليكون إسناده عالياً عندما يكبر.

⁽۱) أعلام النساء (۲/ ٤٧ ـ · · o).

* وقد تزاحمَ طلبةُ العلْمِ على بابِها ، وأخذوا عنها ، وسمعوا منها وخصوصاً من بلاد الشَّام ، ولعلَّ السَّبب في ذلك يعودُ إلى سماحتِها ، وطيب أخلاقها ، ولطفِها في التَّلقين والتَّعليم.

* ذكر ابنُ حجر _ رحمه الله _ جَانباً من أخلاقِها وتهافتِ طلبةِ العلْم عليها فقال: «وتزاحمَ عليها الطَّلبةُ ، وقرؤوا عليها الكتبَ الكبار ، وكانت لطيفةَ الأخلاقِ ، طويلةَ الرّوح ، وربّما سمعوا عليها أكثر النَّهار ، وكانت قانعةً متعفّفةً كريمةَ النَّفس ، طيبّةَ الخلق ، وأُصيبتْ عينُها برمدٍ في صغرِها ، ولم تتزوّجْ قطّ»(١).

* وقال ابنُ رافع السّلامي عن قَدْرها وأخلاقِها: «سهلةٌ في التَّسميع ، لطيفةُ الأخلاقِ ، كريمةُ النَّفس ، محبّةٌ للحديثِ وأهله ، طويلةُ الرّوح ، فتزاحمَ عليها الطلبةُ ، وربما سمعوا عليها أكثر النّهار ، من غير أنْ تُظْهِرَ ضَجَراً أو مَلَلًا»(٢).

أستاذة العُلَمَاء والعَالِمَاتِ:

* تذكرُ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن زينبَ بنتِ الكمال بأنَّها واحدةٌ من أساتذةِ العُلماءِ والعالماتِ في عَصْرها ، فقد سمعَ عليها عددٌ كبيرٌ منَ العُلماء يزيدون عن ثلاثين.

* ومن أشهرِ تلامذتها الذين سمعُوا عليها: أحمدُ بنُ إبراهيم بن عبد العزيز الدّمشقيّ المعروف بابنِ الخبّاز المتوفى سنة (٨٠١هـ)، وأحمدُ بن عبد الله بن محمد الأنصاريّ الدّمشقيّ المعروف بابن الصّائغ المتوفى سنة (٨٠٧هـ)، وسعيدُ بن عبد الله الدّهليّ البغداديّ المتوفى

انظر: الدرر الكامنة (٢/ ١١٧ و ١١٨).

⁽۲) الوفيات لابن رافع (۱/ ۳۱۸).

سنة (٧٤٩ هـ) كتب عنها الكثير^(١)، وكذلك عبدُ الله بنُ خليل بن أبي الحسن الحرستانيّ الدمشقيّ الصّالحي الحنبليّ المتوفى سنة (٥٠٨ هـ)، أُسْمِعَ عليها^(٢)، وغيرهم كثيرون جدّاً.

* أمّا تلميذاتُها اللائي سمعْنَها فهنَّ: تَتَر بنتُ محمّد بن أحمد التّنوخيّة (٣) ، سمعتْ منها. وخديجة بنتُ أبي بكر بن علي الصّالحيّة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ)(٤) ، سمعتْ منها موافقاتها ، وحدثَتْ بها عنها ، وسمع من خديجة الحافظ ابن حجر العَسْقَلاني.

* كما أخذت عن زينبَ المحدثةُ سارةُ بنتُ عليّ بن عبد الكافي السّبكي (٥) ، المتوفاة سنة (٨٠٥ هـ) ، أسمعَها أبوها منها وهي صغيرةٌ.

⁽١) انظر: الدّرر الكامنة (٢/ ١٣٤) ، وقال ابنُ حجر عنه: «رحلَ إلى دمشقَ ومصرَ والإسكندريةِ في طلبِ الحديثِ ، وكتبَ الكثيرَ عن بنتِ الكَمال».

⁽٢) الضّوء اللامع للسَّخاوي (٥/ ١٨).

⁽٣) تترُ بنتُ محمَّد بنِ أحمدَ التَّنوخيّة ، محدِّثة وُلدَتْ سنة (٧٣٤ هـ) تقريباً ، وسمعتْ من زينبَ بنتِ الكمال ، والشّهاب الجزريّ ، والشّبلي ، وغيرِهم ، وأجازت لأبي الفتح العثمانيّ سنة (٧٩٨ هـ) ، وحدّثَتْ وسمعَ منها الفُضَلاء ، ماتتْ في شعبانَ سنة (٨٠٣ هـ) . (أعلام النّساء ١٥/١٦) نقلاً عن (الضّوء اللامع ١١/١٥) و ١٦).

⁽٤) خديجةُ بنتُ أبي بكر بن عليّ الصَّالحيّة ، محدّثةٌ سمعتْ من محمّد بنِ يوسُف الحرّاني المُسَلْسَل ، وعن زينبَ بنتِ الكمال موافقاتها ، وحدَّثت بها . ماتتْ خديجةُ الصَّالحيّةُ هذهِ سنةَ (٨٠٣ هـ) _ رحمها الله _ . (أعلام النّساء ١/ ٣٢٤) نقلاً عن (الضّوء اللامع ٢٦/١٢).

⁽⁰⁾ سارةُ بنتُ عليّ بنِ عبد الكَافي السّبكيّ ، محدّثةٌ وُلدتْ سنةَ (٧٣٤ هـ) ، سمعتْ على مشْيَخةِ أبيها ، قال ابنُ حجر: «أُسمعَتْ من أحمدَ بنِ عليّ الجزريّ ، وزينبَ بنتِ الكمال ، وسمعتْ على أبيها أيضاً ، وتزوَّجَها أبو البقاء ، فلمّا ماتَ تحوّلَتْ إلى القاهرةِ ، ثمّ رجعَتْ إلى دمشقَ في أيّام سريِّ الدِّين ، وكان صاهرهَا ، ثمّ رجعَتْ إلى القاهرةِ ، فسمعنا منْها قديماً ، ثمّ في سنة موتها». =

* وهناك محدثة أخرى سمعتْ على زينب اسمها: ملكة بنتُ عبد الله بن إبراهيم المقدسيّة الصّالحية (١) المتوفاة سنة (٨٠٢ هـ) ، أُسمعتْ عليها موافقاتها تخريج البِرْزَالي.

* وأمّا الذين أجازتُهُم زينبُ بنتُ الكمال فكثيرون لا يُحْصَون ، ومعظمُهم منَ العِراق ومصرَ ومنهم: أحمدُ بنُ الحسن بن محمد السّويداوي القاهريّ الشّافعي أجازت له من دمشقَ ، وصلاح الدِّين خليلُ بنُ أيبك الصّفدي الذي ذكرَ أنَّها أجازتْ له سنة (٧٢٩ هـ) في دمشق (٢).

ومحمدُ بنُ محمد بن عبد اللطيف التّكريتي القاهري المعروفُ بابن الكويك ، وغيرهم كثيرون تجاوزوا خمسينَ عالماً ومحدّثاً.

* أمّا المحدّثات والعالِمات اللواتي أجازَتْ لهنّ زينبُ بنت الكمال ، فهنّ: رقيةُ بنت يحيى بن عبد السَّلام البصريّة المدَنيّة (٣) المتوفاة سنة (٨١٥ هـ). وستّ الكلّ بنتُ أحمد بن محمد القسطلانيّة المكيّة المعروفة

ماتتْ بالقاهرة في ذي الحجة سنة (٨٠٥ هـ) ، وقد جاوزتِ التسعين. (شذرات الذهب ٩/ ٧٩).

⁽۱) ملكةُ بنتُ الشّريف عبد الله بن العزّ إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسيّ الصّالحي ، قال ابنُ حجر: «أُحضرَتْ على الحجّار ، وعلى محمّد بن الفخر البخاريّ ، وعلى أبي بكر بن الرّضيّ ، وزينب بنتِ الكمال وغيرِهم ، وأجازَ لها ابنُ الشّيرازي ، وابنُ عساكر ، وابنُ سَعْد ، وإسحاقُ الآمدي ، وغيرهم ، وحُدثَتْ بالكثير ، وأجازتْ لي». توفيتْ في (۱۹ جمادى الأولى) سنة (۸۰۲ هـ) ، وقد جاوزتِ النَّمانين. (شذرات الذهب ۹/ ۳۲ و ۳۷).

⁽٢) أعيان العصر (٢/٧١٣).

⁽٣) رقيّةُ بنتُ يحيىٰ البصريّة محدّثةٌ وُلدتْ سنةَ (٧٢٦ هـ)، وأجازَ لها الحُفَّاظ: الذَّهبيّ، والبرْزَالي، والمِزّيّ، وابنُ سيِّد النَّاس، وزينبُ بنتُ الكمال، وغيرهم. وروتِ الكثيرَ وحدَّثت، وسَمِعَ منها الأئمةُ؛ وتوفيتْ سنة (٨٠٩ هـ)، ودُفِنَتْ بالبقيع بالمدينةِ المنوّرة. (أعلام النّساء ١/ ٤٥٩).

ببنت رحْمَة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ) ، أجازَتْ لها سنة (٧٣٦ هـ) مع جماعة من محدّثي الشّام. وكذلك شمسُ الملوكِ بنتُ محمد بن أبي بكر الدّمشقيّة (١) المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ) روتْ عنها. وفاطمةُ بنتُ محمد بن أحمد المقدسيّة الصّالحيّة المتوفاة في رمضانَ سنة (٨٠١ هـ)(٢).

ومنصورةُ بنتُ علي بن محمد الفاسيّة المكيّة المتوفاة سنة (٧٩٥ هـ)(٣).

* وهناك علماءُ وعالماتُ ومحدّثون ومحدثاتُ قد أخذوا عن زينب بنتِ الكمال ، ولكنَّ المصادرَ التي وصَلَتْ إلينا لم تستوفِ ذلك لصعوبةِ حَصْرِهم (٤) ، ولكِنْ قد أتينا على ذكْرِ طائفة منهم تروي الغُلّة ، وتفيدُ الدَّارس بإذن الله تعالى.

 ⁽١) شمسُ الملوكِ بنتُ ناصر الدّين محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ أبي بكر بن يعقوبَ بنِ الملكِ العادلِ الدّمشقيّة .

قال ابنُ حجر: «روتْ عن زينبَ بنتِ الكَمال ، وماتَتْ في شعبانَ سنة (٨٠٣ هـ) ولى منها إجازةٌ». (إنباء الغمر ٤/ ٢٨٠).

⁽٢) الضَّوءُ اللامع (١٢/ ١٠٠ و ١٠١).

⁽٣) العقد الثمين (٣١٨/٨).

⁽٤) للدكتور صالح يوسُف معتوق كلامٌ طيّبٌ في هذا المجالِ حيثُ يقول: «ومما تجدرُ الإشارةُ إليهِ هنا أَنْ يعلمَ القارىءُ أَنْ كُتُبَ التّراجمِ لا تذكرُ عادةً كلَّ الآخذين عنِ المترجم له ـ فإنَّه فوقَ طاقتِهم في أكثرِ الأحيان ـ لأنَّ بعضَ هؤلاء مَنْ لم يُعرفْ بعد ذلك بالعلْمِ ، فَخَملَ ذكْرُهُ ، أو لأنَّ مؤلّف كتاب التّراجم لم تصلهُ النسخةُ المقروءةُ على الشّيخ ، والتي أثبتَ فيها أسماءَ السّامعين والحضور ، وكيف يتأتّى له جَمْعُ هذه النسخ وهو يترجمُ للآلافِ ، وكلُّ واحدٍ من هؤلاء عقد عشرات المجالسِ العلمية طولَ حياته ، والكثير من هؤلاءِ المترجم لهم من بلدانٍ نائية عن بلدِ صاحب الكتاب. لذلك أقول: إنَّ عدم ذِكْر طالب عِلْم في ترجمةِ أحد الشّيوخ ، لا ينفي كونه من تلامذتهِ ، لا سيما إنْ عاشاً في عصرٍ واحد، وبلدٍ واحد ، أو أمكنَ لقاؤهما ، كما أنّه لا يجوزُ أَنْ نثبتَ تلمذته عليه لمجرّد ذلك ، دون أن يكونَ لدينا دليلٌ من كتبِ التّراجم الأخرى ، أو كتب الطّبقات والسّماعات» (جهود المرأة ص ٢٧٨).

المُعَمَّرَةُ الدَّيِّنةُ في سِجلِّ العَظَائِمِ:

* لم تتوقف هذه العالمةُ المحدّثةُ عن البحث الدَّؤوب وراء الحديثِ والفقْه والسّيرة ، فقد درست مُسْنَد أبي حنيفة ، والشّمائل للتّرمذي ، وشرح معاني الآثار للطّحاوي ، وقد أخذتْ معاني الآثار عن المحدثة عجيبة بنتِ أبي بكر.

* وقد طالَتِ الحياةُ بزينبَ بنت الكمال ، وعمرت حتى جاوزتِ التسعين عاماً ، وأجازَ لها خَلْقٌ من البغاددةِ والدَّماشِقة وغيرهم ، وتفرّدت وطالَ عمرُها ، واشتُهِرَ أمرها وذكْرها ، ولم تَخْلُ كتبُ العلماءِ والمصنّفين من تسجيلِ مآثرِها والثَّناء عليها ، ونَشْرِ فضائِلها وشمائِلها ، حتى إنَّ الرَّحالةَ المغاربة على علم بها وبصلاحِها وعلمِها ، ففي رحلتهِ الجميلةِ قال ابن بطوطة في الثَّناء على زينب وبيان مكانتها وقدرها: «الشَّيخةُ الصَّالحةُ رحلَةُ الدّنيا»(١).

 « وفي معجمهِ المختصّ سجَّلَها الذَّهبيُّ وأثنى عليها بقوله: «شيخةٌ صالحةٌ ، متواضعةٌ ، خيّرة ، متودّدة ، كثيرةُ المروءةِ ، لم تتزوَّجْ (٢٠).

* وسجَّلَها الذَّهبيُّ - مع الخالداتِ العالماتِ المُسندات - في موضع أخرَ من تصانيفِهِ المفيدةِ فقال: «مسندةُ الشَّام ، روتِ الكثيرَ ، وتزاحمَ عليها الطَّلبَةُ ، وكانت قانعة متعفّفة ، كريمة النَّفس ، طيّبة الخُلقِ ، ديّنة خيرة ، تفرَّدَتْ بقدْرِ وقْرِ بعيرٍ من الأجزاءِ بالإجازة» (٣).

 ⁽۱) رحلة ابن بطوطة (١/٣٣١) تحقيق د. علي الكتاني _ مؤسسة الرسالة _ بيروت _
 ط ٤ _ ١٩٨٥ م.

⁽٢) المعجم المختص بالمحدثين للذهبي (معجم الشيوخ) ترجمة رقم (٢٦٧).

⁽٣) العبر (٤/١١٧).

* وفي سجلِّ العظائمِ سجَّلها صلاحُ الدِّينِ الصَّفدي في «أعيانِهِ» وأثنىٰ عليها فقال: «زينبُ بنتُ أحمد المقدسيّة ، شيخةٌ مشيخةٌ مسندةٌ... أجازتُ لي سنة تسع وعشرين وسبعمئة بدمشق»(١).

* وذكرها ابنَ العماد في «شَذراتِه» ووصفَ خصائِلها وأثنى على صلاحِها وامتدحَها بقوله: «مسندةُ الشَّام أمُّ عبد الله زينب المقدسيّة المرأةُ الصَّالحةُ العَذْراء ، تكاثروا عليها _ أي طلبة العِلْمِ _ وتفرَّدتْ ، وروتْ كُتباً كِباراً» (٢).

* وفي «دُرره» قيَّد ابنُ حجر اسمَها وأثنى عليها فقال: «كانت ديّنةً خيّرةً... وكانت لطيفةَ الأخلاقِ ، طويلةَ الرّوح ، وكانت قانعةً متعفّفةً ، كريمةَ النَّفْس ، طيّبةَ الخُلُق»(٣).

* وكذلك فعلَ ابنُ رافع السَّلامي ، حيث سجَّلَها في «وفياتهِ» فقال: «الشَّيخةُ ، الصَّالحةُ ، المُسندةُ ، المعمرَّةُ ، انتفعَ بها النَّاس ، كانت صالحة عابدة ، كثيرة الصِّيام والصَّلاة ، وفعل الخير ، وحدَّثت بالكتُبِ الكبار»(٤٠).

* وقال أيضاً: «كانت لطيفةَ الأخلاقِ ، كريمةَ النَّفس ، محبّةً للحديثِ وأهله ، طويلَةَ الرُّوح ، فتزاحمَ عليها الطَّلبة» (٥).

وقال اليافعي في «مرآتِه»: «المرأةُ الصَّالحةُ العذراءُ ، مسندةُ الشَّام»(٦).

⁽١) أعيان العصر (٢/ ٢١٢) بتصرف.

⁽۲) شذرات الذهب (۸/ ۲۲۱).

⁽٣) الدرر الكامنة (٢/ ١١٧) بتصرف.

⁽٤) الوفات (١/٣١٦ و٣١٧).

⁽٥) المصدر السابق (١/ ٣١٨).

⁽٦) مرآة الجنان (٤/ ٣٠٥).

- * وقال عمر رضا كحالة: «زينب محدّثةٌ جليلةٌ»(١).
- * وهذه العالمةُ المسندةُ زينب عاشَتْ حتى بلغَتْ (٩٤ سنة) ، وماتت في (١٩ جمادى الأولى) سنة (٧٤٠ هـ) ، وقد جاوزتِ التسعين ، وكانت وفاتُها في دمشق (٢٠ ودُفنَتْ فيها.
- * قال ابنُ حجر في «الدُّرر»: «ونزلَ النَّاس بموتها درجةً في شيءِ كثيرٍ منَ الحديث حِمْل بعير»(٣).
- * وقال الذَّهبيُّ: «وتوفيت عن أربع وتسعينَ ، ونزلوا بموتها درجةً»(٤).
- * إنَّ امرأةً ينزلُ النَّاس بموتها درجةً لكبيرةُ القَدْرِ ، وحقَّ علينا أنْ نحفظَ سيرتَها ونعطّر بها المجالس ، وأن تكونَ أُنْساً للمُجالِس ، وشَحْذاً للأذهانِ ، وأن نرتبي بناتنا ونساءَنا على حبِّ العالماتِ والمحدثات أمثال هذه العالمة الكريمة الخيّرة المتودّدة ، حتى لا تخلو السَّاحةُ من الفاضلاتِ في جميع العصور والأحايين والأوقات .
- * فرحمَ اللهُ زينبَ بنت أحمد المقدسيّة ، وأسكنَها من الجنّةِ غرفاً ،
 وجعلنا وإيّاها منَ الذين تَشْمَلُهم رحمةُ الله تعالىٰ.

* * *

⁽۱) أعلام النساء (۲/۲).

⁽٢) قال المقريزي في «السلوك»: «وكانت وفاتها في ذي الحجة بالقدس عن أربع وتسعين ، حدثت بمصر والمدينة النبوية». (السلوك ٣/٥٧).

⁽٣) الدرر الكامنة (٢/ ١١٨).

⁽٤) المعجم المختص للذهبي ترجمة رقم (٢٦٧).





زنيب بنت أحدا لغري

* شبَّت على حبِّ القراءة والعلم ، ونهلت من ينابيع المعرفة ؛ حتى غدت من أشهر نساء عصرها ؛ فضلاً ، وعلماً ، وجودة خط ، وصلاحاً ، ودِيْناً .

* كانت شاعرة ناظمة ، وشعرها في المواعظ وغيرها في غاية الرقة والمتانة.





رَفَحُ بعب (الرَّعِ) (الْجَنِّي يَ رُسِكِي (الإِنْ) (الِوْروي رِي www.moswarat.com

من فضلياتِ النِّساءِ:

* وُلدتْ هذهِ المرأةُ الفاضِلَة في مدينةِ دمشقَ الفيحاءِ ، دمشق الشّام منجبة العُلماءِ الكرام ، وذات الحسنِ والبهاءِ والاحتشام ، والأدواح المتنوّعة ، وهي المدينةُ المستوليةُ على الطّباع ، المعمورةُ البقاع بالفَضْل والرّباع:

تَزِيدُ علىٰ مرِّ الزَّمانِ طَلاوةً دمشقُ التي رَاقَتْ بحلو المشَارِبِ
لَها في أَقالِيمِ البلادِ مَشَارِقٌ مُنزهةٌ أَقْمارُهَا عنْ مغَارِبِ
* وكم لَها من حُسْنِ ظاهر وكامِن ، و:

أمّ المشتقُ فجنَّةٌ لَعِبتْ بألبابِ الخلائقْ هي بَهْجةُ الحُسْنِ فائقْ هي بَهْجةُ الحُسْنِ فائقْ

* في هذه المدينةِ السَّاحرةِ ، كان مولدُ فاضلةِ مجيدةٍ ، وقد حدَّدهُ قريبُها في القرنِ العاشرِ الهجريّ ، في شهر ذي القعدة سنة (٩١٠ هـ).

* وكما تنشأُ بناتُ أفاضلِ العُلماء والفقهاءِ ، كانت نشأتُها ، حيث تغذَّتْ على العِلْم والأدب والفقه والدِّين.

* هذه المرأةُ الفاضلةُ سجَّلَت في ديوانِ العظائِم فقراتِ رائعاتِ للمرأةِ المسلمةِ المشرقيّة في القرنِ العاشرِ الهجريّ ، في الوقتِ الذي نَدرَ فيه أدبُ النِّساء وعِلْمُهنَّ ، وقلَّ وجودُ العالماتِ إلاّ شذرات هُنا وهنَاك.

* وعلى الرغم من هذا كلِّه ، فقد استطاعتْ ضيفةُ هذه الموسوعة ، أنْ تكونَ من ذواتِ الشَّأْن والنَّباهَةِ في بيئتها التي عاشَتْ فيها ، وهذه الفاضلة

هي زينبُ بنتُ محمد بن محمد بن أحمد الغزيّ الشَّافعية (١) إحدى كواكبِ نساءِ عَصْرها.

* وينتهي نسبُ زينبَ الغزيّة هذه إلى لُؤي بن غالب ، فهي قرشيّة عامريّة ، يتَّصِلُ نسبُها بنسبِ عامرِ بنِ لؤي بن غالب ، وذلك حسب ما ذكره نجم الدِّين الغزيّ في ترجمةِ والدها(٢).

* وإلى هذا النَّسب أشارَ جدُّها وهو رضي الدِّين الغزيّ حين أنشدَ في انتسابه لقريش ولعامر بن لُؤي فقال:

وأبُو الفَضْلِ كُنْيَتِي وانْتِسَابِي مِن قُريش لِعَامِرِ بِنِ لُـؤي

* ولو عدْنَا إلى أصْلِ زينب بنت محمّد الغزيّة هذه ، لألفينا أنَّها من غزّة ، وقد نزحَ أحدُ أجدادِها واسمُه ضوي بن شداد إلىٰ دمشقَ ، وفي دمشقَ الفيحاء الزَّهراء عُرِفَ بين أهلِها بالغزيّ(٣). وظلّ هذا اللقب عَلَماً يُعرف به ، وكذلك أبناؤه وذرّيتهُ من بعدِه.

زينَبُ والأسْرَةُ الكَريْمَةُ:

* ذكرتْ لنا المصادرُ التي تحدَّثت عن زينبَ الغزيّة ، بأنَّها نشأَتْ في بيتِ علْمٍ وأدبٍ ووجَاهةٍ ، فقد كانتْ أسرتُها من الأُسَرِ الكريمةِ الطّيّبةِ في دمشقَ ، وكان جدُّها من علماءِ الشَّافعيّةِ في دمشقَ في زمانه.

* فقد ذكرَ نجم الدِّيْن الغزيِّ هذا الجدِّ الكريم في «كَواكبِهِ» وأثنى عليه ، وأشارَ إلى أدبهِ وشمائِله فقال: «محمدُ بنُ أحمد الغزيِّ. . الشَّيخُ

⁽۱) الكواكب السَّائرة في أعيان المئة العاشرة للغزي (۳/ ١٥٤ و ١٥٥)، وشذرات النَّهب لابن العماد (۱۷/ ۵۷۱)، وأعلام النّساء (۲/ ۱۱۲ و ۱۱۳)، والأعلام للزّركليّ (۳/ ۲۷).

⁽٢) انظر: الكواكب السَّائرة (٣/٢).

⁽٣) انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحتى (١/ ١٣٥).

الإمامُ ، شيخُ الإسلام (١) ، المحقّقُ ، المدقّق ، العَلاَّمة ، العُمدة ، الحُجّة ، الفهّامة ، القاضي رضي الدّين أبو الفَضْل بن رضي الدّين الغزي الدّمشقيّ المولد والمنشأ والوفاة ، العامريّ القرشيّ الشَّافعي (٢) . . ».

وقال عنه أيضاً: «وله شعرٌ رائقٌ ، ونظمٌ فائق ، وأكثرَ في تقبّسه النّصائح والحِكَم والحقَائق» ، ومن قوله نَظْماً مضّمناً:

مَا كَانَ بِكُرُ عُلُومي قَطَّ يخطبُها إلا ذوو جدة بالفَضْل أَكْفَاءُ وغضَّ منه ذَوو جَهْلٍ مُعَانَدةً والجاهِلُون لأَهْلِ العِلْمِ أَعْداءُ (٣)

* وقوله في المعنى السَّابق:

يَا جَاهِلًا وهو لأَهْلِ العِلْم لا يُسَلِّمُ الرجع إلى الحق وإنْ سُئلتَ قُلْ لا أَعْلَمُ الرجع إلى الحق وإنْ سُئلتَ قُلْ لا أَعْلَمُ

* من هذه الأسرة الكريمة العالمة الأديبة تلقّت زينبُ الغزيّة معارفها وعلومَها ، وشبّت على حبّ القراءة وحبّ العلم ، حيث راحتْ تنهلُ منَ المعرفة ما استطاعَتْ إليه سبيلاً ، حتى غدتْ من أشهر نساء عَصْرِها ، وقد زانتْ عِلمَها بأنّها كانتْ كاتبة ذات خطّ جيّد حَسنِ ، في الوقتِ الذي يندرُ أنْ تُوجدَ فيه امرأةٌ قارئةٌ كاتبةٌ ، لذلك أثنى عليها الأكابرُ من العُلماء فقالوا: "كانتْ من أفاضلِ النّساء من أهلِ العلْم والدّين والصّلاح"(٤).

 ⁽۱) «شيخُ الإسلام»: من الألقابِ المركبة. واللقب من ألقابِ كبارِ العُلماء.
 وقد اشتُهر بهذا اللقب جماعةٌ من مشاهيرِ عُلماءِ المُسلمين في سائرِ الأمصار
 والأقطار. (صبح الأعشى ٧/ ٢٣٩ و٣٢٢) بتصرف.

⁽Y) الكواكب السائرة (Y/ T).

⁽٣) المصدر السابق (٢/٥).

⁽٤) الكواكبُ السَّائرة (٣/ ١٥٤) ، وشذراتُ الذَّهب (١٠/ ٧٧٤).

أَثَارَةٌ من مَعَارِفَها ونَظْمِهَا:

* لا نعلمُ كثيراً عن أخبارِ زينبَ الغزيّة هذه ، لأنَّ المصادرَ التي تحدَّثَتْ عنها قليلة ، لا تتجاوزُ في العدّ أصابع كفّ اليدِ ، ولأنَّها أيضاً لم تمدّنا بمعلوماتِ نستطيعُ من خلالها أنْ نحدِّدَ بعضَ معالمِ حياتها ، وملامح شخصّيتها ، ولكنّنا استطعنا أنْ نقتبسَ بعضَ الصُّورِ التي توضّحُ شيئاً من شخصّيتها ، وجانباً بسيطاً منَ حياتها (١).

* فقد كانت زينبُ الغزيّة واحدةً منَ العالماتِ المعروفاتِ في عَصْرِها ، وواحدةً منَ الفاضلات في دهْرها ، وكان خُلُقُها الورعُ والطُّهرُ والصَّلاحُ ، وقد تلقَّتِ العلمَ عن أبيها محمّد بن محمّد الغزيّ أحد علماء عَصْره وأفذاذ دمشق آنذاك ، وكانت تقرأ عليه كثيراً من علومِ الدّين ، كذلك كانت تقرأ على أخيها العلومَ والآدابَ.

* وتذكرُ المصادرُ التي وصلَتْ إلينا أنّها قرأتْ كُتُباً كثيرةً في الفقْهِ على والدِها، فقد قرأتْ «تنقيح اللباب» وقرأت في «المنهج» جانباً أيضاً ، ولعلّها قد قرأت كثيراً من كتبِ الدّين الأخرى ، ولكنْ لم تعيها ذاكرةُ التّاريخ.

* وكانت زينبُ الغزيّة بالإضافةِ إلى هذا كلّه أديبةً شاعرةً ناظمةً تجيدُ الشّعر وقرضَهِ ، وقد ذكروا أنّها كتَبَتْ لأبيها كُتُبَاً بخطّها (٢) الجميل الأنيق

⁽۱) من ذلك أنّها كانَتْ متزوّجةً من رجل اسمُه: أحمد البصرويّ ، وولدَتْ له ابنه محمّداً ، وقد ترجمَ له نجم الدّين الغزيّ فقال: «محمدُ بنُ أحمد بن محمّد القاضي أمين الدّين بن القاضي شهاب الدّين البَصْروي الشّافعي ، أحدُ الشّهود بالقسمةِ ، وكاتبُ الحرماتِ والأوقاف والمرستان ، كانت والدتُه الشّيخة الفاضلة زينبَ بنتَ الشيخ رضي الدّين الغزيّ الجدّ ، توفيّ يوم السّبت ، يوم عيد الأضحى سنة (٩٧٨ هـ) رحمه الله تعالى. (الكواكب السّائرة ٣/ ٤٨).

 ⁽۲) من نعم الله عز وجل التي لا تُحصى جمالُ الخط وحُسْنه ، ومما يزيدُ في رصيدِ
 زينب هذه جمالُ خطّها وأناقتُه وتناسقُه ، لذلك اختارَ والدها أنْ تكتبَ له بعض =

الكُتب؛ إذ الخطُ الحسنُ يزيدُ الحقَّ وضوحاً ويزيدُ من قيمةِ الكِتَاب ، وكانَ الكتابُ قديماً يجيدون كتابة المصنفات بل إن بعضهم كان يتأنّق فيها ويكتبُها بأبدعِ الخطوطِ وخصوصاً بعض الأحرفِ كاللام والألف ، وقد تبارى الشّعراءُ في هذا ووصفوا جمالَ الخطّ وجمال اللام والألفِ ، فقال بعضهم:

وقيسامُ السلام أيضـــاً كـــالألـــفْ

صارَ حرفاً واحداً لامٌ ألفُ

أَلِفُ القائم سررٌ عجيب فاذا ما اجتمعًا واعتنقا وقال أبو جعفر الإلبيري:

لق وامِه الألف التي جاءَتْ بحسنِ ما أُلِفْ عاءَتْ بحسنِ ما أُلِفْ عائقَ بحسنِ ما أُلِفْ عائقَ بحسنِ ما أُلِفْ ع عانقتُه فك أنّني لامٌ معانقة ألِف وقال آخر:

لا تعتبىنَ على تركِ السّلام فقد جاءتُكَ أحرفُ كَتْباً بلا قَلَم فالسّينُ من طرّتي واللامُ مع ألف من عارضي وهذي الميمُ ميم فمي الحسَدُ داءٌ قديمٌ ، وأعتقدُ أنَّه ليسَ له مِنْ دواءِ إلا أنْ يموتَ صاحبه ، أو تأتيه نفحةٌ إلهيّة تنقذُه من هذا الدّاء الخبيثِ المدمّر ، ومنَ المعروفِ أنَّ الحَسَد أوّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ فيه في السَّماء ، كما أنَّه أوّلُ ذَنْبٍ عُصِي اللهُ فيه في الأرض.

ـ وقد أكثرَ القُدماء في ذمّ الحسدِ ، وفي الحديث عن الحسَدِ قال الحماسيّ :

بيضاءُ آنسةُ الحديثِ كَأَنَّها قمرٌ توسَّط جنح ليلٍ مُبْردِ موسومةٌ بالحسنِ ذاتُ حواسدِ إنّ الحسَانَ مَظِنَّه للحُسَّدِ و«الحُسَّد»: جمعُ حاسدِ وحاسدةِ ، والمعنى: إنّ الحسناء مظِنّةٌ لأنْ تُحسدَ علىٰ حُسنِها ، وكذا كلّ مَنْ له فضيلة ما ، أو مزيةٌ ما ، فهو مظنّة لأنْ يُحسد كما يقال: «كلّ ذي نعمةِ محسود». ومن ثم يمتدحُ بكثرةِ الحسّاد ، ويذمُّ بقلّتِهم ، لأنَّ وجودَ الحسّادِ كنايةٌ عن وجودِ الفَضْل والنّعمة كما قيل:

إنْ يحسـدونـيُّ فـإنّـي غيـرُ لاثمهـم قَبْلي منَ النَّاس أهلُ الفَضْل قد حُسِدُوا=

الذين تعجّبوا من علمهِ وفَضْله وبلوغهِ الغايةَ في الخشيةِ والمعرفةِ فتقول:

جَمِعِ العِلْمِ وَاكْتُمَلِ يُتْبِعُ العِلْمَ بِالعَمَلِ بنشاط بلل كَسَاطِ أبددَ الدَّهْرِ لدم يَدرَلْ ليسس ذا الفضل بالحيك بكَم الأزل مرز الأزل فَلَهُ قَطْ مِا وصَلْ

إنَّما العَالِمُ السَّدِي قــامَ فيــهِ بحقّـهِ سهـــر الليــل كُلّــه فه و فی الله ِ دأْبُسه حــازَ عِلمـــاً بخشْيَــةِ حـــاســدوه تعجَّبُــوا ذاكَ مـــــولاهُ خصَّـــه مَــن يَــرُمْ مشبهاً لــه أو بُلــوغــاً لِفَصْلـــهِ

فدامَ لي ولَهم ما بي وما بهم أ أنا الذي يجدوني في صُدورهم ـ وقال عمّار بنُ عقيل بن بلال بنِ جرير :

مـا ضـرّنـي حَسَـدُ اللثـام ولـم يــزلُ ـ وقال بشّار بنُ برد:

لا عشتُ خلواً من الحسّاد إنّهم أبقى لى الله حسادي برغمهم ـ وقال محمود الورّاق:

أعطيتُ كلّ النّاس منّى الرّضا لا أنّ لي ذنباً ليديه علمتُه ـ وقال ابنُ أبى طاهر:

ولم يـزلُ ذو التقـص مـن نقصـهِ ـ وقال الآخر :

إنّ العرانينَ تلقاها محسّدةً ـ وقال الآخر :

ومساتَ أكثــرُنــا غيظــاً بمــا يجـــدُ لا أرتقــــي صَـــــــدْراً منهــــــا ولا أرِدُ

ذو الفَضْــل يحســـدُه ذوو النُّقْصـــان

أعز فقداً من اللاثبي أحبّوني حتى تموتُوا بداءٍ غير مكنونِ

إلا الحسود فإنه أعياني إلّا تظـاهــر نعمــةِ الــرحمــنِ

يحســـ دُ ذا الفَضــل علـــى فضلـــهِ

ولسن تسرى للشام التساس حُسسادا

ونعمةُ اللهِ مقرونٌ بها الحَسدُ

- فهو شيْخي وسيّدي وبه ِ النَّفْعُ لي حَصَلْ (١)
- * ولقد أجادتْ زينبُ فيما شاءَتْ ، وشِعْرهَا جميلٌ في المواعظِ (٢) وغيرِها ، وهو في غايةِ الرّقة وحسنِ السَّبْك والمتَانَةِ ، وإن كان يطغىٰ عليه صفة شِعْر العُلماء.
- * وكانت زينبُ من أعاجيبِ العَصْر ، وأفاريدِ الدَّهر ، اتَّصلَتْ بمنلا كمال ، وبالقاضي شهاب الدِّين البصرويّ...
- * وعاشت زينبُ الغزيّة سبعينَ سنة ، حيث وافَنْها المنيّةُ في عام (٣٠) هـ)(٣) ، وكانت وفاتُها بدمشقُ ، ويبدو أنّها دُفنت في مقابرِ أهلها.
- * رحم اللهُ زينب بنت محمد الغزيّة ، وأحسنَ نُزلَها ، إنّه سميع مجيب.

* * *

يا ناصرَ الدِّينِ يابنَ الكشْك يا ذا الجودُ بسَّك تعاني اللبن فهْمك هو المقصودُ

اسمعُ أقول لك نصيحة تطربُ الجلْمُود يصير بـالَـك ومـالَـك والـذّكـا مفقُـود (الكواكب السّائرة ٣/ ٥٣)

⁽۱) الكواكبُ السَّائرة (۳/ ۱۰۵)، وشذرات الذَّهب (۱۰/ ۷۷۶)، وأعلام النَّساء (۲/ ۱۱۳).

⁽٢) منْ شعرِ زينبَ الغزيّة في المواعظِ ، أنّها نصحتْ محمدَ بن أحمد المعروف بابن الكشك ، وكان قد عَرضَ له أكل الأفيون ، وهو لبنُ الخشْخَاش ، وغلبَ عليه ، فكتتْ إلىه تنصحه:

⁽٣) انظر المصادر السابقة جميعها.





ست الوزراء التنوحت

- * كانت مُسندة عصرها ، سمعتْ من أكابر علماء عصرها العلم ؟ حتى غدت من المتفردات في الرواية ، وممن شُدَّت الرحالُ إليها كي يسمعوا منها ، ويأخذوا عنها الحديث.
- * كانت ديِّنة ، متزهدة ، حسنة الأخلاق ، وكانت طويلة الروح على المحدِّثين .





رَفَحُ معِس الْارَّحِيُ الْلَجْسَّيَ الْسِكْتِي الْانِدُرُ الْإِنْووكِ سِكِتِي الْانِدُرُ الْإِنْووكِ www.moswarat.com

الشَّجَرَةُ الطَّيِّبَةُ:

* في ظلالِ العِلْمِ وتحتَ أفيائِهِ ، وبينَ رحابِ الحديثِ وعلومِهِ ، كانتْ حياةُ ستّ الوزرَاءِ بنت عمر بن أسعد بن المنجي ، التّنوخيّة ، الدّمشقيّة (۱) ، الحنبليّة ، العَالِمة المحدّثة ، التي بَعُدَ صيتُها في فَنّ التّحديثِ ، وطارتْ شهرتُها في الرِّوايةِ وتدريسِ صحيحِ البُخاري .

* وستُ الوزرَاءِ هذه تُدعى أحياناً باسم "وزيرة" (٢) ، وتكنى أمّ عبد الله ، وأمّ محمد ، وأحياناً تُدعى: أمّ وزيرة ، وتكنى أمّ محمد ؛ وفي "تاج العَروس" للزَّبيدي: "ستّ الوزراء وزيرةُ بنتُ عمر بن أسعد بن المنجي "(٣).

* وفي رحابِ مدينةِ دمشقَ الفيحاءِ كان مولدُ العالمةِ الفاضِلَةِ ستّ الوزراء ، وذلك في أواخرِ الرّبع الأوّل من القرنِ السَّابع الهجريّ ، فقد ولدت في أوّل سنَة (٦٢٤ هـ)(٤).

⁽۱) الوافي بالوفيات (۱/۷۱۰) ، والدرر الكامنة (۲/۹۲) ، والنجوم الزاهرة (//2))) وأعلام النساء (//2 (//2 (//2 (//2 (//2 (//2))) وأعلام النساء (//2 (//2 (//2))

⁽۲) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ۱۷۵).

⁽٣) تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي.

⁽٤) الوَّافي بالوفيات (١٥/١١٧).

* وبين أحضانِ أُسْرَةٍ حضَنَتِ العِلْمَ ، وورثَتُه كابراً عن كابرٍ ، كانت نشأةُ ستّ الوزراء ، فقد فتحتْ عيناها على العِلْمِ وأهلهِ بين أهلِها وذويها . . . فقد كانت أسرتُها واحدةً من الأُسَرِ الدّمشقيّة التي تحلَّتُ بالعِلْمِ والفَضْل ، وعُرِفَت بالصَّلاح ، والتّفقُّه بالدِّيْنِ ، وعِلْم القضَاء ، وحبِّ روايةِ الحديث .

* ويحدّثُنا تاريخُ أسرتها الوضيء أنَّ أباها وأبا أبيها ، قد بلغًا في العِلْمِ الغاية القُصوى ، والمكانة العُليا ، وطاولاً الثُّريا في مجدِ القضاء والفقْه والحديثِ والمسائل.

* فوالدها: شمسُ الدِّين عمر بنُ أسعد بن المنجي بن بركات التّنوخيّ المعريّ الحرّاني المولد ، الدّمشقيُّ الدّار والوفاة ، القاضي ابنُ القاضي وجيه الدّين أسعد.

* نشأ أبوها وتفقّه على والده قاضي الدَّولة النُّورية ، وكان مولدُه سنة (٥٥٧ هـ) ، وقدمَ دمشقَ ، وسمَع بها من القاضي أبي سَعْد بن أبي عَصْرون وغيره ، ثمَّ رحلَ إلى العراقِ وخراسانَ وسمعَ ببغدادَ ، وأفتى ودرَّسَ ، وكان عارفاً بالقضّاء ، بصيراً بالشُّروط والحكومات والمسائل الغامضات ، صَدْراً ، نبيلًا ، وولي قضاء حرّان قديماً ، واستوطنَ دمشقَ ، وحدّثَ عنه البَرزَالي ، وابنُ العديم وغيرهما ؛ وتوفي في (١٧ ربيع الآخر) سنة (١٤٦ هـ) ، ودُفِنَ بسفح جبل قاسيون ـ رحمه الله ـ (١٠).

* وأمّا جدُّها أسعدُ بنُ المنجّي بن بركات بن المؤمّل التّنوخي المعريّ ثمّ الدّمشقيّ الحنبليّ القاضي وجيه الدِّين ، كان أحد أعلامٍ عَصْره وأعلياء دهرِه. وُلدَ سنة (٥١٩ هـ) ، وسمع بدمشقَ وبغدادَ على أكابرِ العلماء ،

⁽١) شذرات الذهب (٧/ ٣٦٤ و٣٦٥) ، وذيل الروضتين (ص ١٧٣).

وتفقَّه ببغدادَ على مذهبِ الإمام أحمد ، وسمعَ منه جماعة منهم: الحافظ المنذري ، وابن خليل وغيرهما. وله تصانيف منها: «الخلاصة في الفقه» و «العُمدة» و «النّهاية في شرح الهداية». وتوفي في (١٨ ربيع الأول) سنة (٢٠٦ هـ) ودُفِنَ بسفح جبل قاسيون بدمشق رحمه الله (١٠٠).

* وكان عمُّ أبيها عبد الوهاب التنوخي من المحدّثين الكبار ، والعُلماءِ المعروفين ، فقد حدَّثَ في دمشقَ الشَّام ، وأجازَ للمنذري ، وماتَ في سنة (٦١٥ هـ).

* في أجواء وأفياء هذه الأسرة المتعلّمة العالمة كانت حياة وتربية ستّ الوزراء التّنوخيّة ، وعلى مائدتها ترعرعَتْ ونمَتْ حتى غَدَتْ من المُسندات الكبار.

* وكان والدها القاضي عمر قد اعتنى بفتاتِهِ الصَّغيرة ستّ الوزراء منذ طفولتها المبكّرة ، فأسمعَها وهي في الصِّغر جزءَيْن في علْمِ الحديث ، كما سمعتْ منه أيضاً فوائد عبد الرحمن بن نصر الدّمشقي ، وأمالي الحافظ الخطيب البغدادي.

مُسْنِدَةُ عَصْرِهَا:

* ستُّ الوزراء بنتُ عمر الدّمشقيّة إحدى نساءِ الشَّامِ والمشرقِ العربيّ عِلْماً وفقْهاً وروايةً ، فقد كانت مسندةَ العَصْر ، سمعتُ من أكابرِ علماءِ عَصْرها العِلْمَ حتى غدتْ من المتفرّدات في الرِّواية.

* فلقد سَمِعت «الجامع الصَّحيح» ، صحيح البخاري ومسند الإمام ______

⁽۱) شذرات الذهب (۷/ ۳۲ و ۳۷) ، وذيل طبقات الحنابلة (۲/ ٤٩ ـ ٥١) مع الجمع والتصرف.

الشّافعي من أبي عبد الله الحُسينِ بنِ المبارك بن محّمد بن الزَّبيدي (۱) البغداديّ الأَصْل ، الحنبليّ القارىء بالرِّوايات الفقيه في المذْهَب ، المفتي الأديب المصنّف ، كان فقيها فاضِلاً ، ديّنا خيّراً ، حسنَ الأخلاق ، متواضعاً ، حدَّثَ ببغدادَ ودمشقَ وحلبَ وغيرِها ، وسُمِعَ منه صحيحُ البخاري وغيرهُ من كتُبِ الحديث الشَّريف.

* ولمْ تذكرِ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن ستّ الوزراء سوى ابنِ الزَّبيدي من مشايخها الذين سمعَتْهم وتلقَّتْ عنهم. ولعلَّ لها عدداً آخرَ من العُلماء والمحدّثين قد روت عنهم ولمْ تذكرُهم المصادرُ ، ولعلَّ هناك إشارات لأساتذتها في ثنايا بعضِ المصادر ممن سمعَتْهم ، أو أجازوها ، كما كانتِ العادةُ في ذلك العَصْر ؛ إذ لا يُعْقَل أنْ تكونَ هذه السَّيِّدةُ الجليلةُ القَدْرِ مسندة العَصْر ، ولم تتلقَّ العِلْمَ إلا عن شيخِ واحد؟!

* أغلبُ الظَّنِ أنّه كان لها أساتذةٌ كبارٌ أخذتْ عنهم الرّواية والعِلْم، لأنَّ لها تلامذةً كبارُ القَدْر أخذوا عنها.

* ومنَ الجدير بالذّكر أنّه كان للنّساء في عَصْرِ ستّ الوزراء وما قبلها عناية برواية وتدريس صحيح البُخاري ، وممن اشتُهِرنَ في هذا المجالِ المباركِ ثلّة من النّساء العالماتِ ، ومنه نّ: كريمة المروزيّة (٢) ، وفاطمة بنتُ محمّد التي كان الفقهاء والمحدّثون يسمونها ويذكرُونها بمسندة أصبهان ، ويقولون عنها: «عمّرت وتفردَت بأشياء» وقد روت صحيح البخاري عن سعيد بن أبي سعيد العيّار ، وتوفيت فاطمة بنتُ محمد هذه سنة (٥٣٩ هـ).

برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ١٧٥).

⁽٢) اقرأ سيرتها بتوسع في هذا الكتاب.

* وممن حلَّقت في هذا المجالِ أيضاً شهدة بنتُ الإبريّ ، وكانت في الحديثِ سنَداً وأصحابُ التراجم والسِّير والمحدّثون يقولون عنها: «خطّاطة ، وسند الحديث ، وفَخْر النّساء ، ومسند العراق...» توفيت شهدة سنة (٥٧٤ هـ)(١).

* ومنهنَّ زينبُ بنتُ عبد الرحمن المتوفاة سنة (٦١٥ هـ) ، والتي انقطع بموتها سنَدٌ عالِ ، كما أشار ابنُ العماد إلى ذلك .

* ومنهن شريفة بنت أحمد النسوي ، وضيفتنا ست الوزراء وغيرهن كثيرات من مثل: زينب بنت مظفّر المتوفاة في سنة (٧٠٩ هـ) ، وأمّ الخير أمّة الخالق الأصيلة المعمّرة المتوفاة سنة (٩٠٢ هـ) ، والتي تُعرف بلقب «خاتمة محدّثات الحجاز»(٢).

سِتُ الوزراء ورواينة الحديث:

* إنَّ سجلَّ ستِّ الوزراء العِلْميِّ حافلٌ بصفحاتٍ نَضِراتٍ في نَشْرِ الحديثِ والعلْم على أكابرِ علماءِ عَصْرها.

* وتُعتبرُ هذه المرأةُ العالمةُ من أكثرِ نساءِ القرنَ الثّامن تحديثاً بصحيح البخاري. قال صلاحُ الدِّين الصِّفديّ عن ذلك: «حدَّثَتْ بالصَّحيح مرّات، وفازَتْ من ذلك بالصِّلاتِ والمَبَرَّاتِ» (٣). وقال ابنُ كثير عن تحديثها بالصَّحيح: «راويةُ صحيح البخاري وغيرِه» (٤).

* ولما اشتُهرتْ ستُ الوزراء بالرِّواية صارت رِحْلَةَ زمانِها ، ورُحِلَ

⁽١) اقرأ سيرة شهدة ومروياتها في هذا الكتاب.

⁽۲) انظر كتاب: عناية النساء بالحديث النبوي (ص ۸۵ ـ ۸۷) باختصار وتصرف.

⁽٣) أعيان العصر (٧١٨/٢).

⁽٤) البداية والنهاية (١٤/ ٧٩).

إليها منَ الأقطار يسمعون منها صحيحَ البخاري وغيره.

* وطار صيتُ ستّ الوزراء في الآفاقِ ، فطُلبت إلى مصرَ للتَّحديثِ في سنة (٧٠٥ هـ) ، وهناك سمع منها الأميرُ سيفُ الدِّين أرغون النّائب ، والقاضى كريم الدِّين الكبير ، الذي وصَلَها بشيءٍ منَ المالِ.

* قال المقريزيّ: «وحدَّثت بصحيح البُخاري في القاهرةِ ومصرَ وقلعةِ البُخاري في القاهرةِ ومصرَ وقلعةِ الجبل سنة (٧٠٥ هـ)(١).

 « وقال ابنُ جابر الوادي آشي: «سمعَت البخاري على ابنِ الزَّبيدي ، ومسندَ الشَّافعي وروتهما بالشَّام وديار مصر» (٢) .

* وقال صلاحُ الدِّين الصَّفدي: «وطُلبتْ إلىٰ مصر ، وسمعَ منها الأمير سيف الدِّين أرغون والقاضي كريم الدِّين الكبير»(٣).

* ومن الجديرِ بالذّكر في تواريخِ النِّساء المحدّثات أنّه لم يُعْلَمُ أنّ امرأةً استقدمَتْ للتّحديث في مصر من الشّام غير ستّ الوزراء ، التي كانت متفرّدة بعصرِها في هذا المجالِ الرَّحب المبارك.

* وكانَ بعضُ طلبةِ الحديث النّبويّ ومحبّيه قد سمعَ عليها صحيح البخاري كاملًا ، وبعضُهم قد سمعَ شطْراً منه ، وبعضُهم سمعَ عليها كتاباً من كتُبه ، أو باباً من أبوابه ، بيد أنَّ هناك أشخاصاً لم يقرؤوا عليها ، وإنّما طلبُوا استجازتها بروايته عنها فأجازتهم (٤).

* وامتدَّتِ الحياةُ بستِّ الوزراء ، حتى عُدَّتْ من المسنداتِ المعمرّات

⁽١) انظر: السلوك (٢/ ١٧٠).

⁽۲) برنامج ابن جابر الوادي آشي (ص ۱۷۵).

⁽٣) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).

 ⁽٤) جهود المرأة في رواية الحديث (ص ٢٠٣) بشيء من التصرف.

اللواتي باركَ اللهُ في أوقاتهنَّ وأعمارهنَّ ، وشُدَّتِ الرِّحالُ من سائرِ الأقطار نحو دمشق الشَّام كي يسمعُوا عليها ، ويأخذوا عنها الحديث.

* وكانت ستُّ الوزراء آخرَ مَنْ حدَّثَ بمسندِ الشَّافعي وصحيح البخاري سَماعاً بالإسناد العالي عن والدها وابن الزّبيدي.

* ومنَ العجيبِ والممتع في آنِ واحدِ في سيرةِ ستّ الوزراءِ العالمةِ المحدثةِ المسندةِ أنَّه لم تفتُرُ همّتُها خلالَ سِنيّ حياتها الطّويلة التي أربت على التسعين ، وكذلك لم يشغلها عن العِلْم والتحديثِ زوجٌ أو ولَدٌ ، على الرّغم من أنَّها قد تزوَّجَتْ بأربعةِ رجال ، كان رابعُهم نجم الدّين عبد الرحمن بن الشّيرازي ، وكان لها ثلاث بنات(۱).

غير أنّ هذا كلّه لم يفُتَّ من عزمها عن تبليغِ الحديثِ لطلابه ، والعلْم لأهلهِ ومحبّيه.

* وتذكرُ أخبارُ ستّ الوزراء التي وصلَتْ إلينا من المصادر بأنّها ذهبت مرتَيْن في حياتِها إلى الدِّيار المقدِّسة لأداءِ فريضة الحج ، ولا نعلمُ متى حجّتْ ، وهل حدَّثت هنالك أمْ لا.

* أغلبُ الظَّنّ أنّ هذه السَّيّدةَ الفاضلةَ الجليلةَ القدر ، كانت تنثرُ الدُّرر الحديثيّة في كلِّ مكانِ تكونُ فيه ، حيث رُزقتْ همّةً عاليةً ، وعزيمةً قويةً ، فلقد ذكرُوا أنّها حدَّثت في يوم وفاتها (٢٠).

تَلامِذُتُهَا وَالمحَدِّثُونَ عَنْهَا:

* إِنَّ امرأةً عالمةً محدثةً متمكنةً من ناصيةِ التّحديثِ جديرٌ بأنْ يؤمّ جامعتَها العلمية كبارُ طلاب العِلْم في عصرها ، وكبارُ مشاهير العلماء ،

⁽١) أعيان العصر (٢/ ٧١٨) ، والوافي بالوفيات (١٥/ ١١٧).

⁽٢) معجم الشيوخ للذهبي؛ ترجمة رقم (٣٢٣).

كي يتعلّموا منها ممّا علمها الله ، وكي ينشروا العلْمَ في البلادِ ، وفي كلِّ مكان يحلُّونَ فيه .

* ومنْ أشهرِ تلامذتها منَ العُلماء ممن أخذوا عنها: الحافظُ الذّهبيُّ الذي طارتْ بشهرتهِ الآفاقُ ، وبَعُدَ صيته في الشّرقِ والغرب ، وكان شيخَ المشَايخِ والعلماءِ والأدباءِ في عصره ، قال صلاح الدّين الصّفديّ: «قرأً عليها شيخُنا الذّهبي مسندَ الشّافعي ، وهي آخرُ مَنْ حدَّث بالكتابِ»(١).

كما سمع منها أبو هُريرة ابن الذَّهبي ، والحافظُ العلائي ، وابن رافع السُّلامي ، وجمالُ الدِّين بن قاضي الزَّبداني وخلقٌ كثير .

* وتعتبر ستُّ الوزراءِ من أكثرِ محدّثات عَصْرها تلامذة ، فقد بلغ عددُ الآخذين عنها بطريق السَّماع قرابة تسعينَ رجُلاً وامرأة ، حدّثوا عنها بالشَّامِ ومصرَ ، منهم: أحمدُ بنُ عبد الوهّاب بن محمّد النُّويري المتوفىٰ سنة (٧٣٣هـ)؛ ومحمدُ بنُ إبراهيم بن محمّد الواني الدّمشقيّ المتوفىٰ سنة (٧٣٥هـ) الذي سمع وقرأ عليها ثلاثيات صحيح البخاري ، وكتاب التوحيد من الصَّحيح ، وجميع صحيح البخاري وغير ذلك؛ ومحمّد بن رافع بن هَجْرس السّلامي المتوفى سنة (٧٧٤هـ) وغيرهم كثير.

* ومنَ النّساء اللاتي سمعْنَ منها: جُويرية بنت أحمد بن محمد الهكاريّة المحدّثة المولودة في (٤ رمضان) من سنة (٧٠٤ هـ) والمتوفاة سنة (٧٨٣ هـ) ، فقد سمعت من ستّ الوزراء صحيح البخاري^(٢) ، وكذلك فاطمةُ بنتُ أحمد بن محمّد الجزريّ المتوفاة سنة (٧٦٦ هـ) سمعت منها.

⁽١) أعيان العصر (٧١٨/٢).

⁽۲) أعلام النساء (١/ ٢٢٦ و ٢٢٧).

* وأجازتْ ستّ الوزراء عدداً من علماءِ وعالماتِ عَصْرِها ، ومنهم : محمّدُ بن جابر الوادي آشي المتوفىٰ سنة (٧٤٩ هـ) ، فقد ذكر في برنامجهِ أنّها أجازتْه كما أجازتْ فاطمة بنت محمّد بن أحمد بن المنجي التّنوخية الدمشقيّة المولودة سنة (٧١٢ هـ) ، والمتوفاة سنة (٨٠٣ هـ) (١).

* إنَّ هذه الأعداد الكبيرة من تلامذتها العلماء ، لَتدلُّ على مكانتها في عالَم المحدِّثاتِ الرّاويات ، ومكانتها في عالَم النّساء العالماتِ ، ممّا جعل كثيرينَ من أعلياءِ العُلماء والمصنفين يثنون عليها ، ويُشيرون إلى قَدْرِها ومكانتها ، وطولِ روحِها على طلاب العلْم ، كما يشيرون إلى أخلاقِها الحسنة في التَّعليم والإحازة.

سِتُ الوزراء في سجِلِّ العُلَمَاء:

* هذه الشَّيخةُ ذات القَدْر الكبيرِ والعلْمِ الغزير واحدةٌ من العالماتِ المشرقيّات المعمّرات اللاتي بلغْنَ من الكبرِ عتياً ، حيث زاد عمرها عنِ التسعين عاماً ، وهمّتها كلّ يوم في ازدياد ، لم يُؤثَرْ عنها أنّها ضجرت من أحدِ طيلةَ حياتها التي امتدت إلى (٩٢ عاماً) ، حيثُ توفيت في المها (١٨ شعبان) فجأة؛ وذلك في سنة (٧١٦ هـ)(٢) ، ودُفنَتْ في تربةِ أهلها فوقَ جامع المظفّري بقاسيونَ في دمشقَ؛ وبموتها فَقَدَ أهلُ الشَّام عالمةً عظيمةً قَلَّ أنْ يجودَ الزَّمانُ بمثلها.

* وعندما رحتُ أطالِعُ سيرةَ حياتها ، ألفيتُ أنَّها امرأة نادرة المثال ، فقد اجتذبَتْ _ بما حبَاها الله من علم _ ثناءَ كبارِ العُلماء والمصنّفين الذين

⁽١) الضّوء اللامع (١٢/ ١٠١).

 ⁽۲) ذكر ابن جابر الوادي آشي في برنامجه أن ست الوزراء قد توفيت في سنة (۷۲۲ هـ)
 بدمشق. (برنامج ابن جابر الوادي آشي ص ۱۷۵).

انهالوا ـ وهم يترجمون لها ـ بذكرِ شمائلها وفضائِلها ، وأجمُعوا على أنَّها تتصفُ بالعلْمِ والصَّلاحِ والخيرِ والفضْلِ والحسَبِ والدِّين والأخلاق ، وهانحنُ أولاء نوردُ بعض ما سجَّلَه أولئك العُلماء وما أثنوا وشهدوا لِسِتّ الوزراء في مصنّفاتهم وكتبهم.

* يطالعُنا العلامةُ ابن كثير في «بدايته» عن ستّ الوزراء ، وينعتُها بالصَّلاح فيقول: «الشَّيخةُ الصَّالحةُ ؛ ستّ الوزراء ، روايةُ صحيح البخاري وغيره ، جاوزتِ التَّسعين سنة ، وكانت منَ الصَّالحات»(١).

* وقال ابنُ تغري بردي في «الدَّليل» عن ستِّ الوزراء وقد نعتَها بالمسندة: «الشَّيخةُ المعمَّرة المسندةُ أمُّ عبد الله التّنوخيّة الدّمشقيّة الحنبليّة» (٢٠).

* وأثنى عليها في «نجومه» فقال: «السَّيدةُ المعمَّرةُ أمَّ محمد ستُّ الوزراء المعروفة بالوزيرة ، صارت رِحْلَةُ زمانها ، ورُحِلَ إليها منَ الأقطار»(٣).

* وفي موضع آخر قال ابنُ تغري بردي عنها: «السّيدةُ المعمَّرةُ ، الصَّالحةُ المسندةُ ، صارت رِحْلة زمانِها ، ورُحِلَ إليها من الأقطار (٤).

* وفي «الذَّيل» يسجّلُ ابنُ رجب الحنبليّ مآثرَ ستّ الوزراء وخلالَها الجميلة ، وخصائِلَها الطَّيِّبة ، ويصفُها بأنَّها الصَّالحةُ المسندةُ الدَّينة الطَّيِّبة فيقول ما ملخصُه عنها: «ستُّ الوزراء أمُّ عبد الله... الشَّيخةُ الصَّالحةُ المسندةُ المعمّرةُ التّنوخيّة الدّمشقية... تفردَّت في وقتِها ، وروتِ الكثيرَ

⁽١) البداية والنهاية (١٤/ ٧٩) بشيء من الاختصار.

⁽٢) الدليل الشافي (١/ ٣١٢) ترجمة رقم (١٠٦٠).

⁽٣) النجوم الزاهرة (٩/ ٢٣٧) ، والمنهل الصافي (٥/ ٣٨٢).

⁽٤) النجوم الزاهرة (٩/ ٢٣٧) ، والمنهل الصافي (٥/ ٣٨٢).

بدمشق ومصرَ ، وكانت طويلةَ الرُّوحِ على المحدَّثين ، ديّنة طيّبة الأخلاق»(١).

* وفي «معجَمه» سجَّلَها الذَّهبيُّ فيمن قرأً عليهِ الصَّحيح ، وأثنى على عليمها وأخلاقِها ودْينها فقال: «شيخةٌ ديّنةٌ ، متزهّدةٌ ، حسنةُ الأخلاق ، روتِ الكثيرَ ، وعمّرت ، سمعَتْ أباها وابنَ الزَّبيدي ، وكانت آخر منَ حدَّثَ بمسندِ الشَّافعي. قرأتُ عليها الصَّحيحَ ومسندَ الشَّافعي. حدَّثَ عنها ابن الخبّاز في مشيخته ، قال: وقد روتْ يوم وفاتِها وفاجأها الموتُ (۲).

* وفي «برنامجِه» أثنى عليها التَّجيبي فقال: «الشيخةُ الحسيبةُ الفاضلةُ الطَّاهرة» (٣).

* ووصفَها ابنُ العماد بأنَّها مسندةُ الوقتِ ، ويقول: «مسندةُ الوقتِ ستّ الوزراء ، كانت على خيرِ عظيم» (٤).

* بينما نعتَها خيرُ الدِّينِ الزِّركليِّ بالفِقْه والحديثِ ونقل ما سجّله كبارُ المصنّفين عنها فقال: «ستُّ الوزراء... أمِّ محمّد، وتدعىٰ بوزيرة، فقيهةٌ محدّثةٌ ، دمشقيّةُ المولد والوفاةِ ، حدَّثَت بصحيح البخاري وبمسندِ الشَّافعي ، في دمشقَ ، ثم بمصرَ سنة (٧٠٥هـ) ، عرفها المقريزي بالمسندةِ المعمّرة؛ وقال ابن تغري بردي: صارت رحلة زمانها ، ورُحِلَ بالمسندةِ المعمّرة؛ وقال ابنُ العماد: مسندةُ الوقتِ كانت على خيرٍ عظيم ... »(٥).

⁽١) الذيل على طبقات الحنابلة (٢/ ٤٦٩).

⁽٢) معجم الشيوخ ، ترجمة رقم (٣٢٣).

⁽٣) برنامج التجيبي (ص ١٢٠).

⁽٤) شذرات الذهب (٨/ ٧٣ _ ٤٧).

⁽٥) الأعلام (٣/ ١٢١).

* وأثنى عليها اليافعيُّ في «مِرآتهِ» فقال: «مسندةُ الوقتِ كانت على خير...» (١).

* بينما نَجِدُ المقريزيُّ يقولُ في «السُّلوك» عنها وقد وصفَها بالمسندة : «ستّ الوزراء. . . المسندةُ المعمّرة ، حدَّثَتْ بصحيحِ البخاري في القاهرةِ ومصر وقلعةِ الجبَلِ سنة (٧٠٥ هـ)»(٢).

* وفي مصنّفاته الرَّائعة اللطيفة ، سجَّل صلاحُ الدِّينِ الصَّفدي خِصَالَ ستّ الوزراء ، الشَّيخَةُ الوزراء ، الشَّيخَةُ الصَّالحةُ المعمّرة مسندةُ الوقتِ ، كانَتْ ثابتةً طويلةَ الرُّوح على طولِ المواعيد» (٣).

* وسجَّل الصَّفديُّ أيضاً في «أعيان العَصْر» خصائلَ ستّ الوزراء بأسلوبه الآسر السَّاحر ، فقال:

"ستُ الوزراء الشَّيخةُ الصَّالحةُ المعمَّرةُ ، مسندةُ الوقتِ أمُّ عبد الله التنوخيّة الدّمشقية الحنبليّة . . . سمعتِ الصَّحيح ومسندَ الشَّافعي . . . كانت مسندة العَصْر ، وفريدةَ الرّواية في القَصْر ، رُزِقَتِ الحظّوة الباهرة ، وطالَتْ بذلك النُّجوم الزّاهرة ، فحدَّثت بالصَّحيح مرّات ، وفازَتْ من ذلك بالصِّلاتِ والمبرات ، وكانت ثابتةً على طولِ التَّسميع ، مديدةَ الرُّوح على الشُّروط وما يطرأُ عليها من التّفريع ، إلا أنّها انثالت عليها الجوائز ، ولم تكنْ كمن عداها منَ العجائز ، ولم تزلْ على حالِها إلى أن لم تجدْ ستّ الوزراء من الموت وزرا ، وصال الدَّهْرُ على أهلِها بفقدها وزَرَىٰ "(٤) .

⁽١) مرآة الجنان (٤/ ٥٥).

⁽٢) السّلوك (٢/ ٢١٥).

⁽٣) الوافي بالوفيات (١١٧/١٥).

⁽٤) أعيان العصر (٢/ ٧١٨).

* وذكرها عمر رضا كحّالة بقوله «محّدثةٌ ذاتُ أخلاقٍ فاضلة»(١).

* بينما وصفتها زينب فوّاز بقولها: «ستّ الوزراء لقبُ حفيدة العلامة وجيه الدّين الحنبليّ... محدّثةٌ مشهورةٌ.. وكانت محدثةُ عَصْرِها... وروى عنها كثيرٌ منْ مشاهيرِ العُلَماء»(٢).

* وهذا شيءٌ ممن ذكر العالمة المسندة المحدثة ستّ الوزراء ، وأثنى عليها من أعلياء العلماء في دنيا العِلْم والمعرفة والفقه ، وهي بلا شكّ امرأة عظيمة المكانة العلمية ، عالية الإسناد ، متفردة بالرّواية ، لذلك فإنها استقدمت إلى مصر كي تحدِّث بها ويُسمع عليها ، وينتفع الناس جميعاً بعلمها.

* رحمَ اللهُ ستّ الوزراء ، وأدخلَها الجنّة مع الدَّاخلين زُمرا. ونأمَلُ من نسائنا أنْ يتّخذْنَها قدوةً ، فيسرنَ في طريقِ العلْم ، ويجنينَ زَهره ، ويفدنَ أولادهنَّ ومجتمعهنَّ وذويهنّ ، فما أحرى المرأة المسلمة اليوم أنْ تعودَ إلى سِيَرِ هؤلاء العالمات! لتكون هي الأخرى من العالِمات العاملات!.

* * *

⁽١) أعلام النساء (٢/ ١٧٣).

⁽٢) الدر المنثور (ص ٢٣٩) باختصار وتصرف.





سئعا دالعُذريّة

* قصة منحولة مكذوبة.





مَنْ هَذهِ المَرْأَةُ؟

* هذهِ امرأةٌ لم يفرِدْ لها المصنّفُون وكُتّابُ التَّراجم اسماً يعرفونَها من خلالِهِ؛ لأنَّها وردَتْ في قصّةٍ عابرة مع زوِجها الذي جَرَتْ عليه الآفاتُ من مَرضٍ وضنىً لِبُعْدِها عنه ، وأخْذِها منه ، فكادَ يجنُّ لتجرّعِهِ كأْسَ الفِراق.

* وهذه المرأة لا نعرف إلا اسمَها من خلالِ شِعْرِ أنشدَه زوجُها في حضْرةِ أميرِ المؤمنين معاوية بنِ أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ وعرفْنا من خلالِ أبياتهِ التي أنشدَها بدمشق أنَّه مستهامٌ بها ، وأنَّه لا يقدرُ على فراقِها ، وأنَّها سَلَبَتْ عقْلَه بعد أَنْ سُلِبَت منه من خلالِ أَحَدِ وُلاَةِ معاويةَ الظَّالمين ـ كما زعموا ـ وأنَّ اسمها سُعاد (١) ، وهي منَ البدو من بني عُذْرة.

* هكذا ورد اسمُها ، وهكذا صاغَها صائِغُو الأخبارِ والطَّرائفِ واللَّطائف؛ فهلْ هناكَ امرأةٌ بدوّيةٌ من بني عذرة تُدعى بسعاد العذريّة؟! وهل حدثَتْ قصّتُها كما رواها الرَّاوون ، وحاكَها الوضّاعون؟!!

* هذا ما ستجلوه الصَّفحات التَّاليات ، التي سنبصرُ من خلالِها ـ بإذن الله ـ زيفَ كثيرٍ من القَصَص المصنوعِ والمنسوجِ نشجاً رديئاً لتشويهِ صُورِ كثيرٍ من أعاظمِ وأفاضلِ خلفاءِ الدُّنيا ورجالاتها ، كما أنَّ فيها تمويهاً

⁽۱) انظر قصّتها في: ذمّ الهوى لابن الجوزي (ص ٣٣٨_ ٣٤١) تحقيق مصطفى عبد الواحد، مصر؛ والمنتظم لابن الجوزي أيضاً (٥/ ٢٩٢ ـ ٢٩٥)؛ وتزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق (١/ ٣٢٧ ـ ٣٢٩) تحقيق د. محمد التّونجي ـ عالم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م، ومصارع العشّاق (١٣/٢ ـ ١٥)، ونوادر الخلفاء المسمّى إعلام النّاس فيما جرى للبرامكة مع بني العبّاس (ص ٣٩ ـ ٤٤)، والبداية والنّهاية (٨/ ٨٥ ـ ٧٧)، والمختار من نوادر الأخبار (ص ٨٨ ـ ٣٩) وغيرها كثير.

وتضليلًا لكثيرٍ منَ الحقائقِ التّاريخية ، والصُّور الاجتماعيّة والأخلاقيّة ، وفيها كذلك إساءةٌ للنّساء العربيّات من طرفٍ خفي ، كما سنلحظُ ذلك من خلالِ قصّة سعاد_المزعومة_هذه.

* أمّا أحداث القصّة ، فإنّها تدورُ في مجلسِ سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ في دمشق الشّام ، ويبدو لنا زوجُ سعاد رجُلاً بدويّاً قد أضناه حبُّ زوجتِهِ وجمالُها ، ويكادُ يذهلُ ، حيث اشتعلتْ نيرانُ الجوى في جوفِهِ حزناً عليها ، فلا يكادُ يعرفُ ليلَه من نهاره ، إلى أنْ رُدّتْ إليه زوجته في أحداث وأيّامٍ وصبرٍ وشعْرٍ وسَفَرٍ ومشقّةٍ كما سنرى.

بين يَدَي مُعَاوِيَةً:

* ذكرَ أبو الفرجُ بنُ الجوزيّ في كتابه «ذمّ الهَوىٰ» قصّة سعاد وزوجها بسندِه عن اثني عشر شخصاً قال: «أنبأنا ابنُ ناصر ، قال: أنبأنا المباركُ بنُ عبد الجبار ، وأخبرتنا شهدةُ ، قالت: أنبأنا جعفر بن أحمد ، قالا: أنبأنا الجوهريّ قال: حدثنا ابن حيويهِ ، قال: حدّثنا محمدُ بنُ خلّف ، قال: حدّثني محمد بنُ عبد الرّحمن القرشيّ ، قال: حدّثنا محمد بن عبيد ، قال: حدّثنا بن عبد ، قال: حدّثنا محمد بن عبيد ، قال: حدثنا ابن عبيد ، قال: حدّثنا أبو مِخْنَف عن هشام بن عروة (١).

* وذكرتِ المصادرُ الأخرى نَقْلاً عن ابن الجوزي أيضاً قصَّة سعاد فقالَتْ ما مفاده: «جَلسَ معاويةُ بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ يوماً في مجلسِ كانَ له بدمشقَ ، وكان الموضعُ مفتّح الجوانبِ الأربعة ، تدخلُ منه الأنسامُ الوسنىٰ من كلّ جانبٍ ، فتضفي عليه جمالاً وأناقةً إذا ما هبَّتْ وعطّرتِ الدّنيا بأريج ما تحملُه من عبقِ الأَزْهَار.

* وبينما كان معاويةُ ـ رضي الله عنه ـ جالساً في مجلسه ذاك ، وكان

⁽١) ذم الهوى (ص ٣٣٨)؛ ولا تغتر بهذه الرواية . . . وانظر كذلك المنتظم (٥/ ٢٩٢).

ينتظرُ نضْجَ الطَّعام ، وينظرُ إلى بعضِ الجهاتِ _ وكان يوماً شديدَ الحرّ _ ، وكان ذلك وسط النَّهار ، وقد لفحتِ الهواجرُ ؛ إذْ نظرَ إلى رجلٍ يمشي نحوه ، وهو يتلظّىٰ من حرِّ التُّراب وحرارةِ الشَّمس في تلكم الظّهيرة ، ويحجلُ في مشيتهِ حافياً ، فتأمّله معاويةُ _ رضي الله عنه _ وتعجَّبَ من حالتِهِ تلك ؛ ثمَّ التفتَ إلى جلسائِهِ ومَنْ حولَه وقال لهم: هل خلق اللهُ عزَّ وجلَّ أشقىٰ ممّنْ يحتاجُ إلى الحركةِ في هذا الوقتِ ، وفي مثلِ هذه السَّاعة منَ النَّهار؟!

فقال له بعضُهم: يا أميرَ المؤمنين لعلَّه يقصدكَ في هذه السَّاعة! فقال معاويةُ _ رضي الله عنه _: والله لئن كانَ قاصِدي لأجلِ شيءٍ لأعطينَّه، وأستجلبُ الأجرَ بهِ؛ وإن كانَ مظلوماً لأنصرنَّه وأنصفنَّه وأرحمنَّه وأرفع عنه شدّته.

* ثمّ إنَّ سيّدنَا معاويةً _ رضي الله تعالى عنه _ نادى غلاماً له وقال: يا غلامُ. قِفْ بالبابِ ، فإنْ طلبني هذا الرَّجل الأعرابي ، فلا تمنعْهَ منَ الدُّخول عليَّ.

* وامتثلَ الغلامُ الأمْرَ ، فوقفَ عند الباب ، وما هي إلا سُوَيعة حتى وافاهُ الرّجل ، فسألَه الغُلامُ: ما حالُك وما تريدُ ومَنْ تبغي؟

قال الرّجلُ بلهفةِ: أريدُ أميرَ المؤمنين معاويةَ بنَ أبي سفيان. قال الغلام: وصلْتَ ، فادخل...

* ودخلَ الرَّجُلُ الأعرابي مجلسَ معاويةَ بعد أَنْ أَذِن له ، وكان الخدمُ قد مدُّوا الطَّعام ، فسلَّم الأعرابيُّ سلامَ المضطربِ الوجِلِ الحيران. . .

فقال له معاوية: ممّن الرّجل؟

قال: فتى من بني عُذرةً.

قال معاوية: فما الذي جاءَ بكَ في هذا الوقت أيُّها الفتي؟

فقال الفتى: يا أميرَ المؤمنين (١) ، جئتُك مشتكياً؛ وبك مستجيراً؟ قال معاوية متعجّباً: وممّن تشتكي يا هذا؟!

قال: من عامِلك مروانَ بنِ الحكم. . .

* ثم إنَّ الفتى العذريَّ استردَّ بعضَ أنفاسهِ ، وهدأ قليلاً وقام بين السّماطين ، فنظرتْ إليه عيونُ الحاضرين وشتّفُوا أسماعَهم فأنشأَ ينادي معاوية ويتوسّل إليه بهذه الأبيات:

مَعاويَ يا ذا الفَضْلِ والحِلْمِ والعَقْل أَتِيتَكَ لَمّا ضَاقَ في الأرض مَسْلكي فف رِّخ كَلَاكَ اللهُ عنّي فإنّني فوخذ لي هَدَاكَ اللهُ حقّي من الذي وكنْتُ أرجّي عَدْلُه إنْ أتيتُه فطلّقْتُها منْ جَهْدِ مَا قَدْ أصابَني فطلّقْتُها منْ جَهْدِ مَا قَدْ أصابَني

وذا البِرِّ والإحْسانِ والجودِ والفَضْلِ وأُنكرْتُ ممّا قد أُصيْبَ بهِ عقْلي لقيتُ الذي لَمْ يلْقَه أحدٌ قَبْلي رَمَاني بِسَهم كانَ أهْونَه قَتْلي فأكثر تَرْدَادي مع الحبْسِ والكَبْلِ فَهذا أميرَ المؤمنينَ منَ العَدْلِ(٢)

⁽۱) «أميرُ المؤمنين»: أوَّلُ مَنْ لُقِّبَ بهِ عمرُ بنُ الخطّاب _ رضي الله عنه _ أثناء خلافتهِ ، إذْ كلمةُ أمير تعني سيّداً من العربِ بينما المؤمنون ، هم المسلمون الذي دخَل الإسلامُ قلوبَهم ، وخرجُوا للجهادِ في سبيلهِ ، ولقد أصبحتْ تعني أيّام المماليك على الخصوص لقباً شرفياً للخلفاء بحكم السَّيطرة الاسميّة على أرضِ العروبة التي لم تَعُدْ أرضَ الجزيرة العربيةِ وحدَها مهدَ العروبةِ والإسلام ، ولكن أيضاً بلاد مصر والشّام والفُرات بحكم إسلامها وتكلّمها بالعربيّة ، ولا سيما مصر التي أصبحت مركز العروبةِ والإسلام وقتذاك. (صبح الأعشى ٥/ ٤٧٥) ، و(مقدمة ابن خلدون ص ١٧٩).

 ⁽۲) انظر: ذم الهوى (ص ۳۳۸ و ۳۳۹ و ۳۳۹) ، وتزيين الأسواق (۱/ ۳۲۷)؛ ومعنى: «كلاكَ الله»: مِن كلاً: أي حفظكَ اللهُ. و«الكبل»: الحبْلُ والقَيد. و«أميرَ المؤمنين»: منادى بأداة نداء محذوفة.

* وهذه الأبياتُ قد وردتْ على تلكَ الصُّورة في «ذمّ الهوىٰ» لابنِ الجوزي ، و «تزيين الأَسُواق» لداود الأنطاكي ، بينما وردت في «نوادِرِ الخُلفاء» على النَّحو الآتي وعددّها خمسة أبيات بدلاً من ستّة:

مَعاويَ يا ذا الجودِ والحلْمِ والبذْلِ ويا ذا النَّدَىٰ والعلْمِ والرَّشدِ والنُّبلِ أَتِيتَكَ لَمَّا ضَاقَ في الأرضِ مذْهَبي فياغوثَ لا تقْطَعْ رجائي منَ العدلِ وجُدْ لي بإنصافٍ منَ الجائرِ الذي بَلاني بشيءِ كان أَيْسَرُهُ قَتْلي سَباني ابنُ سُعْدىٰ وانبرىٰ لخُصُومَتي وجارَ ولمْ يعدلْ وأغْصَبني أهلي وهـمَّ بقَتْلي غيـرَ أنَّ منيّتـي تأنَّتُ ولمْ أستكملِ الرِّزقَ منْ أَجْلي (١)

* ولما فرغَ الرجلُ من إنشادِه ، ونارُ الحرقة تتوقّدُ من فمهِ ، قال له معاوية: ادنُ منّي باركَ اللهِ عليك ، ومهلاً ورفْقاً بنفسِكَ يا أخا العَرب. .

* وهنا دنا الفتى العذريّ من معاويةَ ، فهشّ له ، وقال: ما خَطْبكَ ؟ اذكر قصتّك ، وأَبِنْ لي عن أمرِك ، فقد أهمّني حالك.

قال الفتى العذري: أطال الله بقاء أميرِ المؤمنين وباركَ فيه ، إنّني رجلٌ من بني عذرة ، تزوَّجْتُ ابنةَ عمّ لي ، وكنتُ لها محّباً وامقاً ، وبها كَلِفاً عاشقاً ، وكانتُ من المبرّزاتِ المشهوراتِ في الجمالِ والكمالِ والحياءِ والخَفَرِ ، وكنتُ بها قريرَ العين ، طيّبَ النَّفس ، رضيَّ القَلْب

* وكانت لي صِرمة (٢) من إبلِ وشُويهات ، كنتُ أستعينُ بها على قوامِ حالي وكفايةِ تَعبي ، فأنفقْتُ ذلك كلّه عليها حتى افتقرتُ ، فلما أصابتني نائبةُ الزَّمان ، وحادثاتُ الأيّام ، وعضَّني الدَّهْرُ بنَابِهِ ، وبقيتُ لا أملكُ شيئاً

⁽۱) انظر: نوادر الخلفاء المسمى إعلام الناس (ص ٤٠)، ولاحظ الفرق بين الأبيات في المصادر.

⁽٢) «صورمة»: الصّرمة: القطعةُ منَ الإبلِ ما بين عشرين إلى الثّلاثين.

يُذكر؛ وكذلك يا أمير المؤمنين لما قلَّ ما بيدي ، وذهبَ مالي ، وفَسَد حالي ، بقيتُ مهاناً ثقيلاً على الذي كان يألفني ، وأبعدني مَنْ كان يشتهي قُربي والجلوس معي (١).

* ولما علمَ أبوها ما بي من سوءِ الحال ، وشرِّ المآل ، وقلَّةِ المال ، رغَب عنّي ، وأخذَهَا ، وجَحَدني ؛ أمّا هي فكانتْ ـ يا أمير المؤمنين ـ جاريةً فيها الحياءُ والكرمُ ، فكرهَتْ مخالفة أبيها ؛ فأتيتُ عامِلَكَ مروانَ بن الحكم راجياً لِنُصرتي ، فذكرتُ ذلك له ، وبلغَه جمالُها ، وأحضرَ أباها فجَحدني ، وقال : ما أعرفُه قطّ .

فقلتُ: أصلحَ اللهُ الأمير ، إنْ رأى أنْ يحِضرهَا ويسألها عن قولِ أبيها فَعل ، وتأكّد من صحّةِ قولي.

* فبعثَ خلفَها ، فلما حضرَتْ بين يديه ، وقعتْ منه موقعَ الإعجابِ ، فصار لي خَصْماً ، وعليَّ منكراً ، وأظهرَ لي الغضب ، وأرسلَ بي إلى السّجن ، فبقيتُ كأنَّما خَرَرْتُ من السَّماء ، أو هوت بي الريحُ في مكانٍ سحيق.

⁽١) يحضرني في هذا المقام قول الشّاعر:

النَّــاسُ أَعَــدا ُ لكــَلٌ مــدقــع صفْــرِ اليــديــن وإخــوةٌ للمكْشــر وقيل لبعضِ العُقلاء: كم لكَ منْ صديق؟ فقال: لا أعلمُ ذلك ، لأنَّ الدنيا مقبلةً عليَّ والأموالُ موجودةٌ عندي ، وإنّما أعرفُ ذلك إذا ولَّتْ.

⁻ ولما استُوزِرَ عليُّ بنُ عيسى ، ورأى اجتماعَ النَّاس عليه ، تمثّل بقولِ أبى العتاهية:

ما النّاسُ إلّا مع الـدُّنيـا وصاحِبهـا فكيـفَ مـا انقلبـتْ يــومـاً بـه انقلبُــوا يعظّمُــون أخــا الــدّنيــا فــاإنْ وثَبَــتْ يـــومــاً عليــه بمــا لا يَشْتِهـــي وثبــوا _ وقيل: إذا أيسرتَ فكلُّ رحْلِ رحلُك ، وإذا افتقرتَ أنكَرك أهلك.

ـ وقيل: العسرةُ والعشرةُ لا يُجتمعان.

* ثمَّ إنَّ ابنَ الحكم لم يكتفِ بما فعلَ بي وظلمني ، وقال لأبيها: هل لك أنْ تزوّجنيها على ألفِ دينار وعشرة آلاف درهم ، وأنا ضامنٌ لك خلاصَها من هذا الأعرابي؟

* فرغبَ أبوها في المالِ ، ورغب عنّي ، وأجابَه إلى ذلك ، فلمّا كان من الغدِ ، بعثَ إليَّ وأحضرني ، ونظرَ إليَّ كالأسدِ الغضبانِ ، وقالَ لي: ويحكَ ، طلِّقُ سعاداً. فقلتُ: لا أطلّقُها.

* فأخذني ثانية ، وحبَسني وضيَّقَ عَليَّ أَشدَّ الضّيق ، ولكني لم أَنْبَنِ عن عزمي ، وثَبَتُ على موقفي ، فلمّا رأى منّي الحزم ، سلَّطَ عليَّ جماعة من غلمانِهِ يذيقونني ألوانَ العَذَابِ والنَّكال ، وشدَّدوا عليَّ ، فلمّا أصابني مسُّ الحديدِ ، وأَلَمُ العذابِ ، وصعوبةُ الإرهاق ، ولم أجدْ بدّاً أو بَدلاً من طلاقِها ، فعلتُ ذلك وأنا كارةٌ لذلك أشدَّ الكُره ، إذ لم يعُدْ أمامي حيْلة .

* وبعد ذلك أعادني إلى السّجن ، وشدّد عليّ الحراسة ، فمكنْتُ فيه مدّة إلى أن انقضت عدّتها ، وعند ذلك عقدَ عليها وتزوّجها؛ ثمّ أطْلَقَ سراحي ، وأفرجَ عنّي بعد أن لقيتُ الهَوىٰ والهَوان؛ وقد أتيتُكَ يا أميرَ المؤمنين راجياً ، وبك مُستجيراً ، وإليك مُتلجئاً ، فأنتَ تغيثُ المكروب ، وتسندُ المسلوب ، فهل أجدُ عندك من فَرج؟!

* ثم إنَّ الفتى العذريّ تنهَّدَ بحسرةٍ ، وبكى بكاءً شديداً ، وقال في بكائه هذه الأبيات التي تنمُّ عن حبّه:

في القَلْبِ منّي نيارٌ والنّيارُ فيها شَررارُ والجسيمُ منّي نحيلٌ واللّيونُ فيه اصفِرارُ والجسيمُ منّي نحيلٌ واللّيونُ فيه اصفِرارُ والعين تبكي بشجو فَدمُهُ المّيانُ تبكي بشجو فَدمُهُ المّينِ بَهُ يَحمارُ والحبّ داءٌ عسيرٌ فيه الطّبيبُ يَحمارُ حملتُ منْه عظيماً فما عليه اصطبارُ ومليارُ

فَلَيْ سَ لَـــي بِلَيْلَــي ولا نَهـــاري نَهَــارُ وَلَيْهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ وَلَيْهِ اللهُ اللهُ

* وبعد أنْ فرغَ الفتى العذريُّ من أبياتِهِ اضطربَ اضطراباً شديداً ، واصطكَّتْ أسنانُه ، ووقعَ مغشيّاً عليه ، وأخذَ يتلوّى كالحيّة من شدّةِ ما أصابه منْ ألَم الجوى والهوى والظُّلم.

* ثم إنَّ ذلكَ الفتى العذريّ تماسكَ قليلًا ، ونظرَ إلى أميرِ المؤمنين معاوية الذي كان يسمعُ كلامَه وإنشادَه ، فرآه قَدْ رقَّ له ، وتأثَّر لما حدَثَ له من تشتيثِ شَمْلِهِ ، وبعدهِ عن سُعَاد التي ملكَتْ مهجته وسلبتْ لبَّه.

* وتحرّكتِ الشَّفقةُ في أعماقِ معاويةَ وفي قلبهِ ، فنظرَ إلى الفتى العذري نظرةَ عطفٍ وقال: تعدّى ابنُ الحكم في حدودِ الدِّيْن ، وظلمَ واجترأً على حُرَم المُسلمين(٢).

(۱) انظر: ذم الهوى (ص ۳۳۹) ، والبداية والنهاية (۸٦/۸)؛ وقد وردت هذه الأبيات في «نوادر الخلفاء» (ص ٤١) وعددها خمسة وهي:

في القلب منّي غَرامُ للنّدار فيه استعدارُ والجسمُ مُرمي بسهم فيه الطّبيب بعدارُ والجمسرُ فيه الطّبيب بعدارُ وفي فيه شدرارُ والجمسرُ فيه شدرارُ والعيب نُ تهطل دمعاً فيدمعها مدرارُ وليب المرارُ وليب المُميب وليب وليب المرارُ ول

انظر: نوادر الخلفاء (ص ٤٢)؛ وممّا لا شكّ فيه أنَّ هذا القول وأشباهه ، وهذه القصّة وأشباهها من القصص المنسوج المُهلهل الكاذب ، ولا يمكنُ أنْ يصحَّ منه شيء ، وأنَّ ما نقرؤه من أخْذِ ورد ، وصد ومد ، إنْ هوَ إلا إفك مفترى على سيّدنا معاوية ـ رضي الله عنه ـ ، وعلى مروانَ بنِ الحكم وغيرهما من أعلام الصَّحابة ـ رضي الله عنهم جميعاً ـ والذي يتتبّعُ القصّة ، ويقرأ الأشعار ، يدرك أنّها حبكت بعد عَصْر معاوية بزمن طويل.

* ثم إنَّه خاطبَ الفتى وقال له: لقد أتيتَني يا عذري بحديثٍ لم أسمعٌ بمثلهِ قطَّ.

* وأخذَ معاويةُ يحدِّثُ الغلامَ العذري ، ويباسطُه ويؤانسُه ، ووعده أنْ يردَّ عليه سعاداً لِتُرَدَّ إليه روحه وتعودَ إليه سكينتُه . . . ترى ماذا فعلَ معاويةُ مع الفتى ومع سعاد ومروان؟!

طَلِّقْ شُعَاداً:

* وعَدَ معاويةُ الفتى العذري بأنّه سينصرُهُ وينصفُه ، فدعا بدواةٍ وقرطاسٍ ، ثمّ كتبَ إلى مروانَ بنِ الحكم كتاباً أغلظَ له فيه ، وعنَّفَه ووبَّخَه وقال له فيه: "من أميرِ المؤمنين معاوية بن أبي سُفيان إلى مروانَ بنِ الحكم... أمّا بعد:

* إنّه قد بلغني أنّك تعدَّيَت على رعيّتك في حدود الدِّين ، وينبغي لمن كانَ والياً أنْ يكفَّ بصرَه عن شهواتِهِ ، ويزجرَ نفسه عن لذّاته (١٠).

* ثمّ إنَّ معاوية كتبَ بعده كلاماً طويلاً ، يعنّفه فيه ، ويعظُه ، ويأمرُه أنْ يتخلّى عن سعاد العذريّة ، ويأمرُهُ بطلاقها قولاً واحداً ، وأنْ يرسلَها إليه محفوفة بالمكارم والألطافِ ، وأن يبعثَها مع الكُميت ومع نَصْر بنِ ذبيان بأسرع وقتٍ وأخصرِ زمَنٍ ، ثمّ ختم رسالته بهذه الأبيات متوعّداً مروان وموبّخاً ومنبّها ، وقال:

رَكَبْتَ أَمْراً عظيماً لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَستغفرُ اللهَ منْ جورِ امرى و زَانِ

⁽١) انظر: نوادر الخلفاء (ص ٤٢).

قَدْ كَنْتَ تشبهُ صُوفتاً له كُتُبُ حتى أَتاني الفتى العُذريّ منتجباً أُعْطي الإله عُهوداً لا أخيسُ بِها إِنْ أَنْتَ راجْعتني فيما كتبْتُ بهِ طلّق سُعادَ وفارِقْها بِمُجْتمع طلّق سعادَ وعجّلها مجهّزةً فما سَمِعتُ كَما بُلِّغْتُ منْ عَجبٍ فَما سَمِعتُ كَما بُلِّغْتُ منْ عَجبٍ

من الفرائضِ أو آيات قُرآنِ (۱) يشكو إلي بحق غير بُهتانِ أو لا فَبُرِّئْتُ منْ دِيْنِ وإيمانِ لأَجْعَلَنَكَ لحماً بين عُقبانِ الشهد على ذاك نَصْراً وابنَ ظبيان مع الكميتِ ومَعْ نَصْرِ بن ذبيان ولا فعال حقاً فعل إنسانِ ولا فعال ك

* وبعد أنْ فرغَ معاويةُ من كتابهِ ، طواهُ وختَمه بختمهِ ، واستدعىٰ رجلَيْن من عنده هما: الكميتُ ، ونصرُ بنُ ذبيان ـ أو ظبيان ـ ، وكان يستنهضُهما في مهمّاتِ الأمور وعظائِمها ، وذلك لأخلاقهما وأمانتِهما وحرصِهما أشدَّ الحرص على تنفيذِ أوامره على أتمّ وجْهِ وأكمله».

مَا تَصْلُحُ إِلَّا لأَميرِ المُؤْمنيْنَ:

* انطلق رسولا معاوية من دمشق الشّام ، وهما يحملان كتاب أمير المؤمنين إلى ابنِ الحكم ، وسارا في جدّ واجتهادٍ ، يَصِلان الليلَ بالنّهار حتى قدما المدينة المنوّرة ، وقصدا دار الإمارة ، ودخلا على واليها مروانَ بنِ الحكم ، فسلّما عليه ، ثمّ سلّما إليه كتاب أمير المؤمنين معاوية ، وأعلماهُ بصورةِ الحالِ؛ فصارَ مروانُ يقرأُ الكتابَ ويبكي ،

⁽١) لاحظ الخلطَ والافتراءَ في هذَين البيتَيْن حيث زعموا أنَّ معاويةَ اتَّهم ابنَ الحكم بالجور والظّلم والزّني ، وذلك في البيتِ الأوّل.

أَمَّا البَيْتُ الثَّاني فَإِنَّه ينطقُ بالكذبِ ويفَضحُ الوضَّاعين ويشيرُ إلى كذبهم ، حيثُ وصفَ معاويةُ ابنَ الحكم بالصُّوفي صاحب الكُتب ، والصُّوفية لم تكنْ بَعْدُ موجودة أو نامية في ذلك العَصر ، فكيفَ بكتبهم؟! ولكنْ للكذبِ والكذّابينَ أحبْالٌ قصيرةٌ!!

وتنفَّس الصُّعداء وقال: «وددتُ لو أنَّ أمير المؤمنين حلّىٰ بيني وبينها سَنَة ، ثم عرضَنَى على السَّيف» (١).

* وجعلَ مروانُ يؤامرُ نَفْسَه على طلاقها ، فلمّا أزعجه رسولا معاوية ، وألحّا عليه بتنفيذِ أَمْرِ أمير المؤمنين معاوية ، قامَ إلى سعاد ، وأعلَمها بحقيقةِ الحالِ وجليةِ الأمْرِ ، ولم يسعْهُ إذ ذاك مخالفةُ الأوامرِ الصَّادرة من دمشق عن أميرِ المؤمنين معاوية ؛ ثم إنَّ مروان أخذَ يبكي على ما ألمّ بهِ من أمْر.

* ثم إنَّ مروان طلَّق المرأة العذرَّية بمحضرِ الكميتِ ونصرِ بن ذبيان ومن كانَ في المجلسِ؛ وبعد ذلك قال لها: يا سعاد ، اخرجي ، فخرجتْ شَكِلةً غنجةً ، ذات هيئةٍ وجمال ، فتعجَّبَ النَّاسُ من حُسْنِها (٢) ، ولما رآها الوفدُ قالوا: «هذه الحوريةُ الفاتنةُ لا تصلحُ لذاكَ الأعرابي ، واللهِ ما تصلحُ إلاّ لأمير المؤمنين (٣).

* وعلى جناحِ السّرعة ، وغايةِ ما يُرام جهَّزَ مروانُ بنُ الحكم الرجلَيْن والوفد ، ومن ثم ارتحلتْ سعادُ في معيّةِ الوفدِ ، بينما كتبَ مروانُ كتاباً يجيبُ فيه على كتابِ أمير المؤمنين معاوية ، ثمَّ ذيّله بهذه الأبيات:

لاَ تَحنشنَّ أميرَ المُؤمنين فَقدْ أُوفي بعهدِكَ في رفْقِ وإحْسَانِ وَمَا ركبْتُ حَراماً حين أَعْجَبني فكيفَ سُمِّيتُ باسمِ الخائنِ الزَّاني

⁽۱) ذم الهوى (ص ٣٤٠) ، وتزيين الأسواق (١/ ٣٢٨).

 ⁽۲) لاحظ هذا الخلط والإفك؛ كيف يخرجُ امرأةً _ كانت زوجة له _ كما زعموا ، وكيف يتعجّب النّاس من حُسنها.

 ⁽٣) بربّك هل هذا الهزلُ يصلحُ في «فيلم فاشل» في أيّامنا هذه؟! ولكَ أنْ تتصوَّرَ الشَّخف والسَّذاجة والسَّخرية التي مُنِيَ بها هؤلاء الوضّاعون وكذبُوا على أنفسِهم وعلى النّاس.

اعذُرْ فإنَّك لَو أبصرتَها لَجَرتْ فيكَ الأماني عن تمثالِ إنْسانِ فَسَوفَ تأتيك شمسٌ لا خَفَاءَ بها أبهى البريةِ منْ إنسٍ ومن جَان حَوراءُ يقصرُ عنها الوصفُ إنْ وصفَتْ أقولُ ذلك في سرِّ وإعلان (١)

* ثم ختمَ مروانُ الكتابَ ودفعَهُ إلى الرَّسولَيْن ، وأمرهما أنْ يسلَّماه إلى أميرِ المؤمنين معاوية في الشَّام.

اردُدْ سُعَاد علىٰ حَيْرانَ:

* سارَ الوفدُ يقطعُ الفيافي والقفار قاصِداً دمشقَ الفيحاءَ وهاتيك الدّمن ، وبصحبتِهم سعاد العذريّة تلك المرأةُ الجميلةُ التي _ زعموا _ أنّها ملأتِ القُصور بجمالِها ، وشغلتِ الأمراءَ والملوكَ بدلالِها ، وما زالَ الوفدُ سائراً حتى وصلَ دمشقَ الشَّام ، ووردَ على معاوية ، ثمَّ إنَّ الرَّسولَيْن سلّما إليهِ كتابَ مروان ، فقرأهُ وقرأ الأبيات ، ثم قال: لقد أحسنَ مروانُ بنُ الحكم في الطَّاعة ، وأطْنَبَ في ذكْرِ الجاريةِ ووصْفِ محاسنها ، فقال: "إنْ كانَتْ أُعْطيتْ حُسْنَ النَّعْمةِ مع هذه الصَّفة ، فهي أكملُ البريّة» (٢).

* ثم إنَّ معاوية أمرَ بإحضارِ سعاد ، فحضرت ، فلمّا رآها رأى صورة عسناء لم يرَ أحْسَنَ منها ولا مثلها في الحسنِ والجمالِ ، والقدّ والاعتدالِ ، والدّل والدّلال؛ فخاطبَها واستنطقها ، فإذا هي أحسنُ النَّاسِ منطقاً ونُطقاً وفماً وكلاماً وفتنة ، وألفاها فصيحة اللسانِ حسنة البيانِ ، يُضاف إلىٰ هذا كلّه أنّها كانت من أكملِ النساء شكلاً ودلاً؛ وكأنَّ القائل عناها بقولهِ ووصفه . هَيفاءُ كالغُصْنِ الرّطيب إذا انثنَتْ تختالُ في ثَـوْبَـيْ حَياً ودَلالِ تَسْبِي القُلوبَ بأَسْرِها فجميعُهم في أَسْرِها لكنْ بقيدِ جَمالِ تَسْبِي القُلوبَ بأَسْرِها فجميعُهم في أَسْرِها لكنْ بقيدِ جَمالِ

⁽١) انظر: ذم الهوى (ص ٣٤٠) ونوادر الخلفاء (ص ٤٣) مع الجمع والتصرف.

⁽۲) انظر: ذم الهوى (ص ٣٤١) ، والمنتظم (٥/ ٢٩٤).

* وقوله أيضاً:

وسَالبةِ بالحُسْنِ عَقْل ذوي النُّهي لِطَلْعتِها أَسْنَىٰ السَّراري آفِلُ إِضَالَ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ وَالعَقَلُ زائِل المُنْ الأَذْقَانِ والعقلُ زائِل

* وهنا زعمَ واضعُ القصَّةِ ومخترعها بأنَّ معاويةَ رضي الله عنه قد أُعجبَ بسعاد ، وأخذتُ بمجامع قلبه ، وهامَ بها حبّاً ، ومن ثمَّ سوّلَتْ له نفسُه أنْ يستوليَ عليها ، وأن يتنعَّم بها ، فهي درّةٌ من الدُّرر لا مثيل لها بين نساءِ عَصْرها وآنساتِ مِصْرها ، ويزعمُ الوضّاع أنَّ معاويةَ قال:

«عَليَّ بالأعرابي؛ فأُتي به ، وهو في غايةِ من تغيّرِ الحالِ وسوءِ المآل ، فقال له: يا أعرابي هل لكَ عن سعاد من سَلْوة ، وأعوضك عنها ثلاث جوارٍ نهْدٍ أبكار ، كأنّهنّ الأقمار ، مع كلّ جاريةٍ ألف دينار (١) ، وأقسمُ لكَ في بيتِ المالِ كلّ سنة ما يكفيكَ وما يغنيك»(٢).

* فلمّا سمع الأعرابي كلام أمير المؤمنين معاوية طار صوابُه وشهقَ شهقة ظنَّ معاوية أنَّه ماتَ بها ، فقال له معاوية: «ما بالكَ بِشَرِّ بالِ وسوءِ حال»؟

فقال الأعرابي: استجرتُ بعدِلك من جورِ ابن الحكم ، فبمَنْ أستجيرُ منْ جورِك؟!

فقال له معاوية: يا أعرابي ، هل لكَ من سلو عنْها بأفضل الرَّغبة؟ قال الأعرابي: نعمْ يا أمير المؤمنين ، أسلو عن سعاد إذا فرَّقْتَ بين

⁽۱) نوادر الخلفاء (ص ٤٣) ، ولاحظ هذا السَّجع السَّخيف المقتبس من ألف ليلة وليلة ، والمنسوب إلى صحابي جليل رفيع القدرِ ، كبيرِ المكانة.

 ⁽٢) لاحظ الزُورَ والكذبَ والافتراء على لسآنِ سيّدنا معاوية ، وأنّه يجعلُ بيتَ مالِ
 المسلمين تحت تصرّف أعرابي من أجلِ امرأةٍ ، سبحان الله هذا بهتانٌ عظيم.

رأسي وجَسَدي (١). ثم أنشأَ الأعرابي يقول:

لا تجعلني والأمثالُ تُضْرَبُ بي كالمستغيثِ من الرَّمضاءِ بالنَّار (٢) اردُدْ سُعادَ علىٰ حيرانَ مكتئِبِ يُمسي ويُصبح في هم وتذكارِ قد شفَّه قَلَقٌ ما مثله قلَقٌ وأُسْعِرَ القَلْبُ منه أيّ إسْعارِ واللهِ واللهِ لا أنسيىٰ محبَّتَها حتى أُغيَّبَ في رمْس وأحجارِ كيفَ السُّلُوُ وقد هَامَ الفؤادُ بها وأصبحَ القَلْبُ عنها غير صبَّارِ أطلقٌ وثاقي ولا تبخلْ عليَّ بها فإنْ فعلْتَ فإنِّي غيرُ كفَّارِ (٣)

* ثم قال: والله يا أمير المؤمنين ، لو أعطيتني الخلافة ما أخذتُها دونَ
 سعاد ، ثم أنشد يقول:

أبي القَلْبُ إلاّ حبُّ سعدىٰ وبُغِّضَتْ عليَّ نِساءٌ ما لَهُنَّ ذُنـوبُ (٤)

* قال الرّاوي الأفّاك مُتابعاً هذه المسرحيّة المصنوعة ذات الحبكة غير المحبوكة: فغضبَ معاويةُ غضباً شديداً ، ثمَّ قالَ للأعرابي: إنّك مقرُّ بأنّك قد طلّقتها ، ومروانُ مقرُّ بأنّه طلّقها أيضاً ، ونحنُ أولاءِ نخيّرُ سُعاداً ، فإنِ اختارتْ سواكَ تزوجناها ، وإن اختارتْكَ حولنَاها إليك.

و(فرائد الخرائد ص ٣٠٢) وغيرها كثير.

⁽١) انظر: ذمّ الهوى (ص ٣٤١).

⁽٢) هذا البيتُ فيه تعريضٌ بسيّدنا معاوية رضي الله عنه ، وقوله: [كالمستغيثِ أو كالمستغيثِ أو كالمستجيرِ منَ الرّمضاء بالنار] ، هذا شَطرٌ من بيتٍ قيل في كُليب عندما طعنه جسّاس بن مرّة ، فَدقَ صُلبَه ، فقال له كُليب: أغثني بشربةِ ماء ؛ فقال له جسّاس: تركتَ الماءَ وراءَك ، وانصرفَ عنه ، ولحقه عمرو بنُ الحارث ، فقال له كُليب: يا عمرو ، أغثني بشربةِ ماء ، فنزلَ إليهِ ، فأجهزَ عليهِ ، فضُرِبَ به المثُل فقيل: المستجيسرُ بعمسرهِ عنسد كسربته به كالمستجيسر من السرَّمضاء بالنَّار المستجيسرُ بعمسرهِ عنسد كسربته به كالمستجيسر من السرَّمضاء بالنَّار انظر (مجمع الأمثال ٢/ ١٨٢) ، و(الفاخر ص ٩٣) ، و(فصل المقال ص ٥٠٤) ،

⁽٣) انظر: ذم الهوى (ص ٣٤١) ونوادر الخلفاء (ص ٤٣) مع الجمع.

⁽٤) نوادر الخلفاء (ص ٤٤).

قال الأعرابيُّ: افعَلْ مَا بَدا لكَ يا أميرَ المؤمنين فأنا راضٍ بذلك.

* وهنا التفتَ معاويةُ إلى سعاد وقال لها: «ما تقولينَ يا سُعادي (١) ، أيما أحبّ إليكِ ، أميرُ المؤمنين في عزّهِ وشرفهِ وقصورهِ وسلطانِهِ ، وأموالِهِ وما أبصرتيه عنْدَه ، أو مروانُ بن الحكم في تعشُفِهِ وجورِه ، أو هذا الأعرابيّ في جُوعِهِ وفقْره »؟!

* وهنا انبرت سعاد بأفصح لسان وأنشدت تقول:

هَذا وَإِنْ كَانَ في جُوعِ وإضْرار أعزّ عندي منْ قَومي ومنْ جَاري وصَاحبِ التّاج (٢) أو مروّانَ عامله وكُلّ ذي درهم عندي ودينار (٣)

 « وفي رواية مكذوبةٍ مصنوعةٍ أخرى ادعوا أنّها قد أشارت إلى ابنِ عمّها ثمّ أنشدَتْ:

هذا وإنْ أصبح في أطمارِ وكانَ في نَقْصٍ منَ اليَسارِ أَكْبرُ عندي من أبي وجَاري وصَاحِب الدّرهم والدِّينارِ أَخْشَى إذْ غدرْتُ حرَّ النَّارِ هذا حَليلي ما بهِ من عَارِ لَعَلّنا نَسرجِعُ للدِّيَارِ نَشْتَ عِطْر البَانِ والعَرارِ (٤)

* ثم إنَّ سُعاداً قالت لمعاويةً: واللهِ يا أميرَ المؤمنين ، ما أنا بخاذلته

⁽۱) لاحظ هذا الكلام وهذا (الدلع) وهذا الهراء والسخف المنسوب إلى سيدنا معاوية والذي هو بريء منه براءة الذئب من دم يوسف؛ نعوذ بالله من الأهواء الباطلة والأحكام الجائرة ، والأذواق المشينة.

⁽٢) «صاحب التاج»: المقصود به _ كما أراد الوضاع _ معاوية ، فهل كان معاوية يضع تاجأ؟ أم أن صناعة الأبيات كانت رديئة؟! وحيكت في غفلة عن الناس!!

⁽٣) نوادر الخلفاء (ص ٤٤) ، والمختار في نوادر الأخبار (ص ٩٢).

⁽٤) انظر: تزيين الأسواق (١/ ٣٢٩)، وقد وردت في «البداية والنهاية» أخصر من هنا حيث أورد خمس شطرات؛ وكذلك في «ذم الهوى» (ص ٣٤١).

لحادثة الزّمان ، ولا لغدراتِ الأيّام ، وإنّ له صحبة قديمة لا تُنسى ، ومحبّة لا تبلىٰ ، وأنا أحقُّ مَنْ يصيرُ معه في الضّرّاء ، كما تنعّمْتُ معه في السّرّاء . . .

* قال الرّاوي الوضّاع: وتعجَّبُ معاويةُ من عقْلِها ومودّتها له، وموافاتها ووفائها ، والتفتَ إلىٰ الأعرابي وقال له: خُذْهَا لا باركَ اللهُ لكَ فيها... فأنشأ الأعرابيُّ يقول:

خَلُوا عَنِ الطَّرِيقِ للأَعْرابي أَلَمْ تَرِقُّوا ويحكُم لِما بي (')! قال: فضَحِكَ معاوية ، وأمرَ له بعشرةِ آلافِ درهم ، وناقة ، ووطَاء ، وأمرَ بسعاد فأدْخِلَتْ في بعضِ قُصوره ، ومكثتْ حتى انقضَتْ عدتها من ابنِ الحكم ، ثمّ أمرَ بدفعها إلى الأعرابي فأخذَها وانصرَف (''). وكان لسانُ حاله ينشدُ ويقولُ شاكراً مَنْ فرَّجَ كربته ، وردَّ له حبيبتَه:

لقد جُدْتَ يا بْنَ الأكرمينَ بنعمة جَمَعْتَ بها بينَ المحبّين في ستْرِ فلا زِلتَ بالإحْسَانِ كَهفاً وملجأً وقد جَلَّ ما قد كانَ منكَ عن الشّكرِ

* هذه قصّة سعاد العذريّة المكذوبة والمنحولة ، ويظهرُ للقارىء الكريم كيف حاولَ الوضّاعون أنْ يضعُوا من قَدْرِ الأكابرِ في هذه القصّة المكذوبةِ التي لا يمكنُ أنْ تصدرَ عن الأصاغرِ ، فكيفَ بالأكابرِ من أعيانِ الصَّحابة؟!

* وهناك قصص أخرى مكذوبة عن معاوية ، وفيها إساءة واضحة السيرتِه ، وقد أوردَهَا النَّهروانيُّ في كتابهِ «الجليسُ الصَّالح» (٣) ومفادها أنَّ

ذم الهوى (ص ٣٤١).

⁽٢) انظر: ذم الهوى (ص ٣٣٨ ـ ٣٤١)، ونوادر الخلفاء (ص ٤٣ ـ ٤٤) مع الجمع والتصرف. وانظر بقية المصادر المشار إليها في مقدمة الترجمة.

⁽٣) انظر: الجليس الصالح الكافي للنهرواني (٣/ ٢٨٤ ـ ٢٩١).

معاوية احتالَ على ابن عامرِ ليطلّقَ زوجتَه ، ثم يتزوّج هو منها ، وذلك في خبرِ طويلِ يتسم بالحقدِ والافتراءِ والكذب والبلاهةِ من الوضّاعين.

* نرجو الله عزَّ وجلّ أنْ يلهمنا الصَّواب ، وأن يحشرنا مع الصَّحابة الكرام ، وأن يجعلَنا منَ الذين يستمعون القولَ فيتبعون أحْسَنَه.

* * *





شهرة بنت أحدالإبري

* مُسندة العراق ، فخر النساء ، كاتبة ، مُعمِّرة ، عُرِفَتْ ب «ستِّ الكتبة» لجودة خطها ، وبراعتها به .

* امرأة جليلة ، صالحة ، ذات دِيْن ، وورع ، وعبادة ، ولها بِـرٌ ، وخير ، ورسوخ في العلم ، والأدب ، وسائر المعارف.





فَخُرُ النِّسَاءِ:

* فخرُ النّساءِ لقبٌ عُرفَتْ به شهدةُ بنتُ المحدِّث أبي نَصْر أحمد بن الفرجِ الدَّينوريّ ، ثمّ البغداديّ الإبريّ (١) ، الجِهةُ ، المُعمَّرةُ ، الكاتبةُ ، مسندةُ العِراق ، فخرُ النِّساء . . . فهلْ سمعتمْ بشهدةَ هذه؟ وهل عرفتمْ مكانتَها العِلْميّة بينَ نساءِ المشرقِ العربيّ في دُنيا النِّساء الأديباتِ العَالماتِ الحافِظَاتِ؟

* وإذا عرفْنَا أنَّ معنىٰ شهدةً: العَسْل ، فسيكونُ الحديثُ عنها طيّباً كالعَسلِ ، هنيّاً سائِغاً للشَّاربين والآكلين ، وفيه شفاءٌ لقلوبِ أولئك اللواتي يُرِدْنَ الاقتداءَ بسيرتها من بناتِ جنْسِها.

* فقد كانت شهدة _ بالإضافة إلى أنَّها فَخْر النَّساء _ منْ مفاخرِ نساءِ الدُّنيا ، ونساءِ المشرقِ العربيِ ، فكان لها في الخطَّ وتجويدهِ باعٌ طويلٌ ، شَهدَ لها بذلك عُلماءِ عَصْرِها ومصْرِها.

* وكانَ لها في الحديثِ سَنَداً ، وأصحابُ السِّيرِ يذكرونَها بـ:
 خطَّاطة ، ومسندة الحديث ، وفَخْر النِّساء ، ومسندة العراق.

⁽۱) سير أعلام النبلاء (۲۰/ ٥٤٢ - ٥٤٣) ، والكامل في التّاريخ (۱۱/ ٢٠٠ - ٤٥٤) ، والأنساب (١/ ١١٨) ، والمنتظم (٢/ ٢٢٨) ، ووفيّات الأعيان (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨) والأنساب (١١٨/١) ، والمنتظم (٢/ ٢٢٨) ، وتاريخُ ابن الدّبيثي (ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥) برقم (١٥٢٠) ، وأعلام النّساء (٢/ ٣٠٩ ـ ٣١٢) ، والدرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور (ص ٢٥٦ ، ٢٥٧) ، ونزهة الجُلساء في أشعار النّساء ، (ص ٤٧ ـ ٤٩) ، وشذرات الذهب (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) ، والوافي بالوفيّات (١٩٠/١٦) ، ومراّة الجنّان (٣/ ٤٠٠) ، والعبر (٤/ ٢٢٠) ، وتتمة المختصر (٢/ ١٩٢) ، والرّوضة الفيحاء (ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥) وغيرها كثير جداً.

* وجدُّها كان يعملُ بالإِبَرِ ، ولذلك عُرِفَ بالإبريّ.

* وأبوها رُزِقَ شَغَفاً بالحديثِ ، فأخذَهُ عن أربابهِ وأعليائِه في عَصْره ، وراعىٰ في تعليمِها إتقانَ الأساس ، كما سنرى من خلالِ سيرتَها.

* لا نعرفُ متى وُلدَتْ شهدةُ على وجْهِ التَّحديد ، بيدَ أَنَّ الإمامَ الذَّهبيَّ ـ رحمه الله ـ يذكرُ بأنَّها منَ النِّساءِ العالماتِ المعمراتِ اللواتي بلغْنَ منَ الكِبَرِ عتياً ، وذكر بأنَّ مولدَها كانَ بعد عام (٤٨٠ هـ)(١).

* ويفيدنا ابنُ خَلَّكان بأنَّ شهدة هذه من دَيْنَور ، فهي دينوريّة الأصل ، بغداديّة المولد والوفَاة (٢٠).

* إذاً ، فقد وُلدتْ شهدةُ بنتُ الإبري في بغدادَ مدينة السَّلام ، في أخريات القرنِ الخامسِ الهِجريِّ.

العَالِمَةُ ابِنَةُ المُحَدِّثِ:

* تشيرُ الأخبارُ التي وصَلَتْ إلينا عن شهدة بنتِ أحمد الإبريّ (٣) الدَّينوريّة (٤) ، بأنَّها قد نشأتْ في بيتِ علْم وفقْه وحديثٍ ومعرفة ، فقد كان والدُها أبو نصر أحمدُ واحداً من علماءِ عَصْره المهتمين بعلوم الحديث النَّبويّ الشَّريف ، وعلْم التَّحديث والفقْه ، وقد اهتمَّ بتربيةِ ابنته شهدة اهتماماً بالغاً ، فربّاها على مائدةِ العلْم ، وعلىٰ حبّ الحديثِ والإسنادِ ، وقبل هذا كلّه غذّاها على حبِّ القُرآنِ الكريمِ وعلومِهِ ، فنالَتْ حظاً وافراً من وقبل هذا كلّه غذّاها على حبِّ القُرآنِ الكريمِ وعلومِهِ ، فنالَتْ حظاً وافراً من

⁽١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٢).

⁽٢) وفيَاتُ الأعيان (٢/ ٤٧٧).

 ⁽٣) «الإبري»: بكَسْرِ الهمزة وفتح الباء: هذه النسبةُ إلى الإبرَ التي هي جَمْعُ إبرة التي يُخاط بها ، وكان المنسوبُ إليها يعملُها أو يبيعُها.

 ⁽٤) «الدِّينَوريّة»: بكَسْر الدّال وسكون اليّاء وفتح النّون ، هذه النّسبة إلى الدّينَور ، وهي بلدةٌ منْ بلادِ الجَبل ، يُنْسَبُ إليها جماعةٌ منَ العُلَماء.

ذلك كلّه ، ونهلتْ من المعارفِ جميعها حتى غدتْ فَخْر النّساء ، فقد وردَ أَنَّ أَباها قد سمَّعها كثيراً من علماءِ عَصْره ومصرِه الذين هم فخْرُ الرِّجال ، ومجدُ العلْم والعُلماء.

* ولم يتوقف والدُها أبو نصر عند هذا فحسب ، وإنَّما علَّمها الكتابة ،
 وكانتِ الكاتباتُ من النِّساء قليلاتٍ في ذلك العَصْر .

* واهتمَّتْ شهدةُ بتعلَّم أصولِ الخطَّ العربيّ وقواعدِه وقنونهِ ، حتى وردَ أنَّها كانت تكتبُ على طريقةِ سابقتها في الخطَّ والعلْمِ الكاتبة الخطَّاطة الشهيرة فاطمة بنت الأقرع البغداديّة (١) ، فقد كتبَتْ شهدةُ الخطَّ الجيد الجميلَ المليحَ الذي مشقَتْه أناملُها الغضّة .

* قال صلاحُ الدِّين الصَّفدي عندما استعرضَ سيرةَ شهدة في "وَافيْهِ": "وكانت تكتبُ خطاً مليحاً... وكانت تكتبُ على طريقِ الكاتبةِ بنتِ الأقرع ، وما كان في زمانها مَنْ يكتبُ مثلَها" (٢٠)... وقد عُرفَتْ شهدةُ هذه بالكاتبة أو ستّ الكتبة لجودةِ خطّها وبراعتها به.

* قال الذَّهبي: «وكانت تكتبُ خطأ جيّداً ، لكنَّه تغيّر لكبرِهَا» (٣).

⁽۱) فاطمةُ بنتُ الأقرع: هي فاطمةُ بنتُ الحسنِ بن عليّ البغداديّة ، أمَّ الفَضْل ، الكاتبةُ المعروفةُ ببنتِ الأقرع ، وكانتْ أجودَ أهلِ زمانِها بالأدبِ والفَضْلِ ، وكان لها اطّلاعٌ تامِّ في معرفةِ التَّواريخِ ، وتحفظُ شيئاً كثيراً منْ أشعارِ العربِ. وهي إحدىٰ فُضْلياتِ نساءِ المشرقِ العربيّ في القرنِ الخامسِ الهجريّ ، اشتهرتْ بجودة الخطّ ، فقد جود الناسُ على خطّها لبراعةِ حُسْنهِ ، وكانت تنقلُ على طريقةِ ابنِ البواب ، وبكتابتها يُضْرَبُ المثلُ ، توفيتْ فاطمةُ في سَنةِ (٤٨٠ هـ). (سير أعلام النبلاء وبكتابتها يُصْرَبُ المثلُ ، و(الرّوضة الفيحاء ص ٤٨٤) مع الجمع والتّصرف. واقرأ سيرتَها موسَّعةُ في هذا الكتاب.

⁽۲) الوافي بالوفيّات (۱۹۰/۱۹).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٣).

* وكان أبوها أبو نَصْر من أكابرِ عُلماء عَصْره ، وكان يخدمُه أحد الكبراءِ وهو عليُّ بنُ محمد بن يحيى أبو الحسن الدَّريني المعروف بثقة الدَّولة ابن الأنباري ، وكان هذا الرجل من الأماثِل والأعيان ، وقد اختصَّ بالإمام المقتفي لأمْرِ الله(١) ، وكان فيه أدبُ ويقولُ الشَّعْرَ ، وبني مدرسة لأصحابِ الشَّافعي على شاطىءِ دجلة ببابِ الأزج ، وإلى جانِبها رباطاً للصُّوفية ، ووقف عليهما وقُوفاً حسنة ، وسمع الحديث النَّبويَّ الشَّريف.

* قال السَّمعاني: «كان عليُّ بنُ محمد هذا يخدمُ أبا نصر أحمد بن الفرج الإبريّ ، وزوّجه بنتَه شهدةَ الكاتبةَ ، ثمَّ علَتْ درجتُه إلى أنْ صارَ

⁽۱) المُقتفي لأمْرِ الله ، أبو عبد الله محمدُ بنُ المستظهر باللهِ العبّاسي أميرُ المؤمنين ، كانَ عالماً فاضِلاً ديِّنا ، حليماً شُجاعاً ، مَهيباً خليقاً للإمّارة ، كاملَ السُّؤدد ، كان لا يَجْري في دولته أمْرٌ وإنْ صَغُرَ إلا بتوقيعهِ ، وكتبَ أيّام خِلافَته ثلاثَ ربَعَات. وسببُ تلقيبه بالمقتفي أنّه رأى في منامهِ قبل أنْ يُسْتَخْلفَ بستةِ أيّام النّبيَّ ﷺ وهو يقولُ له: سيصلُ هذا الأمرُ إليكَ فاقتفِ بي ، فلُقّبَ المقتفي لأمْرِ الله. وكان صاحبَ سياسةِ ، جدَّد معالَم الإمامةِ ، ومهَّد رسومَ الخلافة ، وباشرَ الأمورَ بنفسهِ ، وغزا غير مرّة ، وامتدّتْ أيّامه .

وكانت أيّامُه نَضِرَةً بالعَدْلِ ، زَهِرةً بفعلِ الخيرات ، وكان على قَدَم منَ العبادة قبل إفضاء الأمَّر إليه ، وكان في أوّل أمره مُتَشاغلًا بالدّيْن ، ونَسْخ العُلوم ، وقراءة القرآنِ الكريم ، ولم يُر مع سماحته ولينِ جانبه ، ورأفتِه ، بعد المُعتصم خليفة ، في شهامتِه وصرامته وشجاعتِه ، مع ما خُصَّ به من زُهْده وورعه وعبادتِه مثله ، ولم تزلُ جيوشُهُ منصورة حيث يمَّمتْ. قال عنه ابنُ الجوزي: «كان شُجاعاً كريماً ، محبّاً للحديثِ وسماعه ، معنيّاً بالعِلْم مكرماً لأهله». وكانت دولتُه خمساً وعشرين سنة ، وتوفي في ربيع الأوّل سنة لأهله». وكانت دولتُه خمساً وعشرين سنة ، واتّخذ لنفسه منَ العقيقِ تابوتاً دُفِنَ فيه ، (شذرات الذهب ٢٨٨٦ ـ ٢٩٠) و(العبر ١٥٨٤ ـ ١٥٩) مع الجمع والتصرف

خصيصاً بالمُقتفي ، وكان مولدهُ سنة (٤٧٥ هـ) ، وتوفي في (١٦ شعبان) سنة (٥٤٩ هـ) ـ رحمه الله ـ»(١).

* وذكر ابنُ الجوزي زواج شهدة من عليّ بن محمد الدريني ، ووصفه بأنّه أحد وكلاء الخليفة المقتفي فقال: «وتزوجت بعض وكلاء الخليفة» (٢).

* وقال ابنُ الأثير في «الكامل» عن زوج شهدة: «كان يخدمُ أبا نصر أحمد بن الفرج الإبري ، فربّاه حتى قيل: ابن الإبري ، وزوَّجَه ابنته شهدة الكاتبة ، فقرّبه المقتفي لأمْر الله ، ووكّلَه فبنىٰ مدرسةً بباب الأزج»(٣).

* وهكذا عملَ أبو نصر أحمد بن الفرج الدَّينوريِّ (٤) على تربيةِ شهدة ابنته أحسنَ تربية وأوفَاها ، حتى غدتْ أستاذ الأساتذِة الألىٰ الذين ملؤُوا الدِّنيا بعلمِهم ، وشغلُوا النَّاس بفرائد معارفهم.

* قال ابنُ الدّبيثي عنها وعن أبيها: «شهدةً... امرأةٌ جليلةٌ صالحةٌ ، ذاتُ دِيْنِ ووَرَعٍ ، وعبادةٍ ، سمعتِ الكثيرَ ، وعُنِيَ بها أبوها ، وأحضرها مجلسَ السّماع على الشّيوخ ، وعمرت وصارت أسندَ أهل زمانِها »(٥).

* ومن تلامذتها الذين شهدوا بفضلِها؛ أبو الفرج بن الجوزي الذي قال: «قرأتُ عليها، وكان لها خطُّ حَسَنٌ» (٦). ويضيفُ ابنُ الجوزي بأنَّ شهدةَ قد كانت من العُلماء، وأفادتِ الخَلْقَ، وأنَّها ذات برّ وإحسانِ طوالَ

⁽١) عن وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٨) بتصرف يسير جداً.

⁽۲) المنتظم (۱۰/ ۲۸۸).

⁽٣) الكامل (١١/ ٢٠٠).

⁽٤) ماتَ والدُ شهدةَ أبو نصر الإبري يوم السَّبت (٢٣ جمادىٰ الأولى) من سنة (٤٠ هــ) ، وكانت وفاتُه في بغدادَ ، ودُفِنَ ببابِ أبرز.

⁽٥) تاريخ ابن الدبيثي (ص ٣٩٤_٣٩٥).

⁽٢) المنتظم (١٠/ ٢٨٨).

حياتها ، فقال: «وخالطتِ الدُّور والعُلماءَ ، ولها برُّ وخيرٌ ، وعمَّرتْ حتى قاربتِ المئةَ»(١).

المُتَعَلَّمَةُ الوَرعَةُ:

* كانت شهدةُ بنتُ الإبريّ مثالَ المرأةِ المتعلّمة؛ التي تحرصُ على الاستفادةِ من وقْتِها وممن حولَها منَ العُلماء؛ الذين شهدَ بفضلِهم الأقرانُ من جميعِ البلدان.

* وكانت شهدة وهي في تلقيها العلم ورعة تقية ، تحس بأنَّ العلم مع الورع أبقى وأنقى وأتقى ، وقد عُرِفَتْ عنها هذه الصّفاتُ المباركة ، فعلا صيتُها ، وطارت شهرتُها في الآفاقِ تحملُ عبيرَ نسائِم علْمِها الذي طبّق البلاد.

* ولم تتوقف هذه المرأة العالمة المحبّة للعلم المتعلّمة عن طلبِ العلم يوماً واحداً ، بل سمعتِ العِلْمَ من أفواهِ العُلماء ، وتلقَّتْ عنهم المعرفة ، وروتْ عنهم الكُتُبَ المعتبرة ، والمصنفاتِ الشَّهيرة من مثل كتاب «الأموال» لابن سلام ، وكتاب «الشّكر لله ، والفرج بعد الشّدة ، واليقين ، وذمّ المُسْكر ، ومحاسبة النَّفس» لابن أبي الدنيا ، وغير ذلك من علوم ومعارف.

* وقد سمعتْ من عدد من أجلّةِ الكُبراء ، وأعلياء العُلماء في عَصْرها من مثل أبي الخطّاب نصر بن أحمد بن البَطِر ، والحُسين بن أحمد بن طلحة النّعالي ، وأبي الفوارس طراد بن محمد الزّينبي ، وعلي بن الحُسين بن أيوب ، وعبد الواحد بن علوان ، وأحمد بن عبد القادر

⁽١) المصدر السَّابق نفسه.

اليوسُفيّ ، وثابت بن بُندار^(۱) ، ومنصور بن حِيْد ، وجعفر السَّراج ، وفخر الإسلام أبي بكر محمد بن أحمد الشَّاشي^(۲) وغيرهم^(۳).

* ولكثرةِ أساتذة شهدة قال الإمامُ الذَّهبي: «ولها مشيخةٌ سمعْنَاها»(٤).

تصَدُّرُهَا للتَّدْرِيْس:

* طلبت شهدةُ بنتُ الإبري العلْمَ من منابِعهِ ، حتّى رُزِقَتْ صيتاً طائراً به ، وخصوصاً الحديث الشَّريف ، وامتازت بعلو سَندِها ، وكان يحضرُ حلقةَ درسِها عددٌ وافرٌ من طلابِ العلْمِ وشُداةِ المعرفةِ من جميع البلاد ، ولحسنِ صيتِها وشهرتها وتمكّنها من العلْم ، ادّعى بعضُهم أنَّه تتلمذَ عليها

(۱) ثابتُ بنُ بُندار أبو المعَالي البقّال ، المقرىءُ ببغدادَ ، روىٰ عن أبي عليّ بنِ شاذان وطبقتِهِ ، وهو ثِقةٌ فاضلٌ ، توفيَ في جمادى الآخرة سنَة (٤٩٨ هـ). (شذرات الذّهب ٥/٤١٩).

(٢) فخرُ الإسلام أبو بكر محمّدُ بنُ أحمد بن الحُسَين شيخُ الشَّافعية ، وُلدَ في ميّافَارقين سنة (٥٢٩ هـ) ، ثمَّ لزمَ ببغدادَ الشَّيخَ أبا إسحاقَ الشّيرازي ، وابنَ الصَّبَّاغ ، وصنَّفَ وأفتىٰ ، ووليَ تدريس النّظامية ، ومنْ تَصَانيفه: «حِلْية العُلماء» ، وانتهتْ إليهِ رئاسةُ الشَّافعية بعدَ انقراض مشايخه ، فكان ينشدُ ويقولُ متواضعاً:

خَلَتِ اللَّيارُ فَسُدْتُ غيرَ مُسَوَّدِ ومن الغَنَاءِ تفرُدي بالسُّوْدُدِ قال ابنُ شهبة: «كان مَهيْباً وقُوراً ، مُتَواضعاً وَرِعاً ، وكان يلقَّبُ بينَ الطَّلبةِ في حداثَتِه بالجُنيد ، لِشدةِ وَرعهِ ، وله شغرٌ حَسَنٌ » وقع بينه وبينَ الدَّامغاني شيءٌ ، فأنشأ فيه الشّاشي:

حجَابٌ وإعجَّابٌ وفَرْطُ تَصَلُّفِ ومَدُّ يَدِ نحوَ العُلا بتكلُّفِ ولمَّ يَدِ نحوَ العُلا بتكلُّفِ ولمَوانَ هذا من وراء كفاية لهانَ ولكن من وراء تخلُّف توفي في شوّال سنة (٥٠٧هـ) ، ودُفِنَ عند الشّيخ أبي إسحاقَ الشّيرازي ـ رحمهما الله ـ (شذرات الذهب ٢٨/٦) بتصرف.

(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/٢٠)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٧٧)، والوافي بالوفيات
 (١٩١، ١٩٠/١٦) مع الجمع والتصرف.

(٤) سير أعلام النبلاء (٢/ ٢٥٥).

اختلاقاً وافتراء (١) ، وذلك كيما يروّج ما عنده منَ المعارفِ.

* وقد أقرَّ لشهدة بالفَضْل والعلْمِ شيوخُ عصرِها ، ومَنْ تلاهم ، ونعتوها بما تستحقّه من محاسنِ الفضائلِ ، وفضائلِ المحاسن ، ومن الخصائلِ الشَّريفة ، وشريفِ الخصائل ، وقد ذكرُوا وأجمعُوا على أنَّها كانت امرأةً ذات ديْن تعرفُ أمورَ ديْنها المترتبة عليها ، وأنَّها كانت ذات ورع ، وقد زيَّنتْ كلّ هذه الخصائل الطّيبة بالخصائلِ المباركةِ ، فكانت عابدةً قانتةً ذاكرةً لله آناء الليل وأطراف النهار وحين تصبح وحين تمسى (٢).

* وبعد أنْ تمكَّنت شهدةُ منَ العِلْمِ والحديثِ اشتُهِرَ ذكْرها ، وبَعُد صيتها (٣) ، حتى تجاوز الأمصار على بُعْدِ ما بينها ، ثمَّ تصدَّرتْ للتَّدريسِ ونَشْر العلْمِ ، فقد سمعَ عليها خلقٌ كثيرٌ من أكابرِ علماءِ الدّنيا في عَصْرها ، وكثيرٌ من مشاهيرِ الفقهاء ممنْ طارتْ بسيرِهم الرّكبان ، وتحلَّتْ بعلومهم الأفواهُ والآذان.

* وقد أورد الإمامُ الذَّهبيُّ ـ رحمه الله ـ في "سِيَرِه" سجلاً حافِلاً بأسماءِ طائفة ممّنْ حدَّث عن شهدة بنتِ الإبريّ من أكابرِ العُلماء والمصنفين ، وأعلياء الفقهاء والمحدّثين ، فقال: "حدَّث عنها: ابنُ عساكر ، والسَّمعاني ، وابنُ الجوزي ، وعبد الغني ، وعبد القادر الرّهاوي ، وابن الأخضر ، والشيخ الموفّق ، والشيخ العماد ، والشهاب بن راجح ، والبهاء عبد الرحمن ، والنّاصح ، والفخر الإربليّ ، وتاج الدّين عبد الله بن حمويه ، وأعزُّ بن العُلِّق ، وإبراهيمُ بن الخير ، وبهاءُ الدّين بن عبد الله بن حمويه ، وأعزُّ بن العُلِّق ، وإبراهيمُ بن الخير ، وبهاءُ الدّين بن

⁽١) انظر: نفح الطيب (٤/ ١٥٦) طبعة دار الفكر.

⁽٢) انظر في هذا: الوافي بالوفيات (١٧/ ١٩٠) بتصرف.

⁽٣) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٧٧) ، والوافي بالوفيات (١٧/ ١٩١).

الجمّيزي ، ومحمّد بن المنّي ، وأبو القاسم بن قميرة ، وخلْقٌ كثير»(١).

* وما ظنُّكَ _ أيها القارىء الكريم _ بامرأة تلامذتُها من عباقرة الدُّنيا: ابنُ عساكر(٢) ، وابنُ الجوزي ، والسَّمعاني ، وأمثالُهم ممن يعمرونَ الدُّنيا بالعِلْمِ والعَمَل؟!

* إِنَّ النِّساءَ شَقَائِقُ الرَّجَالُ في تَبَلَيْغِ الْعَلْمِ ، وَتَعَلَيْمِ الْكَتَابَةُ ، وَرُوايَةِ الحديثِ الشَّريف وأدائِه ، فَضْلاً عن تحمُّلهِ وطلبهِ ودراستهِ وتدريسهِ ومعرفةِ علومه ، وفي هذا المجال الطُّيِّب الكريم يقول محمّد بنُ علي

قال ابنُ شهبة: «فخرُ الشَّافعيةِ ، وإمامُ أهلِ الحديثِ في زمانهِ ، وحاملُ لواتِهم ، صاحبُ تاريخِ دمشق، وغيرُه من المؤلَّفات المفيدةِ المشهورةِ، وُلِدَ سَنة (٤٩٩ هـ) ، وَرحلَ إلى بلاد كثيرة ، وسمعَ الكثيرَ من نحو ألفٍ وثلاثمئة شيخ وثمانين امرأة ، وتفقّه بدمشقَ وبغدادَ ، وكان ديِّناً خيّراً يختمُ في كلّ جمعةٍ ، وأمّا في رمضانَ ففي كلّ يوم ، كثيرَ الأمْرِ بالمعروف ، والنّهي عِن المنكر».

وقال السَّمعاني: «هو ّكثيرُ العِلْم ، غزيرُ الفَصْل ، حافظٌ ، ثقةٌ ، متْقِنٌ ، ديِّنٌ ، خيرٌ ، حَسَنُ إلسَّمتِ ، جمعَ بينَ مِعرفةِ المتونِ والأسانيد ، صحيحُ القراءةِ ، متثبُّتُ ، مُحتاظٌ ، رحلَ وبالغَ في الطَّلَبِ ، إلى أنْ جمعَ مالم يجمعْ غيرُهُ ، وصنَّفَ التَّصانيف ، وخرَّج التَّخاريجَ». وله شعْرٌ حسنٌ منه قوله:

وأنفعُ كُــلّ نــوع منه عنــديّ وأحسنُــه الفَــرائـــدُ والأمَـــالـــيّ وإِنَّـك لـن تـرى للعِلْـم شيئـاً يحقَّقُــه كــأفــواهِ الــرَّجــالِ فكُن يا صَاح ذا حِرصَ عليه وخنه من الرِّجال بلا مَلالِ ولا تـأخـذُهُ مـن صُحـفِ فتُرمـيٰ توفى ابنُ عساكر في رجب سنة (٥٧١ هـ) ، ودُفن بمقبرة باب الصَّغير شرقى الحجرة التي فيها معاوية _ رضى الله عنه _ (شذرات الذهب ٦/٣٩٥_٣٩٧)

بتصرف.

من التّصحيف بالدَّاء العُضَال

⁽١) سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٥٤٢).

[«]ابنُ عساكر»: الحافظُ أبو القاسمِ عليُّ بنُ الحسن بنُ هبة اللهِ الدّمشقيّ محدّثُ الشّام ثقةُ الدِّينِ.

الشَّوكاني: «لم يُنْقَلْ عن أَحَدِ من العُلماء بأنَّه ردَّ خبرَ امرأةٍ لكونها امرأة ،. فكم من سُنَّةٍ قد تلقَّتُها الأُمَّةُ بالقَبول من امرأةٍ واحدةٍ من الصَّحابة ، وهذا لا ينكرهُ مَنْ له أدنى نصيب من علْم السُّنَّة»(١).

وقال شارحُ «مُسَلَّم الثّبوت»: «يُقبلُ خبر المرأةِ العَادلةِ من غيرِ مشاركةِ رجلِ معها؛ إذ اشتراط الذّكورة فيها بالنَّص» (٢).

* وذكر الإمامُ أبو الفرج بنُ الجوزي المتوفىٰ سنة (٥٩٧ هـ) في آخر مشيخته ، أنّه قد سمع الحديث من ثلاث نسوةٍ عالمات محدّثات ، وأوردَ بسنده عنهن ثلاثة أحاديث ، عن كلّ واحدة منهن حديثاً:

الأولى: فاطمةُ بنتُ محمد بن الحُسين بن فضلويه الرّازي البزّاز؛ قال عنها: «كانَتْ شيختُنا فاطمة واعظةً متعبّدةً، لها رباطٌ تجتمعُ فيه الزَّاهداتُ ، سمعتْ أبا جعفر بن المسلمة ، وأبا بكر الخطيب وغيرهما ، وتوفيتْ في ربيع الأوّل من سنة إحدى وعشرين وخمسمئة».

الثّانية: فاطمةُ بنتُ أبي حكيم عبد الله بن إبراهيم الخَبْرِيّ؛ قال عنها أيضاً: «كانت شيختُنا هذه خالة شيخنا أبي الفضل بن ناصر ، وكانت خيّرةً ، وتوفيتْ في رجب سنة أربع وثلاثين وخمسمئة».

الثّالثة: شُهْدَةُ بنتُ أحمد بن الفرج بن عمر الإبريّ؛ _ ضيفة هذه الصَّفحات المباركة _ قال عنها: «سمعتْ شهدةُ من جعفر بن السَّراج وطراد وغيرهما ، وكان لها خطُّ حسنٌ ، وعاشت مخالطة لدارِ الخلافةِ ، وكان لها برُّ ومعروفٌ ، وقاربتِ المئة ، وتوفيتْ في محرّم سنة أربع وسبعين

نيل الأوطار (٨/ ٢٢).

⁽٢) فتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (١/٤٤) بذيل المستصفى.

وخمسمئة ، ودُفنت بمقبرة باب بيرز»(١).

مِنْ أَحَادِيثِ ومَرْويَّاتِ شهْدَةً:

* كانتْ شهدة بنتُ الإبري من المحدّثات في بغداد ، وكانت تروي بالإسناد إلى رسول الله علي ، فقد ذكر أبو القاسم علي بن بلبان المقدسي رواية شهدة للحديث فقال: أخبرنا الحاجب أبو القاسم عبد اللطيف بن محمد بن عُبيد الله سبط التعاويذي قراءة عليه وأنا أسمع ببغداد في شهور سنة ثلاث وثمانين وستمئة ؛ قيل له: أخبرتْكَ الكاتبة فَخْر النساء شهدة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبري قراءة عليها وأنت تسمع في جمادى الآخرة سنة تسع وستين وخمسمئة ، فأقر به .

* قالت: أخبرنا الشَّريف الكامل نقيب النقباء أبو الفوارس طرادُ بنُ محمد بن علي الزَّينبي ، قال: أخبرنا أبو نَصْر أحمد بن محمد بن أحمد بن حسنون النَّرْسيِّ قراءة عليه وأنا أسمعُ في شهر رمضان سنة إحدى عشرة وأربعمئة ، قال: حدثنا أبو جعفر محمد بن عمرو بن البَخْتَريِّ الرّزاز إملاء ، قال: حدثنا محمّد بن عيسى بن حبان ، قال: حدّثنا سفيان بن عينة ، حدثنا عبد الله بن أبي بكر ، عن عبدِ الملك بن أبي بكر ، عن خلاد بن السَّائب بن خلاد ، عن أبيه: أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «أتاني جبريلُ عليه السَّلام فأمرني أنْ آمرَ أصحابي أنْ يرفعُوا أصواتَهم بالإهْلال»(٢).

⁽۱) انظر مشيخة ابن الجوزي (ص ۱۹۸ ـ ۲۰۲) ، وانظر تراجم هؤلاء النّسوة الثلاث في المنتظم لابن الجوزي في مواطن مختلفة.

⁽٢) انظر: المقاصد السنية (ص ٣١١)، والحديث أخرجه أبو داود في الحج برقم (١٨١٤)، والترمذي برقم (٨٢٩). وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (٥/١٦٢)، وابن ماجه برقم (٢٩٢٢)، ومالك في الموطأ (١٩٢١) و«الإهلال»: رفْعُ الصّوت بالتّلبية، يُقال: أهلَّ المحرِمُ بالحج يهلّ إهلالاً، إذا لتّى ورفع صوته.

* ومما ذكره ابنُ بلبان المقدسي من مرويات شهدةَ قال: أخبرنا أبو طاهر خليلُ بنُ أحمد بن علي بن خليل الصّرصري قراءةً عليه ببغدادَ في سنة ثلاث وثلاثين وستمئة ، قال: أخبرتنا الكاتبةُ فخرُ النّساء شهدة بنت أحمد بن الفرج الإبري قراءة عليها ، قالت: أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة النّعاليّ ، قال: أخبرنا أبو الحسين عليُّ بن محمد بن عبد الله بن بشران ، قال: أخبرنا إسماعيل بن محمّد بن إسماعيل الصّفار ، حدثنا عبد الكريم ، حدثنا أحمد بن القاسم بن أبي إسماعيل العبّاس الوليد بن عبد العزيز بن عبد الملك بن جريج ، قال: حدثتني أمّي عن جدّي عبد الملك ، عن عطاء بن أبي ربّاح ، عن أبي الدّرداء ، قال: «سمعتُ رسولَ الله عليه من فَلْقِ فِيْهِ إلى أذني هذه ، ورآني أمشي بين يدي أبي بكر وعمر ، فقال لي: «يا أبا الدّرداء! أتمشي بين يدي أبي بكر وعمر ، فقال لي: «يا أبا الدّرداء! أتمشي بين يدي أبي بكر وعمر ، فقال لي: «يا أبا الدّرداء! أتمشي بين يدي من هو خيرٌ منك»؟

فقلت: ومَنْ هو يا رسول الله؟

فقال: أبو بكر وعمر ، ما طلعتِ الشَّمس ولا غربت على أحدِ بعد النَّبيين خير من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما (١).

* ومن الأخبارِ الأدبيّةِ التي روتْها شهدةُ ، ما رواه أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم» عنها قال: «أخبرتنا شهدةُ بنتُ أحمد الكاتبة ،

⁽۱) انظر: المقاصد السنية (ص ٤٩٤). والحديث رواه أبو نعيم في «الحلية» (۳/ ٣٢٥)، وذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية في الأحاديث الواهية» عن الدارقطني قال: روى إسماعيل بن يحيى التميمي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن جابر؛ أن رسول الله علي رأى أبا الدرداء يمشي أمام أبي بكر. . . إلخ الحديث. قال الدارقطني: إسماعيل ضعيف، وغيره يرويه عن عطاء، عن أبي الدرداء، والحديث غير ثابت.

قالت: أخبرنا جعفر بن أحمد السَّرَّاج قال: كنتُ مارّاً بين تيماءَ ووادي القُرى مبادراً من مكّة ، فرأيتُ صخرةً عظيمةً مَلْسَاء فيها تربيعٌ بقدرِ ما يجلسُ عليها النَّفر كالدِّكة ، فقال بعضُ من كان معنا منَ العربِ ، وأظنُه جُهنيّاً: هذا مجلسُ جميل وبُثينة ، فاعْرِفْهُ (۱).

* ومن الجديرِ بالذّكر أنَّ ابن الجوزي قد روى جملة صالحةً من كتابه «ذمّ الهوى» عن شهدة ، وفيه كثير من الأخبارِ الجميلةِ التي تدلُّ على رسوخِها في العِلْم ، والأدبِ ، وسائرِ العلومِ والمعارف ، وروت هي كتاب الصَّمت واليقين لابن أبي الدنيا.

أثارةٌ مِنْ شِعْرهَا:

* يبدو أنَّ شهدةَ بنتَ الإبري الدَّينوريّة كانت تجيدُ نظْمَ الشِّعرِ وقرضِهِ ، وأنَّ لها باعاً طويلاً في هذا الميدانِ الجميلِ. وهذا ليس بغريبٍ على امرأةٍ رَوَتْ عدداً من الكتُبِ الأدبيّة وكتُبِ الأخبارِ ؛ التي تزخرُ بنفائسِ الأَشْعَارِ ، وروائع النظم ، وبدائع الحكم.

* وقد أوردتْ بعضُ المصادر لشهدة قصيدة نونيّة من بحرِ الكامل تعدُّ (١٦ بيتاً) ، ومضمونُها الغَزَل ووصفُ المحبوبة الشّابة ذات العينيْن السَّاحرتَيْن ، والتي تسكنُ العقيقَ في الحجاز ، وتتابعُ وصْفَ سائِر الأشياء كما سنقرأ.

* ومن المصادر التي أوردت هذه القصيدة: «الوافي بالوفيات» ، وهذه الجَلساء في أشعار النّساء ، وقد قُبَسها الأخير كاملة من الأوّل ونسبَها إليه .

* قال صلاحُ الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي: «رأيتُ بخطِ بعض

⁽١) انظر: المنتظم (٦/ ٤٢) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت.

الأفاضلِ يقولُ: نقلتُ من مجموع بخط الصَّاحب كمال الدِّيْن ابن العديم لشهدة بنتِ الإبريّ الكاتبة»(١).

* ثمَّ يوردُ الصَّفديُّ قصيدةً نونيّةً قوامُها (١٦ بيتاً) وهي :

مِلْ بِيْ إلىٰ مَجْرَىٰ النَّسيم الوَاني وَإِذَا العُيونُ شَنَنَّ غَارَةَ سِحرِهَا فَاحْفَظْ فُؤادَكَ أَنْ يُصَابَ بنظْرَةِ مِنْ كُلِّ جَائِلةِ الوشَاحِ يهزُّهَا بِيضٌ غَنيْنَ بحُسْنِهنَ عنَ الحِلَىٰ سكنُوا العقيقَ وحرَّكُوا بِغرامِهمْ حَمَّلْنَهُ ثِقَلَ السُّلوِّ فَلَمْ يَطِقْ سَلَبَتْ م يسومَ الـدُّوحتَيْنِ طليْعَـةٌ حَتَّام تُقْرطُ في الصَّبابةِ أَضْلُعِي وإذَا تبسَّمَ ثغْرُ بِرق مُنْجِدٍ يا حَادِيَ النَّكْرَانِ هَلْ لَكَ رَوْحَةٌ فَتُذَكِّرَ النَّاسينَ عَهْدي بالحميٰ وذكرتُ ميدانَ الودَاع فأرسَلَتْ لَمْ أَخْشَ من ظَمأ الحوادثِ إذ عَرَتْ إِنْ مسَّني سَغَبٌ قَرَاني غَرْبُهُ وإذا السُّيوفُ تحدَّثَتْ لجفُونها

واجْعَلْ مَقَيْلَكَ دَوْحَتَى نُعْمَانِ ورمَيْنَ عنْ حِصْن المُتونِ حَوَانِ عَرضًا فَآفَةُ قُلْبِكَ العَيْنَانِ مَرحُ الشَّبابِ اللَّـدْنِ هـزَّ البَـانِ ولذاك أسماء النّساء غَواني قَلْبِ أَيكِ اذُ يَطيرُ بِ الخَفَق ان فأطعْنَهُ في طَرْحهِ وعَصَاني نزلَتْ بهذا الحيّ منْ غَطَفَانِ وتلحُّ مِنْ عَبَراتِها أَجْفاني أغْرىٰ دموعَ العَيْن بالهَمَلانِ بالعُمْرِ عند مَسَارِح الرَّعَيَانِ فجديدُهُ أَبْلاهُ مَن أَبْلاني عَيْنِي إلى أمَدِ البُكَاء عنَاني ومعى نظيرُ الجدولِ الرّيانِ أو قلَّنِي ظَمَأٌ فَرِي فَسَقَانِي فحديثُهَا منه بأَحْمر قَاني (٢)

⁽١) الوافي بالوفيات (١٦/ ١٩١).

 ⁽۲) انظر: الوافي بالوفيات (۱۹۱/۱۶ ۱۹۲)، ونزهة الجلساء في أشعار النساء
 (ص ٤٧ ـ ٤٩).

وبعد أَنْ أُوردَ صلاح الدِّين الصَّفدي هذه القصيدةَ الجميلةَ لشهدةَ قال: «أَنَا أَسْتِبعدُ أَنْ يَكُونَ هذا الشِّعْرُ لشهدةَ ، على أنّي رأيتُه أيضاً في مجموعٍ قديم بخطِّ فاضلِ وقد نَسَبهُ إليها ، والله أعلم (١).

ومعنى «شننّ»: شَنَّ عليهمُ الغَارةَ؛ صبَّها وفرّقَها من كلّ وجْهِ ، و «الوشاح»: كلُّه حلي النّساء ، كِرْسَان من لُؤلؤ وجوهَرٍ منظومان مُخالَفٌ بينَهما معطوفٌ أحدهما علىٰ الآخر ، تتوشّحُ به المرأةُ ، و «اللّدن» الليّنُ منْ كُلِّ شيءٍ. و «البان»: شَجَرٌ يسمو ويطولُ في استواءِ مثل نباتِ الأثل ، ولاستواءِ نباتِها ونباتِ أفنانِها وطولها ونعمتها شبّه الشُّعراءُ الجاريةَ النَّاعمةَ بها.

"غَواني": جاء في لسانِ العرب: الغانيةُ التي غَنيتْ بحسنِها وجمالِها عن الحليّ؛ وقيل: هي التي تُطْلبُ. وقيل: الشّابة العفيفةُ ، كان لها زوجٌ أو لم يكنْ. و"العقيق": وَادِ بالحجازِ ، وفي بلادِ العربِ مواضعُ كثيرةٌ تسمّىٰ العقيق؛ قال أبو منصور: ويُقال لكلِّ ما شقّه ماءُ السّيل في الأرضِ فأنْهَره ووسّعَه: عقيقٌ؛ والجمعُ: أعقة وعقائق ، و"الصّبابة»: الشّوق ورقة الهوى. و"العبرات»: الدُّموع. و"الثغر»: الفم. و"الهملان»: الفينضان والسّيلان. و"الحادي»: المتعمد للشّيء ، وحادي الإبل: زاجرها وسائقها. و"السّغب»: الجوعُ. وقيل: هو الجوعُ مع التّعب ، و"قراني»: قرى الضّيف: أضافه. و"غَرْبُه»: الغَرْبُ: الرَّاوية التي يُحمل عليها الماء. والغرب: الدّلو العظيمة. و"قاني»: شديد الحمرة.

انظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (١٩٢/١٦). وللصَّفدي أحكامٌ على الشعارِ النساء، وكثيراً ما تكونُ أحكامُه نابعةً عن ذوقِ جميل يدلُ على خِبْرتهِ بالشَّعْر، فهو شاعرٌ مفْلقٌ له شعرٌ يدلُ على فحولته، ولذلك فإنّه حكمَ على شغرِ إحدىٰ النِّساء بأنّه نازِلٌ، فقد ذكرَ في ترجمةِ الكاتبةِ البغداديّة ما نصَّه: "صفيّةُ بنتُ عبدِ الرحمن بنِ محمّد بنِ عليّ بنِ يعيش، الكاتبةُ البغداديّةُ، كانتْ واعظةً أديبةً فاضلةً، توفيتْ سنةَ عشرين وستمئة. وسَمعَتْ هذا البيت:

إِذَا مَا خَلَتْ مِنْ أَرْضِ نجدٍ أُحبَّتِي فَلَا سَالَ وَادْيَهِا وَلَا اخْضَرَّ عُـودُهَا

يلـــــذُ لِسَمعـــي شَـــــدُوُهـــا ونشيـــدُهَــا وأنشــدُ لَيْـــلَاتٍ مضَــتُ مَــنْ يعيُــدهـــا

إذا مَا خَلَتُ مَنْ أَرضِ نَجَدٍ أَحَبَّتَنِي فأجازَتُه بقولها:

ولا نَطَقَتْ في السَّربع بَعْدكَ غَادةٌ وإنّي لأبكي السَّربعُ مَذْ بِـانَ أهلُـهُ قلتُ: شعرٌ نازِلٌ غير متعلقِ بالأوّل».

* وهكذا كانت شهدة عالمة وأديبة تنظم الشّعر، وتتعاطى حرفة الأدب، لتزيد من فضائل معارفها، ولتكونَ إحدى النّساء الفاضلات النبيلات اللواتي يردّدُ الزّمانُ صدى أعمالهنّ ، وكأنّ لسانَ حالهن يقول: تِلْكَ آثارُنَا تَدلُ علَيْنَا فَانْظُروا بَعْدنَا إلى الآثارِ

ثَـنَاءُ العُلَمَاءِ والأَكَابِرِ عَلَيْهَـا:

* انتزعتْ شهدةُ إعجابَ العلماءِ والأدباءِ والمصنّفين بما آتاها اللهُ من نجابةٍ في العِلْمِ ، وسَعةٍ في روايةِ الحديثِ وإملاءِ الكتُبِ النَّافعة على مُحبّي العلْم وطلابِ المعرفةِ الذين يَفِدونَ عليها منْ مكانٍ بعيد.

* ففي كتُبِهم ومصنّفاتهم أثنى عليها الكبراءُ والأعلام ، وشهدوا لها بالفَضْل والعلْم والمكانةِ العُليا في عالَم المعرفةِ ، وراحت ألسنةُ معاصريها تتحدَّثُ عنها وعن علمها بما هي أهلٌ له ، بينما راحَ المؤلّفون والمصنّفون في مختلفِ الأمصارِ والأعصارِ فيما بعد يتوارثون هذه السُّمعة الطّيّبة ، ومن ثمّ يصوغُ كلُّ واحدٍ منهم ما يراه في شهدةً صاحبة العِلْم والفَضْل.

* ففي «المنتظم» يقولُ عنها تلميذُها ابن الجوزي:

«شهدة بنتُ أحمد بن عمر الإبري ، المدعوة فخر النساء ، سمعتِ الحديث وكان لها برُّ وخير ، وقُرىء عليها الحديث سنين . . . » (١) .

* ونقل الذَّهبيُّ عن الشَّيخ الموّفق أنَّه قال عن شهدةَ: «انتهي إليها إسنادُ

 ⁽الوافي بالوفيات ٢١٨/١٦ و٣٢٩) ، وانظر أحكامه على شعر النساء في (أعيان العصر ٣/ ١٣٩٧).

⁽١) المنتظم (١٨/ ٢٥٤) باختصار وتصرف ، طبعة دار الكتب العلمية .

بغدادَ ، وعُمِّرَتْ حتى ألحقتِ الصَّغَارَ بالكبارِ ، وكانت تكتبُ خطأ جيّداً ، لكنّه تغيّر لكبرها»(١).

* وأثنى الذّهبي نفسُه عليها فقال: «الجِهةُ المعمَّرةُ الكاتبةُ ، مسندةُ العراقِ ، فخرُ النّساء »(٢).

* وقال الذَّهبيُّ في الثَّناء عليها أيضاً: «كانت ديّنةً عابدةً صالحةً ، سمَّعَها أبوها الكثيرَ ، وصارت مسندة العراق»(٣).

* وامتدحها صلاحُ الدّين الصّفدي وذكرَ بعضَ خصائِلها الجميلة وما حبَاها اللهُ من معارفَ فقال ما مفاده: «شهدةُ... الكاتبةُ فخرُ النّساء ، مسندةُ العراق ، كانت ذات دينِ وورع وعبادة ، سمعتِ الكثيرَ وعمرّت ، وكانت تكتبُ خطاً مليحاً... وعاشتْ مخالطةً لأهَلِ العلْم ، وكان لها برُّ وخيرٌ... وكانت تكتبُ على طريقِ الكاتبة بنت الأقرع ، وما كان في وخيرٌ... وكانت مثلها ، وكان لها السَّماع العَالي ، ألحقتِ الأصاغرَ بالأكابر... واشتُهرَ ذكرُهَا وبَعُدَ صيتها (٤).

* وفي "وفياته اثنى عليها ابن خلكان وذكر بأنّها كانت عالمة كاتبة فقال: "شهدة بنت الإبري، فخر النّساء... الكاتبة كانت من العُلماء، وكتبت الخطَّ الجيِّد، وسمع عليها خَلْقٌ كثيرٌ، وكان لها السَّماعُ العالي ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر... واشتُهِر ذكْرُها، وبَعُدَ صيْتُها... "(٥).

سير أعلام النبلاء (۲۰/ ۵٤۳).

⁽٢) المصدر السابق نفسه (۲/ ٥٤٢).

⁽٣) العبر للذهبي (٢٢٠/٤).

⁽٤) الوافي بالوفيات (١٦/ ١٩٠ و١٩١) بتصرف واختصار يسير.

⁽٥) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٧) بتصرف.

* ولم يتركِ الشيوطيُ ترجمتها دون أنْ يثنيَ عليها في "نُزهته" حيث قال: "شهدةُ... الكاتبةُ فخرُ النّساء ، ومسندةُ العراق ، كانت ذات دِيْنِ وورعِ وعبادةٍ ، سمعتِ الكثيرَ ، وعمّرتْ ، وكتبتِ الخطَّ المنسوبَ على طريقةِ الكاتبةِ بنت الأقرع ، وما كان في زمانها مَنْ يكتبُ مثلها ، وكان لها الإسنادُ العالي ، ألحقتِ الأصاغرَ بالأكابرِ ، واشتُهِرَ ذكرها ، وبَعُدَ صيتها ، واختصّت بالخليفةِ المقتفي وقاربتِ المئة "(۱).

* وأمّا ابنُ العماد فقد شهدَ لشهدةَ ببرّها وفَضْلِها وعلمها فقال: «شهدةُ بنتُ أبي نصر... الكاتبةُ المسندة ، فخرّ النّساء ، كانت ديّنةً عابدةً صالحة ، سمّعَها أبوها الكثيرَ ، وصارت مسندةُ العراق.... وكانت ذات برّ وخير..»(٢).

* وافتتحتْ زينبُ بنتُ يوسُف فواز العامليّة ترجمةَ شهدة بالنَّناء عليها وعلى صِدقها بالرّواية ، وإجادتها الخطّ الجميلَ ، ومآثرها في العُلوم فقالت: «كانت منَ العُلماءِ الأكابرِ المحدّثات الصّادقات بالرّواية ، تعلّمتِ الخطَّ الجيّدَ ، وأخذتِ العِلْمَ عن كثيرٍ من العَلماء ، وأجازوها إجازة لم تسبقُ لغيرها ، وأخذ عنها كثيرون ، وكان لها النَّفَسُ العَالي ألحقتْ فيه الأصاغرَ بالأكابرِ . وألَّفَتْ جملةَ رسائل في الحديثِ والفقْهِ والتَّوحيد ، ومآثرهُا كثيرةٌ في أصنافِ العُلُوم» (٣).

* وفي «روضته الفيحاء» ذكرها ياسينُ العمريّ بالثنّاء والمديح، ووصفَها بالعِلْمِ والورعِ والصّومِ وإقراء الطّلاب وشُدَاةِ العِلْم، فقال: «شهدةُ بنتُ أحمد بن الفرج العالمةُ الفاضلةُ الصَّالحةُ ، الورعةُ العابدةُ ،

⁽١) نزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٤٧) بتصرف.

⁽٢) شذرات الذهب (٦/ ٤١٠ و ٤١١) باختصار يسير.

⁽٣) الدر المنثور (ص ٢٥٦ و٢٥٧) باختصار يسير جداً.

التَّقيةُ ، برعَتْ في العلومِ ، وأتقنتِ المنطوقَ والمفهومَ ، وكانت تصومُ الإِثنينَ والخميسَ ، وتَعِظُ النِساء الوعظَ النَّفيس ، واشتُهِرَ فضلُها في الآفاق ، ونَما بالعراق ، ولها مشاركةٌ في كثيرٍ من العُلوم لاسيما الفقْه ، وعلْم التقسير ، وعلْم الحديث ، وكانت تجلسُ من وراءِ حجاب ، وتقرىءُ الطُّلاب ، وتلمذَ عليها خَلْقٌ كثير . . . وتُعَرفُ بالكاتبة »(١).

* وأثنى عليها في مفتتح ترجمته لها عمر رضًا كحّالة فقال: «شهدةً... عالمةٌ فاضلةٌ وكاتبةٌ مجيدةٌ ، ذاتُ ديْنِ وصَلاحٍ وبرِّ وإحسان ، وُلدتْ ببغدادَ ، وسمعتْ من أكابرِ عُلماءِ عَصْرها »(٢).

* وخلاصةُ القولِ ، فإنَّ شهدةَ كان لها باعٌ طويلٌ في الخطّ ، حيثُ سَحَرتْ أعْيُنَ النُّظّار ، وفتنَتْ نفوسَ المشتغلين بهذا الفنّ العربيّ الأصيل؛ وكانَ لها في الحديث يدٌ طولى أيضاً ، وأصحابُ السِّير والعُلماء والفقهاء يذكرونها بألقابٍ منها: سَندُ الحديث ، وفَخْرُ النّساء ، ومسندُ العراق ، والفاضلةُ ، والورعةُ ، والخطّاطةُ ، وما شابَه ذلك من أشياءَ عظيمة جعلتُها من النّساء العالماتِ اللواتي طار صيتهنّ في البلادِ ، وعُرِفْنَ في كلّ وادٍ ونَاد .

الشَّيْخَةُ المُعَمَّرةُ:

* كانت شهدةُ واحدةً من نساءِ المشرقِ اللواتي عمّرنَ عمراً طويلاً ، فقد ذكروا أنّها عُمّرت حتى قاربتِ المئة؛ وكانت حياتُها الطويلةُ هذه التي تقتربُ من قرنِ من الزَّمان حياةَ علْم وعملِ وفضْلِ وأثرِ طيّبٍ في أفاضلِ عَصْرِها ومنهم: فخر الدِّين ابن تيمية الحرّاني المقرىء الواعظ الفقيه الحنبليّ شيخ حرّان وخطيبها.

⁽١) الروضة الفيحاء (ص ٢٨٤ و٢٨٥).

⁽٢) أعلام النساء (٢/ ٣٠٩).

* فقد كان رجُلاً فاضلاً ، تفرد في بلده بالعِلْم ، وكان المشارُ إليه في الدِّين ، لقيَ جماعةً من العُلماء ، وأخذَ عنهم العلوم ، ثمَّ قدمَ بغداد ، وسمع الحديث بها من شهدة بنتِ الإبري ، ولازم ابن الجوزي ، وقرأً عليها «زاد المسير في علم التفسير » قراءة بحثِ وفَهْم ، وكانَ زاهِداً يُعَدُّ من الأَبْدال ، وأخذَ في التّدريس والوعظِ والتّصنيف ، وإلقاء التّفسير بكرة كلّ يوم بجامع حرّان ، واظبَ على ذلك حتى فسّر القُرآن الكريم خَمْسَ مرّات . وكان بارعاً في تفسيرِ القرآنِ وجميع العُلوم ، له فيها يدٌ بيضاء ، وكان شيخاً صالحاً فاضلاً حسنَ الأخلاقِ صدوقاً متديناً ، توفي بحرّانَ سنة (٦٢١ هـ أو ٦٢٢ هـ) رحمه الله تعالى (١٠) .

* أمّا شهدة فقد عاشت عمراً طويلاً حتى وافتها المنية يوم الأحد ثالث عشر المحرّم سنة (٥٧٤ هـ) ، وصُلّيَ عليها يوم الإثنين رابع عشر المحرم بجامع القَصْر ببغداد ، وأزيل شبّاك المقصورة لأَجْلِها ، وحضرها خلق كثيرٌ ، وعامّة العُلماء ، ودُفِنَتْ بمقبرة باب أبرز ، وقد نيَّفَتْ على تسعين سنة منْ عمرِها رحمها الله تعالى (٢).

* ومن الجدير بالذّكر أنَّ زوجَها عليُّ بن محمد قد نُقِلَ من قبرِه في داره برحبة الجامع إلى جوارِ زوجته شهدة ، حيث دُفنا بباب أبرز قريباً منَ المدرسةِ التّاجية ، وذلك في محرّم سنة (٥٧٤ هـ)(٣).

* وهكذا كانت شهدة بنت الإبري واحدة من كواكب نساء المشرق العربي ، رحمها الله تعالى ، وبها فلتقد النّساء في كلّ عَصْر ومصْر.

^{* * *}

⁽١) شذرات الذهب (٧/ ١٧٩ و ١٨٠)، ووفيات الأعيان (٤/ ٣٨٦ و٣٨٧) مع الجمع والتصرف.

⁽۲) المنتظم (۱۸/ ۲۰۶)، ووفيات الأعيان (۲/ ٤٧٧)، والكاّمــل (۱۱/ ٤٥٤) والمصادر السابقة.

⁽٣) وفيات الأعيان (٢/ ٤٧٨).





فاطنر بنت إبراهيم لبطائحيه

- * محدِّثة ، فاضلة ، عابدة ، دیننة ، فقیهة ، صالحة ، خیّرة ، کاتبة ، مُسندة .
- * لها آثار عظيمة في مجال خدمة السنة الشريفة ، ونَقُل العلم إلى أربابه ، وكانت إحدى الخالدات في سجل الخالدات.





النحَيِّرةُ أُمُّ النحَيْرِ:

* أمُّ الخيرِ هذه امرأةٌ محدّنَةٌ فاضلةٌ ، وهي واحدةٌ من جواهرِ هذهِ الموسوعةِ المُباركةِ من نساءِ المشرقِ العربيّ ، وهي واحدةٌ منَ الفواطِم اللواتي أثريْنَ عصرهُنَّ في علْمِ الحديثِ النَّبويّ الشَّريف ، وكُنَّ من المجليات السَّابقات في العبادةِ والدّينِ والفقْه والصَّلاح.

* وهذه المرأةُ المحدَّثةُ منَ المخضرماتِ من نساءِ القرنِ السَّابِعِ والثَّامن الهجريّ؛ واسمُها: فاطمةُ بنتُ إبراهيمَ بنِ محمود بن جوهر البعلبكيّ المعروف بالبطائحيّ.

* ويُقال لهذه العالمةِ اختصاراً: فاطمةُ بنتُ جوهر ، أو بنت البطائحي ، وتكنى بكنيتَيْن: أمّ الخير؛ وأمّ محمّد(١).

* كان مولدُ فاطمةَ بنت البطائحي في الرُّبع الأوّل من القرنِ السَّابع الهجري ، قال صلاح الدّين الصَّفدي: «ومولدُهَا سنة (٦٢٥ هـ)»(٢).

* وُلدَتْ فاطمةُ في دمشقَ الشَّام ، وأكَّدَ على هذا ابنُ القاضي في

⁽¹⁾ مرآة الجنان (٤/ ٢٥٠)، والدرر الكامنة (٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١)، ودرة الحجال في أسماء الرجال لابن القاضي (٣/ ٢٦٤) تحقيق. د. محمد الأحمدي أبو النور ـ المكتبة العتيقة ـ تونس ـ (١٣٩١ هـ)؛ وأعلام النساء (٤/ ٢٥)، وأعيان العصر وأعوان النصر (٣/ ١٣٩٢ ـ ١٣٩٣)، تحقيق فالح أحمد البكور ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ النصر (٣/ ١٣٩٢ ـ ١٣٩٣)، وقيل العبر (٤/ ٢٨)، وتذكرة الحفاظ (ص ١٤٩٥)، وغيرها.

⁽٢) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

ترجمته لها عندما قال: «الشَّيخةُ ، الخيّرةُ ، الفاضلةُ ، الكاتبةُ أمّ الخير ، وأم محمّد ، من أهل الشَّام.. »(١).

* بينما افتتحَ الصَّفديّ ترجمتَها بقولهِ: «أمّ محمّد البطائحيّة البعليّة ، فاطمةُ بنتُ إبراهيم بن محمود بن جوهر الشَّيخةُ المعمّرةُ المسندةُ العَابدةُ (٢٠٠٠).

أُسْرِتُهَا وأولادُهَا:

* كانتِ المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن فاطمةَ البطائحيّة نادرةً جدّاً ، أمّا الحديثُ عن زوجِها وأولادِها فأكثرُ نُدرةً ، وأصعبُ منالاً ، وقد استخلصْنَا أشياءَ بسيطة عن أسرتها وأولادِها من خلالِ ثنايا ترجمتِها ، وقد كلّفنا ذلك عناءً كبيراً ، وجهداً لا يعلمُه إلا الله عزّ وجلّ ، لأنّنا كنّا نعودُ إلى عدد كبير من المصادرِ المتنوّعة كيما نتعرّفُ على أولادها؛ فقد أوردَ صلاحُ الدّين الصّفدي في ترجمته لفاطمة البطائحيّة بأنّها والدةُ الشّيخ إبراهيم بن قُريشة ، وعُدنا من خلالِ هذه الإشارة إلى ترجمته في السَّيخ إبراهيم بن قُريشة ، وعُدنا من خلالِ هذه الإشارة إلى ترجمته في الله والدّونيات العَصْر» ، و «شذراتِ الذَّهب» و «الوافي بالوفيات» ، وغيرِ ذلك من مصادرَ ومراجع ، حتى استطعنا أنْ نرسمَ صورة بله ولأمّه أكثر وُضوحاً ، كيما نتعرف حياتها العلمية بشكلٍ أقرب إلى الصّواب.

* وتشيرُ المصادرُ إلى أنَّ فاطمةَ قد تزوَّجت من أحدِ أعيانِ عَصْرِها عِلماً وأدباً ومكانةً ، ويدعى بركات بن أبي الفضل البعليّ المعروف بابن

⁽١) أعيان العصر (٣/١١٩٣).

⁽٢) درة الحجال (٣/ ٢٦٤).

القريشة ، وقد أثمرَ هذا الزّواج المبارك عن إنجابِ عددٍ من الأولاد النُّجباء العُلماء الأكابر ، فولدت له ابنها أبا إسحاق نور الدّين إبراهيم (١) ، وعنيتْ عنايةً فائقةً بهذا الابنِ ، فقامَتْ بتعليمهِ ، فأسمعَتْه الحديثَ على عددٍ من مسندي العَصْر ، ثمّ إنَّه سمعَ بنفسهِ الحديثَ والفقْه وتصوَّفَ ، وعلا إسنادُه ، حتى إنَّ البرزالي قد خَرَج له مشيخة .

* ولعلَّ إبراهيمَ هذا قد سمعَ من أُمّه فاطمةَ البطائحيَّة ، وأخذَ عنها الحديثَ أسوةً بعلماءِ عَصْره ، فهي أمُّه ولاشكَّ في أنَّه قد سمعَها ، وكان لها كبير الأثرِ في حياتهِ العلميّة.

* ولفاطمة البطائحية ولدٌ آخر يُدعى عبد القادر بن بركات(٢) ، وقد

⁽۱) إبراهيمُ بنُ بركات بنِ أبي الفضل الشّيخ الصّالح ، أبو إسحاق الصّوفي البعلبكيّ الحنبليّ ، المعروف بابن قُريْشَة ، أحدُ الأعيانِ الصّوفية ، وأكابرُ الفقهاء القادريّة ، وَلَيَ مشيخةَ الشّبليّة والأسديّة بدمشقَ ، وإمامَ تربةِ بني صَصْري.

⁻ سمع عن أعيانِ العُلماء ، وروى الكثيرَ واشتُهِر ، وكان صديقاً لوالدِ ابنِ حجر ، وسمع منه جماعة ، وأجازَ لصلاح الدّين الصّفدي في سنةِ (٧٢٨ هـ) بدمشق ، وكان شيخاً ذا شيبةِ منوّرة ، وشكالَةٍ بالمهابةِ مسوّرة ، حسنَ الملتقى لمن يعرفُه ، كثيرَ الإنصافِ لمن اجتمع به وإن كانَ ما ينصفُه، حلوَ المذاكرة ، ظريف المحاضرة ، وقد صحبَ المشايخَ ورآها ، ودخلَ غاب أُسْدِهم وعَراها ، عليه أنْسُ الفقراء ، وحشمةُ الأمراء ، روى عنه عَلَمُ الدّينِ البِرزالي في حياتِهِ وغيره ، وعاشَ هو من بعده وما انقطع سَيْره ، ولم يزلُ على حالهِ إلى أنْ لبسَ كفّنَه ، ولحدّهُ اللاحِدُ و فَنَه .

وُلدَ سنة (٦٤٨ هـ) وتوفيَ سنة (٧٤٠ هـ) بجبل الصَّالحية رحمه الله. (شذرات الذهب ٨/٢١٩) ، و(أعوان العصر ٢/٣٦_٣٧).

⁽٢) عبـدُ القادر بـنُ بركات بـنِ أبي الفضّل بن أبي عليّ الدّمشقيّ ، محييّ الدِّين الصُّوفي المعروف بابن قُريشة البعليّ؛ وُلد عبدُ القادر سنة (٢٥٢ هـ) ، وسمعَ على كبارِ عُلماءِ عَصْره ، وأسنَّ وكبرَ وعجزَ عن المشي ، وكان يركبُ حِماراً ، وكانت له خصوصيّـةٌ بالقاضي نجم الدِّين بـن صصري. توفيَ في سنـة (٧٤٩ هـ) في =

سمع ابنها هذا على عددٍ من حفّاظ العصرِ ، وربّما سمع من أمّه.

* وكان لفاطمة أولادٌ آخرين منهم: تقي الدِّين محمد بن بركات (١)، وربما كان لفاطمة أولادٌ آخرون ، بيد أنَّ المصادرَ لم تذكرهم ، لأنّهم لم يشتهروا في ميادينِ العلْم أو الرّواية.

العَالِمَةُ المُتَعَلَّمَةُ المُسْنِدَةُ:

* شاركتْ فاطمةُ ابنة إبراهيم البطائحيّ علماءَ عصِرها في تلقّي الحديثَ الشَّريف من خلالِ طُرقِ الآداءِ آنذاك ، وهي: القراءةُ ، والسَّماع ، والإجازةُ ، والمُكاتبة.

* إِنَّ فاطمةَ وكثيراً من النِّساء العالمات في عصرِها ، قد أديْنَ ما تحملْنَه من علم قراءةً عليهن أو سماعاً منهن أو إجازةً ، وإِنَّ قليلاً منهن مَنِ اقْتَصَر أداؤُها على الإجازةِ والمكاتبةِ فقط. وقد شاركتِ المحدَّثات في هذا الأمرِ ، فكُن يُجِزْنَ الطلبةَ بعد القراءة عليهم ، أو من غيرِ قراءة.

* ولقد أخذتْ فاطمةُ الحديثَ عن عددٍ من محدّثي عصرِها ومُسنديه ، فقد سمعتْ صحيحَ البخاري مرّات عن مسندِ الوقتِ ، الشّيخ المعمّر ، الحُسين بن المبارك بن محمد الزّبيديّ المتوفى سنة (٦٣١ هـ).

طاعون دمشق ـ رحمه الله تعالى ـ. (الدّرر الكامنة ٢/ ٣٨٩) و(أعيان العصر ١٠٠٩/٢).

⁽۱) محمد بنُ بركات بن أبي الفَضْل بن أبي علي الشّيخ تقي الدِّين أبو عبد الله بن الشّيخ الصّالح البعلبكي المعروف بابن القُريشة ، سمع منَ الفقيهِ محمّد اليُونيني ، وشيخ الشّيوخ بحماة ، وكان شيخ الخانقاه ، والشّبلية بظاهر دمشق ، توفي بحصن الأكراد في (۱۷ رمضان) سنة (۷۲٤ هـ). وكان مولدُهُ سنة (٦٤٥ هـ) في بعلبك.

 * وسمعت كذلك صحيح مسلم من ابن الحصيري شيخ الحنفية المتوفى سنة (٦٣٦ هـ).

 « وسمعت كذلك من عبد الله بن الحُسين بن عبد الله بن رواحة الأنصاري المتوفى سنة (٦٤٦ هـ) (١).

* ولما اشتد عودُ فاطمة في علمِ الحديثِ ، وصلُبَتْ قناتُها ، وغدت أستاذة من كبارِ المُسندات في عصرِها ، وبعد أنْ قضَتْ شطراً من عمرِها في طلبِ العلْمِ والحديثِ ، أخذت تؤدّي أمانة العلمِ ، وتبلِّغه ، وتنشرُه بين أهله.

* وتذكرُ المصادرُ أنّها بدأتْ بالتّحديث قديماً من زمن ابن عبد الدّايم المتوفى سنة (٦٦٨ هـ)(٢) ، ولا ندري أينَ حدّثت ، وأغلب الظّن أنّها حدّثت بدمشقَ ، والدّيار المقدسة.

* فقد ذكر الرّحالة محمد بن عمر بن محمد المشهور بابن رُشَيد (٣) السّبتي أنَّه لقي فاطمة بنت إبراهيم البطائحي في رحلته إلى الحج بمسجدِ الرّسولِ ﷺ ، وأنَّه قرأ وسمَع عليها هناك وأجازت (٤) له ولأبنائه وبناته ،

⁽۱) انظر: شذرات الذهب (۸/ ۵۲).

⁽۲) انظر: أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

⁽٣) ستأتى ترجمته قريباً.

⁽٤) كان العَالِمُ أو العالمةُ يجيزُ طلاّبَ العِلْم ، ومن شعرِ عَلَم الدّين المِصْري ، وكان يكتبُ في الإجازات:

أَجَـزْتُ لهــم أَبقــاهــم اللهُ كلّمــا رويتُ عن الأشياخِ في سالفِ الدّهرِ وما سمعـتْ أُذنــايَ مـن كـلّ عــالــم وما جادَ منْ نظمي وما راقَ من نثري=

وأخواتِه ، وكان في سنة (٦٨٣ هـ أو ٦٨٤ هـ أو ٦٨٥ هـ).

* وقد ذكرَ ابنُ رشيد (۱) هذا في رحلتهِ المجلسَ الذي أخذَ فيه الحديث عن فاطمة فقال: «لقيتُها بمسجدِ المصطفىٰ ﷺ، وقُرىءَ عليها وهي مستندة إلى جانب رواقِ الرّوضةِ الكريمةِ المحمدية ـ على ساكنيها السّلام ـ تجاه رأسِ المُصطفى الكريم». ثمّ قال: «وكتبَتْ لي خطّها بالإجازة هنالك في جميع مرويّاتها ، ولبنيّ : أبي القاسم ، وعائشة ، وأمّةِ الله ، ومن تسمّى معنا في الإجازةِ ، وبمحضرٍ من ابنها واسمُه في غالب ظنّي تسمّى معنا في الإجازةِ ، وبمحضرٍ من ابنها واسمُه في غالب ظنّي

على شرطِ أصحابِ الحديثِ وضَبْطِهم بريّاً منَ التّصحيف عار منَ النّكرِ وبـالله تـوفيقـي عليـه تـوكّلـي له الحمدُ في الحالين والعُسْر واليُسْر

(۱) محمدُ بنُ عمر بن محمد بن عمر . . . ابنُ رشيد ـ بالتّصغير ـ أبو عبد الله الفِهْريّ السَّبتي عالمُ المغربِ الحافظ العلامة . وُلدَ في جمادى الأولى بسبتةَ عام (٦٥٧ هـ) ، ونشأً محبّاً للعربية ، واحتفلَ في صباه بالأدبيّات حتى برعَ في ذلك ، ومن شعرهِ :

تَغَرَّبُ ولا تَجنعُ لِفُرقَةِ مُوطِينِ تَفَزُّ بِالْمَنَىٰ فِي كُلِّ مَا شَنْتَ مَنْ حَاجِ فلولا اغترابُ المسْكِ مَا حَلَّ مَفْرِقاً ولولا اغترابُ الدُّرِ مَا حَلَّ فِي التّاجِ - ثمَّ رحلَ إلى فاس وطلبَ الحديث فمهرَ فيه ، وصنَّف الرّحلة المشرقيّة في ستَ مجلداتٍ ، وحجَّ سنة (٦٨٥ هـ) ، وجاورَ ودخل مصرَ والشَّام ، وسمعَ من الأعلامِ هناك.

ـ ولما رجع من رحلته ، سكنَ سبتةَ ملحوظاً عند الخاصّةِ والعامّة ، ثم ارتحلَ سنة راما رجع من رحلته ، شم ارتحلَ سنة عن النّاس ، ذا هيبةٍ ووقار ، يسارع في حوائج النّاس بجلب المصالح ودرءِ المفاسد ، يؤثرُ الفقراءَ والغرباءَ والطلبةَ ، لا تأخذه في اللهِ لومة لائم.

_ قال ابنُ الخطيب: «كان فريد دهرِه عدالةً وجلالةً وحفظاً وأدباً وهدياً عالي الإسناد، صحيحَ النقل، تام العناية، عارفاً بالقراءات، بارعَ الخطّ، كهفاًللطلبة، وكلّ مؤلّفاته مفيدة). وكانت وفاتُه في أواخر المحرّمِ سنة (٧٢١هـ) بمدينة فاس وعمره (٦٤ سنة) _ رحمه الله _ .

(الدّرر الكامنة ١١١/٤ ـ ١١٣)، وشذرات الذّهب (١٠٢/٨)، ودرّة الحجال (١٠٢/٨) مع الجمع والتّصرف.

محمّد ، وكانت تسدلُ جلبابَها (١) على رأسها حياءً وصوناً رضي الله عنها» (٢).

نموذَجٌ من مرويَّاتِهَا:

* في رحلته المشرقيّة الشُّهيرة الحافلة بصنوف العِلْمِ والمعرفة ، والتي

(۱) هناك سؤالٌ مهمٌ جدّاً قد يتبادرُ إلى ذِهْنِ القارىءِ الكريم مفادُه: كيف كانَ الرّجالُ يسمعونَ على النّساء، وكيفَ تلقّىٰ الرِّجالُ العِلْمَ والرّوايةَ عن المحدّثاتِ العالماتِ؟!

- أمّا عن كيفية تلقّي الرّجال الحديث الشّريف عن النّساء ، فقد كانَ بالطَّريقة التي سلكَتْها أمُّنا أمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ الصِّدِّيق _ رضي الله عنها _ من قبلُ ، وغيرُها منْ أمّهاتِ المؤمنين الطّاهرات _ رضي الله عنهنَّ _ حيث كُنَّ يحدثْنَ الصَّحابةَ الكرامَ من وراءِ حجاب ، ثم اقتدىٰ بهنَّ من بعدِ ذلك النّساء المحدّثاتِ العالماتِ الفقيهات.

ـ قال الإمامُ السُّيوطي ـ رحمه الله ـ: «وكانَ السَّلفُ يسمعون من عائشة وغيرِها من أُمّهات المؤمنين ، وهنّ يحدثنَ من وراءِ حجاب» (تدريب الراوي ٢٨/٢).

ـ وقال السَّخاوي: «إنَّ عائشةَ وغيرَها منَ الصَّحابيات كُنَّ يحدثْنَ من وراءِ حجاب»؛ ثم نقل قولَ ابن أبي الدم: «أمّا النّساء فلا خلافَ في جوازِ الرّوايةِ عنهنّ مع وجوبِ احتجابهنّ» (فتح المغيث ٢/ ٢١١).

- وقد كانت فاطمة بنت إبراهيم البطائحيّ تتبع ما ستَّته أمّهات المؤمنين في التَّحديث. فقد كانت تحدّث من وراء حجاب ، وفي غاية التّصوُّنِ والأدبِ والحياء. - ومن الجدير بالذّكر أنّه يجوزُ للرّجل أنْ يأخذَ عن المرأة العِلْم ، أو الفتوى ، أو الحديث وهي في مكان عام: كالمسجدِ؛ أو إذا كان معها بعضُ محارمها ، كما فعلتْ فاطمةُ البطائحيّة في المسجدِ النبّوي ، حيث كان معها ابنها محمّد.

- وكان سَماعُ الرجلِ من المرأةِ يتمُّ غالباً من وراءِ حجاب ، وإنَّ حالةَ ابن رشيد تعتبرُ نادرة ، إذْ أخذَ الحديثَ مشافهة من فاطمةَ خلال رحلته إلى الحجّ، حيثُ عَلِمَ بأنّها موجودةٌ في المدينةِ المنورةِ وفي المسجدِ النّبوي ، فذهبَ إليها ، وقرأَ عليها الحديث في المسجدِ ، ولكنّها ـ كما أشرنا ـ قد أسدلتِ الجلبابَ على وجِهها ، وكان معها ابنها . وفي مثلِ هذه الحالة التي تؤمنُ فيها الفتنةُ تجوزُ القراءةُ على النساءِ من غيرِ ستار أو جدار، مع مراعاة الضوابط الشرعية عند التحديث .

(۲) ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة لابن رشيد (ص ۲۱). تحقيق د. محمد الهيلة _
 دار الغرب الإسلامي.

جمعَ فيها منَ الفوائدِ الحديثيّة ، والفرائدِ الأدبيّة كلّ غريبةٍ وعجيبةٍ .

* أوردَ ابنُ رشيد بعضَ الأحاديث التي قرأَها على الشَّيخةِ العالمةِ المسندةِ أمِّ الخير وأمِّ محمّد فاطمة البطائحيّة. وهذا حديثٌ قرأهُ عليها بالإسناد، ومن خلالهِ نعرفُ كيفَ كان يُقْرأُ الحديثُ علىٰ المحدثات في عَصْر فاطمة.

قال ابنُ رشيد: «قرأتُ على الشَّيخةِ الصَّالحةِ ، أمِّ الخير ، وأمّ محمّد ، فاطمة بنتِ إبراهيم البطائحيّ ، تجاه رأسِ المصطفىٰ الكريم ، عليه أفضل الصّلاة وأتمّ التسليم بين قبرِه ومنبرِه ، في الرَّابع والعشرين لِذِي القعدة ، قلتُ: أخبرَك _ رضي الله عنْك _ الحسينُ بنُ المبارك بن محمد الزبيدي بسماعِك عليه . فأشارت: أنْ نعمْ .

قال: أخبرنا شيخُ الوقت ، أبو الوقْتِ ، عبد الأوّل بن عيسى بن شعيب السّجزي الصّوفي قراءة عليه ونحنُ نسمعُ.

قال: أنا أبو الحسن عبدُ الرحمن بن محمّد بن المظفّر الدّاوديّ البوشنجيّ قراءة عليه وأنا أسمعُ ببوشَنْج.

قال: أنا أبو محمّد عبدُ الله بن أحمد حمّويه السَّرخْسيّ قراءة عليه.

قال: أنا أبو عبد الله محمّد بن يوسُف الفِربْري قراءة عليه وأنا أسمع.

قال: أنا أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن الأحنف الجُعفي مولاهم.

قال: أنا مُسَدَّد عن يحيىٰ بنِ عبدِ الله بنِ عمر.

قال: حدثني خُبيب بنُ عبد الرّحمن ، عن حفص بنِ عاصم ، عن أبي هُريرة عن النّبيّ ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ منْ رياضِ الجنّة ، ومنبري على حوضي (١٠).

⁽۱) أخرجه البخاري في أبواب التطوّع برقم (١١٣٨) ، وانظر الحديث في ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة (ص ٢٣).

* ومن الجديرِ بالذّكرِ أنَّ السَّيدةَ العالمةَ والشَّيخةَ الصَّالحةَ فاطمةُ بنةُ إبراهيم البطائحيّ قد حدَّثت بصحيحِ البخاري مرّات ، وكذلك صحيح مسلم ، وحدَّثت بغيرهما أيضاً مثل جزء العَلاء بن موسى المعروف بجزءِ أبي الجهْم.

* وفي رحلة ابن رشيد هذه إلى الدّيار المقدّسة أجازت فاطمةُ ابنَ رشيد ، حيثُ جمع بين القراءةِ والسَّماعِ ، وبين الإجازةِ منها ، وناهيك بإجازتها.

* وقد علا إسنادُ فاطمة _ وخصوصاً بعد أنْ بلغَتْ من الكبرِ عتياً _ وأخذَ عنها كبارُ العلماءِ كالتّقي السّبكي ، ونجدُ أنَّ الحافظَ العالمَ العَيْلَمَ شمس الدّين الذّهبي يحرِصُ أشدَّ الحرص على أنْ يُسْمِعَ ولده عبد الله (١) عليها.

* ومن تلاميذِ السَّيدةِ العالمةِ الرّاوية فاطمة البطائحيّة: ابنُ قيم الجوزيّة العالم العيْلم المشهور ، وكذلك حفيدُها المحدّث محمدُ بنُ عبد القادر بن بركات البعليّ الصّالحي المتوفى سنة (٧٦٥ هـ) ، حيث سمع عنها مسند الإمام الشّافعي ، بالإضافةِ إلى علماءَ ومحدّثين آخرين.

* كما أنَّ فاطمة أجازت لعدد من علماء عَصْرها وطلبة الحديث وهم: محمدُ بنُ أحمد بن عبد الرحمن المنبجيّ المتوفى سنة (٧٩٠ هـ) ، ومحمدْ بنُ رافع السّلامي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) ، وأبناءُ ابن رشَيد وهم: أبو القاسم ، وعائشةُ ، وأمَةُ الله.

⁽۱) عبدُ الله بنُ محمّد بن أحمد بن عثمانَ الفارقيّ ابنُ الحافظ الذَّهبيّ ، وُلدَ سنة (۲۰۸ هـ) وأحضرَهُ أبوهُ على ابنِ الموازيني ، وأسمعَهُ من محمد بنِ يعقوبَ بن الجرائديّ ، وفاطمةُ بنت جوهر ، وخلق كثير ، وحدَّث وسمعَ منه ابن سنَد وغيره ، ومات في ذي الحجة سنة (۷۵٤ هـ). (الدرر الكامنة ۲/۲۸۲).

* وهكذا كان لهذهِ المرأة العالمة آثار عظيمةٌ في مجالِ خدمةِ السُّنّةِ الشّنةِ الشّنةِ ، ونَقُل العلْم إلىٰ أربابهِ.

مَعَ المُعَمراتِ الخَالِدَاتِ:

* تُعتبرُ السَّيدةُ فاطمةُ البطائحيّة إحدى نساءِ المشرق العربيّ المحدّثات المعمّرات ، ممن طالَتْ حياتهنَّ ، وحَسُنَ عملهنّ ، فقد اقتربَ سنّها من التسعين عاماً قضَتْها في ألوانِ الطَّاعات والقُربات إلى الله عزَّ وجلّ ، وفي مقدمتها: طلب العلْم ، وأداء الفرائض ، ومنها فريضة الحج ، كما أنَّها ربَّتْ أولاداً كانوا علماء عصرِهم ، وأعلياءَ دهرهم ، ونجومَ مصرهم ، وغرست في نفوسِهم حبّ الخير ، والسّعي في طلب العِلْم .

* كما أنّها ظلّت وفية أمينة في أداءِ ما تحمّلته من حفظِ الحديثِ النّبويّ الشّريف ، وروايتهِ وتعلّمه وتعليمهِ ، وظلت على هذه الأنفاسِ طيلةَ ستةً وثمانينَ عاماً كانت أعواماً سِمَاناً مملوءةً بالعلمِ ، مفعمةً بالرّواية والتّحديث.

* وفي ليلة (٢٥) من شهر صفرَ من سنة (٧١١ هـ)(١) ، وفي مدينةِ دمشقَ وافتِ المنيةُ فاطمةَ البطائحيّة ، ودُفنَتْ بسفحِ جَبَلِ قاسيون ، حيثُ هنالك أعدادٌ لا تُحصى من أكابرِ علماءِ وعالماتِ الدّنيا ممن خلدوا في دنيا العِلْم.

* وقد حظيتُ فاطمةُ بنت إبراهيم البطائحيّ بالمكانةِ اللائقة في كتبِ المتقدّمين منَ المُحدّثين والمؤرّخين والعُلماء ، وأثنوا عليها ، ووصفوها بالدّين والخيرِ وعلق الإسناد وعلو الهمّة.

⁽۱) أعيان العصر (۳/ ۱۳۹۱) ، وشذرات الـذهـب (۸/ ٥٢) ، والـدرر الكـامنـة (۲/ ۲۲۱) ، ودرة الحجال (۳/ ۳۲۳) ، وغيرها من مصادر.

* وممن ذكرها بالصَّلاح ومعرفة الكتابة ابنُ رشيد الذي قال عنها:
 «الشيخةُ ، الصَّالحةُ ، الكاتِبة»(١).

* وقال الذَّهبيُّ: «الصَّالحةُ ، المُسندة»(٢).

* وذكرها اليافعيُّ في «مِرآته» ، وأثنىٰ عليها فقالَ: «وكانت صالحةً متعبّدة» (٣٠).

* وفي «درّته» قال ابن القاضي: «الشَّيخة ، الخيّرة ، الفاضلة ، الكاتبة ، أمُّ الخير ، وأمُّ محمّد »(٤).

* وقال الصَّفديُّ: «الشَّيخةُ ، المعمّرةُ ، المسندةُ ، العابدة ، أمّ محمد البطائحيّة البعليّة» (٥٠).

* بينما أثنى عليها ابنُ العماد وذكرَ دِيْنَها وصلاحَها فقال: «كانت ديّنةً ، متعبدةً ، صالحةً ، مُسندة».

* وقال عمر رضا كحالة: «فاطمةُ بنتُ إبراهيم محدّثة ذات ديْنِ وصلاح وعبادة».

* وبعد _ عزيزي القارىء _ فهذه امرأة محدّثة عالمة فاضلة من نساء المشرق العربي ، ومن عالماتِ القرنين السّابع والثّامن الهجري ، ممن ملأن دنيا النّساء بالعلم والرّواية ، فكانت إحدى الخالداتِ في سجلّ الخالدات ، فرحمها الله ، وأدخلها فسيح الجنّات .

* * *

ملء العيبة (ص ٢١).

⁽٢) تذكرة الحفاظ (٤/ ١٤٩٥).

⁽٣) مرآة الجنان (٢٨/٤).

⁽٤) درة الحجال (٣/ ٢٦٤).

⁽٥) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٢).





فاطنز بنت أحدا محرازت

* محدِّثة ، مُسندة ، خيِّرة ، صالحة.

* من أهل الخير والدين والصلاح ، وقد أكثرت من السَّماع.





من أُسْرَةِ علميةِ:

* محدِّنَةٌ ، مسندةٌ ، خيرةٌ ، صالحةٌ ، جمعتْ كرَمَ الأَصْلِ ، إلى كرمِ المحتدِ ، إلى كرمِ الإقامةِ وطيبِها ، ولها شأنٌ ونصيبٌ في نساءِ المشرقِ العربيّ من خلالِ حياتِهنّ العِلْميّة المتألّقةِ .

* نشأتْ نشأةَ بناتِ العُلماء ، وفتحتْ عينيهَا على الدّنيا ومِنْ حولها العُلماء ، وأهلُ الحديثِ ، والفُقَهاءُ ، فرضعَتْ لبانَ العِلْم ، لتغدوَ واحدةً منَ النّساءِ العالماتِ المحدِّثاتِ ، وواحدةً من أُمّهاتِ العُلماءِ في عَصْرِها.

* هذه المرأةُ العالمةُ من أمِّ القُرىٰ وسيِّدةِ البُلدان مكّةَ المكرمةِ البلدِ الأمين ، بلد الأمينِ الحبيبِ محمّد ﷺ ومولده ، ومولد أمِّنا أمِّ المؤمنين خديجةَ بنتِ خُويلد ـ رضي الله عنها ـ ، ومولد معظم أُمّهات المؤمنين ـ رضي الله عنهن ً ـ .

* وهذه المرأةُ العالمةُ المحدّثةُ هي فاطمةُ بنتُ أحمدَ بن قاسم بن عبد الرّحمن العمريّ الحَرازي ، المكّيّة المدنيّة ، وكنيتُها: أمُّ الحَسنِ ، وأمُّ نَجم الدِّيْن المكّيّة (١).

* ويعودُ أصلُ فاطمةَ الحرازيّة إلى أصولٍ يمنِيّة ، لكنّها وُلدَتْ في مكّةَ المكرمةِ في أوائلِ القَرن الثَّامنِ الهِجريّ بعد سَنَةِ (٧١٠ هـ) ، وكانَ مولدُهَا في أسرةٍ اشتُهرَ معظمُ أفرادِها بالعِلْمِ والفقْهِ والحديثِ والرّواية والمعرفةِ والأدبِ.

 ⁽۱) الدّرر الكامنة (٣/ ٢٢١) ، والعقْدُ الثّمين (٨/ ٢٩٥ و٢٩٦) ، وإنباء الغمر
 (٢/ ٧٧) ، والذّيل على العبر (٢/ ٢٦٥) ، وشذرات الذّهب (٤٨٣/٨) ، وأعلام النّساء (٤/ ٢٩).

* فوالدُها: شهاب الدِّين أحمدُ بنُ قاسم من مواليد حَرَاز (١) باليمن؛ فقد ذكرَ ابنُ حجر العَسْقَلاني أنَّ مولدَه كان في حَراز سنة (٦٧٥ هـ)(٢)، وبعد أنْ شبَّ عن الطَّوق ، قدمَ مكّةَ المكرمة ، فأقامَ فيها ، واتّخذَها وطَناً ، وصار يُنْسَبُ إليها فيقال: الحرازيّ المكّيّ.

* وفي أمِّ القُرى مكّةَ المكرمةِ راحَ أحمدُ بنُ قاسم الحرازيّ والدُ فاطمةَ يطرقُ أبوابَ العِلْم ، وأخَذَهُ عن عددٍ من شُيوخها ، وعن عددٍ منَ الواردينَ عليها.

* فقد سمعَ بمكَّةَ منَ الفَخْر التَّوزَري ، والصَّفي والرّضي الطَّبريّيْن.

* ثمَّ توجَّه تلقاء المدينةِ المنوّرة لتلقي العِلْم ، وهناك سمع بها كثيراً من كُتُبِ السُّنَّةِ المُطَهَّرة ، والسِّيرةِ النّبويةِ العَطرةِ ، فقد سمع كتاب «الشَّفَا» للقاضي عياض من محمّد بن محمد بن حريث العبدريّ ، وسمع من غيرِه كُتُباً أخرى.

* وأقامَ الحرازيُّ بمكّةَ المكرمةِ ، ومَهَرَ بالفقْهِ ، ومن ثمَّ غدا شيخ مكّةَ الذي يُشَار إليهِ بالبنَان ، والمعتمد عليه في أمورِ الفتوى بها ، حتى لُقّب: «مفتي مكّة المكرمة»؛ إذ انتهتْ إليه رئاسةُ الفتوى بمكّة لِعِلْمِهِ وفَضْلهِ.

* وكانَ الحرازيُّ والدُّ فاطمةَ رجُلاً عابداً صالحاً خيّراً ، تزوّجَ من أسرةِ الطَّبريِّ ، وهي أسرةٌ منَ الأسرِ العريقةِ ذاتِ الجذورِ الثَّابتة في العلْم ، حيثُ كان أبناؤُها يتوارثونَ مناصبَ إمامةِ مقام الشَّافعيّة في المسجدِ

⁽۱) «حَرَاز»: بفتح الحاء وتخفيفِ الرّاء، مخلافٌ باليمنِ قُرب زَبيد، (معجم البلدان / ۲۳٤). وذكر السَّخاويُّ: أنَّه نسبةٌ لحراز، وهو جَبلٌ عظيمٌ باليمنِ يشتملُ على قُرى ومزارعَ على مسافةِ يومَيْن غربي صنعاء. (الضّوء اللامع ١١/١٩٨).

⁽۲) الدرر الكامنة (۱/ ۲۳۵).

الحرام ، وخطابته ، وقضاء مكَّة المكرمة لعدَّة قُرون .

* فقد تزوَّجَ الحرازيُّ سيّدة (١) بنت رضي الدِّين الطَّبريّ ، محدّث مكّة المكرمة ، وكان لِسَيّدة هذه سماعٌ للحديثِ النَّبوي الشَّريف ، وبلغَتْ فيه منزلة عُليا ، حيث أجازتْ للزَّيْنِ العِراقي ، وقد ولدت سيّدةُ أربعةَ أولادٍ منَ الذّكور ، كلُّ واحد منهم يُدعى محمّداً ، وله لقبٌ يُعْرفُ به .

كما ولدت سيّدة هذه عدداً منَ الإناثِ اشتُهرتْ منهنَّ فاطمةُ التي نحفلُ بسيرتها ، وماتَتْ سيّدة سنة (٧٥٧ هـ).

* وعاشَ أبناءُ أحمد الحرازيّ عيشةَ أبناءِ العُلماء ، حيث عكفَ أبوهم طيلةَ حياتِهِ يعتني بهم ، ويربّيهم على حبِّ العلْمِ وروايةِ الحديثِ ، لاسيما أنَّه صَاهَرَ أسرةً ورثَتِ العِلْمَ كابراً عن كابر ، فعُنِي بأنجالِهِ منذ نعومةِ أظفارهم ، فصاروا علماء ، وكانُوا كبراء ، ومنَ المرموقين في عصرهم.

* فقد كان ابنُه محمّد الملقّب بمحبّ الدِّين ، ويُكنى أبا عبد الله ممّن سمع الصَّحيحيْن وغيرهما ، وبحثَ في الفِقْه على والده ، وتوفيَ سنة (٧٦٤ هـ)(٢).

وابنه الثَّاني محمّد أبو الفَصْل درسَ الفِقْه أيضاً على والدِهِ ، واشتغلَ بالوعْظِ والتَّدريس والإِفتاءِ ، وتوفي أبو الفَصْل في سنةِ (٧٤٩ هـ)^(٣).

* وابنه الثَّالث محمّد أبو البركَات ، سَمِعَ بمكَّةَ ، وقدم دمشقَ سنة (٧٣١ هـ) ، وسمَع بها أيضاً ، وتوفي سنة (٧٣١ هـ) (١).

⁽١) انظر ترجمتها في العقد الثمين (١/٣٦٦).

⁽٢) العقد الثمين (١/ ٣٦٦).

⁽٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٦٥ و٣٦٦).

* ورابعُهم ابنه محمّد تقي الدّين ، ويكنى أبا اليمن ، وهو أشهرُ أولاده ، وأبعدهم صيتاً.

* وُلدَ تقيُّ الدِّين هذا بمكّة المكرمةِ سنة (٧٠٦ هـ) ، وسمع بها كثيراً ، وتفقَّه على والدِهِ ، ورحل إلى القاضي شرفِ الدِّين البارزي ، وأجازَه بالفتوى والتَّدريس ، وكان من الفُضَلاء ، وصارَ إليه أمْرُ الفُتيا والتَّدريس بمكّة ، ثمَّ وليَ القضاءَ سنة (٧٦٠ هـ) ، ثمّ أضيفَ إليه الخطابة ، فباشرها نحو سنتيْن ، ثم عُزِلَ عن ذلك كُلّه في سنة (٧٦٣ هـ) بأبي الفَضْل النويري ، فلزم بيتَه حتى مات لا يخرجُ إلا لحجِّ أو صلاةٍ غالباً ، وكان في قضَائِهِ عفيفاً نَزِها ، وإنّما عُزِلَ بسبب حُكْمٍ نُقِمَ عليه أنّه أخطاً فيه.

توفيَ بمكَّة في جمادي الأولىٰ سنة (٧٦٥ هـ)(١).

* في هذه الأسرة العِلْميّة الفريدة الزَّاخرة بالعِلْم والعُلماء ، كانت نشأة وحياة فاطمة الحرازيّة التي تَشْغَلُ سيرتها وقصّة حياتِها مساحة لابأس بها من هذه الموسوعة ، كما أنَّه كان لها في تاريخ نساء الحديث النبوي نصيبٌ كبير ؛ إذْ كانَ لها كبيرُ الأثرِ في علْم الحديثِ بين نساء عَصْرها ومِصْرها.

التّلميْذَةُ النَّجيبَةُ:

* يظهرُ لنا من خلالِ سيرةِ هذه العالِمة الجليلةِ فاطمة الحرازيّة ، أنَّها قد تلقّتُ مسموعاتها الحديثيّة على أقاربها ، فهي قد نشأتْ _ كما قُلْنَا _ وسطَ أسرةٍ علميّة مرموقةٍ ، بل إنّ أسرتَها منْ أئمةِ العُلماء والفُقهاء.

⁽۱) شذرات الذهب (۸/ ۳۵۰ و ۳۵۱).

* ولعل أكبر أثرٍ في حياةِ فاطمةَ العلميّة كان من أبيها الذي جعلَ همُّه في تنشئةِ أبنائِهِ على مائدةِ العِلْم.

* وتذكُرُ المصادرُ أنَّ فاطمةَ الحرازيّةَ قد سمعتْ من إمامِ المقامِ رضي الله إبراهيم بن محمد الطّبري (١) الكُتُبَ السِّتَّةَ خلا سُننِ ابن ماجه؛ كما سمعتْ عليه كُتُباً أخرى كثيرة ، وهذا العالِمُ الإمامُ هو جدُّ فاطمة لأُمِّها.

* كما أنَّ فاطمةَ حضرتْ على أخي جدّها لأُمِّها صفي الدِّين أحمد بن محمد بن إبراهيم الطَّبريّ المتوفىٰ في سنّ (٧١٤ هـ) ، وكانت في سنّ صغيرة.

* كما تذكرُ المصادرُ أنَّه قد أجازَ لها من مكّةَ المكرمةِ ثلثٌ منَ العُلماء المشَاهير؛ فقد أجازَ لها فخرُ الدِّين أبو عمرو عثمان بن محمّد بن عثمان التوزريّ (٢) الحافظُ المالكيُّ نزيل مكّة المجاور ، قرأَ ما لا يُوصف كثرة ، ثم جاورَ للعبادةِ مدّة ، وكان قد تلا بالسَّبع ، وتوفي بمكَّةَ المكرمةِ في شهر ربيع الآخر سنة (٧١٣ هـ) ، وله (٨٣ سنة).

* كما أجازَ لها الشّيخُ المسند أبو بكر أحمد بنُ محمد بن أبي القاسم
 الدّشتيّ المؤدّب الحنبليّ المتوفى بدمشق سنة (٧١٣ هـ) عن ثمانين سنة .

* وأجاز لها مقرىء مكّة المكرمة عفيف الدّين عبد الله بن عبد الحق الدّلاصيّ المتوفىٰ سنة (٧٢١ هـ).

* وأجازَ لها كذلك مسندُ الوقتِ شرفُ الدِّين عيسىٰ بنُ عبد الرّحمن بن

⁽۱) أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ محمّد بنِ إبراهيم الطّبريّ المكيّ الشّافعي ، شيخُ الإسلام وإمامُ المقام ، كانَ صاحبَ حديثِ وفقْهِ وإخلاصِ وتألُّه ، روىٰ عن عدّة منَ العُلماء وأجازَ له السّخاوي وغيره ، وتفرّد بأشياءَ ، وتوفي بمكةَ في ربيعِ الأول سنة (٢٢٧ هـ) ، وله (٨٦ سنة). (شذرات الذّهب ١٠٣/٨).

⁽٢) «التّوزري»: توزر: مدينة بإفريقية.

معالى الصَّالحي المتوفى سنة (٧١٩ هـ).

* في هذه المدرسة العلميّة ، وعلى أيدي هؤلاء العُلماء الأفذاذِ تخرّجَتْ فاطمةُ الحرازيّة ، وغدَتْ واحدة من عالماتِ عَصْرها.

الأستاذة الكبيرة:

* كانت فاطمةُ الحرازيّةُ واحدةً ممن أكرَمها اللهُ عزَّ وجلَّ بهذا العِلْمِ ، فقامَتْ بأداءِ ما تحمَّلَتْهُ ، وتصدَّرَتْ للتّحديثِ حيث كثُرَ الرّاغبون من طلبةِ الحديثِ ، وكثرَ السَّامعون عليها ، وكذلك المستجيزون منها ، وخصوصاً بعد أنْ عُمّرَتْ ، وغدتْ مسندةَ مكّةَ المكرمةِ .

* ولكي تكمل فاطمة المسيرة العلمية الحديثية ، أخذت توسع دائرة تحديثها ، فلم تكن جهودُها في نشر الحديث وعلومه مقتصرة على أمّ القرى مكّة مولدها ومهوى فؤادها وأفئدة المؤمنين ، وإنّما حدَّثَتْ في المدينة المنوّرة التي كانت تزورُها في بعض الأحايين والأوقات ، حتى إنّ وفاتها كانتْ في المدينة المنوّرة كما سنرى إنْ شاءَ الله تعالى .

* وقد أخذَ عن فاطمةَ الحرازيّةِ وتتلمَذَ عليها عددٌ من أكابرِ العُلماء وأعيانِهم في عَصْرِها ، ومن أبرزِهم: ابنُ سكّر ، وأبو زُرعة العِراقي ، والتّقيّ الفاسيّ ، وكان أكثرُ الآخذين عنها من البلدِ الحرّام.

* كما أنّ كثيراً منَ الآخذين عنها كانُوا من أقاربها ، من مثلِ أحفادِها ، وبناتِ أخيها.

* فمن أحفادها: حفيدُها محمدُ بنُ عليّ بن أحمد النّويري المكيّ الشّافعيّ، المتوفى سنة (٨٣٢ هـ) ، سمع بمكّة على جدّته فاطمة الحرازية .

* ومن حفيداتها: أُمُّ الحسين بنتُ محمّد بن عبد الكريم بن ظهيرة

القرشيّ ، سمعت من جدّتها لأُمّها فاطمة في سنة (٧٦٢ هـ) ، ولم تُعرفْ سنةُ وفاتها.

* وكذلك كماليّةُ بنتُ محمّد بن أحمد الحرازي المُتوفاة سنة
 (٨٤٩ هـ) ، سمعت بمكّة على عمتِها فاطمة بعض مصابيح السُّنَّة للبغوي.

* وتذكرُ سيرةُ فاطمةَ الحرازية بأنّها أجازَتْ عدداً منَ العُلماء منهم: القاضي عبدُ الرحيم بن محمّد بن أبي بكر الطّرابلسيّ الشّهير بابن الطّرابلسي المتوفىٰ سنة (٨٤١ هـ)، وكان هذا القاضي من أصحابِ ابن حجر العَسْقَلاني.

منْ أُخْسِارِ فَاطِمَةً:

* لعلَّ الذي يهمّنا من أخبارِ فاطمة الحرازية هو تنشئةُ أولادِها على حبِّ الحديثِ وطلبهِ ، وحبِّ العِلْم والسَّعي وراءه.

* وقد تزوَّجَتْ فاطمةُ أكثرَ من مرّة ، فقد تزوَّجَتْ من محمّد بنِ يوسُف الزَّرَنْدي المدنيّ الحنفيّ ، كان عالماً جليلَ القَدْرِ ، وُلدَ سنة (١٩٣ هـ) ، وهو أحدُ العلماءِ الذين اشتغلُوا بالعِلْم والحديثِ ، وصنَّف كتُباً عديدةً ، ودرسَ في الفقْهِ والحديث ، ورحلَ إلى شيراز ، فوليَ القضاءَ بها حتى مات سنة (٧٤٨ هـ)(١).

* وقد أسفرَ هذا الزَّواج عن إنجابِ ولدِ اسمُه عبد اللطيف بن محمّد الحنفيّ سراج الدِّين ويكنى أبا أحمد ، كان عفيفاً فاضلاً ، رأسَ بعد والدِه ، وسمعَ من الجمّالِ المطريّ تاريخَ المدينةِ له ، وحدَّثَ به ، وتوفيَ عبد اللطيف هذا في سنة (٨١٧ هـ).

* ويذكرون أيضاً بأنَّه كانَ لفاطمةَ ابنُ آخر يسمَّىٰ عبدَ اللطيف أيضاً ،

⁽١) الدرر الكامنة (٤/ ٢٩٥ و٢٩٦) بتصرف يسير.

وقد اشتغلَ بالعِلْمِ قليلًا ، إلا أنَّه لم يشتهرْ كأخيهِ ، وماتَ ولم تُعْرَفْ سنةُ وفاتِه^{ِ(١)}.

* ولفاطمة الحرازية ابنة اسمُها: أمّ كلثوم، تزوَّجها محمد بنُ عبد الكريم بن ظهيرة، وأنجبَتْ منه ابنتَيْن هما: أمُّ الحُسَين، وأمُّ الخَير.

* وتزوَّجَتْ حفيدتها أمّ الحسين أحدَ علماءِ عَصْرها ، ويُدعى: ظهيرة بن حُسين بن علي بن أحمد بن عطية بن ظهيرة القرشيّ المخزوميّ المكيّ المولود سنة (٧٤٥هـ) ، وقد سمع بمكّة من العزّ بن جماعة وغيره ، وروى عن غيره ، وأخذ عنه الحافظ ابن حجر؛ وكان ظهيرةُ وزوجتُه أمّ الحسين قد عَرَفا مكانة فاطمة الحرازيّة جدّة أمّ الحسين ، فقدّما لها خدمةً عِرفاناً بحقّها ، ومعرفةً لِقَدْرِها ومكانتِها الحديثيّة في الحرمَيْن الشّريفيْن ، وتوفي طهيرةُ هذا بمكّة ليلة العاشر من صفر سنة (٨١٩هـ)(٢).

* وأمّا فاطمةُ الحرازيّةُ ، فإنّها بعد وفاةِ زوجها محمد بن يوسُف الزّرَنْدي ، تزوَّجَتْ من عالمٍ شهير هو شهابُ الدِّين أحمدُ بنُ محمد بن محمد الطَّبريّ القاضي المكي الشَّافعي من بيت العِلْمِ والقضاء والرّئاسةِ والحديثِ ، وليَ قضاءَ مكَّة وهو شابٌ بعد أبيه ، ووليَ الخطابة ، وحدَّث بالمدرسةِ المجاهديّة ، والمدرسةِ المنصوريّةِ بمكّة ، وسمع من الأجلاءِ ، وسمع منه غيرُ واحدٍ من شيوخِ ابن حجر، وتوفي زوجُها هذا سنة (٧٦٠ هـ) (٣).

* وقد أنجبتْ فاطمةُ من زوجِها هذا ولدها نجم الدِّين محمد بن أحمد

⁽١) انظر: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة (٢/ ٧٣).

⁽٢) انظر: شذرات الذهب (٩/ ٢٠٠) ، والضوء اللامع (٤/ ٢٥) مع الجمع والتصرف.

⁽٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٢٤) ، والعقد الثمين (٣/ ١٦١ ـ ١٦٦).

الطّبريّ ، الذي خلَفَ أباه في التَّدريسِ بالمدرستَيْن المذكورتَيْن بمكّة ، وكان له أيضاً اشتغالٌ بالحديثِ النّبوي الشَّريف^(٢). وتوفيَ سنة (٧٦٥ هـ).

* وقد ربَّتْ فاطمةُ أولادَها تربيةً صالحةً ، فكانُوا من أعلام عَصْرهم ، وكان غذاؤهم الحديثيّ منها غذاءً للألباب ، جعلهم منْ سادةِ العُلماء وعلماء السَّادة ، وهكذا فلتكُن النِّساء؛ فهي بحقّ قدوةٌ صالحةٌ ، وأمُّ فاضلةٌ ، لم يشغَلْها زوجٌ أو ولدٌ عن تحصيلِ العِلْمِ وطلبهِ ، ولم تتركُ أولادَها هَملاً أيضاً بل رعتهم حقَّ الرِّعاية ، فحملُوا راية التَّحديث ، وكانوا ذريّة صالحة نافعةً .

وفَانُهَا والثَّنَاءُ عَلَيْهَا:

* أمضتْ فاطمةُ الحرازيّةُ عمرها بينَ العِلْمِ وطلبهِ ، وبين تلقّيهِ عن العلماءِ ، وكانت حياتُها زاخرةً بالعَطاءِ ، فقد استفادَتْ وأفادَتْ ، ولم تتركْ أوقاتَها تمرُّ دونَ أنْ تلتقطَ فائدةً ، أو تقيّدَ علماً ، وعاشتْ حتى أربتْ عن السّبعين.

* أمّا عن وفاتِها ، فتذكرُ المصادرُ أنّها توفيتْ في واحدةٍ من زيارِاتها إلى المدينةِ المنوّرةِ ، فقد حدَثَ أنْ زارتِ المدينةَ وجاورَتْ هناك ، وذلك في أخرياتِ حياتِها ، فوافَتْها المنيّةُ في شوّالَ سنة (٧٨٣ هـ) عن عمر يقتربُ من (٧٣ عاماً) ، قضَتْه في طاعةِ اللهِ تعالى ، وفي العملِ الصّالحِ الدّؤوبِ ، وطلبِ العلم ، وتربيةِ أولادِها وأحفادِها وذويها على حبّ اللهِ وكتابهِ ، وعلى حبّ رسولِه وسُتَتِه ، ولم تتوقّفْ عن طلبِ العلم ، أو تبليغهِ طيلة حياتِها حتى لقيت ربّها ، ودُفنَتْ في البقيع .

* وقد أثنى عليها أبو زُرعة تلميذُها فقال: «عُمّرَت وصارتْ مسندة

مكّة ، وهي من أهل الخيرِ والدّين والصَّلاح ، وأكثرت من السَّماع»(١).

* وقد أثنى على فاطمةَ كلُّ مَنْ ترجمَ لها ، ووصفَها بالخيرِ والصَّلاح ، وأنَّها مسندةُ مكّة ، ومحدّثة فاضلة .

* فرحمَ الله فاطمةَ الحرازية ، وأكثرَ في نساءِ المسلمين مثْلَها ، وجعلَها في مستقرّ رحمته ، وغفرَ لنا جميعاً ، إنّه سميعٌ مجيب.

* * *

⁽۱) شذرات الذهب (۸/ ٤٨٣) ، والدرر الكامنة (٣/ ٢٢١) ، وأعلام النساء (٤/ ٢٩) وغيرها.





فاطمت بنت الأقرع

* اشتهرت بجودة الخط وحُسنه ؛ على طريقة ابن البوّاب .

* واحدة من نوادر نساء عصرها ومِصْرها علماً ، وأدباً ، ومعرفة ، وسعة اطلاع . مع الذكاء ، والحصافة ، وحدة الخاطر ، وجمال النوادر ، والتحديث ، والحفظ .





الخَطَّاطَةُ المَاهِرَةُ:

* ما ظنُك _ عزيزي القارىء _ بامرأة اشتُهِرتْ بجمالِ الخطّ وحسنِهِ في دنيا نساءِ المشرقِ العربيّ في القرنِ الهجريِّ الخامس؟ وإذا أخَذَتِ القَلَمَ لتكتبَ على القرطاسِ ، خِلْتَ يمينها تنضّدُ الجواهرَ والدُّررَ؟!.

* ومنَ الطّبيعي أنْ تشتهرَ المرأةُ بالفقْهِ والعِلْمِ والأدبِ والشّعر؛ أمّا أنْ تتفوّقَ في الكتابةِ وجودَةِ الخطّ ، فذاكَ شيءٌ جميلٌ ، يزيدُ منْ رصيدِ نساءِ العربِ في مشرقهم في مجالِ هذا الفنّ البديع الجميلِ والرَّفيع.

* وامرأة هذه الصَّفحاتِ من نساءِ العربِ اللواتي اشتهرنَ بجودة الخطّ وحسنهِ ، فقد انبثقَتْ من بينِ أنامِلها أجملُ آياتِ الخطّ العربيّ وصُورِه في التَّاريخ النَّسوي المشرقيّ ، حيثُ ألبستِ الحروف العربيّة الحللَ الجماليّة ، فسحَرتْ أعينَ النَّاظرين ، ومتذوّقي هذا الفنّ اللطيف ، الذي اختص الله به فئة قليلة جدّاً من النَّاس في كلّ زمان ومكان ؛ وكان سادتُه على الأغلب عماعةُ الرّجالِ ، ولم تَسُدْ فيه جماعةُ النِّساء إلاّ في حالاتِ نادرة وقليلة .

* وأمّا هذه المرأةُ فكانَ يُضْرَبُ بخطّها المثَلُ في الحُسْنِ ، فهو كأنّه روضٌ ممطور ، أو لؤلؤٌ منثور ، وقد لازمَ جمالُ الخطّ أنامِلَها الخمس ، وانقطعَ لخدمها علانيةً وفي الهَمْس ، وأسال قلمُها دمعَهُ على الورقِ ، فجاء ببدائع لا يجودُ الزّمان بمثلها ، و . . .

ذَوقٌ رفيعٌ وخَطٌ رائعٌ ويَدٌ مَا أَمْسَكَتْ قَلماً إلّا لإبْدَاع (١)

⁽١) إنَّ حسنَ الخطَّ وجمالَهُ نعمةٌ من اللهِ عزَّ وجلَّ؛ يروىٰ أنَّ الحسنَ بنَ رجاء نظرَ إلى خطُّ حسَنِ فقال: «مُتنزَّه الألحاظ، ومُجتنى الألفاظ، فلانٌ فصيحُ القلم».

* والكاتبةُ الخطّاطةُ التي نحفلُ بسيرتها مشهورةٌ ببنت الأقرع؛ واسمُها: فاطمةُ بنتُ الحسنِ بن عليّ الأقرع (١)؛ وكنيتُها: أمُّ الفَضْل، إحدى فواضلِ نساءِ الدّنيا اللائي توشحْنَ بفنونِ الأدبِ، وتحليْنَ بحلاه، وتسلحْنَ بالسَّجايا الحِسَان، والخلالِ الكريمةِ؛ وإحدى القارِئاتِ الكاتباتِ من ذواتِ الخطّ المليحِ الحسن الأنيقِ، الذي خلَّدها وخلّدته في دُنيا المرأة؛ ودنيا نساء المشرقِ العربيّ.

* وقد تبارى الأدباءُ والبلغاءُ في وصفِ النساء الخطّاطات ، من ذلكَ ما حدَّثَ بهِ محمّدُ بنُ إبراهيم الأنصاريّ قال: وصفَ أحمدُ بنُ صالح جارية كاتبة فقال: «كأنَّ خطّها أشكالُ صورتها ، وكأنَّ مدادَهَا سوادُ شَعْرِها ، وكأنَّ قرطاسَها أديمُ وجهِها ، وكأنَّ قلَمها بعضُ أنامِلها ، وكأنَّ بيانَها سِحْرُ مقلتِها ، وكأنَّ سِكّيْنَها سيفُ ألحاظِها ، وكأنَّ مِقطّها قلبُ عاشقِها»(٢).

* وأمَّا الشعراءُ فقد بلغُوا السُّهَا في هذا المضمارِ ، فقد قالَ العبّاسُ بنُ الأحنفِ فيمن جوَّدَتْ خطَّها:

نفْسِي الفِداءُ لخطِّ ذاكَ الكاتبِ فَإِذا مقَالةُ مُستزيدٍ عَاتِبِ

أَهدتْ إِليَّ صَحيفةً مخْتُومةً فَفَكَكْتُها فَقَرأْتُ مَا قَدْ حَبَّرَتْ

* وقالَ الصَّاحبُ بنُ عبَّاد:

 ⁽۱) شذراتُ الذّهب (٥/٣٤٨) ، ومعجمُ الأدباء (١٦٩/١٦) ، والرَّوضةُ الفَيحاء
 (ص ٢٨٤) ، ومرآةُ الجنان (٢/ ١٣٢) ، وسيرُ أعلام النّبلاء (١٨٠/١٨) ، (٤٨١ ، ٤٨١) ، والبدايةُ والنّهاية (١٦/ ١٣٤) ، والكاملُ في التَّاريخ (١٦٣/١٠) ، وأعلام النّساء
 (٤/ ٤١ ، ٤١)؛ وغيرها.

 ⁽۲) انظر: أدب الكُتّاب للصّولي (ص ٣٩ و٤٠) طبعة دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط١
 ـ ١٩٩٤م؛ وانظر: محاضرات الأدباء (١/١٠١).

غَ زَالٌ يفْتِ نُ النَّ النَّ السَّ مَلي حُ الخَدِ والخَطِّ فَهِ ذَا السَّدُرُ فِي السِّمْ طِ

* ونظرَ أحدُ الشُّعراء إلىٰ كاتبةِ ذاتِ بنَانِ جميلِ قد زَانَه عنَمٌ ، وزادَ من جَمالهِ الحنّاءُ فقال:

أفدي البَنَانَ وحُسْنَ الخطِّ منْ عَنَمِ إِذَا تقمَّ صَ بِالحِنَّاءِ فَالكَتِمِ كأنَّما قابلَ القِرطاسُ مِنْ يدِهَا شَبْها ثـلاثـة أقـلامٍ على قَلَمِ * ورأىٰ آخر خطاً جميلاً خطَّتْه أناملُ حسناء فقال:

بخطٍ كأنَّ الله قال لحسنه تشبَّه بمَنْ قَدْ خطَّكَ اليوم فائتَمِرْ

* وسُئِلَ بعضُ الكُتَّابِ عن الخطّ متىٰ يستحقُّ أَنْ يُوصَفَ بالجودةِ فقال:
﴿ إِذَا اعتدلَتْ أَقسامُه ، وطالَتْ أَلِفُهُ ولامُه (١) ، واستقامَتْ سطُوره ، وضَاهىٰ صعودُه حدوره ، وتفتّحت عيونُه ، ولم تشبِهْ راءَه نُونُه ، وأشرقَ قرطاسُه ، وأظلمتْ أَنْقَاسُه ، ولم تختلفْ أجناسُه ، وأسرعَ إلى العيونِ تصوّره ، وإلىٰ العقولِ ثمرُه ، وقُدِّرَتْ فصولُه ، واندمجَتْ وصولُه ، وتناسبَ رقيقُه وجليلُه ، وخرجَ عن نَمطِ الورَّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّع المحدرين ، وقامَ لكاتبه مقامَ النسبة والحلْيَة (٢).

* ومن العجيب أنَّ الصُّوليَّ قد ذكَرَ في كتابهِ «أدب الكُتَّاب» أنَّ الأماثلَ والنُّبلاء كرهُوا تعليمَ النِّساء الخطِّ ، ونَسَبَ ذلكَ لابن عبّاس _ رضي الله عنهما _ فقال: «وقد كَرِهَ أهلُ النُّبُل منَ النَّاس ، وذوو الرّأي منهم أنْ يُعلّمَ

⁽۱) تفنَّنَ الشّعراءُ في وصْفِ اللام والألف وعناقهما ، فقال أحدهم:
حكَتْ قامتي لاماً وقامةُ مُنْيَتي حكَتْ أَلِفاً للوصْلِ قُلْتُ مُسَائللا
إذا اجتَمعتْ لامي مع الألفِ التي حكَتْكَ قواماً ما تَصيرُ فقالَ لا
(۲) انظر: أدب الكتاب ص (٤١ و٤٢).

النّساء الخطّ^(۱) ، وجاء فيه النّهيُّ عن ابن عبّاس أنّه قال: لا تسكنُوا النّساءَ العَلالي ، ولا تعلموهُنَّ الكِتَابة»^(۲).

* وهذا يخالفُ ما تعارفَ عليه الصَّحابةُ الكرام ، فقد كانتْ بعضُ نساء الصَّحابة يُحْسِنَّ الكتابةَ والقراءةَ ؛ فقد ذكرَ صاحبُ كتابِ «التَّراتيب الإداريّة» إجماعَ السَّلَف على تعلُّم النِّساء الكتابةَ فقال: أوردَ القلقشنديّ : «كُنَّ جماعة من النِّساء يكتبْنَ ، ولم يرِدْ أنَّ أحداً منَ السَّلَفَ أنكر عليهنَّ ذلك» (٣).

* إذاً ، فالمعروفُ منْ سيرِ نساءِ السَّلفِ الصَّالح ، أَنَّهنَّ حظينَ بِسَهْم والحِلْم والكتابةِ والتَّدريس^(٤).

⁽۱) منَ الجديرِ بالذّكْر أنّه كانَتْ بالأندلسِ في القَرنِ الرّابعِ الهجريّ مثاتُ الخطّاطاتِ ، ومنهنّ عائشةُ بنتُ أحمدَ القُرطبيّة ، التي قالَ عنها ابنَّ بشكوال في «الصّلَة»: «كانت حسنَةَ الخطِّ ، تكتبُ المصاحفَ والدّفاترَ ، وتجمعُ الكتبَ وتعتني بالعِلْم ، ولها خزانةُ عِلْمٍ كبيرة حَسَنَة». (الصّلة ٢/ ٦٩٣ و٦٩٣) بتصرف.

ـ كما ذكرً عبدُ الواحد المراكشيّ: «أنَّه كانَ بالرّبضِ الشّرقيّ في قرطبةَ سبعونَ ومثةُ المرأةِ كلّهنَّ يكتبْنَ المصاحفَ بالخطّ الكوفي».

أدب الكُتاب (ص ٤٢). ورَووا ـ زُورا ـ أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ قالَ في حقّ النِّساء: «جنِّبوهنَّ الكتابة ، ولا تُسْكنوهُنَّ الغُرف ، واستعينُوا عَليهنَّ بِلا ، فإنَّ نعم تُضَرِّيهِنَّ في المسْأَلة». انظر: (صبح الأعشىٰ ١/٦٤) ، و(محاضرات الأدباء ١/٩٩).

ـ ورويَ أَنَّ «دقنسَ الفيلسوفَ» قالَ وقد رأَىٰ جَارِيةٌ تتعلَّمُ الكتابةَ: «تَسْقي سَهْمَها سُمَّاً لتَرميْكَ به يوماً».

ـ وقيل: سمعَ جريرٌ شِعْراً ، فَسَأَلَ عن قائِله ، فقيل: امرأةُ فلان ، فقال: «إذا زقتِ الدَّجاجةُ زقاءَ الدِّيك فَاذْبَحُوها».

ـ ولا يُلْتَفَتُ إلى هذهِ الأقوال وأشباهِها ، لأنَّ معظَمها عارِ عن الصِّحّة.

⁽٣) التراتيبُ الإداريّة للكتّاني نقلاً عن صُبح الأعشىٰ (١/ ٦٤).

 ⁽٤) روىٰ أبو جعفر النَّحَاس بسندِهِ إلى الحَسَنِ أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ ؟
 كانتْ تكتبُ في مُكاتباتِها بَعْدَ البَسْمَلةِ : «منَ المُبْرأةِ عائشةَ بنتِ أبي بكرٍ حبيبةِ
 حبيب اللهِ ؟ .

* فتعليمُ النِّساء الكتابةَ أمرٌ لا يحتاجُ إلى نقاش ، ولا يُلْتفتُ إلى ما روي _ كَذِباً _ عن سيِّدنا عليّ بن أبي طالب _ رضوان الله عليه _ أنَّه مرَّ على رجلِ يعلِّمُ امرأةً الكتابةَ فقال: «أفعىٰ تُسْقَىٰ سُمّاً»(١).

* وأنشَدوا للبسَّامي قوله:

مَـــا لِلنِّسَاءِ وللِكتَــا بِـةِ والعِمَـالَـةِ وَالخَطَـابَـهُ هَــــذَا لَنَــا وَلَهُـــنَّ مِنْ خَا أَنْ يَبَتُـنَ علــي جَنَـابَـهُ(٢)

* وهذا مصطفىٰ الرَّافعيّ الذي يرىٰ أنَّ البناتِ لم يُخْلَقُنَ للدَّرسِ والكتابةِ ، وإنّما يتعلمنَ نَشْرَ الغَسيل ، وخياطة الثّياب ، ومَسْكَ الإبرةِ بدلاً عن القَلَم ، يقولُ الرَّافعيُّ:

يا قَوم لَمْ تُخْلَقُ بناتُ الورىٰ للدَّرسِ والطَّرسِ وقَالِ وقيْل لنَا عُلومٌ وَلهَا غيرُهَا فعلَّموها كيفَ نَشْر الغسيْل وَالشَّوبُ والإِبْرةُ في كَفِّها طِرسٌ عليهِ خطُّ جَميْل

* وقَبْلَه صَالَ المعريّ وجَالُ في الميدانِ نَفْسِهِ فقال: عَلَّمُوهُنَّ الغَزْلَ

⁻ وحكى جعفرُ بنُ سعيد أنَّه ذُكِرَ لعمرِو بنِ مسعدةَ كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال: «قرأتُ لأمِّ جعفرَ توقيعاتِ في حواشي الكتُبِ وأسافِلها، فوجدتُها أَجْوَدَ اختصاراً وأجمعَ للمعَاني».

⁻ وكتبَ عاملٌ لزبيدة - رحمها الله - كِتاباً ، فوقّعَتْ على ظهرِه: «أَنْ أَصلحْ كتابَكَ وَإِلاَّ صرفْنَاكَ عن عَملِكَ» ، فتأمَّله ، فلمْ يظهرْ له فيهِ شيءٌ ، فعرضَه علىٰ بعض إخوانِهِ ، فرأَىٰ فيه في الدُّعاءِ لها: وأدامَ كرامتَكِ ، فقال: «إنّها تخيّلَتْ أنّك دعوتَ عليها ، فإنّ كرامةَ النّساءِ دفنُهنَّ» ، فغيَّرَ ذلك وأعادَ الكتابَ إليها فقبلَتْه.

⁽١) صبح الأعشىٰ (١/ ٢٤).

 ⁽۲) انظر: محاضرات الأدباء (۱/ ۹۹) ، وصبح الأعشىٰ (۱/ ٦٤)؛ وانظر كتاب: أستاذ
 المرأة لمحمد بن سالم البيحاني؛ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ط٣ ـ دون تاريخ.

وَالنَّسِجَ والرَّدْنَ وخَلُوا كتابةً وقراءَهْ ، فَصَلاةُ الفَتَاةِ بالحَمْدِ وبالإِخْلاصِ تَجْزي عن يُونُس وبَراءهْ.

* ولا يُلتفتُ إلى هذا كلّه ، فقد كانَ أكابرُ العلماءِ على مرِّ العصور يثقونَ بالمرأةِ الكاتبةِ المتعلّمةِ ، فهذه ستّ الرّكب بنتُ علي العسقلانيّة ، أختُ الحافظ ابن حجر كانت قارئةً كاتبةً وأعجوبةً في الذّكاء ، قال عنها أخوها: «تعلَّمَتِ الخطَّ ، وحفظتُ الكثيرَ من القُرآن ، وأكثرَتُ مطالعة الكتبُ فمهرتْ في ذلك جدّاً»(١).

* هذا وقد امتدحَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكتابةَ ، وجعلَ كَتَبةَ الملائكةِ كِراماً فقال: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَنفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَنبِينَ ۞ يَعْلَمُونَ مَا تَقْعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٥ _ ١٠]؛ وقال عزَّ شأنُه أيضاً: ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۞ كِرَامِ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٥ _ ١٦].

* وقد امتدحَ السَّلفُ الكتابةَ والخطَّ ، وأطنبُوا في ذلك ، وحثُوا على تعلّمهما ، ولم يتركُوا شأواً لمادحٍ حتى قال سعيدُ بنُ العاص: «مَنْ لم يكتبْ فيمينُه يُسْرىٰ».

_وقالَ معنُ بنُ زائدةَ الشَّيباني (٢): «إذا لم تكتبِ اليَدُ ، فهيَ رِجْلٌ».

_ وقال المؤيّدُ: «الكتابةُ أشرفُ مناصبِ الدّنيا بعدَ الخلافةِ ، إليها ينتهي الفَضْل ، وعندها تقفُ الرّغْبَةُ».

* ومن كلامِ أبي جعفر الفَصْلِ بنِ أحمد في جملة رسالة له في مدحِ

 ⁽١) اقرأ سيرة ست الركب العسقلانية في كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٦٥ ـ ٣٧٦)
 حيث تجد فوائد كثيرة بإذن الله.

 ⁽٢) اقرأ بتوسع سيرة معن بن زائدة في موسوعتنا المنوعة «فرسان من التاريخ» طبعة دار
 اليمامة بدمشق.

الكتابة والخطّ حيث يقول: «الكتابةُ أسسُ المُلْكِ ، وعمادُ المملكةِ ، وأغصانٌ متفرّقةٌ من شجرةٍ واحدة ، والكتابةُ قطبُ الأدبِ ، ومَلاكُ الحكمةِ ، ولسانٌ ناطقٌ بالفضلِ ، وميزانٌ يدلُّ على رجَاحةِ العَقْل والكتابةُ نورُ العِلْمِ ، وميدانُ الفَضْلِ والعَدْلِ ، والكتابةُ حليةٌ وزينةٌ ، وجمالٌ وهيبةٌ ، وأفضلُ درجة وأرفعُ منزلة . . . »(١).

- وقد أطالَ الشُّعراء والبلغاءُ في امتداحِ الكَتَبةِ وأهلِ الخطَّ ، فقال أحدهم:

مَـــا النَّــاسُ إِلَّا الكَتَبِــهُ هــم فضَّــةٌ فـــي ذَهَبَــهُ قَـــدْ أَحْـــرزُوا دُنْيــاهُـــمُ بِشُعْبَـــةٍ مـــــنْ قَصَبَــــهُ * وقال الخَليلُ:

كتبْتُ بخَطّي مَا ترى في دفَاتِري عَنِ النَّاسِ في عَصْري وفي كُلِّ غابرِ وَلَـوْلاَ عَـزَائـي أَنَّـهُ غَيـرُ خَـالـدِ على الأرضِ لاستودعْتُه في المقابرِ * وفي بقاءِ الخطّ بعد كاتبه قالَ بعضُ بلغاءِ الشّعراء:

ومَا منْ كَاتبِ إِلَّا سَتَبْقىيٰ كِتَابِتُه وإِنْ فَنيَتْ يَــداهُ فَلا تَكْتُبْ بِخطَّكَ غيرَ شيءِ يَشُـرُكَ في القيــامــةِ أَنْ تــراهُ

* وهذا الميدانُ واسعٌ جداً في أدبنا ، وقد أوردْنَا منه ما يفي بالغَرضِ .
 الأديبةُ النَّاثِرةُ :

* قالَ الشَّاعرُ في عالماتِ وأديباتِ المشرقِ العربيّ :

بغْ دار العَ الِمَ الِمَ اتِ وَمَنْ زِلُّ المُت أَدِّب ات ودمش قُ دارُ أميّ ة أمُّ الجَ واري النَّ ابغَ ات فحَضَ ارةُ الإسْ لامِ تن طقُ عَنْ مكَانِ المُسلمَ ات

⁽١) انظر: صبح الأعشىٰ (١/ ٣٧) بتصرف واختصار.

* فاطمةُ ابنةُ الحَسن بن عليّ الأقرع هذه؛ واحدةٌ من نوادرِ نساءِ عَصْرِها ومصرِها عِلْماً وأدباً ومعرفةً وسَعة اطّلاعٍ ، ويُضاف إلى ذلك كلّه أنّها كانت كاتبةً ماهرةً ، وخطّاطةً مبدعةً ، جوَّدَ النّاسُ على خطّها لبراعةِ حُسنه ، وكانت تكتبُ وتجوّدُ الخطَّ على طريقةِ ابنِ البّواب (١) الخطّاط المجوّد المشهور ، وفاقتْ نساء أهلِ زمانها في هذا المضمار الطّريفِ الجميلِ ، ورحلتْ إلى بلاد الجبلِ إلى العميدِ أبي نصر الكندريّ (٢) ، وكان منَ

أكذا يُجازَىٰ ودُّ كُلِّ قرين أَمْ هذهِ شِيَمُ الظَّباءِ العِيْنِ نِ

شَهِدِتْ عِدِلَهُ أَنَّ عَنْصُرَ ذَاتِهِ مَسْكٌ وَعَنَصَرَ غَيْرَهُ مَنْ طَيْنِ قُتِلَ الكندري سنة (٤٥٦ هـ) وعمره نيفٌ وأربعون سنة. (وفيات الأعيان ١٣٨/٥ _ ١٤٣).

⁽۱) «ابنُ البوّاب»: عليُّ بنُ هلال أبو الحَسن بنُ البوّاب صاحبُ الخطَّ المنسوب ، كتبَ على محمّد بنِ أسد ، وأخذَ العربيَّة عن ابن جنّي ، وكانَ في شبابهِ مُزوِّقاً دهّاناً في السُّقوف ، ثم صار يذهِّبُ الخِتَمَ وغيرهَا ، فبرعَ في ذلك ، ثم عُنيَ بالكتابةِ ، ففاقَ فيها الأوائلَ والأواخرَ ، ووعظَ وعبَّر الرُّؤيا ، وقالَ النَّظمَ والنَّثرَ ، ونادم فَخْرَ المُلْكِ أبا غَالبِ الوزير ، ولم يعرفِ الناسُ قَدْرَ خطِّهِ إلاّ بعد موتِهِ ، لأنَّه كتَبَ ورقةَ إلىٰ كبيرٍ يشفعُ له فيها في مساعدةِ إنسانِ بشيءٍ لا يساوي دبنارين ، وقد بسطَ القولَ كبيرٍ يشفعُ له فيها في مساعدةِ إنسانِ بشيءٍ لا يساوي دبناريْن ، وقد بسطَ القولَ فيها ، فلمّا كان بعد موتهِ بمدّة ، بِيْعَتْ تلكَ الورقة بسبعةَ عشر ديناراً. توفي ابنُ البوّاب في جمادي الأولىٰ سنة (٤١٣ هـ) ، ودفنَ إلى جوار الإمام أحمدَ بنِ حنبل رحمه الله.

⁽٢) «الكندريّ»: أبو نَصر محمدُ بنُ منصور بنِ محمّد الملقّب: عميد الملك الكندريّ ، كانَ منْ رجالِ الدَّهر جُوداً وسخاءً وكتابةً وشهامةً ، استوزرَهُ السُّلطان طغرل بك السّلجوقي ، ونالَ عنده الرّثبة العالية ، والمنزلة الجليلة ، وهو أوّلُ وزيرِ كان لهذهِ الدَّولة ، وصحبَ إمامَ الحرمَيْن أبا المعالي عبدَ الملك الجُويني. وكانَ عميدُ الملك ممدّحاً مقصداً للشُّعراء ، مدحَه جماعةٌ من أكابرِ شعراءِ عَصْره؛ منهم: أبو الحسن عليُّ بنُ الحَسن الماخرزيّ ، وصرّدرّ أبو منصور عليّ بنُ الحسن الكاتبُ والشّاعرُ المعروفُ ، حيث مدحه بقصيدة نونيّة طويلةِ مطلعُها:

المشهورين بجودَةِ الخط، فأُعجبَ وتعجَّبَ من حُسْنِ حطَّها، وبلاغةِ معانيها، فأعطَاها عندئذ ألف دينار (١١).

* وطارت شهرةُ فاطمةَ بنتِ الأقرع في الآفاق ، وفي هذا الميدانِ الأنيق ، وكتبُوا على منوالِ خطّها ، واقتفوا آثارَها في هذا الفنّ الجميل ، وكأنَّ الشاعر قد عنى خطّها بقوله:

خَـطٌ مليـعٌ كَـأَنَّ اللهَ أَنْشَـأَهُ لَمْ يَحْكِهِ كَـاتَبٌ يـومـاً وَلاَ قَلَـمُ سُطُورُهُ زَهْرُ طُلابِ علىٰ شَجرٍ حـروفُه دُرَرٌ فـي السِّمْـط تنتظـمُ * وقول الآخر:

مُستودعٌ قِـرطـاسُـهُ حِكَمـاً كـالـرَّوضِ ميّـزَ بينـه زهــرُهُ وَكَـانً أحـرفُ خَطّـهِ شَجَـرٌ والشَّكْلَ في أضعافِها ثَمـرُهُ (٢)

(۱) البداية والنّهاية (۱۱/ ۱۳٤). وقال أبو بكر محمّد بنُ عبد الباقي بن محمد البزّاز العروضي: «سمعتُ الكاتبةَ بنتَ الأقرع تقولُ: كتبتُ ورقةً لعميد الملك أبي نصر الكندريّ ، وأعطاني ألفَ دينار». (معجم الأدباء ١٦/ ١٧٢).

) انظر: أدب الكُتّاب للصولي (ص ٤٠). ومنَ الطَّرائف التي تُسْتَحلىٰ فتُسْتَجلى أنّني كنتُ منذُ سنواتٍ خَلَتْ في مدينة الرّياضِ بالسّعوديّةِ ، وعرفْتَ هناكَ أحدَ الخطّاطينَ البارعين من مدينةِ الإسكندريّة بمصر ، ويُدعىٰ: محمّد محمود رُطيل ، وكانَ ذا أدَبٍ وكَرَم أُخْلاقٍ ، هادىءَ الطّبع ، لطيفَ المَعْشَر ، كريمَ اليدِ ، مِضْيافاً ، يهوىٰ الأدبَ والأَدباء ، خفيفَ الظّلّ ، يجيدُ النّكتة ، وخُصوصاً في الحَماةِ ، وإذا ما سلّمَ علىٰ أحدِ منَ الأصدقاءِ سأَله بدعابةٍ : كيفَ حماتُك؟! وقد حبّاه اللهُ ريشةً جميلةً ، فكانَ خطّاطاً بارعاً ، وصادفَ أنْ قدّم لي دفتراً أكتبُ له بعضَ نثري وشِعْري ، فأذكرُ أنّى كتبتُ له هذَيْن البيتَيْن:

خَطَّتُ أَسَامُكُ بُدَائِعَ لَفُظِنَا فَكَأَنَّهَا مِنْ حُسْنِهَا تَتَكَلَّمُ وأَجَادَ في مَشْقِ الخطوطِ جميعِها فقدودُهَا متّاسَةٌ تترزّمُ - كما أنّني كنتُ أداعبُ في دمشقَ صديقي الخطّاط المفنَّ البارعَ صاحبَ الرّيشة السَّاحرة ، والخطّ المتميز الجميل أميرَ الخطّ: محمد غياث الدّين الكَيْلاني ، كنتُ أداعبُهُ بقصيدة مطلعُها: * ولهذا فعندما ترجمَ لها ياقوتُ الحمويّ في «مُعْجَمه» نعتَها بحسنِ الخطِّ وملاحتِهِ فقال: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن عليّ أمُّ الفَضْل المعروفة ببنت الأقرع ، الكاتبةُ صاحبةُ الخطّ المليح المعروف»(١).

* وقال ابنُ الأثير في «كامِله»: فاطمةُ بنتُ علي المؤدّب المعروفةُ ببنتِ الأقرع ، الكاتبةُ ، كانتْ من أحسنِ النّاس خطّاً على طريقةِ ابن البوّاب (٢٠).

* وقال السَّمعاني: "وكانَ لها خطُّ مليحٌ حَسَنٌ ، وهي التي أُهِّلَتْ لكتابةِ كتابِ الهُدنةِ إلى مَلِكِ الرُّوم من الدِّيوان العزيز ، وسافرتْ إلى بلادِ الجبل إلى العميدِ أبي نصر الكندريّ ، وكتبَ النَّاس على خطّها ، وكانت تكتبُ على طريقة ابن البوّاب" .

* وقال ابنُ كثير في «بدايته»: «فاطمةُ المؤدّبةُ الكاتبةُ ، وتُعرفُ ببنتِ الأقرع ، تكتبُ النّاس عليها ، ويكتبُ النّاس عليها ، وبخطّها كانتِ الهدنةُ منَ الدّيوان إلى مَلكِ الرُّوم»(١٤).

* وقال عمرُ رضا كحّالة: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي الأقرع ، كاتبةٌ منْ أحسنِ النَّاسِ خطَّا على طريقةِ ابن البوّابِ» (٥).

* وقبله بقرونٍ كثيرة قال الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ في ترجمتها ، وأنَّ المثلَ

⁽٢) الكامل (١٠/١٦٣)؛ وقال ابن الجوزي في المنتظم: «وكان خطّها مستحسناً في الغاية».

⁽٣) معجم الأدباء (١٦/ ١٧٢).

⁽٤) البداية والنهاية (١١/ ١٣٤).

⁽٥) أعلام النساء (٤/ ٤).

كان يُضرب بحسن خطّها: «جوَّد الناسُ على خطّها لبراعةِ حُسْنه ، وهي التي نُدبتْ لكتابةِ الهدنةِ إلى طاغيةِ الرُّوم من جهةِ الخلافةِ ، وبكتابها يُضْربُ المثَل»(١).

* وفي «شَذَراته» قال ابنُ العماد الحنبليّ: «فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي الأقرع ، أمُّ الفضل ، البغداديّة ، الكاتبة ، التي جوّدوا على خطّها ، وكانت تنقلُ على طريقةِ ابن البوّاب»(٢).

* وقال العمريُّ في «روضته»: عن فاطمةَ بنتِ الأقرع: «كانت أجودَ أهلِ زمانها بالأدبِ والفَضْل ، وكانت حسنةَ الخطَّ في الغايةِ مع سرعةِ الكتابةِ وفرطِ صحّته»(٣).

* وهكذا كانت فاطمةُ بنتُ الأقرع أديبةً أريبةً فاضلةً مليحةَ الخطّ ، صحيحةَ الضّبط ، قضَتْ شطراً من حياتِها بين إجادةِ الخطِّ وتعلُّم الأدبِ ، حتى بلغتِ السُّها بين نساءِ المشرقِ العربي ، وكأنَّ قولَ الخطَّاط المِصْريّ الشّهير «سيّد إبراهيم» ينطبقُ على حياتِها عندما يقول:

قَضَيتُ زهْرةَ عُمريْ مَا بينَ خَطُّ وشِعْرِ وَفَا بينَ خَطُّ وشِعْرِي فَا بينَ خَطُّ وشِعْرِي فَا الْمَسْرِي أَنْ الْمُسْرِي الْمُسْرِي أَنْ الْمُسْرِي الْمُسْرِ

 « في ميدانِ الأدبِ والشّعرِ وفنّ الكلمةِ ، كان لفاطمةَ ابنةِ الأقرع جولاتٌ باهراتٌ أظهرتْ خلالَها براعتَها ومقدرتَها الأدبيّةَ واللغويّةَ .

⁽١) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٨٠).

⁽۲) شذرات الذهب (۵/ ۳٤۸).

⁽٣) الروضة الفيحاء في تواريخ النساء (ص ٢٨٤).

⁽٤) ولد سيد إبراهيم سنة (١٨٩٧م) بمصر وتوفي سنة (١٩٩٤م) وكان خطاطاً وشاعراً.

* فهي في علم التَّاريخ كانتْ واحدةً منَ النّساء اللائي تضلعْنَ في قراءتهِ، والتّبحر به، ومعرفةِ أصولِه، حيث كان لها الاطلاع التّام في ذلك.

* أمّا الشّعْرُ وفنونُه ، وروايتهُ وحفظُه ، فكانت فيه من المجليات ، تحفظُ كثيراً من أشعارِ العرب ، ومن محفوظاتِها الشّعْرية ، ما ذكره أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أحمد بن عمر الحافظ الأشعبيّ قال: «أنشدتنا الكاتبة أمُّ الفضل فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي المقرىء ، قالت: أنشدنا أبو القاسم المُطَرِّزُ في دارِنا بقطيعة الرَّبيع لنفسه:

سَرَى مُغْرِماً بِالعِيْشِ ينْتَجِعُ الرَّكْبَا يَسَائِلُ عَنْ بَدرِ الدُّجَىٰ الشَّرقَ والغَربا إِذَا مَا اللهِ اللهُ العَينَ والقَلْبا ولمَّا البَدرُ العُينِ وَالقَلْبا ولمَّا المَعْنِ وَالقَلْبا ولمَّا المَعْنِ وَلَقَلْبا ولمَّا المَّولُ وَلَا وَلَا وَلَا وَالْفَلْبَا اللهُ العَيْنِ وَالْفَلْبَا (١) إِذَا لَا مُ تُبلَّغْنِي إِلَيْكُمْ رَكَائِبِي فَلَا وَرَدَتْ مَاءً وَلَا رَعَتِ العُشْبَا (١)

* ولعلَّ لها كثيراً من المحفوظاتِ الشِّعريّةِ قد وردت في كتبِ الأدبِ والتَّراجم؛ إلَّا أنّه لم يَصِلْ إلينا شيءٌ منها.

* أمّا ذكاؤُها وحصافتُها ، وحدّةُ خاطرِها ، وحرارةُ نوادرِها ، فآيةٌ منْ آياتِ فاطرِها ، وكانت في نساءِ أهل زمانِها ، واحدةَ أقرانِها ، حضور شاهد (٢) ، فقد كانت خفيفةَ الظّل ، حاضرةَ الجواب ، سريعةَ الخاطرة.

* أوردَ العمريُّ قصَّةً جميلةً تدلُّ على ما ذكرناه من صفاتِها فقال: «حُكِيَ أَنَّ رَجُلاً سائِلاً أَتَىٰ دارَ فاطمةَ بنت الحسن يسألُها شيئاً يستعينُ به

معجم الأدباء (١٦/ ١٧٣ و ١٧٤).

⁽٢) هذه الفقرات مقتبسة من كتاب «الذّخيرة» لابن بسّام (١/ ٢٦٨).

على البردِ في يومِ شديد البردِ ، وذكَّرها أنَّه كثيرُ التَّهجُّدِ بالليلِ ، وقد رمدتْ عيناهُ من السُّهر.

فقالت له: بِمَ تداوي عينيك؟

قال: بالعبادة ، والصُّوم ، والدّعاء.

فقالت له: لو خلطْتَ الثَّلاثَـةَ بالمثلثةِ مع قليلِ أنزروت لكان أسرعَ بالإجابة.

فقال لها: وما المثلَّثة؟

قالت: النَّوم ، والرَّاحة ، وعدم السَّؤال.

فولَّىٰ الرجل وهو يقول: لا أفلحَ سائلٌ سألَ سائِلاً ١٠٠٠.

البليغة الكَاتبَةُ:

* في مجالِ الكتابةِ والبلاغةِ والنَّثْر ، كانت فاطمةُ بنتُ الأقرع آيةً من آياتِ الإعجاز ، ولها بضاعةٌ في الأدبِ صالحةً ، وفصاحةٌ وبلاغةٌ ؛ وحسنُ خطاب.

- ذكرَ ياقوتُ الحمويُّ أنَّه وجدَ رقعةً بخطّها تدلُّ على تمكّنِها من ناصيةِ البلاغةِ والبيانِ ، ناهيك بحسن الخطّ وجودتِهِ وملاحتِه وتناسقِهِ؛ وقد افتخرتْ فاطمةُ في رقعتها بأنّها لمْ تُسْبَقْ فيما كتبَتْه منَ الذّكور دون الإناثِ ، وأظهرتِ المُعجزَ منْ عاجز ، والكاملَ منْ ناقص ، كما أحسنَتْ في رسمِ الحروفِ ، ترى ماذا كتبَتْ فاطمةُ؟!

قال ياقوتُ الحمويّ: «وجدتُ بخطّها رقعةً هذه نسختُها: الأَمَةُ الكاتبةُ.

⁽١) انظر: الروضة الفيحاء (ص ٢٨٤).

بسم الله الرّحمن الرّحيم: ثقتي باللهِ وحدَه ، خشعتُ لصولةِ عزّ المجلسِ العالي العَادلي المؤيّدي المظفّريّ المنصوريّ العزّيّ السّعديّ الرّكنيّ النَّصيريِّ المجديّ الشّرفيّ الأميريّ ـ أعزَّ اللهُ أنصارَه ـ وضاعفَ اقتدارَه عَقِبَ الدّهور ، وانقادتْ لمشيئته تصاريفُ الأمور ، وامتدتْ إلى نوالهِ آمالُ السُّؤَال ، وأناخَتْ بفنائه رواحلُ الرّجال.

* فما إنسانٌ إلا موفورٌ ببره ، ولا لسانٌ إلا مسبِّحٌ بشكرِه ، ولا آملٌ إلا مصروفٌ إليه ، فأعطاهُ اللهُ تعالىٰ منَ الآمالِ في نفسهِ وذويه مالا يرنو إليه طَرْفٌ ، ولا يأتي عليه وصْفٌ:

حتَّى تسيرَ مَسيرَ الشَّمْسِ رايتُهُ وتعْتَلي باسمِهِ العَالي على القَمرِ ويغْتَدي أَمْرُهُ أَمضي من القَدر ويغْتَدي أَمْرُهُ أَمضي من القَدر

* ومن بعد: فقد ذهبت - أطالَ الله بقاء المجلسِ العالي وأعزَّ سلطانه - في دَرْجِ قد قرنتُه بهذِهِ الرّقعة ، مذهبَ المطرفِ المعجب ، وهو مما لم أُسْبَقُ إلى مثلهِ من مقدّمي أهلِ هذه الصّناعة من الذّكور دونَ الإناث ، أظهرتُ فيه المعجزَ من عاجز ، والكاملَ من ناقص ، كما قالَ قابوسُ بنُ وشمكير ، وقد يُسْتَعذَبُ الشّريب منْ منبعِ الزُّعاق (١) ، ويُستطابُ الصّهيل من مخرجِ النّهاق. جعلتُ في ذلك إقبالَ المجلسِ العالي - ضاعفَ الله اقتداره - قائداً إلى طرقِ الرّشاد ، وعزَّ سلطانه هادياً مبصِراً إلىٰ سُبُلِ الإصابةِ والمراد ، وأظهرتُ الحروفَ مفصولةً وموصولةً ، ومعماةً ومُفتَّحة في أحسنِ صِيغها ، وأبهجِ خلقِها ، منخرطة المحاسن في سِلْك نظامِها ، متساوية الأجزاء في تجاورها والبناء. فهي لينةُ المعاطفِ والأرداف (٢) ، متساوية الأجزاء في تجاورها والبناء. فهي لينةُ المعاطفِ والأرداف (٢) ،

⁽١) «الزّعاق»: الماءُ المرّ الغليظُ لا يُطاق شُربه.

⁽٢) «الأرداف»: أعجاز الكلام وأواخره ، جمع ردف.

متناسبةُ الأوساطِ والأطراف ، ظاهرُها وقور (۱) ساكن ، ومَفْتَشُها رهج مَائِن (۲) ، وإن استُخدِمْتُ إلىٰ مهم يَسْنَحُ ، أوفيتُ فيه على كلّ مُرتَسمٍ في هذا الشَّأن قديماً وحديثاً ، وسالِفاً وآنفاً ، أؤمّلُ بذلك الخطوة من إحمادهِ ، وجميل رعايته ، سمع اللهُ سبحانه فيه كلّ دعاء مُستجاب من الأمة الكاتبةِ ، ومَنْ يتعلَّق عليها من وليدةٍ ومولودٍ ، وشريفٍ ومشروف ، وعجوزٍ داعية ، وأمّةٍ خادمةٍ لما يوليها وينعمُ عليها ، ويعرفُ موضع خدمتها ، ومحلَّ صنعتِها ـ لا سلبَها اللهُ وسائرَ الخلق ظِلَّه بِمنّه ـ قد ترادف الإنعامُ عليها دفعة بعد أخرىٰ ، وثانية بعد أولىٰ ، على يد الشَّيخ الأجلّ السبيد فخرِ الكفاءة أبي الحُسَين ـ أدامَ اللهُ تأييده ـ وتولّىٰ عني من غير حقّ على ما أَصْدَرْتُهُ من الخَدمِ بلحظة ، وأحسنَ إليه بلمحة ، أدركتُ حظّي على ما أَصْدَرْتُهُ من الخَدمِ بلحظة ، وأحسنَ إليه بلمحة ، أدركتُ حظّي وحزتُ أملي ، والرّأي السَّامي في إجابتي إلى ما سألت ، وإثباتي في جملة وشرَفُهُ إنْ شاءَ اللهُ تعالىٰ (۵).

* وبهذه الرّقعة تظهرُ بلاغةُ فاطمةَ بنت الأقرع ، ويظهرُ بيانُها السَّاحر ،
 ونثرهَا الفنّي ، بالإضافة إلى خطّها الجميل الذي يسحَرُ الألباب و :

وكَاتب يرقُمُ في طِرْسِهِ روضاً به ترتع ألحَاظُهُ فَاللَّهُ وَالسِّحْرُ مِا تَنْسِرُ أَلْفَاظُهُ

⁽١) «وقور»: ثابت.

⁽۲) «مفتشها»: مخبرها. و«رهج»: السحاب بلا ماء. «مائن»: المترقرق اللامع.

⁽٣) «عارفة»: العارفة: العطية والمعروف ، والجَمع عوارف.

⁽٤) "المغمورين": المشمولين المنغمسين.

⁽٥) انظر: معجم الأدباء (١٦٩/١٦ ـ ١٧١).

الممُحَدِّثَةُ الحَافِظَــةُ:

* لم تكن فاطمة بنت الأقرع تجيد الخط وفنون الأدب والإنشاء فحسب ، وإنّما كانت إحدى النّساء المحدثات اللواتي رويْنَ العلْمَ عن أهلهِ ، وسمعْنَه من الأكابر. وكانت من أسرةٍ محدثةٍ نشأت بناتُها على حبّ علْمِ الحديث (1) ، وترعرعت فاطمة على سماعِه؛ قال ابن الأثير عنها: «وسمعت الحديث وأسمعته» (7).

* فقد سمعت فاطمة بنت الأقرع الحديث من أبي عمر عبدِ الواحد بن عبد الله بن مهدي الفارسي (٣) وخيره.

* وسمع منها أبو القاسم مكّيُّ بنُ عبد الله الزّميليّ الحافظ.

* وروى عنها أبو القاسم إسماعيلُ بنُ أحمد بن عمر السَّمرقنديُّ ، وأبو البركَات عبدُ الوهاب بنُ المبارك بن أحمد الأنماطيّ (٤) ببغداد ،

⁽۱) لفاطمة بنتِ الأقرع هذه أختٌ محدِّثةٌ اسمُها: زينبُ بنتُ الحسن بن علي أمُّ الآمال ، المعروفة ببنتِ الآقرع ، وهي أختُ الكاتبة فاطمة. سمعتْ أبا طالب محمّد بنَ محمّد بنِ إبراهيم بن غَيْلان ، وحدَّثت باليسيرِ ، وكانت أصغر من فاطمة. وروى عنها عبد الوهّاب الأنماطيّ ، وأبو نصر أحمدُ بنُ عمر الغازي الأصبهاني وتوفيتُ سنة (٩٣٤ هـ) ـ رحمها الله . (الوافي بالوقيّات ١٥/ ١٤).

⁽٢) الكامل في التّاريخ (١٠/١٦٣).

 ⁽٣) أبو عمر بنُ مهديّ ، عبدُ الواحد بنُ محمّد بنِ عبد الله الفارسيّ ثمّ البغداديّ البزّاز ،
 آخرُ أصحابِ المحامليّ ، وابنِ مخلد ، وابنِ عُقْدة ، قالَ الخطيبُ: «ثِقةٌ». توفيَ
 في رجب سنة (٤١٠ هـ) وله (٩٢ سنة). (شذرات الذّهب ٥٩/٥).

 ⁽٤) أبو البركاتِ عبدُ الوهّابِ بنُ المبارك بنِ أحمدَ الأنماطيّ الحافظُ الحنبليُّ ، مفيدُ بغدادَ ، وُلدَ في رجب سنة (٤٦٢ هـ) ، وسمعَ الكثيرَ من خلقٍ كثير ، وكتبَ بخطّهِ الكثيرَ ، وسمِعَ العالمي والنَّازِلَ ، وكانَ بقيّةً إلشَّيوخِ ، ولمْ يتزوَّجْ قطّ.

ـ قال الحافظَ أبو موسى المديني: «هو حافظُ عَصْرَه ببغداد».

ـ وقال ابنُ السَّمعانيُّ عنه: «حافِظٌ ، ثقةٌ ، مُثَقِنٌ ، واسعُ الرّواية ، دائمُ البِشْر ، =

وأبو سعد أحمدُ بنُ محمّد بن أحمد بن الحسن البغداديّ الحافظ بأصبهان وغيرهم. وسمعَ عليها ابنُ البطحي الجزءَ الأوّلَ من أمالي المحامليّ.

* ومن مرويّاتها التي تَصِلُ إلى رسولِ الله ﷺ ما ذكرَه ياقوتُ الحمويُّ في «مُعْجمه» قال:

* أخبرنا أبو البركات عبدُ الوهاب بنُ المبارك بن أحمد الحافظ بقراءتي عليه ، أخبرنا فاطمةُ بنتُ الحسن بن علي العطّار المقرىء قالت: أخبرنا أبو عمر عبدُ الواحد بن محمّد بن عبد الله بن مهدي الفارسيّ ، حدَّثنا أبو هشام الرّفاعي ، أبو عبد الله الحُسينُ بنُ إسماعيل المحامليّ ، حدّثنا أبو هشام الرّفاعي ، حدّثنا ابن فُضيل ، حدّثنا الأعمشُ عن عبد العزيز بن رفيع ، عن تميم بن طرفة ، عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله عنه : «مَنْ على يمينِ فرأى غيرها خيراً منها ، فليأتِ الذي هو خيرٌ ، وليكفّرُ عن عمينه» (١).

* وهكذا كانتْ فاطمةُ بنتُ الأقرع واحدةً منَ النّساء الموهوباتِ ، اللاتي عرفْنَ كثيراً من المعارف ، وفي مقدمتها: اللاتي عرفْنَ كثيراً من المعارف ، وفي مقدمتها: الخطُّ والأدبُ والإنشاءُ وروايةُ الحديثِ النّبويّ الشّريف ، وغيرُ ذلك .

سريعُ الدَّمعة عند الذّكر ، حسَنُ المعاشرة ، جَمَعَ الفوائد ، وخرّجَ التّخاريجَ ،
 وكان متفرّغاً للتّحديث إمّا أنْ يُقرأ عليه ، أو ينْسَخَ شيئاً».

ـ وذكره تلميذُه ابنُ الجوزيّ في عدّةِ مواضعَ من كُتبهِ ، وأثنىٰ عليهِ كثيراً وقال: «كان ثقةً ثبتاً ذادِيْنِ ووَرَعٍ ، وكنتُ أقرأً عليه الحديثَ وهو يبكي . . . وكان علىٰ طريقةِ السَّلَف ، وانتفعتُ به ما لمْ أنتفعُ بغيرهِ . . . ، وكان لا بغتابُ أحداً ، ولا يُغْتَابُ عنده أحدٌ . . . » .

ـ توفي يوم الخميس (١١ محرم) سنة (٥٣٨ هـ) ، ودُفنَ بالشّونيزية ، وهي مقبرةُ أبي القاسم الجنيد غربي بغداد. (شذرات الذهب ٦/ ١٩١ و١٩٢) بتصرف.

⁽١) انظر: معجم الأدباء (١٦/١٧٣).

* أمّا وفاتُها فكانت في بغداد ، ففي يوم الأربعاء في (٢١ من المحرّم) سنة (٤٨٠ هـ) لبّتْ فاطمةُ نداءَ ربّها ، وصعدت روحُها إلى ربّها راضيةً مرضية ؛ ولعلَّ يوم وفاتها كانت من الأيّام المشهودة ؛ إذ فَقَدَ النَّاسُ امرأة نادرة المثالِ ، تفخرُ البلدانُ بمثلِها ، ثمّ دُفِنَتْ بباب أبزر ببغداد (١٠).

* وبوفاتها فَقَدَ النّاس جمالَ الخطّ العربيّ النّسويّ الذي أبدعته أنامِلُها ، كما فقدوا ظرفَها وأدبَها ، لكنّهم لمْ يفقدوا ما تركته من آثار حِسَان في تاريخِ المرأةِ المشرقيّة.

* فرحمَ اللهُ فاطمةَ بنتَ الأقرعِ الأديبة الخطّاطة الكاتبة وأجزلَ مثوبتها ، ونفع بها نساء المسلمين كي يسرن على هُداها ، ويتعلمنَ ما يفيدهُنَّ ويفيدُ مجتمعهنَّ.

* * *

⁽۱) انظر: معجم الأدباء (۱۲/۱۷۲)، وسير أعلام النبلاء (۲۸۱/۱۸)، وشذرات الـذهـب (۴۸/۳۵)، والـروضـة الفيحـاء (ص ۲۸۶)، وأعـلام النسـاء (۲۲۶)، والأعلام للزركلي (۴۲۲،۷).





فاطمت بنت سعدالخير

- * مُحدِّثة يُشار إليها بالبنان، وشيخة جليلة، مُسندة، فقيهة، تصدَّت للعلم والتعليم.
 - * كانت أستاذة العلماء في عصرها علماً ورواية.





الشَّيْخَةُ المَيْمُونَةُ:

* نحنُ الآن في رحابِ امرأةِ جليلة القَدْر ، رفيعة الشَّأْنِ ، لها بين نساء القرنِ السَّادس الهجريّ مكانةٌ ورفعةٌ ، وعُدَّتْ من نساءِ المشرق العربيّ علْماً وفَهْماً ، مع العلمِ بأنَّ أصلَها من بلنسيةَ في بلادِ الأندلس.

* وهذه الشّيخة الميمونة العالمة هي فاطمة بنت المحدّث سعد الخير بن محمد بن سَهْل الأنصاريّة البلنسية (١) المشهورة ببنتِ سعدِ الخير ، وكنيتها أمّ عبد الكريم.

* وكان أبوها أبو الحسن التّاجر سعد الخير بن محمّد بن سهل الأنصاري البَلنْسيّ المحدّث ، أحدَ مشاهيرِ عَصْرِه ومن أعلامهم ، رحل إلى المشرقِ العربيّ ، وسافرَ ورحلَ في التّجارة إلى أنْ دخلَ الصّين ، ولذا كان يكتبُ الصّينيّ ، وركبَ البحار ، وقاسىٰ المشاق ، وكان فقيها عالماً متْقناً ، وتفقّه ببغداد على أبي حامد الغزالي ، وسمع بها أبا عبد الله النّعالي ، وطِراد بنُ محمد ، وطائفة ، وسكنَ أصبهان مدّة وسمع أبا أسعد المطرّز ، وتزوّج بها ، ثمّ سكنَ بغداد ، وروى عنه ابنُ عساكر ، وابنُ السّمعاني ، وأبو موسى المدينيّ ، وأبو اليمن الكنديّ ، وأبو الفرج بن الجوزي (٢) ، وابنتهُ فاطمةُ بنت سعد الخير في آخرين ، وقرأ الأدبَ على الجوزي (٢) ، وابنتهُ فاطمةُ بنت سعد الخير في آخرين ، وقرأ الأدبَ على

⁽۱) سير أعلام النبلاء (۲۱/۲۱ و ٤١٣) ، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٦٩) ، والنجوم الزاهرة (٦/ ١٨٦) ونفح الطيب (٣/ ٣٨٧) ، وشذرات الذهب (٦/ ٥٦٤) ، وتاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٧) ، والعبر (٤/ ٣١٤) ، وأعلام النساء (٤/ ٥٩ - ٢٠) ، والأعلام (٥/ ٣٢٨) ، وتاريخ ابن الدبيثي (ص ٣٩٧ و ٣٩٨) ترجمة رقم (١٥٣٧) ، وغيرها.

⁽٢) قال ابن الجوزي عن سعدِ الخير: «وحدَّثَ وقرأتُ عليهِ الكثيرَ ، وكان ثقةٌ صحيحَ السَّماع». (المنتظم ١٨/ ٥١) طبعة دار الكتب العلمية.

أبي زكريا التّبريزي، وحصَّلَ كُتُباً نفيسة؛ وتوفي يوم السَّبت (١٠ محرم) سنة (٧٤ هـ)، ودُفِنَ إلى جانبِ عبدِ الله بن الإمام أحمدَ بنِ حنبل بوصيّةٍ منه (١٠).

* وفي خلالِ إقامة والدها سعد الخير في مدينةِ أصبهان تزوّج هناك ، ووُلدتِ ابنته فاطمة هنالك (٢) في سنةِ (٥٢٢ هـ) ، وتيمَّنَ بها ، وكانت قرّة عينيّه ، حيثُ لاحظَ شغفَها وحبَّها للعلْمِ منذ نعومةِ أظفارها عندما كانت في عمر الزَّهر ، كما لاحظ أبوها شدّة اهتمامِها في حبّ الاطّلاع ، ومعرفةِ الفقْه والحديثِ وسائرِ العلوم الدّينية .

نَشْأَتُهَا ومَسْموعَاتُهَا:

* في بيتِ سعدِ الخير الفقيهِ العالمِ المُتْقنِ ، كانت نشأةُ ابنته فاطمة ، فقد نشأتُ نشأةَ بناتِ العُلماء اللواتي أَلِفْنَ العِلْمَ وسماعه منذ أنْ فتحتْ عينيها على الدّنيا ، فقد سمعتْ حضوراً في الثّالثة من فاطمةَ الجوزدانية (٣) جملةً من المعجم الكبيرِ .

⁽۱) انظر: شذرات الـذهـب (۲۱۰/۱)، والمنتظم (۱۸/۱۸)، ونفح الطيب (۳/ ۳۸۷_۳۸۸) مع الجمع والتصرف.

⁽٢) قال ابن عساكر: «ولدت ـ فاطمة ـ بالبحرين ورحل بها أبوها إلى أصبهان» (تاريخ مدينة دمشق ، تراجم النساء ص ٢٨٧).

٣) فاطمةُ الجوزدانية أمُّ إبراهيم بنتُ عبد الله بن أحمدَ بنِ القاسم بن عقيل الأصبهانية الجوزدانية _ وجوزدان قريةٌ كبيرةٌ على باب أصبهان _ ، وُلدَتْ في الرُّبعِ الأوّلِ من القرنِ الخامسِ الهجريّ ، وكانت محدّثة ذات ديْنِ وصَلاح ، وسَمعتْ من أبي بكر بن ريذه مُعْجَمَي الطَّبراني _ وهما: المعجمُ الكبيرُ والمعجمُ الصَّغير ، حيث ذكرَ ذلك الذَّهبي في سِيرِ أعلام النبلاء ١٩/٤٥٥ _ وتفرَّدَتْ في وقتِها بروايتهما ، وبكتابِ «الفتن» لنُعيم بنِ حماد المروزيّ ، وحدَّث وقرأ وسمعَ عليها الحفاظ ، وأجازتِ السَّمعاني بجميعِ مسموعاتها؛ توفيتْ بأصبهان سنة (٤٢٥ هـ) ، وعاشتْ (٩٩ سنة) _ رحمها الله _ (شذرات الذّهب ٦/١١٥ و١١٦) ، و(أعلام النساء عليه) مع الجمع والتصرف .

* ثمّ إنّها رحلتْ بصحبةِ أبيها إلى بغدادَ ، وهناك حضرت على هبةِ الله بن الحُصين ، وزاهرِ بنِ طاهر ، وأبي غالب بن البناء.

* وكان أبوها سعد الخير عالماً جليلاً ، فسمعتْ منه ، وتتلمذَتْ عليه ، ثم سمعت من عددٍ من العُلماء مثل: هبة الله بن الطَّير ، والقاضي أبي بكر ، ويحيى بن حبيش الفارقيّ ، وغيرهم كثير ، وأجازَ لها خلقٌ كثير من العُلماء إجازة (١) الرّواية.

* وغدت فاطمةُ إحدى المحدّثات اللواتي يُشار إليهنَّ بالبنانِ ، وغدت

(صبح الأعشى ١٤ / ٣٢٢ ـ ٣٢٥) وللمزيد من ذلك انظر الصفحات بعدها.

⁽١) «الإجازة»: جَرَتِ العادةُ أنَّه إذا تأهَّلَ بعضُ أهلِ العلْمِ للفُتيا والتّدريس ، أنْ يأذن له شيخُه في أنْ يفتيَ ويدرّسَ ، ويكتبَ له بذلك.

وذلك بعد التحميدِ الطّويلِ ، والصَّلاةِ على النّبي ، ثمّ بيانِ فَضْل العلْم ، وذلك بعد التحميدِ الطّويلِ ، والصَّلاةِ على النّبي ، ثمّ بيانِ فَضْل العلْم ، وشخصيةِ المتعلّم ، يكتبُ الشّيخُ ما نصّه: «وأذنَ فلانَ لفلان المسمّى فيه ، أدامَ اللهُ معاليه ، أنْ يدرّسَ مذهبَ الإمامِ المجتهدِ المطلقِ العالم الرّباني ، أبي عبد الله محمد بن إدريس المطلبيّ الشّافعي رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنّة متقلّبه ومثواه ، أنْ يقرأ ما شاءَ من الكتبِ المصنّفةِ فيه ، وأنْ يفيدَ ذلكَ لطالبيهِ ، حيث حلَّ وأقامَ ، كيفَ ما شاء متى شاءَ وأينَ شاء ، وأنْ يفتيَ من قصدَ استفتاءَه خطاً ولفظاً ، على مذهبهِ الشّريفِ المشارِ إليه ، لِعِلْمِهِ بديانتهِ وأمانتهِ ، ومعرفتهِ ودرايته ، وأهليّته لذلك وكفايته .

فليتعلق ـ أيدهُ اللهُ تعالى ـ هذه الحلّة الشّريفة ، وليترقّ بفضلِ اللهِ تعالى ذروة هذه المرتبةِ المنيفةِ ، وليعلمْ قَدْرَ ما أنعمَ اللهُ تعالىٰ عليهِ ، وأسدىٰ منَ الإحسانِ الوافر إليهِ ، وليراقبه مراقبة مَنْ يعلم اطّلاعه على خائنةِ الأعينِ وما تُخفي الصّدور ، وليعامله معاملة مَنْ يتحقّق أنّه يعلمُ ما يخفيهِ العبدُ وما يبديه في الورودِ والصّدور ، ولا يستنكف أنْ يقولَ فيما لا يعلم: لا أعلمُ ؛ فذاك قولٌ سَعِدَ قائلُه ، وقد جاء «جُنّةُ العالِمِ لا أدري فإنْ أخطأها أصيبَتْ مقاتِلُه ، فاللهُ تعالى يرزقُنا وإياه التّوفيق والتّحقيق ، ويسلكَ بنا وبه أقربَ طريق ، ويهدينا إلى سواء السّبيل فهو حسبنا ونعمَ الوكيل». وكتبَ في تاريخ كذا.

بنت سعد الخير هي الشّيخةُ الجليلةُ المسندةُ الفقيهةُ المحدّثة ، حيثُ تصدّت للعلْمِ والتَّعليم في دمشق ، وحدَّثت فيها ، وكذلك حدَّثت بمصرَ ، وروتِ الكثيرَ هنالك.

زَوْجَةُ الوَاعِظِ:

* من خلالِ رحلتنا الشَّاقَة والعذبة في آنِ واحد ، مع فاطمةَ بنتِ سعدِ الخير الأنصاريّة ، علمنا أنَّها تزوّجَتْ أحدَ أعيانِ عَصْرِها منَ الدّماشقةِ منْ نزلاءِ مصْرَ ، وهو الرئيسُ زين الدين ابن نُجيَّة الواعظ ، الذي سكنَ بها في دمشقَ ، ثم في مصرَ ، ورأت عزّاً وجَاهاً.

* وكان زوجُها ابن نُجيَّة هذا من أعلام عَصْره ، وهو كما وصفَه الذَّهبيَّ بقوله: «الشَّيخُ الإمامُ العالمُ الرئيسُ الجليلُ الواعظُ الفقيهُ أبو الحسن عليّ بنُ إبراهيم ابن نجا بن غنائم الأنصاريّ الدّمشقيّ الحنبلي ، وُلدَ بدمشقَ سنة ٥٠٨ هـ (١).

* نشأ ابنَ نجيّة هذا نشأةَ العلماءِ ، فسمعَ التَّفسيرَ ، وأحبَّ الوعْظَ ، وغلبَ عليه ، واشتُهِرَ به ، وأحبَّ الوعظَ وهو طريّ العُودِ لم يتجاوز عَشْر سنينَ.

* وسببُ زواجه من فاطمةَ بنتِ سَعْد الخيرِ ، أَنَّ نُورَ الدِّين الشَّهيد قد بعثَه رسولاً إلى بغدادَ في سنةِ (٥٦٤ هـ) ، وخلعَ عليه خلعةً سوداء ، فكان يلبسُها في الأعياد.

* وفي بغداد أَلِفَ حلقاتِ العلمِ ، فسمعَ الحديثَ من سعدِ الخيرِ بنِ محمد الأنصاريّ الذي أحبَّه ، ومن ثمَّ صاهَرَهُ على ابنته المسندةِ فاطمة ، ونقلَها معه إلى مصْرَ.

⁽١) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٩٣).

* وعاشت فاطمةُ بنتُ سعد الخير معه عيشةً هنيّةً ، فقد كان زوجُها صَدْراً محتشماً نبيلاً ، ذا جاهِ ورياسةٍ وسؤدد ، وأموال وتجمّل وافر ، وكان قد تنعَّمَ تنعُّماً زائداً ، حيث كان في دارهِ عشرون جارية ، تساوي كلّ جارية ألف دينار .

* وكان ابنُ نجيّة هذا كثيرَ البرّ بأمّه ، وفي ذلك يقولُ: «كانت صالحةً حافظةً ، تعرفُ التَّفسير ، ثُمّ أجيءُ إليها فتقول: إيش فَسَّر أخي اليوم؟ فأقولُ سورة كذا وكذا؛ فتقول: ذكرَ قول فلان ، ذكر الشّيء الفُلاني؟ فأقول: لا؟ فتقول: تركَ هذا»(١).

* وفي هذا الجوِّ العبقِ بالمكرماتِ ، كانت حياةُ فاطمة أمّ عبد الكريم ، وبجوار زوجها ، رأت من العزِّ والجاهِ مالم تَرَهُ امرأةٌ عالمةٌ سواها ، فقد كان زوجُها معظماً عند صلاح الدّين الأيوبي ، وكان ذا منزلةٍ رفيعةٍ في الدَّولة.

* وصفَه ابن النّجار بقوله: «كان مليحَ الوعظِ ، لطيفَ الطبع ، حلوَ الإيراد ، كثيرَ المعانى ، متديناً ، حميدَ السّيرة».

* وذكر ابنُ عساكر أنّها «قدمت دمشقَ مع زوجِها ، وسمعَ منها بعضُ طلبةِ الحديث»(٢).

* مات زينُ الدّين ابن نجية سنة (٥٩٩ هـ) بمصر ، ودُفنَ في سفح المقطم (٣).

⁽۱) شذرات الذهب (٦/٥٥٥) بتصرف.

⁽٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٢٨٧).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (٢١/ ٣٩٣ ـ ٣٩٦).

حَيَاتُهَا العِلْمِيَّةُ وأثرُهَا في العُلَمَاءِ:

* لم تتوقفِ الشّيخةُ الجليلةُ المسندةُ فاطمةُ بنتُ سعد الخير عن تلقّي العلمَ فحسب ، وإنّما راحَتْ تعلّم الناسَ وطلبةَ المعرفةِ مما علمَها اللهُ وأودعه في صدرها؛ فقد تصدّرت للتّدريس والرّواية ، ومن ثم بدأً علماء عَصْرِها يأخذون عنها.

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ جماعةً من أعلامِ دَهْرِها قد حدثوا عنها ، منهم : أبو موسى بن الحافظ ، وعبد الرحمن بن مقرب ، ومحمدُ بنُ محمد بن الوزّان الحنفيّ ، ومحمد بن الشَّيخ الشَّاطبي ، والحافظ الضّياء ، وعبد الله بن علان ، وخَلْقٌ سواهم.

* وروى عنها بالإجازة الحافظُ زكي الدّين عبد العظيم المنذريّ (١)

⁽۱) هو الحافظُ الكبيرُ زكيُ الدِّين عبدُ العظيم بنُ عبد القويّ المنذريّ الشّامي ثم المِصْريّ الشّافعي ، صاحبُ التّصانيف ، وُلدَ سنة (٥٨١ هـ) ، وسمعَ أكابرَ العُلماء ، وأكبَّ على العِلْم والإفادة ، وكانَ حافظاً ، كبيراً ، حجّة ، ثقة ، عمدة ، له كتاب «الترغيب والترهيب» ، و«التكملة لوفيات النقلة» و«مختصر مسلم» و«مختصر سُنن أبي داود» ، وقد برع في الفقْهِ ، وسمعَ الحديثَ بمكّة ، ودمشق ، وحرّانَ ، والرُّها ، والإسكندريّة ، وروى عنه الدّمياطي ، وابنُ دقيق العيد ، واليُونيني ؛ وخَلْقٌ ، وتخرّجَ به العلماءُ في فنونِ العِلْم ، وعلوم الحديث .

ـ وكان عديمَ النَّظر في معرفةِ علمِ الحديثِ على اختلافِ فُنونَه ، متبحّراً في معرفةِ أحكامهِ ، ماهِراً في معرفةِ أحكامهِ ، ماهِراً في معرفةِ ثبتاً ورعاً متحرّياً فيما يقوله: متثبّتاً فيما يرويه.

_ قال الذَّهبي: «لم يكنْ في زمانِه أَحْفَظُ منه».

ـ وكان المنذريّ ممن بَرعَ في العربيّة ، وله نظمٌ منْه قولُه:

اعملْ لنفسكَ صالحاً لا تلتفت لظهور قيل في الأنام وقالِ فالنّاسُ لا يُرجى اجتماعُ جميعهم لابد من مُثن مُثن عليك وقالِ قالنّاسُ لا يُرجى اجتماعُ جميعهم توفي المنذريُّ سنة (٦٥٦هـ) ، ودُفنَ بسفح المقطّم بمصر ـ رحمه الله ـ (شذرات الذهب ٧/ ٤٧٩ ـ ٤٨٠).

العالمُ البارعُ ، وكفاك بهذا التّلميذ العالمِ فخراً بين الأنّام! وكفى فاطمة فخراً أنْ يتخرّج في مدرستِها مثل هذا الحافظ الحجّة الثّقة!

* وروى عنها كذلك خطيب مَرْدا محمّد بنُ إسماعيل بن أحمد المقدسي (١) ، وسمع عليها سنة (٥٩٥ هـ) بالقاهرة: «كتاب الضُّعفاء والمتروكين» لعليّ الدّارقطني.

* وعاشتِ السَّيدةُ العالمةُ المسندةُ أستاذةَ العُلماءِ فاطمةُ بنتُ سعد الخير حتى قاربتِ الثَّمانين ، وكانت حياتُها حياةً حافلةً بما هو مفيدٌ من علم وتعليم ورواية ، حتى غدَتْ من مشاهيرِ نساءِ عَصْرها ، بل كُلّ العصور ، وظلّت مرعيةَ الجانبِ ، كريمةَ المكانة ، حتى وافاها الأجلُ بمصرَ ، كما ذكر المنذريّ: "توفيتْ في (٨ ربيع الأول) منه ، سنة (٦٠٠ هـ)(٢) ، وذلك بعد وفاةِ زوجها ابن نجيّة بسنة واحدة.

* قال الذهبي: «عاشَتْ ثمانياً وسبعينَ سنة ، وأجازت لشيخنا أحمد بن أبي الخير سلامة»(٣).

* وقال ابنُ تغري بردي في وفيات سنة (٦٠٠ هـ): «توفيت فاطمةُ بنتُ سعد الخير الأنصاريّة في ربيع الأوّل ولها ثمانٌ وسبعون سنة» (٤).

⁽۱) هو أبو عبد الله محمدُ بنُ إسماعيل بن أحمد بن أبي الفتح المقدسيّ النّابلسي الحنبلي ، خطيب مَرْدا ، ولد بِمَرْدا سنةَ (٥٦٦ هـ) ، وتفقّه بدمشقَ ، وسمعَ من يحيى الثّقفيّ ، وأحمد بن المَوازيني ، وبمصرَ من البُوصيري وغيرِ واحد. توفي بمردا سنة (٥٦٦ هـ) ـ رحمه الله ـ . (شذرات الذهب ١٨٩ ـ ٤٩٠).

⁽۲) سير أعلام النبلاء (۲۱/ ۱۳).

⁽٣) المصدر السابق نفسه.

⁽٤) النجوم الزاهرة (٦/٦١٧).

* وقال الزَّركليُّ: «وسكنتْ مصرَ فتوفيتْ فيها سنة (٦٠٠ هـ)»(١).

* وبهذا تنطوي صفحة أمّ عبد الكريم فاطمة بنت سعد الخير الأنصاريّة ، لتظلَّ سيرتُها منشورةً نديةً بين نساء المشرق العربيّ ، وكل النساء في الدّنيا ، وتبقى سيرتُها قدوةً لكلّ مَنْ أرادتْ أن تقتدي بها من النساء في كلّ زمانٍ ومكان.

* * *

⁽۱) الأعلام (٥/ ٣٠٨).





فاطتر نبت سلمان لأنصاريه

* عالمة ، مسندة ، محدِّثة ، نالت إجازات علمية نحواً من مئة إجازة من مئة عالم.

* من تلاميذها: خليل بن أيبك الصفدي ، والبرزالي .

* كانت تعمل المبرّات والصدقات، وتُنفق المالَ في وجوه الخيرات.





مِنْ مُحَدِّثَاتِ دِمشْقَ الشَّام:

* لئن كان علْمُ الحديثِ منْ أشرفِ العُلومِ وأجلِّها عند الرِّجال ، لقد أبدعَتْ فيه أعدادٌ كثيرةٌ منَ النّساء منذ فجرِ الإسلامِ إلى عُصور متأخّرة ، وكُنّ فيه من المجلّيات ، وبرزنَ فيه بروزاً مُلفتاً للنَّظر ، وكان أكثرهنَّ من المشرقِ العربيّ ، فمنهن النّساء المحدّثات الدّمشقيات وكُنَّ كثيراتٍ جدّاً لا يُحْصَيْنَ ، ومنهن المقدسيّات والمكيّات والعراقيّات والمَدَنيّات ، كما نجدُ منهن المِصْريّات(۱).

* ومن النّساء العالماتِ العاقلاتِ المحدّثات امراةٌ من نساءِ القرن السّابع وأوّل الثّامن ، كانت من أبرزِ نساءِ دمشق والمشرقِ العربي في عَصْرِها ، هذه المرأةُ المحدّثة الكريمةُ هي فاطمةُ بنتُ سليمان بن عبد الرحمن الأنصاريّة الدّمشقيّة أمُّ عبد الله (٢).

* كان مولدُ هذه المحدّثة العالمة بدمشق الشّام في الرُّبعِ الأوّلِ من القرن السَّابع الهجريّ ، حوالي سنة (٦٢٠ هـ).

* ومن خلالِ استقراء أخبارِ فاطمة بنت سليمان الأنصاريّة يظهرُ لنا بأنَّ نشأتَها كانت نشأةَ بناتِ العُلماء اللواتي يعتني بهنَّ آباؤهنَّ وولاةُ أمورهنّ .

* فقد وُلدتْ فاطمةُ في بيتٍ كريمٍ من البيوتِ العريقةِ التي أُسّستْ على الميوتِ العريقةِ التي أُسّستْ على

⁽۱) اقرأ كتابنا: «نساء من مصر والمغرب العربي» حيث تجد فيه ما يسرك إن شاء الله تعالى.

⁽۲) الدرر الكامنة (۳/ ۲۲۲ و ۲۲۳) ، وأعيان العصر وأعوان النصر (۳/ ۱۳۹۳) ، وذيل العبر (٤/ ١٨) ، وتذكرة الحفاظ (ص ١٤٨٥) ، ومرآة الجنان (٤/ ٢٤) ، وشذرات الذهب (٨/ ٣٢) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٦٦) ، وأعلام النساء (٤/ ٦١ ـ ٦٥).

العلم والفِقْهِ والحديثِ والقراءةِ والإقراءِ ، حيث إنَّ أباها سُليمان بن عبد الكريم الأنصاريّ الدّمشقيّ المتوفىٰ سنة (٦٤١ هـ) ، كان واحداً من العُلماءِ القرّاء البارزين في دمشقَ في عَصْرِه ، وكان من المقرئين المجوّدين المتقنين ، ومن المحدّثين المشهورين المتثبّتين ، وقد ذكره الذّهبي في «تذكرتِهِ» بأنّه «قارىءٌ محدّث» (۱) ، وناهيك بهذهِ الصّفة التي تجعلُ صاحبَها من فئةِ أحبابِ اللهِ الذين يتلونَ كتابه آناءَ الليلِ وأطرافَ النّهار ، بل كانَ القرآنُ الكريمُ ربيعَ قلبهِ ، ونعيمَ حياتهِ ، وحياة نعيمهِ ؛ ولذلك سمّاه صلاح الدِّين الصَّفديّ عندما ترجمَ لفاطمة بالمقرىءِ المحدّث فقال : «فاطمةُ ابنةُ الشّيخ الإمامِ المقرىءِ المحدّثِ فقال : «فاطمةُ ابنةُ الشّيخ الإمامِ المقرىءِ المحدّثِ جمال الدّين سليمان بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن سعد الله بن أبي القاسم الأنصاريّ الدّمشقي» (۲).

* ومنذ أنْ فتحَتْ فاطمةُ عينيها على الدّنيا ، أخذَ أبوها يعتني بها ، ويغذّيها على محبّةِ القُرآن العظيم ، وحبّ الحديثِ الشَّريف ، وحبّ العلْمِ وأهْلهِ وذويه ، وأخذَ يُحْضِرُها مجالسَ التّحديث في دمشق ، وكانت تلكم المجالس زينة الدنيا وبهجتِها في ذلك العصر ، حيث تخرّج أئمة الدّنيا في تلكم المجالسِ السّنيةِ المباركةِ ، ونشروا العلْمَ في أنحاءِ الأرض؛ ولذلك حرصَ والدُ فاطمة أنْ يسمعَها الحديثَ وعلومَه من كبارِ محدّثي ذلكم العصر في ذلكم المِصْر المبارك الميمون الحافل بالعُلماء والأعلياء.

* لذلك نالَتْ هذه المحدّثةُ المرتبةَ العُليا حيثُ جعلت علمَ الحديثِ والشَّريعة أملَ دنياها ودنيا أملها ، ولم تَسْعَ إلى الشُّهرة ، وإنّما كان هدفُها العِلْمَ والحديثَ ، وإثراء المجالس بالعلم والتَّحديث ، فالإنسانُ الذي

⁽١) تذكرة الحفاظ (ص ١٤٢٧).

⁽۲) أعيان العصر (٣/١٣٩٣).

يجعلُ العِلْمَ جانباً ، لن ينالَ شيئاً ، ولو صَعِدَتْ شهرتُه إلى الثّريا ، ولله دَرُّ مَنْ قال في هذا المعنى:

مَا نَالَ مَنْ جَعَلَ الشَّرِيْعَةَ جَانِباً شَيئًا ولَوْ بَلَغَ السَّمَاءَ مَنَارُهُ فَي رَحَابِ الشُّيوخ والشَّيْخَاتِ:

* قلنا: إنّ فاطمة قد نشأت وترعرعتْ في أسرةٍ علميةٍ تحبُّ العلْمَ ، وقد عُرِفَتْ أسرتُها بالاعتناءِ بالعلمِ ، وتنشئةِ أبنائِها عليه ، ولهذا كانتْ فاطمةُ ممن أكرمَها اللهُ بهذه الحليةِ العظيمةِ التي جعلَتْها من عالماتِ عَصْرِها ، وشهيراتِ مِصْرِها ، بل كانت قدوةً لكلّ النساء بعدها ؛ وفي سيرتها _ كما سنلاحظ _ وقفاتٌ مباركاتٌ تستحقُّ أنْ تذكرَ ، وأنْ تُشْهَرَ تقتدي بها النساء في كلّ العصور والأوقات .

* وفي حياة فاطمة العلمية نجدُ أنَّ أباها قد أخذَ بيدها إلى طريقِ العلم ، حيثُ أسمعَها على المعمر المحدّثِ المسَلَّم بنِ أحمد بن علي المازني (١) ، والمحدّثِ أبي القاسمِ بن رواحة (٢) ، حيثُ سمعتْ على ابنِ رواحة هذا ، جزءاً فيه أحاديثُ سفيان بن عُيينة الهلاليّ .

* وقد سمعتْ فاطمةُ بنفسها على شيخةٍ شهيرة هي المسندةُ كريمةُ بنتُ

⁽۱) المسَلَّمُ بنُ أحمد بن عليّ أبو الغنَائم النّصيبيّ ثمّ الدّمشقي ، روى عن عبدِ الرّحْنِ بنِ أبي الحسن الدّاراني ، والحافظِ أبي القاسم بن عسَاكر ، وأخيه الصّائن، وروى عنه الكثير ، وآخر مَنْ روىٰ عنه فاطمةُ بنتُ سُليمان الأنصاريّةالدّمشقية ، توفى في ربيع الأوّل سنة (٦٣١ هـ) ، _ رحمه الله _ (شذرات الذّهب ٧/٧٧).

⁽٢) «ابن رواحة»: عزُّ الدّين أبو القاسم عبدُ الله بنُ الحسين بن عبد الله الأنصاريّ الحمويّ الشّافعيّ ، وُلدَ في صِقلْية ، وأبواه في الأسْرِ سنة (٥٦٠ هـ) ، وسمّعه أبوه بالإسكندرية من السّلفيّ الكبير ابن جماعةٍ ، توفي في (٨ جمادى الآخرة) سنة (٦٤٦ هـ) وله (٨٥ سنة).

عبد الوهاب القرشيّة (١) ، وغيرُها من المحدّثين والمحدّثات ، والمسندين والمسندات.

* هذا وقد نالتُ أمُّ عبد الله فاطمة الدّمشقيّة إجازاتٍ علميةً كثيرةً من معظم علماءِ عَصْرها في الشَّام ، وفي العراقِ ، والحجازِ ، وأصبهان ، وبلغ عددهم نحو مئة نَفْس كما ذكرَ ابنُ حجر (٢) ، حتى إنَّ الإمام الذَّهبي قد قرأً عليها وسمع منها.

* ومن شيوخها: مسندُ الشَّام شمسُ الدّين أبو القاسم الحسين بن هبة الله بن صَصْرَى الدّمشقي الشّافعي المتوفى سنة (٦٢٦ هـ)؛ وأحمدُ بنُ الليث بن الحسين بن عبد الله النّرسي المتوفى سنة (٦٢٨ هـ) ، ومحمدُ بنُ الليث بن شجاع البغداديّ المتوفى سنة (٦٢٤ هـ) ، وغيرهم كثير.

ومن شيخاتها: شرفُ النّساء أمّةُ اللهِ بنتُ أحمد الآبنوسي (٣).

الشَّيْخَةُ المْتَفَرِّغَةُ لِلْعِلْمِ:

* لم تركنْ فاطمةُ إلى الدَّعَةِ ، وإنَّما ظلَّتْ تطلبُ الحديثَ مدَّةً طويلةً حتى اشتدَّ عودُها ، وكثُرتْ مرويّاتها ، ثم جلسَتْ للتّحديث ، حيثُ قصدَها شداةُ العلْمِ للقراءةِ ، أو السَّماعِ عليها ، أو طلبِ الإجازة منها .

⁽۱) كريمةُ بنتُ عبد الوهاب بن عليّ بن الخضر ، مسندةُ الشّام أمُّ الفضل القرشيّة الزّبيرية ، وتُعرفُ ببنتِ الحبقبَق ، روتْ عن حسّان الزّيات وخلق ، وأجازَ لها أبو الوقت السّجزي وخلقٌ ، وروت شيئاً كثيراً ، وممن سمعَ عنها بدمشقَ المنذريّ ، توفيت في جمادى الآخرة ببستانها بالميطور سنة (٦٤١ هـ). رحمها الله.

⁽٢) انظر: الدرر الكامنة (٢/ ٢٢٢).

⁽٣) أُمَّهُ اللهِ بنتُ أحمد بن عبد الله بن علي الآبنوسي ، روتِ الكثيرَ عن أبيها ، وتفرَّدَتْ عنه ، وتلقّبُ بشَرفِ النّساء ، وكانتُ صالحةً خيّرةً ، توفيتُ في المحرّم سنة (٢٢٦ هـ) رحمها الله.

- * وقد صرفَتْ فاطمةُ هذه جلّ عمرها في طلبِ الحديثِ وكثرةِ التّحديث ، ولعلَّ الذي ساعدَها على ذلك أنَّها ظلَّتْ خليّاً أيّماً لم تتزوجْ (١) ، وعمّرت دهْراً طويلاً ، حتى قاربتِ التّسعين ، وتفرَّدَتْ بالرِّواية عن بعضِ من أخذتْ عنهم ، فكانت آخر مَنْ روى عنِ المُسلَّم المازني بالسَّماع (٢).
- * ومن تلامذتها المشاهير: صلاحُ الدّين خليلُ بنُ أيبك الصّفدي الأديبُ العالمُ المؤرّخُ المشهورُ المتوفىٰ بدمشقَ سنة (٧٦٤ هـ)؛ وكذلك الحافظُ عَلَمُ الدِّين القاسمُ بنُ محمد البِرزالي المتوفى سنة (٣٣٩ هـ) ، نقل ابنُ حجر قوله عن فاطمة: "روتْ لنا عن المسلّم وكريمة".
- * وقد أجازت لمحمد بن رافع السلامي المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) ،
 ومحمد بن محمد بن عبد الله الحنبلي المتوفى سنة (٧٩٢ هـ).
- * كما أخذَ عنها أيضاً قراءةً وسماعاً المحدّث المشهور محمّد الواني الذي قرأ عليها كثيراً (٤).
- * ولعلّ كثيراً منَ العُلماء قد قرأً عليها ، أو أجازتْ لكثيرين من طلبةِ العلْم؛ ولكنَّ تاريخَها لم يسجّلْ لها ذلك كله ، إنّما سجّل لها أنّها عمّرت وتفرَّدتْ بكثيرٍ منَ المرويّاتِ حتى غدت من مشاهيرِ المحدّثات المسندات.

من فَضَائِلهَا ومَآثِرِهَا وبرِّهَا:

* كانت فاطمةُ بنتُ سليمان الدّمشقية من صَوالح نساءِ عَصْرها ،

⁽١) قال ابنُ العماد: «وروتِ الكثيرَ وتفرَّدتْ ولم تتزوجْ». (شذرات الذَّهب ٨/ ٣٢).

⁽٢) الدّررُ الكامنة (٢/٣٢٣).

⁽٣) الدّرر الكامنة (٣/ ٢٢٢).

⁽٤) انظر: أعلام النساء (٦٢ ـ ٦٥).

وكانت _ إلى جانب كونها عالمة محدثة _ امرأة صالحة ، وقفَتْ وبرَّت أهلَها وأقاربَها في حياتِها (١) ، فقد كانت من بيت ثراء ومالٍ وغنى ، لذلك كانت ذات ثروة وافرة ، وقد تمكّنت من خلال ثرائها أنْ تقوم بأعمالِ خيراتٍ ومبرّاتٍ ، وشيّدت مدارسَ العلْم ، كما شيّدت المارستانات والتكايا لمساعدة الناس ، وأوقفتْ لتلك الأبنية والمحلات الخيريّة أوقافاً كثيرة ، ورتَّبَتْ لمستخدميها رواتبَ وأجوراً ، حتى باهَتْ بأفعالها الخيريّة أعاظمَ رجالِ ونساءِ عَصْرنا (٢).

* ولعلَّ النساءَ في عصرنا يقتدينَ بها في العلْمِ وعملِ المبرّات ، فالطّريقُ أمامهن مفتوحٌ وواضحٌ وسَهْلٌ ، وأودُّ أنْ أشيرَ إلى أنَّ هناك نساء معاصرات من حافظاتِ كتابِ الله ، وطالباتٍ لعلْمِ الحديث والفقْه ، وهنّ كثيرات _ والحمد لله _ ، كما أنّ هناك نساء يعملنَ المبرّات والأوقات ، فاللهم زِدْ وبارك.

* أمّا فاطمةُ الأنصاريّة فقد امتدَّ عمرها حتى تجاوزتِ القرن السَّابع ودخلت في القرنِ الثامنِ ، وهي لا تكلّ ولا تملّ في عملِ المبرّات والصّدقات وإنفاقِ المال في وجوه الخيراتِ ، كما بذلت جلّ عمرها في طلبِ الحديثِ الشّريف دون وهْنِ أو ضعفٍ ، على الرغمِ من أنَّ الشَّيب قد علا رأسها ، وكبرتْ واقتربتْ من التسعين (٣) ، بيد أنّ علو همتها وحبّها للتّحديث جعلها ممن ثابرَ على العطاءِ حتى قُبيل وفاتها ، فلم تركنْ إلى الكسلِ ، بل إنّ الإمامَ الذّهبي قد قرأ عليها قبل موتها بيوم ، وحضَرتْ معه الكسلِ ، بل إنّ الإمامَ الذّهبي قد قرأ عليها قبل موتها بيوم ، وحضَرتْ معه

⁽١) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

⁽٢) الدر المنثور (ص ٣٦٦) بتصرف يسير.

⁽٣) شذرات الذهب (٨/ ٣٢).

جماعة ، وأسمعتْ كثيراً (١٦) ، فأكْرِمْ بهذه الهمّة! وأعظِمْ بها! .

* وكانت وفاة فاطمة ابنة سليمان الأنصاريّة في (١٢ ربيع الآخر) سنة
 (٧٠٨ هـ) ، وذلك في دمشق الشّام حيث دُفنت فيها.

* وقد أثنى عليها العلماءُ والكبراءُ ، فقد وصفَها الذَّهبيُّ بالمُسندة ، ووصفَها الصَّفدي بأنّها امرأةٌ صالحةٌ بارّةٌ بأهلِها ذات أعمالٍ خيرية ؛ وذكرتُها زينبُ فواز بقولها: «كانت من النّساءِ العالماتِ العاقلاتِ والمحدّثاتِ الصّادقات في الرّواية»(٢) ، وقال عمر رضا كحالة: «محدّثة ذات صلاح ودين»(٣).

* فرحم اللهُ فاطمةَ بنت سليمان ، وأسكنَها واسعَ الجنّان.

* * *

⁽١) أعيان العصر (٣/ ١٣٩٣).

⁽٢) الدر المنثور (ص ٣٣٦).

⁽٣) أعلام النّسَاء (٤/ ٦١).





فضّ النُّوسِيّ

* جارية السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وهي من ذوات الفضل ، والصدق ، والعقل ، والطهر .

* صحابية لها شهرتها ، وقدرها الوافي ، ومكانتها العلية .





في بيتِ الزَّهْرَاءِ:

* هذه امرأةٌ لم تكن من مشاهير النساء لولا دخولُها البيت الفاطميّ العَلويّ في عَصْرِ النُبوةِ الأزْهَر الزَّاهر.

* كانتْ قبلَ ذلك نَسْياً منسيّاً ، وهي كغيرِهَا من الجواري اللّواتي لا يُؤبّهُ لهنّا ، ولا يُلْتَفَتُ إلىٰ شأنِهنّا ؛ إذ إنّا عملهنّا ينحصرُ في الأعمالِ المنزليّةِ ، وما يتعلّقُ بحوائج البيوتِ وأهلِها.

* بيد أنَّ هذه المرأةَ قبسَتْ شهرتَها من بيتِ سيّدتنا فاطمةَ الزَّهراءِ ابنةِ سيِّدنا وحبيبِنا رسولِ الله ﷺ ، كما عَلَتْ شهرتُها من حادثةٍ جَرَبُ في بيتِ الزهراء ـ رضى الله عنها ـ كما سنذكرُها في حِيْنِها .

* وهذه المرأة المضمّخة بالأنفاس الفاطميّة لا نعرفُ اسمَ والدِها ، ولا كيفَ دخلَتْ بيتَ الزَّهْراءِ ، وكلُّ ما نعرفُه عنها وعن حياتِها أنّها جاريةٌ من الجواري اللواتي كُنّ في ذلك العَصْر يعملُنَ في العَجْنِ أو الخَبْزِ أو جمعِ الحطب ، أو رعاية الأطفال ، وما شابَه ذلك.

* وهذه الجارية لا يملك المصنفون سلسلة نسبِها ، بل لا يعرف كتابُ التراجم والطّبقات سوى اسمِها المتفرّد في عالَم الصَّحابياتِ ، وعالَم السَّاء المشرقيّات في عصْر النّبوّة.

* هذه المرأةُ هي: فِضّةُ النّوبيّة^(۱) جاريةُ فاطمة الزّهراء بنت

⁽۱) أسد الغابة (۲ ۲۳۱ و۲۳۷) ترجمة رقم (۷۲۰۲) ، والإصابة (۲ ۳۷۱) طبعة دار الكتاب العربي ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ۲۳۹ و٤٤٠) ، وغرر التبيان فيمن لم يسم في القرآن لابن جماعة (ص ٥٢٥) ، ونور الأبصار (ص ١٢٥) ، والكشاف للزمخشري (١٩٧/٤) ، وتفسير البحر المحيط (٣٨٨/٨) ، وتفسير =

رسولِ الله ﷺ؛ ولم تزِدِ المصادرُ جميعُها على هذا شيئاً ، بل لم تذكرُ أَصْلَها وفَصْلَها؛ بل أجمعُوا على أنَّها امرأة نُوبيّة من بلاد النّوبة ، أو تُنْسَبُ إلى نوبة (١).

* ويذكر ابنُ حجرٍ ـ رحمه الله _ في «الإصابةِ» خبراً عن فضة ، وذلك بسندٍ عن عليِّ ـ رضي الله عنه ـ : «أنَّ رسولَ اللهِ عَلَيْ أَخْدَمَ فاطمةَ ابنته جاريةً اسمُها فضّة النُّوبية ، وكانت تشاطِرُهَا الخِدْمة ؛ فعلَّمها رسولُ الله عليه دعاءً تدعو به ، فقالَتْ لها فاطمةُ رضوان الله عليها: أتعجنينَ أو تخبزين؟ فقالت: بل أعجنُ يا سيّدتي وأحتطبُ. فذهبَتْ واحتطبَتْ ؛ وبيدها حزمةٌ ؛ وأرادَتْ حملَها ، فعجزَتْ ، ودعَتْ بالدُّعاءِ الذي علَّمها وهو: (يا واحدٌ

القرطبي الجامع لأحكام القرآن (١٢٨/١٩ و١٢٩)، والتفسير الكبير للرازي
 (٢١٦/٣٠)، وروح المعاني للآلوسي (٢٦٩/٢٩) وغير ذلك كثير من المصادر والمراجع.

⁽۱) نُوْبَةُ: بضم الله ، وسكونِ ثانيه ، وباء موحدة . والنُّوب : جماعة النَّحل ترعىٰ ثم تنوبُ إلى موضعِها ، والقطعة من النّحل تسمّى نُوبة ، شبّهوها بالنُّوبة من السُّودان ، وهو في عدّة مواضع ، والنّوبة : بلادٌ واسعةٌ عريضةٌ في جنوبي مصر ، وهم نصارىٰ أهلُ شدّة في العَيْش ، أوّلُ بلادِهم بَعْدَ أسوان ، يُجْلَبون إلى مصر فَيُباعون بها ، وكان عثمانُ بنُ عفان رضي الله عنه صالَحَ النُّوبة على أربعمئة رأس في السَّنة ، وقد مدحهم النَّبيُ عَيَّةُ حيثُ قال : قمن لم يكن له أخ فليتخذ أخا من النُّوبة ؛ وقال : قعير سَبيكُم النّوبة ، ومدينةُ النّوبة : اسمُ دُمَقُلة ، وهي منزلُ المَلِكِ على ساحلِ النّيل ، وطولُ بلادهم مع النّيل ثمانون ليلة . قالوا : والنُّوبة أصحابُ إبلِ ونجانبَ وبقو وغنم ، ولملكِهم خيلٌ عناق ، والعامّة يرمُونَ بالنّبل عن القسيّ العربية ، وفي بلدهم الحنطة والشّعير والذّرة ، ولهم نخلٌ وكرومٌ وأراك ، وبلدهم أشبه شيء باليمن ، وملوكُهم يزعمون أنّهم من حمير ، ولفبُ ملكهم من المدينة ، ومنها موضع على ثلاثة أيّام من المدينة ، ومنها ناحية من بحر تهامة ، وغيرها . (معجم البلدان ٥/٨٠٣ و ٢٠٩٣) بتصرف واختصار .

ليسَ كمثلِهِ أَحَدٌ ، تُميْتُ كلَّ أحدِ ، وتفني كلّ أحدِ ، وأَنْتَ علىٰ عرشكَ واحدٌ ولا تأخذُه سِنَةٌ ولا نومٌ) ، فجاءَ أعرابي كأنَّه من أَزْد شَنُوءة ، فحمَلَ الحُزْمةَ إلىٰ باب فاطِمة . . . »(١)!!! . . . !! .

* وتذكرُ السَّيدة زينبُ فواز^(۲) العامليّة في مفتتح ترجمتِها لِفِضَّة بأنَّها منَ النِّساء ذواتِ الفَضْل والصِّدق فتقول: «فضَّةُ النُّوبيّةُ هي جاريةُ السَّيدةُ فاطمة الزَّهراء بنتُ رسول الله ﷺ؛ كانت منَ النّساءِ العاقِلات الصَّادِقاتِ ، وقد اشتُهرت بالفَضيْلَةِ . . . »^(٣).

* غير أنَّ فضة النُّوبية هذه يتألقُ مجدُها وشهرتُها أكثر ، في قصة منسوجة ، ظاهرة الاختلاق ، حيثُ نجدُ فيها أشعاراً وكلاماً منسُوباً لسيّدتنا فاطمة الزَّهراء رضي الله عنها ، وذلك حينما زَعَمَ الزَّاعمون خبرَ مرضِ الحَسَن والحُسين ـ رضي الله عنهما ـ ، وكيفَ صامَتْ فضةُ مع البيتِ العلويّ الفاطميّ الحسنيّ الحُسيني ثلاثة أيّام كَوامل . . . وفي السُّطور التاليات نقرأُ ما تخيّله المتخيّلون ، ومن ثمّ ألصقوهُ بأطهرِ الطَّاهراتِ سيّدتنا فاطمة الزَّهراء وولدَيْها الحسن والحُسين ، وزوجها عليّ ، وجاريتها فضة رضي الله عنهم جميعاً وحشرَنا في معيّنهم .

فِضَّةُ ومَرَضُ الحَسَن وَالحُسَين:

* تذكرُ الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا قصّة صومِ فضّة جارية الزّهراء ، وذلك لأنَّ الحسنَ والحُسين مَرِضًا ، فنذرَ جميعُهم إنْ شُفِيا أنْ يصومُوا ثلاثةَ أيّام ، ترى كيف كانَ ذلك وهل صحيحٌ أنَّ سيّدتنا الزّهراء وزوجَها تناشدًا في ذلك الأشْعَار والأَرْجَازَ؟! أمْ أنَّ ذلكَ الكلام القريبَ جدّاً من

⁽١) انظر الإصابة (٤/ ٣٧٦).

⁽٢) اقرأ سيرتها في هذه الموسوعة اللطيفة.

⁽٣) الدر المنثور (ص ٤٣٩).

السَّذاجة قد أُلْصِقَ بهذَيْن الكريمَيْن البليغَيْن اللذين اشتُهرا بالفَصَاحة وفَصْل الخِطَاب؟! وهل وعَتْ فضّةُ تلكم الأشعار ، وهاتيكم الأخبار ، وكانت قسيمةَ البيتِ الفاطميّ في الصَّبْر والشّكر؟!

* السّطورُ التّالياتُ تفصحُ عمّا ذكرنَاهُ ، فقد أوردتِ المصادرُ مع الجمع بينها قصّة ذلك ، وأشارت إلى عليّ وفاطمة وفضّة في حادثة ذكرَها القُرطبيُّ في «تفسيرهِ» ، والشّبْلنجي في «نورِ الأبصار» نقلاً عنْ «مسامرة الأخيارِ» لابن عربي ، وابنِ الأثير في «أسد الغابة» أنّ النّقّاش ، والتّعلبيّ ، والقشيريّ ، وغير واحدٍ من المفسّرين قد ذكروا قصّة عليّ وفاطمة وجاريتهما حديثاً لا يصحُّ ولا يثبّتُ ، رواه ليثٌ عن مجاهد عن ابنِ عبّاس في قوله عزّ وجل: ﴿ يُوفُونَ بِاللّذِرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّمُ مُسْتَطِيرًا ﴿ وَيُعْلِمِمُونَ الطّعَامَ عَلَى وَعُلمِمُونَ الطّعَامَ عَلَى وعادَهُما عامّةُ العربِ ، فقالوا (١٠ : يا أبا الحسَن ، لو نذَرْتَ عن ولدَيْك صمْتُ للهُ عنهما الله ، فقال عليٌّ - رضي الله عنه عنه ولدَيْك مسيئًا إنْ عافَاهُما الله ، فقال عليٌّ - رضي الله عنه -: إنْ برأ ولداي ممّا بهما صمْتُ لله عزّ وجل ، ثلاثة أيّام شُكْراً.

وقالَتْ فاطمةُ ـ عليها سحائبُ الرّضوان ـ: وأنا أصومُ ثلاثةَ أيّام شكراً لله عزّ وجلَّ.

⁽۱) جاء في تفسير القرطبي في رواية عن قنبر مولى عليّ قال: «مرضَ الحسنُ والحسينُ حتى عادهما أصحاب رسول الله ﷺ ، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا أبا الحسن: لو نذرتَ عن ولديك شيئاً ، وكلُّ نذْرِ ليسَ له وفاء فليس بشيء..» (تفسير القرطبي ١٩/ ١٢٩).

بينما جاءتِ الرّوايةُ عند الشّبلنجي في نور الأبصار ، «بأنَّ عمر قال لعليّ: لو نذرتَ عن ابنيك نَذْراً إنْ عافاهما الله. . » (نور الأبصار ص ١٢٤) ، ووردتُ أسماءُ أخرىٰ في بعض المصادر وأشياء أخرى ، وكل هذا يدلّ علىٰ اضطراب القصة وصنعها.

وقالَتْ جاريةٌ يُقال لها فضّةُ نُوبيّة: إنْ برأَ سَيِّدايَ صمْتُ لله عزَّ وجلَّ ثلاثة أيّام شُكْراً.

وقال الصَّبيانِ الحسنُ والحُسينُ: علينا مثل ذلك ، فنحنُ نصومُ ثلاثةَ أيّام أيضاً. . ! ! . . !

* وأُلْسِ الغُلامان الكريمان العافية ، ونشطًا ممّا كانا فيه ، فأصبحوا صِياما ، وليس عندهم طعام ، بل ليس عند آل محمّد قليل ولا كثير ؛ فانطلق عليٌ _ رضي الله عنه _ إلى شمعون بن حاريا الخيبريّ _ وكان يهوديا _ فاستقرض منه ثلاثة أصّوع من شعير (١) ، فجاء بها فوضعها في ناحية من نواحي البيت ؛ فقامت فاطمة إلى صاع فطحنته واختبزته ؛ وفي رواية الجُعفي : فقامت الجارية فضة إلى صاع من شعير ، فخبزت منه خمْسَة أقراص لكل واحد منهم قرص ، وصلّى عليٌ مع النّبي علي المغرب ، ثمّ أتى المنزل ، فوضع الطّعام بين يديه ، وكان قد مضى صيامهم الأول ووضع بين أيديهم الخبرُ والملحُ والجريشُ ، فأوّل لقمة كسَرَهَا عليٌ _ رضي الله عنه _ إذ أتاهم مسكينٌ ، فوقف بالباب وقال : السّلام عليكم أهل بيت محمّد ، أنا مسكينٌ من مساكينِ أمّة محمد علي وأنا والله جائعٌ ، أطعموني أطعمَكُمُ اللهُ من موائدِ الجنّة ، فسمعَه عليٌ وضي الله عنه _ فأنشاً يقولُ (١):

⁽۱) وردَ عند الشّبلنجي: «أنَّ عليّاً انطلقَ إلى جارِ له منَ اليهود يُقال له شمعون يُعالج الصّوف ، فقال له: هل لك أنْ تعطيني جزّةً من صوف تغزلُها لكَ بنت محمّد بثلاثة آصُع من شعير؟ قال: نعم ، فأعطاهُ ، فجاءَ بالصَّوف والشّعير ، فأخبرَ فاطمة ، فقبلَتْ وأطاعَتْ ، ثم غزلتِ الصّوف ، وأخذتْ صاعاً من شعير فطحنته وعجنته وخبزته خمسة أقراص . . . » . (نور الأبصار ص ١٢٤ و ١٢٥).

 ⁽۲) هذه الأبياتُ والتي بعدها ، أجمعتْ كلُّ نسخِ تفسيرِ القُرطبي على تحريفها ، وهي
 كما يراها القارىءُ الكريمُ ظاهرةَ الاختلاقِ ، وفيها أشعارٌ قد طَوَّعها الوضّاع لتوافق =

فَ اطِمَ ذَاتَ الفَضْ واليَقيْن الْمَا تَريْنَ البَائِسَ المسْكين الْمَائِسَ المسْكين يَشْكُو إلى اللهِ ويَسْتكين كُلُّ المدىء بِكَسْبِه رهين كُلُّ المدىء بِكَسْبِه رهين مَوعدُنَا جنَّة عِلين وللبخيلِ موقفٌ مهِيْن وللبخيلِ موقفٌ مهِيْن شَرائِه الحَميم والغِسْلين

يا بنت خير النّاس أجمعين قد قام بالباب كه حنين قد منين يشكو النا جائية حرين يشكو النا جائية حرين وفساع ل الخيرات يشتبين حررة مها الله على الضّنين تهوي به النّار إلى سجين من يَفْعَلِ الخير يَقِم سَمين عَفْم سَمين

ويـــدخــــلُ الجنّــــةَ أيّ حيــــن

* فأنشأت فاطمة _ رضي الله عنها _ تقول من حينها:

أُمرُكَ عندي يا بُنَ عمِّ طاعَهُ ما بيَ من لُومٍ ولا وضَاعَهُ غَذَيْتُ في الخبزِ له صِنَاعَهُ أَطْعِمه وَلاَ أُبالَي السَّاعَـهُ أَرجُو إذا أشبعْتُ ذَا المَجاعَه أَنْ ألحتَ الأَخْيارَ والجَماعَـهُ أَرجُو إذا أشبعْتُ ذَا المَجاعَه

وَأَذْخِلَ الجنَّةَ لِي شَفَاعَه (١)

* وعمد عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ إلىٰ الطَّعام ، ودفعوهُ إلىٰ المسكين ، ومكثوا يومَهم وليلتَهم لم يذوقُوا شيئاً إلاّ الماءَ القَراحَ ، وباتوا جياعاً وأصبحوا صياماً؛ فلما أنْ كانَ في اليوم الثَّاني ، قامَتْ فضّةُ إلى صاع فطحنَتْه ، واختبزتْهُ ، وصنَعَتْ منه خمسةَ أقراص ، لكلّ واحد منهم قرصٌ ، وصلّى عليٌّ المغربَ مع النَّبيُّ ﷺ ، ثمّ أتىٰ منزلَه ، فلما وُضِعَ

⁼ وقائعَ القصّة ، وتوافقَ المسكين واليتيم والأسير ، وأشعارٌ متقوّلةٌ على لسانِ فاطمة ، كما سنرى زيفَ ذلك قريباً.

⁽۱) لاحظُ هذا الشّعر المشْعُور الخالي منَ المشّاعر والشُّعور ، والذي نَسَبُوه زُوراً وبهتاناً إلى أبلغ بليغاتِ بنَاتِ النّبي ﷺ ، والذي يشيرُ إلى أنَّ واضعه سقيمُ اللغة ، ضعيفُ العارضة ، جافي الطّبع ، وكذلك باقي الأشعار التي سَتَرِدُ في القصة .

الطَّعامُ بين أيديهم ، إذا يتيمٌ من يتامىٰ المُسلمين قد وقَفَ بالبابِ ، وقال: السَّلامُ عليكم أهلَ بيتِ محمد ، أنا يتيمٌ من أولادِ المهاجرين استُشْهِد والدي ، أطعموني ممّا تأكلُون ، أطعمَكم اللهُ من موائدِ الجنّةِ ، فسمعه عليٌ فأنشأ يقولُ:

فَ أَطِمَ بِنْتَ السَّيِّد الكريم بنتَ نَبِي ليسَ بالزَّنيم!! لقد أتى الله بني الله المنتقيم قد حُرِّمَ الخُلدُ على الله المستقيم ين النَّار إلى الجحيم الله الصراط المستقيم ين النَّار إلى الجحيم شرائه الصّديد والحميم

* فأقبلتِ السَّيدةُ فاطمةُ _ رضى الله عنها _ وأنشأتْ تقول:

أُطعمُ اليومَ ولا أُبالي وأوثرُ الله على عِيَالي أَطعمُ الله على عِيَالي أُمسُوا جِياعاً وهُم أَشْبالي أَصْغرهم يُقْتَلُ في القِتَالِ (٢) بِكَرْبَلا يُقْتَلُ منْ وَبَالِ يا ويلَ للقَاتِلِ منْ وَبَالِ (٣) تَهْوي به النَّار إلى سِفَالِ وفي يَدَيْهِ الغُلُّ والأَغْلالِ كُبُولَةٌ زَادَتْ على الأَغْلال

* ثمَّ عمدَ عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ إلى جميعِ الطَّعَام ، فأعطوهُ اليتيمَ ، وأطعموهُ الطَّعَام ، ومكثُوا يومَيْن وليلتَيْن لم يذوقُوا شيئاً ، إلّا الماءَ

⁽۱) جاء الشّعرُ المشعور في نورِ الأبصار على النّحو التالي: فـــاطِـــم بنـــــُ السّيـــد الكـــريــم قـــد جــــاءنَـــا اللهُ بــــذي اليتيــــم مَــنْ يطلــبُ اليــومَ رضــا الــرّحيــم مــــوعــــدهُ فــــي جنّـــةِ النّعيــــم

 ⁽٢) هُم أشبالي: للجَمع ، وأصغرهم: للجمع أيضا ، وهما اثنان ، فكيف يصحُ ذلك؟ وهما نسي الوضاع أنهما صبيّان اثنان ، لكنَ قافية الكذب غلبته ، فانساق وراءها والله المستعان.

⁽٣) مَنْ أوحى للقائل المفتري بأنه سيقتل أصغرهما في كربلاء!؟!؟!.

القراح ، وأصبحوا صِياماً لليومِ النَّالث؛ ثمَّ قامَتْ فضّة إلى الصَّاعِ الباقي ، فطحنَتْه وعجنَتْه واختبزَتْهُ ، وصلّى عليٌّ مع النبي ﷺ المغرب ، ثمّ أتى المنزِل ، فوُضِعَ الطَّعامُ بين أيديهم ، وإذا ذاك أتاهم أسيرٌ ، فوقف بالبابِ فقال: السَّلام عليكم أهل بيت محمّد ، تأسرونَنا وتشدّونَنا ولا تطعمونَنا!! أطعموني فإنّي أسيرُ محمّد (١)؛ فسمعَه على ، فأنْشَأ يقولُ:

فاطِمَ يا بنتَ النَّبِي أَحْمَد بنتَ نبِي سيّدٍ مُسَوَّد وسَماه الله فهو محمّد قدْ زانه الله بحُسْنِ أغْيَد (٢)!! هدذا أسيرٌ للنّبي المُهْتَد مثَقَّ ل في غُلّه بحُسْنِ مُقيّد يشكو إلينا الجوع قد تمدَّد من يطعم اليوم يجدْهُ في غَد عند العليّ الواحدِ الموحَد ما يزرعُ الزَّارعُ سوفَ يَحصُد أَعْطيهِ لا لا تجعليْه أَقْعَد (١)

* فأقبلتْ فاطمةُ _ رضي الله عنها _ وسمعَتْ ما قالَ زوجها ، فأنشأَتْ هي الأُخْرِي تقولُ:

لَّم يبقَ ممّا جاءً غيرُ صَاع قد ذهبَتْ كفَّي معَ النَّراع (٣) ابنايَ واللهِ هُما جياع يا ربّ لا تتركْهُما ضِيَاع أبوهُما للخيرِ ذو اصْطِناع يصطنعُ المعروفَ بابْتِداع!! عَبْلُ النَّراعَيْن شديدُ البَاع وما على رأسيَ منْ قِناع إلاّ قناعاً نَسْجُه أَنْسَاع (١)

⁽١) جاءتْ هذه العبارة في «نور الأبصار» على النّحو التالي: «إنَّ الكفّارَ أسرونا وقيدّونا وشدّونا فلم يطعمونا. . . » وكما نعلم فالمصيبة في الوضع والوضاع أدهى وأمرّ!! والله المستعان.

⁽٢) لاحظ أنَّه لا وزْنَ لهذا الشّعر ولا عَروض ولا معنى ، بل هو صفّ كلام لا معنى له.

⁽٣) لاحظ المعانى الساقطة والكلام الهزيل المنسوب لسيدتنا فاطمة رضى الله عنها.

⁽٤) هذا هراءٌ ليسَ له قيمةٌ في مجالِ الأدب أو في ميزانِ العلْم ، بل ليسَ له فائدة تُذكر ، =

* ثم عمدَ هذا النّلاثي الميمون: عليٌّ وفاطمةُ وفضّةُ ، فأعطُوا الأسيرَ الطّعامَ ، ومكثُوا ثلاثة أيّام وليالِيْها لمْ يذوقُوا شيئاً إلاّ الماء القراح ، وليس عندهم شيءٌ؛ فلما أنْ كانَ اليومُ الرّابعُ ، وقد قضىٰ اللهُ النّذر ، أخذَ عليٌّ بيدهِ اليمنىٰ ابنه الحَسين ، ومن ثمَّ أقبلَ نحو بيدهِ اليُسرى ابنه الحُسين ، ومن ثمَّ أقبلَ نحو رسولِ الله ﷺ وهم يرتعشون من شدّةِ الجُوع ، فلمّا أبصرهم رسولُ الله ﷺ قال: "يا أبا الحَسنِ ، ما أشدَّ ما يسوءني ما أرى بكم؛ انطلقُ بنا إلىٰ ابنتي فاطمة » ، فانطلقُوا إليها وهي في محرابِها قائمةٌ تصلّي وقد لصقَ بطنُها بظهرِها!!!!! ، وغارتْ عيناها من شدّة الجُوع ، فلمّا رآها رسولُ الله ﷺ وعرف المجاعة في وجهِها ، ضمّها إليه ، وبكىٰ وقال: "واغوثاه يا الله ، وعرف المجاعة في وجهِها ، ضمّها إليه ، وبكىٰ وقال: "واغوثاه يا الله ، أهل بيت محمّد يموتُون جُوعاً »!! فهبطَ جبريلُ عليه السّلام ، وقال: السّلامُ عليك ، ربّك يقرئك السّلام يا محمّد ، خذهُ هنيئاً في أهلِ بيتك . .

قال: «وما آخذُ يا جبريل»؟

فأقرأه: ﴿ هَلَ أَنَّ عَلَى ٱلْإِنسَنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُيِّهِ مِسْكِينًا وَيَطِعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُيِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿ إِنَّا أَنْظُعِمْكُو لِوَجِهِ اللّهِ لَا نُرِبُهُ مِنكُو جَزَلَهُ وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ١ _ ٩](١)».

ومن العجيب أنَّ هذا الرجزَ المرجوزَ المهزوزَ قد وردَ في «نور الأبصار» على النّحو الآي بشكلِ مزعج وبمصيبة أدهى وأنكى وأشدَّ ونسبوه إلى سيدتنا فاطمة وهي منه براء: لم يبق مماً جاء غير صاع قد دبرت كفي مسع المذراع وابناي والله أللائا جاعا يا رب لا تهلكهما ضياعا!!! وابناي والله أللائا جاعا يا رب لا تهلكهما ضياعا!!! (١) انظر المصادر الآتية مع الجمع بينها والتصرف اليسير فيها: تفسير القرطبي (١٩/١٩٨ - ١٣٣١) ، وأسد الغابة (//٢٣٦ - ٢٣٧) ، وغرر التبيان (ص ٥٢٥) ، ومحاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي (١/١٥٠ - ١٥٣) ، وروح المعاني (م٢/ ٢٦٩ - ٢٦٩) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٣٣٤ - ٤٤٥). والإصابة في تمييز الصحابة (٤/٢٧٣) ، والتفسير =

* وفي رواية ابنِ مَهْران: «فوثبَ النّبيُّ ﷺ حتى دخلَ على فاطمةَ ، فأكبَّ عليها يبكي ، فهبطَ جبريلٌ عليه السّلام بهذهِ الآية: ﴿ إِنَّ ٱلأَبْتَرَارَ يَشْرَبُونَ ﴾ إلى آخره »(١٠).

* وفي رواية عطاء: «أنَّ الشَّعير ـ الذي استقرضُوه منَ اليهودي شمعون ـ كان عن أجرة سقي نَخْل ، وأنَّه جَعَلَ في كلّ يومٍ ثُلُث منه عصيدةً ، فآثروا بها (٢).

* وهكذا كانَتْ فضّةُ النُّوبية ممن حظيتْ بالفضلِ في هذه الحادثةِ المشهورةِ ، حتى قال أهلُ التَّفسير: «إنَّ هذه الآية ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُيِّهِـ الله مِسْكِينًا وَلَيْبِكًا وَلَيْبِكًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: ٨] ، نزلتْ في عليّ وفاطمة _ رضي الله عنهما _ وجاريةٍ لهما اسمُها فضّة »(٣).

* بيد أنَّ تلكم القصّة التي قرأناها عن فضّة والبيتِ الفاطمّي يكتنفُها شيءٌ من الغُموض ، وشيءٌ منَ الاختلاقِ والمبالغةِ والتّقوّل على بلغاءِ فُصَحاءِ عَصْر النُّبوّة ، وراضعي ثَدْي الرّسالة.

* ثمّ إنّ تلكم الآية عامّة في جميع المؤمنين ، قال القُرطبيُ _ رحمه الله _: «والصَّحيحُ أنَّها نزلَتْ في جميعِ الأبرارِ ، ومَنْ فَعَلَ فعلاً حَسَناً؛ فهي عامّة» (٤).

الكبير لفخر الدين الرازي (٣٠/ ٢١٦) ، والكشاف للزمخشري (١٩٧/٤) ، وغير
 ذلك من مصادر متنوعة ، ومعظمها يشك في الخبر ، أو يشير إلى ضعفه.

⁽١) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٢٩/ ٢٧٠).

 ⁽۲) روح المعاني (۲۹/ ۲۷۰) ، وقد نقل الألوسي عدة أقوال أخرى للمفسرين في هذه
 القصة ، وله تعليقات مهمة مفيدة فانظرها.

⁽٣) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

⁽٤) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

* وقد شكَّ القُرطبيُّ في صحّةِ القصّة فقال: «وقد ذكرَ النَّقاشُ والنَّعلبيُّ والقُشيريُّ وغيرُ واحدٍ منَ المفسّرين في قصّة عليّ وفاطمة وجاريتهما _ فضّة _ حديثاً لا يصحُّ ولا يثبُتُ . . . »(١) .

* ولم يتوقف القُرطبيُ عند هذا الحدّ في قصّة فضّة النّوبية وصوم البيتِ الفاطميّ ثلاثة أيّام كَوامِلَ ، وإنَّما ساقَ بعض الأقوالِ التي تؤيّدُ ما ذهَب إليهِ منْ أَنَّ هذه القصّة مَصْنُوعة ، ونقلَ عن التّرمذي الحكيمِ في «نوادرِ الأُصُول» أنَّه قال: «فهذا حَديثُ مُزَوَّقُ مزيَّفٌ قد تطرَّفَ فيهِ صاحبُهُ حتى تشبّه علىٰ الستمعين، فالجاهلُ بهذا الحديثِ يعضُّ شفتيه تلهُّفاً ألا يكونَ بهذهِ الصّفة ، المستمعين، فالجاهلُ بهذا النعلِ مذمومٌ ، وقد قالَ اللهُ تعالى في تنزيله: ولا يعْلَمُ أنَّ صاحبَ هذا النعْلِ مذمومٌ ، وقد قالَ اللهُ تعالى في تنزيله: ﴿ وَيَسْتَلُونَكُ مَاذَا يُنفِفُونَ قُلِ ٱلْمَفُونَ هُو هو الفَضْل الذي يفضُلُ عن نفسِكَ وعيالِكَ.

* وجرتِ الأخبارُ عنْ رسولِ الله على متواترةً بأنَّ «خير الصَّدقة ما كان عن ظَهْر غِنىً». «وابدأ بنفسِكَ ثمّ بمن تعول» ، وافترضَ اللهُ على الأزواجِ نفقة أهاليهم وأولادهم. وقال رسولُ الله على الله عنه ـ جَهِلَ هذا الأَمْرَ حتى مَنْ يَقُوت» ، أفيحسبُ عاقلٌ أنَّ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ جَهِلَ هذا الأَمْرَ حتى أَجْهَدَ صِبْياناً صِغاراً من أبناءِ خَمسٍ أو ستِّ على جوع ثلاثةِ أيام ولياليهن؟! حتى تضوّرُوا منَ الجُوع ، وغارتِ العيونُ منهم؛ لخلاءِ أجوافِهم ، حتى أبكىٰ رسول الله على الجهدِ.

* هَبْ أَنَّه آثرَ على نَفْسهِ هذا السَّائلِ ، فهل كان يجوز له أَنْ يحملَ أَهْلَه على ذلك؟! وهبْ أَنَّ أَهلَه سمحَتْ بذلك لِعَليّ فهلَ جازَ له أَنْ يحملَ أطفالَه على خُوعِ ثَلاثةِ أَيّام بِلياليهنَّ؟! ما يَرُوجُ مثل هذا إلاّ على حَمْقى جهَّال؛ أبىٰ اللهُ لقلوبٍ متنبّهة أَنْ تَظنَّ بعليّ مثلَ هذا.

⁽١) تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٠٢).

* وليتَ شِعْرِي مَنْ حَفِظَ هذهِ الأبيات عن عليّ وفاطمة ، وإجابة كُلّ واحد منهما صاحِبَه ، حتى أدّاهُ إلى هؤلاءِ الرُّواة؟!.

فهذا وأشباهُه من أحاديثِ أهْلِ السُّجون فيما أرى ؛ بلغَنِي أنَّ قوماً يخلَّدُونَ في السُّجون ، فَيَبْقون بلا حِيْلَةٍ ، فيكتبونَ أحاديث في السَّمَرِ وأشباهِهِ ؛ ومثلُ هذه الأحاديث مفتعلَةٌ ، فإذا صارتْ إلى الجهابذةِ رموا بها وزيَّفوهَا ، وما من شيءِ إلاّ وله آفةٌ ومكيدةٌ ، وآفةُ الدِّين وكيده أكثر »(١).

* ويشكُ أبو حيّان الأندلسيّ في صحّةِ قصّة فضّة النُّوبية مع فاطمة وعليّ رضي الله عنهم جميعاً ، وصحّةِ ذلك الصّوم لمدة ثلاثة أيام كوامل ، وصحةِ الأَشْعارِ المنسوجَةِ فيقول: وهذه الآيةُ: ﴿ إِنَّمَا نُطُعِمُكُو لِوَجِهِ اللّهِ . . . ﴾ قيل: نزلَتْ في عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذكر النّقاشُ في ذلك حكايةً طويلةً جدّاً ظاهرة الاختلاقِ ، وفيها أشعارٌ للمسكينِ واليتيمِ والأسيرِ ، يخاطبون بها بيت النّبوة ، وأشعارٌ لفاطمة ـ رضي الله عنها - تخاطبُ كلَّ واحدٍ منهم ظاهِرُهَا الاختلاقُ ، لِسَفْسَافِ ألفاظِها ، وكسْرِ أبياتها ، وسفاطةِ معانيها» (٢).

* كما أنَّ فخر الدِّين الرّازي أشارَ إلى أنَّ الآيةَ السَّابقةَ لم تنزلْ في حقّ فضّة وسيّدَيْها عليّ وفاطمة فقال: «لم يذكرْ أحدٌ من أكابرِ المعتزلةِ ، كأبي بكْرِ الأصمّ ، وأبي عليّ الجبائي ، وأبي القاسم الكعبيّ ، وأبي مسلم الأصفهانيّ ، والقاضي عبد الجبّار بن أحمد في تفسيرهم أنَّ هذه الآيات نزلَتْ في حقّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه» (٣).

انظر: تفسير القرطبي (١٩/ ١٣٢).

 ⁽۲) تفسير البحر المحيط (۸/ ۳۸۸).

⁽٣) التفسير الكبير (٣٠/٢١٦).

* وذكر الآلوسي بأنَّ الواحدي ذكر الخبرَ في كتاب البسيطِ ، وذكر بيتيَّن منَ الشَّعر:

إلاَمَ أُلامُ وحَتَّ عَيْدَهُ فَاطِمٌ أَعَاتَبُ فَي خُبِّ هَذَا الفَتَى وَهَلُ أَنَّ ﴾ وهَلُ أَنَّ ﴾

وتعقّبَ بأنّه خبرٌ موضوعٌ مُفْتَعَلٌ ، كما ذكره التّرمذي ، وابنُ الجوزي ، وآثارُ الوضع ظاهرةٌ عليه لَفْظاً ومعنى «(١).

* وهناك ناحيةٌ مهمةٌ لا يجبُ أَنْ تُهْمَلَ ، وهي أَنَّ سورةَ الإنسانِ مُختَلَفٌ في مكيّتها أو مدنيّتها ، فهي مكيّةٌ عند كثيرٍ من العُلماء ، وبهذا تضعُفُ قصّة فضّة وأسيادِها الأبرار الأطهار ، لأنَّ حوادثَ تلكم القصّة جَرتْ في المدينةِ المنوّرة ؛ كما أنَّ السُّورة مدنيّةٌ عند فريقٍ كبيرٍ من العُلماء ، وهذا يقوّي قصّة سبب نزولها في هؤلاء الثّلاثة ، وقيل: فيها مكيٌّ ، وفيها مدنيّ ؛ والله أعْلمُ.

* ثمّ إنَّ هاتيكم الأشعار المُهلهلة في معانيها ومبانيها لا تصلحُ بأنْ تُلْصَق بسيّدتنا فاطمة الزّهراء ابنة إمام الأنبياء وسيّد الفصحاء ، وخاتم الأنبياء ، وكانت فاطمةُ بليغةً فصيحةً فلا يمكن أنْ تصدرَ عنها هذه الألفاظُ وهذه القوالبُ الشّعريةُ المقلوبةُ المنحدرةُ المحمّلةُ باللحنِ والتّكسيرِ والسَّفاطة والسّفْسَاف؛ ونحنُ إذا سلّمنا بأنَّ سيّدتنا فاطمة الزّهراء قد قالت مثلَ هذه الأشياء السَّاذجة ، فإننا واللهِ لا نعرفُ لها قَدْراً ، بل نخفضُ منَ القدر البلاغيّ ، والقَدْرِ البيانيّ لها ولسيّدنا عليّ ـ رضي الله عنهما وحشرَنا في معيتهما وعفا عنّا ـ ، ولعل الوضّاعين وأهْلَ حياكة الأخبار أرادوا في معيتهما وعفا عنّا ـ ، ولعل الوضّاعين وأهْلَ حياكة الأخبار أرادوا

⁽۱) روح المعاني للآلوسي (۲۹/۲۷۹) ، ووصلَ الآلوسي إلى حقيقةٍ مُفادها: أنسا عبـــدُ الحـــقّ لا عبـــدُ الهَـــوىٰ لَعَــــنَ اللهُ الهَــــوى فيمــــن لَعَـــن

بزعمهم أنْ يجعلُوا من الأشعارِ التي نسبوها لفاطمة (١) ولعليّ قَدْراً كبيراً ، ولكنّهم وقعُوا في ترَّهاتِ زعمهم المبتور، ففاطمةُ وعليٌّ أعْلَىٰ قَدْراً من ذلك، بل هُما من أعلياءِ الصَّحابة وساداتهم ، بل إنَّ فاطمة سيّدةٌ من سيّداتِ نساءِ العالَمين؛ وحَسْبُها قَدْراً بهذا أنَّ أباها رسولَ الله ﷺ قال عَنْها ذلك.

* وهناك أشياءُ أخرى كثيرةٌ يمكنُ أنْ تُقالَ في هذا المجالِ ، ويدركُها القارىءُ الفَطنُ ، ونستطردَ أكثرَ القارىءُ الفَطنُ ، ونستطردَ أكثرَ في الموضوع.

وقْفَةٌ أَخِيْرَةٌ مَعَ فِضَّة:

* بعد أنْ استوفَتْ زينبُ فوّاز قصّة فضّة النّوبية مع سيدتها الزّهراء في قصّة مرضِ الحسنِ والحُسينِ قالت عنها: «ومن ذلك يُعْلَم أن المترجمة

(۱) إن معظمَ كُتّابِ التراجم وكُتّابِ الطبقات والسيرة من الذين ترجمُوا لسيّدتنا فاطمة الزَّهراء ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ لم يذكروا هذه الأرجاز السَّقيمة التي قرأناها في ثنايا قصّة جاريتها فضّة النّوبية؛ ولكنْ ذكرُوا لها بعضَ الأبياتِ والمقطعاتِ في أبيها رسول الله ﷺ ، فقد ذكرَ ابن سيّد النَّاس في كتابهِ المعروف: «منح المدح؛ أو شعراء الصَّحابة ممن مدح الرَّسول ﷺ أو رثاه» ، مقطوعتان لفاطمة قال بأنّها أنشدتِ الأولىٰ لما دُفِنَ رسولُ الله ﷺ وهي خمسةُ أبيات أوّلها:

اغبرَّ آفَاقُ السَّماء وكوَّرَتُ مَّ شمسُ النَّهار وأظلمَ العَصْران _ _ والثَّانية: بيتان مشهوران قال عنهما: «وممّا يُنْسَبُ لعليّ أو فاطمة رضي الله عنهما»:

ماذًا على مَنْ شمَّ تربة أحمد ألا يشمّ مدى الزَّمَانِ غَواليا صُبَّتْ عليَّ مصائبٌ لو أنَّها صُبَّتْ على الأيّام عُدنَ ليّاليا (منح المدح من ص ٣٥٨).

ـ وهناك كثيرٌ من المصادرِ والمراجع قد أوردت أبياتاً وأشعاراً لفاطمةَ الزَّهراء ـ رضي الله عنها ـ والصَّحيح أنَّ سيّدتنا فاطمة فوقَ الشّعر وفوقَ هذا النّظم المصنوع ، فهي أبلغُ من ذلك بكثير ، وقد توسّعنا في هذا المجال بترجمتها في كتابنا «نساء أهل البيت» فليراجع.

ساوَتْ نفسَها بسيدتها فاطمة الزّهراء ، فنالت بذلك فخراً لم ينله غيرُها من نساءِ العرب ، وبقيتْ بخدمةِ هذا البيت حتّى توفّاها اللهُ رضى الله عنها اللهُ (١).

* ولا ندري من أينَ أتَتْ زينبُ فواز بهذا الخبرِ الذي لم نجدْ له أثراً في «أسدِ الغَابة» ، ولا في «الإصابة» ، ويبدو أنّه اجتهادٌ من زينب فواز التي تأخذها نشوة الكتابةِ أحياناً ، فتتحدّث بمثل هذه الأخبار التي قد تضلّل الباحث الغرّ ، وتبعده عن جادّة الصّواب.

* بيد أنَّ الأغْرَبَ من ذلك ، وما يدعونا إلى التوقف قليلاً عند سيرة فضة النوبية ، ما قرأتُه في بعض الكتُب ، من قصّة تكلُّمِها بالقُرآن؟ وبالتّالي نقع في حيرة من الأمْر ، إذ يزعم هؤلاء بأنَّ فضّة هي المرأة المتكلّمة بالقُرآن (٢) ، وهي التي نشأت في البيت الفاطميّ الطّاهر ، وألزمَتْ نفسَها أن لا تتكلم إلا بآي من القُرآن الكريم ، وإليك القصة كما ذكرَهَا أكثرُ من كتابِ وكاتب؛ وسأنقلُها حرفيّاً كما وردَتْ.

* قال هؤلاء: روى أبو القاسم القشيريّ في كتابِه: قال بعضُهم: «انقطعتُ في الباديةِ عنِ القافلةِ ، فوجدتُ امرأةً ، فقلتُ لها: من أنتِ؟! فقالت: ﴿ وَقُلَ سَلَمُ فَسَوْفَ يَعَلَمُونَ ﴾.

فسلَّمتُ عليها ، فقلتُ: ما تصنعينَ هاهُنا؟

قالت: ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ﴾ . ؟

فقلتُ: أمِنَ الجنِّ أنْتِ أمْ منَ الإنْس؟

قالت: ﴿ ﴿ يَبَنِيَ مَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُرُ ﴾.

فقلتُ: من أينَ أقبلتِ؟

⁽١) الدر المنثور (ص ٤٤٠).

⁽٢) اقرأ قصة المتكلمة بالقرآن في هذا الكتاب ، وانظر تعليقنا على ذلك.

قالت: ﴿ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِ بَعِيدٍ ﴾.

فقلت: أينَ تقصدين؟

قالت: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ ﴾.

فقلتُ: متى انقطعتِ؟

قالت: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَ السَّمَا وَتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُ مَا فِي سِتَّةِ أَيَّامِ ﴾.

فقلت: أتشتهينَ طعاماً؟

فقالت: ﴿ وَمَا جَعَلْنَهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾.

فأطعمتُها ، ثم قلتُ: هَرولي وعجِّلي.

فقالت: ﴿ لَا يُكُلِّفُ آللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾.

فقلتُ: أردفك؟!

فقالت: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَ أَهُ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتًا ﴾ ؟!!؟!.

فنزلتُ فأركبتُها.

فقالت: ﴿ سُبْحَننَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَنذَا ﴾.

فلمّا أدركنا القافلةُ قُلْتُ لها: ألكِ فيها أحد؟

قالت: ﴿ يَكَ الْوَدُ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ .

﴿ وَمَا مُحَمَّدُّ إِلَّا رَسُولُ ﴾ .

﴿ يَنِيَحْيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَبَ ﴾.

﴿ يَكُمُوسَىٰ إِنِّتِ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ .

فصحتُ بهذهِ الأسماء ، فإذا أنا بأربعةِ شبابٍ متوجّهين نحوها ، فقلتُ: مَنْ هؤلاء منْكِ؟

قالت: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنْيَأَ ﴾.

فلما أتوها قالَتْ: ﴿ يَكَأَبَتِ ٱسْتَنْجِرَهُ إِنَ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَنْجَرَتَ ٱلْقَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَوِيُّ الْفَافُونِي بِأَشْيَاء.

فقالت: ﴿ وَأَلَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾.

فزادُوا لي فَسَأَلْتُهم عنها فقالُوا: هذه أمُّنا فضّة ، جاريةُ الزَّهْراء ، ما تكلَّمتُ منذُ عشرينَ سَنةِ إلاّ بالقُرآن (١٠).

* هذه هي قصّة فضّة المتكلّمة بالقُرآن ، ترى هل يزيدُ هذا التكلّف غير المنطقيّ من رصيدِ فضّة النّوبية؟! وهل يزيدُ هذا الحديثُ المزعومُ في قَدْرِها عندنا؟!

* ممّا لا شَكَّ فيه أنَّ فضّة النُّوبية معدودةٌ في الصَّحابيات اللواتي نعمْنَ بهذا الشَّرفِ العظيمِ الذي لا يُدَانىٰ ولا يُجَارىٰ ، ومهما تقوَّلْنَا وألَّفْنَا الأَّحْدَاثَ والقَصَصَ لنزيدَ من شُهرتها أو من قَدْرِها ، فلنُ نبلغُ المقصود ، ولَنْ نبلغَ الشَّرفَ الوافي الذي بلغَتْه فضّة بالصُّحبةِ النّبوية ، والقيامِ بالخدمةِ لأعلىٰ بناتِ الأنبياءِ قَدْراً ومكانة ، ومَنْ نرجو بمحبتها الفوزَ والمعيّة.

* أرجو أخيراً أنْ أكونَ قد وفَقْتُ في عرضِ صورةِ امرأةٍ مشرقيّة ، وأرجو الله أنْ يتقبّل عملَنا ويجعلَنا مِنَ المقْبولين ، ورضي الله عن فضّة وعن سيّدتها فاطمة وعن الصّحابة أجمعين.

* * *

⁽۱) انظر: أعلام النساء المؤمنات (ص ٥٩٦_٥٩٧)، لمحمد الحسون، وأم علي مشكور، وأعلام النساء (ص ١٥٢_١٥٣) لعلى محمد دخيل.





كرميت بنت المحدالمرؤزتيه

- * هي ركن حصين للحديث وروايته في عصرها. روت صحيح البخاري وغيره عن عدد من العلماء الأثبات الثقات.
- * كانت شديدة الدقة لما تنقل من العلم ، كثيرة الضبط؛ لتأمين التصحيف والتحريف ، وكانت إذا روتْ قابلتْ بأَصْلِها.





العَالِمَةُ الصَّالِحَةُ:

* لم يكنِ العِلْمُ مُقْتصراً على جماعةِ الرِّجال وحدهم ، وإنّما ظهرَ المتمامُ النِّساءِ بالعلْمِ والرِّواية منذُ الهمَسات الأولى للإسلامِ إلىٰ وقتنا الحاضر.

* ففي عَصْر النّبوّة الأَزْهر ، كانتِ النّساءُ يحرصنَ على سماعِ حديثِ النّبيّ الكريم ﷺ ، وقد طلبْنَ منه ﷺ أَنْ يخصِّصَ لهنَّ يوماً يتعلمنَ فيه دونَ الرّجال؛ وفي الصَّحيحَيْن ما يروي الغُلّة من ذلك.

* أخرجَ الشَّيخان عن أبي سعيد الخُدري _ رضي الله عنه _ قال: «جاءت امرأةٌ إلى رسولِ الله ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللهِ ، ذهبَ الرِّجال بحديثك ، فاجعلْ لنَا من نفسِكَ يوماً نأتيكَ فيه ، تعلَّمُنا ممّا علمَك اللهُ ، قال: «اجتمعنَ يومَ كذا وكذا»؛ فأتاهُنّ فعلمهنّ مما علّمه الله»(١).

* وكانتِ النّسوةُ ـ وخصوصاً نساء الأنصار ـ مشغوفاتِ بالمجالسِ العلميّةِ النّبويّةِ ، وكُنَّ أحياناً يأتينَ بيتَ النّبيِّ عَيَّاتٍ كي يستفدنَ منه ، ويتعلمْنَ بعضَ الأمورِ الخاصّة بهنّ ، ولم يكنِ الحياءُ يحولُ بينهنَّ وبينَ هذا العلْمِ ، حتى حُزْنَ إعجابَ أمِّنا عائشة بنت أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنهما وأرضاهما ـ فقالت عنهن مادحة: «نِعْمَ النّساءُ نساء الأنصار ، لم يكنْ يمنعهن الحياءُ أنْ يتفقهنَ في الدِّين»(٢).

 ⁽١) أخرجه البخاري في العلم برقم (١٠١) ، ومسلم في البرّ والصّلة برقم (٢٦٣٣) ،
 وأحمد في المسند برقم (٧٣٥١) عن أبي هريرة.

⁽٢) أخرجه مسلم في الحيض (١/ ٢٦١) ، وأخرجه البخاري معلقاً عن عائشة في العلم (٢) . وأبو داود برقم (٣١٦) ، وابن ماجه برقم (٦٤٢).

* ومنذ ذلك الوقت وذلك الزّمن المبارك الميمون ، كانَ للنساءِ دورٌ مهمٌ وواضحٌ في سَماعِ الحديثِ النّبويِّ الشّريف ، ثمّ روايتُه وتبليغُه ، ولم يكد يخلو عَصْرٌ من العصورِ بعدها إلا نجدُ فيه عدداً ضخماً منَ الرّواياتِ المُسندات ، ومَنْ يطّلعُ ويطالع كتُبَ رواةِ الحديث النّبوي ، وكُتُبَ التراجم والسّير يَجِدْ حَشْداً هائِلاً منَ المحدثات اللائي سمعْنَ الحديث النّبوي وروينه ، وأخذ عنه ن جلّةُ الحقاظ ، وكبار المحدثين ، وأعلياء المُسندين ، وكبراء العلماء والمصتفين.

* وعندما نمرُ في سِيَرِ محدّثاتِ ومسنداتِ وعالماتِ القرنِ الخامس الهجريّ ، تستوقفُنا سيرةُ امرأةٍ جليلةِ القَدْر ، رفيعة الذّكْر ، من صوالحِ نساءِ عَصرها ، ومن عالماتِ نساءِ المشرقِ العربي ، وهذه المرأةُ اسمها كريمةُ بنتُ أحمد بن محمد بن حاتم المروزيّة (۱) ، وتكنى أمّ الكرام ، وأصلُها من مرو الشّاهجان (۲) من خراسان ، أمّا مولدها فكانَ في الرّبعِ

⁽۱) سير أعلام النبلاء (۲۲۳/۱۸ - ۲۲۳)، وتاج العروس (۱/ (717))، والبداية والنهاية (1/ (717))، والكامل (1/ (717))، وشذرات الذهب ((717))، والعبر ((717))، والعبر ((708))، والدر المنثور ((708))، والمنتظم ((708))، وأعلام النساء ((78))، وبرنامج ابن جابر الوادي آشي ((719)) بتحقيق د. محمد الحبيب الهيلة _ تونس _ (18) هـ)، وغيرها كثير.

 ⁽۲) «مرو الشّاهجان»: هي مرو العظمى ، أشهرُ مُدنِ خُراسانَ وقصبتُها ، والنّسبةُ إليها مروزيّ على غير قياس. (معجم البلدان ٥/ ١١٢ و١١٣).

⁻ ومعنى مرو بالعربيّةِ: الحجارةُ البيضُ التي يقتدحُ بها النّار؛ إلا أنَّ هذا اللفظَ عربيٌّ ، ومرو ما زالت عجميّة ، وقد زارها ياقوتُ الحموي صاحبُ كتابِ «معجم البلدان» ، ولم يرَ بها شيئاً من هذهِ الحجارة.

ـ وأمّا الشّاهجان ، فهي فارسيةٌ معناها: «نَفْس السُّلطان» ، لأنَّ الـ «جَان» هي النَّفْس أو الرُّوح؛ و«الشَّاه»: هو السُّلطان ، وسمّيت بذلك لجلالتها عندهم.

و«المروان»: بلدان بخُراسَان ، إحداهما هذه مرو الشّاهجان ، والأخرى يُقال لها: =

الأخيرِ من القَرنِ الرّابع الهجْريّ حوالي سنة (٣٦٣ هـ) تقريباً ، حيث خرجَ بها أبوها من مرو الشّاهجان إلى بيتِ المقدس ، ثمّ عاد بها إلى مكَّةَ ، وهناك جاورتْ بحرم الله.

* وتحكي سيرةُ كريمة المروزيّة هذه أنَّها نشأتُ نشأةً علميّة دينيّة ، فقد أحبَّتْ علومَ الدِّين وخاصّة عِلْم الحديث النّبويّ الشّريف الذي بلغَتْ فيه مكانة كبيرة ، حتى عُرِفت بأنّها هي التي تروي صحيح البُخاري ، وأضحت رُكْناً حصيناً للحديثِ وروايته في عَصْرها.

اهتِمَامُهَا بِالعِلْمِ وَضَبْطِهِ:

* من الواضحِ في سيرِ هؤلاء العالماتِ المحدّثات في مختلفِ القُرون أنهنّ كُنَّ من المسارعاتِ إلى ساحة روايةِ الحديث ، حيث كان لهنّ نصيبٌ وافرٌ وحظٌّ عظيمٌ في هذا المجالِ العظيم.

* إنَّ هؤلاءِ العالماتِ المُسلمات استطعْنَ أنْ يقمنَ بأنشطةٍ علميةٍ تعودُ بالخيرِ والتَّفع على المجتمعِ ؛ وأنْ يتركْنَ بصماتٍ واضحات في تاريخ نساءِ المشرقِ العربيّ.

«مرو الرّوز»؛ والرَّوز هو بالفارسيّة: النَّهر ، فكأنَّهما مرو النَّهر. (معجم البلدان ٥/١١٢ وما بعدها).

ـ ومرو الشّاهجان هي مدينةُ العِلْمِ والعُلماء ، وقد أخرجَتْ منَ الأعيانِ والعُلَماء ما الشَّنَّة الإمامُ مالم تخرجْهُ مدينةٌ أخرى؛ وحسبُك أنْ تعلمَ أنَّ من هذهِ المدينة : إمامُ السُّنَّة الإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ، وسفيانُ الثّوري ، وإسحاقُ بنُ راهويهِ ، وأبو بكر القفّال ، وأبو إسحاق المروزيّ الشّافعي ، وعبدُ الله بنُ المبارك ـ رحمهم الله جميعاً ـ . وفي هذه المدينةِ يقول الشاعر :

لَيالِ بمرو الشَّاهجان وشملُنا سَرقناكِ من ريْبِ الزَّمانِ وصرفهِ تَنَبَّهَ صِرْفُ الدَّهرِ فاستحدث النّوى

جميع سُقاكِ اللهُ صَوْبَ عِهَادِ وعينُ النّـوى مكحـولـة بسهـادِ وصيّــرنــا شتـــى بكـــلُّ بـــلادِ * وقد ظهر اهتمام كريمة المروزية بالعلم وخصوصا رواية الحديث وضَبْطه ، فقد روت كريمة صحيح البخاري عن عددٍ من العلماء الأثباتِ النقات ، حيث سمعت من أبي الهيشم محمد بن علي المروزيّ الكُشْمَيْهَني (١) وروتُهُ عنه . . . ، وسمعت من زاهر بن أحمد السَّرخُسي (٢) ، ومن عبد الله بن يوسُف بن بامُويه الأصبهاني (٣) .

* وكانت كريمةُ بنت أحمد المروزية شديدةَ الدِّقَةِ لما تنقلُ منَ العِلْمِ والرِّواية ، وكانت شديدةَ الاهتمام بذلك فتضبِطُ كتابَها ضَبْطاً تامّاً كي تأمنَ التَّصحيف أو التَّحريف ، أو الالتباس ، وتقابل بنسخِها عمن نقلَتْ عنه ليكونَ أقرب إلى الدِّقَة والصَّحة والحقيقة والصَّواب.

* قال الإمامُ الذَّهبي عن حُسْنِ روايتها ، وضبطِها وصحّة مقابلتها

⁽۱) أبو الهيثم محمد بنُ مكّي المِروَزيّ الكُشْمَيْهَني ـ نِسْبةٌ إلى كُشْمَيهن قريةٌ بمرو ـ راويةُ البُخاري عن الفربريّ ، توفيَ يوم عَرَفة سنّةَ (۳۸۹ هـ) ، وكان ثقةً وله رسائلُ أنيقةٌ . (شَذَرات الذّهب ٤٧٨/٤).

⁽٢) زاهرُ بنُ أحمدَ السَّرخسيّ أبو عليّ ، فقيةٌ شافعيٌّ ، أحدُ الأثمةِ ، روىٰ عن أبي لبيد السَّامي ، والبغويّ ، وطبقتهما.

ـ قال الكَاكمُ: ﴿شَيخُ عَصْره بخراسانَ ، وكان قد قرأَ على ابنِ مُجاهد ، وتفقّه علىٰ ابنِ إسحاقَ المروزيّ ، وتأدّبَ على ابنِ الأنباريّ ، وأخذَ عِلْمَ الكلامِ عن الأشعريّ ، وعُمِّر دهْراً».

ـ وقال ابنُ قاضي شهبة: «كان يقولُ عند الموتِ: لَعَنَ اللهُ المعتزلةَ ، مَوَّهُوا ، ومخْرقُوا».

ـ مات السّرخسيّ في ربيع الآخر سنة (٣٨٩ هـ) ، وله (٩٦ سنة) ، (شذرات الذُّهب ٤/ ٤٧٧).

⁽٣) عبدُ الله بنُ يوسُف بنِ أحمد بن بامويه أبو محمد المعروف بالأصبهائيّ ، نزلَ نيسابور ، وكان منْ كبارِ الصُّوفيّة ، وثقاتِ المحدّثين الرَّحالة ، روىٰ عن أبي سعيدِ بنِ الأعرابيّ ، ومحمد بنِ الحُسين القطّان ، وجماعةٍ ، وتوفيَ في رمضان سنة (٤٠٩ هـ) ، ولهُ (٩٤ سنة). (شذرات الذَّهب ٥٣/٥ و٥٥).

واهتمامِها بالرّواية: «وكانت إذا روت قابلَتْ بأَصْلِها»(١).

* وعن دقّةِ ضبطها ومقابلتها يقولُ ابنُ العماد: «وكانت تضبطُ كتابَها ، وتقابلُ بنسخِها» (٢).

* وممّا يُضاف إلى رصيدِ كريمة بنت أحمد هذه ، أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد رزقَها نباهة ، وحَباها فهما ، تدركُ بهما العِلْم ، وتحفظُ ما تسمعُ ، وما تقرأُ ، حتى إذا ما تمكّنتُ واشتدَّ ساعِدُها بالرِّواية والعِلْم ، أصبحتْ إحدى العالماتِ المُسندات في عَصْرِها ، حتى عدّها ابنُ الأهدل من الحفّاظ ، وهذه منقبةٌ كبرى لها ، بل إنَّ محدّث هَرَاة أبا ذرّ قد وصّى الطلبة اللَّ يأخذوا الجامع الصَّحيح إلاّ عنها ، لذا تهافَتَ الآخذون عنها من العلماء والكبراء كما سنرى في الفقرة التّالية .

كريْمَةُ وَالآخِذونَ عَنْهَا:

* عُرِفَتْ كريمةُ المروزيةُ بأنّها عالمةٌ فاضلةٌ ذات نباهةٍ وفَهُمٍ واستيعاب ، وكانت أكثر ميولها العلميّة تبدو في محبّة الحديثِ النّبويّ وروايته حتى بلغَتْ فيه حدّاً عظيماً لم تكدْ تبلغُه امرأةٌ غيرها في عَصْرِها ، حيث احتلّت روايةُ الصَّحيح جوانِحَها ، وحتّى عُرفت به.

* ذكرَ الإمامُ الذَّهبي هذه النَّاحية المهمّة في سيرتها فقال: «روتِ الصَّحيح مرّاتِ كثيرة ، مرّة بقراءةِ أبي بكر الخطيب في أيّام الموسم» (٣).

* ولهذا فإنَّها لما بلَغتْ هذه المكانة الرَّفعية في الرّوايةِ ، شُدَّت إليها الرِّحالُ ، وقدمَ أفاضلُ العلماء من جميعِ الأقطارِ كي يستفيدوا ممّا علَّمها

سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).

⁽٢) شذرات الذهب (٢٦٦/٥).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣). و«الموسم»: موسم الحج.

اللهُ من هذا العلْمِ الشَّريف ، حتى أخذَ عنها عددٌ منَ العُلماء الكبار ممن لا يُحْصَون.

* وتذكرُ المصادر المتنوِّعة التي وصلَتُ إلينا بأنَّ الآخذين عن كريمة بنتِ أحمد المروزيّة هم صفوةٌ من أعلام العُلماء ، وثلةٌ منَ الأئمة الكبار الذين ملؤُوا بعلمِهم البقاع والأمصار ، وشغلُوا بمسائِلهم النّافعة العلماء الكبار؛ فقد قرأ عليها وحدَّث عنها من الأئمة المشاهير: الخطيبُ البغدادي ، وعليُّ بنُ الحسين الفرّاء ، وأبو المظفّر منصور بن السّمعاني ، وأبو الغنائم النّرسي^(۱) ، وأبو طالب الحُسين بن محمد الزّينبي ، ومحمدُ بن بركات السّعيدي ، وعبدُ الله بن محمد بن صدقة بن الغزال ، وأبو القاسم علي بن إبراهيم النّسيب ، وآخرون كثيرون من أهلِ العِلْم من الأكابر والفقهاء (۲).

* ولعلّنا ندركُ مكانة كريمة المروزية العلميّة إذا عرفنا أنّ من تلامذتها: الخطيب البَغْداديّ ، والفَرّاء ، والسَّمْعاني ، فما ظنُّك بامرأةٍ هؤلاء الأعلام من تلامذتها ، وممن تلقّوا الرّواية عنها؟!

 ⁽۱) «النّرسي»: أبو الغنائيم محمدُ بنُ عليّ بن ميمون الكوفيّ الحافظُ القارىءُ ، لُقِّبَ أُبيّاً لجؤدَةِ قراءتِه ـ تشبيهاً بالصَّحابيّ الجليلِ أبيّ بن كعب ـ ، وكانَ ثقةٌ ذا إتقان.

ـ روى عن محمد بن عليّ بنِ عبد الرحمن العلويّ وطبقته بالكوفةِ ، وعن أبي إسحاقَ البرمكيّ وطبقته ببغدادَ ، ونابَ في خطابةِ الكوفةِ ، وكان يقولُ: «ما بالكوفةِ منْ أهل السُّنَة والحديثِ إلاّ أنا».

ـ وقال ابنُ ناصر: «كان ثقةً حافظاً مُتقناً ، ما رأينا قَبْلَه؛ كان يتهجَّدُ ويقومُ الليل».

_ وكان أبو عامر العبديّ يثني عليه ويقول: «خُتِمَ به هذا الشَّأن».

وكان ينسخُ ويتعفَّفُ ، توفي في شعبانَ سنة (١٠٥ هـ) وعمره (٨٦ سنة). (شذرات الذهب ٢/٤٧).

⁽٢) انظر: البدايةَ والنّهاية (١٢/ ١٠٥)، وسير أعلام النّبلاء (١٨/ ٢٣٤) مع الجمع والتّصرّف.

هلْ رأىٰ إنْسَانٌ مثل كَريْمَة؟

* كريمةُ ابنةُ أحمد المروزيّة هذ امرأةٌ نادرة في فنّ التَّحديث ، وفنّ التَّعليم والإقراءِ والرِّواية ، فقد كانت تجيدُ ما تعلمُه وما تعرفُه ، فقد تلقَّتْ عنِ الأكابرِ ، وتَتَشَبَّتُ من ذلك تماماً ، لذا فإنّها لما تصدَّرت للإقراء والتّحديث علَّمَتْ تلامذتها هذه العادةَ الكريمةَ المباركة التي تحقّقُ الهدفَ المنشودَ من العِلْم ، وبالتَّالي يكون المتعلّم متقناً ثبتاً دقيقَ المعرفة ، فلا تسمح أنْ تمرَّ فكرة أو كلمة دون مراجعة وتثبّت مع طلابها.

* روى أبو الغنائم النّرسي القارىء المتقن المجود ، ما حدَثَ له مع أستاذته العالمة المتقنة الضَّابطة كريمة من حرصِها على القراءة الصَّحيحة ، ومعارضة ما تمليه معه فقال: "أخرجتْ كريمة إليَّ النُّسخة بالصَّحيح _ أي صحيح البخاري _ فقعدتُ بحذائِها ، وكتبتُ سبعَ أوراق ، وقرأتُها ، وكنتُ أريدُ أنْ أعارضَ وحدي ؛ فقالت: لا ؛ حتى تعارضَ معي ، فعارضتُ معها »(١).

^{*} وقال أبو الغنائم أيضاً: «وقرأتُ عليها من حديثِ زاهر»(١).

^{*} وقال أبو بكر بن منصور السَّمعاني (٢): «سمعتُ الوالدَ يذكرُ كريمة

⁽١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤).

⁽٢) أبو بكر السَّمْعاني تاجُ الإسلام ، محمَّدُ بنُ منصور بنِ محمَّد التَّميميِّ المِروزيِّ الحافظُ ، والدُّ الحافظِ أبي سَعْد ، وُلدَ سنة (٤٦٦ هـ)؛ وكانَ بارعاً في الحديثِ ومعرفتهِ ، والفِقْهِ ودقائقه ، والأدبِ وفنونهِ ، والتَّاريخِ والنَّسَبِ والوعظِ ، روى عن جماعةِ منَ الكبراء في عدد منَ البلدان.

ـ قال عبد الغَافِر في «الذّيل»: «هو الإمامُ ابنُ الإمام ابنِ الإمام ووالد الإمام ، شابٌّ نشأً في عبادةِ اللهِ تعالى ، وفي التَّحصيل في صِبَاه ، حتّى أرضى أباهُ ، حظيَ من الأدب والعربيّةِ ، وتميّز فيهما نظْماً ونثراً بأعلىٰ المراتبِ ، ثمَّ برعَ في الفقْهِ مستدرّاً=

ويقول: وهل رأى إنسانٌ مثلَ كريمة»(١)؟

* ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ والدَ السَّمعاني هذا هو منصور بن محمد التّميميّ المِروزيّ ، كان من أئمةِ عصره في العلْم ، وله مصنّفاتٌ كثيرةٌ ، وله تفسير جيّدٌ ، وجمع في الحديث ألف جزء من مئةِ شيخ؛ هذا العَلَمُ العالمُ الكبيرُ يشهدُ لأمّ الكرام كريمة المروزية بالتفرّد في عالَم النّساء في ميدان العلم ، وأنّه لا يوجد لها شبيهٌ في مِصْرِها.

* وقد زيَّنَت كريمةُ هذه الفَضَائلَ الكريمةَ بخصائلَ كريمة ، فكانت بالإضافةِ إلى تبحّرها بالعلْمِ والحديثِ والرِّواية ، عابدةً قانتةً وَرِعةً ، شهدَ لها أقرانُها بالصَّلاح والورعِ وكثرةِ العبادة ، مع الإكثار من عَملِ الخيرات.

* قال الحافظُ ابن كثير: «وكانت عالمةً صالحةً»(٢).

* وقال الحافظُ الذَّهبي: «ولها فَهُمٌ ومعرفةٌ مع الخيرِ والتّعبُّد» (٣).

* وقال ابنُ الجوزي: «وكانت عالمةً صالحةً»(٤).

* وقال ابنُ نقطة: «وكانت عالمةً ، تضبطُ كتبَها» (٥).

أخلاقه من أبيهِ ، بالغاً في المذهب ـ الشافعي ـ والخلاف أقصىٰ مراميه ، وزادَ على أقرانه وأهل عصرهِ بالتبخُر في علم الحديث ، ومعرفةِ الرّجال والأسانيد ، وحفْظِ المتون ، وجُمعتْ فيه الخلالُ الجميلةُ من الإنصاف ، والتّواضع والتّودد ، وصنف في الحديث تصانيف كثيرة ». توفي بمرو في صفر سنة (١٠٥ هـ) وعاش ثلاثاً وأربعين سنة.

سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤).

⁽٢) البداية والنهاية (١٢/ ١٠٥).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).

⁽٤) المنتظم (١٦/ ١٣٥) طبعة دار الكتب العلمية.

⁽٥) التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد (٢/ ٣٢٤).

* وقال الذَّهبي: «وكانت تضبطُ كتابَها ، وتقابلُ نُسَخَها ، ولها فَهْم ونباهةٌ وما تزوَّجَتْ قطّ»(١).

* وقال أيضاً: «الشَّيخةُ ، العالمةُ ، الفاضلةُ ، المسندةُ ، أمُّ الكرام ، كريمةُ المروزيّة المجاورةُ بحرمِ الله (٢٠). لهذا كلّه يحقّ لنا أنْ نقولَ مع مَنْ قال: «وهل رأى إنسان مثل كريمة ؟ ! .

في دِيْوَانِ العَالِمَاتِ المُعَمَّراتِ:

* عاشت كريمةُ المروزيّةُ دهراً طويلاً ، حتى بلغتْ قرناً من الزَّمان ، وظلّتْ على حالِها من الهيبةِ والعلْمِ والمعرفةِ والرِّواية ، وظل العلماءُ يشدّونَ رِحالَ العلْمِ نحوها ، حيث جاورتْ بمكّة المكرمةِ .

* وظلت كريمةُ خليّةً منَ الأزواجِ ، وبقيت طيلةَ عمرها بكْراً لم تتزوجْ ، ولم تذكرِ المصادرُ سببَ ذلك ، وإنَّما ذكر الذَّهبي هذا بقوله: «وماتتْ بكْراً لم تتزوجْ قطّ»(٣).

* ولعلّه كان لكريمة إخوة ينفقونَ عليها ، إلاّ أنَّ أبا بكر السَّمعاني أفادنا بهذه المعلومة فقال: «وسمعتُ بنتَ أخي كريمة تقول: لم تتزوجْ عمّتي كريمةُ ، وكان أبوها من كشميهن ، وأمّها من أولادِ السَّيَّاري ، وخرجَ بها أبوها إلى بيتِ المقدس ، وعاد بها إلى مكّةَ ، وكانت قد بلغتِ المئة»(١). وأفادَ الذَّهبي بأنَّها توفيت سنة (٤٦٣ هـ)(١).

* قال هبة الله بنُ الأكفاني: «حدّثني عبد العزيز بن علي الصّوفي قال:

⁽١) العبر (٣/ ٢٥٤).

⁽٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣).

⁽٣) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣ و ٢٣٤).

سمعتُ بمكّة من مخبرٍ بأنَّ كريمة توفيت في شهور هذه السَّنة» _ أي سنة (٢٦٣ هـ)(١).

* وقال أبو جعفر محمدُ بنُ عسلي الهمذاني: «حججتُ سنةَ ثلاث وستين ـ وأربعمئة ـ فنُعِيَتْ إلينا كريمةُ في الطّريق ، ولم أدركُها»(٢).

* وأفادَ ابنُ الأثير بهذه المعلومة فقال: «توفيتْ كريمةُ المروزيّة _ وهي التي تروي صحيح البخاري _ بمكّة ، وإليها انتهى علو الإسناد ، إلى أنْ جاءَ أبو الوقت» (٣).

* وقالت زينب فواز العامليّة: «لم تتزوجٌ قطَّ ، وبلغَ عمرها مئة سنة ، وتوفيتُ بمكّة المكرمة»(٤).

* وقال ابنُ العماد: «وما تزوجت قط ، وقيل: إنّها بلغت المئة ،
 وتوفيت سنة (٤٦٣ هـ)»(٥).

* وهكذا عاشت كريمةُ المروزيّة كريمةَ الجانبِ ، كريمةَ بالعلمِ ، ومثلُ ومثلُ ومثلُ ، فرحم الله كريمة ، وأكرمها بكرمهِ ، وأحسن نُزُلَها ، ومثلُ الكريمة فلتكن النّساء في ضَبْط العلْم وحبّه وتعليمه.

* * *

⁽١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٤ و ٢٣٥).

⁽٢) سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣٣ و٢٣٤).

⁽٣) الكامل (١٩/١٠) بتصرف يسير.

⁽٤) الدر المنثور (ص ٤٥٨) ، ولم تذكر سنة الوفاة؛ وانظر: أعلام النساء (٤/ ٢٤٠).

⁽ه) شذرات الذهب (٥/ ٢٦٦).





المتكاتب بالقسرآن

* قصة مزعومة لا أصل لها.





في رحَابِ الحَقِّ:

* لم تكنْ هذهِ المتكلّمةُ بالقُرآنِ الكريمِ سوى امرأةِ مجهولةٍ لا تُعرفُ هُوِّيّتُها ، ولا منْ أينَ أتتْ ، ولا أينَ ذهبَتْ ، فلا موطنَ لها ولا سكَنَ ، ولكنّها ـ هكذا ـ اشتهرتْ بأنَّها لا تتحدَّثُ إلاّ بألفاظِ القُرآنِ الكريم.

* وقد زعمَ القُصّاص والمذكّرون وصانِعُو الأَخْبارِ ، ومخترعو القَصَصِ والأحداثِ ، أنَّ هذه المرأة العجيبة الأعجوبة ، لم تكنْ كغيرِها من النّساء أو النّاس تنطقُ بالكلام العادي ، بل كانت منذُ أنْ شبّتْ عنِ الطَّوقِ لا تتفوّهُ إلا بآياتٍ منَ القُرآنِ الكريم ، وعدُّوا ذلكَ منَ الكَراماتِ والخوارِق، ومنَ الأشياءِ المُدهشةِ التي تزيدُ في رصيدِ هذه المرأةِ الأعجوبة!

* إنَّ القرآنَ الكريمَ سيِّدُ الكُتُب وأجمعها ، والشَّريعةُ الغراء والسُّنةُ المطهّرة الزَّهراء أوضحُ الشَّرائع وأدقُّها ، فمن لم يقرأ القرآنَ الكريم ، ويفهمْ معانيه ، ويحفظِ السُّنَّة ، ويفهمْ مراميها ، فلا يصحُّ الاقتداءُ به مهما كانَ أمرهُ ، ومهما بلغَتْ شهرتُه ، بل مهما زعمُوا وزخرفُوا وصنعُوا له الكَرامات والعَلامات.

* ونحنُ لا ننكرُ الكرامةَ لأحدٍ ما دامَ يسلكُ طريقَ الولاية التي أقرَّهَا كتابُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ أَلَا إِنَ أَوْلِيآ اللّهِ لاَخَوْفُ عَلَيْهِ مَ وَلاَ هُمَ يَحْ زَنُونَ ۚ إِنَ اللّهِ عَلَيْهِ لاَ خَوْفُ عَلَيْهِ مَ وَلاَ هُمَ يَحْ زَنُونَ ۚ إِنَ اللّهِ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهِ عَلَى عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى عَلَى اللّهُ عَا عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ عَلَى اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ عَلَى اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ ا

* إِنَّ أُولِياءَ اللهِ الذين تحدثَتْ عنهمُ الآياتُ السَّابِقة ، همّ المؤمنون حقَّ الإيمانِ ، المتقونَ حقَّ التقوى ، والإيمانُ ما وقَرَ في القَلْبِ وصدَّقه العَملُ؛ والعملُ هو تنفيذُ ما أَمَر اللهُ به ، واجتناب ما نهىٰ اللهُ عنه.

* هكذا يجبُ أن نفهمَ معنى الولايةِ لله عزّ وجلّ ، وأنْ نعيَها تماماً ، لا كما يفهمُه العوام وسوادُ النّاس منْ أنّ الأولياءَ هم المهبُولُون المخبولُون الذين يدعونَهم بالأولياء!! ، ويعتقدون بهم ويعقُدون لهم الولاية والكرامة!!.

* وقد ذهب جمهورُ أهل السُّنَّةِ إلى إثباتِ الكرامةِ ، وإلى جوازِ وقوعها من أولياءِ اللهِ المؤمنين المتقين ، الذين لزمُوا الصِّراط المُستقيم ، والنَّهجَ المُستبين ، وراقبُوا اللهَ ، واتقوه في السِّرِّ والعلانيّة؛ وفي ذلك يقولُ صاحب الجوهرة:

وأَثْبِتَ نَ لِللَّاوْلِيَ الْكَرَامَ هُ وَمَنْ نَفَاهَا فَانْبِذَنْ كَلامَهُ

* وقد عرَّفَ عبد السَّلام اللقاني الكرامةَ فقال: «الكرامةُ أمرٌ خارقٌ للعادةِ غير مقرون بدعوى النّبوّة ، ولا هو مقدّمة لها ، وتظهرُ على يدِ عبدٍ ظاهرِ الصَّلاح ، ملتزم لمتابعةِ نبيّ كُلّفَ بشريعتِه ، مصحوب بصحيحِ الاعتقادِ ، والعملِ الصَّالح ، علمَ بها أو لم يعْلَم»(١).

* ولكنَّ بعضَ النَّاسِ قد بالغَ في هذا المجالِ ، فجعلَ من الحبَّةِ قُبَة ، فزاد بذلك الطِّين بلّة ، والقلْب علّة ، واللسان زلّة ، فمن ذلك أنهم ينقلون بعضَ الكراماتِ عن أحدِ مَنْ زعموا أنَّ له كرامات أنَّه قال: «سِرتُ إلى مكّة على طريقِ التَّوكِّل حافياً ، فكانتِ الشَّوكةُ تدخل في رجلي فأحكُّها بالأرضِ ولا أرفعُها ، وكان عليَّ مِسْحٌ (٢) ، فكانت عيني إذا آلمتني أُدلَّكُها بالمِسْح ، فذهبَتْ إحدى عينيّ (٣).

⁽۱) شرح جوهرة التوحيد (ص ۲۰٦).

⁽٢) "مِسْح": كساء من شعر.

⁽٣) انظر: صيد الخاطر (ص ٦٢) بتحقيق يوسف بديوي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٩ م.

* وانظر - عزيزي القارىء - إلى تخليطِ هذا السَّفيهِ وأمثاله ، الذي خالف الأصول والسُّنَن ، وظلمَ نَفْسَه ، وجهلَ بالأحكام ، فظنَّ بعضُ النَّاسِ أنَّ هذا من الكراماتِ ، وعظموها ، واعتبروا أنّه أعلىٰ مرتبة من أعلياءِ الأئمةِ كأبي حنيفة ، ومالك ، والشّافعي ، وأحمد ، رضي الله عنهم ورحمهم وحشرنا في معيّتِهم.

* ومن الألاعيبِ بالعقولِ والنّفوس ، أنّهم يَرْوُون عن ذي النّون العابدِ الزّاهدِ ، صاحبِ الفصاحَةِ والحكمة ، أنّه لقي امرأةً في السّياحةِ فكلّمها وكلّمَتْه ، ونسي هؤلاء القُصَّاصُ ، الأحاديث الصّحاح المتواترة في النّهي عن هذا ، ومنها ما جاء في الصّحيحَيْن عن أبي هُريرة - رضي الله عنه - أنّ رسولَ الله عَنْهُ قال: «لا يحلُّ لامرأةٍ أنْ تسافِرَ يوماً وليلةً إلاّ بمحْرَم» (١).

* وفي خضم هذه الأقاصيص تطلع علينا بعض الكتب ، بقصة مزعومة عن امرأة _ غير معروفة _ ادعوا أنها منذ أربعين سنة لم تتكلم إلا بالقُرآن ، هذه المرأة لا نعرف اسمَها ولا رسْمَها ، ولا مكانَها ولا مصْرَها ، إلاّ أنَّ مصمم القصة ومهندسَها ، ومؤلفها ومخرجَها ، جعل مكانَها طريق الحجّ ، أو عرفة ، وبعضُهم جَعلَ مكانَها في الطّريق إلى الحجّ ، وبعضُهم جعلَ مكانَها في الطّريق إلى الحجّ ، وبعضُهم أنَّ اسمَها «مريم» ، بينما زعم آخرون جعلَ مكانَها البادية ، وادّعى بعضُهم أنَّ اسمَها «مريم» ، بينما زعم آخرون أنَّ أباها يُدعى «نوحاً» ولكي تتم الأكذوبة جعلوا للقصة يدَيْن ورجلَيْن ، ولسّاناً وشفتين كيما تتحدث بطلاقة ، فهل سمعتم بهذه المرأة المتكلّمة بالقُرآن الكريم؟ والتي جعلَ بعضُ المصنّفين عنوانها: المُتكلّمة بالقُرآن (٢٠)؟

⁽۱) أخرجه الشيخان: البخاري برقم (۱۰۸۸)، ومسلم برقم (۱۳۳۹) من حديث أبي هريرة، كما أخرجاه من حديث ابن عمر، فالبخاري أخرجه برقم (۱۰۸٦ و ۱۰۸۷)، ومسلم برقم (۱۳۳۸).

⁽٢) المستطرف (١/١٥-٥٧) ، وقصص العرب (١٩٠/ ١٩٢) ، وصفة الصفَوة =

حكَايَةُ المُتكلِّمَةِ بالقُرآنِ:

* تُنْسَبُ رواية هذه القصّة إلى عبد الله بنِ المبارك(١) ، بل إنَّ بعض الكتبُ تنسبها لأكثرَ منْ رجل ، فبعضُها تنْسِبها إلى عبدِ الله بن داود الواسطيّ ، وبعضُهم ينسبُها إلى الأصمعيّ ، كما أنَّ بعض المؤلّفين نسبَها إلى بعضِ الصُّلحاء أو الأولياء ، وبعضُهم لا يَعرِفُ لمن ينسبُها ، المهمُّ أن يُورِدوا قصَّة المرأة المتكلّمة بالقرآن بشيءٍ من الإعجابِ ، وشيءٍ من هالةِ

= (۲۸٦/٤)، وجـواهـر الأدب (٣٧٣_٣٧٤)، وثمـرات الأوراق بهـامـش المستطرف (٢/ ٢٣٤)، وروضة العقلاء (ص ٧٢_٣٧)، والاقتباس من القرآن الكريم (٢/ ٧ _ ٩)، وغيرها.

(۱) عبدُ الله بنُ المبارك الحنظليّ المروزيّ الفقيهُ الحافظُ الزّاهدُ ذو المناقب ، جمّع العِلْمَ والفِقْهَ والأدبَ والنّحو واللغةَ والشّعرَ وفصاحةَ العرب مع قيامِ الليل والعبادةِ ؛ وكانَ عبدُ الله واحدَ وقتهِ ، وفيه يقول الشّاعر :

إذا سارَ عبد اللهِ من مرو ليلة فقد سارَ منها نـورُهـا وجمالُهـا إذا ذُكِـرَ الأخيـارُ فـي كـلّ بلـدة فهـم أنجـم فيهـا وأنـت هـلالُهـا _وكان عبدُ الله كثيراً ما يتمثّلُ بهذَيْن البيتَيْن:

 التّعظيم ، حتى إنَّ بعضَ الخطباءِ قد جعلَها مادةً دسمةً لخطبةِ الجمعَةِ ، فألقاهَا على المصلّين الذين هتفُوا بالإعجابِ وكبّروا وسبَّحُوا وهلّلُوا و....

* تقولُ القصّةُ الموضوعةُ المزعومةُ المرصوفةُ المصفوفةُ ، والتي جعلُوا بطلَها وراويها عبدُ الله بنُ المبارك في إحدى حجَّاته (١) أنَّه التقى المرأةَ المتكلّمةَ بالقرآنِ ، وأنَّه روى قصّتَها فقال ما مفادُه ومُحصّله: «خرجتُ مرّةُ منَ المرّاتِ حاجّاً إلى بيتِ اللهِ الحرّام ، وزيارة قبرِ نبيّه عليه الصَّلاة والسَّلام ، وبينما أنا سائرٌ في بعض الطريق (٢) ، إذا أنا بسوادٍ قد

⁽۱) من لطائفِ عبد الله بنِ المبارك ـ رحمه الله ـ أنَّه قد خرجَ مرّةً إلى الحجّ ، فاجتازَ ببعضِ البلادِ ، فمات طائرٌ معهم ، فأمرَ بإلقائهِ على مَزْبلةٍ هناك ، وسارَ أصحابُه أمامَه ، وتخلّف هو وراءهم ، فلمّا مرَّ بالمزبلةِ ، إذ بنْتٌ قد خرجَتْ من دارٍ قريبةٍ منها ، فأخذتْ ذلك الطّائر المّيت ، ثم لفّتْه ، ومن ثمّ أسرعتْ به إلى الدّار.

⁻ فجاء فسألها عن أمرِها وأُخْذِها الميتَة ، فقالت: أنا وأخي هنا ليسَ لنا شي ُ إلّا هذا الإزار ، وليسَ لنا قوتُ إلا ما يُلقىٰ على هذه المزبلة ، وقد حلَّت لنا الميتة منذ أيّام ، وكان أبونا له مالٌ ، فَظُلِم ، وأُخِذَ ماله ، وقُتِل ، فأمرَ ابنُ المبارك بردّ الأحمالِ ، وقال لوكيله: كمْ معك من النّفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عُدَّ منها عشرين ديناراً تكفينا إلى مرو ، وأعْطِها الباقي ، فهذا أفضلُ من حجّنا هذا العام ، ثمّ رجع . (البداية والنّهاية ١/١٨٧).

⁻ وسأله مرّة سائلٌ ، فأعطاه درهماً ، فقال له بعضُ أصحابه: إنَّ هؤلاء يأكلون الشّواء والفَالوذج ، وقد كان يكفيه قطعةٌ ، فقال: واللهِ ما ظننْتُ أنَّه يأكل إلاّ البقلَ والخبزَ ، فأمّا إذا كان يأكلُ الفالوذجَ والشّواء ، فإنّه لا يكفيه درهم ، ثم أمرَ بعض غلمانه فقال: رُدّه ، وادفعْ إليه عشرة دراهم. (البداية والنهاية ١٠/ ١٧٨).

⁽٢) ورد هذا الخبرُ في «روضةِ العُقلاء» على النّحو الآتي: أنبأنا عمرو بنُ محمّد الأنصاري ، حدّثنا الغلابي ، حدثنا إبراهيم بنُ عمرو بن حبيب ، حدثنا الأصمعيّ ، قال: «بينا أطوفُ بالباديةِ ، إذا أنا بأعرابيةٍ تمشي وحدَها على بعيرِ لها ، فقلتُ: يا أمةَ الجبّار ، مَنْ تطلبين؟! فقالتْ: مَنْ يهدِ اللهُ فلا مُضلَّ له ومَنْ يضلل فلا هادي له؛ فعلمتُ أنّها قد أضلّت أصحابَها ، فقلتُ لها: كأنّك قد أضللتِ =

ظهرَ من بعيدٍ ، فتميّزْتُ ذاك السّواد ، فإذا هي عجوزٌ ، عليها درعٌ من صوفٍ ، وخمارٌ من صوفٍ أيضاً ، وكانت تقفُ على قارعةِ الطّريق.

* فدنوتُ منها، وقلتُ لها: السَّلام عليكِ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه يا أَمَةَ اللهِ ،
 فردتْ عليَّ السَّلام قائلة: ﴿ سَلَنُمُ قَوْلًا مِن زَبِ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨](١).!!

فقلتُ لها: يرحمكِ الله ما تصنعينَ في هذا المكانِ الموحش المُقفر؟

قالت: ﴿ مَن يُضَلِلِ ٱللَّهُ فَكَلَا هَادِى لَلْمُ ﴾ [الأعرافُ: ١٨٦] ، فعلمتُ أنَّها ضالّةٌ عن الطّريق وعن أصحابها ، وقد وقفَتْ في هذا المكانِ وحيدةً علَّها تجدُ مَن يهديها إلى طريقها.

فقلتُ لها: ما اسمُكِ يا أَمَةَ اللهِ (٢)؟

قالت: ﴿ وَأَذَكُرُ فِي ٱلْكِئْبِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم: ١٦].

قلتُ: ما اسمُ أبيك يا هذهِ؟ (٢).

قالت: ﴿ إِنَّا آرُسُلْنَانُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ [نوح: ١].

فقلت لها: أي مكان تريدينَ الآن؟

أصحابك؟ قالت: ﴿ فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًا ءَالَيْنَا حُكُمًا وَعِلْمَا ﴾ [الأنبياء: ٧٩]،
 فقلتُ لها: يا هذه ، مِنْ أينَ أنتِ؟ قالت: ﴿ سُبْحَنَ ٱلَذِى آسَرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيَلا مِنَ أَنْ أَنْتِ؟ قالت: ﴿ سُبْحَنَ ٱلَذِى آسَرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيَلا مِنَ أَنْ أَنْتِ أَلْتَ أَلْمَ أَنْ أَنْتُ أَنْهَا مَقْدَسَيّة. ثم يتابعُ القصّة في تشابهِ أحياناً وخلافِ أحياناً أخر. (روضة العقلاء ص ٧٧).

⁽۱) وقد وردَ هذا الخبر في «الاقتباس» على النحو الآتي: قال: «قال بعضُ الرُّواة: قال: خرجتُ حاجًا ، فإذا أنا بامرأة على بعير وهي تتلو: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَاللَمْ مِن مُّضِلًا ﴾ و﴿ مَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَكَلاَ هَادِي لَلْمُ ﴾؛ فقلت لُها: يا أمة الله ، أحسبُك ضالّة.. » ثمّ يتابع الخبر (الاقتباس ٢/٧).

 ⁽۲) لاحظ _ عزیزي القاریء _ هذا التكلّف البارد العجیب ، وهذه التركیبة المهلهلة
 السقیمة؟

قالت: ﴿ سُبْحَنَ ٱلَّذِي آَسَرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَدَرِّكُنَا حَوْلَهُ ﴾ [الإسراء: ١].

فعلمتُ أنّها قد قضَتْ حجّتها ، ومسحتْ بالأركانِ مع مَنْ هو ماسِح ، وهي تريدُ بيتَ المقدس^(۱).

فقلت لها: يا أمةَ اللهِ ، أنْت مُذْ كَمْ في هذا الموضعِ تنتظرينِ؟

قالت: ﴿ ثُلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٠].

فقلتُ لها: _ لاحظْ هنا فَنَّ التّروير _ ما أرى معكِ طعَاماً تأكّلين؟

قالتْ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۞ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْفِينِ ﴾ [الشّعراء: ٧٨ ـ ٧٩].

قلتُ: ألا تريدين الأكْلَ؟

قالت: ﴿ إِنِّي نَذَرَّتُ لِلرِّحْمَانِ صَوْمًا ﴾ [مريم: ٢٦].

قلت: يا أمةَ الله؛ ليسَ معك ماء ، فبأي شيءٍ تتوضئين؟ (٢).

قالت: ﴿ فَلَمْ جَبِدُواْ مَآهُ فَتَيَمَّعُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنَ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيدِيكُم مِّنَ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيدِيكُم مِّنَ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيدُتِمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُم لَعَلَيْكُم تَشْكُرُونَ ﴿ [المائدة: ٦].

فقلت لها: يا هذه ، لعلكِ متْعبَةٌ ، ولا أرى معك زَاداً ، وإنَّ معي بعضَ الطَّعام ، فهل لكِ في الأَكْل؟!

⁽۱) لاحظُ هنا أنَّ المرأةَ قضَتْ حجّها ، وراوي القصّة ذاهبٌ إلى الحجّ ، فهل يحجُّ هذا والنّاس راجعون؟ أمْ أنَّ ناسجَ القصّة فاتَه هذا العيب ، فجاء السَّقط في نسْجهِ!!.

⁽٢) لاحظُ هذا الاستخفاف بالعقولِ في هذه التركيبة العجيبةِ ، لكي يتوصَّلَ ناسجُ القصَّة وحائكها إلى التيمم!!

قالت: ﴿ ثُمَّ أَتِمُوا الصِّيامَ إِلَى الَّيْدِلِّ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فقلت لها: ليس هذا شَهْرُ رمضانَ(١).

قالت: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

فقلت لها: أنتِ تعلمينَ أنَّه قد أُبيحَ لنا الإفطار في السَّفَر ، وقد فعلَ ذلك السَّلفُ منَ الصَّحابة وغيرهم.

قالت: ﴿ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٤](٢).

فقلت لها ـ وقد عجبتُ من أمرِها ـ: يا أمةَ اللهِ ، لمَ لا تكلمينني مثلما أكلمكِ؟!

قالت: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلِ إِلَّا لَدَيْهِ رَفِيتُ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

فقلت لها _ وقد أحببتُ أنْ أعرفَ عشيرتَها _: من أي النّاس أنتِ؟

قالت: ﴿ وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمُ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِيكَ كَانَ عَنْهُ مَسْتُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فقلت: يا هذه ، لعلّي قد أخطأتُ في حقّكِ ، فاجعليني في حلّ ممّا تكلّمتُ.

قالت: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمُّ أَوْهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٩٢].

* وإلى هنا ينتهي هذا الشُّوط من القصَّة المُتكَلَّفَةِ ، وينتهي هذا الحوارُ

⁽١) لاحظْ جهلَ واضع القصّة في قوله: «ليس هذا شهرُ رمضان» ، فهل في أيّام الحجّ يكونُ شهرُ رمضان؟!

⁽٢) إنَّ القارىءَ الحصيفَ يدرك تماماً أن الإجابة بهذه الآية لا تتوافقُ مع سؤال الرّجل! ولكنْ هكذا أراد مخرجُ القصة.

مع هذه المرأة المتكلّمة بألفاظ القرآنِ الكريم ، ولا تحيدُ عن ذلك ، وربما تجيبُ بآيةٍ ، ولو لم يكن الكلام منسجماً!! هكذا يريدُ مَنْ صنعَ هذه القصّة وركّبها ورسمَها ولحّنهَا وغنّاها.

* ثم إنَّ ناسجي القصَّة أرادوا أنْ يتابِعُوا عملَهم ، فجعلوا لها رجلَيْن ، بعد أنْ صنَعوا لها يَديْن قبل قليل؛ والآن فقد أرادوا منَ المرأةِ أنْ تَصِلَ إلى أهلِها وذويها وأولادها ، وجعلوا ذلك أيضاً على لسانِ عبدِ الله بنِ المبارك الذي زعموا أنَّه تابع رواية بقيّة القصّة على النّحو الآتي:

قال عبدُ الله بنُ المبارك متابعاً قصَّة المتكلِّمة بالقُرآن:

«قلتُ لها: يا هذه إنّي مرتحلٌ ، فهل لكِ أنْ أحملَك على ناقتي هذه ، فتدركي القافلة (١).

قالت: ﴿ وَمَا نَفْ عَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعَلَمُهُ اللَّهُ ۗ وَنَكَزَوَّدُواْ فَإِكَ خَيْرَ الزَّادِ النَّقُوكَٰ وَاتَّقُونِ يَكَأُولِي ٱلْأَلْبَـٰكِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

قال عبدُ الله: ولما رأيتُ أنَّ هذه المتكلّمة ترغبُ في الرّكوبِ علىٰ ناقتي ، تقدّمتُ منها ، فأنختُ ناقتي أمامَها ، ثم قلتُ لها: يا أمةَ اللهِ ، تقدّمي فاركبي .

فتقدمَتْ وقالت: ﴿ قُل لِلمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَىرِهِمْ ﴾ [النور: ٣٠](٢). قال عبد الله: فغضضتُ بصري عنها ، وقلتُ لها: اركبي يا أمةَ اللهِ ،

⁽۱) لعلَّ واضعَ القصَّة ومخرجَها نسيَ أنَّه جعلَ ابنَ المبارك في طريقهِ إلى الحجّ ، والآن يريدُ أنْ يعودَ بالمتكلَّمةِ بالقرآن إلى طريقِ بيت المقدس ليوصلَها إلى أهلها ، فمتى يحجّ؟ أمْ كيفَ يسوقُ الرَّواة والأخباريون والقصّاص مثل هذه القَصَص وهم يَسْتَخفُونَ منَ النَّاس؟ ولا حياءَ عندهم فيصدهم عن الكذب!!

⁽٢) لاحظ غض البصر عن العجوز ا ولِمَنْ؟! لعبد الله بن المبارك!!!...

وابتعدتُ عنها قليلاً كيما تستوي فوقَ ظهْرِ النّاقة. ولما أرادتْ أَنْ تركبَ ، نَفَرتِ النّاقةُ ورمَتْها ، فمزقَتْ ثيابَها (١) ، فقالت: ﴿ وَمَآ أَصَبَكُم مِّن تُمْصِيبَ فَي اللّه ورمَتْها ، فمزقَتْ ثيابَها أَعْن كَثِيرِ ﴾ [الشورى: ٣٠].

فقلتُ لها: اصْبِري يا أَمَة اللهِ حتّى أعقلَ لكِ النَّاقة حتى لا تنفرَ مرّةً أخرى.

قالت: ﴿ فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمُنَّ ﴾ [الأنبياء: ٧٩](٢).

* ثمّ إنّي تقدمْتُ منَ النَّاقةِ وأنختُها ، ثم عقلتُها ، وقلتُ لها: اركبي الآن فقد استوثقتُ من عَقْلِ النَّاقة.

* وتقدَّمتِ المرأةُ من النَّاقةِ ، وعَلَتْ ظهرَها ، فلما ركبتْ قامتِ النَّاقة ، وبدأتِ المسير ، فأخذتْ تتلو وهي على ظَهْرها: ﴿ سُبْحَنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَنْذَا وَمَا كُنَّا لَهُمْ مُقْرِنِينَ ۞ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزّخرف: ١٣ _ ١٤].

* وبعد أن استوتِ المرأةُ على ظهْرِ النَّاقة ، أخذتُ بزمامها ، وجعلتُ أسرعُ ، وأصيحُ على النَّاقة كي تسرعَ ؛ فقالتِ المرأةُ : ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُمْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩] (٣).

وقصدتُ في مشيي ، وخففْتُ من سُرعتي ، وجعلتُ أمشي بالنَّاقَةِ

⁽١) لعلَّ واضعَ القصةِ أرادَ أَنْ تتمَّ الحبكةُ في صياغته هذه القصّة القصيرة ، أو هذه المسرحية الصّغيرة ـ إِنْ صحَ التّعبير ـ فجعلَ المرأةَ تقعُ عن النَّاقة ، وتتمزَّقُ ثيابها ، ولكنّه ـ مع الأسف ـ نسيَ أَنْ يستعيرَ لها ثياباً لتسترَ جسْمَها!!!.

 ⁽۲) لاحظ هذه التركيبة العجيبة ، والخلطة الغريبة المريبة!! لكي تتم الكذبة ، ويتم وضع الكلام حسب هوى القُصّاص ، وإنْ لم يكن الكلام في محله المناسب.

 ⁽٣) منَ المُلاحَظ لدى كلّ ذي بَصَرٍ وبصيرة؛ أنّ هذا تعريضٌ بسائقِ النّاقة ، والقارىءُ اللبيبُ يدركُ ذلك من سياقِ الآية ، ولكنّ الناسجَ فاته ذلك!!..

رويداً رويداً حتى لا تشعرَ هذه المرأةُ _ العجيبةُ _ بوعثاءِ السَّفر ومشقّة الطَّريق.

* ولمّا طالَ عليّ المسيرُ ، وكدتُ أسامُ منْ طولِ الطَّريق ، أخذتُ أترنَّمُ بشيءٍ منَ الشّعر كيما أسلّي به نفسي ، وأقطعُ به المسافة ، وهنا هتفتِ المرأةُ وقالت: ﴿ فَاقَرَّءُواْ مَا يَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزمل: ٢٠](١)؛ فقلتُ لها _ وقد غبطتُها على هذه الخصائِلِ الجميلة والحصائِلِ اللطيفة ، والفضائلِ الحسنة _: لقد أوتيتِ خَيْراً كثيراً ، فهنيئاً لكِ ، وزادك الرحمنُ خيراً وحكمة ، فقد بلغتِ الغاية في التّقوى ، باركَ اللهُ فيك يا أمة اللهِ.

قالت: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةُ مَن يَشَآءً ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَانِهُ وَمَا يَذَكُ وَمَا يَذَكُ وَمَا يَذَكُ وَمَا يَذَكُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَكِ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

* وأخذتُ أمشي وأقطعُ الطَّريق ، ولما مشيتُ بها مسافةً ، قلتُ لها: يا هذه ، ألَكِ زوج (٢)؟

قالت: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْعَلُواْ عَنْ أَشْيَآهَ إِن تُبَدَ لَكُمْ تَسُوَّكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠١].

* وعند ذلك سكتُ ولم أكلمُها مُطْلقاً ، وما زلتُ أقطعُ بها الطَّريقَ حتى أدركتُ بها القافلة ، وإذ ذاك لابدَّ منَ الكلامِ معها ، فقلتُ لها: هذه القافلة ، فمن لكِ فيها؟ فقالت: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوْةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٤٦].

فعلمت أنَّ لها أولاداً ، وأنَّهم موجودون في القافلةِ بين النَّاس ، فقلتُ لها: وما شأنهم في الحجّ وأين أجدهُم وكيف؟ قالت: ﴿ وَعَلَامَنتُ وَبِٱلنَّجْمِ

⁽١) لاحظ هذه التركيبة السَّاذَّجة!!.

⁽٢) لاحظ هذا السَّوال السَّخيفَ!! وذلك بعد الحوار المركب المصنوع.

هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النّحل: ١٦] ، وعندها عرفتُ أنَّ أولادَها هم أدلاء الرّكب (١) ، وهم من الماهرين في الطّريق؛ فقصدتُ بها القِبَابَ والعمارات ، فقلتُ: يا أَمةَ اللهِ ، هذه القبابُ ، فمن لكِ فيها من الأولاد؟! قالت: ﴿ وَأَتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النّساء: ١٢٥].

﴿ وَكُلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿ يَنِيَخِينَ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةً ﴾ [مريم: ١٢].

وأخذتُ أنادي بأعلى صوتي: يا إبراهيم ، يا موسىٰ ، يا يحيى (٢).

* وما هي إلا لحظات يسيرة حتى جاءَ شبّان ثلاثة كأنّهُم الأقمار ، وقد أقبلوا ينْسِلُون من هاتيكَ البيوت ، وسلموا على أمّهم وعليّ؛ ولما استقرّ

⁽۱) لاحظ _ عزيزي القارىء _ أن أولادها أدلاء الركب ، ونسوا أمهم في الطريق؛ ولعل ناسج القصة هو الذي نسى ذلك . . إن الكذب حبله قصير!! أليس كذلك؟!

ورد هذا الخبرُ وهذا المقطعُ هنا في «روضةِ العُقلاء» على النّحو الآتي: «فبينما نحنُ نماشيها إذْ رُفعَتْ لنا قبابٌ وحيَمٌ ، فقالت: ﴿ وَعَلَامَتُ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْ مَلُونَ ﴾ ، قال: فلمْ أفطن لقولها ، فقلتُ: ما تقولينَ؟ فقالت: ﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدَلَى دَلُوهُ فلم أفطن لقولها ، فقلتُ: بمن أصوّتُ وبمن أدعو؟ فقالت: ﴿ يَنيَحِيَ خُنِ قَالَ يَنبُشَرُكُ مِنْكَبِي ﴾ ؛ ﴿ يَندَاوُدُ إِنَّا جَعَلَنكَ خَلِيفَةً فِى الْحَبْتَ بَعْنَ الْمَوْتُ وبمن أدعو؟ فقالت: ﴿ يَنيَحِينَ خُلِيفَةً فِى الْحَبْتَ بَقُوقٌ ﴾ ، ﴿ يَنزكَ رِبًّا إِنّا نَبْشِرُكَ بِفْلَالِي ﴾ ؛ ﴿ يَندَاوُدُ إِنّا جَعَلَنكَ خَلِيفَةً فِى الْمَرْضِ ﴾ ؛ قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآليء ، فقالوا: أمّنا ورب الكعبة ، أضللناها منذ ثلاثِ!! فقالت: ﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي آذَهَبَ عَنّا الْحَرَنُ إِنَّ رَبّنا لَغَفُورٌ الْمَلْيَاقِ عَلَى اللّهُ اللهِ اللهِ عَنّا الْحَرَنُ إِنَ رَبّنا لَغَفُورٌ الْمَلْيَاقِ أَلَى أَحَدهم فقالت: ﴿ فَالْمَامَاهُ اللّهِ اللّهِ عَنّا الْمَرْنُ إِنّا أَمْرَتُهُمْ هَالْهُ عِلْهُ فَلْمَامُ اللّهُ اللّهُ اللّهُ فَقَلْتَ : إِنّها أمرتهم أَنْ يزوّدونا ، فَخَاوَوا بخبر وكعْك (روضة العقلاء ص ٧٢ -٧٣) .

ـ بينما وردَ هذا الخبُر من هذه النقطة في الاقتباس: «.. فأشرفتُ على قافلةِ شاميّة تريدُ مكّة ، فأشارتُ بيدها تريدُ ﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ؛ فعلمتُ بأنّها اهتدتْ لمن فقدت ، فقلتُ : لِمَنْ أنادي؟ قالت : ﴿ يَنزَكَرِيَّاۤ إِنَّا نُبُشِرُكَ بِغُلَامٍ ٱسۡمُهُ يَحْيَى ﴾ ، وقالت : ﴿ يَندَاوُرُدُ إِنَّا جَعَلَنكَ خَلِفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ . فناديتُ : يا يحيىٰ ، يا زكريا ، يا داود ، فجاءَ فتيان يتعادُونَ فإذا هم بنوها . . . » . (الاقتباس من القرآن الكريم ١/٨) .

بهم الجلوس؛ توجَّهَتْ إليهم، وخاطبتْهُم قائلةً: ﴿ فَالْعَثُوَّا أَحَدَكُمُ مِنْ اللَّهِ اللَّهِ الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا... ﴾ [الكهف: ١٩].

* وانطلقَ أحدهُم ممتثلًا أمْرَ والدَّبِه ولم يتوقَّف ، وبسرعةِ الرّياحِ الشّرىٰ طعاماً طيّباً ، وجاء بهِ سريعاً ، ثمّ إنّهم أعدّوا الطَّعام ، وقدّموه بين يدي كيما آكلَ معهم ، فقالت لهم: ﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓيَا بِمَا آسَلَفْتُم فِ ٱلْأَيَامِ لَهُ النّالِيَةِ ﴾ [الحاقة: ٢٤]؛ فدعاني أولادُها لأشاركهم الطَّعامَ والشَّراب ، فقلتُ لهم: واللهِ إنَّ طعامكم الآن عليَّ حرام ، ولن يدخل جوفي منهُ شيءٌ ، أو تخبروني خَبَرَ هذه المرأة التي حِرْتُ في أمرِها وأحوالها.

فقالوا: حسَناً أيّها الرّجُل الصَّالح؛ إنَّ هذه أمّنا ، وهي منذ أربعين سنة لم تتكلّم إلاّ بالقُرآن العظيم مخافةَ أنْ تزلّ ، فيسخط عليها الرّحمن (١٠).

* ولكي تتم حبكة القصّة ، بل المسرحيّة وفصولها ، زاد بعضُ النسّاجين والأخباريين هذا الفَصْل ، وهذه الزّيادة غير المعقولة ، وجعلَ للمرأة المتكلّمة بالقرآن نهايةً ووفاةً ثمّ بعد الوفاة رؤيا وأحلاماً ومناماتٍ ؛ ومن العجيب أنّه قد رآها في الجنّة ، ومع وجودها في الجنّة ـ طبعاً لا نعرفُ أي جنّة ـ تتكلّم في القُرآن ، فلنستمع إذاً إلى الفَصْل الأخير والمُلحق بهذه القصّة المُمسرحة . قال راوي القصّة : « . . فلما أكلت هجعت قليلاً ؛ فقلتُ لها : ما شأنُكِ يا أمةَ اللهِ؟! قالت : ﴿ وَجَآءَتَ سَكَرَةُ المَوْتِ بِالْحَقِ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩]؛ فلما ماتَتْ ، رأيتُها في المنامِ فسألتُها : كيف حالك بعد لقاءِ اللهِ؟! فقالت : ﴿ إِنَّ ٱلمُنْقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهَرٍ ﴿ فَيَ فَعَدْ صِدْةٍ عِندَ مَلِيكِ مُقَندِ مِ القمر : ١٤ - ٥٥] (٢).

⁽۱) انظر: المستطرف (۱/۰۱-۵۷)، وجواهر الأدب (۳۷۳/۱-۳۷۴)، وقصص العرب (۱/۰۱۹ ـ ۱۹۲)، مع الجمع والتصرف؛ وانظر المصادر المشار إليها سابقاً.

⁽٢) نجدُ في بعض المصادر نهاية عجيبة للقصة ، فقد جاء في «روضة العُقلاء» ما يلي: =

* وإلى هنا ينتهي هذا المُسلسل عند بعضِ الرُّواة ، أما ابنُ الجوزي ، فقد ذكرَ في "صفة الصَّفوة" قصَّة عابدة لُقِيَتْ في عرفة بمكة المكرمة ، ولكنْ على الرّغم منْ أنَّ هذه العابدة كانت في عَرفة ، إلاّ أنَّه لا يعرفها أحد حتى راوي القصّة لم يعرفها ، وإنَّما كانت تتكلّمُ بالفاظِ القرآنِ الكريم . إذا ، فلنستمع قصَّة العابدة المتكلّمة بالقرآن عند ابن الجوزي ، حيث ذكر أنَّ عبد الله بنَ داود الواسطيّ قال : "بينا أنا واقفٌ في عرفات؛ إذا أنا بامرأة وهي تقولُ : ﴿ وَمَن يُصَلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ أَن اللّه فَا لَهُ مِن الله عنه بعيري ، وقلتُ لها: يا هذه ما قصّتكِ؟

فقالت: ﴿ وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمُ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَتِهِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْخُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

[«]فدنوتُ منها ، فقلتُ: يا أَمَةَ اللهِ ، أوصيني! فقالتْ: ﴿ قُل لَا آلْتَكُكُو عَلَيْهِ آجَرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْيَةُ ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ فَعلمتُ أنّها شيعيّة ، فانصرفتُ ». (روضة العقلاء ص ٧٣).

ـ وفي كتاب «الاقتباس» ، جاءت النّهاية على النّحو التالي: «فأكلتُ ، وخرجتُ ساعةً فقلْتُ: أوصيني ، فقالت: ﴿ قُل لاّ آسَتُلَكُوْ مَلَيْهِ أَجَرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى اَلْقُرْبَيُّ ﴾ [الشورى: ٢٣]؛ فعلمتُ أنّها متشيّعة ، فركبتُ ، وانصرفتُ». (الاقتباس ٢/٩)!!!.

_ وهناك قصص كثيرة جداً تشبه هذه القصة ، ومنها ما جاء في كتاب «نوادر الأخبار» قال: «قال الشّبلي _ رحمه الله _: رأيتُ امرأة في الطّواف وهي تصرخُ وتقولُ: هذا بيتُ ربيّ ، هذا بيتُ سيّدي ، ثم وضعَتْ خدّها على البيتِ وقالت:

الشّوقُ حيّرني والشّوقُ طيَّرني والشّوقُ أَفْلقَني والشّوقُ أَحرقَني والشّوقُ أحرقَني والشّوقُ أحلقني والشّوقُ أطلقني والشّوقُ أسعدني والشّوقُ فرَّق بينَ الجفْنِ والوسنِ ثم سكتَتْ فإذا هي مبتة ـ رحمة الله عليها ـ (نوادر الأخبار ص ١٩٦).

فقلت: حروريّة لا ترىٰ كَلامنًا.

ثمّ قلتُ لها: منْ أينَ أنتِ؟

فقرأتْ: ﴿ سُبَحَنَ ٱلَّذِيّ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَكَرَاهِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَكَرَّكَنَا حَوْلَهُ . . . ﴾ [الإسراء: ١]؛ فأركبتُها بعيري ، وقفلتُ بها أريدُ رحالَ المقدسيّين ، فلمّا توسّطتُ قلتُ لها: يا هذه ، لمن أصوِّتُ؟!

فقرأتُ: ﴿ يَكَدَاهُدُ إِنَّا جَعَلْنَكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿ يَكَرَّكَ رِيَّا َ الْمَثْمُ اللهُ عَلَيْكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿ يَكَنَّكُ بِقُلَّمَ اللهُ عَلَيْكُ إِلَّا نُبُشِيْرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَعْيَى ﴾ [مريم: ١٢]، ﴿ يَنَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ بِقُوَّةً ﴾ [مريم: ١٢].

* فناديتُ: يا زكريا ، يا يحيى ، يا داود؛ فخرجَ إليّ ثلاثةُ فتيان من بينِ الرّجال؛ فقالوا: أمُّنا وربّ الكعبة ضلَّتْ منذ ثلاث ، وأنزلُوها وأكرموني ، فقلتُ لهم: مالَها لا تتكلَّم؟

قالوا: ما تكلمَتْ منذُ ثلاثين سنة مخافةَ أنْ تَزِلَّ»(١).

في المِيْزَانِ:

* لقد قرأنا قصَّة المتكلّمة بالقُرآن ، ولاشكّ في أننا قد استمتعْنَا بها لِطَرافَتِها ، ولكنْ لو وضعْنَا هذه القصّة في ميزانِ الحقّ والعَقْل ، فهل تصحُّ هذه القصّة كاملة ، أم أنَّها صُنِعَت في مصانعِ الأخباريّين والقُصَّاص والمذكّرين؟!

⁽۱) صفةُ الصّفوة (٢٨٦/٤). قال ابنُ الجوزيّ ـ رحمه الله ـ: «هذه امرأةٌ صالحةٌ ، إلّا أنّها لِقِلّةِ علمها ، لم تَدْرِ أنَّ هذا الفِعْل مَنْهِيٍّ عنه ، إلّا أنّها استعملتِ القرآنَ فيما لم يُوضَعْ له. قال ابنُ عقيل: لا يجوزُ أنْ يُجْعَلَ القُرآن بدلاً من الكلامِ لأنَّه استعمالٌ له في غيرِ ما وُضعَ له ، كما لو أرادَ استعمال المصحفِ في الوزنِ به ، أو توسده ، قال: ويُكُرهُ الصَّمتُ إلى الليل ، لأنَّ النّبي ﷺ نهى عن صمتِ يومٍ إلىٰ الليل». (صفة الصّفوة ٤/٢٨٦).

* في اعتقادِنا وتصوّرنا أنَّ قصَّة المتكلّمةِ بألفاظِ القرآنِ الكريم ضَرْبُ مِنَ الأوهام ، وليسَ لها في ميزانِ الشَّرعِ قيمة كبيرة؛ لأنَّه لو كان فيها ذلك ، لألفينا مَنْ هو خيرٌ منها مَنْ سارعَ إلى ذلك ، وفي مقدمتهم حُفّاظُ القرآنِ الكريم منَ الصَّحابة (١) الكرام - رضي الله عنهم جميعاً - ، أو علماءُ التّابعين وفقهاؤهم وأعلياؤهم؛ وقد رأينا في قصّة المتكلّمة بالقُرآن شيئاً منَ التّنظع والتّكلّف والصَّنعة وصفً الكلام ، وأشياءَ أخرى.

* ولعل الذي اخترعها واحد من الذين خُلدوا في السُّجون ، وكان عندهم شيءٌ من الأدب ، فطارَ به خيالُه وركَّبَ هذه التركيبة العجيبة ، وأنشأ هذه المقامة غير المُتناسقة ، وجعل لها بطلاً من المشاهير ، وعمل منها رواية وقصة وواقعة ومسرحيّة يمكن حدوثها ، وتلطّف كيما ينالُ ـ بزعمه ـ كُنْهَ القُلوب وأضالعها ، ويأخذ بمجامع الألباب ، وذلك بأن انتقلَ منْ حالٍ إلى حالٍ ، ومنْ حَدَثٍ إلى حَدثٍ ، لأنَّ النَّفس قد جُبِلَتْ على محبّةِ التّحوّل ، وطُبعتْ على إيثارِ التَّنَقُل .

* ثم إنَّ هذا النَّسَاجَ الوضَّاعَ الذي لم يُحكمْ بين اللحمة والسَّداة ، وطَّأَ للقصّةِ توطئةً تلفتُ الأنظار نوعاً ما ، بحيثُ يقفُ السَّامع على أسماءِ أشخاص مشهورين من مثل عبدِ الله بن المبارك ، أو الأصمعيّ ، أو الواسطيّ ، ومن ثم لا يشكُّ السَّامع أو القارىء بالخبر ، ثمّ عرَّجَ على مكانِ

⁽۱) جمع أحد العُلماء الأدباء أسماء حفّاظ الصَّحابة للقُرآن الكريم ونظمَهم في قولَه: لقد حفظ القرآن عَهْد نبيّنا ثمانية عن سيرة الحق ما مانوا أبييٌّ أبو المدَّردا معاذ عبادة تميمٌ أبو زيد وزيدٌ وعثمانُ (لطف السَّمَر ١/٢٠).

والثّمانية هم: أُبِيُّ بنُ كعب ، وأبو الدّرداء عُويمر ، ومعاذُ بنُ جبل ، وعبادةُ بن الصّامت، وتميمُ الدّاري ، وأبو زيد هو ثابت بن زيد ، وزيد بن ثابت ، وعثمان بن عفان ، ولاشكّ بأنَّ هناك غيرهم.

الحادثة ، فكان مرّةً في الطَّريق ، ومرّةً في الأراضي المقدسة ، ثم إنَّه ختمَ رواية المتكلّمة بالقرآن بخاتمة ترضي أذواقَ العامّة بحيث تُرضي نفوسهم ، وترتاحُ قلوبهم ، بعد أنْ ملاً أذانَهم بمعسولِ الكلام عن هذه المرأةِ الأعجوبة.

* ترى هل توجدُ نساء بهذا المستوىٰ في المشرقِ ، أو المغرب؟! بل هل يستطيعُ إنسانٌ أن يمضيَ حياتَه جميعها في التّحدّثِ بألفاظِ القُرآن الكريم؟!

* إنَّ الإسلام دينُ علم وعملٍ وعَقْلٍ وذوقٍ وجَمالٍ وكمالٍ ، وليس دين قولٍ وفلسفةٍ وآراء . . . وأرجو من القُراءِ الكرامِ الأفاضل ـ الذين أحببتُهم والذين هم رصيدي الحقيقيّ في هذه الحياة ـ ألاّ يغضبُوا وألا يحزنوا وألا يأخذَ على خاطرِهم منَّا إذا لم نصدقْ أمثالَ هذا القصصَ التي لا تزيدُ في الدِّين شيئاً ولا تنقصُ ، بل هي لونٌ من ألوانِ التَّسليةِ وقطع الأوقاتِ بالأسمارِ والأحاديث؛ أمّا قراءةُ القرآنِ الكريم فإنّها من أعظمِ القُرباتِ إلى اللهِ؛ ولا مانع أنْ يقتبسَ الإنسانُ في كلامهِ في الشَّعر أو النَّثر آياتٍ من القُرآن الكريم؛ وهاهي كتُب المصادر ودواوين الشّعراء تملأُ الأسماع بألوان الاقتباسِ من القُرآن الكريم، والحديثِ الشَّريف ، وها نحنُ أولاء مع فقرة لطيفةٍ من الاقتباس نزيّن بها جِيْد هذه الموسوعةِ اللطيفة من نساءِ المشرقِ العربيّ . . .

وقفَاتٌ لطيْفَةٌ مَع الاقتِبَاسِ:

* هذه وقفاتٌ بين رياضِ الأدبِ نقتطفُ منْ أزاهِرها الملونةِ ، ما تزيّنُ به موسوعتنا ، وننتقي من الاقتباساتِ الجميلةِ التي أُولعَ بها الشَّعراءُ قديماً وحديثاً ، ونحنُ مرسلو القولَ في بعضٍ منها.

* قال بعضُ الشُّعراء في الصَّلاةِ على النّبي عَلَيْ مُقتبساً:

صَلَّى الإلهُ على ابْنِ آمِنةَ الذي جاءَتْ به سَبْطَ البَنَاتِ كَريما قُلْ للذين رَجُوا شَفَاعة أَحْمدِ و﴿وصَلُوا عليه وسَلِّموا تسليما ﴾(١)

* وقال بعضُ أدباءِ العُلماءِ مُقتبساً من سورةِ الحُجرات:

ظُنَّ بِالنَّاسِ جميلً واتْبَعِ الخَيْرِاتِ تَسْمو وَالْبَيْعِ الخَيْرِاتِ تَسْمو وَاجْتَنَ بِالظَّنَّ الْأَلْقَ الْأَلْقَ الْطَّنَّ الْأَلْقَ الْمُ

* وقالَ في الاقتباسِ من الآيةِ السَّابقة نفسها:

عَاذِلَ عَشْقَ عَي يَنَ مَّ وَالْ عَشْقَ عِي يَنَ مُّ فَالْ رَأَى عَشْقَ عِي يَنَ مُّ فَا فَا عَشْقَ عِي يَنَ م ظَلَنَ بِي مَا هُوَ فِي فِي فِي فَانَّ بِعِضُ الظَّنَ إِنْ عَنْ الْمُ

يا غَــزالاً قَــدْ دهَــانــي لــم يكــنْ لــي منْــه علْــمُ لا تظنــــنْ ظــــنَّ سُـــوءِ ﴿إِنَّ بعــض الظَّــن إثــم﴾(٢)

* وقال أحدهم في امرأةٍ سفيْهةٍ سيئةِ الخُلُق والخَلْق:

مَـرْأَةٌ ذَاتُ سُـوءِ خَلْـقِ وخُلـقِ بعلُهـا دونَ سـائِـرِ الخَلْـق يُظْلَـم فَهـيُ نـارٌ والقُـربُ منهـا عـذابٌ ﴿رَبّنا اصْرِفْ عَنّا عَذَابَ جهنَّم﴾(٣)

* وقال ابنُ الرّومي في الاقتباسِ من سورةِ إبراهيم:

لئن أخْطَأْت في مَدْ حكَ مَا أخطأْتُ في منعي لئن أخْطأتُ في منعي لقد أنزلتْ حَاجَاتي ﴿بِوادٍ غيرِ ذي زَرْع﴾(١)

⁽١) اقتباس من سورة الأحزاب [آية: ٥٦].

⁽٢) اقتباس من سورة الحجرات [آية: ١٢]؛ وانظر: شذرات الذهب (١٠/ ٥١٢).

⁽٣) اقتباس من سورة الفرقان [آية: ٦٥]؛ وانظر: شمامة العنبر (ص ١٣٠).

⁽٤) اقتباس من سورة إبراهيم [آية: ٣٧].

* وقال أبو القاسم بنُ الحسن الكاتبيّ مُقتبساً من سورتَي آل عمران ويوسُف:

إِنْ كُنتَ أَزمعتَ على هَجْرِنا مَنْ غيرِ مَا جُرم: ﴿فَصْبر جميل﴾ (١) وإِنْ تبدّلَدَتَ بنا غيرَنا فَ مُرْحَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل﴾ (٢)

* وما أحسنَ قول مُجيرِ الدّين بنِ تميم في وكيلٍ بدارِ القاضي يدعى بالعزّ:

لا تَقْـربِ الشَّـرعَ إذا لـم تكُـنْ تخبــرُهُ فهــو دقيــقٌ جَليــلْ ووكّــلِ العِــزَّ الــذي وجْهُــه علـىٰ نجـاحِ الأمْـر أقـوىٰ دليـلْ ولا تَمِــلْ عنْـه إلــى غيــرِه فـــ ﴿حَسْبنا اللهُ ونعـم الـوكيـل﴾(١)

* ومن الاقتباسِ الجميلِ قول أبي جعفر الإلبيري:

يَا صَاحبَ المَالِ أَلَمْ تَسْتَمعْ لقولهِ ﴿ماعندكم يَنْفَد﴾(٣) فاعْمَلْ به خيراً فواللهِ ما يبقى ولا أنت به مُخلّد * وقال أيضاً:

إنْ شئتَ أنْ تجدِ العدوَّ وقد غَدا فاعْملْ كَما قالَ الخَبيرُ بخلقِهِ

إذا شئت رزْقاً بلا حسْبة فلُذْ بالتُّقى واتَبِعْ سُبُكَه وتَصْديتُ ذَلكَ في قَولهِ ﴿ وَمَنْ يَتْقِ الله يَجْعَلْ لَه ﴾ (٥)

لكَ صاحِباً يُولي الجميلَ ويحْسِنُ في قولهِ ﴿ادفعْ بالتي هي أَحْسَنُ﴾ (٤)

⁽١) اقتباس من سورة يوسف [آية: ١٨].

⁽٢) اقتباس من سورة آل عمران [آية: ١٧٣] ، وانظر: معاهد التنصيص (٤/ ١٠٩).

⁽٣) اقتباس من سورة النحل [آية: ٩٦] ، وانظر نفح الطيب (٣/ ٤٣٤).

 ⁽٤) اقتباس من سورة المؤمنون [آية: ٩٦] ، وسورة فصلت [آية: ٣٤].

⁽٥) اقتباس من سورة الطلاق [آية: ٢] ، وانظر: نفح الطيب (٣/ ٤٣٥).

* و له:

لا يُقْنِطَنَّ كُ ذَنْ بَكُ ذَنْ بَكُ فَ اللهُ قَدُ قَدَّ اللَّهُ قَدُ قَدُ اللَّهُ قَدُ لَا يَاللَّهُ قَدُ اللَّهُ اللهُ عَبِي اللهُ الل

* وقال الأوحديّ :

قد كانَ مِنْكَ عظيهم وهدوَ الجَدوادُ الكَدريم أنَا الغفورُ الدرّحيم﴾(١)

* ومنَ الاقتباساتِ الجميلةِ قول خليل البصيريّ :

لَستُ أهوىٰ سِواكمُ اليومَ حتّى يا لقومِ من معشَـرٍ عتّفُـونـي

* وله أيضاً هذا الاقتباس الرّائع:

يا مُبتلَى بذوي المظَالم لا تهنْ واستنصرنَّ اللهَ يهـدِكَ عـاجِـلاً

* وله أيضاً:

ذَروا العصيانَ إخوانَ المعاصي يَــرى بــالليـــلِ مــا بيّتُمــوهُ

***** وله:

قال لي اخذَرْ رقيباً قصاري

أطلب الموتَ في هَـواكـم حثيْثًا ﴿لا يكـادونُ يفقَهـون حـديثـا﴾(٣)

واصبـــرْ فـــــاِنَّ الله كــــانَ بَصيـــرا ﴿وكفى بربّك هادياً ونصيرا﴾(٤)

فمــولاكــم عــزيــزٌ ذو انتصَــار ﴿ويعلمُ ما جرحْتُم بالنَّهار﴾(٥)

ســؤلــهِ أَنْ يكيــدنــا ويحيْفــا

⁽١) اقتباس من سورة الحجر [آية: ٤٩]. وانظر المصدر السابق (٣/ ٤٤٠).

⁽٢) اقتباس من سورة الأنعام [آية: ٧٩].

⁽٣) اقتباس من سورة النساء آية (٧٨).

⁽٤) اقتباس من سورة الفرقان آية (٣١).

⁽٥) اقتباس من سورة الأنعام آية (٦٠).

قلتُ دَعْني منه فلستُ أبالي ﴿إِنَّ كِيَدِ الشَّيطانِ كَانَ ضعيفا﴾(١)

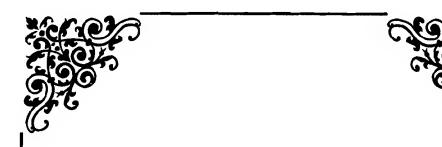
* والاقتباسُ إذا كانَ من آيةٍ أو من آيتَيْن لا بأسَ به ، وأما سورة بكمالِها ، ففي هذا من إساءةِ الأدبِ ما فيه .

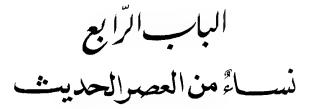
* وهذا بابٌ طويل جدّاً ليس له نهاية ، وقد أفاضَتْ كتبُ البلاغةِ والأدب بذكْرِ كثيرٍ من الاقتباس ، وقد اكتفينا ببعضِ النُّتَف الجميلة في هذا المجالِ الذي استطردنا فيه بالحديثِ، بعد أن عشنا زَمناً مع المتكلّمة بالقرآن.

* اللهم وفقنا لتلاوة كتابك الكريم آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار ، واجعلِ القرآنَ ربيع قلوبنا ، واجعلنا نتخلّق به ، وأدخلْنا برحمتك في عبادكَ الصَّالحين.

* * *

⁽١) اقتباس من سورة النساء آية (٧٦).





زىنىپ بنت يوشف فوّاز ودا دېنت مخررسى كاكىنى









زينب بنت يوسُف فوّاز

- * أديبة ، فاضلة ، لها مشاركة حسنة في الأدب والشعر والنثر ،
 وبراعة في العلم والمعرفة .
- * لها مؤلفات متنوعة في التراجم والسير ، والمقالات ، والرسائل ، والرواية ، والقصة ، والمسرح ، والشعر.





مَنْ هَذهِ المَرْأَة؟

* كثيرٌ منْ أهلِ القَلَمِ والبَيانِ؛ واللَّسَنِ واللَّسانِ؛ سَمِعُوا بهذهِ المرأةِ ، ولكنّهم لا يعرفُون عنها إلاّ النَّزْرَ اليسير؛ وهذا النَّزْرُ فيهِ بعضُ الأَغَاليُط التي جعلَتْ كثيراً منَ المُتأدّبينَ يظنُون بأنَّها ليسَتْ من نساءِ المشرق.

* وعلى الرّغمِ منْ أنَّ هذهِ المرأةَ منَ المُعَاصراتِ ، بيد أنَّ شَطْراً من آثارِها قد تلاشى بين طيّاتِ الزَّمنِ ، وأَرْدَانِ خَبايا الزَّوايا ، وبعضُه قد هُضِمَ في بُطونِ المجلات التي يصعُبُ العُثورُ عليها الآن؛ بل وجدتُ كثيراً منَ العَناء في جمعِها.

* وهذه المرأةُ واحدةٌ ممّن نبغْنَ في نهايةِ القرن الماضي وأوائلِ القرنِ العشرين ، في الوقتِ الذي نَبَغَ ونَبَهَ فيه عباقرةُ العِلْمِ والمعرفةِ والأدبِ في العالَم العربيّ؛ ولكنَّ هذه المرأةَ استطاعَتْ أَنْ تقارعَ الأعلياء ، وتسطّرَ العالَم عالياً في الفضاء ، لتكونَ من شهيراتِ النِّساء ، ومنْ نابهاتِ العَصْر اللواتي برزْنَ في المعرفةِ والأدب.

* ومنَ العجيبِ حقّاً أنَّ هذه المرأة قد ترجمتْ لِنِساء كثيراتٍ منْ مختلفِ العُصور والبُلدان ، ولكنَّها لم تتركْ ترجمةً لِنَفْسِها ، ولعلَّها كانَتْ تخشى أنْ ترى في ذلك شيئاً منَ الزَّهْوِ والإعجابِ الأدبيّ ، أو لأنَّها لَمْ تنشأْ في الحِلْيةِ تنعمُ بالدِّيباج والحليّ والحُلل.

* غير أنَّ الأصواتَ النِّسائية التي بدأتْ تخترقُ الفضاءَ الأدبيَّ في عصرِها قد امتزَجَتْ بالحريّةِ ، وأخذتِ الهمسَاتُ النَّسويّةُ تتبلُورُ لِتُصبحَ كلمات لها أثرها في الوسَطِ الأدبيّ والعِلْميّ ، وأخذتِ الآثارُ الأدبيّة النسائية تظهرُ جليّةً على صفحاتِ المجلّات والصُّحف ، وقد بلغ عددُ المجلّات والصُّحف ، وقد بلغ عددُ المجلّات والصُّحف ، وقد بلغ عددُ المجلّات والصُّحف ، مطلع القرنِ العشرين أكثر من أربعين مجلّة

وصحيفة ، وقد تضمَّنَتْ هذه الصُّحفُ والمجّلاتُ كثيراً من المقالاتِ الأدبيّة ، وشيئاً منَ الشّعرِ والنَّشرِ والنَّقدِ والمُعَارضاتِ والمناظراتِ والمواضيع التي تتعلَّق بالمرأةِ وشؤونها.

* ومن أشهرِ تلكم المجلات النَّسوية وأوّلها في الوطنِ العربيّ هي مجلّة «الفتاة» التي صدرت عام (١٨٩٢ م) وتوقّفَتْ عام (١٨٩٤ م) وخلال هذه الفترةِ البسيطةِ كَتَبَ بهذه المجلّة عددٌ منْ مشاهيرِ الكُتَّابِ والكاتبات ومنهم ضيفتُنا اليوم.

* ثمَّ صدرت مجلَّة «الأنيس» عام (١٨٩٨ م) ، ثمَّ صدرتِ مجلَّة «المرأة الجديدة» في بيروت ، وظلّت سبع سنوات كوامِلَ ثمّ توقَّفت.

* وبعد ذلك أخذت كثيرٌ من المجلّات النّسويةِ تبرزُ إلى ساحةِ الثّقافةِ في العِقَديْن الأوّلَيْن منَ القرنِ العشرين ، ومن هذه المجّلات التي أخذَتْ مساحةً واسعةً في ميدانِ الصَّحافة النَّسويّة المجلّات الآتية:

١ _ «المرأة» صدرتْ عام (١٩٠١ م).

٢ ـ «السَّعادة» صدرت عام (١٩٠٢ م).

٣ ـ «شَجرة الدُّرّ» صدرتْ عام (١٩٠١ م).

٤ ـ «الخِدر» صدرَتْ عام (١٩١٢ م).

٥ ـ «فتاة لُبنان» صدرَت عام (١٩١٤ م).

٦ _ «فتاة النيل» صدرت عام (١٩١٣ م).

٧ ـ «منيرفا» صَدَرَتْ عام (١٩١٦ م). وكانت أحسن مجلّة في الشَّرق العربيّ ، وكان ينشرُ فيها أدباء مشاهير من مثل: مصطفى صادق الرّافعي ، وعمر فاخوري ، وأمين الرّيحاني وغيرهم.

٨ - «المرأة السورية» صدرت عام (١٩١١ م).

- ٩ ـ «العروس» صدرت عام (١٩١٠ م) ، وغيرها كثيرٌ جدّاً.
 - * والآن مَنْ هذه المرأة وما بطاقتها الشّخصيّة؟!
- * في الصَّفَحةِ الأولى من كتابِها «الدُّرُ المنثور في طبقات ربّاتِ الخُدور» نقرأُ بطاقتَها على النَّحو الآتي: الأديبةُ الفاضلةُ والبارعةُ الكاملةُ السَّيِّدةُ زينب بنت علي بن حُسين بن عبد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسُف فوّاز العَامليّة (١).
- * وفي قريةٍ تُدعى «تَبْنين» _ وهي من قُرى جَبَل عامِل _ كان مولدُ زينب فوّاز وذلك في عام (١٨٤٦ م)(٢) ، وذكر مُحسنُ الأمين أنَّ مولدها في تبْنين حوالي (١٢٦٢ هـ).
- * ومنَ المعروفِ أنَّ قرية تبنين من القُرى التَّابعة لِصَيدا _ جنوب لبنان _ ، وكان مولدها في أسرة بسيطة تعيشُ حياةً هادئةً في تلكَ القرية الصَّغيرة ، ولم يأبَه أحدٌ لهذهِ الفتاة التي وُلدَتْ في منتصفِ القرنِ التّاسع عَشَر في بيئةٍ لا تهتم بأمورِ العلْمِ ، بل كانت نسبة الأميّةِ النَّسويّة تصلُ إلى نسبةٍ عاليةٍ جدّاً ، فلا تكاد تجدُ امرأة كاتبة أو قارئة ، في حين نجدُ نسبة الأميّة أقلّ بين الرّجال.

نشأتُهَا وَشَذَرَاتٌ مِنْ أَخْبَارِهَا:

* في تلكَ القريةِ الهادئةِ «قرية تَبْنين» كانت نشأةُ زينب فوّاز ، ولم تكنْ

 ⁽۱) الذرّ المنثور (ص ۱)، وأعلام النّساء (۲/ ۸۲ ـ ۹۱)، وأعيان الشّيعة (۷/ ۱۳۶ و ۱۳۵ و ۱۳۵)، وأديبات عربيّات (ص ۷۳ ـ ۷۸)، والأعلام (۳/ ۱۷)، وتاريخ آداب اللغة العربية (٤/ ۲۹٥)، ومعجم المؤلفين (٤/ ۱۹۸ و ۱۹۹) وانظر مصادره، ومصادر الأدب النّسائي (ص ۲۳۷ ـ ۲۳۹).

 ⁽۲) ذكر عمر كحالة أنَّ مولدَها سنة (۱۸٦٠) ، وذكر صاحب كتاب أديبات عربيات أنّ مولدها في سنة (۱۸۵۰ م).

أسرتُها بادىء الأمْرِ منَ الأسرِ ذات الصِّيتِ البعيد ، بل كانت أسرةً فقيرةً متواضعةً ، تعيشُ كغيرِهَا منَ الأُسَرِ الأخرى حَياةً ريفيّةً بسيطةً ، بيد أنَّ مخايلَ الذّكاء كانت تنمُّ عنِ الفتاةِ الصَّغيرة زينب ، ولكنَّ ذلك لمْ يلفتْ نظرَ أسرتها ، إنَّما حَسبوَها كغيرِها من بناتِ عَصْرِها ، وألحقوها للخدمةِ عند الأُسْرةِ الأسعديّة.

* وكان لآلِ علي الصّغير وقتذاك حُكْمُ قسمٍ منْ جبلِ عامل ، ومقرّ إمارتهم قلعة تبنين ، وحاكمُهَا يومئذ علي بك الأسعد.

* وفي داخل هذه القلعة قضَتْ زينبُ شَطْراً من صباها ، وما لبثتْ زينبُ أن استرعَتِ انتباهَ فاطمة بنت أسعد الخليل زوجة علي الأسعد ، ولاحظتْ فاطمةُ فِطنة زينب فوّاز ، ولفَت نظرُها ذكاءَ هذه الصَّبية التي تحبُّ العِلْمَ والمعرفة ، فحدَبَتْ عليها ، وأولتها كُلّ عناية ، فقد كانت فاطمةُ هذه أديبة محبّة للعِلْم ، وكان لها مشاركة حَسنةٌ في الأدبِ والشَّعرِ والنَّيرِ ، وبراعةٌ في العلْم والمعرفة ؛ وبدأتِ السَّيِّدةُ فاطمةُ أسعد تهتمُ بزينبَ فوّاز ، وأخذتْ تعلمها القراءة والكتابة واللغة العربية ، إذ اللغة العربية لغةٌ شريفة ، وهي سيّدةُ لغاتِ العالم ، وهي أغنى لُغاتِ الدُّنيا ، اصطفاها اللهُ لتكونَ لغة كِتابهِ ورسولهِ وشريعتهِ ، واختصَها بأسرارٍ وأساليبَ لم توجدْ في غيرِها منَ اللّغَاتِ .

* ويبدو أنَّ السَّيِّدةَ فاطمة أُعْجِبَتْ بهذه النَّابهة التي راحتْ تلتهمُ المعرفةَ التهاماً ، فشجَّعَتُها على طلَبِ العلْم وحُبّه ، وكانتْ فاطمةُ ترى أنَّ الفتاةَ تكونُ ذات شأْنِ إذا كانت كما قالَ الرّاجز:

فَضْلُ البَنَاتِ الشُّغُلُ والتَّطرينُ ومَنْ حَوَّتْ عِلْماً بِهِ تَفُوزُ فَي البَنَاتِ الشُّغُلُ والتَّطرينُ م مِنْ جنْسِهِ نَّ والحيَا يُرامُ في سَائرِ الأَحْوالِ الاحتِشَا م مِنْ جنْسِهِ نَّ والحيَا يُرامُ * ولقد خدمتِ السَّعادةُ زينبَ فوّاز في البيتِ الأَسْعَديّ الذي كان

يحتوي خِزَانةً كبيرةً منَ الكتُبِ والمخطوطاتِ النَّادرة ، فجعلتْ زينبُ هذه الخزانةَ شُغْلَها الشَّاغل ، حيث شُغِفَتْ بالقراءةِ والمطالعةِ ، والبحثِ والغوصِ وراءَ العِلْمِ والمعرفةِ ، فاقتنصَتْ كُنوزاً عظيمةً منَ المعارفِ رفدَتْ بها التُّراثَ النَّسويَّ ـ كما سنعرفُ ذلكَ إنْ شاءَ الله _.

* وظلَّتْ زينبُ ملازمةً لِنِساءِ آل الأسعد حيناً من الدَّهرِ ، ولا سيّما فاطمة أسعد الخليل التي استفادَتْ منها كثيراً ، والتي وصفَتْها زينبُ بقولها عندما ترجمَتْ لها: «كانت ذات عقْلِ وفطنةٍ ونباهةٍ وكياسةٍ ، فحفظتِ القُرآنَ العظيمَ ، ودرستِ النَّحوَ والصَّرف والبيانَ حتى فاقَتْ نساءَ عَصْرِها ، وأهلَ جِلْدتها ، فذاعَ صِيتُها في الآفاق . . »(١).

* وقالَتْ عنها أيضاً ما مفادُه: «كانت محسنة إلى الفقير ، ومُعينَة للمسكين ، وعائدة للمريض ، وكان شقيقُها يعتمدُ عليها في بعضِ الآراء ، على الرّغم من صِغَرِ سِنّها. . »(١).

* وتمضي الأيّامُ بزينب فوّاز وهي تتولى خدمةَ الأسرةِ الأسعديّة ، وتتحلّى بحُلى الآداب من خزانةِ كتبهم الكبيرة ، ثمّ اتصلَتْ زينب بأخي فاطمة الأصغر ، وهو خليلُ أسعد ، وذلك في بلدة الطّيّبة ؛ وكان قد اشتدّ عودُها وبلغَتْ مبلغَ النّساء ، ودخلتْ مبدانَ الحياةِ الحقيقيّ ، فتزوجَتْ من رجلٍ من حاشيتِه كان يعملُ صَقَّاراً عنده _ وهو الذي يتولّى أمْرَ الصُّقور التي يضطادُ بها _ ، كما كانَ رئيسَ سُوّاسِ في قلعةِ تَبْنين ، ومن رجالاتهِ ، وكان يُدعى محمّد حمود فوّاز _ ولعلّه كان أحدَ أقاربها _ ، بيد أنَّه كان كبيراً في السِّنّ ، قد اشتعلَ رأسُه شيباً ، بينما اشتعلَ قلبُ زينبَ بالحُسَرة على هذا الزَّواجِ غيرِ المتكافىء ، فلم تمكث معه زمَناً طويلاً ، ولم تمتزجُ روحُها الزَّواجِ غيرِ المتكافىء ، فلم تمكث معه زمَناً طويلاً ، ولم تمتزجُ روحُها

⁽١) الدر المنثور (ص٢٦٦ و٤٢٧) بشيء من التصرف.

بروجِهِ ، إذ الفارقُ والتَّفاوتُ كبيرٌ بينهما ، فهي أديبةٌ ذاتُ شعورٍ مرهَفٍ ، ومستوى علمي رفيع ، وهو صقّار ليس له في صناعة الأدبِ يدٌ ولا مَيْلٌ ، فطلَّقَها؛ وفارقها.

* وقد وصف صاحب مجلّة العرفان هذا الزَّوج لمَّا رآهُ فقَال: «رأيتهُ منذ خمس عشرة سنة في دار كامل بك الأسعد ، وهو يومئذ في سنّ السّبعين ، وأخبرنا أنَّ هذا الخادم الشَّيخ تزوَّج بزينب فواز ، ثمّ طلَّقها لعدمِ امتزاج طبيعتهما وتباعدِ أخلاقهما»(١).

* وتحدَّث أحمد غارف الزّين عن هذا الزَّواج الزّيني الفوّازيّ فقال:
البالطَّبع لم يكنِ الفَشَلُ فَشَلَها هي ، وإنّما فَشَلُ مجتمعِها الذي عاشَتْ فيه ،
الخيف لَمثلِ هذه الشَّابّة وقد التمعتْ في أفق تفكيرها معالمُ الوعي والإدراك
أن تعيشَ مع رجلٍ أُميّ بينَه وبينَها تفاوتٌ كبيرٌ في المُستوى الفكريّ
والثقافي؟! وأينَ لِمثْلِ هذه الزَّوجة أنْ تلتقيَ مع زوج لا يتسعُ أُفْقه لطموحاتِها الأدبيّة والفكريّة ، وتطلّعاتها الإنسانيّة البعيدة في عَصْرٍ كعصرها الأدبيّة والفكريّة ، وتطلّعاتها الإنسانيّة البعيدة في عَصْرٍ كعصرها الأدبيّة والفكريّة ،

* ولعلَّ هذا الزَّواجَ الفاشلَ قد أثَّر في نفسِ ونفسيّةِ السَّيدة زينب فوّاز ، فكتبَتْ في «رسائلها الزَّينبيّة» بعض الخواطرِ عنِ الزَّواج غيرِ النَّاجح ، وعن تمادي الزَّوج ونفوره ، وفتوره عن شريكة حياته فتقول: «ماذا تؤثّر آدابُ المرأة وحسنُ سياستِها في نَفْس الرّجُل السّيىء الأخلاق؟! فالمرأة إذا اقترنَتْ بالرّجُل السّيىء ، وأوقفتْ قلبَها عليه ، وسلّمَتْ أمرها إليه ، واجتهدَتْ في مرضاتِهِ ، فلا ترى منه إلّا الفتور ، والتّمادي في طريقِ اللهو

⁽١) أعيان الشّيعة (٧/ ١٣٤).

⁽٢) انظر: زينب فواز (ص ٥٥) لزينب بحبوح.

والغرور ، واتباع خطّة الشّهوات والشُّرور ، فتصير كمن كتَبَ على صفَحاتِ الماء ، أو تعلَّق بالهواء ، فتندم من حيثُ لا ينفعُ النَّدم ، ويصعُب الخلاصُ بعد رسوخِ القدم ، وحينئذ يلازمُها الحُزْنُ الذي لا ينقطعُ إلاّ بانقطاعِ التَّواصل ، وإذا كانتِ الحالُ كما وصفت ، فَلِمَ لا تفضل حالتها الأولى على قرين الشُّوء»(١)؟.

* وهكذا فضّلتْ زينبُ فوّاز أنْ تحتفظَ بأنوثتها ومشاعرِها ، لِتُحلّقَ في آفاقِ العِلْمِ والمعرفةِ ، وقد كانت ترنُو إلى رجلٍ يحفظُها ويقدّرُ مواهبها ، إذ:

حِفْظُ الأُنـوثَـةِ فـي يَـدي رَجُـلِ لا العِلْـمُ يحفَظُهَـا وَلاَ الحُجـبُ * ولكنَّ حظَّ زينب فوّاز لم يكُنْ مُوفّقاً في هذا الزَّواجِ الأَوّل ، فكان الفِراق.

* وتروي الأخبارُ التي وصلَتْ إلينا عن زينب فوّاز أنَّ هذا الفشلَ في الزَّواج لم يقعدُها عن طلَبِ المعالى ، وطلبِ المعرفة والعلْم ، ولعلَّ هذه التّجرِبة الفاشلة قد زادَتْها طموحاً نحو المعالى ، بيد أنَّ ظروفَها وقتذاك كانت مضطربة ، وقد واجهتْ زوَاجاً جديداً من قريب لها ، وحاول إكراهَها وإرغامَها على الزَّواج منه ، فصدَّتْ عنه وصدَّتْه ، فحاول أنْ يختطفها ، لكنّها تخلَّصَتْ منه بأعجوبة ؛ إذ تمكَّنَتْ من السّفرِ إلى مصْر بمساعدة أخيها محمّد على فوّاز ، ويُقال: إنّها سافرت مع أسرة يوسُف حمدي يكن المِصريّة ، وهناك بدأتْ زينبُ رحلة حياة جديدة ، ترى ما مراحلُ وصِفاتُ هذه الرّحلة المصريّة ؟! هذا ما توضحه السّطورُ التّبات ، وتفصحُ عنه الفِقْرات الآتيات .

⁽١) المرجع السابق نفسه (ص ٥٦).

زَيْنَبُ والرَّحْلَةُ المِصْرِيَّةُ:

* منذ أنْ حطّتْ زينبُ فوّاز رحالَها في مصْرَ ، وألقت عصَاهَا واستقرَّ ، النّوى ، تألَّقَ مجدُهَا ، إذْ أبدَتْ هنالك ذكاءً خارقاً ، ووعياً شامِلاً للثَّقافةِ والمعرفةِ ، وقد لفتَتْ بِنَباهتِها وذكائِها نظرَ حسَن الطُّويْراني (١) الذي تتلمذتْ على يبديهِ ، وأخذتْ عنه علومَ العربيّة كالصَّرفِ والبَيان والعَروض ، كما تلقَّتْ عنه دُروساً في التَّاريخِ وفي التَّراجم.

* ولما كانتُ تطلّعاتها أوسعَ من ذلك ، فإنّها طلبتِ العِلْمَ من أساتذة آخرين ، فقد تلقّتُ علومَ النّحو والقواعدِ والإنشاءِ عن الشيخِ محمّد شبلي ، وعن الأستاذ محيي الدّين النّبهاني.

* وظلّت زينب فواز عاكفةً على التّحصيل وعلى الدَّرسِ ، حتى اشتدَّ عودها ، وشبّتْ عن الطَّوق ، وغدا قلمُها يجري بين أناملِها مِطْواعاً سيّالاً جوّالاً بين أزاهرِ رياضِ فِكْرِها ، وبين أنداءِ خطراتها الأدبيّة والشعريّة والاجتماعيّة ، وبذلك حقَّقَتْ زينب فوّاز آمالَها وأحلامَها العلميّة

⁽۱) حَسَن حُسني حُسين الطّوّيْراني ، شاعرٌ منشيءٌ ، تركيُّ الأصْلِ ، مستعربٌ ، ولدَ بالقاهرة سنة (۱۸۵۰م) ، وجَالَ في بلادِ إفريقيّة وآسيا والرُّوم ، كان أبيّ النفس ، بعيداً عن التزلف للكُبراء ، في خِلقتهِ دمامةٌ ، وكان يجيدُ الشّعْرَ والإنشاءَ باللغتين العربيّة والتركيّة ، وله في العربيّة نحو ستين مصنّفاً ، وفي التركيّة نحو عشرة ، وأكثرُ كتبهِ مقالاتٌ وسوانحُ ؛ ونظمَ ستّة دواوين عربيّة ، وديوانين تركيين ، وأنشأ مجلّة «الإنسان» بالعربية ، ثمّ حوّلها إلى جريدة ، فعاشت خمسة أعوام .

من كتبهِ العربيّة: «ثمرات الحياة»؛ مجلّدات وكلَّه من منظُومه؛ و«النّشر الزّهري»، مجموعة مقالات له. و«رحلة إلى السّودان»، وفي شعره جودة وحكمة؛ وأقام حسن حسني الطُّويراني في مدينة القسطنطينيّة إلى أنْ وافَتْه المنيّةُ في عام (١٨٩٧ م) وعمره (٤٧ عاماً). (الأعلام ٢/ ١٨٧) بتصّرف، وانظر (أعلام من الشّرق والغرب ص ٨٢ ـ ٩٢).

والفكريّة ، وراحت ترسلُ دُرّهَا المنثورَ وتنشرُهُ في صُحُفِ ذلك العهد ، واتّخذت من الصَّحافةِ فضاءً رحباً ، ومنبراً عالياً كي يعرف ويسمع النّاسُ أصداء أدبِها وأنباء شِعْرِها؛ وبذلك سجّلَتْ زينبُ فوّاز أعظمَ إنتاجِ فكريّ وأدبي نسويّ مشرقيّ في عَصْرِها؛ إذْ غدا الأدبُ الزّينبيُّ الفوّازيُّ ملء الأسماع في أرجاءِ الوطن العربيّ ، في مشرقهِ وفي مغربه.

* ومن خلال الأدبِ الزَّينبي والفكْر النّسويّ نلمحُ أنَّ السَّيدة زينب فواز تريدُ إثباتَ فضل النِّساء ، وتعزيز شأنهن ، وأنّهن يساويْن الرّجال في العَقْلِ والمنزلةِ . ولعلَّ في رسالتها إلى صاحبِ مجلّة «العرفان» الشّيخ أحمد عارف الزَّين ـ الذي انتقدها لأنّها كتبتْ مقالة أفصحتْ من خلالها عن إطلاقِ حريّة المرأة في مجالات النَّشَاط الإنسانيّ جميعه ـ دليلاً على ذلك ؛ إذ كتبتْ إلى الشّيخ أحمد الزَّين تقول: «أمّا مَا جَالَ في فكْرِ سيادتكم من أنَّ المرأة لا تقدرُ على القيامِ بأعمالِ الرّجال ، فهو غلَطٌ أيّها الفاضِلُ ، وهاهُنّ نساء الغَربِ يتفوقنَ على الرّجال ، كما تدل سيرهن التي وضعتُها في الكتابِ المُرسَل إليك: الدّر المنثور في طبقات ربّات الخُدور ؛ ونحنُ نساء الشَرق لا يمنعنا الحجابُ منَ التّفوقِ والخوضِ في كُلّ مجال» (۱)

* كان الصّوتُ الزّينبيُّ يجوبُ الأوطانَ من مصر إلى الشَّام ، ويسمعُه الأدباءُ والشُّعراءُ من خلالِ الصُّحفِ والمجلات التي تزورُ البيوتَ في كلّ مكانٍ منَ الأقطارِ العربيّة ، والتي سجّلَتْ زينبُ من خلالها صوتَها ، ورسمتْ على صفحاتِها كثيراً من كلماتها وآرائها ، ومن تلكم الصُّحف والمجلات: النّيل ، الفتاة ، المُقتطف (۱).

* ومن المطربِ في الأدب النّسويّ المُعَاصر أنْ نرى تنوُّعَه في عدّةِ

⁽١) زينب فواز (ص ٦٦ و٦٢) بشيء من التصرف.

جوانبَ مُتباينة ، ونلمحُ هذا التنوع عند زينب فوّاز التي تحدَّثَ عن أدبِ المرأة ، وحرّيتها ، وعنِ الصَّداقة والمودّة ، وعن النّواحي الإنسانية كالجوع والمرض والفَقْر ، وعن النَّواحي العربيّة كالحديث عِن الوطنية ، وعن بعضِ النّواحي السياسيّة المبكرة ، وهانحنُ أولاء نسمعُ صوتاً نسوياً زينبيّاً جريئاً يدعو بحزم وعزيمة إلى طَرْد الاستعمار الغاشم الذي يعملُ على إفقار الشّعوب العربيّة ، أو يسخرُ من بعض الأعيان ليتسنّى له المجال فيصولَ ويجولَ وحدَه ، ويخلُو له الميدانُ ، فلنستمع إلى زينب فوّاز في هذه الصّحوة المبكرة ، وإلى هذا النّداء الذي يكادُ يكونُ الأوّل من نوعهِ ، ويصدرُ عن امرأة مشرقية ، تقولُ زينبُ فواز تخاطبُ أمّتها وأبناء قومها:

«... لماذا تصبرون ، ولأي شيء تنتنظرون؟... إنّي ليحزنني ما أراه في حالة أبناء الوطنِ من الذّل والامتهان؛ ويذيب المهج تأسّفاً وحسرة على أمّة تقطّعت بها الأسباب ، وحرمت ظلماً وعدواناً من منافع بلادها ، وقد تمتّع الأجانب بتلك المنافع دون أبناء الوطن ، حتى إنّ الوطنيّ يُطْرَدُ من محل خدمته ويخوض في بحارِ الفقر ، وقد يلهونَهُ برتبةٍ أو نيْشَانِ ليفتخر به على أقرانه»(١).

* ثمّ تأخذُ زينبُ فوّاز بذكْرِ الاستعمارِ وتعدادِ مساوئهِ وتفنيدِ تعسُّفِه ، ثمّ تشيرُ إلى الحكومةِ السَّاهيةِ اللاهيةِ آنذاك ، وتبكّتُ الرّجال وتسْخَر منهم وخصوصاً إذا سُلبتْ منهم المناصبُ والمقاماتُ الزّائلة ، ثم تغرسُ في نفوسِهم روح الأَملِ والحياةِ ، وروح الشَّجاعة ، فتقول: «... هذا وحكومتُنا ساهيةٌ غافلةٌ لاهيةٌ ، وقد ضلَّت منها الأَفْهامُ ، وغلَبَتْ عليها الأوهامُ ، وهي خاضعةٌ لعواملِ الاحتلالِ ، متناسيةٌ مصالحَ الأُمّةِ ، الأوهامُ ، وهي خاضعةٌ لعواملِ الاحتلالِ ، متناسيةٌ مصالحَ الأُمّةِ ،

⁽١) زينب فواز (ص ٦٢).

متمسكة بمنافع رجالِها الشَّخصيّة. . . هل تخشونَ أيّها الرّجالُ أنْ تُسْلَبَ منكمُ المناصبُ؟ لو أنصفتمُ هذه الأمّة التّعيسة التي توليتمُ شؤونها ويتولاها غيرُكم منَ الأجانب؛ ألَمْ تنظُروا إلى الأمّةِ البويريّة وما فعلَتْ في سبيلِ استقلالها، وكيف أنَّها اختارتِ الموتَ أو تعيش حرّةً لا تقبلُ السُّلطة البريطانيّة؟ ألَمْ تروا أنَّ الحكومةَ البويريةَ ألَّفتْ من الضَّعف قُوة ، وقاومَتْ هذا الطّود العظيم؟

* لم أسمعْ بأنَّ حكومتنا عارضَتْ رجالَ الاحتلالِ في شيءٍ ما ، ولو عارضَتْ في أمْرٍ يعودُ على أبناءِ الوطنِ لنجَحَتْ ، ولكِنْ وجَدَكم رجالُ الاحتلالِ لقمةً ليّنةً هيّنةَ المأكلِ فابتلعُوكم.

* وإنّي لَيسرّني أَنْ أَرى من أَبناءِ وطني روحَ الحياةِ ، فيؤلّفُون الأحزابَ ، ويدافعون عن حُقوقهم المهضومةِ ، فَلْتَقُو منكمُ العَزَائِمَ أَيّها الرّجال ، فأقدمُوا على العظائِم ، وقد علّمتكُم كيف يقترنُ العِلْمُ بالعملِ ؛ وإنّي لأرى من خلالِ الحِجابِ أَنَّ فيكم الكفاءةَ لأَنْ تقِفُوا أَمامَ العالَم الدّولي ، وتناضلُوا مدافعين عمَّا لكمُ منَ الحقوقِ ، فهبُوا من رقادِكم أيّها المُسلمون ، واعلموا أنَّ الحكومة لا تسعى ، ولن تسعى في ترقيتِكُم ، فالأجدرُ لكم أَنْ تسمُوا بأنفسِكم ، واللهُ المُسْتَعان (١٠).

* وكانتْ هذه الكلماتُ الزّينبيةُ تملأُ الأسماعَ في كافّةِ الأصقاع ، ممّا جَعلَ شهرتَها تغزو البقاع ، وتغزو القلوبَ ، وهذا ما حدَثَ فِعْلاً ، فقد غزتْ زينبُ قَلْبَ الكاتب «أديب نظمي» (٢)؛ واحتلَّتْ جوانحَه من بُعْد ،

 ⁽۱) زینب فواز (ص ۲۲ و ۲۳).

 ⁽٢) أديب نظمي الطناحي المصري ثم الدّمشقي ، صحفي أديب ، ساعد في تحرير جريدة الشّام الرّسمية أوّل صُدورها بدمشق ، وعيّنَ رئيساً لكتّاب محكمة الاستئناف بولاية سورية في أواخر العَهْدِ العثمانيّ ، وهذّبَ رسالة الأصداف والدُّرر ، ونَشَرها سنة (١٣٠٢ هـ) وعَلَتْ له شُهرة. وتزوَّج بالأديبةِ المؤرِّخةِ زينب فوّاز ، وافترقا ،=

ولا عجبَ في هذا ، [فالأذنُ تعشقُ قَبلَ العينِ أحياناً]؛ ترى كيف تمَّ هذا اللقاء الزّينبي الأديبيّ؟ هذا ما ستكشفُ عنه سُتور السُّطور الآتية.

زَيْنَبُ وَأَديبُ وَالرَّوَاجُ:

* إذا كانتِ الكلماتُ النّسويّةُ الهامسةُ الآسرةُ تستولي على القلوبِ والنُّفوس ، فكيفَ بالنَّظراتِ الجميلةِ من نواعسِ الأحداقِ؟! خصوصاً إذا كانَتْ عن كثَب.

* بيد أنَّ الأديبةَ الألمعيَّة زينب فوّاز لم تكنْ ممن يستولي على القُلُوبِ بالنَّظَرات ، أو همسِ الكلمات ، وإنّما وصلَتْ شهرتُها الأدبيّةُ إلى بلاد الشَّام ، وأُعجِبَ بأسلوبها الجميلِ الأديبُ والكاتبُ أديب نظمي الدّمشقي الشَّام ، وأُعجِبَ بأسلوبها الجميلِ الأديبُ والكاتبُ أديب نظمي الدّمشقي المولود عام (١٨٤٠ م) ، فوجدَ فيها بغيتَه ، وراحَ يراسلُها ، ويعرِبُ لها عن إعجابهِ بمقدرتها الأدبيّة ، وبادلَتْهُ زينبُ المشاعِرَ نَفْسَها ، وأخذا يتراسلان حتى انتهى بهما الأمرُ إلى التّالفِ الرُّوحي ، ثمّ الزّواج؛ وكانت زينبُ تحسبُ أنّها ستحقّقُ مجداً أدبيّاً أعْلى ، وسعادةً عظمى ، ورغبة لأمومةٍ كانت تحلّمُ بها وتتمنّاها .

* وبدأت مراسمُ الزَّواج تأخذُ مسارها بين زينبَ وأديب ، وعُقِدَ له عليها وهي في الإسكندرية بمصرَ عند أستاذِهَا حَسن حُسني الطُّويرانيّ ، ثمّ إنّها قدمَتْ دمشقَ الشَّام وهي زوجةٌ له شَرْعاً. وكان قدومُها من مدينةِ الإسكندريّة إلى بيروت فوقَ متْنِ البحر بالباخرةِ؛ ومن بيروت إلى الشّام بالقِطار ، ثمّ إلى قرية «الشَّيخ مِسْكين» جنوبي دمشق ، ومنْ هذه القرية

وأصدرَ جريدةَ «الكائنات» أسبوعيّة قبل الحربِ العامّة الأولى ، ومرضَ وأُقعِدَ ، ولما دخلتْ طلائعُ العربِ والإنكليز دمشقَ ، خرجَ على كرسيٌ متحركِ إلى صَحْنِ داره ، فحامتْ طائرةٌ عثمانيةٌ ، وألقتْ قنبلةً أصابته شظاياها ، وكانتِ القنبلةُ الفريدة التي ألقيت على دمشق طول مدّة الحرب ، فقتلته عام (١٩١٨ م). (الأعلام ٢٨٦/١).

ركبَتْ بغلة مكسّوة إلى حيثُ يقيمُ الأديبُ الوامقُ أديب نظمي في قرية «الشَّيخ سعد» من قرى حَوْران جنوبي الشَّام.

* وفي قرية الشيخ سَعْد بدأتْ زينبُ فوّاز حياةً جديدةً ، وكانت حياة جافّة قاسية عليها منْ عدّة نواحي ، وفي مقدمتها حياة الضّرائر ، حيث استقبلَتْها ضرّاتُها الثّلاث في حفاوة عاطفيّة بسيطة ، وكذلك رحّب بها أربع بناتٍ من زوجته الأولى زكيّة التركية ؛ ومن ناحية تقلّص نشاطها الأدبيُّ قليلاً عمّا كان عليه في مصر ، وكادتِ اتّصالاتُها الأدبيّةُ تنضُبُ ، واطلاعاتُها تضمحلُّ ، وعلاقاتُها الاجتماعيّة تتلاشى ، ويُضاف إلى هذا كلّه اضطراب وصول الصّحف والمجلّات إلى تلك القرية البعيدة عن مركز العاصمة دمشق .

* ورأتِ السَّيِّدةُ زينب فواز أنَّ هذهِ الحياةَ القاسيةَ تكادُ تقْضِي علَيْها لولا تأسَّيْهَا ، وأخذتْ تتبرّمُ بحياتِها غير الطَّبيعيَّة ، وغيرِ ما أَلِفَتْ عليه من حياةٍ في مصْرَ.

* ورأى زوجُها أنَّ زينبته طفِقَت تهجرُ وكْرهَا الزّوجيَّ الذي لم تجدْ فيه الهناءَ والصَّفاءَ؛ فحاولَ أنْ يعيدَ عصْفُورته زينب إلى عشِّهَا الدَّافيءَ ، فانتقلَ إلى دمشقَ ليرضيَ رغباتِها الأدبيّةَ والفكْريّةَ؛ إذ كانت ترغبُ في الانفتاحِ على الأجواءِ الأدبيّةِ؛ وحاول أديب نظمي أن يضفيَ على دارهِ بدمشقَ الرُّوحَ الأدبيّةَ ، فكان ينعقدُ في دارهِ مجلسٌ أدبيُّ أسبوعيُّ جميلٌ مندى برحيقِ الأدبِ والمعرفةِ ، ويحضرهُ ثلّةٌ منْ أعلياءِ الأدباءِ والعُلماء والمفكّرين والشُّعراء والمؤلّفين من مثل: حسن عبد المجيد الدُّوماني ، وعبد القادر بدران الدُّوميّ ، ومحمد عبد المجيد الدُّومانيّ ، وأبو الشُّعود مراد ، وحسين حسني ، وعمر نحولي ، وصالح طه ، ومحمود حمدي ، وصالح وحسين حسني ، وغيرهم كثير من أدباءِ ذلك العَصْر.

* وكان هؤلاء القوم الأدباء يحضرون مجلسَ السَّيِّدةِ الأديبةِ زينب

فوّاز ، ويسودُ جلستَهم الأدبُ ، حيث كانوا يتطارحون الشَّعْرَ وألوانَ البديع من نظم وتخميس وتشطير ، وكانوا يتناقشون في الشُّؤونِ الأدبيّةِ والنَّقديّةِ ، وكان زوجهًا أديب نظمي سفيراً بينَها وبينَ القوم ، إذ كانت تجلسُ هي من وراءِ ستار بحيثُ تسمعُ كلامَهم ، فكان يحملُ ما قالوه أو نظموهُ ، وما قالَتْ أو نظَمتْ؛ ومع هذا استطاعت زينبُ أنْ تجعلَ من شخصّيتها الأدبيّة شخصيةً مرموقةً على الرّغم من أنّها كادت تنقطعُ عن الكتابةِ والتّأليفِ والتَّدوين.

* ومنَ الطَّريفِ في حياةِ زينب فوّاز أنَّ هذه المجالسَ الأدبيّةَ لم تكنْ تبثُّ الطُّرفَ في حياتِها ، والسَّعادة في عيشتِها هذه ، وتاقتْ نفسُها إلى العودةِ لأرضِ النِّيل؛ وأخذتْ زينبُ تبثُّ نجواها وشجونها إلى زوجها أديب نظمي ، فما كان منه إلاّ أنْ لاحظُ رغبتَها في الفراقِ ، فطلَّقها بعد أنْ تركَتْ في قلبهِ أثراً غائِراً لفراقها ، على الرّغم من أنَّ هذا الزُّواج لم يَدُمْ سوى ثلاثِ سنوات.

* وكَعادةِ مُلَح الأُدباءِ فيما بينهم ، سُئِل أديب نظمي عمّا إذا صادفَ أنْ تشَاجرَ مع زينب ، أو ضربَها ، فكان أديب نظمى يجيبُ السَّائل متمثَّلاً بشعرِ القاضِي شريح زوج زينب بنت حُدير التّميميّة ، فقد كان هذا القاضى مُدْنَفَا بِحبِّ زوجته زينب وكان ينشدُ ويقولُ:

أَأَضْرِبُها في غَيرِ ذَنْبِ أَتَتْ بهِ

فَتَاةٌ تزينُ الحيَّ إنْ هي زُيِّنَتْ

فَزَيِنَبُ شُمْسٌ والنَّساءُ كواكبٌ

رأيتُ رِجَالًا يضْرِبُونَ نسَاءَهُم فَشُلَّتْ يَميني يـومَ أَضْرِبُ زَينبـا فما العَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنبا كأنَّ بِفيْها المِسْكَ خَالَطَ مَحلبَا إذا طَلَعَتْ لم تُبقِ مِنْهُنَّ كوكبا^(١)

انظر كتابنا «نساء من التاريخ» (ص ٣٦١) طبعة دار اليمامة الثانية بدمشق _ ١٩٩٩ م.

* هكذا كان أديب نظمي يتمثّل بهذه الأبيات كلّما سُئِلَ عن زينب فواز التي أحبَّتِ الانفصال عنه.

* أمّا زينب فوّاز فقد ظلّت مدّة بعد طلاقها في دمشق ، ثمّ تزوجت من أميرالاي عسْكَري مصْري ، حيث صحِبَها معه إلى مصر؛ وهناك ساعدتها البيئة لتتابع رحلة مواهبها الأدبيّة التي تفجّرت تفجيراً ، فكتبتْ عدّة رسائل في صُحفِ مصر الكُبرى ، وحظيَتْ بشهرة عالية في الكتابة النّثريّة والشّعريّة؛ وممّا زاد من علق صيتها أنْ نسجَتْ روايتيّن نالّتْ بهما ومنْ خلالِهما زيادة في الشُهرة؛ وتمّ مجدُها الأدبيّ عندما ألّفَتْ كتابَها الشّهير في تراجم النّساء: «اللّدر المنثور في طبقاتِ ربّاتِ الخُدور» ، فنالَتْ به شهرة أوسع على امتدادِ المشرقِ والمغْرِب.

* وكانتِ السَّيدةُ زينبُ فوّاز واحدةً من نساءِ المشرقِ العربيّ ، اللواتي يُنْظَمْنَ في سِلْكِ المؤلّفاتِ الشّاعراتِ الكاتباتِ ، النّاقداتِ الرّوائيات المسرحيّات ، وغيرِ ذلك من أعمال أدبيّةٍ تشهدُ لبراعتها وفنّها المعرفيّ كما سنرى في الفِقْرة الآتية:

مُؤَلَّفَاتُ وَأَعْمَالُ زَيْنَب فَوَّاز:

* عندما نتأمّلُ في أعمالِ النّساء الأديبات المُعاصرات ، نجدُ أنَّ عدداً منهنّ قد برعْنَ في فنِّ التَّأليف والتَّصنيف ، ولكنَّ قليلاً منهنّ منْ كانَتْ أعمالُها تحملُ طابَع الشُّمولية ، وإنّما يبرعْنَ في مجالٍ واحدٍ ، أو أكثر ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، والأديبُ البصير المُطّلع يدركُ صحّةً ما ذكرناه.

* بيد أنَّنا نجدُ أنَّ أعمالَ السَّيِّدة زينب فوّاز فيها بعضَ التّنوّع ، ويمكنُ أنْ نجملَها على النَّحو التّالي:

أُولاً _ في التَّراجم والسِّير: «الدُّرُّ المنثورُ في طبقاتِ ربَّاتِ الخُدور»،

ويحتوي (٤٥٦ ترجمة) لمشهوراتِ النّساءِ من شرقيّاتٍ وغربيّاتٍ ، متقدّمات ومتأخّرات ، وفيه ترجمةٌ واحدةٌ لامرأةٍ عامليّة هي السَّيّدةُ فاطمةُ بنتُ أسعد الخليل زوجة على الأسْعَد ، وهو أكبرُ مؤلّفاتها وأحسنُها؛ وقد طُبعَ في مصر عام (١٨٩٣ م).

* وعلى الرّغم منْ أنَّ هذا أكبر كتِبها إذ ينوفُ عن (٥٥٠ صفحة) إلا أنَّ فيه كثيراً منَ الأغلاط الأدبيّة والتَّاريخية ، وكثيراً ما تأخذُها هزَّةُ الطَّربِ الأدبية ، فتحلِّقُ في سماءِ الخيَال ، وتبحرُ في بحارِ الوهم ، وتقعُ في الأخطاء (١) ، وقد نَبَّهْتُ على ذلكَ في كثيرٍ من مؤلَّفاتي ، وفي هذا الكتابِ بعضَ التَّنبيهات المهمّة على طيشها الأدبيّ ؛ وعلى تعصُّبها لبعض النَّساء ، ومن ناحيةٍ أخرى ألفيتُ السَّيِّدةَ زينب فواز قد أهملَتْ تراجمَ مشاهير النساء في بعضِ العُصور ، وقد أشرتُ إلى ذلك بين ثنايا مؤلّفاتي ، كإهمالها ـ مثلاً ـ ترجمة أمّ البَنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز ، وغيرها .

* وعلى الرّغم من ذلك كلّه ، فالكتابُ ذو قيمةٍ أدبيّةٍ جميلةٍ ، وذو قيْمة تاريخيةٍ قيِّمة ؛ إذ أوردتْ فيه طائفةً من نساء العالم ، ومن مختلفِ العُصور التّأريخيّة ، ومختلفِ الأعمالِ التي قُمْنَ بها على مدارِ تاريخهنَّ . ومنَ الجديرَ بالذّكْر أنَّ السَّيّدة زينب فوّاز قد استغرقَتْ في جَمْعِ الكتاب وتصنيفهِ قرابة عامين كاملين من عام (١٨٩١ م) ، إلى عام (١٨٩٣ م) ، وكانت تفخرُ بما أنجزتْهُ ، وتعتزُّ بما أوجزَتْهُ ، وتُري بناتِ جنسها ـ اللطيف ـ بأنّها قد خدمتهُنَّ بتأليفهِ وإخراجهِ إلى حيّزِ الوجود الأدبيّ ، لذلك صدَّرَتْ كتابَها بهذَيْن البيتين فقالت :

⁽۱) مثل قولها في ترجمة عائشة التيمورية: «أديبةٌ فاضلةٌ ، حكيمةٌ عاقلةٌ ، بارعةٌ باهرة ، شاعرةٌ ناثرة. . . لم تَدَعُ لولادة مقالاً ، ولم تتركُ للأخيليّة مجالاً ، وقد أخنستِ الخنساءَ وأنْسَتُها صَخْر ، وسارت في مضمارِ أدباء هذا العصر . . » (الدر المنثور ص ٣٠٣).

كِتَابِي تَبدَّى جَنَّةً في قُصُورِهَا خَدمْتُ بهِ جنْسي اللَّطيف وإنَّه

تروحُ رُوحَ الفِكْرِ حُورُ التَّراجمِ لأخْرَمُ ما يُهْدَىٰ لِغُرِّ الكَرائمِ

* وعندما خرج الكتابُ بحلّتهِ الجميلةِ من مطبعة بُولاق ، تنادت بناتُ جنْسها الأديبات الشّاعرات لتقريظهِ وإشهاره إذ يحكي سيرهن ومسيرة حياتهن في الحاضرِ والغابر ، وممّن قرّظ كتابها من الأوانسِ المشهورات عائشة التّيموريّة ، الشّاعرة المصريّة المعروفة (١) حيث قالتَ:

لمّا تحلُّى جيْـدُهَـا المصْقُـولُ كصَفُ الْجينِ رَاقَ فيهِ شُمولُ فمن ادّعيٰ طبقَ القياسِ جهولُ بعــزيــزِ آيــاتِ الثَّنـــا مشْمُـــولُ لفَظَتْــهُ أَذْهَــانُ ذَكَــتْ وعُقــولُ يشْهَـــدْ بهـــا المعقـــولُ والمنقـــولُ يغلُـو علـىٰ شُحـبِ البَهـا ويَطـولُ بتفَــاخُــرِ بَعْــدَ الخُمــولِ قبــولُ كشُعَاع شَمْسِ بـالسُّهـا مـوصُـولُ تباجُ الفَخَار وهل إليهِ وصولُ رؤياة في سِنَةِ الكرى مأمولُ بدراً له بين الأنام هُلولُ قد كان قبل سُطُورها مَجْهُولُ ما جُدّدتْ في العَالَمين فُصُولُ

سَجَدت لعَزَّةَ بالبطيح فُحولُ لمَعَتْ لَالي العقْدِ تزهُو نضرةً دعْنِي ومَا التَقَطُوهُ منْ بحرٍ طمَى هـذا هُـوَ الـدُّرُ الـذي غـوَّاصُـهُ إِذْ ذَاكَ من صَدَفٍ وهذا جوهَرٌ درُّ كَــدريِّ زهَــتْ أنــوارُهُ هنُّوا ذَوَاتَ الخِدْرِ بالفوزِ الذي ولقـد عَلَـتْ طَبَقـاتُهـنَّ وزَانَهـا طبَقَـاتُ منشـورِ بـريـقُ ضيـائِهــا كم أَمْطَرتْ غَيْثَ الدُّموع بقولها نالَتْ سواعدُ عزّها ما لم تكُنْ لله در طباق زینب أصبحت مَذْ أَسْفَرتْ عن أصلِ جوهرِ عفّةِ فَعَلَى العَفَيْفَاتِ الثّناء لِفَصْلِها

* وممّن قرّظَ كتاب الدّرّ المنثور شِعراً ونثراً حسن حُسني الطّويراني صاحب جريدة النّيل فقال:

⁽١) اقرأ سيرة عائشة التيمورية في كتابنا «نساء من التاريخ ص ٤٤١ _ ٥٠٩).

بَدا درُّهَا المنثورُ بالفضل زينبُ جَلَتْ لعيونِ الفِكْرِ آثارَ حكمةٍ حكى الفَلكَ الأعلى فكل صحيفةٍ حوى حَسَناتِ الدَّهْر بين سُطوره فلا برحَتْ للفَضْل بالفضلِ زينبُ

فيا حبَّذا الدُّرُ النَّيرُ المرتَّبُ عرائسُها تزهو وبالفَضْل تخطبُ به أفتٌ فيها من الزَّهْر موكبُ وقدوَّمَها ذاكَ اليراعُ المهلَّبُ تقولُ مقالَ الفاضلينَ وتكتُبُ(١)

* وقرَّظَه أيضاً عبد الله فريج بأبياتٍ أوَّلُها:

الشَّرقُ لا تعجبوا إنْ عمر النّور الشّرقُ بالنّور منذُ الدهرِ مَشْهورُ

* وجاء في آخرها:

أبهى كِتَابِ سمَا جَاهاً لِفَاضِلةٍ بالسَّعْد فيه بهيّ الدّرّ منثورُ (١)

* وقرّظ كثيرون نثراً كتاب الدّرّ المنثور ، ونَشَرت كثيرٌ من الصَّحف والمجلّات هذه التّقاريظ ، ومعظمُها يدورُ حولَ فكرةٍ واحدةٍ هي امتداحُ هذا العَمل النَّسويّ الجميل المَسْبُوك في أسلوبٍ رصين ، أو ذكر نَقْد الكتاب وما وقعت فيه من هَنَات.

* ففي تقريطٍ مُطرّز بجميلِ العبارة ، ولطيفِ الإشارة ، يقولُ الأديبُ الكاتب حسن حُسني الطُّويراني: «أحطتُ خبراً بمجملِ هذا الكتابِ الجزيلِ الفائدة ، الحبليلِ العائدة ، النبيل المقصد الشريف المبدأ والغاية ، فألفيتُه سديدَ المآلِ ثمينَ المضمون عالي الأملِ مبرورَ العمل ، جمع إلى رشاقةِ الأُسلوب لطف المفاد ، وضمَّ إلى حُسْنِ السِّياق والترتيب جمالَ العبارة وكمالَ التركيب ، فجاء اسمُه: الدُّرُ المنثور في تراجِم ربّات الخدور؛ عنواناً على مسمّاه ، متجلّي عرائس الأفكار في أعالي قُصور الاعتبار ، متحلّي السُّطور بجواهرِ المعاني ، مسترق أحرارِ الأذهان برصانةِ هاتيكَ متحلّي السُّطور بجواهرِ المعاني ، مسترق أحرارِ الأذهان برصانةِ هاتيكَ

⁽١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤).

المباني ، فقد اشتملَ على تراجمِ العددِ العظيمِ من ربّات الخُدور ، وسيّدات القُصور ، وأميراتِ العُصور ، على سياقٍ غيرِ مسبوقِ المثال ، في متقدّمي الأجيال ، فسبحان مَنْ وفَّقَ ووهَب؛ وأقام للسَّيّدات ظهيرة فَضْل وأدب. والحقُ أحقُّ بأن يُقَال ويُسْمع ، إنَّ هذا الموضوعَ من أهمَّ ما يجبُ أَنْ يعتنيَ به العالَمُ المدنيّ ، لاشتمالهِ على قسم عظيم من تراجمِ شهيراتِ نصف العالَم البشريّ ، وهُنّ القيمُ الوحيدُ على تربيةِ المَلْكَاتِ الأولى ، والشّريك الأمين في الأعمالِ الحياتية ، وناهيك ما هنالك من الأهميّة التّهذيبية ، التي تُستفاد بتداول مثل هذه الآثار النّفيسة ، خُصُوصاً وقد قامَتْ بأداء هذا الواجبَ حضرةُ المصنّفةُ الفاضلةُ البارعةُ الكاتبةُ الشّهيرةُ ، ذاتُ العفَافِ السَّيِّدةُ زينب فوّاز ، فجادَتْ وأجادَتْ في هذا الكتاب ، بمّا يروقُ ذوي العقول ويشوفُ أربابَ الألبابِ ، ولا غرابةَ فإنَّها ربَّةُ الفِكْرِ والقَلَم اللذَيْن طالَما زيّنا الأوراق ، وطارا بجناحَي شهرتها الفاضلة في الآفاقِ ، وسابَقًا الشَّمسَ في السَّيرِ والإشْراقِ ، فنثني على هذه السَّيِّدة الثَّناءَ الجزيلَ ، ونشكرُ مشعَاها المثيل بكلّ لسانِ شكرِ جميل ، فلا برحت زينة العلم والأدب، ولا زالَتْ مشكورةَ الأيادي العالية عند كلّ مَنْ قال وكَتَب. . »(١).

* وقال صاحبُ «مجلّة العرفان» في زينب فواز مُشيراً إلى تفرّدها في عالَم الأديباتِ على الرغم من وجودِ بعض الأغلاط: «إنَّ زينبَ فوّاز كانت في عَصْرها نسيجة وحدِها ، وفريدة عَصْرِها ، مع ما كان في كتبِها وكتاباتها وشعرِها من الأغلاطِ ، ولم يكن اشتُهر غيرُهَا من النّساء في مصر بالكتابةِ والشّعر والتّأليف. . »(٢).

 ⁽۱) زینب فواز (ص ۸۵ و ۸۸).

⁽٢) أعيان الشيعة (ص ١٣٤).

* وكتب حمدي يكن في بعضِ المجلّات: «إنّه لم يُسْمَعْ في مصرَ إلاّ باثنتَيْن منَ الكاتبات: عائشةَ التّيموريّة ، وزينبَ فوّاز»(١).

ثانياً في المقالَة والخَواطر: لزينب فوّاز باعٌ في هذا المجالِ ، حيثُ كان قلمُها سيّالاً في مجالِ المقالة ، ولها عَمَلان هما:

أ ـ «الرسائلُ الزَّينبية»: وهي مجموعة من المقالاتِ والرّسائلِ النَّثرية والشِّعريّة ، كتَبَتْها في الجرائدِ والصُّحفِ المصريّة المعروفةِ آنذاك ، ثم جمعتْه في كتابٍ مؤلَّفٍ من (٢١٨ صفحة) ، كانت قد كتَبتْه مقالات بين عام ١٨٩٢ وعام ١٨٩٩ م؛ وأكثرُ أبحاث هذه الرَّسائل في المرأة وحقوقها ومكانيّها الاجتماعيّة والأدبيّة.

ب ـ «كشفُ الإزارِ عن مخبآتِ الزَّار»: والزَّار شعوذة من شعوذاتِ شيخات مصْرَ، وصنْف من تدجيلهن ، حضرته ووصفَته في ذلك الكتاب ، ونوَّهَت إلى واقع المجتمع المصري ، والآفاتِ الاجتماعية المسيطرة عليه ، وفي مقدمتها الشَّعوذة.

ثالثاً - في الرِّواية والقصَّةِ: من واجبِ الحقّ علينا ومن مستلزماتِ الحقيقة ، أَنْ نذكرَ بأَنَّ السَّيدة زينب فواز هي أوّلُ شخصٍ يحلّقُ في ميدانِ القصّةِ الطّويلةِ أو الرّواية ، حيث كتبَتْ زينب روايةً قُبيل العِقْدِ الأخيرِ من القرنِ الميلادي الماضي ، وقبل أَنْ نتحدَّث عن الرّوايةِ الزَّينبية نشيرُ إلى أَنَّ للسَّيدة زينب فواز روايتَيْن هما:

أ_ «رواية الملك كورش» ، أو «ملك الفُرس»؛ طُبعتْ عام ١٩٠٥ م. ب_ «روايةُ حُسن العَواقب» أو «غادَةُ الزَّهْراء»؛ طُبعتْ عام ١٨٩٩ م.

* وممّا لا شكَّ فيه أنَّ السَّيّدةَ زينب فواز قد أصدرت أوّل روايةٍ بالعربيةِ المعاصرة ، وذلك حوالي سنة ١٨٨٥ م ، في حين أنّ بعض دارسي الأدب

العربيّ الحديث يشيرُ إلى رواية «زينب» للدكتور محمد حسين هيكل هي أوّلُ روايةٍ عربية ، والصَّحيح أن رواية زينب فواز قد سبقتْ روايةَ هيكل بأكثرَ من ربع قرن ، حيث صدرتْ روايةُ هيكل عام ١٩١٤ م.

* فأمّا روايةُ الملكِ كورش ، فهي روايةٌ تاريخيّةٌ غراميّةٌ ، ذكرت فيها زينب قُبْح العادةِ المجوسيّة ومساوئها ، وصوَّرَتْ حُسْنَ الوحدانيّة؛ وتُعتبَرُ هذه الرّواية من أحسنِ الرّوايات مغزى ومعنى ، وقد طُبعت بعد روايتها حُسن العواقب بست سنوات.

* وأمّا رواية حُسن العواقب ، فقد أودعَتْها كثيراً من العاداتِ العامليّة ، لا سيما عادات الأُسْرة التي قضَتْ مدّةً في خدمتها. وهي مُعوَلَّفَةٌ من سبعةٍ وثلاثين فَصْلاً ، تجمع بين الفكْرِ والفائدة ؛ وذلك لأنّها تروي أحداثا جَرَتْ فِعْلاً خلال القرن التّاسع عشر الميلاذي ؛ وقد زيّنتِ الأديبةُ زينب فوّاز روايتها هذه بالأشعار الجميلةِ الملائمةِ للأحداث ، كما أنّها جعلَتْ من المرأةِ عنصراً مهمّا في تسلسُل فصولِ الرّواية وأحداثها ، مما جعل لهذه الرّوايةِ مكانةٌ كُبْرى بين الأعمالِ الأدبيّة في نهايةِ العقْدِ الأخير من القرنِ الماضي ، واعتبرَها القُرّاء والنّاقدون آنذاك موهبةً نادرةً ، وعملاً مبكراً جميلاً ، فامتدحوها وامتدحوا زينب فواز ، ونصحوا بقراءتها .

* وممن أثنى على الرِّواية الزَّينبية «حسن العَواقب» رئيسُ تحرير جريدة النيل الأديب الكاتب: حسن حُسني الطّويراني فقد كتَبَ تقييماً لهذه الرِّواية؛ وأجاد بنثره وشِعْره فقال: «قرأتُ رواية حُسْن العواقب للكاتبة الشَّهيرة زينب فوّاز ، التي لا توازي شهرتَها شُهرةٌ ، وذلك لفكْرِها النيّر ، وقلمِها المُبدع ، فوجدتُ الرِّوايةَ تتمتّعُ ببنيةٍ جيّدة ، ومواضيعَ بعيدةِ المنال ، ومزايا أدبيّةٍ جميلة ، فلا غرو أنْ تجودَ على العالَم الأدبيّ العربيّ بأمثالِ هذه النّفائس الغاليّة ، والآثار العاليّة ، فقد عوّدتِ العالمَ العصريّ

المصريَّ بكثيرٍ من هذه المآثر ذات المفاخر ، نأمُلُ أنْ تستمرَّ كاتبتُنَا بمنح عصرِنا الحاضر مثل هذه الكتابات الأدبيّة القيّمة». ثمَّ قرظَ حسن حُسنى هذه الرِّواية بأبياتِ بائيةِ تناسبُ عنوان الرِّواية فقال:

> زَهَتْ بمعَانِ لُطْفها في كِتابِها ترى العينَ فيها وجْه كُلِّ براعةٍ

رُوَايـة إبْـداع أَجَـادَتْ وجُـودَهَـا براعَةُ فَخْرِ الفَاضِلاتِ الكَواتب برقّة موضوع وأسمى مَطالبِ وتسمو لها الأفكارُ منْ كُلّ جانب فَلا برحَتْ تُهْدي المعَارفَ زينبٌ هدايًا المزَايًا في أعَالي المراتب وَلَا زَالَ هذا العَصْرُ منها مُمتّعاً بخَيْرِ مَباديها (وحُسْنِ العَواقبِ)

* وممنِ امتدحَ الرّوايةَ نثراً وشِعراً ، وأشاد بأسلوبِها وهدفها الشّاعر محمّد توفيق حيثُ قال: «مَنْ أنكرَ وجوب تعليم ربّاب الخُدور ، فليمتعْ نظَره بهذا السِّفْر المَسْطُور ، فإنّه دلالةٌ لا تمنعُ ، وبرهانٌ لا يدفعُ ، حيث قامَ الدّليلُ على صحّة دعوى التّعليم ، وفوق كلّ ذي علم عليم ، إذ جاءَتْ هذه الرّوايةُ طيّبةَ الغاية ، في البدايةِ والنّهايةِ..».

* ثمَّ ذيَّلَ الشَّاعر محمّد توفيق هذه الشُّطور بهذه الدَّاليةِ الجميلةِ التي ترقق ستورَ الشُّطور فقال:

تزهُو فتظْهَرُ في صُدورِ الرُّود^(١) أَعُقــودُ درٌ فــي جيــادِ الخُــودِ شمسُ الفضيلةِ في سَماءِ زَرودِ (٢) أَمْ تلكَ أُضواءُ الصَّباحِ أَتَتْ بها أَمْ تلكَ آياتُ الطُّروسِ تبرَّجَتْ لتَشــدَّ أزْرَ الفَضْــلِ بـــالمـــورودِ جاءَتْ ترتّلُ من حديثٍ قَدْ زَهَا سور البَهاء بموكب وبنود وتلتْ على آذانِ ما قد فُصّلَتْ رسـلُ الفَصَـاحـةِ فـي بنـي منشـودِ

[«]جياد الخود»: رقاب الشابات. والخود: المرأة الشابة. و«الرود»: أصلها الرؤد: الشابة الحسنة.

[«]زرود»: اسم مكان في الجزيرة العربية.

زانَتْـهُ زينـبُ فـي بَهـا وسُعـودِ منها البراعَةُ في جلاءِ صُعودٍ فَلَهِــا السَّنــاءُ بفــارس وهنــودِ وأتَـتُ أحـاسنُهـا بـلا مجهـودٍ فأقمن في حِلّ من المعقود جاءَتْ بمثـل اللـؤلــؤِ المنضُــودِ تعْتَــاضُهــا عــن ابنــةِ العنْقُــود يجلــو عنـــاءَ متيّـــم مَكْـــدودِ من زينب لتجودَ بـالمـوجـودِ كعقــودِ درِّ فــي جيــادِ الخُــودِ

وجلَتْ محاسنَ ما جلَتْ عَصْرَ الذي ستَرتْ محاسنَها ولكنْ قد بَدَتْ إِنْ كَانَ خلفَ الخدرِ ظَلَّ مقَامُها جاءَتْ مبَاديها بِحُسْن عواقب جاءَتْ بما فاقَ اللواتي قبلَها روَّحتُ فكري في تلاوةِ أَسْطرِ فعلمتُ من بِكُرِ المقالةِ أنَّها سَكِرَتْ بها الآمالُ حيثُ سرورها لا زَالتِ الأفكارُ ترقُبُ منَّةً فلزينبِ حُسْنُ العواقبِ زُيّنَتْ

* وقرَّظ محمَّد على غالب رواية زينب فواز شِعراً فقال:

بسنَائِها ظهررت عجائِب ضاءَ المشَارقَ والمغَاربُ مصــرٌ فكــم فيــه عجــائِــبُ فضلُ العميم أجل طُالبُ فرَهَتْ بها حُسْنُ العَواقبُ

هَــذي لآلــىءُ أَمْ كــواكِــب أَمْ ذَا كِتَــابٌ نُــورُه أهددته سيدة لها ال

* وأمَّا الشَّاعر عبد الله فريج فقد أنشأَ قصيدةً بائية جميلة ، قرَّظ فيها روايةَ زينب فوّاز مُشيراً إلى انتشار روايتها في الآفاقِ والبُلدان ، بالإضافةِ إلى قيمتها الأدبيّة في عالم ذوات الخُدور والكواعب ، يقول عبد الله فريج: ذووه به يرقُونَ أعْلَىٰ المَراتب على كُلِّ كهل في أجلِّ المناصب تُباري بهِ أهلَ اللحي والشُّوارب فريدةُ هذا العَصْر خيرُ الكُواعب

لَعَمركَ إِنَّ العِلْمَ خَيرُ المكَاسِب بإحْرازِه كُمْ فَاقَ في النَّاس يافعٌ وكمَ غادةٍ حَسْناءَ أَضِحَتْ بخدرِها وحَسْبُكَ فيهِ ربَّةُ الخدرِ زينبٌ

كَريمةُ فوّازٍ هيّ الغادّةُ التي لَـنَا أَنْشَأَتْ عن فضلِ ربِّ روايةً فأكْرِمْ بها مِن مُلحةٍ ذاتِ بهجةٍ بها حِكَمٌ لو شَام لقمانُ بعضَها كَــدُرِّ بهــيِّ فــى عقــودٍ منضّــدٍ معَانِ لَعَمْرُ الحقّ تلعبُ بالنُّهي فبالمدح ما قَدْ خَصَّها غيرُ صادقٍ لربّتها منّا ثُناءٌ معطَّرٌ مخــدّرَةٌ مــن خيــرِ قــوم وأمّــةٍ تحلُّتْ بأخلاقِ أرقَّ من الصَّبَا وقد أُرضعَتْ ثديَ العُلوم فأصبحتْ ت اليفها عمَّتْ بلاد مَسارق فللُّهِ آدابٌ بها قَدْ تفرَّدَتْ حَبَتْنَا من الفكر المنير بتحفة ولما ازدهَتْ بالطَّبع في أفقِ حسْنِها ترنَّم عبدُ اللهِ يَشدو لِصَحْبهِ تهنّــوا ذوي عــزّ بطيــبِ روايــةٍ

حباهًا إلهُ العرشِ عزّ المناقب يقصِّرُ عن أمثالِها كلُّ كاتبِ بـآيــاتِ سحْـرِ للقُلُــوب جَــواذب لقالَ وربِّ البيتِ يا للعَجائب له حَسَداً ترنُو عيونُ الكواعب وتُزْري بِهاتيكَ الظّباءِ الرّبارب ومَا عَابَها منْ جَهْلهِ غيرُ كاذب وذلك فُرضٌ واجبٌ أيّ واجب سليلةُ مجدٍ من كرام الأعاربِ وأوصافِ أملاكِ فسبحانَ واهبِ تصوغُ لنا دُرَّ النُّهيٰ في قُوالب وذاعَتْ بفخرٍ في جميع المغَاربِ وللهِ أَفَكَ ارْ كَشُهْبِ النَّــواقــبُ وكنز ثمين من أجلِّ المطالب كروض جنَّيْنَا منه خيرَ الأطايب ونادى بتاريخَيْـن كُـلَّ الحبـائـبِ تجلَّت لنا زَينَا بِحُسْنِ العَواقبِ^(١)

* وهناك آثارٌ أدبيّةٌ ونقديّةٌ كثيرةٌ عن روايةِ زينب فواز «حُسْن العَواقب» وكلُّها تُطري وتثني على عَملِها ، وتُشيرُ إلى أنَّها أديبةٌ منَ الطِّراز الأوَّل ، وأنَّها ذاتُ قَلَم سيّالِ بجودةِ الفكْرة ، وجمالِ العبارة ، وتجسيدِ المشاعر في قوالبَ أدبيّةٍ جميلة ، تحملُ بين ثناياها الأخلاق الحميدة ، وتغرسُ الأهداف النَّبيلة.

 ⁽۱) زینب فواز (ص ۹۹ و ۱۰۰).

رابعاً - في المسْرَح وفنونهِ: مسرحيّةُ «الهوى والوفاء»؛ وهي مسرحيةٌ صغيرةٌ من أربعةِ فُصول ، وتقعُ في (٩٤ صفحة) طُبِعَتْ عام (١٨٩٣ م) وفكرتها نبيلةٌ؛ إذ تتحدَّثُ عن قصّةِ حبّ في بلادِ العراق ، وتدورُ حوادثُها بينَ البصرةِ وبغداد ، وتتخللُها مواعظُ وإرشادات أدبيّةٌ وخُلقيةٌ ، وهي رقيقةُ الموضوع لطيفةُ الأسلوب.

* وقد أخذَتْ هذه المسرحيّةُ مكانَها بين الأعمالِ الأدبيّة وقتذاك ، واطلّعَ عليها أدباءُ العَصْر ، وأمراءُ البيّان ، وقرّظَها كثيرون ، وفي مقدمتهم حسن حُسني الطّويراني صاحب جريدة النيّل ، الذي نالت هذه المسرحية إعجابَه ، وذكرَ بأنّها روضة غنّاء ، قد رقّتْ معانيها وألفاظُها وأدبُها ، فلنستمعْ إليه حيثُ يقول:

هَذا يَسراعٌ بَسارعٌ قَدْ كَتَبُ أَمْ روضةٌ غنّاءُ أَفْنائها مناظرٌ في كُلّها حكْمَةٌ رقَّتْ معَانيْهَا وألفاظُها جادَتْ بها ذاتُ عفافِ سَمَتْ مفْضَالةٌ أحيَتْ بآدابِها فلْتَزْدَهِ في عَصْرها زينبٌ فلتَزْدَهِ في عَصْرها خَدَتْ أحبّتِ الشَّرقَ فَشَمْساً غَدَتْ لحبّتِ الشَّرقَ فَشَمْساً غَدَتْ وهاذهِ آثارُهَا أَقْبلَتْ روايةٌ جاءَتْ لأَهْلِ النَّها عَلَيْ أنعم بتمثالِ الهوئ والوقا

أمْ ذَاكَ قَسَّ في عُكَاظِ خطَبُ مالَتْ بنّا من نشوةٍ في طَربْ تهدي لرائيها المعاني والعَجبُ كالرَّاحِ في كأسٍ صفاً واضطربُ فكُراً بَدتُ أنوارُهُ واحتجب فكُراً بَدتُ أنوارُهُ واحتجب ولْتَسُمُ في الفضلِ أعالي الرّتب بعلْمِها والمرءُ مع مَا أَحَب بعلْمِها والمراءُ مع مَا أَحَب في الفضلِ أعالي الرّتب بعلْمِها والمرء مع مَا أَحَب في الفضلِ أعالي الرّتب بعلْمِها والمراء مع مَا أَحَب بعلْمِها والمنتب بعلْمُها والمنتب بعلْمِها والمنتب بعلْمُها والمنان من قَدْ وهَب بعلْمُها والمنتب بعلْمُ والمنتب بعلْمُ والمنتب بعلْمُها والمنتب بعلْمُها والمنتب بعلْمُها والمنتب بعلْمُ المنتب بعلْمُ والمنتب بعلْمُ المنتب بعلْمُ والمنتب بعلْمُ والمُنْمُ والمنتب بعلْمُ والمُنْمُ والمُنْمُ والمُنْمُ والمنتب بعلْمُ

الله وقرّظ المسرحيَّة الزَّينبيَّة الشَّاعرُ عبدُ الله فريج بقصيدةٍ تائيّةٍ طويلةٍ
 نَقْتَطَفُ منها قوله:

والعلْمُ في عَصْرهِ أعلامُهُ خفَقَتْ عَصْرٌ به الشَّرقُ في آفاقِهِ سطَّعَتْ فَما عَجَبٌ إذا الغَاداتُ قد نبغَتْ لا سيّما زينبُ الحسْنَاءُ مَنْ وصِفَتْ أديبةُ العَصْرِ ذاتُ الخِدْرِ مَنْ شَرُفَتْ في كل علم لها الباعُ الطُّويلُ كما يثِني عَلَيْها جميعُ الخَلْقِ في أدب لها يراعٌ رعَاهُ اللهُ من عطَب أهدَتْ لنا من نظيمِ الدّرّ فكرتَها فيها المعَاني إلى أهْل النُّهي طَلَعَتْ سِحْرٌ حَلالٌ إلى القُرّاءِ فيهِ أَتَتْ لنا شموسُ الهُدىٰ في أَفْقِهِ بزغَتْ واليومَ إذْ رقَّ طبعاً في محاسنِهِ هذا کتابٌ به جلَّ الهوی بوفا

فَنَكَّسَتْ لجيوشِ الجهل راياتِ شموس فضل بأنوار بهيات فيه ِ وفُزْنَ لدى سَبْقِ بغاياتِ بكلِّ فَـوزٍ وفَخْـرٍ بيـنَ غَـاداتِ كتاج فخر على هَام الأديباتِ في كل فن لها أوفي مقالاتِ منْ سيّداتِ تُحَاكيْها وسَاداتِ له فعالٌ تُحاكى السَّمهريّاتِ روايـة هـذَّبَتْهـا بـالكمـالاتِ بُدُورَ تَمَّ زَهَتْ في وسْطِ هَالاتِ بمعجزاتٍ وآياتٍ جلتاتٍ فَنُورُها قد مَحا لَيْلَ الضَّلالاتِ فيـه تغنَّـتْ بتــاريخَيْــنِ أبيــاتــي بالفخر فيه صَفَا نادي الرّواياتِ

* وقرّظَ مَسْرحيّةَ زينب فوّاز «الهوى والوفاء» مديرُ جريدةِ النّيل؛ إذ شَدا
 بقصيدةِ خفيفةٍ لَطيفةٍ فقال:

هَــنّدي عُقَــودُ جُمـانِ
أَمِ الثُّــريّبا تجلّبتْ
بـل تلـك آيساتُ حُسْنِ
روايسةٌ نمَّقَتْهَ حُسْنِ

في سِمْطِ درِّ مُحبَّبُ على انتظَامِ مُسرتَبْ من فكرة ليسسَ تُغْلَبُ لطفاً أنامسل زينب في كال في أناب مطلَب رِوَايِ الله ويَطْ رِي علَيْهِ اويَطْ رَبُ هِ يَطْ رِي علَيْهِ اويَطْ رَبُ هِ هِ مِي الله وَمَا للمه ذَبُ هِ وه يَ الله وفَ اللمه ذَبُ فَ أَيْ الله وفَ اللمه ذَبُ فَ أَيْ الله وفَ الله فَ مَا الله وفَ الله وفَ الله وفَ الله وفَ الله وفي الله وأي الله وأي الله وأي الله وأي الله وأي الله وأي الله والله وال

 * وهذه الثّناءاتُ والتَّقاريظُ دليلٌ على المكانةِ الأدبيةِ التي اقتعدتها زينب فوّاز في هذا المجال الفنّي الأدبيّ الجميل.

خامساً ـ في التَّراجم والطَّبقات: لزينب كتُبُّ في التَّراجم لم تُطْبَع ، ولم يُعْثَرُ عليها وهي:

أ ـ «مدارِكُ الكَمالِ في تراجم الرِّجَال».

ب - «الجوهرُ النَّضيدُ في مآثرِ الملكِ الحَميد».

سادساً _ في الشّعر والنّظم: لها ديوانُ شعْر مطبوع ، ولكنْ لم نعثرْ عليه؛ وأكّدَ مترجمُو سيرتها بأنّه مَطبوعٌ.

* بيد أنّها قد أودعَتْ كثيراً من نفثاتِها وقصائدها في مصنّفاتِها ومؤلّفاتها. وسنتحدثُ عن أدبِ شعرها ، وشعْرِ أدبِها ، وفنونها الشّعرية في الفقْرة الآتيّة بإذن الله.

* كما سنشيرُ إلى نثرِها وبراعتِها في هذا الميدانِ بفقرة خاصّة.

* ولعلَّ لهذه السيّدة الأديبة كُتباً ومقالاتٍ أخرى هضَمَتْها بطونُ المجلّات والصُّحف في وقتها ، وعفّا عليها الزَّمنُ ، كما أنّ لها تقاريظ لكتبٍ مهمةٍ صدرت في عَصْرِها ، وربما كان لها بعضُ المقالاتِ النّقدية التي تدلُّ على تذوّقها الأدبيّ ، والله أعلم.

زَيْنَبُ وَفُئُونُ الشِّعْرِ:

* اشتُهرت السَّيِّدةُ زينب فوّاز في ميدانِ الأدبِ والتَّأليف أكثر من شهرتها في مجالِ الأدب ، بيد أنَّ ما قرأناه من أشعارِها جعلنا نعقدُ لها فَصْلاً كامِلاً نتحدَّثُ فيه عن فنّها الشِّعريّ ، ومذهبها ، وألوانِ وأنواعِ الشّعر الذي طرقتُه ، من مديح ، أو هجاء ، أو تقريظ ، أو غَزَل ، أو حنين لمشقط الرّأس ، أو رثاء ، أو من الشّعر الحماسيّ والوطني وغير ذلك ممّا نظلع عليه منَ الفُنون الأخرى وخاصّة في البديع ، ولهذا فإنّنا نرى أنّ نظلع عليه منَ الفُنون الأخرى وخاصّة في البديع ، ولهذا فإنّنا نرى أنّ السّيّدة زينب فواز من أميراتِ الشّعر في عصرها ؛ وقد استطاعت أنْ تُسْمِع صوتَها الشّعري الأدباءَ والشُعراء ، فأقرُّوا لها بالتّقدّمِ والتّفرُّدِ بين عالَم ذواتِ الخُدور.

* وعلى الرّغمِ من أنَّ الشِّعْرَ أعمُّ بينَ رجالِ عَصْر زينب ، إلاّ أنها سبّلَتْ سبقاً في هذا الميدانِ ، ونحنُ لا نوافقُ «عبّاس محمود العقاد» عندما يتحدّثُ عن شعْر النِّساء ونَظْمِهِنَّ في معرضِ ترجمته لعائشة التيمورية إذ يقول: «فالمرأةُ قد تحسنُ كتابة القَصَص ، وقد تحسنُ التَّمثيل ، وقد تحسنُ الرّقْصَ الفني من ضروبِ الفنون الجميلة ، ولكنّها لا تحسنُ الشِّعْرَ ، ولمّا يشتمل تاريخُ الدّنيا كلّه بَعْدُ على شاعرةٍ عظيمةٍ ، لأنَّ الأنونة من حيث هي أنوثة ليست معبّرة عن عواطفِها ولا هي غلابة تستولي على الشَّخصية الأخرى التي تقابلُها ، بل هي أدنى إلى كتمانِ العاطفةِ وإخفائها ، وأدنى إلى كتمانِ العاطفةِ وإخفائها ، وأدنى إلى تسليم وجودِها لمن يستولي عليه من زوجٍ أو حبيب ، ومتى فقدتِ الشّخصية صدق التّعبير ، وصدق الرّغبة في التّوسّع والامتداد واشتمال الكائنات كلّها ، فالذي يبقى لها من عظمةِ الشّاعرية قليل.

ولا ينفي قولنا هذا أنَّ الأنثى قد تعبّرُ عن الحزنِ ، لأنَّ الحزنَ لا يناقضُ

استعداد الشَّخصية للتسليم والاستناد إلى غيرها ، ولهذا كانتِ الشَّاعرةُ الكُبرى التي نبغَتْ في العربية باكيةً راثيةً وهي الخنساءُ ، ولم يكنِ الشَّواعرُ الكُبرى التي نبغَتْ في العربية باكيةً راثيةً وهي الدَّولتيْن العبّاسيّة أو الأندلسيّة إلا المعروفات من الجواري والعقائلِ في الدَّولتيْن العبّاسيّة أو الأندلسيّة إلا مقلّدات مردّدات ، لا تجتمعُ من شعرهن الجيّد صَفَحات»(١).

* وبالطَّبع فهذا الكلامُ يمثّلُ رأيَ العقّاد وحْدَه ، والواقعُ يخالفُ ذلك ، حيث نجدُ كثيراً منَ النِّساء في مختلفِ العُصور يُجِدْنَ فنونَ الشَّعر ، وقد تعرّضنا لذكْرِ طائفة منهنّ في موسوعتِنا الجميلةِ الشَّهيرةِ الكبيرة: «نِسَاء في حَيَاةِ المشَاهِيْرِ» (٢) وسيجدُ القارىءُ فيها ما تشتهيهِ نفْسُه بإذنِ الله .

* أمّا السَّيّدةُ زينب فوّاز فكان لها نصيبٌ موفورٌ في هذه الموسوعةِ الجميلةِ ، ولها أشعارٌ جميلةٌ ، أجادَتْ من خلالِها في فنونِ شتّى ، ومن شِعْرها في فَضْل الشَّرق وهذا ما يتوافقُ مع فكرتنا في هذا الكتاب قولُها: لِلشَّرقِ فَضْلُ السَّرقِ وهذا ما يتوافقُ مع فكرتنا في هذا الكتاب قولُها: لِلشَّرقِ فَضْلُ السَّرقِ وهذا ما يتوافقُ مع فكرتنا في هذا الكتاب معْجبِ لِلشَّرقِ فَضْلُ السَّرةِ إنَّه يأتي الوجُودَ بِكُلِّ حُسْنِ معْجبِ والغَربُ أَظْلُمُ مَا يكُونُ لأنَّنا نشقى بفرقةِ شمسنا في المغربِ

* وفي مضمارِ المعارضاتِ الشّعريّة كان لزينب فوّاز أثرٌ جميلٌ ، وصوت صدّاحٌ ، وهمسٌ ممْراحٌ ، ففي رحلة الغَزلِ النّسوي الرّقيق ، عارضَتْ زينب فوّاز بحتريَّ الأندلس ابن زيدون في نونيتهِ الشَّهيرة كَما سَنَرى ، وكذلك في قَافيّتهِ الجَميلةِ:

إنّي ذكرتكِ بالزَّهراءِ مُشْتاقًا والأفقُ طَلْقٌ ووجْهُ الأرضِ قَدْ راقًا * فقد احتلَتْ هذه القصيدة جوانح الشُّعراء ، في جميعِ العُصور من

 ⁽۱) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي (ص ١٢٦) منشورات المكتبة العصرية صيدا.

 ⁽۲) سيصدر هذا الكتاب في مجلدين كبيرين بعون الله ومدده وتوفيقه وكرمه.

الرِّجالِ والنِّساء ، فقالَتْ تعارضُها بمعانٍ تحاكي الحِسَان جَمالاً ، وتُناعي الغيدَ الأوانِس دلالاً:

لاَ زَالَ قَلْبِي مَدَىٰ الأَيّامِ خَفّاقًا تَكُوّنَ الجِسْمُ منْهُ مِنْ سَنَا قَمَرِ نُورٌ تَجلَّىٰ عَلَى الأرواحِ منْفَرِداً سَرى غَرامُك في قَلْبِي وفي جَسَدِي كُلِّي بِكُلِّك مَشْغُولٌ ومُرتَبِطٌ كُلِّي بِكُلِّك مَشْغُولٌ ومُرتَبِطٌ وأَصْبِحَ القَلْبُ منْ وجْدٍ يُذَوِّبُه وأَصْبِحَ القَلْبُ منْ وجْدٍ يُذَوِّبُه

وبَدْرُ حُسْنِك يَجْلُو العَيْنَ إِشْرَاقًا حَتّى تَكَامَلَ إِلْماعاً وإَيْنَاقًا حَتّى جَلَى منْهُ في الأَحْشَاءِ إحْداقًا لِنَاكَ أَثَرَ إِسْقَاماً وإخْراقًا فلَسْتُ أَشْكُو إلى لُقياك أَشُواقًا نورُ الشَّبيبةِ تهْيَاماً وإشْفَاقًا (١) نورُ الشَّبيبةِ تهْيَاماً وإشْفَاقًا (١)

* ولزينبَ مُتغزّلةٌ بهذهِ القصيدةِ اللاميّة على طَريقةِ شُعراء عَصْرِها وما قَبْله ، حيثُ تقول:

جَمَعتني يوماً والحبيبُ مناذِلُ دَارَتْ كؤوسُ الأُنْسِ فيما بيننا وغَدا يُعَاطيني مُدَامَ حَديثِهِ مالَتْ بنا الصَّهباءُ في سُنَنِ الهَوىٰ جاذبْتُه نحوي وكانَ مقنعاً فلَمسْتُ بَدْرَ التَّمِّ بينَ أنامِلي

وتَعَطَّفَ الدَّهْرُ الذي هُوَ باخِلُ وبَدا لَدَيْنَا في الغَرامِ دَلائِلُ واللّحظُ بالسِّحْرِ الحلالِ يغاذِلُ حتّى وجَدْنَا للكلامِ أوائِلُ فتمايلَ القدُّ الرّطيبُ العَادِلُ لكنَّه قد حَال دُوني حَائِلُ(٢)

* وفي المجالاتِ السِّياسيَّة والوطنيَّة نجدُ صوتَ زينب فوّاز يملأُ الأَسْماع ، من ذلك أنَّها قالَت مهنَّئة جلوس السُّلطان عبد الحميد النَّاني عام (١٩٠٥ م):

> عيدُ السُّعود على سَعْدِ السُّعود عَلا ويـومُـهُ زادَ فـي الأفـلاكِ بهجتهـا

وغَيْهِبُ النَّحسِ عنَّا شَطَّ وارتحلا وزيّنتْ مصرُ حيثُ البشرُ قد شَمَلا

 ⁽١) انظر موسوعتنا (نساء من الأندلس ص ٤٤٧) ، وأعلام النساء (٢/ ٨٣).

⁽Y) أعلام النساء $(7/ 14 e^{\Lambda})$.

ولجنة العيدِ قامتْ تحتفي فرحاً فأشْعَلَتْ ضوءَهَا بالكهرباءِ وقد وتلك راياتُ مصر صفَّقَتْ طرباً بقولِه دُمْ أمير المؤمنين لنا أرسَلْتَ للعِلْمِ ضوءاً فاستنارَ وقد تذكارُ مولى الورى عبدُ الحميد لنا فاستبشروا معشرَ الإسلام أنَّ لنا

مقرونة بسخاء غيثه هطلا جاز الحدائق حتى السهل والجبلا يوم الجلوس وضج الجمع مُبتَهِلا ركْنا ركينا وكهفا لا يُنالُ ولا كان انزوى زمنا واليوم قد كَملا روح الحياة ونجم البؤس قد أفلا حصناً منيعاً يردُّ الخصم مُعْتَقلا(١)

* وهذه دعوة زينبيّةٌ إلى الجِدّ والاجتهادِ ، إذ كان هدفُها أنْ يقومَ مجتمعٌ عربيٌ على أساسِ منَ العدالةِ والمُسَاواة ، فترفع صوتها مدوياً في الشّرق والغرب ، تهيبُ بأمّتها أنْ تنفضَ عن كاهلِها غبارَ الجهْلِ والتّواكلِ ، وأن تسعى إلى العلياء بالتَّضحيةِ وبذْلِ الدّماء ، فهذا هو السَّبيل إلى العُلا وإلى المجدِ ، لذلك نراها تنظمُ قصيدةً طويلةً منها قولُها:

لَولاً احْتِمالُ عَنا وبَذْلُ دَمَاءِ الله يَسْلَمُ الشَّرفُ الرفيعُ منَ هذا مقالُ الأقدمينَ ولم تَجِدْ إِنْ لَمَ نُشَيّدُ ما أقامُوا أُسَّهُ يا حَسْرةَ الآباءِ في أجداثِهم يا حَسْرةَ الأمواتِ لو نُشِروا فلم يا خَجْلةَ الأحبابِ لو فخروا بِنا وَاهاً رجالَ الشَّرقِ صرنا عبرةً وهناكَ في الأصلابِ قومٌ بعدنا وهناكَ في الأصلابِ قومٌ بعدنا لم يُنزِلِ الرّحمنُ داءً في الورى ولئن نَبا السَّيفُ الصَّقيل ففي النّهى ولئن نَبا السَّيفُ الصَّقيل ففي النّهى

لم يَرْقَ شَخْصٌ ذِروةَ العَلياءِ الأذى] إلا بسَفْكِ دَمِ على الأرجَاءِ بِدَاً لنَا منْ شرعَةِ القُدَماءِ فلْنَجتنِبْ قصْداً لهدم بنَاءِ فلْنَجتنِبْ قصْداً لهدم بناءِ إنْ أخْجَلَتُه م خيبَةُ الأنباءِ يجدوا الذي ظنُّوه في الأحياءِ إذْ ينظرونَ شماتَة الأعداءِ بينَ الورى من سَامعِ أوْ رَائي يحصُون ما يَمْضِي منَ الأنباءِ يحصُون ما يَمْضِي منَ الأنباءِ الله وجاء ليه بخير دواءِ والعِلْمِ سَيْفَا حِكْمةٍ ووَفاءِ والعِلْمِ سَيْفَا حِكْمةٍ ووَفاءِ

ولئن كَبَا الطَّرفُ الجوادُ فلم يزَلُ ولئن أبى ذو الحقْدِ نيلَ رجائِنا هَيْهَاتَ مَا العُميانُ كالبُصَراء نَروي عن الماضين ما فعلُوا فما

للعقْلِ ميدانٌ لِنَيْلِ عَلَاءِ فَالرَّأِي مِصَاءِ فَالرَّأِي يضمنُ نيلَ كل رَجَاءِ كلل ولا الجُهلاءُ كالعُلَماءِ يروي بنو الآتي عن الآباء(١)؟

* ومن الفنونِ الشّعريّةِ التي طرقَتْها زينب فوّاز فنَّ الحنين إلى الأوطانِ ، إذ كان لها وطنُّ آلَتْ ألّا تبيعَه مهما كانتِ الظُّروف ، وهي لن تنسّاه مهما بعُدتِ المسافاتُ ، فوطنها مهوى فؤادها ، ومسقطُ رأسِها ، ومجمعُ أحبّتها؛ فقد كانت زينب فوّاز في مصر مشهورةً ناجحةً في مجدِها الأدبيّ والعلميّ ، إلا أنَّ ذلك كلَّه لم يستطع أنْ ينسيَها وطنها الأوَّلَ ، فقد كانت زينبُ دائمةَ الحنينِ إلى مسقطِ رأسِها في قلْعَةِ «تَبْنِين» تلك القلعة التي بناها «هيوسنت» صاحبُ طبريّة ، وذلك في سنة (١١٠٧ م) وجعلَها آنذاك معقلاً لغزوِ صُور وما يليها.

* ومن بدائع شغرِها في الحنينِ إلى وطنِها وقلعتها ما أرسلتُهُ من مصرَ الله ومن بدائع شغرِها في الحنينِ إلى وطنِها وقلعتها ما أرسلتُهُ من مصرَ الله صاحبِ مجلّة العرفان ، حيثُ بعثَتْ له أبياتاً تخاطب بها قلعة «تبنين» وقالَتْ له: «ذكَّرتَنِي يا صَاحِبَ العِرفانِ ما لا أنساهُ منْ معالم أوْطَاني ، فنطَقَ لِسَاني مُخَاطباً لِقَلْعةِ تَبْنين التي أَفْنَتِ الأَجْيَالَ لَمْ يؤثّرُ على أسوارِها الدهرُ ، فقلتُ:

يَا أَيّها الصَّرْحُ إِنَّ الدَّمعَ منهملُ وهلْ بقي فيكَ مَنْ ينعىٰ معي فئةً قد كُنْتَ للدّهْرِ نُوراً يُسْتَضاءُ بهِ كَـمْ زِيَّنَتْكَ قـدودُ الغيدِ رافلةً

فَهَلْ تَعَيدُ لَنَا يَا دَهْرُ مَنْ رَحَلُوا هُمُ المقاديمُ في يُومِ الوغيٰ الأُوَلُ أَخْنَى عَلَيكَ البِلَيٰ يَا أَيُّهَا الطَّلَلُ بالعزّ تسمو ووجْهُ الدَّهْرِ مقتبلُ

⁽١) أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥) نقلاً عن مجلة العرفان (١/ ٢٨١).

أبكيكَ يا صرحُ كالورقاءِ نادبةً قد كُنْتَ مسقطَ رأسي في رُبي وطني «تبنين» إنْ كنتِ في بُعْدي على حزنٍ وقفتُ وقفةَ مشتـاقِ بــه شغَــفٌ إذِ الأحبَّةُ قد سارتْ رحالهمُ القلعةُ؛ الشُّوقُ! لا الوادي بها فَرَحٌ فالنَّفْسُ شاكيةٌ والعينُ باكيةٌ أَعْلَى «هيوسنت» أبراجاً لها عَجَباً

شوقاً إليهم إلى أنْ ينتهى الأجَلُ إنَّ الدُّموعَ على الأوطانِ تنهملُ فعند قربي الحشَى بالوجْدِ يشتعلُ علَّىٰ أرى أثراً يَحْيَا بِهِ الأملُ فزادَ شوقى كما قَلَّتْ بيَ الحِيَلُ كعهده بالألى كانُوا ولا الجبَلُ والكبــدُ داميــةٌ والقلــبُ مشتعـــلُ تصارعُ الدّهرُ لا ضعفٌ ولا مَلل(١)

تلك النَّفثات الفلسفيّة ، والوقّفات * ومن ألوانِ أدب زينب فوّاز ، التَّأْمَليَّة ، التي تدلُّ دلالةً واضحةً على إيمانها بزوالِ زُخرفِ الدُّنيا وبهجتِها ، وأنَّ الأمانيَّ ستكونُ متلاشيةً يوم المنايا ، والذي يبقى منَ الإنسانِ هو ذكْراه الطّيّبة ، ومحاسنُهُ وشمائلُه الفاضلة ، تقولُ زينب:

نظَلُّ نرجُو وما نرجُوه نَحْشَاهُ والمَرءُ في جوهَرِ الدّنيا حكيٰ عَرضاً يرولُ عنها وتبقى عنْـه دنْيــاهُ بين الحوادثِ والعُقبى قُصاراهُ فإنَّ تبديدَ ذاك الشَّمْل عقباهُ عمر تحيل أمانيه مناياه سوى محاسنِ ما تبقيهِ ذِكْراهُ(٢)

بَـدْءُ الحيَـاةِ وجُـودٌ حيـثُ نَغْشَـاهُ والعَيْشُ في كرةِ الغبراءِ مشْغَلَةٌ والجَمعُ ءَهْما صفَتْ أَيَّامُ نضْرتهِ وَالسَّعِيُ فِي الدَّهْرِ آمالٌ يمرُّ بهِ لا شَيءَ منْ زِينَةِ الدُّنيا لِسَاكِنها

* وفي مجال الرّثاء كان لزينب فواز مشاركةٌ ، وكانت أنّاتُها تصلُ إلى

أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥) نقلاً عن مجلةِ العرفان (٢/ ٢٨٩). ومنَ الواضح أنَّ في هذه الأبيات أنَّاتِ الحنين ولوعتَه ، ومكابدةَ الشُّوق الذي لم يتركُ زينب لحظةً واحدة ، ولكنَّها همساتُ المحبين المشتاقين إلى أوطانهم يرسمونها على صفحات الأيَّام.

زينب فواز (ص ٧٠). **(Y)**

القلوبِ ، ومن أمثلة ذلك قولُها في رثاء أخيها محمّد فواز الذي وافَتْه المنية عام (١٩٠٣ م)؛ إذ رثته بقصيدة لاميّة (١) ومنها:

مُصَابٌ عظيمُ الوقْعِ في النَّفْسِ هائلُ وخَطْبٌ جَسِيمُ الصَّدعِ للقلبِ غائِلُ سَأَبِكيكَ مَا الأطيارُ تألفُ وكْرَهَا ومَا صَدعَتْ بين الصُّدورِ البَلابلُ

* ومنَ الأَشْعارِ الوجدانيّة التي ضمَّنَتْها في رواياتِها ، قولُها في روايةِ «حُسْنِ العَواقبِ»:

مَا سَلَّمَ اللهُ هُو السَّالِمُ ليس كمَا يرعمُهُ الرَّاعِمُ التَّاعِمُ تَجري المقاديرُ التي قدرتْ وأنفُ مَنْ لا يرتضي راغِمُ

* وقولُها:

إذا رَامَ التَّخلُّ قَ جَاذَبَتْ هَ خَلائقُ هِ الطَّبْعِ القديمِ الطَّبْعِ القديمِ التَّخلُ ولم تكن زينبُ فوّاز تجيدُ المديحَ والرّثاء والحنين فحسب ، وإنّما كانت تجيدُ جميع الألوانِ الأدبيّة ، فقد ذكروا أنَّه قد جرت مناظرةٌ حادةٌ بينها وبين كاتبٍ مصريّ يُدعى أبو المَحاسِنِ ، ويبدو أنَّ أبا المحاسنِ هذا كان يتَفاصَحُ ويتعالَم ويتحدّثُ عما ليس فيه ، فأحياناً يتحدّث في الفلسفة ومرة يتحدّث في الفلسفة ومرة يتحدّث في الفقه ، وطوراً في النّحو والعروض يتفاصَحُ وينتقدُ الخليلَ بنَ أحمد الفراهيدي ، وهكذا يجري في طرق ليست منْ مجراه ، فكتبتْ إليه تهزأ به وتقول:

ذُكِرَ الفَلاسِفَةُ الأكابِرُ في الرَّأْيِ حين تكونُ حَاضِرْ حلُ فأنْتَ نحويٌّ وشَاعِرْ حدِ من ابن فَورَكَ إنْ تُناظِرْ

أَوَلَسْتَ أَرَسْطَ اليسَسَ إِنْ وَأَبِ وَخَنيفَ لَهُ سَاقِطٌ وَأَبِ وَخَنيفَ لَهُ سَاقِطٌ وَكَ ذَكِ رَالخَلي وَكَ ذَكِ رَالخَلي مَنْ هِرمس مَنْ سِيبوي

⁽١) سنذكر القصيدة كاملة بعد قليل بإذن الله؛ أو سنوردُ معظمها لجَمالِها.

* ولزينب فنونٌ شعريةٌ أخرى ، ومنها أنَّ محمّد بك غالب قد قرّظ كتابَها «حُسْن العَواقب» ، وكان إذ ذاك في الرَّابعة عشرة من سنيّه ، فقالَتْ تمدحُه من جملةِ أبيات:

يَا وَاحِداً في عُلهُ لَكَ الثَّنَاءُ المورِّدِدُ وَخَاطَبَتْكَ المعَالِي الهنا وسُدْ يا محمّدُ لاَ زِلْتَ تَعْلُو وتَرقى لكِلُ مَجْدِدِ وسُوددُ

* وقالت في تاريخ ولادة مَنْ اسمُها فاطمة على حسَاب الجُمّل ، وهذا مما يزيدُ في براعتها:

زَهَا أُفتُ العَلْيَا بِشَمْسِ مُنيرةٍ لَها مَنْبَتُ تَروي الليالي مكارِمَه وجَاءَ بإقبالِ فقلْتُ مؤرِّخاً ألا وَافَتِ البشرى بميلادِ فَاطِمَه

* ولزينب فواز يدٌ طُولى في فنّ التَّشطير ، من ذلك ما ذكرهُ صاحب مجلّة المنار في مجلّته قال: «لنادرةِ العَصْرِ ، وأميرةِ النّظمِ والنّثر ، السَّيّدة زينب فواز حفظها الله ، تشطيرُ هذَيْن البيتيّن ، ولكنّنا لم نرتضِ التَّشطير فتركْنَاه». ثمّ أوردَ البيتيّن وهُما:

وَمَصْبَاحٌ كَانَ النُّورَ منْهُ مُحيَّا مَنْ أُحبَّ إِذَا تَجَلَّى وَمَصْبَاحٌ كَالَّهُ وَوَلَّى أَغَارَ على الدُّجى بِلِسَانِ أَفْعَىٰ فَشَمَّر ذَيْلَه فَرقاً وَوَلِّى

قال: ولَها أمدَّ اللهُ في حياتِها تشطيرُ هذَيْن البيتَيْن:

أَمِنْتُ إلى ذَا وذَاكَ فَلَمْ أَجِدْ أَخَا ثِقَةٍ إلاّ استَحَالَ إلى العكْسِ فَأَصْبحتُ مرتاباً بمن شَطَّ أو دنا من النَّاسِ حتّى كدتُ أرتابُ من نفسي [أَمِنْتُ إلى ذَا وذَاكَ فَلَمْ أَجِدْ] من النَّاسِ مَنْ أرجوهُ في اليُسْوِ والبؤسِ وَمَا رُمْتُ مِنْ أَبناءِ دَهْوٍ مُعَاندٍ [أَخَا ثِقَةٍ إلاّ اسْتَحالَ إلى العَكْسِ] وَمَا رُمْتُ مُرتاباً بِمَنْ شَطَّ أو دَنَا] وألفَيْتُ أَهْلَ اليومِ مثْلَ بني أَمْسِ

[مِنَ النَّاسِ حتَّى كَدْتُ أَرْتَابُ من نَفْسي [(١) وأيقَنْتُ أنَّ لاَ خِلَّ فِي الكُونِ يُرتَجِي

* وكان لزينبَ غَرامٌ في فَنّ التَّشطيرِ ، ومن ذلك أنَّها قد شطَّرْت هذَيْن البيتين الشُّهيرَيْن:

> ومَا مُن كاتب إلا سَيَبْليٰ فلا تكتُبْ يمينُك غيرَ شيء [وَمَا مِنْ كَاتب إلّا سَيَبْلَى] وتمحوهُ اللّيالي في سُرَاهَا [فَلا تَكْتُبْ يَمَيْنُكَ غيرَ شَيءٍ]

ويُبقى الدَّهْرُ مَا كتَبَتْ يَداهُ يسُرُكَ في القيامةِ أَنْ تَراهُ ويَبلغُ بدءَ غَايتِ انتهاهُ [ويُبقى الدُّهْرُ ما كتَبَتْ يَدَاهُ] به يرضى لك الزُّلْفَى الإلهُ ولاَ تَعْمَـلْ سِــوى عَمَــلِ مُفيــدٍ [يَسُــرُّكَ فــي القِيــامَــةِ أَنْ تَــراهُ]

* وهكذا رأينا كيف طرقَتْ زينبُ فوّاز فنونَ الشِّعْر وألوانه ، وكانت شاعرةً منَ الطَّبقةِ الأُولى بين نساءِ عَصْرِها ، قال عنها صاحب مجلَّة العِرفَان: «وبالإجمالِ فإنَّ زينبَ فوّاز كانت في عَصْرِها نسيجَ وحدِها ، وفريدةً عَصْرِها ، مع ما كان في كتبِها وكتاباتها وشعرُها من الأغْلاطِ ، ولم يكن اشتُهر غيرها منَ النّساء في مصرَ بالكتابةِ والشّعر والتّأليف» (٢).

* وفي تاريخ نسائِنا المُعاصرات نجدُ شاعرةً مجليةً من مثل ضيفتنا زينب فواز ، قد تفنَّنتُ في فنونِ الشَّعر ، ممّا جعَل الزّركليّ يقول عنها: «لها ديوانُ شعر جمعَتْ فيه منظومات لها. . »(٣).

وبذلك نعتبرُ زينب من أميراتِ الشّعر في عَصْرنا الحاضر ، حيثُ ملأتْ بصوتها الأسماعَ في كثيرٍ من المجالاتِ ، وكثير من المتفرّقات التي تدلُّ

أعيان الشيعة (٧/ ١٣٥). (1)

أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤). **(Y)**

الأعلام (٣/ ٦٧). (٣)

على نبوغها في فنّ الشّعر ، ومن ذلك استخدامها حسّابَ الجُمَّلِ في شغرها _ كما أسلفنا _ كقولها في قصيدة بائية جميلة تقرّظُ منْ خلالِها جريدة الفَتَاة ، وأرَّخَتْ لها في سنّة (١٣١٠ هـ) ، فلنستمع إلى زينب فواز وهي تشدو مقرّظة جريدة الفَتاة ؛ ومشيرة لمكانة الجنْس اللطيف :

عِنُ الفتاةِ يزينُ أربابَ الأدب عَنُ الفتاةِ يزينُ أربابَ الأدب جَاءَتُ لنَا هِنْدُ (۱) تَزُفُ فتَاتَها وغَدتُ مُحَلَّةً بكلِّ فَضِيْلَةٍ وصَفَتْ جَمالَ سِماتِها وصَفَتْ جَمالَ سِماتِها لله درُ فتاتِنَا وفُنونِها وفُنونها فليهنا الجنسُ اللطيفُ بنهضة فليهند الشرق إنَّ فتاتَنا وزَهَتْ فقلتُ مع الهَنَا تاريخُها وزَهَتْ فقلتُ مع الهَنَا تاريخُها

وبها ازْدهَى الجنْسُ اللطيفُ كَما أُحِبْ حورَ المعاني المُسفراتِ ولاَ عَجَبْ جمَعَتْ حضارتَهَا فصيْحاتُ العَربْ أفكارُنا مالَتْ وملْنَا في طَربْ فلقد حَوَتْ من كلّ مَعْنَى منْتَخَبْ فلقد حَوَتْ من كلّ مَعْنَى منْتَخَبْ ما كانَ يبلغُها الزَّمانُ ولو طَلَبْ وفَّتْ بما نرجُو وتم لنَا الأَرَبْ عنْ الفَتاةِ يزينُ أربابَ الأَدَبْ (٢) عنْ الفَتاةِ يزينُ أربابَ الأَدَبْ (٢)

۷۷ + ۲۱۶ + ۷۷ + ۲۰۲ + ۸۸ = ۱۳۱۰ هـ

* ومن شِعرِها في مَجالِ التَّهنئةِ أيضاً قولُها مِنْ قصيدةٍ لاميّة بعثَتْها للجريدةِ النَّيل ، بحلولِ عام جديدٍ ، وذلك سنة (١٣١٠ هـ):

وَنيلٍ قد جَرى في أرضِ مصْرٍ فهــنا مَـدُهُ مِـنْ بَحْرٍ عِلْمٍ فهـنا أَيُهـا المــولــى بعـامٍ يشـرنـا بـأنَّ العِلْـمَ ينمـو يبشـرنـا بـأنَّ العِلْـمَ ينمـو فــلا زَالَـتُ لنَـا الأتــامُ تـرهُـو

يحاكي نِيْلها الطَّامي الجَليْلاَ وذاكَ مُسَلْسَلٌ يروي الغَليْلِاَ أفاضَ اليُمْنَ والعزَّ الجَميْلاَ وأنَّ الجَهْلَ شارفَ أنْ يرولاً ويَجْري نيلُنَا بالصَّفْو نِيْلا

⁽۱) «هند»: المقصودُ فيها هند نوفل التي أسَّستْ جريدةَ «الفتاة» عام (١٨٩٢ م) في القاهرةِ؛ وهي من أول المجلات النسائية التي أصدرتها النساء في العصر الحديث.

⁽٢) معجم الأديبات الشواعر (ص ٢٦٨ و٢٦٩).

* وقد عَارضَتِ السَّيِّدةُ زينب فوّاز أكَابرَ الشُّعراء في الأَعْصُر الخاليةِ منَ المَّامِقَةِ وَالْمَارِقَةِ والمَّارِبَةِ ، وأَشَرْنَا قبلَ قليلٍ إلى أنَّها عارَضت ابنَ زيدون في قافيتهِ الشَّهيرة؛ وقد عارضَتْه أيضاً في نونيّته الأَشْهر:

أَضْحَى التَّنَائِي بديلًا منْ تدانيناً ونابَ عن طِيْبِ لُقيانا تَجَافيْنَا فَقَالَتْ قَصِيدةً منها هذه الأبيات الجميلة:

أَهْوى لِقَاهَا ويُصْبِيني تَوَدُّدُهَا مع العَفَافِ وهَذا القَدْرُ يكُفيْنَا أَهُو بِهَا وهُي تَلْهُو بِي على شَرفِ ما أَقْدسَ الحُبَّ في قَلْبِ العَفيفينَا لا أَبْتَغي جنَّةً في طيّها سَقَرٌ إذا يُساوي أَعَادينَا مُحبينَا ومَا علينا إذا ما لاَمَنَا بَشَرٌ نحنُ المجَانين إنْ لُمْنَا المجَانينا

* ولها في المعارضةِ أيضاً هذه التَّائيَّةُ الرَّاقصةُ الجميلةُ التي نسجَتْ معانيها على طريقةِ القُدماء ، وأتت بما يشبهُ أنفاسَهم ونفثاتِهم ، وتغنَّتْ بمعانيهم ومغانيهم ، فقالت:

عَـزيـزُ عَلَيْنَا يَـا أَعـزَ الأحبَّةِ ولم آتِ ذَنباً في هَوَاكَ اقترفْتُه فَتِلْكَ سَجايا الغَانياتِ فَضيْلَةٌ فَرَامِي وسَقْمِي في هَوَاكَ أَبَحْتُهُ غَرامِي وسَقْمِي في هَوَاكَ أَبَحْتُهُ بِحَقِّـكَ لا تُصْغِي لِتَفْنيدِ عـاذلِ فَجُدْ لي بلُطْفِ من محيّاك يا رشا بِبَاهي المحيّا والغرام وعاذِلي بِبَاهي المحيّا والغرام وعاذِلي أعاتبُ دهري فيكَ يا غاية المُنَى مَتَى تنقضِي تلكَ اللّيالي تكرُما مَتَى تنقضِي تلكَ اللّيالي تكرُما

بأنْ ينظُم الوَلْهَانُ غَيْرَ المودَّةِ على الحبِّ غَيْرَ الإِتشَاحِ بعِفَّةِ وقد خصَّني الرّحمنُ منها بمنْحَةِ وقد خصَّني الرّحمنُ منها بمنْحَةِ وإعْلانُ هذا الوَجْدِ منْ دُرِّ مُقْلتِي فمنْ عادَةِ العُلْقَالِ إلقاءُ فِتْنَةِ فمنْ عادَةِ العُلْقَالِ إلقاءُ فِتْنَةِ بالشراقِ تلكَ الطَّلَعة المُسْتَهِلَةِ لقد صارَ ذلي والهَوانُ وشقُوتي عسى تسمحُ الأيّامُ منْكَ بنظْرَةِ عسَى تسمحُ الأيّامُ منْكَ بنظْرَةِ فقد أرجَفَ اللاجي بِبيْنٍ وجَفْوةِ

* وفي ميدان الرّثاءِ كان لزينب فوّاز صولات وجولات ، فهي في رثائها تذكّرُنا بأكابرِ القُدماء الذين برعوا في الرّثاء من جماعةِ النّساء ، من مثل: الخِرنِق بنت بدر ، وليلىٰ بنت لكيز المعروفة بليلى العفيفة ، وجنُوب أخت عمرو ذي الكَلْب ، وصفيّة الباهليّة ، والخنساء بنت عمرو السُّلميّة ، وصفيّة بنت عبد المطّلب ، وعمرة بنت مرداس التي أهُها الخنساء ، وعمرة الخنعميّة ، والفارعة بنت معاوية ، وأمّ كُلثوم العامريّة ، وليلىٰ الأخيليّة ، وليلى بنت سَلمة ، وليلى بنت طريف الشَّيبانية ، وميّة بنت ضرار الضَّبيّة ، وهند بنت أسد ، وهند بنت عتبة ، وهند بنت حديفة ، والهيفاء بنت صبيح ، وغيرهن كثيرات جدّاً ممن عمرَتُ بِسِيرهنَّ وأخبارهن موسوعتي الجميلة «نساء في حياة المشاهير» ، و«نساء في قصور الأمراء» ، و«فارسات من التّاريخ» وغير ذلك من كتُب صنفتُها في النِّساء ، وهي مطبوعة منتشرة بين أيدي النّاس ، وقد لاقتِ القبولَ من القرّاء الأحبّة الذين هم رصيدي الحقيقيّ ، وأرجو الله أنْ يزيدَ في هذا الرّصيدِ المفيدِ المبارك ، وأنْ يجعلنا من زُمْرة الشّعداء .

* ونعودُ إلى السَّيِّدة زينب فوّاز ، وإلى رثائِها الذي ترسَّمَتْ فيه خُطى مَنْ سبقها من النِّساء ، بل ومنَ الرِّجال الشُّعراء ، فقد رثَتْ زينب أخاهَا وشقيقَها محمّد على فوّاز الذي ماتَ في شَهر ذي القعدة عام (١٣١١ هـ) ، فرثتُه بمراثٍ عديدة ، قُرئَتْ في المجالسِ الأدبيّة ، فنالت إعجابَ الأدباءِ والنُّقّاد في مصر والعالم العربيِّ ، ومن بدائع مراثيها في محمد أخيها ، تلك القصيدة اللاميّة الطّويلة التي بلغَتْ فيها السُّها ، وذكَّرتُنا بالخنساء في رثائها لأخيها ، فقد رثتْ زينبُ أخاها رثاءً حارّاً أظهرتْ من خلالهِ عظم مصابها ، وخاطبتْ عينَها كي تجود بالدّمع الحزين الغزير ، كما تحدثت عن الشّجن الذي سكن فؤادَها ، والحسْرة التي جعلَتْها باكية نائحة كنواح عن الشّجن الذي سكن فؤادَها ، والحسْرة التي جعلَتْها باكية نائحة كنواح الخنساء على فقد صخرٍ ، ولن أذهبَ ببهاءِ هذه القصيدة اللاميّة الزَّينبية ، وها أنا ذا أقتطفُ لكَ عزيزي القارئ ـ من أزاهرِها ما تزكو به النُفوس ،

وأهْصُرُ منْ معانيها ما يغذّي الألباب ، تقولُ زينبُ في رثاء أخيها محمّد الذي وافته المنية في يوم (٢٩ ذي القعدة) من عام (١٣١١ هـ):

وخَطْبٌ جَسِيمُ الصَّدع للقَلْب غَائِلُ شجُونٌ تَـوالَتْهـا الـرَّزَايـا النَّـوازِلُ فصَبْراً وإنْ عَزَّ المعينُ المُجامِلُ يــذَمُّ إذا بِــالبَيْــن جَــدَّتْ رَوَاحِــلُ إذا الشَّمْل غالَتْه الخطوبُ الغَوائِلُ وإلَّا فدعْوَاكِ الأنْحُوَّةَ باطِلُ لعلَّ الليالي أغْفَلَتْ ما تُحاوِلُ إِلَى وقَدْ ضَنَّتْ بِجَمْعي المحَافِلُ وقد أظلمَتْ منّي العيونُ الهَوامِلُ فعَلْتَ ولمْ يَشْغَلْكَ عنِّيَ شَاغِلُ فتلْكَ شُجونٌ في الفُؤادِ شَواغِلُ لجالَ على الغَبْراءِ منْه الزَّلازِلُ لقد هَطَلَتْ فيكَ الدُّموعُ الهَواطِلُ كؤوسُ المنَايَا والخطوبُ الصَّوائلُ بهِ حَسَرات شَأْنُها إذ تُشَاغِلُ لياليهِ حتّى لَيْسَ يـرجُـوهُ آمِـلُ وقالَ اصطبْر يا صَاح فالبُرءُ حَاصِلُ^(١)

مُصَابٌ عَظيمُ الوَقْع في النَّفْس هَائِلُ وحُزْنٌ بِهِ فَاضَتْ َدموعٌ وهُيِّجَتْ بِهَا القَدَرُ الأَعْلَىٰ تَنزَّلَ حُكْمُهُ نعمْ يُحْمَدُ الصَّبرُ الجميلُ وإنَّما حرامٌ على الأَجْفَانِ صَوْنُ دُموعِها فيا عَينُ جُودي ثمّ يا نَفْسُ فاجْزَعي ويا لِمّتِي عُودي علىٰ غيرِ عودةٍ وهَيْهاتَ ما عادَ الزَّمانُ براجع سَرى البَيْنُ في أطناب بيتي فَهَدَّهُ أَلا يا غُرابَ البَيْنِ جُوزيْتَ بالذي فَحسْبُكَ مَا أَلَقَيْتَ بِينَ جُوانِحِي ولو بُثَّ ما لاَقیْتُ منْ أَلَم النَّوى فيا شَهْرَنا ذا القِعْدةِ الوافرِ الرَّدى وفي التَّسْع والعشرينَ منكَ تبادَلَتْ فنَال أخيَ ريْبُ المَنونِ ونَالَني تَطَاوَلَ فيهِ سُقْمُهُ فَتَطَاوَلَتْ وجاءَ طبيبُ العَصْرِ بشَّر بالشَّفَا

إنَّ الطّبيــــب بطبّــــه مغـــــرورُ بالبُرءِ من كلّ السّقام بَشيرُ عجّلْ ببُوسي حيثُ أنتَ خبيرُ ثكلمي يشيمر لهما الجموى وتشيرات

 ⁽١) يشبهُ قولَ زينب فواز هنا قول معاصرتها عائشة التيمورية في رثائها لابنتها حيثُ تقول: جاءَ الطّبيبُ ضحيّ وبشّرَ بالشّفا وَصَـفَ التّجـرّعَ وهـو يـزعُـمُ أنّـه فتنفَّسَتْ للحُــزن قــائلــةً لـــهُ وارحم شبابى إنَّ والمدتى غَدتْ

إلى فُحصِ جسْمِي من سبيلِ تحاولُ فدونَ عنَائي ثابتُ الجأْشِ واجِلُ على الخدِّ مِدْراراً منَ الدَّمْع سَائِلُ إلى اللهِ ما أرجُوه والعُمرُ زائِلُ بطرفٍ حَسيرٍ والتَّعَلُّـلُ بـاطِـلُ فَقَدْ بَطَلَتْ دُونَ الْحَيَاةِ الْوَسَائِلُ ولاً أنَّنى قـد ضَمَّنَتْنِى الجنَادِلُ وقَدْ حَالَ ما بينَ الأُخوَّةِ حائِلُ ومنْ عادةِ الدّنيا جُمُوعٌ زُوائِلُ وفي الجفْنِ أَنْهَارُ الدُّموعِ سَوائلُ ومَا صَدَحَتْ بينَ الصُّدورِ البلابلُ وإنْ عزَّ في حُزني عليكَ المُماثِلُ بهِ ذَهَبَتْ تِلْكَ المنَايا مَراحِلُ أُواخِـرُهَـا في كُـلِّ حيـنِ أُوائِـلُ

فقالَ له المحزونُ ويْكَ أَلَمْ يكنْ فَعَجِّلْ بِبُرئي حيثُ إِنَّكَ عَارِفٌ ولمّا رأى يأسِي الطبيبُ تَنَاثَرتْ ونَادى إلى الأُخْتِ الحزينةِ قائِلاً أُطْنُّ طَبيبي ملَّ عوْدِي وفَاتَني ويا أُخْتُ قد عزَّ اللِّقَاءُ تَجَلَّدِي فواللهِ ما أشْكو مَمَاتى يَافِعاً ولكنّنــي أبكــي علَيْــكِ وحيْــدةً وقد ضنّتِ الأيّامُ في الشَّمْلِ بالبَقَا فقلتُ لـ والنَّارُ تلتهمُ الحَشَا سَأْبِكَيْكَ مَا الأَطْيَارُ تَأْلَفُ وَكُرَهَا ومَا نَاحَتِ الخَنْسَا على فَقْدِ صَخْرِها سأَبكي ومَا يُغْنى الْبُكاءُ مُوَدَّعاً سأبكي عليكَ الدَّهر منّي بحسْرَةٍ

* هذه نفثاتٌ من قصيدة زينب فواز اخترتُها لتدلَّ على تمكّنِها من ناصية الشَّعْر ، وحسنِ استخدامها لِمُحَاكَاةِ القدماء من شعراء وشاعراتٍ ، كما ضمنتْ خلالها مشاعرها وأبانَتْ ببراعةٍ عن روابطِ الأخوّة العظيمةِ ، كما تحدثَتْ عمّا يجولُ بخاطرِها من أحاسيس تجاه أخيها الذي ودَّع الحياة الدنيا وتركها وحيدةً ؛ ولكنّها ستظلّ تبكيهِ وتبكيه بدموع حرّى ما صدحَ طيرٌ ، وما ناحتِ امرأةٌ ، وإن كان لا يُغني البكاء شيئاً.

أَمِيْرَةُ النَّاشْرِ وَالبَيَانِ:

* لئن حلَّقَتْ زينبُ فوّاز في سماءِ الشِّعر ، وكانت من السَّوابقِ والمجلّياتِ في ميدانِ النَّظم ، لقد كانتْ أيضاً من أميراتِ البيّان في النَّثر

والإِنْشَاءِ؛ وكانت مِنْ ذواتِ الخُدور ، اللواتي كتَبْن رقائقَ السُّطور ، ونثرنَ أدبهنّ على الأوراق كالدُّرِّ المنثور.

* وكانت زينبُ فوّاز رائدةً من رائداتِ الحركةِ الأدبيّة في عصرِها ، وكاتبةً اعترف لها أولُو العزم في الكتابةِ وأثنوا عليها؛ فقد كتبَ «حَمْدي يكن» في بعضِ المجلّات: «بأنّه لم يُسْمَع في مصرَ إلا باثنتين منَ الكاتباتِ: عائشة التيمورية ، وزينب فواز» (۱) وقال خيرُ الدّين الزّركليّ: «زينب فواز... أديبةٌ مؤرّخةٌ ، من شهيراتِ الكاتبات..» (٢).

* ومن المعروفِ والمتعالَم عند كبارِ الأُدباءِ والمفكّرين ، أنَّ السَّيدة زينب فواز يُقرنُ اسمُها مع أمراءِ البيّان الذين نَبَهُوا ونبغُوا في عَصْرِها من مثل جمال الدِّين الأفغَاني ، ومحمد عبده ، وأحمد فارس الشّدياق وغيرِهم من رجالِ الأدب ، أمّا من بليغاتِ النّساء وأميراتِ البيان فيُقْرنُ اسمُها مع عائشة التيمورية ، ومَلَك حَفْني ناصف ، وغيرهما ممن نضَتْ قلمَها ، وساهَمَتْ في إثراءِ الأدب وفُنونه .

* ومنَ الطَّريف في حياةِ زينب فواز الأدبيّة ، أنّها لم تتركُ لنا بطاقتها الأدبيّة ، كيما نتعرف حياتها بشكلِ أدق وأفضل ، مع العلْم أنّها تحدّثَتْ عن (٤٥٦ امرأة) من الشَّرق والغرب ، ولم تذكر شيئاً عن نسبِها الأدبيّ ، أو عن أسرتها ، أو ذاتِها ، ولعلَّ مردَّ ذلك الأمْرِ يعودُ إلى طبيعةِ الحياةِ التي عاشَتْها ، والبيئةِ التي كانت تكتبُ من خلالها ، فلعلّهم كانُوا يعدّون هذا الأمْرَ من المعايبِ التي تدين النّساء؛ أو لعلَّ زينب فواز بالذّات كانت تتمشّى مع آداب عَصْرِها وعادات مصْرِها ، فلم تترجمُ لنفسِها ، وإنما تتمشّى مع آداب عَصْرِها وعادات مصْرِها ، فلم تترجمُ لنفسِها ، وإنما

أعيان الشيعة (٧/ ١٣٤).

⁽٢) الأعلام (٣/ ١٧).

تركتِ الأمْرَ لمن يتولون الكتابة والترجمة ، في الوقتِ الذي كان اسمُها يملأُ الأسماع ، يقول «أحمد الزّين» صاحب مجلّة العرفان عن زينب فواز وشهرتها: «مَنْ لم يسمعْ بذكْرِ هذه النّابغةِ العامليّةِ في هذا القرنِ سواء في سورية أو مصر ، أو في سائرِ البُلدان العربية؟ فزينبُ لم تكنْ أبداً مجهولة منذُ أواخرِ القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين ، فَمَنْ يطّلعْ على مقدّمات كتبها ، وما كان يأتيها من تقريظٍ لهذه الكتب ، يجدْ فيها دليلاً على شهرتها في الأوساطِ الأدبيّة والفكريّة في ذلك الحين»(١).

* لقد كانت زينب فوّاز أميرة النَّظم في عَصْرِها، وأميرة البيان في مصرها، وإنَّ أسلوبها يشهدُ لها لا عليها ، وإنَّ كلماتها تشيرُ إلى تمكّنها من ناصيةِ البلاغة ، وإن كانت متأثّرة بأسلوبِ أهلِ البديعِ الذين ينمّقُونَ كلامَهم ، ويعمدون إلى السَّجع في غالب تصنيفهم .

* وأستطيعُ أَنْ أشيرَ إلى بلاغةِ زينب فوّاز ، وإلى جمالِ عباراتها من خلال مقدمتها لموسوعتها الجميلةِ الشَّهيرة في تراجم النِّساء: «الدّرّ المنثور في طبقات ربّات الخدور» حيثُ قالت ما نصَّه: «بسم الله الرحمن الرّحيم. الحمدُ لله الذي أزْهَر روض المُنى بما تألّفَ من منثورِ الأَفْراح؛ وبما أسفر من حُسنِ أبكارِ الابتكار ، على مشهدِ الإيضاحِ والإفصاح ، وانجابتْ براقعُ الغياهِبِ عن مخدّراتِ العبارات؛ وتألّفَ نبراسُ عقائلِ الفضائلِ فاستنارتْ أرجاءُ البَراعات ، وأشكرُك يا مَنْ زيَّنْتَ بشكركَ صدور سطورِ المباني؛ كما زيّنتَ بقلائدِ الفَصَاحةِ نحورَ خرائدِ المعاني ، وأنَرْتَ مشكاةَ البصيرة؛ بزواهرِ جواهرِ معارفكَ المستنيرة، ونظمتَ أخبارَ الأوّلين؛ في سمْطِ كتابك بزواهرِ جواهرِ معارفكَ المستنيرة، ونظمتَ أخبارَ الأوّلين؛ في سمْطِ كتابك المستنير المستبين ، فسبحانك مَنْ إلهِ اتسعَتْ دائرةُ علْمهِ فأحاطتْ جميعَ المستنير المستبين ، فسبحانك مَنْ إلهِ اتسعَتْ دائرةُ علْمهِ فأحاطتْ جميعَ المستنير المستبين ، فسبحانك مَنْ إلهِ اتسعَتْ دائرةُ علْمهِ فأحاطتْ جميعَ

⁽١) زينب فواز (ص ٥٤) نقلاً عن مجلة العرفان مجلد (٨) جزء (٦) آذار عام ١٩٢٣ م). =

الكائنات؛ وعَلِمَ ما تحتَ الأرضِ كما عَلِمَ ما فوقَ أديمها منَ المخلُوقات ، وشرَّفَ نوع الإنسان؛ بما خصَّه به من كمالِ القوى والعرفان ، ونشرَ نورَ المعرفةِ بين أولي الألباب؛ فمن أصابَ من ذلك النّور فعقله على قدرِ ما أصاب ، والصّلاة والسّلام على مَنْ أرشدنا بكتابٍ قويم؛ إلى صراطٍ مستقيم ، محمّدِ الذي جمعَ منَ المحاسنِ ما تشتّت في غيره؛ أحسنِ مَنْ حَسُنَت سيرتُه وأحسنَ في سيرِهِ ، وعلى آلهِ مصابيح الدّجنّةِ؛ وأصحابِه الذين حازوا المجدَ بالأقلامِ والأسنّة . . . وبعد . . »(١).

* ومن خلالِ هذه المقدمة نلمحُ جمالَ الأسلوب الزّينبيّ الفوّازيّ ، بالإضافةِ إلى اتساق العباراتِ ، ولطيفِ الإشارات ، التي تدلُّ على سَعَةِ اطّلاعها ، وكثرة معارفها.

* وكانت زينب فوّاز تعتمدُ على رشاقةِ العبارة في كثيرٍ من ترجماتها ، وذلك في تقديم الشَّخصية التي تودُّ الحديث عنها ، ومن أمثلةِ أسلوبها الأنيقِ الرّاقصِ قولُها في مفتتح ترجمة أمّةِ العزيز ابنة دحية الأندلسيّة الشَّريفة الحسنيّة: «كانت ذاتُ قناع تفرعَتْ من دوحةِ سناء؛ أصلُها ثابتُ وفرعُها في السَّماء ، وتجرَّدَتْ من سُلَالةِ أكابر وأشراف؛ رُقاةِ أَسِرَّةِ منابر من بني عبد مناف ، تصرَّفَتْ في أثناءِ شبيبتها بين دراسةِ معارف؛ وإفاضةِ عوارف ، لها أشعارٌ رائقةٌ معناها؛ بديعةٌ مبناها . . . (٢).

* وفي ترجمتها لفاطمة بنتِ عبد الملك تقول: «كانت فصيحة زمانها ، وأديبة عَصْرها وأوانها ، ذات جمالٍ رائق ، وحسنِ فائق. . . »(٢).

* ولم يكن هذا التّأنّق الدّائمُ من ديدَنِ زينب فواز ، ولكنّ إشراقَ

⁽١) انظر: الدر المنثور (ص ٥) المقدمة.

⁽۲) الدر المنثور (ص ٦٦ و٣٦٦).

العبارة ، ووضوح الفكْرة هُما العاملُ الأدبيّ الذي كانت زينب فوّاز تعتمدُ عليه في ترسُّلِها ورسائِلها ومقالاتها. وفي مقالةٍ لها بعنوان: تقدّم المرأة ، نلحظُ أَسْلُوباً آخر لزينب وإن كانَ متأثّراً بالصَّنعةِ قليلاً ، إلاّ أنّه منطلقٌ في فضاء البلاغةِ ، ووضوحِ الفكرة. وهانحنُ أولاء نقتطفُ فقْراتِ كاشفاتِ من مقالةِ زينب فواز «تقدّم المرأة» إذ تتحدّثُ بالحكمةِ مفتتحة مقالتها ببيتٍ من الشَّعر ، ثم تبدأ بالنَّش ، فتقول:

«تَأَمَّلْ سُطَورَ الكَائِناتِ فإنَّها منَ المَلا الأعْلَىٰ إليكَ رسائِلُ»

* لا يخفى أنَّ الزَّمان أدوارٌ؛ والأيّامَ أطوارٌ ، فدورٌ للصَّلاح ، وطورٌ للفَساد ، ودورٌ للعلْمِ ، وطورٌ للجهل ، للفَساد ، ودورٌ للعلْمِ ، وطورٌ للجهل ، وقد مضَتْ هذه الأطوارُ في القُرون البالية؛ والأعصار الخالية ، إذ كان ليلُ الجهلِ أُرْخيَ سدالُه ، ومُدَّ فيها شراعُهُ ، وأقامَ الاستبدادُ حِجاباً بين الشَّرق والعلُوم ، فجزى اللهُ الأعصر الأخيرة خيراً عنِ الإنسان ، كيف أدَّبته وهذَّبته ورقَّتُه إلى مدارج السَّعادة والخيرِ ، ولقَّنَتُه دروسَ الحياةِ والمعارف ، ولولاها لَبَقِيَ ـ ولو عُمِّر عُمْرَ نوح ـ وحْشيّاً جاهلاً . . . ».

* وتمضي زينبُ فواز في مقالتها ، ثم تذكرُ ارتقاءَ الأفرادِ بالعِلْمِ ، وتشيرُ إلى إنشاءِ الجرائدِ والمجلّات ، ودَوْرِ النّساء في تطويرها وتزويدِها بالمقالاتِ والمعارف ، فتقول ما مُلخّصُه: «... أمّا الآن وقد تحسّنتِ الأحوالُ؛ وقويتِ الآمالُ ، وتعددتِ المدارسُ في جميعِ النّواحي... إذ لا يخفى أنَّ ارتقاء أيّ أمّة كانَتْ، لا يكونُ إلاّ بارتقاءِ أفرادِها وتهذيبهم... ولقد أُنشِئَتِ الجرائدُ العلميّةُ والسِّياسيّةُ ، وتداولَتْها أيدي النّاس على اختلافِ طبقاتِهم ، وتباينِ أعمارِهم ولهجاتِهم ، فصارُوا يقتطفُون من أشجارِها النّضيرة ، وثمارِها اليانعةِ ، وأزهارِها المفيدة. وللنساء اليدُ الطُولى ، والفضلُ الأعظم في تحريرِ هذه الجَرائد؛ ومكاتبتها ، ...

وأَمَامنَا في هذا العَصْرِ الحاضرِ منَ النّساء الفَاضِلات من امتازَ البعضُ منهنّ بالشّعر الرّقيق؛ والبعضُ بالإنشاءِ الرّشيق ، والبعضُ بالمباحثِ الجدليّة؛ والبعضُ بالاستنباطاتِ المفيدةِ الجليّة ، هذا وقد كثُرَتِ الاختراعاتُ في هذا العَصْرِ حتى عجزتِ الأعدادُ عن حَصْرِها ، وللنّساءِ أعظمُ نصيبٍ في استنباط جزءِ عظيم منها. . . ».

* ثم تختمُ زينب فوّاز مقالتها مذكّرةً ومنوهةً للمرأةِ وللنّساء ، وأنّهنّ عنوانُ التّمديُنِ والحضَارة ، وأنّهنّ عضوٌ مفيدٌ في جسم المجتمع ، ولا يحـولُ الحجـابُ الشَّـرعـيّ بينهـنّ وبيَـن تحصيـل العُلـوم واكتسـأب المعارفِ ، فتقول: «. . . والحاصلُ أنَّه ما من أمّةٍ انبعثَتْ فيها أشعّةُ التّمدّن في أيّ زمَانٍ كان ، إلّا وكان للنّساء فيه اليدُ الطُّولي ، والفضْلُ الأعظم ، كما لا يخفيٰ على من اطّلع على تواريخ المصريين واليُونان القدماء ، فكلُّ هذه الأممُ المتمدنةُ ، كانت تعتبرُ النَّساءَ كعضوِ لا يتمُّ العملَ إلَّا بمساعدتِه. نعم وإن كان بيننا وبينَ نساءِ الغَربِ بوناً بعيداً ، من حيثُ الحجاب والمنعة والبعد عن مخالطةِ الرّجال ، بحكم الشَّرع ، إلاّ أنّه لا حِجاب بيننا وبينَ دَرْسِ العُلوم واكتسابِ المعارف التي نرفعُ بواسطتها رايةَ الفَخُر بأنفسنا إظهاراً لعلوّ منزلتنا. وما المانعُ يا ترى بعد أنْ علمَ الكُلُّ منَ الرّجالِ مزيّة تعليم المرأة ، لو قام البعضُ منهم بتشييدِ مدارس لتعليم البَنات على مقتضى القواعدِ الدّينية؟! لأنّنا نعلمُ علْمَ اليقين أنَّ التمدّنَ في شريعتنا الغرّاء؛ متوفّرةٌ أسبابُه وأنَّ (كل الصَّيد في جَوفِ الفراء)(١). ولعلّنا باتّباع

⁽۱) هـذا مثلٌ قديم ، و «الفِرَا»: الحمارُ الوحشيّ ، وجمعُه فِراء. ويُضْرَبُ هذا المثلُ لمن يُفَضَّل على أقرانه. قال الميدانيّ: «وأصلُ المثَلِ أنَّ ثلاثةَ نفر خرجُوا متصيّدين ، فاصطادَ أحدهم أرنباً ، والآخر ظبياً ، والثّالث حماراً ، فاستبشرَ صاحبُ الأرنبِ وصاحبُ الظّبيّ بما نـالا ، وتطاولا عليه ، فقال الثالثُ: كلُّ =

هذا المنهج المفيدِ ، والطَّريقِ المستقيم ندركُ في المستقبلِ رفعةً وشَأناً في الحضارة ، ونسترجعُ ما سُلِبَ منّا ظُلماً وعدواناً ، ونتحصّل على حقوقنا بعونِ الله ، وهمّة رجالنا ، وليسَ ذلك على الله بعزيز »(١).

* وزينبُ فوّاز أديبةٌ فاضلةٌ ، وبارعةٌ كاملةٌ ، وكاتبةٌ ناظمةٌ ، وناثرةٌ من أميراتِ النَّشْر في عَصْرِنا الحاضرِ ، وهي مؤلّفةٌ مجيدةٌ ، أجادَتْ فنَّ النَّسر والتّحدث ، فكانَتْ حَسَنةَ المحاضرةِ ، جميلةَ الأخلاقِ ، مصونةً ، عفيفة ، ذات عقْل متفتّح على الحضارةِ الأوربيّة ، تتابعُ بجدِّ ونشاطٍ أحوال المرأةِ في العالمَ العربيّ والغربيّ ، فكانت تراسلُ بعضَ النَّساء وتدلّي دلوها في كثيرٍ من الآراء ، وقد وصَلَ صوتُها الجريءُ إلى الغربِ يفصحُ عن رأيها وحياتها ، كما يفصحُ عن أسلوبها وبيانِها؛ ومن ذلك رسالتها إلى رئيسةِ قسْم النّساء في مَعْرِض «شيكاغو» ، وسنطّلعُ على هذه الرّسالة لنعرف بشكلِ أوضحَ شخصيّة زينب فواز وأدبها.

* بعثَتْ زينبُ فوّاز رسالةً إلى «برثاً بالِمْر» رئيسةِ معرض شيكاغو الخاص بالنّساء؛ وقد نُشِرَتْ هذه الرّسالة في جريدة «وادي النّيل» ، في العددِ رقم (١٦٩) ، وتاريخ (٩ محرم) من سنةِ (١٣١٠ هـ) ، ونصّ الرّسالة هو:

* "إلى واشنطون [أمريكا] في (٣٠ يوليو _ تموز). حضرة الأديبة الفاضَلة السيدة "برثا هونوري بالمر" رئيسة قسم النساء في معرض

الصَّيدِ في جوفِ الفِرا ، أيْ هذا الذي رُزِقْتُ وظفرتُ به يشتملُ على ما عندكما ، وذلك أنَّه ليس مما يصيدهُ النّاس أعظمُ منَ الحمارِ الوحشيّ. (مجمع الأمثال ٣/ ١١ و١٢).

ـ ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ النّبي ﷺ قد تألّف أبا سفيان بهذا القولِ فقال له: «يا أبا سفيان ، أنتَ كما قيل: كلُّ الصَّيد في جوفِ الفِرا» ، يتألّفه على الإسلام.

⁽۱) انظر: قضيّة المرأة (٣/ ٢٧٧ ـ ٢٨٢) باختصار وتصرّف ، نقلاً عن كتاب: بلاغة النّساء لفتحيّة محمّد.

«شيكاغو». ثمّ تبدأُ زينبُ فواز رسالتها بالسّلام ، وتُنوِّهُ إلى شهيراتٍ عَبْر التَّـاريـخ مـن جميـعِ الطَّبقـات ، وتعتـذرُ عـن عـدمِ حضـورِهـا لتلـك الاجتماعاتِ ، وتعتزُّ بلسانِها العربيّ الذي صاغَتْ فيه رسالتَها فتقول:

* «من بعدِ إهدائِكم أزكى التّحيّات ، أبدي أنّني هزّتني أريحيّةُ الشُّوق إلى مساعدة القسم النِّسائيّ الذي صار إعدادُهُ لِعَرضِ مصنوعاتِ النِّساء في معـرضِ شيكـاغـو سنـة (١٨٩٣ م)؛ ولعِلْمـي أنَّ التَّقـدُّمَ الأميـركـانـى والأوروباوي ، لم يتركا لنا ، نحن الشَّرقيات ، شيئاً من تقدّم الصّناعة التي يمكنُ للنَّساءِ أَنْ يعملْنَها ، ونظرتُ في النَّساء ، وأدبهن ، وتقدمهن ، في السّنين الغابرةِ والحاضرةِ ، ولم أَرَ هديةً ترفعُ للمعرض النّسائي من مثلنا ، نحن الشّرقيات ، أجْدرَ من هذا الكتاب الذي يحتوي على تراجم النساء ، وطبقاتهنّ في الهيئة الاجتماعية ، فعقدتُ العزْمَ ، واستعملتُ الحزمَ ، وألَّفتُ كِتاباً في هذا الباب(١) ، فجاء بحمدِه تعالى ، على طِبْق المَرام ، وجمعتُ فيه منْ تراجِم شهيرات العربِ ، ومتقدّمات الإفرنج ، وملِكات الشُّرق والغَرب من كلِّ أديبةٍ فاضلةٍ ، ومَلِكةٍ عاقلةٍ ، وفارسةٍ ، وشاعرةٍ ، وخطيبةٍ ، وناثرة (٢) ، فرأيتُ أنْ أقدّمَ نسخةً منه لأجْل حَصْرِها ضمنَ معروضات القسم النِّسائي في المعرض ، وبما أنَّني لا أعلمُ كيفيّة تقديم المعروضات بأي صفةٍ تكون ، ولم أطلعُ على تفصيلِ ذلك في الجرائد

 ⁽۱) تقصد زينب بهذا الكتاب كتابها: «الدّرّ المنثور في طبقات ربّات الخذُور» وهو أوّلُ سفْرٍ مُستطاب في بابهِ ، وقد ابتدأتْ في تأليفهِ في (٤ ربيع الأوّل) سنة (١٣٠٩ هـ) الموافق (٧ تشرين الأول) سنة (١٨٩١ م) ، وطبعَتْه بالمطبعةِ الأميريةِ الكبرى بمصر سنة (١٣١٣ هـ).

⁽Y) اقرأ سيرَ جميع هؤلاء وغيرهن في موسوعتنا «نساء في حياة المشاهير» حيث تجد فيه الأديبة ، والملكة ، والشّاعرة ، والفارسة ، والخطيبة ، والنّاثرة ، والعالمة ، والفقيهة وغيرهنّ.

العربية ، فأرجو أنْ تفيدوني عن كيفيّة إرسالِ الكتاب المنّوهِ عنه ، حتى أرسلَه مع مزيدِ الشّكر والممنونية (۱) ، ولو كانت عوائدنا (۲) ، نحنُ النّساء المُسْلمات ، تسمحُ لنا بالحضور في مثلِ هذه الاجتماعات ، لكنتُ سعيتُ بنفسي لتقديمه ، وحضرتُ المعرضَ مع مَنْ يحضرْنَ فيه منَ النّساء ، ولكنْ إطاعةٌ لأمْرِ الدِّينِ لا يمكنني ذلك ، وعلى هذا فإنّي أقدمُ لكم مزيدَ الشّكر المقرونِ بالممنونية على حُسْنِ مَساعيكم في تقديم النّساء أمامَ الهيئةِ الاجتماعيّة ، وإذا تفضلتم عليّ بالإفادة باسمي ، زينب فوّاز ، عن يدِ شقيقي محمّد أفندي علي فوّاز الأفوكاتُو (۳) بمصر ، وأرجوكم العفو عن قصوري ، حيثُ كتبتُ تحريري هذا ـ رسَالَتي ـ باللسان العربيّ ، لأنّه يسْهُلُ عليكم معرفة أيّ لسانٍ من أيّ لُغَةٍ كانت».

* وقد وصلَتْ رسالُة زينب فوّاز «بارثا بالمر» ، فوردَ عليها ردِّ هذا التّحرير منَ الرّئيسةِ المذكورةِ ، وقد دُرِجَ في العددِ ٣٣٩ من جريدةِ النّيل بتاريخ (٢٤ ربيع الأوّل) سنة (١٣١٠ هـ) وهذه صورته: شيكاغو في ٣٠ سبتمبر ـ أيلول ـ سنة ١٨٩٣ م. حضرة الفَاضِلة السَّيدة زينب فواز:

* «أيّتها السِّتُ العزيزة ، وصَلَني كتابُكِ في ٣٠ يوليو ، سنة ١٨٩٢ م ، وأنا مسرورةٌ كلَّ السُّرور بقَبولِ هدّيتك اللطيفةِ لمعرض النِّساء ، وهو الكتابُ الذي كتَبْتِهِ عن أحوالِ النِّساء ، ويمكنكِ إرْسَاله عندما تشَائين تحتَ عنواني ، وأنا أُسَرُّ بأنْ يفسحَ له مكانٌ في مكتبةِ النِّساء ، وأؤمل منك أنْ

⁽١) «الممنونية»: الممنون من الأضداد تعني القوي والضعيف. والأفضل أن تقول: الامتنان.

⁽٢) ﴿عوائدنا﴾: العَوائد: اللاتي يَعُدُنَ المريض ، والأحسنُ أن تقولَ: عاداتنا.

 ⁽٣) «الأفوكاتو»: كلمة أجنبية معناها باللغة العربية: المحامي، وجاء في المعجم الوجيز أنَّ معناها: المدافعُ عن أحد الخصمَيْن.

تكتبي لي عن وصولِ مكتوبي هذا ، وأُسَرُّ جدّاً إذا كُنتِ تخبريني عن السَّبب الذي يمنعُك منَ المجيءِ إلى المعرض في ديانتكم الإسلاميّة ، هذا وإنّني أشكرُكِ على الفائدةِ التي تكرّمْت بها ، وأنا محبتك». بارثا هونوري بالمررئيسةُ القسمِ النّسائي في معرضِ شيكاغو.

* فكتبَتْ زينب فوّاز الجوابَ ، وقد دُرِجَ في العَدد ٣٤٧ من جريدة النَّيل في (١٥ ربيع الثَّاني) سنة (١٣١٠ هـ) ، وهذه صورتُه: قالَتْ رحمها الله بَعْد الدّيباجةِ ما مفادُه: «قد وصَلَنِي كتابُكِ العزيز المؤرّخ في ٣٠ سبتمبر ، وتلوتُه ، وأنا في غايةِ الشُّرور والممنونية ، وشكرتُ لكِ إنسانيّتكِ المزدانة بحليةِ الآداب التي أنتِ من مَعْدِنِها ، وزادني سُروراً قبولكِ لِهدّيتي ، والذي ضاعفَ مَسرّاتي ، وقلّدني قلائدَ الممنونية ، هو سؤالُكِ لي عن السَّبب الذي يمنعُني منَ الحضورِ إلى المعرضِ في ديانتنا الإسلامية ، وها أنا أشرحُه لك شَرْحاً مُوجَزاً ، ولي في كلّ جارحةٍ لسانٌ ناطقٌ بالثَّناء على همَّتكِ العالية ، ولأبدأ أولاً بذكْرِ العَاداتِ الإسلاميَّة التي نشَأْنا عليها ، ونحنُ نجدُهَا منَ الفُروضِ الواجبة ، ونتوارثُها فنتلقّاها بغايةٍ الإنْشِرَاح ، حتى إنَّ المرأةَ منَّا لو أُجبِرتْ على كشْفِ وجهها الممنوع عندنا لوجدَتْه من أصعبِ الأمور ، مع أنَّ كشْفَ الوجْهِ واليدَيْن ليس محرّماً على قولِ فريقِ عظيم من العُلماء (١) ، ولكنْ منَعتْهُ العَادةُ قطعيّاً ، وهي التي توارثْنَاهَا؛ إذ إنَّ البنتَ منَّا لا تتجاوزُ الثَّانية عشرة من سنيَّها إلَّا وهي داخلُ الحِجابِ ، والولدُ متى بلغَ الحلْمَ ، لا يحلُّ له قطعاً النَّظر إلى النساء.

⁽١) الصَّحيحُ تغطيةُ الوجْهِ وسترُهُ وعدمُ كشْفِهِ ، وهذا هَو الذي أَجْمعَ عليه الجمهور .

* وإنّ من عاداتنا المحترمة عندنا ، عدم حضورِ المرأة في المجتمعاتِ العامّة التي يجتمعُ إليها الرّجال ، كالقهّاوي ، والملاعبِ ، والتياترات (١) إلاّ من وراءِ حِجاب ، والبّالوات (٢) والكُلوبات (٢) ، وكلّ ما كان كذلك ، ولكن للنّساء محافلُ خصوصية لا تختصُّ إلا بهنَّ ، وليس للرِّجال فيها محلّ ، حتى إنّ الرَّجُلَ لا يجوزُ له أنْ يدخلَ دائرةَ النّساء منْ منزلهِ ما دُمْنَ فيها إلا بإذنِ عند الحاجةِ حتى لا يرى إحداهنّ ، وهذه المحافلُ قد تكونُ للأفراح ، والدّعوات العامة ، والأحوالُ الاستثنائية: كالمآتم ، وما أشبه ذلك فتجتمعُ النّساء في دائرةِ الحرم من داخلِ المنزل ، ويجتمعُ الرّجال في الخارج ، كي لا يختلطَ الجنْسَان . . . وكلُّ منَ الجنسيْن المجتمعيْن لا يرى الآخر في سائرِ الاحتفالاتِ المُعْتَادة .

* والحجابُ عندنا مأمورٌ به في الدّين بنصوصِ الكتابِ الكريمِ ، كقولهِ تعالى: ﴿ وَلْيَضَرِينَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِ ﴾ [النوّر: ٣١]. قال بعضُ العُلماء: المرادُ بها مواضِعُ الزّينة ، لا الملابسُ والحليُّ ، ولذلكَ وجَبَ علينا التّسترُ والحجابُ.

* وأمّا عدمُ الإباحةِ لنا بالسَّفر ، فلا يحلُّ للمرأةِ السَّفرَ إلا بصحبةِ أحد ذوي قُرباها إنْ لم يكنِ الزَّوج ، وأعني بذوي قُرباها: محارمها الذين لا يحلّ لها التزوج بهم ، كقولهِ تعالى: ﴿ حُرِّمَتُ عَلَيْكُمُ أَمُنَهَكُمُ وَبَنَاتُكُمُ وَبَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَبَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَابَنَاتُ الْأَخْ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأَمَهَدَ أَنَاتُ الْأَخْتِ وَابَنَاتُ اللّهُ فَعَمَّدُكُمُ وَخَلَاتُكُمُ وَبَنَاتُ الرَّضَاعَةِ وَأَمّهَاتُ نِسَايِكُمُ وَأَمْهَاتُ نِسَايِكُمُ وَرَبَيْهِ مُعْتَدُ الرَّضَاعَةِ وَأَمّهَاتُ نِسَايِكُمُ وَرَبَيْهِ مُعْتَدِي الرَّضَاعَةِ وَأَمّهَاتُ نِسَايِكُمُ وَرَبَيْهِ مُعْتَدِي اللّهِ الذي في حُجُورِكُم . . . ﴾ [النساء: ٣٣] ، فإذا سافرتِ وَرَبَيْهِ بُحُهُمُ اللّهِ في حُجُورِكُم . . . ﴾ [النساء: ٣٣] ، فإذا سافرتِ

⁽۱) «التياترات والبالوات والكلوبات»: كلمات أجنبية جاءت على لفظها ثم جمعت جمع مؤنث سالماً.

المرأةُ مسافةَ ثلاثة أيّام فأكثر ، يلزم أنْ يكونَ معها أحدٌ من هؤلاء المذكورين في الآيةِ الشَّريفة ، كالأبِ والابنِ والأخِ والعم والخَال . . أو الزّوج وغيرهم من المحارم وذوي القُربي ، فهذا الذي يمنعُني منَ الحضورِ إلى المعرضِ من وجْهِ.

* والوجْهُ الآخر: هو ما تقدَّم من عدم تعوّدنا على الخُروجِ إلى المجتمعاتِ؛ إذ إنَّ المرأة منّا لا يجوزُ لها الخروج إلى خارجِ المنزلِ إلاّ مؤتزرة بإزارٍ يسترُهَا من الفَرْقِ إلى القَدم ، وبرقع يسترُ وجهها حتى لا تبينَ منه إلاّ العيونُ ، وإذا مرّتْ إحدانا على قهوة ، أو مجتمع ، مع أنَّها مؤتزرة لا يظهرُ منها شيء ، يستولي عليها الخجلُ ، حتى تكاد لا ترى أحداً ، ولا الطّريق ، وهذا كلّه ناشىءٌ عن التَّمرُّنِ من الصِّغَر على حَسَب العَادةِ المألوفَة . . . ودُمْتِ لمحبّبكِ اللهُ المألوفَة . . . ودُمْتِ لمحبّبكِ اللهُ اللهُ المنافِق المنافق المن

* ولم يكنْ نثرُ السَّيدة زينب فوّاز مقتصراً على ما ذكرناهُ من ألوان متنوّعة ، بل إنّها كانت تكتبُ بعضَ الأسئلة إلى المجلات وتستفسرُ عن بعضِ المفاهيم الإسلاميّة؛ من ذلك أنّها كتبَتْ سؤالاً إلى «مجلّة الأستاذ» في عددِها الخامس بتاريخ (٢٩ صفر) سنة (١٣١٠ هـ) ، والسُّؤال هو: قالتِ المجلَّةُ المذكورةُ: سؤال. . . ورَدَ إلينا هذا السُّؤال من درّةِ صدفِ الحِجاب ، الجامعةِ بين فضيلتَي العُلوم والآداب ، السَّيدة زينب هانم (٢٠) فوّاز ونصُّه:

* «قد عَلِم السَّوادُ الأَعْظَم ما لفلاسفةِ العَصْرِ الحاضِر وأشهرِ العُلماء منَ البحثِ في أمْرِ المرأةِ ، والمساواةِ بينها وبين الرّجل ، في العَقْل والذّكاء

⁽١) انظر: معجم الأديبات الشواعر (ص ٢٦١ ـ ٢٦٦) باختصار وتصرف.

⁽٢) «هانم»: كلمة من الكلمات العامية المصرية الدارجة ، وهي بمعنى: السيدة.

والقدرة على الأعمالِ ، ولكنْ لم نعلمْ أنَّ أَحَداً منهم بحثَ في الموضوعِ الآتي ، وهو: أيّهما أشدُّ تعباً في هذه الحياةِ الدُّنيا؟ الرّجل بتعاطيهِ الأشغال ، من تجارةٍ ، وصناعةٍ ، وسياسةٍ ، وزراعةٍ وغير ذلك ، أم المرأةُ في حملِها ، ووضْعِهِ ، وتربيتهِ ، وتدبيرِ منزلها ، ومشاركتها للرّجل أحياناً في أعمالِهِ؟

* فأرجو منْ حضراتِ علمائنا الأفاضل جَواباً شافياً ، فقد سطعَتْ علينا أنوارُ عُلوم الأفاضِلِ ، فأضاءتِ الخَافقَيْن ، وأتتْ تتهادىٰ على أكفّ نسيمِ رياضِ الصَّحف ، مبشّرةً بإدراكِ درجة الفَلاح ، وارتقاءِ أريكة التقدّم ، وإنّنا نهنّي الطّرسَ والقلمَ ببزوغ شمس معارفكمِ بعْدَ الأفولِ ، ولكم منّي ومن الجنسَيْن خالصَ الشّكرِ والثّناء »(١).

* فأجابَها صاحبُ مجلّة الأستاذ السّيد عبد الله نديم قائلًا هذه الأبيات المسمّة:

وَأَعْطِ أَبِاكَ النّصْفَ حَيّاً ومَيْتاً وفَضّلْ عَلَيهِ مِنْ كَرَامِتِهِ الْأُمَّا أَقَلَتُ كَنَا ومَيْتاً وأَرضَعَتْكَ الحَولَيْنَ واحتملَتْ تمّا وأَرضَعَتْكَ الحَولَيْنَ واحتملَتْ تمّا وأَلْقَتْكَ عِن جَهْدٍ وألقاكَ لذّةً وضمَّتْ وشَمَّتْ مثلً مَا ضَمَّ أو شَمَّا (٢)

* ولزينب فوّاز أسئلةٌ مهمّة ، واقتراحاتٌ جمّة في معظم المجالاتِ الأدبيّة والدّينيّة والاجتماعيّة والتّاريخيّة وغيرها ، كما أنَّ لها رسائل جيّدة المضمونِ؛ ومن رسائِلها المهمّة في المجالِ الاجتماعيّ رسالة «باعث العَجَب» وهذه الرّسالة فَنَدتُ فيها أعمال الدَّجالين ، وشعبذات المشعوذين تفنيداً خلّد لها الشّكْر الجزيْل ، والثّناء الجميل.

⁽١) معجم الأديبات الشُّواعر (ص ٢٦٧ و٢٦٨).

⁽٢) معجم الأديبات الشُّواعر (ص ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

* وقد أشرنا من قبلُ أنّها ألّفَت «كشف الإزار عن مسألةِ الزّار» أقنعَتْ من خلالِه الأمّة المصريّة في عَصْرِها بالأدلّة العقليّة والنقليةِ إقناعاً أُعجِبَ به أهلُ العلْمِ والفَضْل كلّ الإعجاب ، وأظهرتْ فسادَ هذه العادة القبيحة وما فيها من الأمورِ المخلّة بالآدابِ والشَّرف والدّين إظهاراً يحتمُ على كلّ ذي قلْب إبطالَ هذه العادة المُخجلة.

* ومن رسائِلها المهمّة أيضاً "وجوبُ النّهضة العلميّة للمرأةِ الشّرقية " ، وكثير من الرَّسائلِ والمباحثِ النّافعة ، وعلى الأخصّ رسائلها التي ردَعَتْ بها ناقصي التّربية ، قليلي الأدبِ من الشُّبّان المتهوسينَ الذين هم شذّوا عنِ الفَضائِل ، وبرعُوا باقترافِ الرَّذائل ، أصلحهم الله وهداهم .

* لقد كتبتِ السَّيدةُ الفاضلةُ زينب فوّاز رسالاتها في المواضيع المهمّة التي تبعثُ الفضائلَ في النُّفوس من مثل: «ليستِ السَّعادةُ بكثرةِ المال»؛ و«تقدّم المرأةِ»؛ و«العزبةُ والزّواج»؛ و«انتقادُ تقرير يعقوب باشا أرتين» وكيل المعارف العمومية بمصر بالنسبة لزيارتهِ مدرسة البنات ، وهذا الانتقادُ علَّقَتْ عليهِ جرائدُ مصْرَ اليوميّة تعليقات مهمّة للغايةِ ، حيث نال هذا التقريرُ إعجابَ العموم ، وذلك سنة (١٣٠٩ هـ).

* ومن رسائِلها أيضاً «الإنْصَاف» ردّاً على «هنا كُوراني» حيث كتبَتْ هذه الأديبةُ رسالةً تحت عنوان: «المرأة والسّياسة» دَرَجَتْهَا في لبنان الغرّاء، وهذه الرّسالة كانتِ افتتاح محاوراتٍ أدبيةٍ في موضوعِ المرأة والتربية المنزليّة بين هاتَيْن الأديبتَيْن: زينب فواز، وهنا كُوراني؛ وقد كان الفوزُ والسَّبْق حليفَ السّيّدة زينب فواز، وذلك بجميع أدوارِ تلك المحاورات المفيدة لهذا الجنس اللطيف. ولها من الرّسائلِ المهمّة أيضاً: «ملخص التّفسير» وغير ذلك كثير.

* وهكذا رأينا زينب فوّاز أديبةً مفكّرة باحثةً عالمةً شاعرةً من خلال

رسائِلها ومقالاتها وأسلوبها ، وعرفنا منهج حياتها وطريقة كتابتها ، قال عمر رضا كحالة ما مفاده: «ونشرت زينب فوّاز مقالات شائقة في الصُّحف والمجلات تدلّ على تضلّعها في العُلوم الأدبية ، وتنبئنا أنّها كانت من أسرع المُطالبات بحقوق النّساء ورفع مستواهن ، ورفع مكانة المرأة الاجتماعية . . »(١).

* ولزينب فواز مقالاتُ أخرى ورُدودٌ على أديباتِ عَصْرِها أبانت فيها عن آرائِها ، وطريقتها في معالجةِ الأُمورِ الاجتماعيّةِ والإدارية والسّياسيّة ، ومن أرادَ الاستزادة فليرجع إلى مؤلّفاتها ومظانّ ترجمتها يجدْ مصداق ما قُلْنَاه.

وَدَاعاً دُرَّةَ الشَّرْقِ:

* لا شكَّ في أنَّ حياةَ السَّيِّدة الأديّبة الشّاعرة زينب فوّاز متعةٌ ، وروضةٌ للنَّاظر في سيرتها ، بيد أنَّنا قد شارفْنا الآن على ودَاعِ سيرتها الشّائقة ، لنلتقيَ سيرةَ امرأةٍ معاصرةٍ أخرىٰ من نساءِ المشْرقِ العربي.

* لقد كانت زينبُ فوّاز درّةً أدبيةً في عقْد أديباتِ النّساء المشرقيّات ، وكانت شاعرةً لا تُجارى ، وأديبةً لا تُبارى ، تسنّمتْ ناصية البيّان ، وكانت فصيحة بين النّسوان ، جمعَتْ بين جمالِ الأنوثةِ ، وكمالِ الأدب ، ولطافةِ العلْمِ والمعرفةِ ، قال الزّركليّ عنها في «الأعلامِ»: «وكانت جميلة المنظرِ ، عذْبَة الحديثِ ، من خيرة ربّاتِ البيوت تربيةً وعِلْماً» .

* وهذه الصِّفاتُ الجميلةُ ترفعُ من شأنِها ومجدِها ، زِدْ على ذلك أنَّها

أعلام النساء (٣/ ٨٣ و ٨٤) بتصرف.

⁽٢) الأعلام (٣/ ١٧).

كانتْ لِشِدّة إعجابِها بالشّرقِ والمشارقةِ وبالأدب النّسوي المشرقي كانت تكتبُ أَسْمَاء مُستعارة ، ومنها: «درّةُ الشَّرق» و «حاملةُ لواءِ العَدْل» (١) وغير ذلك ، وهذا ممّا يزيدُ في رصيدها النّسويّ الأدبيّ في عالم نِساءِ المشرقِ العربيّ المعاصرات اللواتي لم تغْفِلْهُنَّ أذنُ التّاريخ ، بل أسمعتْ أذنَ الجوزاء همساتهنّ.

* وظلت زينب فوّاز في أرضِ الكنانة بقاهرة مصر حيناً من الدّهر ، وهي تمارسُ الأدبَ ، وتشاركُ في ألوانِ الثّقافة ، بيد أنّها كانت تنوي العودة إلى مَسْقطِ رأسِها في تَبْنين ، وعزمتْ على ذلك ، وكانت ترسلُ الزّفراتِ الزّينبية ، والأشواق الممزوجة بالحنين ، والأشعار والأسمار ، غير أنّ الأمراضَ قد ألَمّتْ بها غير مُحتشمة ، وداهمتْ همّتها التي لم تفترُ في يومٍ من الأيّام ، وتغلّبتْ على جسمِها ، فأوهنَ المرضُ عزيمتَها ، وكان سدّاً منيعاً دون تحقيقِ أملِها الزّينبي في العودةِ إلى تبنين ، وبالطّبع فتلك مشيئةُ الله ، إذ ما تدري نفْسٌ بأي أرضٍ تموت ، ولا بأي بقعةٍ توافيها المننة .

* وظلّت زينبُ تغالبُ المرضَ ويغالبها مدّةً منَ الزَّمن ، إلى أن كانتِ النّهاية ؛ ففي يوم منْ أيّام الشّتاء القاهريّة ، وبالتّحديد يوم (١٩ كانون الثاني) من عام (١٩١٤م) ، والذي يوافقُ يوم (٢٠ صفر) من عام (١٣٣٢هـ) سكتَ الصّوتُ الزّينبيُّ ، وتوفيت زينب فوّاز في القاهرةِ ، بعد أنْ غرَّدت على أغصانِ الأدب بأعذبِ الألحان ، وأجملِ الأصواتِ التي بلغت المشرق والمغرب.

* وتلاشى الصّوتُ الزّينبي الذي ترجمَ للزّيانِبِ وغيرهنّ من نساءِ

⁽١) مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث (ص ٢٣٨).

المشرقِ العربي والعالم؛ وانتشر خبرُ وفاتِها في العالَم العربي من خلال الصُّحف والمجلات.

* وعندما صدرت مجلّة العِرفان في (٢٧) كانون الأوّل عام (١٩١٤ م) جاء فيها الخبرُ الآتي ينقلُ ما تناقلته الصّحفُ المصريّةُ عن وفاةِ زينب فواز ونصّه: «نَعَتْ إلينا أنباءُ مصْرَ المرحومة زينب فوّاز ، وهي عامليّة وُلَدتْ في قريةِ تَبْنين من أعمالِ صُور جنوب لُبنان ، واطّلعْنَا على كتابِها: الدُّرِ المنثور في طبقات ربّات الخُدور ، لنرى إذا كانَتْ قد ترجَمَتْ لنفسِها فيه ، فلمْ نَحْظَ ببغيتنا. هذه هي فقيدةُ الآدابِ العربيةِ اليوم ، التي لمْ يعرفْ لها أهلُ هذا الجيل حقها ، شأنهم في عدم تكريم نوابغهم ، فضلاً عن نابغاتِهم ، وقد انتقلَتْ لجوارِ ربّها عن عمرٍ ذَرّف على السّين ، تاركة آثاراً خالدةً وذكرى جميلةً ، تغمّدها اللهُ برحمته ، وأسكنها فسيحَ جنّته».

* وقبل ذلك كانتِ الصَّحفُ اللبنانية والمصريّة التي تهتمُّ بالأدبِ والأدباءِ ، قد نعتِ السَّيدة زينب فوّاز إلى محبيّ الأدب النسويّ والإنساني عقب وفاتِها فقالت: «نَعَتْ إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز الكاتبة والشّاعرة والمؤلّفة ، وأوّل امرأة اشتُهِرَ اسمُها في عالَم الأدبِ والكتابةِ في الصُّحف ، وقد نالت شهرة بعيدة في حياتها ، ونالت حظوة كبيرة عند كبارِ أدباء مصر وسورية ولبنان».

* وهكذا رحلَتْ زينب فوّاز إحدى نساء المشرقِ العربي ، رحلَتْ زينب درّة الدّر المنثور ، وغابتْ فيمن غابَ من ربّات الخُدور ، بعد أن تركْنَ آثارهنّ على السُّطور ، وما أجمل تلك السّطور!

* بل ما أجمل أنْ نودّع زينب بأثَارةٍ من قولها ، حيث أسفرتُ عن «سِفْرٍ يسفرُ عن محيًا فضائل ذَوَاتِ الفَضَائلُ ، من الآنساتِ والعَقَائل ، وجمع

شتات تراجمهن بقدر ما يصلُ إليه الإمكان ، وإيراد أخبارهن من كلّ زمان ومكان»(١).

* وكذلك نودّعُ سيرتَها بأثارةٍ من نظمِها ، إحياءً لذكْرِها ، ولأدبها ، وأعمالِها:

لا شَيءَ مِنْ زِيْنَةِ الدُّنْيَا لِسَاكِنِها سِوى مَحاسِنِ مَا تُبْقيهِ ذِكْرَاهُ

* * *

⁽١) الدر المنثور (ص ٦) من المقدمة.





ودا د بنت محرّر سکانحینی

- * أديبة مرموقة ، طعمت إنتاجها الفكري بشتى عناصر الأدب العربي ، وكانت تهوى السياحة ، وركوب الأسفار ، وإلقاء المحاضرات عن المرأة العربية ، وإبداعها .
- * أثرت المكتبة النسوية بعددٍ من المؤلفات ذات المشارب المتنوعة ، والمسارب المتعددة ، من القصة ، والرواية ، والمقالة ، والتراجم ، والسِّير ، والنقد الأدبي والفني .
 - * أول امرأة تحدثت من الإذاعة السورية واللبنانية .
- * دقيقة الملاحظة ، جيّدة الفكرة ، ترتفع بالمعاني والأسلوب إلى مصافّ كبار الأدباء المعاصرين .
- * أول امرأة سورية تفوز بجائزة القصة في منتصف الثلاثينات في لبنان.
- * أول امرأة سورية تطبع مجموعة قصصية في القاهرة عام (١٩٤٧ م).





الفَتَاةُ الأديبَةُ:

* أديبةٌ من ربَّاتِ الخدورِ ، أظهرتْ من أدبها الدّرّ المنثور ، بما يرقّقُ ستورَ السُّطور ، ويجلو محاسنَ كُلِّ منظومِ ومسطور .

* وهي قبل هذا كلّه امرأةٌ صاحبةُ نفسٍ وهمّة كبيرة ، كانت مثلاً شروداً للأديبةِ التي أحبَّتِ الأدبَ وكلَّ ما يتعلِّقُ بفنونِه؛ إذ ظهرَ نبوغُها الأدبيّ وهي ما تزالُ في عمرِ الزَّهْرِ ، وسنّ الورد ، فقد تفتّح أدبُها منذ طفولتها ، وفاحَ أربجُ أدبها ولمَّا تشبَّ عن الطَّوق بعد.

* هذه الأديبةُ الصَّغيرة سنّاً الكبيرةُ أدباً الوضيئةُ عِلْماً: ودادُ بنتُ محمّد سكاكيني الصَّيداويّة الدّمشقيّة (١) ، إحدىٰ كواكبِ الأدبِ في عصرِنا الحاضر ، وإحدىٰ الأديبات اللواتي سطع نجمهنَّ في القرنِ العشرين الميلادي؛ فهل نستطيع أنْ نَفِيَ هذه المرأة قَدْرها؟! ونعرفَ مكانتها؟!

* ولَعلّي ـ في هذه الموسوعةِ الطَّريفةِ ـ أستطيعُ أَنْ أَبرزَ بعضَ السِّماتِ
في حياةِ هذه المرأة الأديبةِ ، التي برزَ أدبُها وضيئاً ناصِعاً أكثرَ من نصفِ
قرن ، وكان يحملُ بين طيّات همساتِهِ الأنداءَ النسويّةَ التي تضْفِي إلىٰ الأدبِ
النَّسوي المعاصر مائدة شهيةً حافلةً بألوانِ الأدب والمعرفة والقصّة.

* وها نحنُ أولاءِ مرسلو القولَ في أزاهرِ أدبِ وداد سكاكيني ، ومنْ ثُمَّ

⁽۱) وافتني السيدة الأديبة سماء زكي المحاسني ابنة المرحومة وداد ساكيني بكثير من المعلومات والأخبار الأدبية والعلمية والاجتماعية عن والدتها وداد ، فلها جزيل الشكر مني ومن القراء الذين أحبوا أدب النساء في مشرقنا العربي. وانظر: مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث (ص ١٤١ و ١٤٢) وانظر مصادره. وانظر: أعلام الأدب العربي المعاصر (٢/ ٧٣٦) وغير ذلك كثير.

نجولُ في الرِّياضِ الودَاديّةِ الأدبيَّةِ الوارفةِ الظّلالِ ، ونستمتعُ بربيعِ محاسنِ بلاغتها ، ونرى عيونَ زهْر أدبِها الذي تفتّحَ عن أكمام المعرفة ، فغدتُ آدابُها رياضاً مُستطابةً كأنّها عرائسُ يخطرنَ بين تمايلِ المعاني ، وتبخترِ الألفاظ ، وتَثَنِّي الأفكارِ الجميلةِ الهادفةِ الإنسانيةِ ، التي تجعلُ قلْبَ الأديبِ يخفقُ فرحاً لاجتناءِ زهْرِ أدبها الذي يضحكُ في أكمامهِ ، ويشيرُ بعيونِ نرجسهِ إلى صاحبته التي اقتعدتُ مكانةً مرموقةً بين أديباتِ العَصْر ، وسابقاتِ الدهْر في الأدبِ والمعرفةِ والكتابة.

* والآن سنبدأُ الرحلةَ الوداديةَ في رحابِ وداد سكاكيني تلكم الأديبةُ الحصيفةُ ذات المجدِ المتطاول في عنانِ المعرفة ، الثّابت في أصولِ العلْمِ والأدبِ؛ في عصر تألُّقِ الأدب ، في بلاد العرب.

* فقد وُلِدتْ ودادُ بنتُ محمد سكاكيني في بلدةٍ تنْجِبُ العُلماءَ والأُدباءَ ، والمحدّثين والبُلغَاء ، هذه البلدةُ العريقةُ هي صَيْدا (١) في لبنان

 ⁽۱) «صَيْدا»: مَدينةٌ على سَاحلِ بحر الشّام ، من أعمالِ دمشق ، شرقي صُور ، بينهما
 ستّة فراسخ . ـ وهي الآن مدينةٌ مشهورةٌ في لبنان ـ .

⁻ والنسبةُ إلى صيداً: «صيداوي» ، وهذه نسبةٌ ما لا ينصرفُ منَ الممدودِ ، ولو كان مقصُوراً لكان: «صَيْدوي» ، كقولهم: في ملْهيٰ: ملهوي؛ وفي مرمى: مِرمويّ. وذكرَ السّمعاني أنّه يُنْسبُ إليها «صيداني» بالنُّون ، كأنّه لِحَقّ بصنعاءَ وصَنْعانيّ ، وبهراء وبهرانيّ.

ـ وممن نُسِبَ إليها: أبو الحسن محمّدُ بنُ أحمد بن يحيىٰ بن عبد الرحمن بن جُميع الغسَّاني الحافظ الصَّيداني ، رحَلَ في طلبِ الحديث إلى مصرَ والعراقِ والجزيرةِ وفارس ، وسمعَ فأكثرَ ، روى عنه ابنه الحسن وأبو سعد الماليني وغيرهما ، وجمعَ لنفسه مُعْجماً لشيوخه.

ـ وروى عنه جماعةٌ منَ العُلَماء ، وكان ابن جُميع من الأعيانِ والأئمة الثقات ، ومات بصَيْدا في رجب سنة (٤٠٢ هـ) ، وأكثر ما يُقال له الصَّيداويّ.

_ وممن نُسبَ إلى صيدا بهذه النسبة: هشامُ بنُ الغاز بن ربيعة الجرشي الصَّيداوي ، =

من بلاد الشام والمشرق العربي ، وكان مولدُهَا حوالي سنة (١٩١٣ م)؛ وذلك قُبيل الحرب العالميّة الأولىٰ بسنة واحدة تقريباً.

* وكان والدُها محمّد سكاكيني أحد المعروفين والمشهورين في صيدا؛ وكان ميسور الحال آتاه الله سَعَة في الرّزق ، وبسطة في المال؛ بيد أنَّ يُسْرَهُ انقلب إلى عُسْر ، وفَقَدَ ثروتَه العريضة ، التي تتكوّنُ من مزرعة وخيلٍ وأرضٍ زراعية مغروسة بأنواع الشَّجر؛ وأوعز إلى وكيله أنْ يتدبَّر أمرَهُ ويتصرَّفَ في أمواله بحكمة ودراية ، ومن ثمّ توارى عن أسرته وأولادِه عند أحدِ أصدقائِه المخلصين.

* ولم تمض مِدّةٌ بسيطةٌ حتىٰ علمتْ زوجتُه بخبرِ تواريه ، وأدركتْ أنَّ هذه المحنةَ الماليّة التي أصابته قد هدّتُه وضعضعته ، وجعلته يتوارىٰ عن الأنظار.

* وكانت هذه الزَّوجةُ امرأةً عاقلةً مدبّرةً ، ونظرتْ فيما حولَها فلم تجدْ مَنْ يعينها على ما أصابَها ، وكانتِ الظّروفُ آنذاك صعبةً ، فالحربُ قد فتكت بالنّاس وأكلتهم؛ ولكنَّ هذه الزّوجةَ الحصيفةَ لم تستسلمْ لمريرِ الأحداثِ ، ولهيبِ نيران الحرب المدمّرة ، وفكّرت إنْ هي بقيت في صيدا ، فسيكونُ الدَّمارُ من مصيرِها ومصيرِ أولادِها؛ وهدَاها تفكيرُهَا إلى

روى عن مكحول ، وابن المبارك ، ووكيع ، ومات سنة (١٥٦ هـ).

ـ وأخبارُ ابنُ جُميع مشهورة في المصَادر المتخصّصة. انظر: (معجم الشَّيوخ لَهُ ص ٩ ـ ١٤).

⁽معجم البلدان ٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨) بتصرف.

ـ وقال ابنُ منظور: «الصَّيداء: الأرضُ التي تربتُها حمراءُ غليظةُ الحجارة ، مستويةٌ بالأرض ، و«الصَّيداء»: الحصيٰ. وقال أبو عمرو: الصَّيداء: الأرضُ المستويةُ إذا كان فيها حصيٌ ، فهي قاع؛ والصَّيداء: أرضٌ غليظة ذاتُ حجارة ، وصيداء: موضعٌ ، وقيل: ماءٌ بعينه». (لسان العرب ٣/ ٢٦٣) بتصرُّف.

الرَّحيل ، وأبَتْ أن تظلَّ قعيدة البيتِ في صيدا؛ فحزمتْ أمرها ومضَتْ إلى بيروت مصطحبةً أولادَها حيثُ عاش جميعُهم في مسكنِ صغير.

* وقد أثّرتْ هذه الأحداثُ في الفتاةِ الصَّغيرة وداد ، بيد أنَّها لم تؤثّر على حبِّها للقراءةِ والكتابة؛ فدرستْ وتعلّمتْ في بيروت ، وظهرَ نبوغُها الأدبي في سنّ مبكرة (١٠)؛ وتخرَّجَتْ في كليّةِ المقاصدِ الإسلامية.

* وذكرتْ لي ابنتُها السَّيدةُ «سماء زكي المحاسني» أنَّ والدتَها «وداد» قد أحبَّتِ الكتابةَ وشُغِفَتْ بها وهي ما تزالُ في سنِّ صغيرة ، وكانت تصوغُ مواضيع الإنشاء الجميلة التي تتنزعُ إعجابَ أربابِ البلاغة من مدرسيها في كليةِ المقاصدِ الإسلاميّة ، وممّا صَقَلَ موهبتَها الأدبيّةَ والفكريّةَ أنَّها حفظتِ القرآنَ الكريمَ وهي غضّةُ العودِ ، وأصبحت لغتُها متينةً سَلِسَة .

* وتضيفُ السَّيدةُ سماء «بأنَّ أمّها قد تلقَّتْ رعايةً وعنايةً من الشَّيخ الجليلُ «مصطفى محمّد الغلاييني (٢)» الذي أُعجبَ بمواضيع الإنشاء

ـ وقد طبعَ له ما يقاربُ العشرينَ كتاباً ، وانتقدَ التّعليم في الأَزْهر ، وله خطبٌ أكثر منْ أنْ تحصىٰ ، وقصائدهُ وافرةٌ جداً ، ناصر المرأةَ شِعراً ونَثراً ، وحرَّرَ كثيراً من الصُّحف ، وانتُخِبَ عضواً في المجمع العلميّ العربيّ بدمشق ، ومؤتمر القدس =

⁽۱) روَتْ لي السَّيّدةُ سَماءُ المحاسني ابنةُ الأديبةِ وداد سكاكيني أنَّ أُمَّها ، قد اشتغلَتْ بالتَّعليم وهي في سنِّ صغيرة ، وقد مارستِ التّدريسَ وعمرها لا يتجاوزُ خمسة عشَر عاماً ، وذلك كي تساعدَ أمّها في سَدادِ تكاليفِ الحياةِ الثّقيلة آنذاك .

⁽٢) مُصطفىٰ بنَ محمّد سليم الغلاييني البيروتيّ ، وُلدَ في بيروت سنة (١٣٠٢ هـ) حوالي عام (١٨٨٦ م) ، وتلقّی علومَه الابتدائيّة علی عددٍ من العُلماء والمشايخ. أَصْدَر مجلّة «النّبراس» وتركَ بيروتَ وقصدَ دمشقَ فعمَّان ، وتتلْمَذ عليه هناك الملكُ طلال ملكُ الأردن مدّة إقامته فيها ، وله مؤلّفات قيّمة في الأدبِ العربيّ وغيره. ومنها: نظراتٌ في السّفور والحجاب ، ونظراتٌ في اللغة والأدب ، ونخبةٌ من الكلام النّبوي ، ورجالُ المعلّقات العشر ، وديوانُ الغلاييني _شعر _ وجامع الدّروس العربيّة ٣ أجزاء وغيرُها.

والتعبير التي كانت تدبّجها وهي ما تزالُ في مرحلةِ الصّبا المبكّرة ، فتتلمذَتْ على يدهِ ، وأخذَ بيدِها إلى واحةِ الأدب ، وساعدَها على صقْلِ موهبتها الأدبيّة ، حيث كان يشجّعُها بعد أنْ لاحظَ نباهتَها ونبوغَها المبكّر».

* ولم تتوقَّفُ ودادُ سكاكيني عند هذا الحدِّ من تلقّي العِلْم والمعرفةِ وفنونِ الأدب، بل تابعَتْ تحصيلُها علىٰ يدِ الأستاذ «أديب فرحات» و«الشّيخ مُصطفى وهيب البَاروديّ الطَّرابلسيّ(١) العَالِم الفاضلِ المقرىء

الإسلاميّ العام ، وتولّى القضاء الشّرعيّ مدة عَشْر سنوات كان فيها مثالَ العدلِ والنّزاهةِ والتّجرّد ، لا يخافُ في اللهِ لومة لاثم ، ولا يخشىٰ سلطة سلطانِ إلا سلطان الحقّ والشّريعة. ولما بلغ عامه السّابع والأربعين أُقيم له مهرجان تكريميّ كبير ، خطب فيه ما لا يقلّ عن عشرين خطيباً ، وله مواقفُ جريئة مشهورةٌ مشهودٌ له فيها . وصفّه الشّيخ العربيّ العزّوزي: «بالعلامة ، أديبِ العلماء ، وعالمِ الأدباء ، سيبويه زمانه ، وفارسِ ميدانه ، ذي القلم السّيّال ، والمؤلفاتِ التي سارت بها الرّكبان ، وتلقتها بالقبول فطاحلةُ الرّجال».

_ وقال الزّركلي: "شاعرٌ ، من الكتّاب الخطباء ، من أعضاءِ المجمع العلميّ العربيّ ، تعلّم ببيروت ومصر ، وتتلمذ للشّيخ محمّد عبده سنة ١٣٢٠ هـ. . عُين خطيباً للجيش الرّابع العثماني في الحربِ العامة الأولىٰ. . . وبعد الحربِ أقام مدّة في دمشق ، ثم عاد إلى بيروت ، ثم رحل إلى شرقي الأردن فمكث مدة ، وانصرف إلى بيروت ، فنُصّب رئيساً للمجلس الإسلاميّ فيها ، وقاضياً شرعياً إلىٰ أن توفى . . ».

⁻ توفي مصطفىٰ الغلاييني سنة (١٩٤٤ م) ، واشتركَ بتأبينهِ كلٌّ منَ الحكومةِ السّورية واللبنانية ، والمجمع العلميّ العربي ، وجمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة ، وعدد كبير من مختلفِ الأدباء. فرحمه الله.

⁽موسوعة تاريخ علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٩٦/٥ ـ ١٠٠)، والأعلام (٨/١٤٦ و١٤٧) مع الجمع والتصرف.

 ⁽١) مُصطفىٰ وهيب بنُ إبراهيمِ بن محمّد بنِ مصطفىٰ الباروديّ الطّرابلسيّ ، من شيوخِ طرابلس ، وُلدَ سنة (١٢٩٠ هـ) ، وتلقّیٰ علومَه علی نخبةِ من أفاضلِ علماءِ =

طرابلس ، مثل الشَّيخ خُسين الجِسْر ومحمّد الحُسيني ، ومحمود نشّابة ، وعبد اللطيف نشّابة .

- وقد حفظ الشّيخُ مُصطفى الباروديّ القرآنَ الكريمَ على القِراءاتِ السَّبْعِ المشهورة ، وتخرّج عليهِ عددٌ منَ الشّيوخِ والأفاضل. وقد مارسَ مهمّتي الإمامةِ والتَّدريس زهاء أربعين عاماً في المدرسةِ القرطاويّة ، وكان يقرأُ التّفسيرَ والحديثَ والفقه الشّافعيَّ ، وتولّى إدارةَ المدرسةِ العلميّة الشّرعية ، فقام بواجبهِ خيرَ قيام ، ونظراً لمكانتهِ العلميّة وعلو كعبهِ في العلوم الإسلاميّة ، قدم له أهلُ طرابلس داراً خُصِّصت في طرابلس لأجلِ العلماء الأفاضل ، فبقيَ يسكنُها حتىٰ توفيَ سنة خصّصت في عروه (٨٢ سنة).

- وقد تولّىٰ منصبَ مفتي لبنان مدّةً لوفاة الشّيخ محمد توفيق خالد ، ثمَّ رفَضَ هذا المنصب لكي ينقطع إلى العبادة والعلم. وكان محبّاً للعزلة والبعد عن اللغط ومخالطة النّاس ، فكان يحلو له أنْ يخرج إلى ضاحية مدينة طرابلس إلىٰ شاطىء البحر متأمّلاً عظمة الله عزَّ وجلَّ ، وفي بعضِ الأحيان يصطحبُ في خلواته بعض الغُنيمات يرعاها متأسيّاً بسيّدنا رسولِ الله ﷺ.

- وللشّيخِ مُصطفىٰ وهيب البارودي عدّة مؤلّفات منها: الفوزُ الأبديّ في الهديّ المحمّدي ، وخلاصةُ البهجةِ في سيرةِ صادقِ اللهجة ، والفوائدُ الجِسَام بشهرِ الصيّام. وله مؤلّفات أخرىٰ.

كما أنَّ له شِعْراً جيّداً منه قوله:

تــزوّدْ جَميــلاً مــنْ فعــالــكَ إنّمــا أَلاَ إِنّمـــا الإنســـانُ ضَيــفٌ بـــأهلــهِ وقوله:

احذر أخبي بَرْدَ الخريفِ فبإنَّه يَسْرِي إلى الأجسادِ في غَسْقِ الدَّجَىٰ وقوله:

أَنْفَقُ ولا تَخْشَىٰ إِفْلالًا فقد قُسِمَتْ

حديثُ الفتى منْ بعدِ مَا كانَ يفعلُ يقيــمُ قليــلاً عنــدهــم ثــمّ يــرحــلُ

ومـــنَ العَيْـــش مــــا صَفَــــيٰ كسِــــــراجِ إذا انْطَفَـــــــــــا

مُسْتَعْدُبٌ مُستلْطَدِفٌ خطَّافُ بلطافِ يُخافُ بلطافٍ يُخافُ

على العباد من الرّحمن أرْزَاقُ =

المفسّر، الأديبِ، وراحت تنهلُ من معارفه علوم القُرآن الكريم والعلوم الإسلامية؛ وقد لاحظ الشّيخ مصطفىٰ وهيب هذا أنَّ وداداً فتاةٌ ذات ذكاء لمّاح، وحافظة مدهشة، فسَرَّهُ ذلك كثيراً، فكان يدعوها: «يَا بْنَتِي»، وقد حرصَ رحمه الله على تعليمها وتهذيبها وبخاصة حينما لمسَ رغبتها الشَّديدة في القراءة والمُطَالعة والكتابة والترسُّل، وكان يحضها ويرغّبها في حفظ القرآنِ العظيم؛ إذْ إنَّ القُرآنَ الكريم حليةُ الأدباءِ، والعلماءِ، والمحدثين، وطلاب العلم في كلّ زمانٍ ومكان، وكثيراً ما كان يُوصيها ويقول لها: «يَا بْنَتِي، عليكِ بحفظ القُرآنِ الكريم؛ لأنَّه يعلمُكِ الدِّيْنَ، والأدب، واللغة، والتَّاريخ، والبَيانَ».

* وامتثلتِ الفتاةُ الأديبةُ الأريبةُ أمْرَ أستاذِها العالِمِ الأديب، ولم تتوقّفْ عن متابعةِ ما أوصَاها به ، فراحتْ تنهلُ وتحفظُ من القُرآن الكريمِ ما تُندّي به روحَها ونفسَها ، وتصقلُ بهِ موهبتَها ، حتى غدا أسلوبُها قويّاً جميلاً تُحلّيه بألفاظِ القرآنِ الكريم _ كما سنلحظُ ذلك عندما نتعرّضُ لهذا المجال _ . كما كان أستاذُها يشجّعُها على الكتابة الأدبية؛ حتى إنّها استطاعت أنْ تجمع المختارَ من وظائفِ الإنشاء ، كيما تنشره في كتابِ المُفسِّرِ وذلك حوالي عام (١٩٣٠ م) ، وكانت إذ ذاك في عُمْر الزَّهر ، إذ لم تكد تبلغُ السّابعة عشرَ ربيعاً من عمرها . . . وهذا الذّكاءُ الفطريُّ الممزوجُ بحبّ المطالعةِ قد مَهَدا الطَّريق أمامَ الفتاةِ الموهوبةِ إلى فضاء الشُهرة ، وإلى دنيا الأعلام من النّساء في عصرنا الحديث .

لا ينفعُ البخـلُ مـع دنيـا مُـوليـةِ ولا يضــرُ مــع الإقبــالِ إنفـــاقُ وأخبار مصطفى البارودي كثيرة ـ رحمه الله ـ. (موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي ٥/ ١٢٤ ـ ١٢٩) بتصرف.

ودَادُ بَيْنَ الشُّهْرَةِ وَالأَدَبِ:

* حبًا الله عني وجل هذه الفتاة موهبة أدبيّة منذ نعومة أظفارها ، وقد فتحت عينيها على دُنيا المعرفة المتنوعة من كتُب ومجلّات ، وخصوصا تلك المجلّات النسوية التي أصدرتها النساء في لبنانَ وسوريةَ ومصرَ ، وكانت بعضُ هذه المجلّات تحملُ طابعاً أدبيّاً نسويّا ؛ ولعلّه من الفائدة أن نشيرَ إلى بعضِ المجلّات النسوية والتي صدرتْ تحت إشرافِ نسويّ ، أو أنشأتها امرأة ، وذلك قبل مولدِ وداد سكاكيني بقرابةِ ربع قرن من الزّمن ، وإلى أواسط الخمسينيّات ، أي إلى عام (١٩٥٥ م).

* ومن تلك المجلّات التي صدرت قبل عام (١٩٠٠ م) أربع مجلّات نسوّية ، وكلُّها صدرتْ في القاهرةِ بمصر؛ وهي مجلَّةُ «الفتاة» وصدرت عام (١٨٩٢ م) ، ومجلَّةُ «الفردوس» وصدرت عام (١٨٩٦ م) ، ومجلَّةُ «أنيس الجليس» وصدرتْ عام (١٨٩٨ م) ، ومجلَّة «العائلة» وصدرت عام (١٨٩٩ م) ثم تَلَتْها مجلَّات نسويةٌ كثيرةٌ بعد عام (١٩٠٠ م) ، وظهرتْ في مصرَ ودمشقَ ولبنان وبغداد ، ومن هذه المجلّات النّسوية ، مجلّةُ «شجرة الدّرّ» وصدرت في الإسكندريّة عام (١٩٠١ م)؛ ومجلّةُ «المرأة» وصدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠١ م) أيضاً ، ومجلّةُ «السّيّدات والبنات» وصدرتْ في الإسكندريّةِ عام (١٩٠٣ م) ، ومجلّةُ «السّعادة» صدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠٣ م) ، ومجلَّةُ «فتاة الشَّرق» صدرتْ في القاهرةِ عام (١٩٠٦ م) ، ومجلَّةُ «العروس» وصدرت في دمشق عام (١٩١٠ م) ، ومجلَّةُ «فتاة النيل» صدرت في القاهرة عام (١٩١٤ م) ، ومجلَّةُ «فتاة لبنان» وصدرت في بيروت عام (١٩١٤ م) أيضاً ، ومجلَّةُ «فتاة الوطن» وصدرت في زحلة عام (١٩١٩ م) ، ومجلَّة «الخدر» صدرت في الشّويفات وعاليه عام (١٩١٩ م) أيضاً ، ومجلَّةُ «نور الفيحاء» صدرت في دمشق عام (١٩٢٠ م) ، ومجلَّةُ "المرأة المصرية" صدرت في القاهرة عام (١٩٢٠ م) أيضاً ، ومجلّة "المرأة المجديدة" صدرت في بيروت عام (١٩٢١ م) ، ومجلّة "فتاة مصر الفتاة" صدرت في القاهرة عام (١٩٢١ م) أيضاً ، ومجلّة "السّيّدات والرجال" صدرت في القاهرة عام (١٩٢١ م) ، ومجلّة "ترقية الفتاة" صدرت في القاهرة عام (١٩٢٣ م) ، ومجلّة "ليليٰ" وصدرت في بغداد عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، الفاهرة عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، ومجلّة "ميزفا" صدرت في بيروت عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، ومجلّة "ميزفا" صدرت في بيروت عام (١٩٢٣ م) أيضاً ، صدرت في القاهرة عام (١٩٢٥ م) ، ومجلّة "الحِسَان" عام (١٩٢٥ م) ، ومجلّة "الأمل صدرت في القاهرة عام (١٩٢٥ م) ، ومجلّة "دوحة الميماس" صدرت في حمص عام (١٩٢٥ م) ، ومجلّة "المرأة" صدرت في حماة فحلب فالشام عام (١٩٢٨ م) ، ومجلّة "صوت المرأة" صدرت في بيروت عام (١٩٤٤ م) ، ومجلّة "المرأة "صدرت في بيروت عام (١٩٤٤ م) ، ومجلّة "المرأة والفنّ" صدرت في بيروت عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "المرأة القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "حواء" صدرت في القاهرة عام (١٩٤٥ م) ، ومجلّة "المرأة المرأة ا

* وقد اهتمّتْ ودادُ سكاكيني بمنابع الثّقافة المتنوّعة ، وراحت تكتبُ المقالاتِ التي تشيرُ إلى نبوغها ، والخواطر التي تدلُّ على سعةِ ثقافتها وتمكّنها من اللغةِ ، ففي عام (١٩٣٢ م) دفعت ودادُ إلىٰ «مطبعةِ الكَمال» في بيروت كتابَها الأوّلَ بعنوان «الخَطَرات» وهو عبارةٌ عن مقالاتٍ وخواطرَ في الأدبِ والأخلاقِ والاجتماع ، وقد أهدتُه ودادُ إلى الفتاةِ العربيّة التي ترنو إلى المعرفةِ ؛ ولمّا صدر هذا الكتابُ كانت ودادُ ما تزالُ فتاةً لم تتجاوزِ العشرينَ من عمرها.

⁽١) قضية المرأة (١/ ٤٧١ و٤٧٢) بتصرف واختصار ، مطبوعات وزارة الثقافة بدمشق.

* ولما بلغت وداد من العمر إحدى وعشرين سنة اقترنت بالأديب الدكتور «زكي شكري المحاسني» الدّمشقيّ المولود سنة (١٩٠٩ م) ، وكانا متقاربَيْن في السِّنّ ، إذ يكبُرهَا زوجُها بنحو أربع سنين ، وكان زواجُها منه في عام (١٩٣٤ م) ، وقد أنجبت وداد ولداً اسمُه «ذكوان» وابنتين هما «ذكاء» و«سماء»؛ فكانت لزوجها زكي زوجة زكيّة فاضلة مثالية ، ولأولادها أمّا فاضلة غذتهم على حبّ العلْم والمعرفة ، وأحاطتهم بكلّ عناية ورعاية ، ليكونوا لِبناتٍ صالحاتٍ مفيداتٍ في المجتمع.

* وأخذ اسمُ السَّيِّدة وداد سكاكيني يصافحُ الأسماعَ في الأوساطِ الأدبيّة في لبنان وسورية ، وخصوصاً لمع اسمُها عالياً في الشَّام ، حينما صِحبَتْ زوجَها لتكون معه في دمشق الشَّام ، بلدِ السَّحْرِ والجمالِ واللطفِ والدَّلال ، بلدِ الغُوطة الخضراء ، والأريافِ الشَّامية الوادعةِ الباسمة ، وبلدِ المصايفِ التي تسحرُ الألبابَ ، وتدلُّ على عظمةِ الخالقِ الوهّاب.

* ولقد فتنت دمشقُ وغوطتَها السَّيِّدة وداد سكاكيني ، فتنتُهَا برياضِها وغوطتها الغنّاء ، وأزاهيرِها وجداولها وخمائِلها وأطيارِها ، وتفاعلتْ هي بحنانِ قلبها الحسّاس المُفعم بحبّ الطَّبيعة ، ووقفَتْ بوجهِ باسم ونَفْسِ متعطّشَةٍ إلى شذا رياحينها ، فأشجتها عبقاتُ الزَّهر ، وساجعات الطَّير ، وتعانقُ الأغصان ، ممّا جعلَ آفاقها تتفتّحُ مع تفتّحِ الأزهار الملوّنة في هذه البلدةِ الجميلةِ التي فتنتْ قلوبَ العشّاق منذ أزمان بعيدة وحتى العصرِ الحاضرِ ؛ ولله درُّ «خليل مردم» (١) إذ يخاطب دمشق التي شُغِفَ بها حبّاً كما الحاضرِ ؛ ولله درُّ «خليل مردم» (١) إذ يخاطب دمشق التي شُغِفَ بها حبّاً كما

 ⁽۱) خليل مردم من شعراء الشام المعاصرين المشاهير ، ولد سنة (۱۸۹۵ م) ، وكان من رجال الأدب والعلم والبيان ، ومن كبار الشعراء الذين خلدوا دمشق والغوطة في أشعارهم ، ورأس المجمع العلمي بدمشق ، وتوفي في ۲۱ تموز عام (۱۹۵۹م) الموافق ۱۵ محرم (۱۳۷۹ هـ)، فكان فقده أليماً على الناس. وله ديوان فخم مطبوع. =

شُغِفَ من قبل شاعر الرّسول ﷺ «حسّان بن ثابت الأنصاري» رضي الله عنه ، يقول خليل مردم من كافيّةٍ بعنوان «دمشق»:

أدِمشتُ مَا للْحُسنِ لا يعْدوكِ سبحانَ مَنْ أعطاكِ أشهدُ أنَّهُ مهوى القلوبِ لكلِّ روحٍ راحةٌ الحبُّ بسرَّحَ بسي وأنتِ بَعَثْتِهِ يا مهبطَ السِّحرِ الحَلال أَلَمْ يكنْ رُدِيتِ منْ زَهْرِ الرِّياضِ مَطَارِفاً فكأنّما الأشجارُ فيكِ عرائسٌ الغُوطَتَان وأنتِ مثلُ جزيرةٍ والغُوطَتَان وأنتِ بدرٌ سَاطعٌ

حتى خُصِصتِ بهِ بغيرِ شَريكِ وفَّى وزادَ بِسَيْب هِ مُعْطَيْ كِ ولك ل عين قسرةٌ وَاديْ كِ ألك أشكو الحبَّ أمْ أشكوكِ حسَّانُ ينشي سِحْره من فيكِ ما بينَ محلولٍ إلى محبوكِ ماسَتْ بكل منمنم ومَحُوكِ بحرانِ يلتطمانِ في شاطيْكِ لكَليْكَةٍ ظلماءَ ذات حُلوكِ

* وكما فتنتْ دمشقُ الفيحاءُ بسحرها قلبَ وداد ، فتنتْ كذلك الغوطةُ الغنّاء لبّها ، وخصوصاً في أيّام فصل الرّبيع ، حيث تصبحُ الغوطةُ كالعروس من شدّة جمالِها وأناقتها ، وما أجمل أنْ نقرأ هذه الأبيات المختارة في وصْفِ الغُوطةِ للمرحوم خليل مردم ، وهذه من قصيدةِ رائيةِ تزيدُ عن أربعينَ بيتاً نقتطفُ منها هذه الأزاهرَ الفوّاحةَ بالرّقّةِ والجمالِ والدّلال ، وحسن السّبُكِ الذي يشبهُ السّحْرَ الحلال ، فيقولُ من قصيدة بعنوان «الغُوطة»:

من مقْلَة وَسْنَىٰ وخدٌ نَـاضِـرِ معْطَــارةً وازَّينَــتْ بجـــواهِــرِ في الغُوطتَيْن يدُ الرَّبيع البَـاكِـرِ

كُمْ في أزاهيرِ الرّياض لناظرِ ماسَتْ أماليدُ الغُصونِ بوشْيِهَا للهِ ما صنَعَتْ وما جاءَتْ بهِ

⁽۱) دیوان خلیل مردم (ص ٤٣ ـ ٤٦) باختصار ، والقصیدة جمیلة تبلغ (٤٩ بیتاً).

خضْـراءَ فيهــا كــلُّ لــودٍ زَاهِــرِ أو أزرقِ زَاهِ وأبيــضَ ســــافِـــرِ فجلَتْ عرائسُها بـوشـي فـاخِـرِ خفــاقــةُ الأقْــراطِ ذاتُ أسَـــاورِ طــرراً وأذْيَــالاً وفَضــلَ مــآزِرِ مبشوثةً مثـلَ الفَـراشِ الثَّــائِــرِ مَلْتَفُّــةَ الأعنـــاق ذاتَ تــــآطُـــرِ من كل زاهرة كدمع هامر كدَراهِم ألقَتْ بها يَـدُ ناثِرٍ وهوىٰ فؤادي بل ومتعةُ ناظري وبكـلّ وادٍ هـائـمٌ مُـن خَـاطِـري مـن منظـرٍ نَضِـرٍ وحسْـنِ بــاهِــرِ لتَعانُـقِ مـن بعـدِ طـولِ تهـاجُـرِ من هَاتِفِ أو ساجِع أو صَافِرِ ميّــــادةً لتطــــاولٍ وتقــــاصُــــرِ يا ليتَ للإنسانِ عيشَ الطَّاثرِ^(١)

بسَطَتْ وثيرَ قَطيفةٍ فـوقَ الشَّرىٰ من أحمر قبانٍ وأصفرَ فباقِيع وكَسَتْ وحَلَّتْ سمحةً أشجارُهَا معقودةُ الإكليـل زهـراءُ الحلـيٰ أرخَتْ منَ الظُّلِّ الظَّليل غُصُونُها تَتَناثَرُ الأزْهَارُ في أَجْوَائِها عَرِقَتْ جِبَاهُ الزَّهْرِ من قَطْرِ النَّدىٰ وإذا الرّياحُ تأوَّهَتْ سَقَطَ النَّدىٰ والشَّمسُ من خَلل الغُصُون على الثَّريٰ مرآةُ أحلامي ومرتعُ صَبْوتي في كلِّ مغْنَىٰ من فؤادي شعْبَةٌ يقتادني في كُلِّ شَطْر جاذِبٌ وأرى الغصونَ كأذرُع ممدودةٍ تتجماوبُ الأطيمارُ في أفسانِهما تتراقَصُ الأُغْصَانُ من تغريدِها والطُّيرُ لو أَبْصَرتَ أسعد عيشةٍ

* وهكذا أخذَ جمالُ الشَّامِ وما حولَها بمجامع قلب وداد سكاكيني ؟ وتذكرُ الأستاذةُ «سُليمي العظم» في مقالةٍ لها بعنوان: «وداد سَكاكيني. . نجمٌ هُوى » وتشيرُ إلى سِحْر الشَّام وجمالِ الغوطةِ الذي استولى على قلبِ الأديبةِ وداد سكاكيني فتقول: «عند زواجها ـ أي وداد ـ انتقلَتْ إلى الشَّام ، وما أجمل الشَّام ، إنّها ساحرةٌ بالغوطةِ الخضراء ، وروابي قاسَيون ،

⁽١) ديوان خليل مردم (ص ٧٦ _ ٧٩) بانتقاء واختصار.

والأريافِ الشّامية ، وتتذكّرُ ـ رحمها الله ـ دائماً الزَّبداني ، بقَيْن ، مَضَايا ، لأنَّها كانت تقصدُها صحبةَ زوجِها ، بدعوةٍ من الشَّاعر ميخائيل خليل الله ويردي».

* ومما تجدرُ الإشارةُ إليه أنَّ المرحوم زكي شُكري المحاسني (١) زوجَ السَّيدة وداد كان من أساطينِ الأدب ، ورائداً من روّاده ، وعلماً بارزاً من أعلامهِ في دمشق الشَّام ، وممن حملُوا رايةَ العلْمِ والمعرفة ، وأناروا الطَّريقَ لغيرهم ممن سار على طريقِ الأدبِ والعلْمِ ، فقد كان ـ رحمه الله ـ أوّلَ دمشقيّ مُوفَدٍ من الشَّام لتحصيل شهادة الدّكتوراه من مصر من جامعةِ القاهرة ، وذلك بعد أن تلقَّل تعليمَه الجامعيَّ في دمشق.

* كان هذا في عام (١٩٤٤ م) عندما قَدِمَ الدكتور "طه حسين" دمشق ، وكان قدومُه عام ذاك بدعوةٍ منَ المرحومِ الأستاذِ الأديب "محمّد كُرْد علي" رئيس المجمع العلميّ ، فالتقاهُ المحاسني وذكرَ له بأنَّه لم يُرسَلْ إلىٰ فرنسا في بعثةٍ ، فقال له طه حسين: "هذا من حظك يا محاسني ، أقترحُ عليك أنْ تطلبَ من الحكومةِ أن ترسلكَ في بعثةٍ إلى القاهرة".

* وبالفعلِ كان لزكي المحاسنيّ ما رغبَ فيه ، فأرسلتْهُ الحكومةُ السّوريةُ آنذاك إلى القاهرةِ ، ليحصلَ علىٰ درجةِ دكتور في الآداب من جامعةِ فؤاد الأوّل.

* ورافقتِ السَّيدةُ وداد زوجَها إلى القاهرةِ في تلك الأيّام ، إذ عُيِّنَ وقتَها مُلْحقاً ثقافيّاً في السَّفارة السُّورية ، وتابع دراستَه العالية في جامعة القاهرة ، ومن ثم حصل على درجةِ الدكتوراه في الآدابِ بأطروحةٍ عنوانها: «شِعْرُ الحرب في أدب العرب».

⁽١) توفي بدمشق في ٢٣ آذار (١٩٧٢ م) وعمره (٦٣) سنة ميلادية .

- * وكانتِ السَّيدةُ وداد سكاكيني قبل سفرِها إلى مصر، قد برزتْ أديبةً لامعة في الأوساطِ الأدبيّة، وفي ميدانِ القصَّة، فقد فازت في عام (١٩٣٨ م) بالجائزةِ الأولىٰ في مسابقةِ القصّةِ القصيرة، وذلك في جريدة «المكشوف» الصَّادرة في بيروت، فقد اشتركَ بهذه المسابقة (٥٩) قاصاً وكاتباً من سورية ولبنان وسائرِ البُلدان، وفازت عليهم جميعاً، وكان عنوان قصّتها الفائزة «الشَّيخ حمدي»، وعلى الرّغم من فوزِها بالجائزة الذَّهبيّة، فإنّها لم تحظ وقتَها بالشُّهرةِ الكافيةِ علىٰ مستوىٰ الأديباتِ في العالمَ العربيّ، ولعلَّ السَّبب في ذلك أنَّه لم تهتم الجرائدُ والمجلّاتُ بامرأة أديبة، ولم يوجدْ مَنْ يُطبّل ويزمّر كما يحدثُ لبعض مَنْ شهرهم أو شهرتهم من ضغة التطبيل والتزمير والدّعاية!.
- * ولكنّ هذا كلّه لم يؤثّر في حياةِ وداد الأدبية ، وإنّما زادهَا ذلك تصميماً على متابعةِ الفوز ، والمُسَاهمة في الحركةِ الأدبية ، وخصوصاً عندما وطئت أرضَ مصر كما سنرئ.

ودَادُ في مِـصْـرَ:

- * هي ذا ودَادُ سَكاكيني في أرضِ الكنانةِ ، في مصرَ ، ومصرُ أرضٌ تُنْبِتُ الشُّهْرةَ والمشَاهير ، وسُرعانَ ما تطيرُ الأسماءُ محلِّقةً في فضاءِ الشُّهرة في معظم مجالات المعرفةِ والأدبِ والفَنّ.
- * ففي القاهرةِ لقيتِ السَّيَّدةُ وداد خَيْرَ تكريم (١) ، فقد كانت ترافقُ زوجَها وتصحبُه إلى المنتدياتِ الأدبيّةِ ، والجمعياتِ الفكريّةِ والعلميّةِ ؛ ممّا

⁽۱) لقيتِ السَّيدة وداد سكاكيني في القاهرةِ الإِكْبَارِ والتَّشجيعَ من كبارِ الأدباء هناك إذ وفّوهَا حقَّها ، وقد عرفتْ كُلَّا من: «محمود تيمور ، طه حُسين ، عبد الحميد جودة السَّحَّار ، سيّد قطب ، نجيب محفوظ ، ومحمّد عبد الحليم عبد الله».

جعلها تنتعشُ بالأدبِ أكثرَ وأكثر ، وتروي ظمأها من مناهلِ الأدبِ التي تبثّها محاضراتُ الأدباء المشاهير آنذاك من أمثالِ: «إبراهيم عبد القادر المازني ، وأحمد أمين ، ومُصطفىٰ عبد الرّازق ، ومحمود عزمي ، ومحمّد كامل حسين»؛ وكانت ودادُ ترافقُ زوجَها في المحاضراتِ التي يُلقيها هؤلاء الأدباء ، وتستفيدُ من سعةِ آفاقِهم ، ومن آرائِهم المفيدة. وقد نوّة إلى ذهابها للمنتدياتِ الأدبيةِ الأستاذُ «وديع فلسطين» ، وذكرَ بأنّه ما من منتدى أو محاضرةٍ فكريّة ، إلا كانت ودادُ وزوجُها من الحاضرين ، وما كانت تفوتُهما سانحةً من سوانحِ الحياةِ الفكريّةِ ، يقولُ وديع فلسطين: «ولا أكادُ أذكرُ منتدى من منتدياتِ القاهرة التي كانت في ذلك الحين ، وقبل الخمسين ، تموجُ بنهضةِ الفكرِ والأدبِ ، وحيوية الثقافة والجدلِ ، والمناظرة بين أعلامِ المحاضرين من المصريّين والمستشرقين؛ إلّا ذكرتُ بين الحاضرين هذَيْن القُطبَيْن اللذين ما كانت تفوتُهما سانحة من سوانحِ بين الحاضرين هذَيْن القُطبَيْن اللذين ما كانت تفوتُهما سانحة من سوانحِ الحياةِ الفكريّة الخصبةِ المتجدّدة».

* وتذكرُ المرحومة ودادُ بقلمها أنّها أمضتُ مدّةً في مصرَ وقد تفتّحتْ أزاهيرُ عبقريتها الأدبيةِ والقصصيّةِ ، فتقولُ ما مفادُه ومحصله وملخّصه: "تفتّح زهرُ أدبي ، واتسّعتْ ثقافتي وأينعتْ في مصرَ معارفي ، ونشرتُ أكثر كُتبي فيها ، وكنتُ على الحَداثةِ حينذاك ، ومنذُ تعلّقتُ بالمطالعةِ والقراءة ، شُغِفْتُ بالمقالةِ ، وكنتُ مفتونة بفن القصّة ، متتبّعة ما طابَ لي من قديمِها وحديثها ، وما تُقدّمُ الصُّحفُ من آثارها ، حتىٰ أنْشَأَتِ الصّحافةُ الأدبيةُ التّحرريةُ في القاهرةِ ، ودمشق ، وبيروت مجلّاتٍ عُنيتْ بالقصّةِ في أعقاب الثلاثين ، وكان منها «مجلّة الدّهور» في لبنان . . . وقد تنافسَ تسعةٌ وخمسون قاصّاً ، من مختلفِ البُلدان ، وكنتُ وحدي الفائزة بالجائزةِ من بينهم حيث كان ترتيبي الأوّل بين القصّاص . وعند انتقالي عام ١٩٤٤ بينهم حيث كان ترتيبي الأوّل بين القصّاص . وعند انتقالي عام ١٩٤٤

و ١٩٤٥ م إلى القاهرة مع زوجي «زكي شكري المحاسني» ، كانت حياة الأدبِ والنَّقد مزدهرة بأعلامها ونتاجِها ، متألّقة بأسماء المشهورين بالقصّة والرّوايّة والمسرحيّة ، من مثل: نجيب محفوظ ، وعبد الحميد السَّحَّار ، ومحمّد عبد الحليم عبد الله ، وباكثير ورفاقهم . . . »(١).

* ولقد أمضتِ السَّيدةُ مع زوجها في مصرَ أكثر من عشرِ سنوات ، كانت سنوات سِماناً ، أتاحَتْ لها الشُّهرة والامتداد على رقعةِ وطننا العربيّ من مشرقهِ إلى مغربهِ ، وتذكرُ السَّيدةُ وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أنَّ سِنِيّها التي قضَتْها فوقَ ربوعِ القاهرة ، وأنَّ الأيّام القاهريّة الخوالي ، كانت من أجملِ أيّامِ حياتها ، فقد التقتْ عدداً كبيراً من أدباءِ مصرَ في ذلك العَصْرِ ، وفي مقدمتهم عدو المرأة ، أو من كانتِ المرأةُ عدوةً له ـ «عبّاس محمود العقّاد» ، الذي حضرتُ صالونَه الأدبيّ ، وجلستْ عنده يكتنفُها الحياءُ والخجلُ لأنّها قد نعتَتْه في عدائهِ للمرأةِ المثقّفة المتعلّمة الذّكية .

* ومنَ الطَّريف في حياة وداد أنَّ بنتَ الشَّاطيء عائشة عبد الرحمن (٢)

⁽١) انظر: أعلام الأدب العربي المعاصر (٢/ ٧٣٦ ـ ٧٣٨) بشيء من الاختصار والتصرف.

⁽٢) عائشةُ محمّد عبد الرّحمن الدّمياطيّة المِصريّة ، المشهورة ببنتِ الشّاطيء ، وُلدَت في مدينة دمياط بمصر ، وتربّت تربية إسلامية أصيلة ، إذْ بدأتْ دراستها في كتّاب البلدة ، وحفظتِ القرآنَ الكريم وهي صغيرة ، وحصلَتْ على شهادةِ الكفاءة ، واشتغلَتْ بالتدريس في مدارسِ البنات ، ولكنّها لم تنقطعْ عن الدّراسة ، فالتحقت بجامعةِ القاهرة وحصلَتْ على ليسانس الآداب في اللغةِ العربيّةِ ، سنة ١٩٣٩ م ، ثمّ الدّراسات العُليا ، وتابعت حتى حصلَتْ على الدكتوراه حوالي عام ١٩٥٠ م ، وعملت بالتدّريس في جامعةِ عين شَمْس ، ثم عملت أستاذة زائرة لجامعاتِ أمّ درمان الإسلاميّة ، والخرطوم ، والقاهرة ، ومعهد البحوث والدّراسات العربيّة ، وجامعة المغرب ، ولها أعمالٌ أخرىٰ من مثل عضويتها في المجلس الأعلىٰ للشّؤون الإسلاميّة بمصر ، والمجلس الأعلىٰ للثّقافة ، كما أنّها عضو هيئة التّرشيخ لجوائز الدّولة التّقديرية بمصر ، والمجلس الأعلىٰ للثّقافة ، كما أنّها عضو هيئة التّرشيخ لجوائز الدّولة التّقديرية بمصر .

الأديبة المصريَّة المشهورة ، قد ناصبتِ السَّيِّدة وداد سكاكيني العَداء ، وحَسَدَتْها ، حيث كانتْ عائشة تظنُّ أنَّ الأديبة وداداً قد جاءَتْ من الشَّام كيما تزاحمَها وتزاحم مثيلاتها على عرشِ الشُّهرة الأدبيّة . . . ولله در عمر بن أبى ربيعة إذ قال:

* والحقيقةُ ، فإنَّ ودادَ سكاكيني لم تزاحمْ بنت الشّاطىء ، ولا واحدةً من نساءِ عَصْرها على شاطىءِ الأدبِ ، وإنّما انتقدتْ بنتَ الشَّاطىء نقداً علميّاً في كتابها «أمّهات المؤمنين» وأبانَتْ ما وقعت فيه ابنةُ الشَّاطىء من

- عُرِفَتْ عائشةُ باسم «بنت الشّاطىء» منذ أوّل مقالٍ أدبي كتبتْهُ ونشرتْه في جريدة الأهرام عام (١٩٣٦ م) ، ووقّعتْه بهذا الاسم بسببِ ظروف عائلتها المحافظة ، وعُرفَتْ بهذا الاسم فيما بعد حتّى طغىٰ على اسمها الأصلي. وتزوّجت بنت الشّاطىء من الأديب الكاتب أمين الخولي.

- ولعائشة عبد الرحمن أكثرُ من خمسين مؤلّفاً ، من أشهرها: «تراجم سيّدات بيت النبوة ، والتّفسير البياني للقرآن الكريم ، والإعجاز البياني للقرآن ، والإسرائيليات في الغزو الفكري ، والخنساء ، والريف المصري ، وسرّ الشّاطىء ، وأعداء البشر ، وأبو العلاء المعرّي ، والحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري ، وصور من حياتهنّ ، القرآن وحقوق الإنسان ، وعلى الجسر ، ومع المصطفىٰ ، وقضية الفلاح . . . ، وغيرها كثير .

وقد حصلتِ السّيدة عائشة بنت محمد عبد الرحمن ابنة الشّاطىء على جائزة الدولة التقديرية للآداب في مصر عام (١٩٧٨ م) ، ووسام الاستحقاق من الطّبقة الأولى ، وشهادة تقدير من منظمة اليونسكو عام (١٩٨٠ م) ، ووسام الكفاءة الفكرية في المغرب؛ وجائزة الأدب من الكويت عام (١٩٨٨ م) ، وأُطلقَ اسمُها على عددٍ من المدارسِ وقاعاتِ المحاضرات بعددٍ من الدول العربية ، وفازت بجائزة الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام (١٤١٥ هـ) (١٩٩٤ م) وتوفيت بنت الشاطىء عام ١٩٩٩ م.

(۱) انظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة (ص ١٦٥) طبعة دار الجيل الأولىٰ _ ١٩٩٢ م _ بيروت. سقطات في كتابها «نساء النبي» ، وكانت بنتُ الشَّاطىء قبلُ قد نشرتْ مقالاً في مجلتي «الهلال والكتاب» عام (١٩٤٧ م) تُظهِرُ عدم إعجابَها بودادِ وبكتابها أمّهات المؤمنين ـ كما سنقرأُ هذا فيما بعد ـ.

* ومع هذا كلّه فقد كانت ودادُ تعتزُّ بمصرَ ، وتعدُّها موطنها الثّاني ، بل موطنها الأثير لدى قَلْبِها الكبير الذي أحبَّ الأدبَ وأهلَ الأدبِ في كلّ مكان ؛ وكانت ودادُ قد عملت في القاهرة في المعهدِ العالي لمعلّماتِ الفنون مع العميدة (إنصاف سرّي) ، وقد تكلّمت ودادُ باسْمِها عن صديقتها المربيّة القديرة إنصاف سري ، وذلك في الحفلِ التّكريمي الذي أُقيمَ لها بمناسبة اعتزالها العملَ الحكوميّ.

* ويظهرُ من خلالِ حياةِ السَّيدة وداد ، ومن خلالِ ما كانت تبثُه من أحاسيس ، بأنَّ مدينة القاهرة الجميلة قد استهوتُها بحضاراتها العريقةِ المعرقةِ ، وبجبَلِها المقطّم ، وبنهرِ النيل والنّخيل ؛ بل إنها اتّخذت ذلك عنواناً لكتابِها الذي صدرَ في القاهرةِ عام (١٩٤٦ م) بعنوان "بين النيل والنّخيل» وهو عبارةٌ عن صُورٍ وأقاصيصَ مصرية بحثَتْ من خلالهِ عن موضوع الزَّار ؛ وفي هذه الفترة أصدرت كتبَها: "أروى بنت الخطوب ، وأحوات الشّهداء ، ومرايا النّاس».

* وكانت ودادُ قد تعرفَتْ على عددٍ من الأدباء الكبار من مصر ، وقد ذكرنا بعضهم ، كما تعرفتْ عدداً من كبار الأدباء السوريين من مثل: «الشّاعر عمر أبو ريشة ، ومحمد كُرد علي ، والدّكتور بديع حقي ، والدكتور عبد السّلام العُجيلي ، وحُسين كنعان ، وبشير زهدي» وغيرهم ، كما تعرّفت عدداً من الأديبات من مثل: ابنة الشّاطيء عائشة

(۱) سُهير القلماوي ، أديبةٌ مصريّة قاصّةٌ ناقدةٌ ، وُلَدَثُ في القاهرةِ عام (۱۹۱۱ م) ، وتخرجتْ في الكُليّةِ الأمريكيّة للبنات عام (۱۹۲۹ م) ، ثمَّ التحقتْ بكليةِ الآداب في جامعةِ الفاهرة ، فكانت أوّلَ فتاةٍ تدخلُها بتشجيع من لطفي السّيّد ، وطه حُسَين ، ونالَتْ ليسانس الآداب قسم اللغة العربيّة عام (۱۹۳۳ م) ، ثمّ الماجستير عام (۱۹۳۷ م) ، ثمّ الدكتوراه من جامعةِ الأزهر عام (۱۹۴۱ م).

- وعملَتْ سهير مدرِّسةً للأدبِ العربيّ بجامعةِ القاهرة ، ورئيسةَ قسمِ اللغةِ العربية بجامعة القاهرةِ مِن عام (١٩٥٨ - ١٩٦٧ م) ، ثمّ رئيسة مجلس التأليف والنشر بوزارة الثقافة من عام (١٩٦٧ - ١٩٧١ م) - حيث أُحيلت على المعاش. وهي مدرسةٌ زائرةٌ بالجامعة الأمريكية ، وسكرتيرةٌ عامّة لجميعِ الاتحاداتِ العربيةِ النسائية ، ورئيسة اتّحاد النساء بالجامعات في القاهرة ، وعضو مجلس إدارة المجلس الأعلىٰ للفُنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وهي عضو أيضاً في عدّة لجان ومؤسسات .

- أحرزتْ سُهير جائزة كُتّاب آسيا وإفريقية عام (١٩٥٥ م)، وقد زارتْ جميعً البُلدان العربية عدّة مرّات ، كما زارتْ أمريكا عدّة مرّات في زياراتٍ متبادلةٍ لعدّة جامعات ، وزارت أيضاً إنكلترا ، فرنسا ، إيطاليا ، ألمانيا ، الاتحاد السّوفياتي ، الدانمارك ، بلجيكا ، كوبا ، اليابان ، الصّين ، الهند ، الباكستان ، الفلبين ، غانا ، الحبشة ، ونيجيريا ، وعدّة دول إفريقية أخرىٰ .

- وكانت سُهير القلماوي من الرَّعيلِ الأوَّلِ منَ الآنساتِ اللاتي دخلْنَ الجامعة عام (١٩٢٩ م) ، وقد آثرت سهير التخصص في اللغة العربية وآدابها ، لأنها قد استشعرت خاصة موهبتها الفنية الخلاقة إلى الصقل بدراسة الأدب ، وما ينبغي له من معارف تاريخية وفلسفية ولغوية.

ـ وقد تفتّحت مواهبُها الأدبيّةُ والمعرفيةُ وهي ما تزالُ شابّة في ميعةِ الصَّبا تطلبُ العلْمَ ، ولم تنقطعُ عن الإنتاجِ الخصب إلى آخر حياتها. ومن الجديرِ بالذكر أنَّ سُهير القلماوي متزوجة ولها ابنان.

ـ ولسُهير أكثر من عشرين مؤلّفاً منها: «أدب الخوارج ، وألف ليلة وليلة ، وفي النقد الأدبي ، وأحاديث جدتي ، وفن الأدب ، ومع الكتب ، والنقد الأدبي ، والعالم بين دفتي كتاب...، وغيرها. توفيت سهير القلماوي عام (١٩٩٨ م).

(۲) انظر ترجمتها في كتاب «نساء شهيرات؛ (ص ٩٣ ـ ١٠٢) لوداد سكاكيني وتماضر توفيق. وروز غریب^(۱) ، وغیرهنّ ـ کما سنریٰ ـ.

* وبالجملة ، فقد فتحتْ ودادُ قلبَها الصَّافي للأدبِ الصَّافي ، وللأدباءِ والأديباتِ من جميع البُلدان ، وكان معظمُهم يفخرُ بوداد ويفتخرُ بها ، وكلُّ أديبِ ـ أو أديبة ـ يعدُّهَا من بلدتِه ومن أبناءِ جلدتِه .

* وقد شهد لوداد سكاكيني بهذه الميزة الطَّيبةِ عددٌ كبيرٌ من معارفها من مختلفِ البلادِ العربيّة ، وأكبروا حبَّها لهم ، ومن ذلك ما ذكرتْه الأديبةُ المصريةُ «أمينةُ السَّعيد»(٢) ، حيث نشرتْ في مجلّة «حوّاء» التي ترأسُها مقالةً تحدَّثَتْ من خلالها عنِ السَّيِّدةِ وداد سكاكيني الأديبةِ ذاتِ الشهرةِ اللطيفة ، والأصالةِ الكريمةِ في لبنانَ ، وسوريةَ ، ومصرَ والعراقِ ، فتقول: «حين يَرِدُ ذكْرُ وداد سكاكيني يعتبُرهَا كلُّ شعبٍ عربيّ واحدةً منه ؛

(١) انظر ترجمتها في كتاب: «مصادر الأدب النسائي في العالم العربي الحديث» (ص ٢٢٥_٢٢).

- ولأمينة السَّعيد أكثر من عشْر مؤلّفات منها: «آخر الطريق ـ رواية ـ وأمطار: ترجمة بتصرف لمنتخبات من القَصَص القصيرة ، وأوراق الخريف: منتخبات بتصرف لمجموعة من القَصص القصيرة عن الإنكليزيّة ، والجامعة ، والشّارع الرئيسي ، ومشاهدات في الهند ، والهدف الكبير ، ووجوه في الظّلام ، ووحي العزلة» وغيرها. ولأمينة السَّعيد أنشطةٌ أخرىٰ في ميادين الصَّحافة والترجمة والأدب.

⁽٢) أمينةُ السَّعيد: أديبةٌ مصريةٌ معاصرةٌ وراويةٌ ومترجمةٌ ، ولدَّتْ في مصر في مدينةِ القاهرةِ عام (١٩١٤م) ، وتلقَّتْ علومَها في معاهدها ، تخرَّجَتْ في كليةِ الآدابِ في جامعةِ القاهرة عام (١٩٥٣م) ، متخصّصة بالآدبِ الإنكليزي؛ ومن ثمّ اتّجهت إلى النَّشاط النّسائي. ورأسَتْ تحرير مجلّة «المصرية» النَّاطقة بلسانِ الاتّحاد النّسائي. وبعد توقّف المجلة عملت كاتبة في مجلّة «الهلالِ» ، ثمّ إنّها أصبحت رئيسة مجلسِ دار الهلال. ورأست تحرير مجلّة «حوّاء» النّسائية منذ إنشائها حوالي عام (١٩٥٤م). انتخبت عضواً في مجلسِ نقابةِ الصّحفيين ، ووكيلة لهذا المجلس.

فاللبنانيون يعتزّون بمنْبَتِها _ في بلدة صَيْدا _ (١) والسُّوريّون يتمسّكُون بتوطّنِها وجنْسِيّتها ، والمصريّون يَروْنَ في إنتاجِها أصدق صورةٍ للعقليةِ الأدبيّة المصريّة. والحقيقةُ أنهم جميعاً مُصيبون؛ ففي وداد نفحةٌ من لبنانَ ، وعمقٌ من سوريّة ، وحساسيةٌ من مصرَ ، وهي إذْ تكتبُ تحملكَ على أجنحةِ الأدبِ إلىٰ آفاقِ هذه المجموعة من الصِّفات الثَّمينةِ التي أكسبتها توسُّعاً فنيّاً ملموساً ، وطَعَّمَتْ إنتاجَها الفكريَّ بشتّىٰ عناصرِ الأدبِ العربيّ».

* وذكرتِ الأستاذةُ «سُليمىٰ العظم» بأنَّ السَّيدةَ وداد سكاكيني كانت تهوىٰ السّياحة وركوبَ الأسفار، فزارتْ مع زوجها عدداً من البلادِ الأوربيّة، وألقتْ فيها كثيراً من المحاضراتِ عن المرأةِ العربيّة، وعن إبداعِها في الوطنِ العربي الكبير من محيطهِ إلىٰ خليجهِ، ومن البلادِ الأوربيّة التي زارتها السَّيدةُ وداد مع زوجها زكي المحاسني: بريطانيا، فرنسا، هولندا، النّمسا، بلجيكا، ويوغسلافيا(٢).

* ولم تتوقف زيارةُ وداد سكاكيني على دولِ الغرب حيث أفادتُ واستفادتُ ، وإنّما زارت بلادَ المشرقِ العربيّ ، فقد زارت العراقَ ، واجتمعتْ في بغدادَ بالقاضية «صبيحة الشّيخ داود» و«نازك الملائكة»(٣)

⁽۱) يقول الشّيخ عبد الغني النابلسي هذَين البيتين الجميلين في صَيْدا: صَيْدا التي في الهوىٰ تزهُو مراكبها والبحرُ أمواجُه زادت مراكبها وحين جنّنا لها طابَتْ سواكبها واستقبلتْنَا وقد هزَّت مناكبها (موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان ٣/٥٨).

⁽٢) من مقال: «وداد سكاكيني... نجم هوى الأستاذة سُليمي العظم؛ بشيء من التصرف اليسير.

 ⁽٣) نازكُ صادق الملائكة البغدادية العراقية شاعرةٌ وناقدةٌ من نساءِ المشرقِ المُعاصرات ، ولدت سنة (١٩٢٣ م) ، وكان أبواها شاعران ، فأبوها صادقُ =

كما أنَّ السَّيدة وداد قد التقتِ الشَّاعرةَ العربيّة البغداديّةَ صاحبة «أنْفاسِ السَّحَر» و «لأُلاءِ القمر» الدِّكتورة عاتكة الخَزْرجيّ (١).

الملائكة شاعرٌ معروف ، وأمّها سَلمىٰ «أمّ نزار» شاعرةٌ مجوّدة؛ وفي أحضانِ هذه الأسرةِ كانت نشأةُ نازك ، فقد درستْ في مدارسِ بغداد الابتدائية حتّى المرحلة القانوية؛ إذ تخرّجت عام (١٩٣٩ م) في دار المعلمين العاليةِ في بغداد ، ثمّ حصلَتْ على ليسانس اللغة العربيّة عام (١٩٤٤ م) ، ثم تابعتُ دروساً خاصّة في جامعة برنستون عام (١٩٥٠ و١٩٥١) ، وفي جامعة وسكونس لإعدادِ الماجستير في الأدب المقارن عام (١٩٥٤ ـ ١٩٥٦م).

- عملتُ نازك معلمةً ، وأستاذةً للأدب العربيّ في جامعاتِ بغداد ، والبصرة ، والكُويت ، وهي شاعرةٌ مجيدةٌ من شواعر العصر الحاضر. أقامت مدّةً في لندن والولاياتِ المتحدةِ (للدروس الجامعية) وزارت كُلًا من فرنسا ، وإيطاليا ، وسورية ، ومصر ، والكويت ، وهي متزوّجة ولها ابن.

بدأت نظم الشّعر منذ طفولتها الأولَىٰ ، حيث نظمتِ الشّعر العامي ثم تدرجَتْ منه إلى الفصيح ، وقد لاحظ والداها ميولها الأدبيّة ، وأدركا أنّها شاعرة بالفطرة ، فشجّعاها ودرّساها اللغة والنّحو حتىٰ غدت شيئاً مذكوراً في عالَم الشّاعرات ، وفي عالَم المعرفة إذا كانت تنشرُ قصائدها في الجرائدِ العراقيّة ، ولها ديوانٌ معروف متداولٌ بين النّاس. كما أنَّ لها دراسة قيمة عن الشاعر الغنائي الرّومانسي علي محمود طه. وكانت نازك في أوّل حياتها مادّية ملحدة كما قالت عن نفسها ، ثمّ مالت إلى الصُّوفية ، وانصرفت بعدها إلى ذكْرِ الله وتلاوة القرآن الكريم والصَّلاة ، ونبتَتْ فيها روحُ الإيمان ، وكثيراً ما تنحدرُ دموعها لفرطِ سعادتها بالإيمان ، وبالله عزّ وجلّ. ولنازك أكثر من (١٣ مؤلّفاً) في الشّعر والنّثر والدّراسات الأدبية ومنها: «ديوان نازك الملائكة ، وقضايا الشّعر المعاصر ، والصّومعة والشّرفة الحمراء» وغيرها. وما تزال تتابعُ طريق الأدبِ والمعرفة .

(۱) عاتكةُ بنتُ وهبي الخزرجيّ البغداديّة العراقيّة؛ وُلدتْ في مدينةِ بغدادَ حوالي سنة (۱۹۲۶ م)، وهي صريحةُ النَّسب في جذورِ العربيةِ والعُروبة، فأبوها خزرجيّ، وأمّها عبيدية، وجدّها كان يقرضُ شيئاً من الشّعر الصّوفي، وأبوها يحفظُ شيئاً منه.

ـ ولما ولدتْ عاتكةُ أرَّخ والدها ذلك ، وأعقبَها بهذهِ الدَّعوات لها فقال: «ستَرَها اللهُ تعالىٰ ، وجعلَها خادمةً له ، ولحبيبهِ ﷺ. بَيْدَ أَنَّ أَباهَا لم يمتّعُ بها ، ووافته المنيةُ =

ودَادُ سَكَاكِيْنِي وَالسَأْلِيف:

* ممّا لا ريبَ فيه أنَّ النِّساءَ المُسلمات في تاريخنا العربي الإسلاميّ

ولها ستة أشهر ، فأولَتُها أمّها كلَّ عناية ، واهتمت بتعليمها ، ولاحظت أمُّها نبوغَها وهي ما تزالُ طفلة في العاشرةُ من عمرِها ، فكان سرورُها عظيماً ، وخصوصاً عندما حصلَتْ على الثّانوية بتفوّق وامتياز ، كما اشتهرتْ عاتكةُ بالإنشاءِ الجيّد ، والإلقاءِ المتميز ، ثم لحقتْ بقسم آداب اللّغة العربية ، وتخرّجت عام (١٩٤٥ م) ، وبعدها عملتْ بالتّدريس.

- ثمَّ التحقّ بجامعة القاهرة ، وظهر نبوغُها الشّعريّ وحبُّها لكنبِ التّراث العربي ، ومن ثمَّ سافرت إلى باريس وحصلَتْ علىٰ شهادة الدكتوراه ، وعملَتْ بعدها في التَّدريس في جامعة بغداد ، وزارتْ عدداً من البلدانِ العربيّة ، حيث ظهرتْ وأظهرتْ ثقافتها ونتاجَها الأدبيّ الجميلَ. ونشرتْ بعضِ دواوينها التي احتلَتْ مساحاتِ واسعة من قلوبِ الأدباء ، ومنهم الشّاعر «عزيز أباظة» الذي قرّظ ديوانها «أنفاسِ السَّحر» في (١٩/٨/١١ م) وقال في نهاية التقريظ لعاتكة: «سيّدتي الشّاعرة العزيزة. . . إنّ الشَّاعرية مركوزةٌ في طبعكِ ، وإنّك لشاعرةٌ من فرعِكِ لقدمكِ؛ [ولولاً أنْ يُقالَ صَبَا نُصَيْبٌ] لَقُلْتُ: مِنْ فرعِكِ الذي يتوّجُ فيما يتوّجُ على الشّبابِ والجمالِ ، إلى قدمكِ التي تحملُ النّبوغَ والكَمال»!!!.

- ولعاتكة عدّة مؤلّفات منها: «إسمّاعيل صّبري الشّاعر الظّريف المحدث ، وديوان العبّاس بن الأحنف تحقيق؛ وأفوافُ الزَّهر ، وأنفاسُ السّحر ، ولألاءُ القمر». ولعاتكة مجموعة شعرية كاملة تحتوي ستّة دواوين ومسرحيّة طُبعَتْ في الكويت عام (١٩٨٦ م) ، وجاء في الإهداء قولُها: «إلى السّابحين في ملكوتِ الله... الخاشعين في محرابِ الحُسْنِ... المؤمنين بوحي الشّعر ... إليهم.. إلى هؤلاء جميعاً... أهدي هذه التّفحات».. وفي مقدّمة ديوانها الوطن من المجموعة الشّعرية الكاملة قالت:

أنسا بنستُ كسلّ العُسرُب بنتُ بُسداتِها أو حاضِريها مَهْسدي المجسزيسا قلبسي تسوزَّع سَساكنيها وشعر عاتكة الخزرجيّ شعرٌ جميلٌ فيه النَّفحاتُ الدّينية ، وفيه الهمسَات اللطيفة ، وحوارٌ مع النَّفس ، وفيه مشاركاتُ لكثيرٍ من الأحداث الوطنيّة ، وأحداث الوطنِ العربي ، ويمتازُ بالجزالة والسَّلاسة والجمال. توفيتْ عاتكةُ في تشرين الثَّاني عام (١٩٩٧ م) وعمرها (٧٣ سنة ميلادية).

الوضيء ، قد شاركْنَ الرِّجالَ العلماءَ في الحياةِ العِلْميّة ، وأثريْنَ المكتبةَ العربيّة والإسلاميَّة بنفائسِ الكتبِ النَّسويّة التي تنبىءُ عن فضلهنّ وحبّهنَ للعلْم والتَّصنيفِ في شتّىٰ ألوان المعرفةِ وصنوفِ الأدب.

* وقد عرفَ التّاريخُ - بعامة - كثيراً من النّساءِ ذواتِ الفضلِ والإحسانِ في كلّ ميدان ، فكان منهنّ أوانسُ كاتباتٌ وشاعراتٌ ، وقارئاتٌ ومحدّثاتٌ وفقيهاتٌ ، وكان منهن كذلك أديباتٌ ونحوياتٌ وخطّاطات ، وكان منهن من يَرُحْنَ إلى الحروبِ مع الغُزاة ؛ ولكنْ هل خلّدَ التّاريخ من بينهن مؤلّفات ومصنفات؟! وهل يعرفُ أحدنا عدداً من النّساء قد خُضْنَ هذا المجال؟!

* من الطّبيعي أنَّ عددَ المُؤلِّفات منَ النّساء قليلٌ جدّاً إذ قِيْسَ بالرِّجالِ الذين أَثْروا الشَّرقَ والغربَ بمؤلِّفاتهم ، ولكنَّ هذا لا يعني أنْ نغضَ من حقّ النّساءِ اللواتي ساهمن في هذا الميدان ، وحلقْنَ في سمائِه ، ومنهنّ السَّيِّدةُ وداد سكاكيني التي أثْرتِ المكتبةَ النّسويةَ بعددٍ من المؤلِّفات ذاتِ المشاربِ المتنوّعة ، وذاتِ المسارب المتعدّدة.

* وقبل أنْ نتعرّض إلى مؤلّفاتِ السَّيدة وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أو لمؤلّفات غيرِها من النّساء عبر العصور أودُّ أنْ أشيرَ إلى بعضِ أسباب قلّة التّأليف عند النّساء ، وعدمِ انسجامهنّ الكبير في أمْرِ التّصنيف؛ ويمكنُ أنْ نرجع ذلك إلى بضعةِ أمورِ منها:

١ ـ قلّةُ تراجمِ النِّساء في كتبِ الأقدمين ، بل إنَّ كثيراً من كتبِ التَّاريخ أَغْفَلَتْ ذِكْر النِّساء ، أو كانت شحيحةً في أخبارِ النِّساء ؛ ولا تُوليها اهتماماً كبيراً ذا شَأْن .

٢ - صعوبة تتبع أخبار المرأة ، إذ كانتِ الحياة الاجتماعية لا تسمح بذلك كثيراً ، ولسيطرة أخبار الرّجالِ على السّاحة العلميّة في معظم العُصور؛ حتى في عَصْرِنا الحاضر.

٣ عدمُ الإلمامِ الكافي بحياةِ المرأةِ العلميّة ، ومعظمُ ما وصلَ إلينا من أخبارِ عنها كان بالمشافّهةِ عن تلميذٍ ، أو ابن أو زوج أو قريبِ ، وما شابه ذلك ، فجاءتِ الأخبارُ مبتورةً ناقصةً ، لأنَّ حياةَ المرأة كانت مبنية على الصَّون والعفّاف والتَّستُّر ، ومن هنا كان الاستفسارُ عنها مضْطَرباً وغيرَ سَهْل ، بل إنَّ بعضَ النَّاس كان يشعرُ بالحرجِ إنْ تحدَّث عن المرأةِ في هذا المجال؛ اللهم إلا ما وردَ عن روايةِ المرأةِ للحديث النَّبوي وللعلم في مشرقِ شَمْسِ الرِّسالةِ المحمديّة ، وصَدْر الإسلام وعصر التَّابعين (١).

\$ - وهناك أمْرٌ مهمٌ جداً ذكره «محمد خير رمضان يوسُف» في مقالة ممتازة له بعنوان «المؤلّفاتُ من النساء ومؤلفاتهنَّ في التّاريخ الإسلاميّ»(٢) ، حيث ذكر بأنَّ من أسبابِ قلّة التّأليف عند المرأة ما مفاده: «عدم تفرّغ المرأة المحبّة للمعرفة والأدب ، وذلك بسبب طبيعة تكوينها وعملها في شؤونِ البيت الكثيرة المتعدّدة ، وذلك بسبب طبيعة تكوينها وعملها في شؤونِ البيت الكثيرة المتعدّدة ، بالإضافة إلى ذلك كلّه أنَّ أيَّامَ الحمْلِ تسيطرُ على معظم شؤونها ، ثمّ الولادة ، ومن ثمَّ العناية بالأولاد ورعايتهم وتربيتهم ، والوقوف على ما يحتاجون من اهتمام وعناية وتوجيه إلخ . ومن الواضح أنَّ التّأليفَ والتّصنيفَ والكتابة وجَمْعَ المادة العلميّة أمْرٌ مهم يحتاجُ إلى الهدوءِ ، وإلى صفاء في الذّهْنِ ، وإلى تفرّغ نوعاً ما ، وهذا ما تفتقدهُ المرأةُ المشرفةُ على المنزلِ في أكثرِ الأحيان . وبالمقارنة بين عددِ المؤلّفين وعددِ المؤلّفاتِ في حياتِنا المعاصرة ، تتبيّنُ وجهةُ النّظرِ الصَّائبة ـ إنْ شاء الله ـ ولا يعدمُ المرهُ المرهُ المرهُ المرهُ المرهُ المره المراه المراه المراه المراه المره المره المره المره المراه المره المراه المره المراه المره الله المره المراه المره ا

⁽١) للمزيد في هذا المجال الطّيب الرّحب المبارك اقرأ كتابنا: (نساء من عَصْر التّابعين) حيث تجدُ دورَ المرأةِ المسلمة العالمة في نشر العلم وتعلّمه وتعليمه.

⁽٢) انظر المقالة في مجلة عالم الكتب ـ المجلد ١٤ ـ العدد الخامس ـ سنة (١٩٩٣ م) (ص ٥٢٤ ـ ٥٤٠).

أَنْ يلاحظَ هذا الفرقَ البارزَ بزيارةِ إلى أيةِ مكتبة ، أو معرضِ للكتاب ، ليرى بنفسهِ عددَ الكتبِ التي تحملُ أسماءَ المؤلّفين ، وعددَ التي تحملُ أسماءَ المؤلّفات . . "(١).

وثمّة أمر آخر لا يقل أهمية عن سابقه ، وهو الأمر المادي والمالي؟ إذْ إنَّ المرأة قد لا تمتلك المال الكافي لتغطية شراء المصادر والكتب ، والرَّجل أقْدَرُ على هذا منها ، لأنَّ العرف جرى بأنَّ الرَّجُل هو الذي يملك المال في غالب الأحايين والأوقات؛ وإذا ما تيسَّر المال في أيدي النساء فغالباً ما ينفقنه في شراء أدواتِ الزّينةِ والحُليّ والحُلل ، وقلما تجدُ مَنْ تبتاعُ كِتاباً ، إلا مَنْ شملتُها العنايةُ الإلهيّة في ذلك ، وسلكَتْ دربَ العلم وطريق المعرفة ، وكانت لها هواية جامحة في محبّةِ الكتب والثقافة.

* ومن الأمورِ المهمّة جدّاً في قلّة تأليف النّساء ، هو أنَّ المرأة بعامّة ميالةٌ بطبعِها وطبيعتِها وما تُمْليهِ عليها أمورُ الحياةِ الاجتماعيّة النّسويةِ من حبِّ للكلام وحبِّ للسَّماعِ من غيرهنَّ ، ومنَ الملاحظِ في أيّامنا هذه أنَّ المرأة أو النّساء ينتَصِبْنَ كالمشْدُوهاتِ ساعاتٍ طوال أمامَ جهاز التّلفزيون يتابعْنَ المُسلْسلاتِ والأفلامَ وما تعرضُه هذه الشَّاشة السَّاحرةُ الآسرةُ التي تشبُه الأفعىٰ في ملمسِها ، ولكنْ عند التقلُّبِ في أنيابها العَطَبُ والدّمارُ والتّلاشي (٢).

⁽۱) انظر: مجلة عالم الكتب (مجلد ١٤/ العدد ٥/ص ٥٢٥ و٥٢٦) بشيء من التصرف، وشيء من إضافة بعض المعلومات. ويستحسن قراءة هذا بالمجلة المذكورة.

 ⁽٢) انظر ضرر التلفزيون وآثاره السلبية على المرأة والطفل في كتابنا «الطفل في ضوء القرآن والسنة والأدب» (ص ٤٩٨ ـ ٥٢٣) ففي هذا الفصل فوائد مهمة جداً بإذن الله.

* ومن الملاحظِ أنَّ المرأةَ ميَّالةٌ إلى السُّهولةِ ، أو إلىٰ الحصولِ على الأشياء دون أدنى تَعب ، والتّلفزيون يحقّقُ لها جزءاً من ذلك ، والمجالسُ النَّسُويَّةُ المُفْعَمَةُ بِالثَّرِثْرَةِ والغيبةِ للأُخْرِيات تحقَّقُ شَطْراً آخر ، وربَّما يساعدُ غِنَىٰ الزُّوجِ ويُسْرُ حالِهِ المرأةَ في التّمادي في اللهو وعدم الاهتمام بالعلم ، إلَّا في حالاتٍ نادرة ، حيث نجدُ أنَّ بعضَ النَّساء يَمِلْنَ إلى الأدبِ وإلى الشَّعر وبعض الفُنون الأدبية والتَّاريخية التي لا تحتاجُ إلى كبير جهدٍ وعناء. . . وهذا ما يخصُّ غالباً نساءَ عصرِنا الحاضر ، بَيْدَ أنَّ نساءَنا قديماً كُنَّ أَقَلَّ بِليَّة ، وأقلَّ ميلاً إلى اللهو من مثيلاتهنّ فيما بعد ، ونجدُ كثيراتٍ منهنّ راويات أو شيخات لأعلياءِ العلماءِ ، يقولُ: "محمد خير رمضان يوسف» في مقالتهِ الآنفةِ الذُّكْر: «ولو تجوّلَ القَارىءُ بين كتُبِ تراجمِ الرُّواةِ من المُحدِّثين ، لرأى كَمّاً هائلًا من أسماءِ النِّساءِ يملأُ جوانبَ هذه الكُتب ، منهنّ شيخاتٌ على مستوى عالٍ من العلْمِ والحفظِ ، وقد أَجَزْنَ شُيوخاً كِباراً ، أمثال: الإمام الذّهبيّ ، وابن حجر العسقلانيّ ، والحافظ السَّخاوي ، وغيرهم كثير. ولو ضربْنَا مِثَالًا أقربَ لكان أوضح؛ ففي «أعلام النِّساء» لكَحَّالة ، الذي جمعَ فيه تراجمَ نساءٍ كثيراتٍ من العصورِ القديمةِ حتّى العَصْرِ الحاضر في خمسةِ مجلّدات: أكثر النّساء منهنّ محدّثات ، والحديث مبناهُ على السَّماع والرّواية ، ولا تُشْتَرطُ فيه الكتابة»^(١).

* وهناك أسبابٌ أخرى لِقلّة تأليفِ النّساء ، وقلّة تصنيفهنّ للكتب يدركها القارىءُ الحصيفَ من خلال قراءته للمصادرِ والمراجعِ المُتخصّصة بتراجم النّساء في كافةِ العصورِ القديمةِ والحديثة.

⁽١) انظر مجلة عالم الكتب (مجلد ١٤/ العدد ٥/ ص ٥٢٦).

- * ونعودُ إلى السَّيّدة وداد سكاكيني ، وإلى تراثها وما تركَتْه من مؤلّفات ، حيثُ أعطتني ابنتُها السَّيدةُ سماء المحاسني قائمة بمؤلّفات أمّها ، كتَبَتْها سماءُ بخطّها ، وهي حسبُ صُدورها:
- ۱ ـ الخطرات ـ مجموعة مقالات وخواطر ـ مطبعة الكمال ـ بيروت
 ۱۹۳۲م.
- ٢ ـ مرايا النّاس ـ مجموعة قصص ـ لجنة النثر للجامعيين بالقاهرة
 ١٩٤٥م.
- ٣ ـ أمهات المؤمنين وأخواتُ الشهداء ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٥م.
 - ٤ ـ أروى بنتُ الخطوب ـ رواية ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٥م.
- بين النّيل والنّخيل ـ صور وأقاصيص مصرية ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٦م.
 - ٦ الحبُّ المحرّمُ رواية دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٤٧م.
 - ٧ ـ إنصاف المرأة ـ مطبعة الثّبات دمشق ١٩٤٧م.
- ٨ ـ الستار المرفوع ـ نادي القصة بالقاهرة ١٩٥٥م (سلسلة الكتاب الذهبي).
 - ٩ ـ العاشقةُ المتصوفة ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٥٥ م (سلسلة اقرأ).
 - ١ ـ سوادٌ في بياض ـ مطبعة الثّبات دمشق ١٩٥٩م.
- ١١ ـ نساء شهيرات في الشرق والغرب ـ بالاشتراك مع السيدة تماضر
 توفيق ـ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة ١٩٥٩م.
 - ١٢ ـ نقاط على الحروف ـ دار الفكر العربي بالقاهرة ١٩٦٠م ـ نفد.

- ١٣ ـ نفوس تتكلم ـ دار المعارف القاهرة ١٩٦٢م (سلسلة اقرأ).
 - ١٤ ـ مي زيادة في حياتها وآثارها ـ القاهرة ١٩٧٠م (دراسة).
 - ١٥ ـ قاسم أمين ـ دار المعارف ـ سلسلة نوابغ الفكر.
 - ١٦ ـ عمر فاخوري ـ القاهرة ١٩٧٠م (سلسلة أعلام العرب).
- ١٧ ـ أقوى من السنين ـ مجموعة قصص ـ اتحاد الكتاب العرب بدمشق
 ١٩٧٨ م.
 - ١٨ ـ شوكٌ في الحصيد ـ دار مجلة الثقافة دمشق ١٩٨١م.
- ١٩ ـ سابقات العصر وعياً وسعياً وفناً ـ الندوة الثقافية النسائية في دمشق
 ١٩٨٦م.
- ۲۰ ـ سُطور تتجاوب ـ منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ۱۹۸۷م.
- * وللسَّيدة وداد مؤلّفات أخرىٰ لا تزالُ مخطوطة ، وقد أطلعتني ابنتُها الأديبةُ السَّيدة سماء زكي المحاسني على مخطوطٍ جميل بعنوان: «نساءٌ مجاهداتٌ من تاريخنا»(١) وأعطتني صورةً عنه ، كي أعلَّقَ عليه وأدرسه

⁽۱) هذا المخطوطُ الجميلُ يتألَّفُ من عدَّةِ أقسام أقربُ إلى المقالاتِ في بعضِها من مثل عنوانِ اختارته السَّيدةُ وداد باسم: «حاميات الحِمىٰ والدِّيار» وهو بضعُ ورقاتِ تحدَّثُتُ من خلالِها عن شجاعةِ بعض النِّساء في العَصْر الجاهليّ والإسلاميّ؛ كما وضعتِ السَّيدة وداد قسماً آخر ترجمت فيه لبعضِ الصَّحابيات وهن: «أسماءُ بنتُ أبي بكر ، ونسيبةُ بنتُ كعب ، وأمُّ حرام بنت ملحان»؛ كما خصَّتْ خولةَ بنتَ الأزور ببضع ورقات تحدَّثت من خلالها عن حياتِها.

ـ وخصَّت وَدادُ فسماً ثالثاً تحدّثت فيه عن الوافداتِ على سيِّدنا معاويةَ ووضعتْ لهذا القسم عنواناً هو: «سِياسيّات تَهيَّبهُنَ معاوية»!!!! ونقلَتْ ما جاءَ في المصادرِ عنهنَّ دونَ تمحيصِ أو تدقيقِ في صحّةِ الأخبار ، وقد سردَتْ سيرة عشْر نساءِ =

وأصحّحه ومن ثم يخرجُ إلى النّاس في حُلّة قشيبةٍ ، ومضمونٍ مفيد ، وهذا ما أقومُ به ، راجياً من اللهِ العون والسّداد والتّوفيق؛ إذ إنّ في إحياءِ مثل هذا العمل إحياءً لسيرةِ هذه المرأةِ الفاضلة ، والتي أرادت أنْ تبرزَ صورةَ المرأةِ العربيّة المسلمة بشكلٍ وضيء في معظمٍ ميادين حياتها.

* ويمكنُ لنا أنْ نقسمَ إنتاجَ وداد سكاكيني إلى عدّةِ أقْسَام منها:

١ ـ القَصَصُ.

٢ ـ الرّواياتُ .

٣ ـ المقالاتُ والتّراجمُ والسَّير.

٤ ـ النَّقْد الأدبيّ والفنّي.

* وفي الشُطورِ التَّاليات نتعرفُ بعضاً من نواحي إبداعِ وداد في تلكم الأُفسام السَّابقة ، كي تتوضَّحَ صورتُها الأدبيّةُ والعلميّةُ أكثر؛ وكي نرىٰ موهبتهَا في شتّىٰ ألوانِ المعرفةِ النسويّةِ المعاصرةِ ، مع حبِّها للقديم.

ودَادُ والقَصَصُ:

* القصَّةُ العربيَّةُ فنُّ مستحدثٌ في الأدبِ العربيّ الحديثِ ، وقد استمدَّ شطراً من مقوّماته من بعضِ آدابِ الغربِ ، واستقىٰ بعض عناصره أيضاً من سالفِ أدب العرب.

* ولقد عرفَ العربُ قديماً عَملًا قُصصيّاً جميلًا هو كتابُ «كليلة ودمنة»

⁼ منهنَّ؛ كما تحدثت عن سكينةَ بنتِ الحُسين ، وغزالةَ الحرورية. هذا هو مضمون المخطوط ، وإذا ما طُبع على ما هو عليه فسيكون حوالي (١٠٠ صفحة) من القطّع المتوسّط.

ـ إلا أنّني ـ والحمد لله ـ استدركتُ كثيراً من التّراجم ، وزدتُ في الكتابِ بحيثُ يخرجُ في ثوبِ قشيب يناسبُ قَدْرَ الأدبِ والأدباءِ ومحتبي اللغةِ والتّراث.

الذي عرَّبَه وهذَّبه ابنُ المقفَّع عن الفارسيّةِ القديمةِ ، كما أنَّ العربَ المعاصرين عرفُوا أعمالاً قصصيةً جمّةً ، ترجموها عن لغاتِ الغربِ المتعدّدة كالإنكليزيّة ، والفرنسيّة ، والرُّوسيّة ، والألمانية ، والإيطالية وغيرها.

* وبالإضافة إلى ما تقدّم ، فقد استطرفَ الأدباءُ قصصَ «البُخلاء» لأبي عثمان الجاحظ ، وغيرها من الخُرافات وقصص الأمثالِ التي أثّرت وأثّرتِ الأدبَ العربيَّ منذُ العصر الجاهليِّ القديم.

* وكان للقصصِ الشَّعبي مساحةٌ واسعةٌ في قلوبِ النَّاس على مختلفِ العصور ، ومختلفِ الطَّبقات ، ومختلف البُلدان ، خذْ مثالاً على ذلك قصصِ «ألف ليلةِ وليلة» التي سكنتِ القلوبَ ، وشاعَتْ بين النَّاس ، وتداولَها الأدباءُ والظَّرفاء والمثقّفون لما فيها من إثارةٍ ومفاجآت.

* ولم يتوقف شغف النَّاس على قصصِ ألف ليلة وليلة وحُدها ، وإنّما شُغِفُوا بهذا اللون السَّاحر المشوق من الأدبِ الشّعبي من مثلِ سيرة: «عنترة بن شدّاد ، وسيف بن ذي يَزَن ، وحمزة البهلوان ، وفيروز شاه بن الملك ضَاراب ، والزّيناتي خليفة ، وذات الهمّة...».

* وكان في قصصِ الأنبياءِ والمُرسلين الذين ورد ذكرهم في القرآنِ الكريمِ ، إلىٰ جانبِ قصصِ العرب وأَخبارِهم ومآثِرهم وسيرِ عظمائِهم ، وقصصِ عشّاقهم ، وما زخرفَهُ أصحابُ المقامات الأدبية خيرُ ما يرفدُ المشاعر والنّفوس بهذا النّمط الأدبيّ الشّائق الجميل منذ منتصفِ القرن التّاسع عشر.

* وتألّق عددٌ من كتّاب القصّة وكاتباتها في المشرق العربيّ ، وخصوصاً في سورية ولبنان؛ وظهرت أعمالٌ أدبيةٌ قصصيةٌ رائعةٌ على أيدي الرّواد من الرّجال والنّساء.

- * ومن النساءِ الرّائداتِ اللواتي حلقْنَ عالياً في سماءِ القصّة أديبتُنا السَّيدةُ وداد سكاكيني رحمها الله التي كان لها النّصيبُ الموفورُ في هذا البُسْتان الزَّاهرِ المُزهرِ الأنيق.
- * وقد سجّلَتْ ودادُ سَبْقاً متميّزاً في ميدانِ القصّة ، يقولُ مؤلِّفا كتاب «الكاتبات الشُّوريات» (١) عن قصصِ السَّيدةِ وداد سكاكيني ما نصُّه: «قصصُها عَرفَتْ نُضْجاً فنيّاً قَلَّما نلمسُه عند غيرها من الرّواد السُّوريين الذين كتبوا القصّة الواقعيّة».
- * وقال لي الأستاذُ راضي صدّوق (٢) الأديبُ والشَّاعرُ المعروف ما مفاده: «إنَّ السَّيدة وداد سكاكيني من أوّلِ الكاتبات القَاصَّات السُّوريّات اللواتي تنبَّهْنَ إلىٰ الواقعيةِ في كتاباتِها القَصصيّة ، وهي تمثّل انطلاقة أدبية فنيّة متميزة في نساءِ العَصْرِ الحديث ، ونُضَجاً قصصيّاً متميّزاً شهِدَ لها بهِ الدّكتور محمّد مندور وغيرُهُ من أساطينِ القصَّة المعاصرين».
- * ويذكرُ الدكتور عمر الدّقاق شيئاً من واقعيّة وداد سكاكيني القصصيّة في معرضِ حديثهِ عن فنّ القصّة: «وتدخلُ القصّةُ العربيّة في النّصفِ الثّاني من القرن العشرين ، وفي أثرِ انقشاعِ غيوم الحرب العالميّة الثّانية ، في طورِ الواقعيّة بعد أنْ ظَلَّتْ حيناً ترتعُ في رحاب الرُّومانسيّة ، وهذا الاتجاهُ الواقعيُّ سادَ سائر الفنونِ الأدبيةِ بوجْهِ عام ، ووضع مياسمه عليها. وقد تجلّتِ الواقعيةُ في قصصِ الكاتبةِ السّورية وداد سكاكيني من خلالِ

 ⁽۱) الكاتبات السوريات (۱۸۹۳ ـ ۱۹۸۷) (ص ۱۰۷): تأليف: مروان المصري،
 ومحمد علي وعلاني ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ۱۹۸۸ م.

 ⁽۲) استفدتُ كثيراً منَ الأستاذ الأديبِ الشَّاعر راضي صدَّوق عند صياغتي لسيرةِ وداد سكاكيني ، حيث قدَّم كثيراً منَ المعلوماتِ المهمّة عنها وكتب لي بخطه أشياء مفيدة.

مجموعتيها: (مرايا النّاس، وبين النّيل والنّحيل)، فكلتاهما تستلهم البيئة المحليّة، وما تنطوي عليه من ملامح الحياة الشَّرقية الصَّارمة، وتقاليدها المستحكمة. وأكثرُ هذه القصص منصبٌ على حياة المرأة القابعة داخل ذلك المجتمع المغلق الذي يتحكّمُ فيه الجَهلةُ من الرّجال، كقصّة (هاجر العانس وحظها المكتوب، والضّرتان، والشّيخة عطيّة...)، وهي تدورُ في الغالب حول العُقْم وتعدّد الزَّوجات، وحول عيشِ الحريم في أجواء الدَّس والكيد»(١).

* وقد ظلتِ السَّيدةُ وداد تكتبُ القصَّة على مدى ثلثِ قرن من عام (١٩٤٥م) إلى عام (١٩٧٨م) ، حيث أصدرتْ خلال هذه السّنين السِّمَان بالأدبِ خمسَ مجموعاتٍ قصصيّة ، طُبعَ أربعٌ منها في مصْرَ ، وواحدةٌ في دمشقَ ، وهذه القَصص هي:

١ ـ مرايا النَّاس ـ مجموعةُ قصص ـ القاهرة ـ ١٩٤٥ م.

٢ ـ بين النَّيل والنَّخيل ـ مجموعةُ قصص ـ القاهرة ـ ١٩٤٦م.

٣ ـ السِّتار المرفوع ـ مجموعة قصص ـ القاهرة ـ ١٩٥٥م.

٤ ـ نفوس تتكلم ـ مجموعة قصص ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٦٦٢ م ـ سلسلة اقرأ. (١٢٨ صفحة).

اقوى من السنين ـ مجموعة قصص ـ اتّحاد كُتّاب العرب بدمشق ـ ١٩٧٨ م.

* ويمتازُ أسلوبُ وداد في هذه القصص بالجمالِ وحُسْنِ التّركيب ، بالإضافةِ إلى روعةِ الحبْكَةِ التي تشدُّ القارىءَ شدّاً كيما يصلَ إلى نهايةِ

⁽۱) مواكب الأدب العربي عبر العصور ، لعمر الدقاق (ص ۲۷۲ و۲۷۳) دار طلاس ـ دمشق ـ ط۱ ـ ۱۹۸۸م.

القصّةِ ، وفي هذا دليلٌ واضح على موهبتِها القصصيّةِ الفدّة وقدرتها الفائقة على تحليلِ شخصيّاتها القصصيّة؛ ومن الجدير بالذّكر أنَّ أكثر هذه الشَّخصيّات مستمدّةٌ من الواقعِ الموشّحِ بالخيالِ الأدبي الأنبقِ اللطيف ، ونلحظُ هذا في مجموعتِها القصصيّة الأولىٰ «مرايا النَّاس» والتي تضمُّ (١٤ قصة) في حوالي (١٦٠ صفحة) ، وتؤكدُ السَّيدةُ وداد في هذه المجموعةِ على أنوثةِ المرأةِ ، وأمومتِها ، وتحبيذ الزَّواجِ الذي هو مبتغیٰ المرأةِ ، وأمومتِها ، وهدفُها الأوّل والأخير ، ويظهرُ ذلك جليّاً في كلمةِ الإهداءِ التي وشّتِ السَّيدةُ وداد من خلالها كتابها فقالت: «إلىٰ مرايا أمومتي ووحي صورتي ، وإلى فلذات كبدي ، أهدي قصصي مرايا أمومتي ووحي صورتي ، وإلى فلذات كبدي ، أهدي قصصي ليقرؤوها كباراً كما قرأتُهم صغاراً».

* ومن اللطيفِ في أخبار النساء أنَّ هذه المجموعة القصصية اللطيفة قد حازتُ إعجابَ الجنسِ اللطيف ، ومنهنّ الدكتورة عائشة عبد الرحمن ابنة الشَّاطىء ، وصرَّحَتْ بالثَّناء الجزيل عليها ولكنْ قبل أنْ يحلَّ الحَسَدُ ضيفاً على بنتِ الشَّاطىء وتقع القطيعة بين هاتئن الأديبتئن حول كتاب «أمّهات المؤمنين» الذي ألَّفَتْه وداد سكاكيني ونشرتْه عام (١٩٤٧ م).

* وتتميَّزُ قصصُ السَّيدةُ وداد سكاكيني بشكلِ عام بالتّحليل الواضحِ والبارعِ لأعماقِ أبطالها ، خصوصاً إذا كانوا من النّساء ، وهذا غالب شخصيّاتِ وأبطالِ قصصها ، ومن هنا ندركُ أنَّ السَّيدةَ وداد شديدةُ الملاحظةِ ، وذات مقدرةٍ خاصّة على فَهْم نفسيّة المرأةِ ، فهي أمُّ وزوجةٌ ومعلّمةٌ ومربيّةٌ وأديبةٌ وحصيفةٌ ، ولعلّنا من هذا الباب الجميلِ ندركُ لِمَ آثرتِ السّيدةُ وداد اختيارَ معظم أبطال قصصِها من العناصر النسائية ذات الأصالة المتميّزة.

* ومن أجملِ ما في مجموعتها «مرايا النَّاس» قصّة (هَاجر العانس)

حيث تبلغُ السَّيدةُ وداد الذِّرْوةَ في تحليلِ عواطفِ المرأة؛ وتتلخَّصُ قصّة هاجر هذه في أنّها الأخت الكبرى الدّميمة لأختَيْن جميلتيّن أصغر منها ، وتتهافتُ الخاطباتُ عليهما ، ومن ثم تتزوّجان ، وتنعمانِ بدفءِ الحياةِ الزُّوجية ، والإنجاب ، بينما تبقىٰ هاجرُ عانساً وقد فاتَها قطارُ الزُّواج ، وتجافى عنها الخاطبون ، فامتهنَتِ التَّدريسَ تسليةً وعزاءً عمّا فاتَها من نعمةِ الزُّواج. وهنا تظهرُ براعةُ السَّيدةُ وداد حيث رسمتْ بالكلماتِ الموضوعيّةِ الصَّادقةِ أدقُّ مشاعرِ هاجر الإنسانية ، وهواجسَها النَّفسية التي عاشَتْها ، وعانت منها ، ورسمتْ نظراتها السّاهمة وراء سرابِ الأمل ، وخصوصاً كلما لمحت إحدى أختيُّها: (مليحة أو سعاد) ، كما تحدثت عن أحاسيس هاجر التي تعتملُ في داخلها؛ ومن العجيب أنَّ القارىءَ لا يتوقَّع نهايةَ قصّة هاجر ، في حين أنَّ السَّيدة وداد قد اختارتِ النَّهايةَ ببراعةٍ فائقة غيرِ متوقعة ، حيث جعلتْ مديرةَ المدرسةِ التي تعملُ فيها هاجر تسمعُ هَمْساً ولَغَطاً من الصّفِ الذي تدرّسُه هاجر ، وكأنَّ الصَّفَّ دون معلَّمة ، وهنا تتسلُّلُ المديرةُ في حَذَر إلى الصَّف ، فتجدُ هاجرَ ساهمةً ذاهلةً عمَّنْ حولَها من الفتيات وعن الصَّفّ. ولما سألَتْها المديرةُ عن سِرِّ وجومها هَمْساً ، أجابتْ هاجرُ في أسىً ومرارةٍ وحزنٍ: «انظري يا سيّدتي مآسي الدَّهْر. . . إنَّني أَفكُّرُ في أمِّ هذه البنْتِ ، فقد كانَتْ تلميذتي » .

* وكذلك نلحظُ الأمرَ نفسه تقريباً في معظمِ قصصها ، فالقارىءُ لا يستطيع أنْ يتصَّور الخاتمة التي تودّ وداد سكاكيني رسْمها. وقد أعْجِبُ محمود تيمور (١) بأقصوصة هاجر العانس ، وذكر ذلك في مقدّمةِ

⁽۱) محمود أحمد تيمور المصريّ أديبٌ وكاتبٌ مَسْرحيّ وروائيّ ، وُلدَ في القاهرةِ سنة (۱) دمود أحمد تيمور المصريّ أديبٌ وكاتبٌ مَسْرحيّ والإلهاميّة الثّانوية ، ولم يكملُ دراسته العُليا لأسباب صحية. التحقّ بالوظيفةِ لفترةٍ بسيطة لا تتجاوزُ سنة =

المجموعة ، حيث أثنى على السَّيّدة وداد بأنّها تجيدُ: «تحليل النَّفس وبخاصّةٍ في تحليلِ عواطف المرأة. . . وليس أدلّ على ذلك من أقصوصةِ هاجر العانس ، فقد تغلغلتِ الكاتبةُ بنظرتِها في أطواءِ النَّفسِ البشريّة ، وجلتْ في طريقٍ طبيعيّ ما يعتورها من تطوّرٍ غير مُفْتَعل

* هذا وقصص السَّيدةُ وداد سكاكيني تمتزجُ بالواقع ، وتبرهنُ على علاقاتها الاجتماعيّة الصّحيحة ، وتدلُّ على دقّة ملاحظتِها ورهافةِ إحساسها ، فهي أديبةٌ ، وهي امرأة تدركُ مذاقَ الأدبِ ، فترسمه بأجملِ اللوحات».

* ولا نستطيع هنا أنْ نتعرّض إلى القيمة الفنيّة لأقاصيص وداد سكاكيني ، لأنّ المقام لا يتسع إلى ذلك ، ولوجود دراسات وكتب

ونصف ، ثم تقاعدَ وتفرّغ للكتابةِ والمحاضرات ، وهو عضو مجمع اللغةِ العربيةِ ، والمجلس الأعلىٰ لرعايةِ الفُنون والآدابِ والعلومِ الاجتماعيّة ومقرّرُ لجنة القصّة به . حازَ الجائزة الأولىٰ من مجمع اللغةِ العربيّة ، وجائزة الدّولة للأدب عام (١٩٥٠ م) وجائزة الدولة التّقديرية في الآداب سنة (١٩٦٢ م) ، ولم يتزوّجُ .

_ وعن تكوينه كاتباً هناك أربعةُ عوامل عملتْ في تكوينهِ كاتباً ذكرَها بقلمه فقال: «عندما التفتُ خلفي متكشّفاً ماضي حياتي ، أرىٰ أربعةَ عوامل أساسيّة قد عملَتْ في تكويني كاتباً:

الأوّل: والدي أحمد تيمور، والنّاني: شقيقي محمد، والنّالث: حوادثُ خاصة كان لها تأثير في تحويل مجرى حياتي، والرابع والأخير: مُطَالعاتي..». مات محمود تيمور سنة (١٩٧٣م)، وله أكثر من ثمانين عَملاً توزّعتُ بين القَصصِ والرّواياتِ والمسرحيّات والمقالات والدّراسات وأدب الرّحلة. ومن مشاهير أعماله: «الشّيخ جمعة وقصص أخرى، ونداء المجهول، والوثبةُ الأولى، ودنيا جديدة، ومسرحيّة: المزيفون، والصّعلوك، وعروس النّيل، وفي المقالات والدراسات: المسرح المصري، ونشوء القصّة وتطورها، وفي أدب الرحلة: أبو الهول يطير وغير ذلك...». (أعلام الأدب العربي المعاصر ١/ ٤٠٠)

ومقالاتٍ كثيرة عنها في هذا المجالِ ، وحسبنا أنّا أشْرنا إلى بعضِ أعمالِها في القصّة ، وإلى براعتِها في ذلك ، وكيف شَهِدَ لها بالتّفوّق أساطينُ هذا الفَنّ وأعلامُه في العَصْر الحاضر في الوطن العربيّ جميعه.

ودَادُ والرِّوابَات:

* كانتِ السَّيدةُ وداد سكاكيني قد غَمَستْ قلمَها في مدادِ الرِّوايةِ الأَدبيةِ ، فأصدرتْ روايتيْن اثنتيْن ، وهما:

١ ـ أروىٰ بنت الخطوب ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٤٥م.

٢ _ الحبُّ المحرّم _ دار الفكر العربي _ القاهرة _ ١٩٤٧م.

* ومن الواضح أنَّ هاتَيْن الرّوايتين كانتا من الواقع الذي عاشَتْه السّيدة وداد في الشَّام ، فرواية «أروى بنت الخطوب» صورةٌ جميلةٌ للشّام في القديم الذي لم تتغير طبيعته ، وللمرأة العربية في حفاظِها ووفائها ، وتجذبك السَّيدةُ وداد بأسلوبها السَّاحر لتكملَ قراءة روايتها على الرغم من أنَّها لا تتجاوز (١٣٠ صفحة).

* وأمّا رواية «الحبّ المحرم» فقد صوَّرتْ من خلالِها التطور الشّاميَّ من القديم إلى الحديثِ ، ومن ثم تَبيّن كيف اضطربتِ الفتاةُ في دراستها ، وراحتْ تتطلَّع إلى الحياةِ الزَّوجية إذ كان ذلك مُنَاها ومبتغاها ، وهذه الرّوايةُ أيضاً تشدُّ القارىءَ إلى النّهاية علماً بأنَّ عدد صفحاتها لا يتجاوزُ مئتى صفحة.

ودَادُ وَالمَهَالاتُ وَالتّراجمُ وَالسّير:

أولاً: المَقَالاتُ:

* أكثرُ ما يميّزُ أدبَ السَّيِّدةِ وداد سكاكيني هو أدبُ المقالةِ ، فمعظمُ كتبها المتبقية تندرجُ تحتَ المقالاتِ ، والدّراسات ، ومنها كتابُها الأوّلَ: «الخَطَرات» ، ثم تلاهُ «سوادٌ في بياض» ، وقبله «إنصافُ المرأةِ» ، وكذلك · «نقاطٌ على الحروف» و «شوكٌ في الحصيد» و «سطورٌ تَـتَجاوب».

* وكانت مقالات وداد ذات طابع خاص ، «فهي تتميّزُ بالجرأةِ والصَّرَاحةِ ، ورصانةِ العبارة ، وقوّةِ السَّبْك ، ومتانةِ الأسلوبِ ، وإشراقِ الأَلْفَاظ ، ودقّةِ الحبْكِ ، فلا نعثرُ في مقالاتِها على لفظِ عامّيٍّ ، أو عبارةٍ ركيكةٍ ، بل تختارُ كلماتِها وألفاظها بذوقِ الأديبِ البارعِ ، وتختارها اختيارَ الفنّانِ الأصيل ، كما لو أنّها غُرِسَتْ غَرساً ، وهُيِّتَتْ لهذا الموضعِ دون سواه»(۱).

* نعم ، فالسَّيدة وداد كاتبة ذات ذوق أدبي متميّز ، ونسج جميل ، يدلُّ على تمكّنِها من ناصية الكلام ، حتى إنّها تعدُّ من أعلام الكتّاب في عصرنا الحاضر ، بل إنّ أعلياءَ الكُتّابِ والشُّعراء في الوطنِ العربي قد أنزلُوها منزلاً صحيحاً ، وقدَّروا أدبَها ومنهم: أحمدُ حَسَن الزّيّات ، ومحمود تيمور ، ومحمّد كُرُد علي ، والأخطلُ الصغير ، وإبراهيم المنذر ، وعبّاسُ العقّاد وغيرُهم ممّن كان لهم باعٌ طويلٌ في الأدب.

* إنَّ مقالاتِ وداد التي توزَّعت في كتبِها تشيرُ إلى فكْرِها الثَّاقب ، ووعيها الصَّحيح ، ومن ذلك مقالتُها الشَّهيرة «المرأةُ والتَّعليم العالي» ، حيثُ تحدَّثَ وداد عن ضرورة تعليم المرأة ، كما دعَتْ إلى الوعي والاستفادة من الشَّهادة لخدمة الأُمَّة ، لا للشُمعة والقالة والترفّع على مَنْ سواها من غيرِ المتعلّمات ، وأستطيعُ أنْ أبرهنَ علىٰ ذلك من خلالِ هذه المُقتطفات ، والفقراتِ الكاشفاتِ من مقالتها: «المرأة والتّعليم العالي» من كتابها الشّهير «إنصاف المرأة» إذ تتحدّثُ السّيدة وداد بما مفادُه بعد أن

⁽۱) أديبات عربيات (ص ٢٤١) باختصار يسير.

قدَّمَتْ لمقالتها بمقدمةٍ جميلةٍ عن حوارٍ سمعته من عددٍ من المثقّفين ذوي الجنسيّات حيث فيهم: السُّوري، والمصري، واللبناني، والعراقي، فتقول:

«دُعَى هؤلاء المفكرون ، للتّحاور في موضوع معاصرٍ خطير يمسُّ الحياةَ العلميةَ والاجتماعيةَ في البلادِ العربية وهو «المرأة والتّعليم العالي» وقد أقبلتُ على السَّماع إقبالي على القراءةِ والاطلاع ، وهذا من أجلّ رواثع الحضارةِ الراهنةِ ، فمَنْ لأجدادنا الأوائل حين كانوًا يتفننُون في السّماع ، ويبتغون إليه الوسيلة؟ حتى صار عندهم طريقةٌ في تلقّي العِلْم والمعرفة ، فكانوا يخفقون آباطَ الإبل ، فييمِّمونَ وجوهَ البيد ، سعياً وراء التلقي والسّماع ، من عالم كبيرٍ أو شيخ خطير ، ويحرصون كلَّ الحرص حين يروون ويكتبون ما سمعوا ، على أن يذكروا مكان السّماع ، وكيفَ جرىٰ أمرهُ وخبرهُ ومَنْ كان معهم في حلقتِه ، حتى أدخلوا في الأدب مناهجَ السماع في الحديثِ ، فأطلقُوا على أفذاذِ هذا الفنِّ ألقاباً خاصّةً به ، كأنْ يقولوا: كان فلانٌ من أصحابِ السَّماعات العاليةِ ، أي إنَّه كان يأخذُ الحديثَ من الصَّحابةِ والتَّابعين ، وللأدبِ صحابتهُ وتابعوه ، سقىٰ اللهُ عهودَ تلك الحلقَاتِ العامرة والمجالس الزَّاهرة التي كان فيها هواةُ الشَّعرِ والأدب ينصتون للمتحدّث أو النَّاقد مأخوذين بسحر البيان، وفَصْل الخطاب.

* أولئك قومٌ كانوا يقدّرون قَدْر الكلام ، فلا يغادرون منه صغيرةً ولا كبيرةً ، إلا تثقفوا بها وتلقّوها بالوعي والتّمحيص ، وسلكتْ مسامعَهم على هون وهدى ، لتستقرَّ حتى موتهم ، في قلوبهم الذّكية ، وخواطرهم الصّافية .

* سأل السَّائل ما رأي السَّادةِ المتحاورين في تعليم المرأةِ تعليماً عالياً؟

وكان الأحرى به أن يسأل ما رأيهم في تعليم الفتاة العربيّة تعليماً عالياً ، لأنّي أجدُ كلمة الفتاة هي الحجر الكريم لهذا الخاتم الجميل! وتناقشَ جميعُ الحاضرين ، وانتهى التّحاورُ والنّقاشُ دونَ أنْ يُجْمعَ أصحابُه على رأي واحدٍ ، أو توجيهٍ شامل ، ولم يحيروا الجوابَ الكافي حولَ الموضوع .

* ولو أنّ سيّدةً مثقفةَ خبيرةً بهذا التعليم شاركتهم في الحديثِ ، لكان لها رأيٌ يخالفُ عن آرائهم أو يمضي معهم فترة ، ثم ينعطفُ إلىٰ وجهته التي ينسابُ فيها ، وقد يكون من الجَور أنْ يتناولَ الرجالُ وحدَهم ما يتعلُّقَ بحياةِ المرأةِ وقضاياها ، فيدرسوها ويقطعوا بها أمراً أو يتركوها للزمن ، دون أن يسألوا المرأة أو يعبؤوا برأيها ، ولئن جازَ هذا في الماضي فتفرَّد الرَّجلُ بالرَّأي والحكم ، كأنَّه الوصيُّ الأبدي على القاصر الذي لا يرشد ، فقد تبدلتِ اليوم العقول ، وتحوّلتِ المفاهيم ، وأدرك أهلَ الفكْر والوعى أَنْ لا قيام لأمةٍ بغير نسائِها ، وأرى أنْ يتاحَ التّعليمُ في مراحلهِ الابتدائيةِ والثانويةِ للجنسين على السّواء ، وأن يكونَ للمرأةِ رأيٌ ويَدٌ في الإشرافِ على هذا التَّعليم ، وتحقيقُ أهدافه ومراميه ، أمَّا العالى أو الجامعيّ فإنَّه يقتضي وعياً كافياً وثقافةً متينةً في الفتىٰ والفتاة ، ولا يُعدُّ هذا التّعليم استتماماً للمرحلتين السّابقتين ، بل ينبغي أن يكونَ مقصوراً على الموهوبين والنُّوابغ وذوي الاجتهادِ المكين ، والرغبة الأكيدة في الجنسين ، فليستِ الدراسةُ العاليةُ والشَّهادات الرفيعةُ ، زينةَ للفتىٰ أو حلَّة للفتاة ، ولا وسيلةً للوظيفة ، وإنّما هي أفق بعيد لقطاف العلم والأدب ، وتحقيق الإنتاج الفكري والإبداع الفني ، وقد تكونُ المنالة المادية من مقاصدهِ وأهدافه ، لكنها ليستِ الغايةَ ولا النهايةَ ، وخيرٌ للفتاة ألف مرة أن تقنعَ بالتّعليم الابتدائي أو الثّانوي إذا كانا صحيحَيْن ، فإنّهما أفضل من تعليم عال أو جامعي يزيد في جهلها ويملؤها سخفاً وغروراً.

- * ومن عجبٍ أن يعالجَ هؤلاء الأساتيذُ المتحاورون تعليمَ الفتاةِ العربيةِ تعليماً عالياً ، ولا ينظروا إلى تعليمها الرّاهن ، وهل هو قائمٌ على قواعدهِ المحكمةِ حتىٰ تمضيَ الفتاةُ بعده إلى المعاهدِ العُليا والجامعات ، فأشبهوا عندي بمعالجتهم هذا الكمّال أناساً بحثُوا في كساءِ الرأسِ لمن لا يزالُ عارياً أو حافياً.
- * فإذا بُني تعليمُ الفتاةِ على دعائمه الرَّاسخةِ ابتدائياً وثانوياً ، صحَّ بعد ذلك أن يرفع بناء التعليم عالياً ، وحينئذ لا مناص من فتح الأبوابِ لمن توافر لديها الاقتدارُ والموهبةُ والذّكاء ، وإلا فلا تزيدوا الفتاة زهواً وخيلاء فيما تصنعون لها من بهرجِ الألقاب التي ما أرى إلا القليل من حامليها ، قد رفعوا شأنها وحفظوا حقّهاً.
- * وقد تتفاوتُ الحاجةُ إلى التعليمِ العالي بتفاوتِ الاستعداد والبلاد ، فالتّدريسُ والطّبُ والآدابُ والفنونُ تجدي على المرأةِ العربية المعاصرة ولا تعوقُها عن رسالتها ، بل تكونُ سبباً للتّجويد في عملها ، وامتدادِ الآفاق أمامها ، ولا ضيرَ على الفتاةِ الموهوبة بأن تكون مهندسة أو زراعية أو عالمة بالطبيعة والرياضيات.
- * وقد دلتِ المرأةُ التي تعلّمت تعليماً عالياً ، على أنها أكثر مِنْ سواها صلاحاً للحياة الزّوجيةِ والمنزلية ، وأن تعليمها هذا قد زادها تعلّقاً بالزّوج والولد ، وإلماماً بشؤونِ التَّربيةِ والبيت ، واستطاعت إلى ذلك أنْ تمارسَ عملاً تتقنه ، وتتكسبَ منه وتفيدَ المجتمع ، ولم يؤدّ تعليم المرأة عندنا إلى مضرة أو مساءة ، بل فتح للمرأة آفاقاً جديدة صرفتها عن اللهو الفارغ واللغو الثقيل ، ولو أنصفنا وقلنا كلمة الصّراحة ، لوجدنا أنَّ النساءَ جميعاً يؤثّرن في الرّجال مهما كابرَ الرّجالُ ، فإن كنّ متعلّمات كان منتوجُ هذا التأثير أقربَ إلى الخير والصّواب ، وأبعدَ عن الشّر والضّرر.

* إنَّ هذا العصرَ يكشفُ ظلامةَ المرأةِ ، ويضعُ حداً لغلو الرّجالِ في تحرّجهم من ظهورِها ، ومهما وضعوا في طريقها منْ عثراتٍ فإنّها قادرةٌ على تذليلها ، ماضيةٌ في سبيلها ، وقد أتاحتْ لها الحاجةُ والثّقافة ، أنْ تقوم بأعمالِ كانت وقفاً على الرّجال.

* وبعد فإنَّ غريزة الأمومةِ أسمىٰ ما تطمحُ إليه المرأةُ مهما كانت مكانتها ومواهبُها ، ولن يشغلَها عن البيت والزّوج ، وعن الولدِ والأسرةِ أي شاغل إذا كانت واعيةً مثقفةً ، سليمة الشّعور ، راجحة التّفكير والتّدبير»(١).

* وفي مقالةٍ أخرى بعنوان «أعداءُ المرأة» تظهرُ وداد سكاكيني ذات قلَم سَاحرٍ سَاخرٍ سخرية العالِمِ المتمكّن الذي عرفَ الحقائقَ وخبرهَا ، ومن ثمَّ أتىٰ بالدليل الدّامغ بأسلوبٍ قوي آسرٍ لمجامعِ القُلوب ، ولن أذهبَ ببهاءِ وجمالِ فكرة وأسلوب السّيدة وداد من خلالِ مقالتِها «أعداء المرأة» والتي ضمَّنتُها كتابها «إنصاف المرأة» ، وسأقدّمُ للقارىءِ الكريمِ لقطاتٍ جميلةً ، كيما يدركَ عمق ثقافتِها الشَّاملة ، فتقول:

* أمرٌ منَ الرّجلِ قد وقع ، وقضاءٌ قد حُمّ على رأسِ المرأة. وكأنّ الدّهرَ أبىٰ منذُ الأزل إلا أن يقطع أسبابَ المودّةِ والصّفاءِ بين الرّجالِ والنّساءِ ، فسخّر من غلاظِ القلبِ والجسم مَنْ كادَ لهن وتربَّصَ بهنَ ، وزعمَ متلطفاً أنهنّ شرُّ لا مفرّ منه ولا غناء عنه ، فأساءَ الرّجل إلى جنسهِ ، وإلى مَنْ خُلقَتْ من نفسه ، فكان كَمَنْ ضلَّ وأضلَّ ؛ إذ كيفَ جازَ في شرعةِ الحقِّ والرّجولةِ ، أنْ يخلقَ هذا الإنسانُ الجبّارُ عداوةً بين الجنسين ، أو في دنيا مخلوقين يكملُ كلّ منهما الآخر. ومذْ بدرَتْ من الطّبائعِ بوادر

⁽١) إنصاف المرأة ، بتصرف واختصار ، مطبعة الثبات ـ دمشق ـ ١٩٥٠ م.

الخصومة والتهكم هبّ نفرٌ من الرّجالِ وقد حسبوا أنّهم يحسنون صنعاً ، فتنادوا إلى مناوشة النّساء والغضّ من حسناتهنّ ، لِيقالَ إنّ العالمَ يشقىٰ بشرّهنّ ويعيا بأمرهنّ ؛ وأخذَ المتنادون والأشياعُ يهتفون في كلّ جريمة وقعت أو خصومة قامت: فتش عنِ المرأة . . . ثم غدا النّاقمون مباهين بعداوة النّساء ، فروّعت بنات حوّاء ، وفزعنَ إلى أخواتهنّ مسائلات:

شاهر سيفه ، الكاشر عن أنيابه ، النّاشر لمخالبه ، يريد بنا
 الأذى وينوي لنا الرّدى . . . ؟ !

* مِنْ هؤلاءِ الخصومِ في بلادِ العرب "توفيق الحكيم" (١) الذي جدّ في عداوتهِ للمرأةِ فطعَنَ فيها ، ورماها بكلّ نقيصةٍ في كتبهِ ومقالاتهِ ، ثمّ ظهرَ بوادي النّيل عدقٌ جديدٌ ، على أنّ أكثر هؤلاءِ الأعداءِ من المفكّرين والفلاسفةِ ، ما شاع ذكرُهُم ولا ذاع صيتُهم إلا حين تهجّمُوا على النّساء بالمثالبِ والتّسفيهِ ، فإذا بمطاعِنهم تدورُ وتحورُ ، ويتردّدُ صداها في كلّ مكانٍ ، وينبسطُ مداها مع الزّمان ، ويقبلُ على بضاعتهم الشّامتون مكانٍ ، والغاضبون عليها ، فَيَشْتَرون من تلك البضاعةِ المُزْجَاة ، ويرتؤون آراءَهم القاتلة ، وإذا بها تَرِنُّ في المسامِع ، وتطوفُ بالمجامع ، فيهتفُ التَّاريخ بأسماءِ: المعريّ ، والعقّاد ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهم .

* ومن عجب أنْ يجورَ هؤلاء الأعلامُ على النّساء بما يخالفُ التّطوّرَ ، وينافي الواقع ، ليكتسبوا من هذه المناوأة والمكابرةِ شهرةً جديدةً ، وصِيْتاً بعيدةً ، وطالما جارَ الثّالبون على أنفسهم ، فتعسّفُوا وتكلّفوا ، وكان خطبُهم أعشىٰ ، أليسَ منّا أمّهاتُهم وأخواتُهم ، وخالاتُهم وعماتُهم ، ولمَ

 ⁽۱) ولد توفيق الحكيم سنة (۱۹۰۲ م) في الإسكندرية بمصر، وتوفي في
 (۲۲/ ۷/ ۱۹۸۷ م)، وهو كاتب مسرحي مشهور، كان عدواً للمرأة، لكنه تزوج
 في خريف حياته، وأنجب ابناً فمات ابنه عام (۱۹۷۸ م)، وله ابنة.

لا أقول زوجاتِهم وبناتِهم؟ ثم أستغفرُ الله ممّا فرطَ منَ القولِ وزلّ بهِ اللسان ، فإنَّ كفيفَ المعرّةِ كَفّ نفسهُ عنِ المرأةِ ، ولعلَّ له عذراً ، فلو كان كحّل عينيه بجمالِ الغيد ، ولم يكنْ دميماً لاجتاحَتْ قلبَه واحدةٌ من النّساء غيّرت معالم اللزوميات ، فلم يتهكّم علينا فيها بالتّائيات ، ولَما أدارها معنا وقيعة سجالاً وحرباً عَواناً ، فإنَّ في كلّ بيتٍ منها سيفاً وسناناً. ولقد بني أبو العلاء صروحَ شعرِه على ذمّ المرأةِ وما دلَّ عليها ، وكان منها أو إليها ، فالدّنيا عنده أمّ دفر ، وهو أبداً ينحتُ أثلتها ويبري عودَها ، معتقداً أنَّ كلَّ خطبِ فيها سببُهُ المرأة.

وإذا كان لهؤلاءِ الأعداءِ الغابرين معاذيرُهم في الغضبِ على النساء وفي عهودٍ كُنّ مستضعفاتٍ ، فأيّ عذر للنّاقمين منهن في عصرنا؟ وكأن هذه النقمة من بعض المفكرين في أيامنا خصومة منهم أو دلالة عليهم ، فإذا رككَ لهم صيتٌ أو فترَ مِنْ حولهم إعجابٌ أثاروا لأنفسهم رياحَ الشّهرة بمقالٍ يرسلونه ، أو رأي يقولونه ، في شأنِ المرأةِ ، فقذفوا بالباطل عليها ، ودعوا الرّجال إلى البطش بها ، وعدّوا الحقوق التي تطلبُها ضرباً من الأوهام والأباطيل. من هؤلاء الأعداءِ نابغةُ مصر توفيق الحكيم الذي يجهرُ بعدائهِ للنَّسَاءِ في كلِّ نهزةٍ وسانحة ، ويسخِّرُ قلمهُ للسَّخر منهنَّ ومنْ ثقافتهنّ ، وما كان هذا منه إلا ألعوبة أدبية يلوّحُ بها في وجوه النّاس ليزيدَهم لآثارهِ تقديراً ، وعليهِ إقبالاً ، ولعلُّهم كانوا كذلك بادي الرّأي ، أمّا وقد عرفُوا أفانينَه ، فإنّ «توفيقاً» أصبحَ لدى العارفين أديبَ تربّصِ وانتهاز ، فمنذ عهدٍ قريبِ دعا قومَه إلى تعدّدِ الزّوجات ، وحين نشرَ الدكتور «طه حسين» كتابه «أحلام شهرزاد» ضاقت عينُ الحكيم عن تسريح النّظر في هذه الأحلام التي صوّر فيها الأديبُ العميدُ «شهرزاد» في رداءِ من الحَصافةِ والذَّكاء. ومن قبل نشرَ الأستاذُ توفيق الحكيم فُصولًا عرَّىٰ فيها المرأة من مواهبِ الفنّ فزعم أنّها لا تحسنُ إنشاءَ القصصِ التمّثيلية ولا تستطيعُ أنْ تكونَ موسيقيةً تبتكرُ الألحان ، وقد فاته من أدبنا القديم براعة المغنيّات في عصر بني العبّاس ، وفي العصرِ الحاضرِ من أهلِ اللحون نساءٌ في المشارقِ والمغارب.

* ومن أعجبِ العجبِ أن تسكن عداوة الحكيمِ للنساء أشهراً لتكون وحياً جديداً للأستاذ "عبّاس محمود العقّاد" فقد نشر هذا الأديب العظيم مقالين زعم فيهما أنّ المرأة لا تجيد من الفنونِ غير فنّ الرّواية ، وكأنّ هذا الفنّ في نظرهِ أهزولة هينة على كل كاتب ، وقال: إنّ المرأة ليست بشاعرة مبتكرة بل هي مقصرة ومكررة ، لأن الشّعر ابتكارٌ واقتدار ، وأنها لم تنبغ حتى فيما هو أقرب إليها وأحرى أن تتفوق به على الرجل وهو الرّثاء ، وإذا كانوا يضربون المثل بالخنساءِ فإنّه ليس في ديوانها غير أبياتٍ متفرقاتٍ في البكاء لا ترتقي إلى منزلةِ الشّعر السيّار إذْ كلّه تكريرٌ لمعنى واحد ، ولا يصحّ أن يقال إنه معنى من معاني القريحة والخيال.

* ونحنُ نقولُ: إنَّ في عديدِ شاعراتِ العربِ قديماً وحديثاً ، وفي شاعراتِ العربِ العرب اللواتي روى شعرهن أبو تمّام وأبو نُواس ، أو اللاتي ينشرنَ القريضَ بلغةِ الضَّاد ، أو بِلُغَاتٍ أجنبية مما ينقضُ رأْيَ العقّاد ، وفي الأديباتِ المعاصراتِ مَنْ أحرزَتْ جائزة نوبل التي ما أحسبُ الأستاذ يزهدُ فيها.

* أليسَ فيما أشرتُ إليهِ حجّةً بالغةً عليه؟ ونحنُ لم نَسْ بَعْدُ مرثيته للآنسة «ميّ» ، فعداوةُ العقّاد إذاً كعداوةِ الحكيم ، وكلاهما أديبٌ أعزبُ ، وعن النّساء بمعزِلٍ ، فالعقّاد يعيشُ مع خادمِه الأمين ، وما وقفتْ في مطبخهِ طاهيةٌ ولا جاريةٌ ، ولا امرأةٌ يدعوها بأمِّ أولادِه. والحكيمُ يعيشُ

متجافياً عنِ المرأة؛ وقد آثرَ مرّة إلْفَةَ حمارٍ كما قالَ عن نَفْسهِ في كتابه «حمار الحكيم».

* ويثورُ بالمرأةِ أديبٌ آخر يمزجُ مُزاحاً فيه حلاوة ، وفيه مرارة ، هو الأستاذ «إبراهيم المازني» الذي يتهكّمُ علىٰ المرأةِ ويستهزىءُ بها في كثيرٍ من قصصهِ ومقالاتِه ، حتىٰ إنَّ زوجتَه وبناتِه لا يَسْلمْنَ من سخريتهِ وزرايتهِ.

* وهناكَ أدباءُ كانوا لا يؤثرونَ الجدّ كلّه ، وإنّما يقصدون إلى تسليةِ القارىء بأحاديثَ يختلقونَها ، أو ينفخون في حُجومها الصَّغيرة حتى تبدو متضخمة بدينة كالذي كتبه الدكتور «زكي مبارك» عن المرأة حين قال: «كان أبوهُ يجرّبُ متانة حذائهِ الجديدِ برأسِ زوجته ، وأنّ المرأة لا يليقُ بها إلا العنفُ والازدراءُ». . !!!!

* وأحسبُ هذه الضّروبَ منِ الأدبِ المستهزىءِ العابثِ بالنّساء أصبحَ لدى معشر من أدباءِ العصر فكاهة الفنِّ وطرفة التّجديد ، وما المرأةُ في هذا الزّمانِ إلا مستيقظة من سبات ، ناهضة من خمولِ وهوان ، فعلامَ يحولُ أدباؤنا دون تحريرها ورقيها ، ويباهون بالعداوة لها والزّراية عليها! وكان الأولى بهم أنْ يعالجوا مشاكلَها ويتفقدونها في مجتمعاتهم ، ويجعلوا منها شريكاً في حياة كاملة طيبة ، وما بالُ هؤلاء الأعداء _ وما جادتِ الأيّامُ بأندادهم إلا على هاماتِ العصور _ يسخّرون أقلامَهم للهدم والتّحطيم ، وقد شرّفها الله فأقسمَ بها ، وما كان مدادها ، إلا ليشرق من سوادهِ نورُ الحقّ والخيرِ على بياضِ الأوراق.

* وإذا دعوتُم إلى تحقيرِ المرأةِ ، والبطشِ بها ، فإنَّ وراءَ دعوتكم تشفياً وانتقاماً ، فقد يكونُ الدَّهْرُ ابتلاكم بأهواءِ الحسانِ ، أو بلوتُمْ زيوفَ النِّساء ، فتجافيتُم عن الخوالصِ الصِّحاح ، وقد ثبتَ بالعيانِ والبُرهَان ، وفي شواهد التَّاريخ الأدبيّ والسّياسي أنَّ عداوةَ المفكّرين للمرأةِ لم تكن

لوجهِ الحقّ؛ وينبغي لنا أنْ نحاسبَ أعداءَ المرأةِ الحسابَ العسيرَ ، لأنّهم قد أفسدُوا المجتمعَ بآرائِهم وأهوائِهم.

* وإذا بحثتم أيُها المنصفون تاريخ السَّرائر والنُّفوس ، فلن تجدوا منذُ حوّاءَ واحدةً قد نصَّبَتْ نفْسَها لعداوةِ الرَّجُل ، ولو بحثتُم عن أعداءِ النِّساءِ منذ آدم لوجدتم فيهم الكثير». . . فخلُّوا عنكم أيّها الأعداءُ ، وحسبُكم تَسْفيها للمرأةِ وتجريحاً ، وعَلاَمَ هذه البغضاءُ والقطيعة؟ فما العمرُ مديداً حتىٰ يُحْتَملَ فيه الكدرُ والخصامُ ، ولا فيه صفاءٌ يدوم لإنسان»(١).

* وهكذا رأينا أسلوب وداد سكاكيني السَّاحر ، ذلك الأسلوبُ الذي يجمعُ جمالَ الفكْرةِ إلى حسنِ التّناغم الجميلِ بالكلماتِ الجميلةِ الهادفةِ إلى الإصلاح؛ والهادفةِ أيضاً إلى إيقاظِ روحِ العَدْلِ عند أعداءِ المرأةِ الذين يختبئُ بعضُهم وراء جدارٍ وَاهٍ من العناد.

* وفي مقالتها "نهضة المرأة السُّورية" تَجدُ السَّيِّدة وداد سكاكيني تسعى لتؤكّد النهضة الحقيقية للمرأة ، وتؤكّد بأسلوبها الرَّائق كيف أخذَ الوعيُ يدبُّ إلى شعورها ، فبرزت عديدات في مجالات عدّة ، وكلّهن من كرائم الواعيات ، فقد نهضت في العلم والأدبِ والطّبّ ، كما ساعدتِ الرّجُلَ في الحربِ ، وشدَّت من عزم الأبطالِ ، بالإضافة إلى أشياءَ أخرى نقرؤها فيما الحربِ ، وشدَّت من عزم الأبطالِ ، بالإضافة إلى أشياءَ أخرى نقرؤها فيما اقتطفناها من مقالتِها المهمّة "نهضة المرأة السّورية" حيث تقول ما مفاده:

* «كانتِ المرأةَ السّوريةُ تشاركُ الرّجلَ في همومهِ ، وتتمرّسُ من وراءِ حجابها بالخطوبِ والآفاتِ ، وكان صوتُ واحدةٍ أو اثنتين من الأنُوفَاتِ الغِضَابِ يضيعُ في غمراتِ الحربِ ، وأنّاتِ التّظلّمِ والإجحافِ ، وقد حجبَتْ صلصلةُ الوعيدِ والتّهديدِ جهودَ النّساء ، فلم تظهرُ في غيرِ النّجدةِ

⁽١) إنصاف المرأة.

والإسعافِ ، غير أنَّ الوعيَ الوطنيَ أخذَ يدبُّ في عالم المرأةِ ويتسرَّبُ إلى شعورها ، ويكشفُ عنها حجابَ الخمولِ والإهمال.

* ولما أظلَّ البلادَ السّوريةَ عهدٌ جديدٌ تنسَّمَ فيه أهلوها الحرية والاستقلالَ اتسعَ نطاقُ التّعليم بجميع ألوانِه وفنونهِ ، واتسعت بقعة الجامعةِ السُّورية ، فتنوّعتْ فيها الدّراسةُ العليا والجامعيّة ، إذ أُسستْ فيها كلّيتان جديدتان إحداهما: للآداب؛ والثانية: للعلوم ، وإلى جانبهما معهدٌ عالٍ للمعلمين والمعلّمات ، وقد وجدتِ الفتاةُ السّوريةُ بغيتها في هذا المعهدِ وتينك الكلّيتين ، كما ازدادَ إقبالُ الفتياتِ على كليتي الطبّ والحقوق ، حتى جاوز في كلّ منهما المئة.

* أمّا نهضةُ الأدبِ النّسائي في سورية فكانت سبّاقة لنهضةِ التعليم ، وكانت مقصورة على أفراد قلائل ، وطالما كان أمثالُ هؤلاء في كلّ أمّةٍ يمتازون باستعدادٍ خاص ومواهبَ ذاتية . قبل أنْ يكونَ في الأمةِ تقديرٌ فرديٌّ أو جماعيٌّ ، وفي سورية كما في غيرِها من بلادِ العربِ سيّدات وفتياتٌ هن مثقفاتٌ ومتأدبات ولكن بغير لغتهن . ولقد ألمّتْ بعضُ السّوريّات بآدابٍ غربيةٍ إلى جانبِ ثقافتهنّ العربية فتتبعنَ الحركةَ الفكريةَ في العالم وأقمنَ في ميزانِ الاعتدال ، متمسكاتٍ بالطّابعِ الأصيل والعروبة المثلىٰ كالآنسة وجيهة جزّار وشقيقتها السّيدة ماجدة جزّار فصيح والسّيدة إنعام عظم داغستاني والطّبيبة منيرة عظم .

* وقد لمعتُ في فاتحةِ النهضةِ النسوية كرائمُ الواعياتِ الرّاقياتِ من الأسرِ الرّفيعةِ ، وكانت زعيمةَ الحركةِ الأولىٰ السّيدةُ العظيمةُ نازك عابد ، فقد سَعتْ إلى الوعي النَّسوي الجديد وأنشأتْ مجلّتها «نور الفيحاء» في عهدِ «العروس» وأسستْ مع صواحِبها مدرسة لبناتِ الشُّهداء.

* كلُّ هذا من نهضةِ المرأةِ التي تمضي على رسْلهِا ، والشَّعب السّوري

في غلابٍ ونضالٍ مع الأجنبي الغاصب يصطرعان ويتنازعان ، وكان عبءُ المناوأةِ والطغيان قد أرسى على كواهلِ الرّجال ، وضاقَتْ به النّساء ، فهببنَ غاضباتٍ متأبيّاتٍ ، يشددن عزمَ الأبطالِ ، وقد فعلنَ أفاعيلهم في الثّورة السُّورية ، فكنّ أشبه بنساءِ الحربِ الطّروادية.

* وقد أسَّستْ جمعيّةُ خريجاتِ دورِ المعلّمات داراً لِكَفَالةِ بناتِ الشُّهداء، شهداء العُدوان الفرنسيّ الأخير، ترعاهُنّ فئةٌ مثقّفةٌ من المدرسات البارّات، لا يتركن سانحة من السَّوانح في بذلِ المجهود للعناية بهؤلاءِ اليتامى، وتوفيرِ المواساة والترفيه لهنّ، وتقوم هذه الجمعيةُ النَّسويةُ من حينٍ لآخر بمحاضراتٍ علميّة وأدبيةٍ تدعو إليها طائفةٌ من المثقفين والمثقفات.

* وفي دمشق ، تنادت منذ سنوات بعض المثقفات والمعلّمات من ذواتِ الفكْر والتّقدمية ، إلى تأسيس ندوةٍ للمرأة ، وضعْن لها أهدافا جديدة ، لم تستهدفها بقيّة الجمعيات النّسويّة ، فكانتِ الندوة بخطاها واتجاهِها مشبهة عندي نادي سيّداتِ القاهرة بمصر ، ولا تزالُ هذه الجمعيّة الثّقافيّة ساعية إلى إنشاءِ مكتبيّها ، وإقامةِ محاضراتِها ، واستقبالِ الزَّائراتِ العالياتِ اللاتي يفدْن من الشَّرقِ أو الغربِ إلى دمشق ، فَضْلاً عمّا تقومُ به النَّدوة من برّ بالموهوباتِ الفقيرات من الطَّالباتِ إذ تُعِدُّ لهن في كلّ عام ما تيسر من الكِساءِ وأدوات الدَّرس والتَّحصيل .

* وهيئةُ النَّدوة تضمُّ نخبةً ممتازةً من زَهْراتِ المجتمع السُّوري فيهن السَّيّدة إلفة عمر إدلبي ، وفلك دياب دسوقي ، وبلقيس ، وريمة كرد علي . . . وغيرهنّ من الفُضْليات ، ورئيسةُ الندوةِ الآنسةُ جيهان موصلي .

* ولا تقتصرُ هذه النَّهضةُ على دمشقَ فحسب ، ففي كلّ بلدِ سوريّ يشعُّ الفكرُ النّسويُّ الجديد ، وتتنافسُ السّيداتُ والفتياتُ في خدمةِ الثّقافةِ

والإنسانية ، ففي حلب الشهباءِ تمضي بصمتٍ وتواضعٍ جمعيةُ المشاريعِ الخيريةِ النسائية إلى غايتها النبيلةِ في خدمةِ المجتمع وإسعافِ المرضىٰ والمساكين والوالدات ، ومن ألمعِ العاملات في هذه الجمعيةِ وفي كلّ حركة فكرية ووطنية السّيدة أنيسة حميد باشا من ذوات المروءةِ والأدبِ في حلب .

* لقد شملَ التقدمُ حياة المرأة السُّورية ، في بيتها ومجالسها ، في زيّها وحديثها ، ولم تبق قعيدة دارها لا تخرجُ منها إلاّ إلى قبرها ، فقد صارت تغتربُ في سبيلِ الثقافةِ والمعرفةِ ، وتتمازجُ بغيرها من نساءِ الشّرقِ والغربِ ، فأفادت من الاغترابِ والتمازجِ إفادة مشوبة بالبهرج والتكلّفِ ، ولو شاءت لآثرتِ التقليدَ والتّجديد فيما يبقي عليها طابَعها الأصيل وشعار بلادها ، على أنَّ المحنة التي ألمت بفلسطين ألهبتْ شعورَ المرأةِ السّوريةِ متعلّمة وأميّة ، فكانت غضبتُها للحقّ تعدلُ غضبة الرجلِ ، وسعيها إلى التطوّعِ والتّبرع لا يقلّ عمّا بذل الرّجلُ من المجهودِ في هذه المحنة ، ولعلَّ التعودُ إلى عروبتها وحماستِها ونهضتِها الحميدة ، فتمضي قُدُماً إلى أهدافها غير مترددة ولا منحرفة ، حتىٰ تدركَ المُثلَ العُليا في دهرِ العربِ الحديث) (١).

* ولعلّنا نلحظُ السَّيدةَ وداد تبلغُ ذِروةَ الفَنّ الأدبي المقالي في مقالتِها: «إنصاف المرأة» التي أودعتْ فيها كثيراً من المعارفِ والعُلومِ التي تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّها أديبةٌ من الطَّرازِ الأوّلِ في نساءِ المشرقِ العربي ، كما تدلّ على تعمّقِها ودقّةِ ملاحظتها وفهمِها لكثيرٍ من قضايا الشَّريعة الإسلامية ، وقضايا الأدب المعاصر في المشرقِ والمغربِ ، وسأتركُ القارىءَ الكريمَ

⁽١) انظر: إنصاف المرأة (ص ١٣٢ ــ ١٤١) باختصار وتصرف يسير.

مع هذه المقاطع والفقراتِ الجميلةِ للسَّيدة وداد من مقالتها «إنصاف المرأة» ليدركَ بعينِ بصيرته ما ذهبنا إليه من الحكم على أدبها؛ تقول وداد بعد مقدّمة عن معنى الإنصاف في كُتب الأقدمين:

* لا جرم أنَّ القضية النَّسوية متوغلةٌ في الدهرِ متشابكة شائكة ، أعضلت آدم، واختلفتِ الآراءُ والأهواءُ فيمن كان سببَ المعضلةِ الكبرىٰ ، فتحيز ناسٌ إلى آدم وعنفوا حواء واتهموها بالإغراء والإغواء ، وقد فاتهم أنَّ القرآن ذكرآدمَ وحده بالغواية والعصيانِ ، ولم يفردْ حواءَ بوسوسةِ الشيطان.

* من ذلك الحين ضاقتِ المرأةُ باتهامِ الرجل وأوهامه ، فراحت تتظلمُ وتبحثُ عن منصف لقضيتها ، وقد عاشت خلال العصورِ وفي كلّ الأمم والشعوبِ تسعىٰ إلى غايتها لا تريمُ عنها ، وكانت تطلّ فترة بعد فترة ، من كوى بيتها أو من منافذِ خدرها متبسمة ، متأملة مشرفة على عالم لا بدّ أن يأتي ، ولم يكنْ يعوقها عن أنْ تحلُمَ طويلاً في إقبالِ هذه العالم ، فهي في منزلِها بين أمومتِها ومطبخها ، وبين ثقافتِها وزينتها كانت ولا تزال تواقة إلى عالمِها المنشود ، ترتقبُ اليوم الذي يسودُه الإنصاف ، وتعمّ الناسَ جميعاً حقوقُ الحياةِ وكرامةُ الإنسان .

* وقد مرّتِ المرأة بعُصور كانت تبدو فيها أو تحتجبُ ، حسبما كانت تقتضي الأوضاعُ القوميةُ والنظُمُ الاجتماعية ، فتقاذفتها أمواجُ التغيرِ والتطور التي كانت بين مدِّ وجزرٍ في خلال تلك العصور حتى استهدفت حياةُ المرأةِ وخطواتها لأحداثٍ وصدماتٍ ، جعلتها تتخلَّفُ حيناً وتقفُ أحياناً ، فإذا تزحزحت الأثقالُ والأغلال ، ولاحتْ لها بشائرُ الحرية والخلاص ، أخذتْ ترفعُ صوتَها وحجتها ، لتشعرَ الرجل بأنّها إنسانٌ ، لا تمثالٌ أو متاعٌ.

* وأتيحَ للرجل في خطراتِ الأدبِ الغابر والمعاصر أنْ يصورَ حياةَ المرأةِ ويعبّرَ عن مشاعرها وخواطرها كما تخيل تلك الحياةِ وتمثل تلك المَشاعر والخواطر ، لا كما كانت أو كما هي ، إذ لم يعرفِ المرأةَ على حقيقتِها فقد عرفَها غير أمّه وزوجتهِ ، وغير ابنته وأخته ، وتناول قضيّتها وفيها دعواها وشكواها ، وكان في كلّ شأن لها هو الخصمُ وهو الحكم.

* أمّا الرّجالُ الذين صوروا عالمَ النساءِ وعبّروا عن مظاهرهِ وخفاياه ، وخاضُوا في شؤونهِ وشجونهِ وهما وزعما ، فكان معظمُهم من المفكّرين والشّعراء في الشّرق والغرب ، غلبَ عليهم الطبعُ الموروثُ والرأيُ الذي لم يتغيّر على الرغمِ من تغيّر الحضارةِ وتطور الثّقافة وتبدلِ الآفاق ، فضيقوا الأبوابَ على المرأةِ بأشتاتِ المطامع والأحابيل ، لكي تبقىٰ حبيسةَ الدارِ ، وطاهيةَ المطبخ ومربيةَ الطّفلِ ، أو لتكونَ زهرةً نديةً عطرةً يتمتعون منها بشمّ وضمّ ونظرٍ ، فكانت كتبهُم وآثارهم تدورُ حولَ هذه الآراء والأهواء ، ولم تخرجِ المرأةُ في شِعْرهم وأدبِهم ، وفي فلسفتِهم ومنازعهم من نطاقِ مخدمتهم .

* وجاء عصرُ المرأة ، أو هذا العصر الذي طغَتْ فيه حدودٌ وفكّت قيود ، وعاد الأدبُ في نهضةِ المرأةِ التي جدّت ووجَدَتْ من يتظرّفُ علىٰ حساب النّساءِ ، فيستهزىء بحركتهن الجديدة ، ويزدري أهدافهن ، ويحملهن غرامة الشهرة المصطنعةِ ، وكم أدّتِ المرأةُ العربيةُ من خلالِ العصور أمثال هذه الغرامةِ وذلك الحساب ، وإذا بنابغةِ مصر توفيق الحكيم يمضي عارضاً نساءَ العَصْرِ في صورِ المتطاولات على الرّجال ، ومنتهياً من تمثيليته إلى جعل المرأةِ - كَدأْبِه - موضع الشّخريةِ والزّرايةِ ، ولا يدعُ عدولً المرأةِ سانحة من السَّوانح دون أنْ يندّدَ في صددِ النَّهضة النَّسوية ، وراحَ المرأةِ سانحة من السَّوانح دون أنْ يندّدَ في صددِ النَّهضة النَّسوية ، وراحَ

يطمسُ روحَ المرأةِ مدفوعاً بما يسمونَه مركّبَ النّقص ، إلى آخرِ هذه التّهاويل التي سَئِم النّاسُ تردادَها.

* وراح كاتبُ الشَّرقِ الأستاذُ العقّاد ينصرُ في ذلك الحين كتابه: «هذه الشّجرة» مشْفِقاً من توريطِ المرأةِ فيما لمْ تُخْلَقْ له ولم يخْلَقْ لها ، فهيَ لا تصلُحُ عنده لشيءٍ ، وليس فيها منَ المزايا والسّجايا ما ترقى به إلى سويةِ الرَّجُل ، فيجدُ مطاليبَ المرأةِ الحديثةِ سابقةً لأوانها ، فهي نزوةً من نزواتِ العَصْر ، وطرازُ حديث الفكرِ النّسائي يشبهُ ما تتعلّقُ به المرأةُ من تجديدِ الأشياء.

* ورأَتِ المرأةُ أنَّ الأدبَ لا يخْلُصُ لها ولا ينصفُها ، لأنَّ موضوعَه الفنُّ والجمالُ ، وهي موضوعُه أيضاً ، ولا نُصْرة لها كما تشاءُ عنده ، لأنَّ مالكَ العَبْدِ يؤثرُ ألا يعتقَهُ ولا يطْلِقَه ، فارتدَّتْ إلى المجتمع الذي أخذَ يتحرّرُ ويتخلصُ من قيودِه تنشدُ فيه النَّصير المنصف ، فوجدت أنَّ رجالَ التَّشريع والإصلاحِ لا يتحرّجُون من إنصافِها على ضوءِ الشَّرع والعَقْل والمصلَحَةِ العامّة في حدودِ الحاجة والضَّرورةِ الاجتماعيةِ.

* وقد بادرَ بعضُهم وقدَّم الحجَّةَ والبرهانَ على أنَّ للمرأةِ المتعلمةِ والمثقفةِ حقَ البحث والنظر في أمورِ تمسّها وتهمها ، كتعدّدِ الزّوجات وحضانةِ الأطفالِ والطّلاقِ ، واختيار الزّوج والتعليم النسائي ، ونحو ذلك ، ورأى أحدُهم بأنْ تأخذَ المرأة حقّ الانتخاب إذا كانت متعلّمة ، فكيف تُحرمُ هذا الحق الصّحافيةُ والأديبةُ ، والحقوقيةُ والطبيبة ، والنّابغةُ الموهوبة ، والأستاذةُ في التربيةِ والتّعليمِ ، وأمثالهن من ذواتِ الفكر والرأي.

* والنَّسَاءُ نصفُ الأمَّة ، أفلا يحقُّ للمثقفةِ اختيارَ مَنْ تراهُ أهلًا لهذا

التّمثيل ، إنْ لم يُتَحْ لها مهما كانت ممتازة متفوقة أن تنوبَ عن شعبِها وبلادها كنيابة الرّجال.

* ولا يحسبن الرجلُ أنّ أخْذَ المرأة حقّ الانتخاب هو كلّ ما تنشدُه من الإنصاف ، فإنَّ هنالكَ حقوقاً ألصقُ بالنساء وأجدى على البيتِ والمجتمع من الحقوقِ السياسيةِ كحقّ الحياةِ الكريمةِ والقسمةِ العادلةِ وتنسم الحرية المقدسة وغيرها من الأمور التي طمسَ الرجلُ حقّ المرأةِ فيها ، غير أنَّ المجتمع الذي دبَّ فيه الوعيُ ، والزمن الذي يشبهُ السَّيلَ فيجتاحُ الحدودَ والسّدود هما الكافلان إنصاف المرأة.

* إنَّ أشّعة الأملِ بزعَتْ في هذا العصر من أفق المرأة ، فعمّتْ أنوارُها الأولى جانب الدنيا ، ومن هذه الأشعة السّاطعة مطالع الزُهر من نسوة معاصرات ، تقسمتهن أقطارُ العرب كما تقسمت الرّوضاتُ أزاهيرَهَا الفواحة ، فطلعتْ نسوةٌ ممتازاتٌ فكراً وثقافة ، وعبقرية وشخصية ، وجهاداً وإخلاصاً ، هنّ الرّعيلُ الفاتحُ للنهضةِ النّسوية المعاصرة ، ففي مصر غير الفقيدات الخالدات ، كثيراتٌ عديداتٌ ، تتعطّرُ الشّفاه عند ذكرهن كالسّيدات: إنصاف سرّي ، وأسماء فهمي ، وسهير قلماوي ، وعائشة إقبال راشد ، وسيزا نبراوي ، وفي سورية ، ولبنان ، وفلسطين ، والعراق ، طليعةٌ من أصيلاتِ الرّأي والفضل والنبوغِ كالسّيدات: عنبرة سلام الخالدي ، وسلمي صايغ ، وابتهاج قدورة ، وأمينة السعيد ، ونازك عابد ، وغيرهنّ ، وسواهنّ من طلائعِ النهضةِ وبشائرها في كلّ بلد عربي يتطلعُ إلى حياة حرّةٍ عادلةٍ .

* وما أتيتُ بهذه الأسماء إلا مكاثرةً ومفاخرةً ، وليس لأحدِ أن يقولَ هؤلاء قلّة ، وسوادُ النّساء ليس كمثلهنّ ، فأجيبُ ومتى كان سوادُ الرّجال أفضل ، فإنّ الأفذاذ قليلٌ في الجنسَيْن ، ولعلّ الرّجال سيثوبون إلى العدل

والتبصّرِ، فلا يتحرجوا من إنصافِ المرأة والاعترافِ بحقها ، حين يجدون هذه الطليعة التي تزيدُها الأيامُ عدداً ومدداً ، فسيسيرون في العنادِ وينقلبون من أعداء إلى أصدقاء ، وسيكونون معنا في الرّأي ، بأنّه ليس منّا بعضُ نسوة هنّ حربٌ علينا وعلى الرّجال معاً فيما يصطنعن من عداوة لجنسهن حين ينحرفْنَ عن الحقيقةِ ويخالفن عن مقتضياتِ العصر ، فيلححن بأن تقتصرَ المرأةُ على خدمةِ البيت وهن أبعد النّساء عن البيوتِ ، وأولئك المتطرفات فإنهن ألدُّ الخصام للجنسين إذ كنّ بالتبذّلِ والاستهتارِ والشذوذِ من أسباب عداوة الرّجال للنّساء.

* على أنَّ الصحيحَ في الدعوةِ التي تمكثُ في الأرضِ ويذهبُ كلّ شيءٍ جفاءً دونها هي أنْ تمضيَ المرأةُ إلى طبيعتها وعلى سجيتها متزودةً بالعلم والأخلاقِ ، وقد عرفتْ نفسها وقدّرتِ التبعاتِ ، حتى تستطيع وحدها أنْ تحلّ قضيتها بيدها ، حسب حاجتها وطاقتها ، وحينئذ تكون مثل جيش فاتح ، تتداعىٰ أمامه الحصون ، وتعنو له الخصوم ، فتتحقّقُ لها الآمالُ ويطلعُ عليها صباحها الكبير»(۱).

* وهكذا قرأنا نماذجَ من نَثْرِ السَّيِّدة وداد سكاكيني ، ورأينا كيفَ أنَّها كانَتْ تتأنَّقُ في إنشاءِ عباراتِها واختيارِ ألفاظِها ، ليخرجَ كلامُها مشْرِقاً رائقاً منيراً ، لطيفَ الوقْع في النَّفس حلْوَ النّبرة في الأذن.

* ومن المعروفِ أنَّ هذا النَّثرَ أقربُ الأنواعِ إلى الشَّعر ، ولهذا نجدُ فيه بعضَ البديع ، وقد رأينا ذلك يأتي عادياً في مقالاتِ وداد دون تكلُّف منها ، فلا تسوقُ الجملةَ لمجرّدِ اصطيادِه ، بل كان يأتي عفويّاً وجميلاً.

* وهذا كلُّه يحتاجُ إلى معرفةِ بأسرارِ اللُّغةِ العربيّةِ ، ومعرفةِ كثيرٍ من

⁽١) إنصاف المرأة.

مفرداتها ، وخبرة بالكلام الجيّد ، أو حفظِ كثيرٍ منَ المنثورِ والمنظوم ، ناهيك بالحسِّ المرهَفِ ، والذَّوقِ الرّقيق ، والفطنةِ إلى مواطنِ الجمال ، وهذا كلّه قد توفّر في السَّيِّدة وداد سكاكيني رحمها الله.

ثانياً: التَّراجمُ وَالسِّيَرُ:

* إذا كانتِ السَّيدةُ ودادُ سكاكيني قد بلغَتْ شأْواً بعيداً في المقالةِ ،
 فإنّها قد حلَّقَتْ عالياً عالياً في فنِّ التَّراجمِ والسِّيرةِ ، وذلك في أكثرَ من عَملٍ
 لها ، وكانت سبّاقة لكثيراتٍ في هذا المضمار الخيّرِ المفيد.

* فقد أصدرتِ السَّيدةُ ودادُ عام (١٩٤٥ م) كتابَها الجميل: «أمّهات المؤمنين وأخوات الشُّهداء» ، ثمَّ بعد فترة أصبح اسم الكتاب بعد أنْ زادت فيه: «أمّهات المؤمنين وبنات الرّسول ﷺ».

* وقد لقي هذا الكتابُ الجميلُ مكاناً رحْباً في نفوسِ النَّاس ، ومساحةً واسعةً في المكتبةِ العربيةِ الإسلامية ، وقرّظَتْه كثيرٌ منَ الصُّحف والمجلّات ، ومنها: «مجلّة المرأة»(١) وغيرها.

* وكانتِ السَّيدةُ وداد ترمي من وراءِ تأليف هذا الكتاب ، إلى إلقاءِ الضُّوء على المرأةِ المُسلمة في أبهى العُصُور ، وقد عبَّرت بمدادِ قلمها وروحِ وجدانِها عن ذلك فقالت في مقدمةِ الطّبعة الأولى لكتابها «أمّهات المؤمنين وأخوات الشُّهداء» ما نصُّه: «تَطَلَّعْتُ إلى سماءِ العَربِ في أزهى عصورِهم ، فرأيتُ فيها كواكبَ نسوةٍ ساطعات ، بَهَرني تألّقُ نورهنّ ، وغمرَني شعاعٌ من بركةِ إيمانِهنّ وإحسانهنّ ، وكنتُ كأعرابيةٍ تهتدي بهدي النّجوم في صحراءِ الحياةِ ، فتمرّستْ بمطالعِ هذه الكواكب ومغاربها ، وعرفتْ مسارحَها ومساربَها ، فأحببتُ أنْ أقتبسَ من نورها ، وأنْ أنشرَ هذا

⁽١) انظر: مجلة المرأة ـ العدد ـ ٣ ـ حزيران ـ ١٩٤٧ م ـ ص ٢٦.

النّور الذي تجلّتْ في ألوانِه وأفانينه أكرمُ معاني الأمومةِ والإيمانِ ، وأسمىٰ مزايا البطولةِ والاستشهاد ، فتخيرتُ لها طائفةً من أمّهات المؤمنين ، ومَنْ أَوْلَىٰ من هؤلاءِ الفُضليات العبقريّات بالذّكْرِ والتّصويرِ والاعتبار ، فلقد رفعنَ في دنيا العرب والإسلام مكانة المرأةِ ، وكُنّ حجّة التّاريخ على الرّجال».

* وتتابعُ وداد هذه الرّحلة الشّائقة في عالَم الطُهر والطّاهرات والعلْم والعالمات لتروي لنا أنَّ المرأة في تلك الحقبة كانت أعظمَ أمّ ، وأخلص زوجٍ ، كما أنَّها استطاعت أنْ تكونَ أنبلَ امرأةٍ ، وأصدقها ، وأطيبها نفساً ، وأثبتها في ساعاتِ الرَّوع فتقول: «فقد رأيتني ماضية في هذا السَّبيل ، على طريقتي التي جعلتُ سدَاها الحقيقة ، ولحمتها التّاريخ ، ساكبة مداد قلمي على هذه الصُّور الإنسانيّةِ المثالية ، من شعور طالما اهتز فخراً واعتزازاً بهؤلاءِ الأمّهات والأخواتِ اللاتي لم تنجبُ أمثالهن أمّةٌ من الأمم في قديم الدَّهْر وحديثهِ ، وكان يفيضُ في قلبي ذلك الشّعور ، وأنا أقرأُ سيرهن وأتتبعُ أخبارهُنَ ، حتى جلوتُها في صورٍ فنيّة ، تأنسُ بها النّفسُ ، ويعْلَقُ بها الخاطرُ ، وها أنذا أزْجيها إلى فتياتِ العرب المتنوّرات ، وأمهاتهنّ اللواتي هَبَئنَ إلى حياةٍ واعيةٍ راقية».

* ثم تختمُ مقدمتها بهذه العبارات العِذاب قائلةً: "وما أحرانا ونحنُ على وصيدِ حياةٍ جديدةٍ حرّة بأنْ تتخذَ المرأةُ المعاصرةُ من هذه السّيرِ المثاليّةِ نشيداً تحدو به نهضتنا ، وأهزوجة تهدهدُ طفْلَها ، وتمضي في بيتها وبينَ النّاس على هذا النّور المنبعث من صوتِ الجزيرة ودارةِ الوحي ، مستلهمة من أمّهات المؤمنين أخواتِ الشّهداء معانيَ الإيثارِ والوفاءِ ، وآياتِ التّقوى والفداء».

* وفي الحقيقةِ فقد صدقتُ ودادُ _ رحمها الله _ فيما قالت ، فما من

امرأة مسلمة أو عاقلة تقرأ ما قرأته السَّيِّدة وداد عن هؤلاء الفُضْلَيات الكريمات إلا تحمل الشَّعور بالإكبار لهنَّ ، بل وتقديرهنَّ سيرة وسلوكاً ، إذ نجدُ في حياتِهنَّ الأنشودة المطربة الخالدة للنَّوع النَّسويِّ جميعهِ ، فلا تدنو من قلبٍ حتى تصقُله بالتَّهذيب ، ولا من فكر حتى تسمو به في فضاء المكارم وميادين الفضائل.

* لذا فإنّنا نجدُ السَّيِّدةَ وداداً تدعو الفتياتِ الصّاعداتِ لقراءةِ سيرِ المُسْلماتِ ، وتدعو بعد أربعين عاماً من صدورِ طبعةِ الكتاب الأولى أنْ تُقْبِلَ الفتياتُ على المطالعةِ النَّافعةِ ، فتقول في مقدّمةِ الطَّبعةِ الثَّالثةِ عام (١٩٨٦ م) ما نصُّه: «على أنَّ محتوى الكتابِ جديرٌ باطّلاعِ فتياتِنا الصَّاعدات من الجيلِ الجديدِ المُقْبلِ بِنَهمٍ على المُطالعةِ النَّافِعة ، فإنَّ الصَّاعدات من الجيلِ الجديدِ المُقْبلِ بِنَهمٍ على المُطالعةِ النَّافِعة ، فإنَّ تقافتهن ينقصُها الوقوف على هذا الموضوع ، وهن اليوم يتزودن بخيرِ ما في المعرفةِ والإلمامِ بحياةِ طائفةٍ كبرى من نسائِنا في تاريخهنَّ البعيد والقريب. ومن فيضِ الله عليهنَّ أنْ تقيَّضَ لهنَّ أسبابِ المعرفةِ الواسعةِ».

* ولم تتوقف السّيّدة وداد عند هذا الكتاب الجميل «أمّهات المؤمنين...، وإنّما راحَتْ تستشفُّ التّاريخ النّسويَّ، وتتوغّلُ في أعماقهِ ، حتى توقّفَتْ عند «رابعة العدوية» تلك العاشقة المتصوّفة التي ملأَتِ الدُّنيا وشغَلَتِ النَّاس في البصرةِ في القرنِ الثَّاني الهجريّ ، وقد استطاعَتْ وداد أنْ تستهوي القارىء وتجتذبه من أوّلِ صفحةٍ إلى آخر صفحةٍ من كتابها ، وذلك بما آتاها الله من جمالٍ في الأسلوبِ والعرضِ والخيالِ الجميلِ في الألفاظِ المونقة ، ولكي نأتي بالدَّليل على ما نقول ، علينا أن نعيشَ السُّطور الأولى من كتابِها «العاشقة المتصوفة» حيث تقول: «أروع الأساطيرِ ما شابَه الحقائق ، فمن أساطيرِ النُّجوم التي لمعَتْ في السَّماء ، وارتعشتْ أشعّتُها في مدى الغُيوب كأنّها أعينُ الأبد ، شاخصةٌ مؤرّفةٌ ،

نجمٌ طلع في سماء البصرة العراقيّة آخر القرنِ الأوّل للهجرة ، وبقي مرموقَ الضّياء حتى هوى في أعقابِ العصرِ الثّاني للهجرة ، متحوّلاً إلى أحدوثةٍ لا تنسىٰ ، خلّدتها السُّطور ، ولهجتْ بها الألسنةُ ، وتداولَتْها بالذّكْر والتّأليف طائفةٌ من الباحثين في القديم والحديثِ.

* لو سألوا رابعة العدوية مَنْ أَنْتِ ، وكيف جئتِ وعشْتِ؟ لقالت: نجمتُ في السَّماء ، ثم كنْتُ فكرةً في الأرضِ ، مضيتُ مثلَ غيري ، أحببتُ وكرهتُ ، وضحكتُ وبكيتُ ، وأخطَأْتُ وأصَبْتُ ، حتى تحرّرتُ من استعبادِ الإنسانِ ، وسموتُ بروحي وتفانيتُ ، فرآني النّاسُ عجيبةً غريبةً في هذه الدُّنيا»(١).

* بهذهِ اللغةِ الآسرةِ ، وبهذهِ الرُّوحِ الأدبية السَّاحرة ، مضَتْ ودادُ في عرضِ سيرةِ رابعةَ إلى النَّهاية ، وعندما تتحدَّثُ عن عشقِ رابعةَ وعن حُبِّها تقولُ: "أَمَّا رابعةُ فكان حبُّها من طرازٍ أَسْمَى ، تأبّىٰ على البشريّةِ ، وارتقىٰ إلى الإنسانيةِ المُثْلَىٰ ، بل تجاوزَهَا إلى الذَّوبانِ والاحتراق في حبِّ سماويّ لم يسبقُها إليهِ أحدٌ في الإسلام».

* وتتوقّفُ ودادُ عند حبِّ رابعةَ ، وسموّ روحها ، وتتحدَّثُ عن الأبياتِ الكافِيّةِ المشهورة لها ، حيثُ تقولُ رابعةُ:

أُحِبُكَ حَبِّيْنِ حُبِّ الهَوىٰ وحُبِّاً لأنَّكَ أَهْلٌ لِنَاكَا فَأَعِلَا لَانَّكَ أَهْلٌ لِنَاكَا فَأَمَّا النَّي هُوَ حُبُّ الهَوىٰ فَشُغْلِي بِذَكْرِكَ عَمِّن سواكا وأمَّا النَّي هُو حُبُّ الهَوىٰ فَكُشْفُكَ لِي الحُجِبَ حَتَى أَراكا فَلا الحَمدُ في ذَا ولا ذَاكَ لي ولكِنْ لكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا

* وتعلِّقُ ودادُ على هذهِ الأبياتِ فتقولُ: «لقد فسَّرَ بعضُ الصُّوفيّينَ

⁽١) العاشقة المتصوفة (ص ٥) دار المعارف مصر ١٩٥٥م.

معاني هذه الأبياتِ المشهورة وأُوَّلُوهَا بما يتّفقُ مع النَّزعةِ الرُّوحيّةِ التي كانت تجيشُ في هواجسِ رابعة وجوانِحها ، وما يلائمُ طبيعة الفَهْم الصُّوفي ، فكانَ كلامُهم على هذا الحبّ المزدوجِ أو هذَيْن الحبّيْنِ اللذين ذكرتْهُما رابعة في منظومتِها متقارباً متلاقياً ، وقد راعَهم أوّلَ الأمْرِ أنْ وجدُوا رابعة تحبُ ربَّها عشقاً وهوى ، وخاضُوا في مرامي هذا العشقِ الذي لا ينبغي أنْ يكونَ كعشقِ البشر»(١).

* وقد مرَّ أكثر من (١٢ قرناً) على رحيلِ رابعة بَيْدَ أَنَّنا في القرنِ الخامس عشر الهجريّ لا نزالُ نقرأُ سيرتَها بشغَفِ بقلم نسويّ موهوبٍ هو قلمُ وفكُرُ المرحومةِ وداد سكاكيني التي جعلَتْ ذكْرىٰ رابعة خالدة مجيدة ، لذلك نجدُ وداداً تنهي ترجمة رابعة بقولها: "وحسبُها فضلاً أن سبقتِ العصورَ إلى مثالِ علويّ خطَّ للصَّالحين والمُخلصين وعاشَتْ فيه على معرفةٍ وبصيرة وإيمانِ ، وقد تركتُ للنساء بابَ عزِّ وحمْدِ لا يُغْلَقُ ، إذ كانت منهنّ ، تقدّمَتْ صفوفَ المتقين ، وعدّت حجّة لهنّ في العبادةِ والدِّين ».

* وفي الحقيقةِ لقد حلّقَتْ ودادُ في هذا الكتابِ عالياً ، وجلَتْ ما علقَ بسيرةِ رابعةَ من حيرةٍ ومن تناقضات علقَتْ في الأذهانِ ، لذلك لَفَتَ هذا الكتابُ الأنظارَ ، فَتُرجِمَ إلى اللّغةِ الإنكليزيّة ، وصدرَ عن دار نَشْر «أوكتاجون» (Octagon) في لندن عام (١٩٨١ م).

* وكذلك نجدُ وداداً مجليةً في بقيةِ كتبها ذات طابع الترجمة والسّيرة الذّاتية مثل: «ميّ زيادة ، وقاسم أمين ، وعمر فاخوري وسابقات العصر . . » ، واستطاعت أنْ ترسَم هذه الشّخصيّات بأجملِ الحروف ، وأدقّ العباراتِ ، وأبهى المعاني ، فاحتلّتِ الصّدارة في المكتبةِ العربيّة .

⁽١) العاشقة المتصوفة (ص ٨٩).

ودَادُ وَالنَّفُدُ الأَدبي وَالفَنِّي:

* لم تكنُ ودادُ سكاكيني ـ رحمها الله ـ كاتبة مقالاتِ ورواياتِ وقصصٍ وتراجم وسيرٍ فحسبُ ، وإنّما كانت ناقدة من الطَّرازِ الأوّل ، فهي حصيفة في نَقْدِها ، رصينةٌ في الأحكام ، لا تجرُّهَا العواطفُ إلى مهاوي الرَّدىٰ ، وإنّما ميزانُها العقْل والتذوق الأدبيّ ، والصِّدقُ في نقدِ ما تريدُ نقده ، وإنْ كانت تؤمنُ "بأنَّ حاملَ النَّقْد أشدُ تعباً وأشقىٰ . . . وأكثرُ أعداءً وأقلُ أصدقاء (١) ، كما كانت تدركُ بأنَّ النَّاقدَ الصَّادق يكْثُرُ حاسِدُوه ، وعذّالُه ، ولكنَّ الحقيقة ينبغي أنْ تظهرَ للعَيان وللبصيرة .

* يقول مؤلّف كتاب أديبات عربيّات: "وكان من حظّها أنّها أدركَتْ عَهْداً من ازدهارِ النَّقد الأدبيّ أثناءَ إقامتها في مصر ، فأحبّتِ المطارحات النقدية ، وتتبّعتها بشوقِ واهتمام ، حتّى استهوتها هذه الممارسة ، وخاضَتْ غمارها بجرأة واقتحام ، تهاجم وتردُّ الصَّاع صاعَيْن ، سعيدة بشهودِ الأعلام من نقّادِ الأدبِ المعاصر ، دون أنْ تتأثّر بموقفٍ محدّد ، أو هدفٍ مرسُوم» (۱۲).

* ويقول المؤلّف نفسه: «لقد بدأتْ ودادُ سكاكيني حياتَها النقديّة بِنَقْدِ ذاتِها وسُطورها أوّلاً ، قبل أنْ يقرأَها غيرُهَا ، وأخذتْ تستعدُّ لهذهِ المهمّةِ الصَّعبة بزادِ ثقافي واسع ، وتتسلّحُ بمعايير دقيقة ، لأنَّ النَّقد وإن كان عِلْماً يقومُ على قواعدَ ثابتةٍ متّفقٌ عليها ، فإنَّ على النَّاقد أنْ يكونَ واعياً ، نافذَ البصرِ والبصيرة ، صحيحَ المعيار . . . كلُّ هذه الشُّروط والصِّفات والمعايير . . . اجتمعتْ في السَّيدة وداد سكاكيني ، بالإضافة إلى الجُرأةِ والمعايير . . . اجتمعتْ في السَّيدة وداد سكاكيني ، بالإضافة إلى الجُرأة

⁽١) أديبات عربيات (ص ٢٤٥) بشيء من التصرف.

⁽٢) المرجع السابق نفسه باختصار يسير.

الأدبية ، والثّقة بالنفس ، والتمكّن من الأداة ، وعدم التّهيّب من التَّصدي للكبار الكُتَّاب والمفكّرين العرب الذين تتبعّتْ آثارهم ، وتناولَتْ مؤلفاتِهم بالنّقد النّزيهِ ، والدَّرس الهادىء ، والمناقشةِ المطمئنّة ، ليقينها بأنّها لا تقولُ غير الحقّ ، ولا تتعاملُ مع الباطلِ ، ولا تتجنّىٰ علىٰ أحد»(١).

* لقد انتقدت ودادُ كبارَ الأدباءِ والشُّعراء ، والأديبات والشَّاعرات في مؤلِّفاتهم وإنتاجِهم الأدبيّ والفنّيّ ، في عددٍ من كتاباتِها ومقالاتها وكتبِها ، ويدلُّ هذا كله على ثقافتِها العميقةِ الواعيةِ ، وقراءتها الهادفة المتفحّصةِ لما ينتجه هؤلاء الأدباء ، كما تطَّلعُ على ما تصدره دورُ النَّشْر في الأقطار العربية كي تكونَ على بصيرةٍ من أمرِها.

* ومن ألوانِ نقد السَّيدة وداد للأدباء ، ما نقدت به ابنة جنْسِها بنت الشّاطىء عندما أصدرت كتابها «نساء النّبي» فاطّلعَتْ عليه وداد ، ووضعتْ حول كثيرٍ من فقْراتِهِ وألفاظِهِ علاماتِ استفهام ، وتصويبات ، وتصحيحات ، وانتقدت بنت الشّاطىء في إصْرارِها على تناولِ الجانبِ البَشَرِيّ في حياةِ سيّدنا وحبيبنا محمّد رسولِ الله على تقولُ السَّيدة وداد: «لقد ذكرَتْ _ يعني بنت الشّاطىء _ في بضْعِ صَفَحاتٍ كلمات: (بشر ، وبشريّة ، وبَشَريّ) عشرات المرّات ، قالت في خلالها: إنَّ إيمانَها قد عصَمها من التَّحرِج المنكر فيما لا يحتاجُ إلى سترٍ وكتْمان من أنباءِ الحياةِ الزّوجية الخاصّة بالرّسولِ ﷺ الذي لم يحاولُ قطّ أنْ يبرأ من بشريته!!».

* وتتابعُ وداد كلامَها في نقد ابنة الشَّاطىء فتقولُ: «فعدْتُ أحاوِرُ نفسي خطرةً ثانيةً ، متعجّلةً متسائلةً ، قبل أنْ أمضيَ في قراءةِ الكتابِ ، ما هي هذهِ البشريّة في معناها اللغويّ والاصطلاحيّ؟ والتي نصَّ عليها القرآنُ كما

⁽١) المرجع السابق نفسه باختصار يسير.

قالت: «فقد زين الإجلالُ لمن كتبُوا عن محمد ﷺ أنْ ينزّهوهُ عن بشريته ، وأصرُّوا على تقريرها والاعترافِ بها». تبيّنَ لي أنَّ المؤلِّفة الفاضلة شاءت كما ذكرتْ في المقدمة: «أنْ لا تكونَ دراستها هذه على النّحو التقليدي المألوفِ في تراجمِ الأشخاص» ، وإنّما عناها أنْ «تتمثّل حياة النّسوة اللاتي عشْنَ في بيتِ النّبي محمّدِ ﷺ وأنْ تصوّر شخصياتهن تصويراً يجلو كلاً منهنّ زوجة وأنثى في بيتٍ كريم تلاقَتْ فيه البشرية بالنّبوة».

* ثم إنَّ وداداً تتعرّضُ في نقدِها ابنة الشّاطىء بأنّ تشابها ما بين كتاباتها وكتاباتِ المستشرقين خصوصاً في تعدّدِ الزَّوجات فتقول: «ألا يَفْهَمُ القارىءُ من هذا كلّه؛ أنَّ البشريّة التي عَنتُها المؤلّفة هي التي عَناها المستشرقون ، فكيفَ ضاقَتْ بإرجافهم ولمزهم هذا الجانب ممّا تَقَوَّلُوا فيه على النّبي عَلِيَّةً ، ثم تسمحُ لقلمها بأنْ يصرَّ ويلحَّ على أنَّ محمّداً لم يبرأ من بشريّته ، فعدد الزّوجاتِ كما قالَتْ ، ومارسَ حياته الزّوجيّة ببشريةٍ سوية ، لم تجرّدْهَا النّبوةُ من العواطفِ والمشاعر والرغبات»!!.

* ثم تتعرضُ السَّيدة وداد في نقدِها الجميلِ لابنة الشَّاطىء إلى زواجِ النَّبِي عَلَيْ من ابنةِ عمته زينب، وكيف لاكت هذه القصّة كما يلوكُها المستشرقون وبعضُ المستعربين فقالت: «وبعد، فما كان أغْنَى المؤلّفة عن الخوضِ في هذا الإلحاحِ والإصرارِ على بشريّة محمّد على الكلام على هذا الجانب بالتوكيد والتأييد، لما زعم الذين تَجَنّوا على الرَّسول والرّسالة بمثلِ هذه الأقاويل، وهي تعلمُ بأنَّ الإنسانية والمرأة العربية لم تعرف أحبّ إليها من محمّد على الذي كان لهما محرّراً ومبشراً بمكانة النساء، وداعياً إلى تكريمهن أمّهاتٍ وزوجاتٍ وتعليمهن كالرّجال، وكانت سيرتُه مع المرأة زوجة وبنتاً وقريبة وغريبة تتجلّى في معاملتهِ وتوجيهِ نُصْحهِ ورأيهِ لما ينبغي لها من حقّ، وما عليها من معاملتهِ وتوجيهِ نُصْحهِ ورأيهِ لما ينبغي لها من حقّ، وما عليها من

تكاليفَ ، وأن لا غضاضةَ على الرّجل في أنْ يتلقّىٰ عنها ، ويقتدي بها إذا كانت من ذواتِ النّبوغ والتّقوى والكفاية في علمِها. . . فالرّسول ﷺ الذي أحبُّ المرأةَ لِحَقها عليه وعلى الإنسانيّة ، وعاملُها بما ينبغي لها ، حاشاه أَنْ يكون عدَّدَ الزُّوجاتِ لبَشريته التي ألحَّتْ عليها الدّكتورة بنت الشّاطيء ، وهل لها من تأويل غير ما عَنْت وأكَّدَتْ؟ وقد قالت إنَّها «الفطرةُ السَّويَّةُ» التي جعلَتْ محمّداً مُعدّداً للزّوجات ، وكأنَّ بشريّته المتمثّلة في رجولتهِ ونزعتهِ الجنسيَّة غلبَتْ على طبعهِ فلم تحصنُها زوجة واحدة ، ولو شاء محمَّدٌ ﷺ أَنْ يكونَ التَّعدُّدُ لمصلحته وبشريَّته ، لاختارَ زوجاتِه من أنْضَرِ الصَّبايا عمراً وعُوداً. . . أيكونُ محرّرُ المرأةِ والدّاعي إلى حقوقها ومكانتها عبداً لِهَواه وفنونِها ، وقد أحاطَه اللهُ بها منذُ وُلِـدَ وفَـقَدَ الأبوين ، حتى تزوّج ليعرفَها على حقيقتِها وطبعِها ، فعرفَها مرضعةً وحاضنةً ومربيةً ونسيبةً؟!.... ولم يقُلُ أحدٌ في تحريرِ المرأةِ ورعايتها مثلما قالَ محمّدٌ ﷺ الذي كانت رسالتُه العالميةُ قائمةً على تكافؤ الجنسَيْن وانطلاق الجناحَيْن. . وهذه المساواة الإسلاميّة التي سنّها الرّسولُ ﷺ للمرأةِ لم تَرْقَ إليها أحْسَنُ النُّظُم والقوانين في أرقىٰ الشّعوب الدّيمقراطيّة المعاصرة... كانت مجامعُ بيزنطة وغيرها في عَصْرِ الرسالةِ تتحاورُ وتتشاورُ في قضايا المرأةِ وإنسانيّتها ، فقررت أنّها مخلوقةٌ لمتعةِ الرّجل وخدمته. . . أمّا محمّد ﷺ الذي وعدَ المؤمنين بالجنَّة ، فإنَّه رآها تحتَ أقدام الأمّهات ، على أنَّ أحرارَ الفكْر من علماءِ الغرب في العصورِ الحديثة ، جعلوا تحريرَ المرأةِ الذي جاءَ به الإسلام منَ الأسبابِ القويّة في نهضةِ العرب وفتحهم المبين وقيام حضارتهم ، لكنّ الذين امتهنوا المرأة بعد حين ، كانوا ممّن ضعْضَعُوا الحضارةَ والنَّهضة ، وأساؤوا في المعاملة».

^{*} ثم إنَّ وداد سكاكيني تتعجّب من إصرار بنتِ الشاطىء على الجانبِ

البشريّ في حياةِ الرّسول على الجانبِ البشريّ في حياةِ محمّد ، وكم يجدُ فيه وراء هذا الإصرار على الجانبِ البشريّ في حياةِ محمّد ، وكم يجدُ فيه الذين أضلَّهمُ الهوى والتّعصبُ في الشَّرقِ والغربِ تثبيتاً لمآربهم ، وبُعْداً بالرّسول عن حقيقتهِ ورسالتهِ السّماوية؟! وهل كان من الطّباع البشريّة التي عنتها المؤلّفة جواز الدّنايا والانحراف ممّا يصيبُ البشر جميعاً ، وقد وُصِفَ الرّسول على المزايا والخصال؟ . . . ولو أنّ مؤلّفة «نساء النّبيّ» بذلَتْ جهودَها في بحثِها الإلقاء النّور على جوانبَ من إنسانيةِ الرّسول على لله يَرها الباحثون ، لأحسنتُ صنعاً ، وجاءتْ بجد وجديد ، أمّا (البشريّة) التي ألحّت في إيجادِها وتأييدها ، فما كانت لتمسّ قلوبَ المؤمنين ، ولا كان الإقدامُ على بحثِها مأشرة فكريّة أو تحرّراً منهجيّاً ، لأنّ هذا المذهب تأبّى عليه المنطقُ والواقع ، ولم تلتزمْهُ إلاّ بعضُ الفِرنجة من المستشرقين» (١).

* وهكذا نجدُ أنَّ السَّيدةَ وداد سكاكيني ناقدةٌ من طرازٍ فريد ، وقد أتقنَتْ أُسسَ النَّقد الأدبي السّليم؛ إذ تقومُ في نقدِها لمن أرادت على إلقاءِ الأضواءِ على إنتاجِ الأديبِ أو الأديبةِ في الكتاب المُنْتقد ، ومن ثمَّ الإلمام بتاريخِ حياتِهِ الأدبيّةِ والفكريّة ، ثم ترفدُ ذلك كلّه ثقافتُها المتنوّعةُ المتنورةُ في الأدبِ وفنونه ، والتّاريخ وأصوله ، وتعرضَ نقدها بلغةٍ تُراثيةٍ متّزنةٍ رصينة ، وبأسلوب يأسِرُ العقول والنّفوسَ بوضوحه وظهورِ الحجّة فيه.

* كانتِ السَّيدةُ وداد ـ رحمها الله ـ تعلم علمَ اليقين أنَّ نقدهَا لمشاهيرِ الأديباتِ والأدباء ، سيجعلُ القطيعة تحلُّ فيما بينهم ، وكانت تدركُ تماماً ما جاء في حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه في قوله: "إنْ نقَدْتَ النّاسَ

⁽۱) انظر مقدمة: «أمهات المؤمنين وبنات الرسول» (ص ۷ ــ ۱۹) باختصار وتصرف سير.

نَقدوك ، وإنْ تركْتَهم تركوك الله ومعنى نقدتهُم هنا: عِبْتَهم؛ أو ميّزْتَ جَيّدهم من رديئهم في كلامِهم.

* ومن هذا المنطَلقِ حدَثَتِ الوقيعةُ والقطيعةُ بين وداد وبنت الشّاطىء ، بيد أنَّ وداداً _ رحمها الله _ استوعبَتْ ذلك كلّه؛ إذ طريقُ النّقد محفوفٌ بالمخاطرِ ، ولكنَّ هذا لا يهمّها ما دامَتْ تنشدُ الحقَّ ، لتبرزَهُ لأهل الحقّ ، ومحبّى الحقّ في كلّ زمان ومكان.

* وللسّيّدة وداد سكاكيني آراءٌ نقديّةٌ جميلةٌ ، تحملُ بين طيّاتها حبّ اللغة العربيّة والغيرة عليها ، وتدعو إلى نبذِ العاميّة في الكلام الإذاعيّ وفي الكتابة ، كما تدعو الذين يتوانون عن التّعمّق في القراءة إلى القراءة الجادّة الواعية في المصادرِ الأصلية ، لا أنْ يركنُوا فقط إلى الجرائد والمجلّات وأدواتِ الإعلام من مذياع أو تلفزيون وغيرهِ ، تقولُ وداد: «أين تلك الجلساتُ الطّويلةُ التي كان يقضيها القارىءُ عاكِفاً على كتابٍ يحبُّ أدبَه ويتدارسهُ بشوقِ وتأمُّلٍ؟! لقد فارقَ الكتبَ أحبابُها ، وعلاها الغبارُ على الرُفوف ، ونُصِبَتْ فوقها للزّينة ، وقنع العشّاق المُحدثون بنزواتِ عابرة ، ونظراتِ خاطفة ، فليس للمثقّف اليومَ أو المتأدّب إلا أنْ يطيفَ بعينيه في ونظراتِ خاطفة ، والسّل للمثقّف اليومَ أو المتأدّب إلا أنْ يطيفَ بعينيه في جريدةٍ أو مجلّة ، راضياً بالمقالِ الخفيف ، والنّبا المُثير ، والصّورة المغرية ، أو يديرُ مفتاح المذياع ، فيسمعُ حديثاً مستعجِلاً ، أو تمثيلية هزليّة خفيفة»(٢).

⁽۱) لسان العرب (٣/ ٤٢٦) مادة «نقد».

⁽٢) منَ المؤسفِ حقّاً أنْ نجدَ الآن كثيراً منَ المثقّفين أو القُرّاء ينصرفون عن القراءة إلى التّلفزيون والمحطّات الفضائيّة أو حتّى إلى أجهزة الحاسب الآلي بما تحملُه من معلوماتٍ غزيرة على أقراصِها المُثيرة ، ولكنّها في الحقيقة لا تروي الغُلّة ، ولها أضرارٌ جسيمةٌ على الثّقافة والمثقّفين ليس ها هنا محلّ ذكرُها ، وبدأ الضَّعفُ في القراءة والتمكّنِ من اللغة السَّليمة يدبُّ في صفوفِ المتعلّمين نتيجةً لوسائلِ الإعلام =

* وكانتِ السَّيدةُ وداد ـ رحمها الله ـ تسعىٰ سعياً حثيثاً إلى التراث وتحضُّ النّاشئةَ والمتأدّبين على العكوفِ عليه ، وظلَّ هذا الهاجسُ بالتراث يرافقُها إلى آخر حياتها ، وكانت تحدّثُ عن شغفِها بالقُرآن الكريم ، وبالثقافة الأصيلة كلّ من يلْتقيها ، فغي آخر لقاءِ معها تحدّثت عن ذلك إلى الأستاذة «رغداء مارديني» حيث أجرتْ رغداءُ مع وداد لقاءً جميلاً تحدّثت فيه ودادُ عن بداية مسيرتها الثّقافية فقالت: «من خلالِ وظائفِ الإنشاء التي كان يكلّفُني بها أستاذُ اللغة العربيّة ، ومن مقاعدِ الدّراسة في مدينة بيروت. . . كانت بدايتي الأدبيّةُ الأولىٰ عندما أوْصاني أستاذي بأنْ أحفظ القُرآن الكريم قائلاً لي: «إنّه قاموسُ الفُقراء ، ونحنُ يا بُنيّتي منَ الفُقراء ، فهو يعلّمنا العربيّة والتّاريخ والبيّان». كما شجّعني على إمعانِ النّظر والبحثِ في كتُبِ التّراث بمختلفِ علومها ، وفعلاً كان للقُرآن أثرٌ كبيرٌ على كتابتي الإنشائيّة التي جمعتُها فيما بعد بكتاب حمل عنوان «الخطرات» باكورة أعمالي»(۱).

* ومن خلالِ هذا اللقاء تبدو السَّيدة وداد حزينة على هذا الجيلِ الذي لا يقرأُ فتقول: «أَمَلي من كلّ وسائلِ الإعلامِ المسموعةِ والمقروءةِ والمرئيةِ أن تسعف نفوسَ هؤلاء الفتيانِ بِحَثِّهِم على أهميّة القراءةِ ، لأنَّها السَّبيلُ إلى بنيانِ ثقافي حضاري يخلقُ ذهناً مستنيراً يحقّقُ الفردُ من خلاله الأمَلَ المُرتجىٰ "(٢).

المغرية والتي اختطفتِ القارىءَ واختطفت الكتابَ ، ولكن لا بدّ من الصحيح أنْ
 يسودَ ويبقىٰ.

⁽۱) هذه الفقرة مقتطفة من حوار أجرته رغداء مارديني مع السّيدة وداد بتاريخ (۲/ ۱۹۹۰/۷) م) في صحيفة «تشرين» الدمشقية.

⁽٢) المرجع السابق نفسه.

* ألا يرى القارىءُ الكريمُ أنَّ في كلامِ وداد هذا نقْداً رائعاً وصحيحاً لما نلمسُه هذه الأيّام من التَّراجعِ الثّقافي عند النّاشئة؟! وكيف تساعدُ وسائلُ الإعلام على اختطافهم من بين أحضانِ الكتبِ وأُمَّاتِ المصَادر؟!

* هذا والحياةُ مع نقْد السَّيدة وداد سكاكيني ممتعة ولا تستوفيها هذه الصَّفحات ، ويمكنُ للباحث أن يخرجَ بمجلّدٍ كبير عن ذلك ، وقد نوَّه عددٌ كبيرٌ من الأدباء والنُّقَاد إلى موهبتِها الأدبيّة وإلى تمكّنها من ناصيةِ النَّقد ، وقد نشرتِ الصَّحف كثيراً عن وداد وعن أرائِها النقدية وأشادوا بطولِ باعِها في هذا المضمار.

الثُّنَاءُ عَلَىٰ ودَاد:

* من المطربِ والمفيدِ والجميلِ في سيرةِ وداد سكاكيني ـ رحمها الله ـ أنَّ الذين واللواتي كتبُوا عنها ، أجمعُوا على الثّناءِ عليها أدَباً وأخْلاقاً وسُلوكاً وعمقاً وراء الحقيقةِ والحقّ ، وتفرّداً في عالَم النَّقْد النَّزيهِ الذي لم يعرفِ المحاباة أو الخواطر.

* وقد تبارى الأدباءُ والشُّعراء من مختلفِ البُلدان ، في تسجيلِ الثَّناء لِصَالِحِ أديبتنا الموقَّقةِ وداد سكاكيني ، ومنهم الدّكتورُ الأديبُ النّاقد «عمرُ الدّقاق» صاحبُ القلمِ الجميلِ في الأدبِ والنّقد ، حيثُ يشهدُ لوداد سكاكيني بما تستحقُّه من إكبارِ وتقديرٍ في فنونِ الأدب فيقولُ عنها: «هي منَ النّساءِ القليلاتِ اللواتي أنجبتهُنَّ سورية ، وكان لهنَّ باعٌ طويلٌ في نهضةِ المرأةِ وانفتاحِها الفكْريّ ، عُرفَتْ برصانتها في نتاجِها ، وقد لا تضارعُها أديبةٌ أخرى في تعدادِ الجوانبِ وغزارةِ الإنتاج . . . فهي كاتبةٌ قصصيّةٌ ، علاجتِ القصّة القصيرة في طابعها الاجتماعيّ ، ولونها المحليّ ، وهي من

جهةٍ أخرىٰ ناثرةٌ بارزةٌ ، مارستْ كتابةَ المقالة الاجتماعيّةِ والأدبيّةِ بنَجاحٍ».

* ويثني عليها "إبراهيمُ المنذر"(١) ثناءً خاصّاً ، حيث يعتبرُهَا من

(١) إبراهيمُ منذر كَمال (من بني المعلوف) يتّصل نسبُه بالغَساسنةِ ، وأجدادُه بنوا بلدةَ «المُحيدثة» في لبنان ، وهي البلدةُ التي وُلدَ فيها بتاريخ (٦/٧/ ١٨٧٥ م) ، وتعلُّم في مدرستِها الابتدائية ، وَلمَا أيفعَ اشتغلَ معلَّماً للغَّةِ العربيةِ في عدَّة مدارسَ وكلياتٍ بلبنان ، وأنشأ في المُحيدَّثة مدرسة «البُستان الدّاخلية» ، وتولَّى رئاسة بعض المحاكم ، وكان أديباً لغوياً عملَ في الصَّحافة ، وكان من أعضاءِ المجمع العلُّميِّ اللبنانيِّ ، وبالمجمع العلميِّ العربيِّ بدمشق ، وكان من أبرزِ شخصيّات لبنان الاجتماعيَّة ، عاشَ حيَّاةً زاخرةً بالأحداثِ ، فعاصرَ الاستبدادَ التُّركَى ، وشهدَ ويلاتِ الحربِ العالميةِ الأولىٰ والثَّانية ، وله أكثرَ من (١٥ مؤلَّفاً) ما بَينَ مطبوع ومخطوط ، مَنها «ديوانُ المنذر» و«المملوك الشّارد» و«عثراتُ الأَقْلام» وغيرها.ً وله قصيدة: «قلب الأم» المشهورة وقصيدة «حديث ضرير» ، وتوفي إبراهيم المنذر في بيروت بتاريخ (٨/٢٧/ ١٩٥٠ م)؛ ولجمَالِ قصيدته قلب الأم أحببتُ أنْ أوردها

> أُغُرىٰ امرؤ يوماً غُلاماً جَاهِلاً قىالَ اثْتِنى بِفُؤادِ أُمِّكَ يَا فَتَىٰ فمضىٰ وأغُرزَ خنجراً في صَدرِهَا لكنَّه من فَرطِ سُرعَتهِ هوىٰ نـــاداهُ قَلْـــبُ الأمّ وهــــو معفّـــرٌ فكــأنَّ هــذا الصَّــوتَ رغــمَ حُنُــوَّهِ ورأى فظيع جناية لم يأتِها وارتــدُّ نحـُـو القلــبِ يغسلُــه بِمَــا ويقــولُ يــا قلــبُ انتقــمُ منّــي ولاَ وإذا رحمنت فبإتنى أقضى انتِحبا واستــٰلَّ خنجــرهُ ليطعــنَ صَـــدْرهُ نساداهُ قَلْبُ الأمّ كُسفَّ يسداً ولا ـ ومن شعره الجميل قصيدتُه الشهيرة «حديث ضرير) حيثُ يقول:

> > يا أمُّ ما شكِّل السَّما

بنقودِهِ حتّى ينالَ به الوَطَرْ ولىكَ الـدّراهـمُ والجـواهـرُ والـدُّرزُ والقَلْبُ أجرحَهُ وعادَ على الأثرز فتَدخرَجَ القلبُ المعفَّرُ إذْ عَشَرُ ولَدي حَبيبي هَلْ أَصَابَكَ من ضَرَرُ؟ غضب السَّمَاءِ على الوليدِ قدِ انهمَرْ أَحَــدٌ ســواهُ منــذُ تـــاريــخ البشـــرُ فاضَتْ بع عيناهُ من سيل العِبَرُ تغْفِرُ فِهِ حَرِيمَتِي لَا تُنغَتَفَرُ رأمثلما يـوضَـاسُ مـن قبلـي انتحـرُ طغناً سيبقئ عبرةً لمن اعتبَرْ تـذبـخ فُـؤادى مرتَيْن علـى الأثـرُ

ء وما الضياءُ وما القَمر،

أديباتِ المشرقِ العربيّ المجليات في العِلْم والمعرفةِ والرّقيّ والتّهذيب ، وكان ثناءُ إبراهيم المنذر هذا عام (١٩٣٢ م)(١) حيث قال: «لم يخطرُ لي في بالٍ أنَّ الأديبةَ وداد سكاكيني هي ذلك الكاتبُ على ندورِ المُنْشِئاتِ المجيداتِ في هذه الدّيار ، فبرقَتْ أُسِرَّةُ وجهي ، وأثنيتُ عليها ثناءً طيباً ، وغبطتُ البلادَ بفتاةِ تقفُ بفخرِ إلى جانبِ سيّدات العِلْم ، وفتياتِ الأَدَبِ ، فتختطُّ فريقاً جديداً من الرّقي النّسويّ تسلكُه صغيراتُ العصرِ الجالساتِ على مقاعدِ المدرسةِ ، وُصُولًا إلى الهدفِ الذي نرمي إليه من تعليم المرأة وتهذيبها تهذيباً نقيّاً عالياً».

* وفي العام ذاتِه (١٩٣٢ م) أصدرتْ وداد سكاكيني كتابَها «الخَطَرات» فاطّلع عليه شاعرُ الأرْزِ وشاعرُ لبنان «الأخطل الصّغير بشارة الخوري» فأُعجبَ به ، واعتبرَهُ غذاءً للنّاشئة؛ إذ يشرقُ بالفكْرِ والأدبِ والبيَان ، يقولُ الأخطلُ هذا في عام (١٩٣٢ م) ما نصُّه: «تصفَّحْتُ كتابَ «الخطَرات» الذي وضعَتْهُ الأديبةُ وداد سكاكيني ، فإذا أنا عند خطراتٍ خليقة بأنْ تكونَ

مل ملذه التنسا ظلا يا أمُّ مدى لسى يسدي لا أهتدي في السَّنِدر إنْ أمشي احاذر أن يصا والأرضُ عنـــدى يستــوى عكَّــازتــي هــيَ نــاظــري يجـــــرى الصِّغـــــارُ ويلعبـــــونَ وأنسا ضسريسرٌ قساعسدٌ اللهُ يلطــــفُ بـــــي ويصــــــرفُ لاحظ عزيزي القارىء أنَّ وداد سكاكيني كانت لا تزال في سن الورد والزهر لم

__ك عسلى يُسزايلنسي الضرر طـــالَ الطـــريــــقُ وإنْ قَصُـــرْ منها البسَائِ طُ والحُفَ رِ هـــل فـــى جمــاد مــن بَصَــر ويــــــرتعـــــونَ ولا ضَـــــرَدْ ما أقساسي من كُدرُ

تتجاوز تسعة عشر عاماً ، ومع هذا انتزعت بأدبها إعجاب البُّلغاء والأدباء.

غذاءً للنّاشئة فكُراً ، وبياناً ، وأدباً ، وتساهلاً. إنّ «الخطراتِ» هذه تثني من نفسها على اليراعةِ الحكيمةِ التي دَبَّجَتْها ، والرُّوحِ الطّيبة التي أوحتها».

* وممن أدلى دلوه في الثّناء العَطرِ على السَّيدة وداد سكاكيني الشّيخُ الأديبُ «أحمد عارف الزَّين» صاحبُ مجلّة «العرفان» الشّهيرة في الثّلاثينات، فقد أثنى على وداد الأديبةِ التي كانت تنضحُ وتنفحُ مجلّته بنفحاتِها الجميلةِ الزّاهرة، فقال في عام (١٩٣٢ م): «وقد نبغ في مصرَ وسورية نساءٌ يُفْتَخرُ بعبقريتهنَّ ونهضتهنَّ؛ منهنَّ الأديبةُ ودادُ سكاكيني التي رأيناها تنفحُ «العِرفانَ» من وقتِ لآخر بنفحاتِها الطيّبة، وأعجِبْنا باختيارِ المواضيع التي طرقَتُها، وحُسْنِ كتابتها».

* أمّا الأديب المتميز "سامي الكيالي" صاحب كتاب "الأدب العربيّ المعاصر في سورية"، فإنّه أثنى على السَّيدة وداد بما تستحقُه من ثناء عَظِر، إذ قال عنها: "نال المجتمعُ العربيُّ بشتّى صُوره ومختلفِ ألوانه الكثيرَ من اهتمامِها، فوصفَتْه ووصفَتْ مفارقاتِه، ومظاهر حياته بنزعةِ الأدبِ وروحِ القاصّ. تلمسُ هذا واضحاً في الكتب والقصص التي أصدرتْها؛ وبالرغم من استجابتها لِنزعاتِ التطوّر في الأدبِ الحديث، ظلّتُ مشدودةً إلى أدبِ القديمِ تَعُبُّ من روائعِهِ، وتستلهمُ صُورَهُ".

* ويأتي النّاقدُ المشهور الدكتور «محمد مندور» ليسجّلَ لوداد سكاكيني ثناءً خاصاً ، إذا اعتبرهَا قاصَّة وناقدةً كبيرةً قديرةً ، يقول الدكتور مندور عن وداد سكاكيني: «وإذا كان قرّاءُ العربيةِ قد عرفُوها أديبةً قصصيةً ملتزمةً بالقيم الإنسانيةِ الرّفيعةِ ، فإنّهم قد عرفوها أيضاً ناقدةً ملتزمةً ، وبخاصة بعد أن أوضحنا أنَّ السّيدة وداد سكاكيني لم تأتِ إلى الالتزامِ متأثرةً بمفهومهِ الجديدِ في الأدبِ العالمي ، بل أتت إليه مسوقةً بطبعها المخلصِ الجريء الذي لا يخشى مسؤوليّة الرّأي ولا يماري فيها. فهي كناقدة الجريء الذي لا يخشى مسؤوليّة الرّأي ولا يماري فيها. فهي كناقدة

لا تجرحُ إلا ما تراه جديراً بالتّجريح من الآراءِ والاتّجاهات التي ينتهي إليها الأدباءُ والباحثون ، فيما تتناوله النّاقدة من مؤلفاتِهم الأدبية أو الثّقافية العامّة».

* وتقولُ الأستاذة «سُليمى العظم» في الثّناء على وداد سكاكيني ما محصّله وملخّصه: «كانت أوّل امرأة تحدّثَتْ من الإذاعة السُّورية واللبنانية.. كان إبداعُها مبكّراً في الثّلاثينات... كانت ثقافتُها ثقافة عربية خالصة ، فكانت تأخذُ ألفاظها من القُرآنِ الكريم ، وهو سندها ومقياسُها وقاموسُها ، وموقفُها من العربية موقف صريح هو الالتزام بالعربية ، والدّفاع عنها إلى آخر لحظة..».

* وقال «سمر روحي الفيصل»: «كانت قصصُها ومقالاتُها تتصدَّرُ الصَّحافة الأدبية ، وكان صوتُها المملوءُ حماسة يدوي دفاعاً عن الأدبِ والأدباء ، ويعلنُ ميلادَ صوتٍ نسويّ ذي نكْهةٍ خاصّة في عالَم القصّة . . ».

* ويقولُ كاتب هذه السُّطور أبو نور الدِّين أحمد خليل جُمعة الحرستانيّ الدَّمشقيّ عن السَّيدة وداد سكاكيني: «الأديبةُ الكبيرةُ ، والنَّاقدةُ القديرةُ ، وداد بنتَ محمّد سكاكيني الصَّيداويّة ثمّ الدّمشقية ، صاحبةُ القلم السَّاحر ، والأسلوبُ الآسر ، والكلماتُ الجميلة ، والمعاني الجليلة . . . فكلماتُها تدلُّ عليها ، وأسلوبُها يرسمُ شخصيّتها ، فهو يمتازُ بالسُّهولةِ والوضوح ، ويزدانُ بالذَّوق الرّفيع في سَبْك الكلام ، وحسْنِ المقام ، كما تمتازُ بالعاطفةِ الصَّادقة الغيورة على الأدبِ الأصيل والتراث الجليل . . ترقدت بالعِلْم والمعرفةِ ، وتسلّحتُ بأدبِ القُرآن ، حتى غَدَتْ دقيقةَ الملاحظةِ ، جيّدة الفكرة ، ترتفعُ بالأفكارِ والمعاني والأسلوب إلى مصافِّ كبارِ الأدباءِ المعاصرين ، ويجعلُها من الخالداتِ في دنيا نساءِ المشرقِ العربيّ».

- * هذا ولو أردنا أنْ نجمع ما كُتِبَ من تقاريظً وثناءاتٍ عن السَّيّدة وداد سكاكيني لما اتسع المجالُ لذلك ، ولكنْ فيما أوردناه كفايةً ، ويمكنُ أنْ يلقيَ الأضواءَ على مكانتِها الأدبيّة ، كما يوضّحُ قيمةً الأدبِ النّسوي المعاصر في شتّى ألوانِ الأدب وفُنونه.
- * بقي أنْ نعلمَ بأنَّ الكلماتِ لا تَسُدُّ إلا جزءاً يسيراً من مكانةِ السَّيدة وداد الأدبيَّة ، لأنَّها قاصّةٌ ، وروائيةٌ ، وناقدةٌ ، وباحثةٌ ، وأديبةٌ ، ومفكّرةٌ واعيةٌ ، وهي أوّلُ امرأةِ سوريةٍ تفوزُ بجائزةِ القصّة في منتصف الثَّلاثينات في لبنان ، وهي كذلك أوّل سورية تطبعُ مجموعة قصصيّة في القاهرة عام (١٩٤٧ م) ، بالإضافة إلى أوّليات كثيرة تزيدُ من رصيدها في عالمي الأدبِ والمعرفة.

الرِّخلَةُ الأَخيرَةُ:

- * على مدى أكثر من نصف قَرنٍ من الزَّمن ، والقلمُ يصاحبُ أناملَ السَّيّدة وداد سكاكيني ، ليسكبَ بمدادِهِ ما يمليهِ عليها وجدانُها وفكرُهَا في أنواعِ الأدبِ وفنونِهِ ، وكلّما تقدمتْ بها السِّنُ ارتقىٰ فكرُهَا ، وحلا أسلوبُها؛ وتألّق عطاؤُها.
- * ولما شارفت على السّبعين بدأتْ رحلتُها مع المرضِ الذي كان يزورُها دائماً ، ولا يكادُ يفارقُها ، وكانت تفرشُ له المطارفَ والحشايا ، بيد أنّه أبي إلاّ أن يبيتَ في عظامِها وأعصابِها . . وأبي هذا المرضُ إلا أن يؤثّر في أديبتنا الفاضلة التي عاركَتْه حيناً من الدَّهر . . وغدتْ في سنيّها الأخيرة قعيدة الفراش ، فكانت تشعرُ أحياناً بمرارةِ العزلةِ الأدبيّة ، وتشعرُ بالأسي لأنّها لا تقدرُ على المشاركاتِ الأدبيةِ والفكريةِ ، بيد أنّ ابنتَها الفاضلة السّيدة «سماء زكي المحاسني» كانت تكتبُ ما تمليه عليها ، ومن الفاضلة السّيدة «سماء زكي المحاسني» كانت تكتبُ ما تمليه عليها ، ومن ثمّ تنشرُ مقالاتها في بعضِ المجلّات الثّقافية في سورية .

- * وقد عبّرتِ السَّيدةُ وداد عن مشاعرِها التي كانت تنتابُها وهي. مريضةٌ ، فقالت في الحوارِ الأخير الذي أجرتُهُ معها «رغداء مارديني» بتاريخ (٢/٧/ ١٩٩٠ م) أيّ قبل وفاتها ببضعة شهور: «أعيشُ في وحدتي وغربتي مع المرضِ المُستعصي ، فأتلهّىٰ بالقراءةِ والكتابةِ ، راجيةً أنْ يأتيَ اليوم الذي ستظهرُ فيه آخرُ أعمالي مطبوعةً ومنشورة».
- * وفي يوم من أيّام دمشق ، كان رحيلُ السَّيّدة وداد سكاكيني ، حيث شيّعَتْ دمشقُ بل دنيا الأدب والعالمُ العربي فقيدةَ الأدبِ وداد سكاكيني ، وكان ذلك يوم (٣ كانون ثاني) من عام (١٩٩١ م) عن عمر يناهزُ (٧٨ عاماً) وبموتها انهد ركنٌ حصينٌ منَ الأدبِ النَّسوي المشرقيّ المعاصر . . . بيد أنَّ آثارها تدلُّ عليها ، وتجعلُها ماثلةً في وجدانِ من يحبّون اللغة العربيّة .
- * وشاركتِ الصُّحفُ والمجلَّاتُ والأديباتُ وعددٌ من الأدباءِ في الكتابةِ عنها ، وأسفُوا لوفاتِها ، ولكنَّ الموتَ مصيرُنا جميعاً ، فرحمَ اللهُ وداد سكاكيني ، وأدخلنا جميعاً برحمتهِ في عبادهِ الصَّالحين.

* * *

من وحي الشعر

* بينما كنتُ أدفعُ هذا الكتابَ للطّبع ، إذ وصلَتْ إليَّ قصيدةٌ جميلةٌ تميسُ بقدّها اللطيف ، وقافيتها المُقمِرة ومعانيها التي تداعبُ الألبابَ والأفكار ، وتهتزُ كالغُصنِ الذي أشرقَ فوقه النّوار ، وقد صاغها محمّد منير الحمويّ الشّاعر الذي يحرّكُ بشعرِه القُلوبَ والمشَاعر ، وكان قد اطّلع على فكرةِ الكتاب ، وقرأ أبوابه وفصولَه ، وفهمَ مقاصِدَهُ ، فجادتْ قريحتُه بهذه الهمزيةِ التي تشبهُ اعتلالَ النّسيم في أصائلهِ ، والورد في تألقه ودلاله ، والقصيدة هي:

ضَمَّنتُه سِيَرَ المَصُون منَ النِّساءُ مَنْ ساهَمَتْ بالعلْمِ مثلَ العُلَماءُ تُهَماً ومَنْ رُميَتْ بنُودٍ وادّعَاءُ بَهَما ومَنْ رُميَتْ بنُودٍ وادّعَاءُ بصحيح حُكْم ناصِع صَفْو الضِّياءُ ممّن عُرِفْنَ بطيب أصْلِ وانتماء أو فَكُرةٍ يهفو إليها الأذكياءُ ولها الفَضَائِلُ والمكارمُ والحياءُ ولها الفَضَائِلُ والمكارمُ والحياءُ بودادِ هذا العَصْر تَنْقُدُ في جَلاء ومبيّنا عمّا عَراها منْ هراءُ وذكرتَ فَارِعَةَ الفَصَاحةِ لا مِرَاءُ منْ لفتَةٍ للإسْمِ يَسْمُو بارتقاءُ منْ لفتَةٍ للإسْمِ يَسْمُو بارتقاءُ وكَريْمةٍ وكذاكَ آمنة السَّخَاءُ وكَريْمةً وكذاك آمنة السَّخَاءُ

أَظْهَرْتَ بالرّأي السَّديدِ مكَانةً لجميعهنَّ فَنِعْمَ أَخْلاقُ الوَفَاءْ ولهُنّ كُنْتَ أَخَا دِفَاع منْصِفٍ كيلا يُهانَ لهنَّ عرضٌ أو إبَاءُ فبذَلْتَ أَقْصَى مَا أَتَىٰ مِنْ حَجَّةٍ وبحثْتَ في الأَخْبَارِ تُصْمِي الأَدعياءُ ورقَشْتَ صَفَحاتٍ كَأَنَّ نظَامَها مثلُ اكْتِحَالِ الغِيْدِ في يَوم الهَنَاءُ فتوجَّهَ القُرّاءُ في ثِقَةٍ لكُمْ يا أَحْمدَ الخَيْراتِ يُهْدُونَ الدُّعَاءْ

* والآن ، تعالوا أحبّائي الكرام ندعو اللهَ أنْ يجعلُنا منَ الذين يستمعونَ القَولَ فيتّبعون أحْسَنه ، وأنْ يجعلَنا من أهلِ الفَلاح والصَّلاح. ﴿ رَبُّنَا لَا تُوَاخِذُنَا إِن نَسِينَا أَوْ أَخْطَأُنَّا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

رَفَحُ عجب لالرَّجَيُّ كَا لَسِّكْتِمَ لانْزُمُ لالِمْزُوكَ كِسِي www.moswarat.com

المصادر والمراجع(١)

١ _ القُرآنُ الكريم .

٢ ـ الصَّحيحان: [البخاري ومسلم].

٣ _ السُّنَنُ الأربعة .

٤ _ المسانيد.

٥ ـ كتُبُ التَّفسيرِ المتنّوعةِ: قديمُها وحديثُها.

٦-الآدابُ الشَّرعيّة: لابنِ مفلح المقدسيّ ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعمرُ
 القيّام ـ مؤسَّسةُ الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.

٧_اتّجاهاتُ الشّغرِ العربيّ في القُرن الثّاني الهِجريّ: د. محمّد مصطفى هدّارة_دار المعارف_مصر_١٩٧٨ م.

٨ ـ الأخبارُ الموفقيّات: للزُّبير بن بكّار ـ تحقيق د. سامي مكّي العاني ـ بغداد ـ ١٩٧٢ م.

(۱) كانت المصادرُ والمراجعُ التي عُدنا إليها في هذا الكتاب كثيرةً جداً ، بالإضافة إلى كثير من الدّواوين الشّعرية والمجلّات والدّوريات والأبحاث المنثورة المنشورة هنا وهناك على امتدادِ واسع من هذه الأرض؛ وسيجدُ القارىء الكريم مصداق ذلك وهو يسافرُ بذهنهِ في هذا السّفر المزدان بما تشتهيه الأنفسُ ، وقد سجّلنا أهم المصادر والمراجع في هذا الثّبت ، ومن أراد الاستزادة فعليه بالحواشي.

- ٩ ـ أخبارُ النّساء: لابن قيتم الجوزيّة ـ مكتبةُ الحياة ـ بيروت ـ لبنان.
- ١٠ ـ أدبُ الدّنيا والدّين: للماورديّ ـ تحقيق ياسين السّوّاس ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
- ١١ ـ أُدبُ الكُتَّاب: للصّوليّ ـ شرح وتعليق أحمد حَسَن بَسَج ـ دار الكتبُ العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٤ م.
 - ١٢ ـ أساسُ البَلاغةِ: للزّمخشريّ ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
- ١٣ ـ أسبابُ النّزول: للواحديّ ـ تحقيق كمال بسيوني زغلول ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م. وطبعة دار ابن كثير بدمشق.
- ١٤ ـ أستاذُ المرأة : لمحمد سالم البيحاني ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ط ٣ ـ
 دون تاريخ .
- ١٥ ـ الاستيعابُ ـ بهامشِ الإصابةِ ـ: لابن عبد البرّ ـ تحقيق د. طه محمّد الزّيني ـ مكتبةُ ابن تيمية ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.
- ١٦ ـ أسدُ الغابةِ في معرفةِ الصَّحابةِ: لابن الأثير ـ دار الفكْرِ ـ طبعة مصوّرة
 عن طبعةِ دار الشَّعب المحقّقة ـ بيروت ـ ١٩٨٩ م ، وطبعة دار الكتُب
 العلميّة المحقّقة .
- ١٧ ـ الاشتقاقُ: لابنِ دريـد ـ تحقيـق عبـد السَّــلام هـارون ـ القـاهـرة ـ ١٩٥٨ م.
- ١٨ ـ الإصابة في تمييز الصَحابة: لابن حجر العَسْقَلاني ـ تحقيق د. محمد طه الزّيني ـ مكتبة ابن تيميّة ـ القَاهِرة ـ ط ١ ـ ١٤١١ هـ.
- ١٩ ـ الأعلامُ: لخير الدِّين الزِّركليّ ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٨ ـ
 ١٩٨٤ م ـ وطبعة مصورة في عشرةِ أجزاء .

- ٢٠ أعلامُ النّساء: لعمر رضا كَحّالة _ مؤسَّسةُ الرِّسالة _ بيروت _ ط ٩ _
 ١٩٨٩ م.
- ٢١ ـ أعيانُ العَصْر وأعوانُ النَّصر: لخليل بن أيبك الصَّفديّ ـ تحقيق فالح أحمد البكور ـ دارُ الفكْر ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٩٨ م.
- ٢٢ ـ الأغاني: للأصْفَهاني ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.
 وطبعة مصر.
- ٢٣ _ الاقتباسُ منَ القُرآن الكريم: للثَّعالبي _ تحقيق ابتسام الصَّفار _ طبعة مصوّرة.
 - ٢٤ ـ الأمَالي: لأبي على القاليّ ـ طبعة مصر ـ ١٩٥٣ م؛ وطبعاتٌ أخرى.
- ٢٥ ـ أمالي المُرتضى (غررُ الفوائد ودررُ القلائد): للشَّريف المرتضى ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار إحياء الكتب العربيّة ـ القاهرة ـ 190٤ م.
- ٢٦ ـ الإمتاع والمؤانسة: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق أحمد أمين ورفيقَيْه ـ مطبعة لجنة التّأليف ـ مصر ـ ١٩٣٩ م ـ وطبعات أخرى.
 - ٢٧ ــ إنباءُ الغَمر: لابن حجر العَسْقلاني ــ طبعة مصوّرة ببيروت.
 - ٢٨ ـ الأنسابُ: للسَّمعاني ـ طبعات مختلفة.
- ٢٩ أيّامُ العربِ في الإسلام: لمحمد أحمد جاد المولى ورفيقَيْه طبعة مصورة عن طبعة مصر دون تاريخ.
- ٣٠ ـ أيّامُ العربِ في الجاهليّة: لمحمد أحمد جاد المولى ورفيقيّه ـ طبعة مصوّرة عن طبعة مصر ـ دون تاريخ.

- ٣١ ـ بدائعُ البَدائِهِ: لابن ظافر الأَزْديّ ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصريّة ـ ١٩٧٠ م.
- ٣٢ ـ البدايةُ والنّهايةُ: لابن كثير ـ دار الفكْر ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ 19٧٨ م. وطبعاتٌ أخرى متنوعة.
- ٣٣ ـ برنامجُ ابنِ جابر الوادي آشي ـ لابنِ جابر الوادي آشي ـ تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ مطبوعات مركز البحث العلميّ بجامعة أمّ القرى بمكة ـ ١٩٨١ م.
- ٣٤ ـ البصائرُ والذَّخائر: لأبي حيّان التّوحيدي ـ تحقيق د. وداد القاضي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١٤٠٨ هـ.
- ٣٥-بلاغاتُ النّساء: لابن طيفور الخراساني ـ طبعة القاهرة ـ ١٩٠٨ م ـ
 وطبعة مكتبة السُّندس بالكويت ـ ١٩٩٣ م .
- ٣٦-بلوغُ الأربِ: للآلوسي ـ تحقيق محمد بهجة الأثريّ ـ المطبعة الرّحمانية ـ القاهرة ـ ط ٢ ١٩٢٤ م.
- ٣٧ ـ بناتُ الصَّحابة: لأحمد بنِ خليل جُمعُةَ الحرستانيّ الدَّمشقيّ ـ دارُ اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ١٩٩٩ م.
- ٣٨ بهجة المجالِس وأنس المُجالس: لابن عبد البرّ تحقيق محمّد مرسي الخولي دار الكتب العلمية بيروت دون تاريخ.
- ٣٩ ـ البيانُ والتّبيين: لأبي عُثمان الجاحظ ـ تحقيق عبد السّلام هارون ـ مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر ـ القاهرة ـ ١٩٤٩ م.
- ٤٠ ـ تاجُ العروسِ من جواهرِ القاموس: للزَّبيدي ـ المطبعةُ الخيرية ـ مصر ـ
 ١٣٠٦ هـ. وطبعةُ دارِ الفكر ببيروت. وطبعة الكويت.

- ١٤ ـ تاريخُ آدابِ العربِ: لمصطفى صادق الرّافعيّ ـ طبعة مصر ـ وطبعةُ دار
 الكتاب العربيّ ببيروت.
- ٤٢ ـ تاريخُ الأدبِ العربيّ: لعمر فرّوخ ـ دار العلْمِ ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨١ م.
- 27 ـ تاريخُ الأُممِ والمُلوك (تاريخ الطَّبري) للطَّبري: دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٨٨ م ، وطبعة مصْرَ المحقّقة .
 - ٤٤ ـ تاريخُ بغداد: للخطيب البغداديّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.
- ٤٥ ـ تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء): لابن عساكر ـ تحقيق سكينة الشهابي ـ مصوّرة دار الفكر ـ دمشق.
- ٤٦ ـ تاريخ مكة: للأزرقي ـ المكتبةُ التّجارية ـ مكّة المكرمة ـ ط ١ ـ
 ١٤١٦ هـ.
- ٤٧ ـ تحفة العروس ومتعة النّفوس: للتّجاني ـ تحقيق جليل العطيّة ـ دار
 الرّيس ـ لندن وقبرص ـ ط ١ ـ ١٩٩٢ م.
 - ٤٨ ـ تذكرةُ الحفّاظ: للذَّهبيّ ـ طبعةُ مصوّرة بدارِ إحياءِ التّراث العربيّ.
- ٤٩ ـ التّذكرة الحمدونية: للحمدوني ـ تحقيق د. إحسان عبّاس وبكر عبّاس _ .
 دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م.
 - ٥ التّراتيبُ الإدارية: للكتّاني طبعة مصوّرة.
- ١٥ ـ تزيينُ الأُسُواق بتفصيل أشواق العشّاق: لداود الأنطاكي ـ تحقيق د.
 محمّد التونجي ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
- ٢٥ ـ تطوّرُ الغَزلِ بين الجاهليّةِ والإسلام: د. شكري فيصل ـ دار العِلْم للملايين ـ بيروت ـ ط ٥ ـ دون تاريخ.

- ٣٠ تغريدُ السّيرةِ النّبويةِ: لمحمد عايش عُبيد ـ دار التّراث ـ القاهرة ـ دون
 تاريخ أو رقم الطّبعة.
- ٤٥ ـ التَّقييد لمعرفة الرواة والشنن والمسانيد: لابن نقطة ـ دائرة المعارف العثمانية بالهند ـ ١٩٨٣ م.
- ه تهذیبُ الأسماءِ واللّغات: للنَّووي ـ دار الفكْرِ ـ بیروت ـ ط ۱ ـ ۱۹۹۲ م.
- ٥٦ ـ تهذیب تاریخ دمشق الکبیر لابن عساکر: هذّبه عبد القادر بدران ـ دار
 المسیرة ـ بیروت ـ ط ۲ ـ ۱۳۹۹ هـ.
- ٥٧ ـ تهذيبُ التَّهذيب: لابن حجر العَسْقَلاني ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ـ
 ١٩٩٥ م. وطبعةُ دار الكتاب الإسلاميّ بالقَاهرة.
- ٥٨ ـ ثمارُ القلوبِ في المُضاف والمنشوب: للثَّعالبي ـ تحقیق محمد أبو
 الفضل إبراهیم ـ دار نهضةِ مصر ـ ١٩٦٥ م.
- ٥٩ ـ ثمراتُ الأوراقِ بهامش المُستطرف: للحموي ـ طبعة دار الفكر
 المصورة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ٦٠ الجليسُ الصَّالح الكافي: للنَّهرواني ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ، ود. إحسان عباس ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٩٣ م.
- ٦١ جمهرة الأمثال: للعَسْكري ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط ١ ـ
 ١٩٨٨ م.
- ٦٢ جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي _ تحقيق عبد السلام
 هارون _ دار المعارف _ مصر _ ط ٥ _ دون تاريخ.
- ٦٣ ـ جهودُ المرأةِ في روايةِ الحديث: للدكتور صالح يوسُف معتوق ـ دارُ
 البشائر الإسلامية ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.

- ٦٤ ـ جوامعُ السّيرةِ النّبوية: لابن حزم ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ود. ناصر
 الدّين الأسد ـ دار المعارف ـ مصر ـ دون تاريخ.
- ٦٥ جواهِرُ الأدبِ في أدبيّات وإنشاء لغة العرب: للسّيّد أحمد الهاشميّ مؤسّسة المعارف بيروت لُبنان دون تاريخ.
- 77 _ الحَدائقُ الغنّاء في أخبارِ النّساء: لأبي الحَسَن المعافريّ المالقيّ ـ تحقيق د. عائدة الطّيبي _ الدّارُ العربيّة للكتاب _ ليبيا _ تُونُس _ ط ١ _ 19٧٨ م.
- ٦٧ حضارة العرب: لجوستاف لُوبون _ ترجمة عادل زعيتر _ مصر _ ط ٢ _
 ١٩٤٨ م.
- ٦٨ حلية الأولياء: لأبي نُعيم الأصبهاني ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ
 ط ٢ ـ ١٩٦٧ م.
- 79 _ الحماسةُ: لأبي تمّام _ تحقيق د. عبد الله عسيلان _ جامعة محمد بن سعود الإسلاميّة _ الرّياض _ وطبعة مصر _ المكتبة التّجارية .
 - ٧٠_الحماسةُ: للبُحتري_طبعة مصوّرة_بيروت_١٩٨٠ م.
- ٧١ ـ الحماسةُ البصريّة: لعلي بن أبي الفرج البصريّ ـ تحقيق د. عادل سُليمان جمال ـ القاهرة ـ ١٩٨٧ م.
- ٧٢ حياة الصحابة: للكاندهلوي _ بعناية نايف العبّاس ورفيقه _ دار القلَم _
 دمشق _ ط ٤ _ ١٩٨٦ م.
- ٧٣_الحيوانُ: للجاحظ _ تحقيق عبد السَّلام هارون _ القاهرة _ ط ٢ _ 1970 م.
- ٧٤ خريدة القصرِ وجريدة العَصْر (قسم شعراء مصر): للعمادِ الأصفهاني ـ طبعة تونس المحققة.

- ٧٠ خزانة الأدب: للبغدادي _ قدم له: د. محمد نبيل طريفي _ دار الكتب العلمية _ بيروت _ ط ١ ١٩٩٨ م. وطبعة بولاق _ ١٢٩٩ هـ.
 - ٧٦ خُطط الشَّام: لمحمد كُرد علي ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت ـ ١٩٦٩ م.
 - ٧٧ ـ الخنساء: لبنتِ الشَّاطيء ـ طبعة مصر ـ ١٩٥٧ م.
- ٧٨ ـ الخنساء شاعرة بني شليم: د. محمد جابر الحيني ـ سلسلة الأعلام ـ مصر.
- ٧٩ دائرة المعارف الإسلامية: نقلها إلى العربية _ إبراهيم خورشيد ورفيقيه
 كتاب الشعب مصر ١٩٣٣ م.
- ٨٠ الدّارسُ في تاريخِ المدارس: للنّعيمي _ تحقيق جعفر الحُسيني _
 منشورات المجمع العلميّ العربيّ _ دمشق _ ١٩٤٨ م.
- ٨١ الدّررُ الكامنةُ في أعيانِ المئةِ الثّامنة: لابن حجر العسقلاني ـ طبعة
 مصوّرة دون ذكْر التّاريخ أو اسم الدّار أو رقم الطّبْعة.
 - ٨٢ ـ اللُّر المنثور: لزينب فوّاز ـ طبعة مصوّرة ـ الكويت ـ دون تاريخ.
- ٨٣ ـ درّةُ الحجالِ في أسماءِ الرّجال: لابن القاضي ـ تحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور ـ دار التّراث بالقاهرة والمكتبة العتيقة بتونس ١٣٩١ هـ.
- ٨٤ الدّليلُ الشّافي على المنهلِ الصّافي: لابن تغري بردي ـ تحقيق فهيم
 محمد شلتوت ـ جامعة أمّ القرى ـ مكّة المكرمة ـ ١٩٧٥ م.
- ٨٥ ديوان أبي نُواس: لأبي نُواس ـ عدّة طبعات مختلفة آخرها طبعة دار
 صادر ـ بيروت.
 - ٨٦ ـ ديوانُ الأعشىٰ: للأعشى ـ طبعة مصوّرة ـ بيروت.

- ۸۷ دیوان امری القیس: لامری القیس ـ تحقیق محمد أبو الفَضْل
 إبراهیم ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ۲ ـ دون تاریخ و طبعات أخر.
- ٨٨ ديوانُ أميّة بنِ أبي الصّلت: لأميّة بن أبي الصّلت ـ جمع وتحقيق ودراسة د. عبد الحفيظ السَّطْلي ـ المطبعة التّعاونية ـ دمشق ـ ١٩٧٤ م.
- ٨٩ ديوانُ البُوصيري: للبُوصيري ـ تحقيق محمد سعيد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ١٣٧٤ هـ.
- ٩ ديوانُ جرير: لجرير بشرحِ محمد بن حبيب تحقيق د. نعمان محمد أمين طه دار المعارف مصر ط ٣ دون تاريخ.

٩ ٩ ـ ديوان حاتم الطَّائي وأخباره.

- ٩٢ ديوان حسّان بن ثابت: لحسّان _ تحقيق د. سيد حنفي حسين _ دار
 المعارف _ مصر _ ١٩٧٤ م _ وطبعة البرقوقي _ وطبعات أخر.
- 97_ديوان حمام: لمحمد مصطفى حمام_الهيئة المصرية العامّة للكتاب_ القاهرة _ ١٩٧٤م.
- ٩٤ ديوان الخِرنِق بنت بدر: للخِرنق ـ تحقيق د. حُسين نصار ـ مطبعة دار
 الكتبُ ـ مصر ـ ١٩٦٩ م ـ وطبعة دار صادر ببيروت.
- ٩٠ ـ ديوانُ الخنساء: للخنساء ـ تحقيق د. إبراهيم عوضَيْن ـ مصر ـ دون
 تاريخ ـ وطبعة دار الكتاب العربيّ ببيروت ـ وطبعات أخر.
- 97 ديوانُ دريد بن الصّمة: لدريد _ تحقيق د. عمر عبد الرّسول _ دار المعارف _ مصر _ دون تاريخ.
 - ٩٧ ـ ديوانُ طرفةَ بنِ العبد البكريّ : طبعة بيروت.

- ٩٨ ديوانُ عاتكة الخزرجي: د. عاتكة الخزرجي _ (المجموعة الشعرية الكاملة) _ الكويت _ ١٩٨٦ م.
- ٩٩ ديوانُ العَكَوّك (عليّ بن جَبَلة): للعكوك ـ جمعَه وحقّقه د. حسين عطوان ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط ٣ ـ دون تاريخ.
- ١٠٠ ديوان ليلى الأخيلية: لليلى الأخيلية عُني بجمعه وتحقيقه خليل
 العطية وجليل العطية دار الجمهورية بغداد ١٩٦٧ م.
 - ١٠١ ـ ديوانُ المتنبيّ : للمتنبي ـ طبعة البرقوقي وغيرها .
- ١٠٢ ـ ديوان مَجد الإسلام: لأحمد محرم ـ مكتبة الفلاح الكُويت ـ ط ١ ـ
 ١٤١٢ هـ.
- ١٠٣ ـ ديوانُ النَّابغةِ اللَّبياني: للنَّابغة ـ طبعةُ تونُس ـ ومصر ـ وطبعة بيروت
 ١٩٦٨ م.
- ١٠٤ الذَّخيرةُ: لابن بسّام دار الثّقافة بيروت طبعة مصوّرة عن طبعة تونُس وطبعة بيروت في أربعة أجزاء.
- ١٠٥ ــ ذمُّ الهوى: لابنِ الجوزي ـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ دار الكتبُ الحديثة ـ مصر ـ مطبعة السَّعادة ـ ١٩٦٢ م.
 - ١٠٦ ـ ذيلُ الأمالي والنّوادر: للقالي ـ المكتب التّجاري ـ بيروت.
- ۱۰۷ ـ الذّيل على الرّوضتين: لأبي شَامة ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ۲ ـ 19۷٤ م.
- ١٠٨ ـ الذَّيل على طبقات الحنابلة: لابن رجب الحنبلي ـ دار المعرفة ـ
 بيروت ـ دون تاريخ.

- ١٠٩ ـ الذُّيل على العِبَر: لأبي زرعة العراقيّ ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ
 ١٩٨٩ م.
- ١١٠ ـ ربيعُ الأبرار: للزّمخشري ـ تحقيق د. سليم النّعيمي ـ دار الذّخائر
 للمطبوعات ـ إيران ـ دون تاريخ.
- ١١١ ـ رجالٌ مبشّرون بالجنّة: لأحمد بن خليل جُمُعَة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٩ م.
- ١١٢ ـ الرّحلة الأنسيّة في الرّحلة القدسيّة: لعبد الغني النابلسيّ ـ تحقيق
 أكرم حَسَن العلبيّ ـ دار المصادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
- ١١٣ ـ رحلة ابن بطوطة: لابن بطوطة ـ تحقيق د. على الكتّاني ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٤ ـ ١٩٨٥ م.
- ١١٤ ـ رسائلُ الجاحِظِ: للجاحظِ ـ تحقيق عبد السَّلام محمَّد هارون ـ مكتبة
 الخانجي ـ القاهرة ـ دون تاريخ. وطبعة بيروت.
 - ١١٥ ـ رسالةُ الغُفْران: لأبي العلاء المعريّ ـ طبعة بيروت.
- 117 ـ الرّسالةُ المحمديّةُ: لعبد العزيز الثّعالبي ـ تحقيق د. صالح الخرقي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ١٩٩٧ م.
- ١١٧ ـ روضة العُقلاء ونزهة الفُضلاء: لأبي حاتم البُسْتي ـ مكتبة نزار الباز ـ
 مكّة المكرّمة ـ ط ١ ـ ١٩٩٦ م.
- 11۸ ـ الرّوضةُ الفيحاء في تواريخِ النّساء: لياسين العُمري ـ تحقيق د. رجاء محمود السَّامرائي ـ الدار العربيّة للموسوعات ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
- ١١٩ ـ روضةُ المحبيّن ونزهةُ المشتاقين: لابن قيّم الجوزية ـ دار ابن كثير ـ

- دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م ـ وطبعة بيروت ١٩٦٧ م ، وطبعات أخرى.
- ١٢٠ ـ زادَ المعاد: لابن قيّم الجوزيّة ـ تحقيق شُعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٦ ـ ١٩٨٤ م.
- ١٢١ ـ زهرُ الآدابِ وثمرُ الألباب: لأبي إسحاق الحصريّ القيروانيّ ـ تحقيق علي محمّد البجاوي ـ دار إحياء الكُتُب العربيّة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٥٣ م.
- ۱۲۲ ـ سُبُلُ الهدى والرّشاد في سيرةِ خيرِ العباد: للصَّالحي ـ تحقيق د. مصطفى عبد الواحد وآخرون ـ لجنة إحياء التراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ـ ١٩٩٣ م.
- ١٢٣ ـ سرحُ العيون في شَرِح رسالةِ ابنِ زيدون: لابن نُباتةَ المصريّ ـ تحقيق محمد أبو الفَضْل إبراهيم ـ منشورات المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٤٠٦ هـ.
- ١٢٤ ـ سلْكُ الدُّررِ في أعيانِ القرن الثَّاني عَشَر: لخليل المرادي ـ دار البشائر
 الإسلامية ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٤٠٨ هـ.
- ١٢٥ ـ السُّلوك في معرفة دولِ الملوك: للمقريزي ـ قام بنشرِه محمد مصطفى زيادة ـ مصر ـ ١٩٥٦ م. وطبعة دار الكُتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٧ م.
- 17٦ ـ سمُطُ اللآلي في شرح أمالي القالي: للبكري ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنَشْر ـ مصر ـ ١٣٥٤ هـ.
- ١٢٧ ـ سيرُ أعلامِ النّبلاء: للذّهبيّ ـ تحقيق ثلّة من العُلماء والأفاضل ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٥ م.

- ١٢٨ ـ السيرةُ الحلبيّة (إنسان العُيون): لبرهان الدِّين الحلبيّ ـ مطبعة البابي
 الحلبيّ ـ مصر ـ ط ١ ـ ١٩٦٤ م.
- 1۲۹ _ السّيرةُ النّبويّة: لابن هشام _ تحقيق السَّقا ورفاقه _ مطبعةُ البابي الحلبيّ _ مصر _ ط ٢ _ ١٩٥٥ م. وطبعةُ دار الخير بدمشق ، وطبعة دار ابن كثير.
- ١٣٠ ـ شاعراتُ العربِ: جمعُ وتحقيق عبد البديع صقر ـ المكتب الإسلاميّ ـ ١٣٠ ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٦٧ م.
 - 1٣١ _ شاعرُ الغَزلِ: لعبّاس محمود العقّاد _ المكتبة العصريّة _ صيدا.
- ۱۳۲ ـ شذراتُ الذّهبِ: لابن العماد الحنبليّ ـ تحقيق محمود الأرناؤوط ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ١ ـ ١٩٨٦ وما بعدها ـ وطبعة مصر .
- ۱۳۳ ـ شرحُ ديوانِ امرىءِ القيس وأخبارُ المراقسة والنّوابغ: جمعها حَسن السَّندوبي ـ دار إحياء العُلُوم ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٦ م.
- ١٣٤ ـ شرحُ ديوان المتنبي: للعكبري ـ تحقيق السَّقا والأبياري وشَلبي ـ القاهرة ـ ١٩٣٦. وغير ذلك من شُروح.
- ١٣٥ ـ شرحُ ديوان الهُذليين: للشُكريّ ـ تحقيق عبد السّتَّار أحمد فراج ومراجعة محمود محمّد شاكر ـ مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
- 177 _ شرحُ شواهدِ المُغني: للسّيوطي _ القاهرة _ ١٣٢٢ هـ _ وطبعة بيروت _ دون تاريخ.
 - ١٣٧ _ شرحُ المعلَّقات السَّبع: للزُّورني _ طبعاتٌ مختلفة.
- ۱۳۸ ـ شرحُ المعلّقات العشر وأخبارُ شعرائها: للشَّنقيطي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

- 1۳۹ ـ شرحُ مقامات الحريريّ: للشّريشي ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ تصوير المكتبة العصريّة ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م. وطبعة دار الكتبُ العلميّة المصوّرة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.
- ١٤٠ ـ الشّعر والشّعراء: لابن قُتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دارُ
 المعارف ـ مصر ـ ١٩٦٦ م.
- ١٤١ ـ شعراء إسلاميّون : لنُوري حمودي القيسيّ ـ عالَم الكتب ـ بيروت ـ دون تاريخ .
- ١٤٢ ـشفاءُ الغرامِ: للفاسي ـ تحقيق د. عمر تدمريّ ـ دار الكِتاب العربيّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٥ م.
 - ١٤٣ ـ الشَّكر للهِ عزَّ وجلَّ: لابن أبي الدُّنيا ـ دار ابن كثير ـ دمشق.
- 188 شمامةُ العَنْبر والزَّهر المُعَنْبر: لمحمد بن مصطفى الغلاميّ المجمع العلميّ العراق ١٩٧٧ م.
- 120 ـ صبحُ الأعشى: للقلقشندي ـ طبعة وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ ـ مصر.
- 187 ـ صحيحُ ابن حبّان: بعنايةِ كمال الحوت ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت _ ط ١ ـ ١٩٨٧ م.
- ١٤٧ ـ صفةُ الصّفوة: لابن الجوزيّ ـ تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس قلعجي ـ دار المعرفة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٩ م.
- ١٤٨ ــ الصِّلةُ: لابن بشكوال ـ مصر _ ١٩٦٦ م. وطبعة الخانجيّ ١٩٩٤ م.
- ١٤٩ ـ صيدُ الخاطِرِ: لابن الجوزيّ ـ تحقيق يوسُف بديوي ـ دار اليمامة ـ دمشق ط ١ ـ ١٩٩٩ م.

- ١٥٠ ـ الضّوءُ اللامع: للسَّخاوي ـ مكتبة القدسيّ ـ القاهرة ـ ١٣٥٣ م.
 - ١٥١ ـ طبقاتُ الشُّعراء: لابن المعتز ـ مصر.
- ١٥٢ ـ طبقاتُ فحولِ الشّعراء: لابن سلام الجمحيّ ـ قَرأَهُ وشرحه محمود محمّد شاكر ـ مطبعة المدنيّ ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
- ۱۵۳ ـ الطَّبقاتُ الكبرى: لابن سعد ـ تحقيق إحسان عباس ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ .
- 104 ـ الطَّفْلُ في ضَوءِ القُرآنِ والسُّنَّةِ والأدبِ: لأحمد بن خليل جُمُعَة الحرستانيّ الدِّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ١٤٢١ هـ.
- ١٥٥ ـ العبرُ في خَبر مَنْ غبر: للذهبيّ ـ تحقيق محمّد زغلول ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٨٥ م.
- ١٥٦ ـ العقدُ الثّمين في تاريخِ البلدِ الأمين: للفاسي ـ تحقيق فؤاد سيّد ـ القاهرة ـ ١٣٥٨ هـ.
- ۱۵۷ _ العِقْدُ الفريد: لابن عبد ربّه _ تحقيق أحمد أمين ورفاقه _ لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر _ القاهرة _ ط ٢ _ ١٩٦٢ م وطبعة محمّد سعيد العريان ١٩٤٩ م.
 - ١٥٨ ـ العمدةُ: لابن رشيق ـ عدّة طبَعات.
- 109 ـعناية النساء بالحديث النبوي: لمشهور آل سلمان ـ دار ابن عفان ـ الخُبر ـ ط ٢ ـ ١٩٩٧ م.
- ۱٦٠ ـ عيونُ الأثر: لابن سيّد النّاس ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ٣ ـ ١٩٨٢ م.
- ١٦١ ـ عيونُ الأخبار: لابن قُتيبة ـ مصوّرة عن دار الكتُب ـ مصر ـ ١٩٦٣ م.

- 177 ـ الغَزَلُ عند العرب: لجان فاديه ـ ترجمة د. إبراهيم كيلاني ـ منشورات وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ط ٢ _ ١٩٨٥ م.
- 177 ـ الغزلُ في الشِّعر الجاهليّ: د. أحمد الحوفي ـ دار القلم ـ بيروت دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبْعة.
- - ١٦٥ ـ فجرُ الإسلام: لأحمد أمين ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت.
- ١٦٦ ـ الفرجُ بعد الشَّدَّة: للتَّنوخي ـ تحقيق عبود الشَّالجي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٨ م.
- ١٦٧ ـ فرسانٌ منَ التَّاريخ: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ٢٠٠٠.
- ١٦٨ ـ فرسانٌ من عَضر النّبوة: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدّمشقيّ
 دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١ ١٩٩٩ م.
- ١٦٩ ـ فقه اللغة وسرُّ العربيّة: للثّعالبيّ ـ تحقيق مصطفى السَّقا ـ القاهرة ـ
 ١٣٥٧ هـ ـ وطبعاتُ أخرى.
- ١٧٠ ـ فواتُ الوفيات: لابن شاكرِ الكتبيّ ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد
 ـ مكتبة النّهضةِ المصريّةِ ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.
- ۱۷۱ ـ في أصولِ تاريخِ العربِ الإسلاميّ: لمحمد شُرّاب ـ دار القلم ـ دمشق ـ ط ۱ ـ ۱۹۹۳ م.
- ١٧٢ ـ القاموسُ المحُيط: للفيروز أبادي ـ مؤسسةُ الرّسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ
 ١٩٨٧ م.

- 1۷۳ ـ قصصُ العربِ: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه ـ مطبعة البابيّ الحلبيّ ـ القاهرة ـ ١٩٥٦ م.
- 1۷٤ ـ قطوفُ الرّيحان من زَهْر الأفنانِ شرح حديقة ابن الونّان: لأحمد السّلاوي ـ دار روضة الصّغير ـ الرّياض ـ ط ١ ـ ١٩٩٣ م.
 - ١٧٥ ـ الكاملُ في التَّاريخ: لابن الأثير ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- 1۷٦ ـ الكاملُ في اللغةِ والأدب: للمبرّد ـ تحقيق محمد أحمد الدّالي ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٨٦ م. وطبعة مصر.
 - ١٧٧ ـ كتابُ ألف باء: للبلوي ـ مصوّرة عالَم الكتب ـ بيروت.
- ۱۷۸ ـ كتابُ منتخبات التَّواريخ لدمشق: للحصني ـ دار الآفاق الجديدة ـ
 بيروت ـ ط ١ ـ ١٣٩٩ هـ.
- ١٧٩ ـ الكشفُ والتَّنبيه على الوصفِ والتَّشبيه: لصلاح الدِّين الصّفدي ـ
 تحقيق: د. هلال ناجي ورفيقه ـ مجلّة الحكمة ـ بريطانيا ـ ط ١ ١٩٩٩ م.
- ١٨٠ _ كنزُ العمّال: لعلاء الدّين علي المتقي الهندي _ بعناية حيّاني والسّقا _
 مؤسّسة الرّسالة _ بيروت _ ط ٥ _ ١٩٨٥ م .
- ١٨١ ـ الكواكبُ السَّائرة في أعيانِ المئةِ العاشرة: للغزيّ ـ حقّقه جبرائيل جبّور ـ دار الفكر ـ بيروت ـ دون تاريخ .
 - ١٨٢ ـ لسانُ العرب: لابن منظور ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩٠ م.
- 1۸۳ _ لطفُ السَّمر وقطفُ الثَّمر: لنجم الدِّين الغزيّ _ حقّقه محمود الشّيخ _ منشورات وزارة الثّقافة _ دمشق _ ١٩٨١ م.
- ١٨٤ ـ المبسوطُ: لشمس الدّين السّرخسي ـ مطبعة السّعادة ـ مصر ـ ١٨٤
 ١٣٢٤ هـ ـ وطبعة مصوّرة ببيروت.

- 1۸٥ مجمعُ الأمثال: للميدانيّ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر ١٩٨٧ م. وطبعة أخرى بتحقيق محيي الدّين عبد الحميد مطبعة السُّنة المحمديّة القاهرة ١٩٥٥ م.
- ١٨٦ ـ مجمعُ الزّوائد ومنبعُ الفوائد: للهيثميّ ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ۱۸۷ ـ مُجمل اللغة: لابنِ فارس ـ حقّقه شهاب الدّين أبو عمرو ـ دار الفِكْر ـ ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
- ۱۸۸ ـ المحاسنُ والأضداد: لأبي عُثمان الجاحظ ـ تحقيق محمد سويد ـ دارُ إحياء العُلوم ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
- ۱۸۹ ـ المحاسنُ والمساوىء: للبيهقيّ ـ دار صادر ـ بيروت ـ ۱۹۲۰ م. وطبعة دار إحياء العُلوم ـ ۱۹۸۸ م.
- ١٩٠ ـ محاضراتُ الأدباء: للرّاغب الأصفهاني ـ دارُ مكتبة الحياة ـ بيروت ـ
 دون تاريخ.
- ۱۹۱ ــ المُحبّر: لابنِ حبيب ــ رواية السُّكري ــ صحَّحه الدَّكتورة إيلزه ليختن شتيتر ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ــ دون تاريخ .
 - ١٩٢ ـ مختار الصّحاح: للرّازي ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط٣ ـ ١٩٩٨ م.
- **١٩٣ ـ المختارُ من نوادرِ الأخبار**: للمقّريّ الأنباري ـ المكتبةُ العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٩٤ م.
- 198 _ مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: لابنِ منظور _ تحقيق جماعة من الأساتذة _ دار الفكر _ دمشق _ ط ١ _ ١٩٩٠ م.

- ١٩٥ ـ المختصر في أخبار البشر: لأبي الفداء ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ
 ١٣٢٥ هـ. وطبعة بيروت.
- ١٩٦ ـ المخصصُ: لابنِ سيئده (علي بن إسماعيل) طبعة مصر ، وطبعة دار
 الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ .
 - ١٩٧ ـ المدهشُ: لأبي الفرج بن الجوزيّ ـ دار الجيل ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ١٩٨ ـ مرآةُ الجنانِ وعبرةُ اليقظان: لليافعيّ ـ دار الكتاب الإسلاميّ ـ القاهرة _ ط ٢ ـ ١٩٩٣ م.
- 199 ـ المرأةُ العربيةُ في جاهليتها وإسلامها: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت ـ وطبعة مصر ـ ١٩٣٣ م.
 - ٠٠٠ ـ المرأة في التاريخ والشَّرائع: لمحمد جميل بيهم ـ بيروت ـ ١٩٢١م.
- ٢٠١ ـ المرأة في الشّعر الجاهليّ: للدكتور أحمد الحوفي ـ دار نهضة مصر ـ
 القاهرة ـ ط ٣ ـ ١٩٨٠ م.
- ٢٠٢ ـ المرأةُ في عالمي العربِ والإسلام: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١٩٧٨ م.
- ٢٠٣ ـ المرأة في القديم والحديث: لعمر رضا كحّالة ـ مؤسسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٧٨ م.
- ٢٠٤ ـ المرأةُ المُسلمة: لمحمد فريد وجدي ـ مطبعة التّرقّي ـ مصر ـ ١٩٠١ م.
- ٢٠٥ المردفاتُ من قريش: لأبي الحسن المدائني ـ ضمن نوادر
 المخطُوطات ـ مطبعة لجنة التّأليف والنّشر ـ مصر ـ ١٩٥١ م.
- ٢٠٦ مروجُ الذَّهب ومعادنُ الجوهر: للمسعودي تحقيق محيي الدين عبد
 الحميد دار المعرفة بيروت دون تاريخ.

- ۲۰۷ ـ المُستجادُ من فعلاتِ الأجواد: للتنوخي ـ تحقيق محمّد كُرد علي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ۱۹۹۲ م. مصوّرة عن طبعة المجمعِ العلمي العربيّ بدمشق ۱۹٤٦ م.
- ٢٠٨ ـ المُستطرفُ في كل فَن مستظرف: للأبشيهي ـ دار الفكر ـ طبعة مصورة عن طبعة مصر ١٣٠٨ هـ ، وطبعة دار صادر المحققة .
- ٢٠٩ مشيخة ابن الجوزي: تحقيق محمد محفوظ ـ الشركة التونسية للتوزيع ـ ١٩٧٧ م.
- ۲۱۰ مصارعُ العشّاق: لجعفر بن أحمد السَّراج القارىء ـ دار صادر ـ
 بیروت ـ ۱۹۵۸ م.
 - ٢١١ ـ المصباحُ المنير: للفيومي ـ طبعةٌ مصوّرة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ٢١٢ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع: لملا على القاري ـ تحقيق
 عبد الفتاح أبو غدة ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٧٨ م.
 - ٢١٣ ـ المصون في الأدب: للعسكري. طبعة مصر.
- ۲۱۶_المعارف: لابن قُتيبة _ تحقيق د. ثروت عكاشة _ دار المعارف _ مصر _ ط ۲ _ ۱۹۷۷ م.
- ٢١٥ ـ المعاني الكبيرة في أبياتِ المعاني: لابن قُتيبة ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٨٤ م.
- ٢١٦ ـ معاهدُ التنصيص على شواهدِ التلخيص: لعبد الرحيم العبّاسي ـ تحقيق محمد محيي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة التّجارية الكُبرى ـ مصر ـ ١٩٤٧ م.
 - ٢١٧ _ معجمُ الأدباء: لياقوت الحمويّ _ دار المأمون _ القاهرة _ ١٩٣٦ م.

- ٢١٨ ـ معجمُ الأديباتِ الشَّواعر: للسمّان الحمويّ ـ تحقيق أحمد يُوسف الدقاق ـ دار الثَّقافة العربيةِ ـ دمشق ـ ط ١ ١٩٩٦ م.
- ٢١٩ معجمُ البُلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياء التّراث العربي ـ بيروت
 ـ دون تاريخ.
- ۲۲۰ معجمُ الشُّعراء: للمرزباني ـ دار الجيل ـ بيروت ـ ط ۱ ـ ۱۹۹۱ م
 وطبعة مصر.
- ٢٢١ معجمُ الشّيوخ (المعجم المختص بالمحدثين): للذّهبي _ تحقيق د.
 محمد الحبيب الهيلة _ مكتبة السّعودية _ الطّائف _ ١٩٨٨ م.
- ۲۲۲ معجمُ ما استعجم: للبكري الأندلسيّ تحقيق مصطفى السّقا عالَم الكتب بيروت ط ٣ ١٩٨٣ م. مصورة عن طبعة القاهرة
 ١٩٤٥ م.
- ٢٢٣ معجمُ المقاييس في اللغةِ: لابن فارس ـ تحقيق شهاب الدين أبو
 عمرو ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٩٩٨ م.
 - ٢٢٤ ـ المعجمُ الوسيط: أخرجه د. إبراهيم مُصطفى ورفاقه ـ طبعة تركيّة.
- ٢٢٥ المعرفة والتاريخ: للبسوي ـ تحقيق د. أكرم العمري ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ ط ١٩٨٤ م.
- ۲۲٦ ـ المغازي: للواقدي ـ تحقيق د. مارسدن جونس ـ عالَم الكتُب ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ٢٢٧ ـ المغني: لابنِ قدامة ـ بعناية جماعة منَ العُلماء ـ دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ـ ١٩٧٢ م.
- ۲۲۸ ـ المفصّلُ في تاريخِ العربِ قبل الإسلام: لجواد علي ـ مصر ـ ط ۲ ـ
 ۱٤۱۳ هـ.

- ۲۲۹ ـ المفضّليّات: للمفضّل الضّبي ـ تحقيق عبد السَّلام هارون وأحمد
 محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر _ ۱۹۸۳ م.
- ۲۳۰ المقاصدُ الحسنة: للسَّخاوي دار الكتبُ العلمية بيروت ۱۹۷۹ م.
- ۲۳۱ ـ المقاصدُ السَّنية في الأحاديث الإلهية: لابن بلبان ـ تحقيق محمد الخطراوي ورفيقه ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ۲ ـ ۱۹۹۷ م.
 - ۲۳۲ _ مقدمة ابن خلدون: الابن خلدون _ طبعات مختلفة.
 - ٢٣٣ _ مقدمة أبن الصّلاح: لابن الصّلاح _ مكتبة المتنبي _ القاهرة.
- ٢٣٤ ـ ملء العيبةِ بما جمعَ بطولِ الغيبة: لابن رشَيْد ـ تحقيق د. محمد الحبيب الهيلة ـ دار الغرب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ١٩٨٨ م.
- ٢٣٥ ملحقُ البدرِ الطَّالع ، مطبوع مع البدرِ الطَّالع: لابن زبارة ـ دار
 المعرفة ـ بيروت .
- ٢٣٦ ـ الممتعُ في صنعةِ الشّعر: لعبد الكريم النّهْشَليّ القيروانيّ ـ تحقيق د.
 محمد زغلول سلام ـ منشأةُ المعارف ـ الإسكندريّة ـ دون تاريخ.
- ٢٣٧ ـ المنازلُ والدّيار: لأسامة بنِ منقذ ـ تحقيق مُصطفى حجازي ـ لجنة إحياء التّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٩٤ م. وطبعة المكتب الإسلاميّ ـ دمشق ـ ١٣٨٥ هـ.
- ٢٣٨ ـ منتخباتُ التّواريخِ لدمشق: لمحمد الحصني ـ منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط ١ ١٣٩٩ هـ.
- ٢٣٩ ـ المنهلُ الصَّافي والمستوفي بعد الوافي: لابن تُغري بردي ـ تحقيق ثلّة من العُلماء ـ الهيئةُ المصريّة العامّة للكتاب ـ ١٩٨٤ م.

- ٢٤٠ ـ المواعظُ والاعتبار بذكر الخُطَط والآثار: للمقريزي ـ طبعة الحلبي
 وشركاه ـ القاهرة ـ وطبعةُ بيروت.
- ٢٤١ ـ المواهبُ اللدنية: للقَسْطلاني ـ تحقيق صالح أحمد الشّامي ـ المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٩٩١ م.
- ٢٤٢ ـ موسوعةُ التَّاريخ الإسلامي: لأحمد شلبي ـ القاهرة ـ ط٧ ـ ١٩٨٤ م.
 - ٢٤٣ ـ موسوعة الشّعر العربي: العَصْر الجاهليّ ـ طبعة بيروت.
- ٢٤٤ ـ الموشّعُ: للمرزباني ـ تحقيق محمد حسين شمس الدين ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤١٥ هـ. وطبعة مصر ـ ١٩٦٥ م.
 - ٧٤٥ ـ الموشى: لأبي الطّيب الوشّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.
- ٢٤٦ ـ الموضوعاتُ: لابن الجوزي ـ تحقيق عبد الرّحمن محمد عثمان ـ المدينة المنورة ـ ١٩٦٦ م.
- ٢٤٧ ـ الموطّأ: للإمامِ مالك ـ صحَّحه ورقّمه محمد فؤاد عبد الباقي ـ دار إحياء الكتبُ العربيّة ـ القاهرة.
 - ٢٤٨ ـ ميزانُ الاعتدالِ: للذَّهبي ـ دارُ المعرفة ـ بيروت ـ ١٩٦٣ م.
- ٢٤٩ ـ النّجومُ الزَّاهرة: لابنِ تغري بردي ـ طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الكتُبِ المصريّة.
- ٢٥٠ ـ نزهة الجُلسَاء في أشعار النّساء: للسّيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدّين
 المنجّد ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م. وطبعة مصر مكتبة التّراث الإسلامي.
- ٢٥١ ـ نساء أَهْلِ البيت: لأحمد خليل جُمُعَة الحرسْتَانيّ الدّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٤ ١٤٢٠ هـ.

- ٢٥٢ ـ نساءٌ مبشراتٌ بالجنّة: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرسْتَاني الدّمشقيّ ـ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٤ ـ ١٩٩٨ م.
- ٢٥٣ ـ نساءٌ من الأندلس: لأحمد بن خليل جُمعة الحرستاني الدمشقي ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ١٤٢١ هـ.
- ٢٥٤ ـ نساءٌ من التَّاريخ: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستانيّ الدَّمشقيّ ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط ٢ ١٩٩٩ م.
- ٢٥٥ ـ نساءٌ من عَصْر التّابعين: لأحمد بن خليل جُمُعة الحرستاني الدّمشقي ـ
 دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ١٩٩٨ م.
- ٢٥٦ ـ نساءٌ من عَصْر النّبوة: الأحمد بن خليل جُمُعة الحرستاني الدمشقي ـ
 دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط ٣ ـ ٢٠٠٠.
- ۲۰۷ ـ نَسَبُ قُریش: لمصْعَب الزّبیري ـ تحقیق لیفي بروفنسال ـ دار المعارف ـ مصر ـ ۱۹۵۳ م.
- ٢٥٨ ـ نفحُ الطّيب من غُصْنِ الأندلس الرّطيب: للمقري ـ حققه يوسُف الشّيخ محمد البقاعي ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٨٦ م.
 - ٢٥٩ ـ النَّقائض: لأبي عُبيدة معمر بن المثنّى ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.
 - · ٢٦ ـ نقدُ الشّعر: لقدامةَ بن جعفر ـ طبعة مصوّرة بدار الكتب العلمية.
 - ٢٦١ ـ نهايةُ الأرب: للنّويري ـ طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب بمصر.
- ٢٦٢ ـ نهاية الأربِ في معرفة أنساب العرب: للقلقشندي ـ طبعة مصوّرة ببيروت.
- ٢٦٣ ـ نوادرُ الخلفاءِ المسمّى (إعلام الناس بما وقع للبرامكةِ مع بني العبّاس): لمحمد بن دياب الأتليديّ ـ تحقيق أيمن البُحيري ـ دار

- الآفاق العربيّة ـ القاهرة ـ ط ١ ـ ١٩٩٨ م. وطبعة دار صادر ببيروت.
- ٢٦٤ ـ نوادرُ المخطوطاتِ: تحقيق عبد السّلام هارون ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٧٢ م.
- ٢٦٥ ـ نورُ الأبصار: لمؤمن الشَّبلنجي ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ـ الطَّبعةُ الأخيرة ـ ١٩٤٨ م.
- ٢٦٦ ـ نورُ الطَّرفِ ونورُ الظَّرف: للحصريّ ـ تحقيق لينة أبو صالح ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط ١ ١٩٩٦ م.
 - ٢٦٧ ـ نيلُ الأوطار: للشُّوكاني ـ طبعاتٌ مختلفة.
- ٢٦٨ ـ هذهِ الشّجرةُ: لعبّاس محمود العقّاد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ
 ط ٣ ـ ١٩٧١ م.
- ٢٦٩ ـ الهفواتُ النَّادِرةُ: لأبي الحسن الصَّابي ـ تحقیق د. صالح الأشتر ـ
 دمشق ـ ١٩٦٧ م.
- ۲۷۰ الوافي بالوفيات: لصلاح الدين الصَّفدي ـ جمعية المستشرقين
 الألمانيين ـ مطابع مختلفة ـ (۱۹۳۱ ـ ۱۹۸۶ م).
- ۲۷۱ ـ الوزراء والكتاب: للجهشياري ـ تحقيق مصطفى السقا ـ ورفاقه ـ القاهرة ـ ۱۹۳۸ م.
- ٢٧٢ _ الوسيطُ في الأمثالِ: للواحديّ _ تحقيق عفيف عبد الرحمن _ مؤسّسة دار الكتُب الثّقافية _ الكويت _ ط ١ .
- ۲۷۳ ـ الوفاً بأحوالِ المُصطفى: لابن الجوزي ـ تحقيق مصطفى عطا ـ دار
 الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط ١ ـ ١٤٠٨ هـ.
- ٢٧٤ ـ وفاء الوفا: للسمهوري ـ تحقيق محيي الدين عبد الحميد ـ دار إحياء
 التراث العربي ـ ط ٤ ـ ١٩٨٤ م.

- ۲۷۰ ـ وفياتُ الأعيَان: لابن خلّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ
 بيروت ـ ۱۹٦٨ م.
- ٢٧٦ ـ الوفياتُ: لابن رافع السُّلامي ـ تحقيق صالح مهدي عبّاس ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ١٩٨٢ م.
- ۲۷۷ ـ وقعة صفين: لنصر بنِ مزاحم المنقري ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ
 دار الجيل ـ بيروت ـ ۱۹۹۰ م.
- ٢٧٨ ـ يتيمةُ الدَّهر في محاسنِ أهلِ العصر: للثَّعالبي ـ تحقيق محيي الدِّين
 عبد الحميد ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ ١٩٥٦ م.

ومصادر ومراجعُ ودواوينُ كثيرة جدّاً.

* * *



فهرس الموضوعات

المقدمة وعرض الكتاب
الباب الأول: نساء من العصر الجاهلي
بهيسة بنت أوس الطائية
المرأة والزوج الكفء ٢٣
مشورة وذكاء فشورة وذكاء
ادعي لي بهيسة
بهيسة العاقلة المنجبة
عفيرة بنت عباد
المرأة والعفة ٤٥
ملك طسم الظالم
عفيرة تحرض قومها ليقتلوا عمليقاً ومها ليقتلوا عمليقاً
عنبة بنت عفیف
المرأة والسخاء المرأة والسخاء
لا أمنع سائلًا ما حييت ٧٢
عنبة وابنها حاتم ٥٧
ماویة بنت عفزر
من نساء الكرماء

ماوية وحاتم
حدثيني ببعض عجائب حاتم ۸۷ عجائب
طلقي حاتماً ۸۹ ملقي حاتماً
المتجردة امرأة النعمان
المرأة الجميلة ١٩٩
مع غزل الشعراء ١٠١
جمال المرأة عند شعراء الجاهلية ١٠٣
هل من علاقة بين المتجردة والنابغة
المتجردة وقصص مكذوبة١٣٢
هل ذكرت المتجردة في شعر النابغة؟
المتجردة ووقفة تصحيح١٥١
آراء مضطربة حول المتجردة١٥٩
آراء مضطربة حول المتجردة ١٥٩ الباب الثاني: نساء من عجر المخضرمين ١٦٧
الباب الثاني: نساء من عصر المخضرمين
الباب الثاني: نساء من عصر المخضرمين ١٦٧ الخنساء بنت عمرو ١٦٨
الباب الثاني: نساء من عجر المخضرمين ١٦٧ الخنساء بنت عمرو ١٦٨ أميرة شاعرات عصرها ١٦٩ الخنساء وجمالها الساحر ١٧١
الباب الثاني: نساء من عصر المخضرمين ١٦٧
الباب الثاني: نساء من عجر المخضرمين
الباب الثاني: نساء من عجر المخضرمين
الباب الثاني: نساء من عجر المخضرمين ١٦٨ الخنساء بنت عمرو ١٦٩ أميرة شاعرات عصرها ١٦٩ الخنساء وجمالها الساحر ١٧١ الخنساء وخطبة دريد بن الصمة ١٧٨ في رحاب الزواج ١٨٨ الخنساء وابنتها عمرة ١٨٨

مع الخنساء في وصية أبنائها ٢١٩
أثارة من نثرها وشعرها ٢٢٥
الخنساء في ميزان الأدباء والشعراء ٢٣٥
سفانة بنت حاتم
في عداد الصحابيات السخيات
من أخبار سفانة وجودها
سفانة والإسلام
سفانة وابن حاتم ۲٦٨
الفارعة بنت أبي الصلت
المرأة العاقلة ٢٧٦
الفارعة والصحبة النبوية
صور من حياة الفارعة٠٠٠ ٢٨٦
مند بنت أثاثة
من الرعيل الأول
هند في غزوة أحد ۲۹۱
هند والرثاء ۲۹۳
هند في أفواج المجاهدات٠٠٠ ٣٠٢
الباب الثالث: نساء من العصر الإسلامي
تقية بنت غيث الصورية الصورية
ست النعم
باقات من أخبارها ۴۰۸ ۴۰۸ ۴۰۸
من لطائفها الأدبية ٢١٠ المناففها الأدبية
تقية تمدح الحافظ السلفي

علمي بهذا كعلمي بهذا
من الفاضلات المحسنات الخالدات ٣١٧
زينب بنت أحمد المقدسية ٢٢٥
المرأة الصالحة العذراء ٢٢٢
زينب ومجالس العلم وشيوخه ٢٢٥ ٣٢٥
مكانتها وقدرها وأخلاقها ٢٩٩
أستاذة العلماء والعالمات ۳۳۰
المعمرة الدينة في سجل العظائم
زينب بنت محمد الغزي
من فضليات النساء
زينب والأسرة الكريمة
أثارة من معارفها ونظمها المعارفها ونظمها
ست الوزراء التنوخية ٢٤٥ ٣٤٥
الشجرة الطيبة
مسندة عصرها
ست الوزراء ورواية الحديث ۴۵۰ ۳۵۰
تلامذتها والمحدثون عنها ٢٥٣
ست الوزراء في سجل العلماء ٣٥٤
سعاد العذرية
من هذه المرأة؟
طلق سعاداً
ما تصلح إلا لأمير المؤمنين
اردد سعاد على حيران ٢٧١

شهدة بنت أحمد الإبري
فخر النساء
العالمة ابنة المحدث
المتعلمة الورعة
تصدرها للتدريس ٢٨٤
من أحاديث ومرويات شهدة ۴۸۸
آثارة من شعرها
ثناء العلماء والأكابر عليها ٣٩٣
الشيخة المعمرة
فاطمة بنت إبراهيم البطائحي
الخيرة أم الخير الخيرة أم الخير الخير المستمالة ال
أسرتها وأولادها
العالمة المتعلمة المسندة ٤٠٢
نموذج من مرویاتها ٤٠٥
مع المعمرات الخالدات
فاطمة بنت أحمد الحرازية ٤١٠
من أسرة علمية من أسرة علمية
التلميذة النجيبة
من أخبار فاطمة
وفاتها والثناء عليها
ت
الخطاطة الماهرة الخطاطة الماهرة الخطاطة الماهرة الماهرة الماهرة الماهرة الماهرة الماهرة الماهرة الم
الأدبية الناثرة الأدبية الناثرة الأدبية الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة الناثرة المستمالة ال

الشاعرة الحصيفة
الشاعرة الحصيفة
المحدثة الحافظة
فاطمة بنت سعد الخير
الشيخة الميمونة
نشأتها ومسموعاتها المناتها ومسموعاتها
زوجة الواعظ
حياتها العلمية وأثرها في العلماء ٤٤٦
فاطمة بنت سليمان الأنصارية ٤٤٩
من محدثات دمشق الشام الشام الشام
في رحاب الشيوخ والشيخات ٤٥٢
الشيخة المتفرغة للعلم ٤٥٣ ٤٥٣
من فضائلها ومآثرها وبرها ٤٥٤
فضة النوبية ٤٥٧
في بيت الزهراء
فضة ومرض الحسن والحسين ٤٦٠
وقفة أخيرة مع فضة ٤٧١
كريمة بنت أحمد المروزية ٤٧٥
العالمة الصالحة ٢٧٦
اهتمامها بالعلم وضبطه ۸۷۶
كريمة والآخذون عنها
هل رأى إنسان مثل كريمة
في ديوان العالمات المعمرات ٤٨٤

. ۲۸3		المتكلمة بالقرآن
٤٨٧		في رحاب الحق
٤٩٠.		حكاية المتكلمة بالقرآن
0.1		في الميزان
۳۰٥		وقفات لطيفة مع الاقتباس
٥٠٨		الباب الرابع: نساء من العصر الحديث
0 • 9	,	زينب بنت يوسف فواز
01.		من هذه المرأة؟
		نشأتها وشذرات من أخبارها
٥١٧		زينب والرحلة المصرية
		زينب وأديب والزواج
970		مؤلفات وأعمال زينب فواز
		زينب وفنون الشعر
		أميرة النثر والبيان
		وداعاً درة الشرق
		وداد بنت محمد سكاكيني
		الفتاة الأديبة
		وداد بين الشهرة والأدب
۲۸٥		وداد في مصر
		وداد سكاكيني والتأليف
		وداد والقصص
		وداد والروايات
	å.	وداد والمقالات والتراجم والسير

779	•		•														•							(ني	لف	وا	ي ٰ	؛ بر	^ر	11	ند	النة	وا	.اد	رد	,
777	•	•	•	•		•		•			•											4								د	دا	, و	لم	۽ ع	ناء	لث	١
137		•		•		•		•				•	•	•	•	•	•	•		•	•				•					ō	یر	الحج	11	لمة	>_	لر	١
724	.•.	•	•	•	•		•													•								• •		5	٠.	الث	ي	,ح	ن و	ىز	۵
720	•	•	•	•					•	•										•		•	•	•				ے	<u>ب</u>	را	۰,	والأ	ر (ساد	ىم	لہ	1
141	•	•		•			•					•	•	•				•	•		•				•			ات	ع	و	غ	ىوا	ال	ں	ر س	8	ۏ